

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية
ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية
بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدم له : معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن التركي
والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدلان
ونخبة من العلماء المتخصصين

المجلد الخامس عشر

من أول سورة النبأ إلى آخر سورة الناس


بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّبَأِ (٧٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة النبأ) هي السورة الثامنة والسبعون في ترتيب المصحف، وهي بداية الجزء الثلاثين، والسورة الثمانون في ترتيب النزول .

نزلت بعد (سورة المعارج) وقبل (سورة النازعات).

ولها خمسة أسماء أشهرها الأول، والثالث، فتسمَّى: سورة النبأ، وسورة عمَّ يتساءلون، وسورة عمَّ، وسورة التساؤل، وسورة المعصرات، وكل هذه الألفاظ ورَدَتْ فيها، وهي سورة مكية خالصة.

وعدد آياتها إحدى وأربعون آية في العدد المكي والبصري، وأربعون آية في غيرهما، وهي مئة وثلاث وسبعون كلمة، وتسع مئة وسبعون حرفًا.

موضوع السورة وفصولها الخمسة:

يدور محور السورة حول إثبات البعث الذي يجحده المكذبون، وتوبيخ من ينكر يوم القيامة، وتهديدهم بسوء المصير إن ظلوا على زعمهم. وتتكون السورة من خمسة فصول:

الفصل الأول: يبدأ بالإجابة على تساؤل المكذبين بالقرآن وباليوم الآخر، ويهددهم بسوء العقاب يوم لقاء الله، جزاء جحودهم وإنكارهم ، وذلك في الآيات الست الأول .

ثم تقيم آيات السورة تسعة أدلة على إمكانية البعث، تُبرِز قدرة الله تعالى في الإنسان والكون، وجاءت هذه الأدلة في عشر آيات تشمل خلق الأرض، والجبال، والإنسان، وكون النوم قَطْعًا للعمل، والليل راحةً للبدن، والنهار سعياً للمعاش، وخلْق السموات الشداد، والسراج الوهَّاج، ونزول المطر من السُحب لإخراج الحب والنبات والحدائق .

فهذه تسعة أدلة في عشر آيات، جاءت إجابة على التساؤل عن النبأ العظيم، وجاء التهديد به في ست آيات قبلها.

الفصل الثاني: وصفٌ موجزٌ ليوم الحساب وبداياته، بالنفخ في الصور، وانفراج السموات لنزول الملائكة ، وتسيير الجبال.

وجاء هذا في أربع آيات تلي الآيات الستة عشر السابقة.

الفصل الثالث: في وصف العقاب الذي ينتظر المجرمين يوم القيامة، وقد جاء ذكره في عشر آيات، من الآية العشرين إلى الآية الثلاثين، فجهنم ترصُد الطاغين، وهم يقيمون فيها أزمانًا غير متناهية ، طعامهم فيها الصديد ، وشرابهم فيها اللهيب ، لا يبْرُد حرُّ سعيرها ، وهذا العذاب جزاءً موافقاً لكفرهم باليوم الآخر، وتكذيبهم بآيات الله تعالى.

الفصل الرابع: في وصف النعيم الذي ينتظر المؤمنين الصالحين، وجاء ذلك في ست آيات بعد الآيات الثلاثين السابقة، فهم في بساتين، وفواكه وزوجات، وشراب غير ضار، وليس في الجنة لغو ولا كَذِب، ويُكال لهم فيها العطاء من الله تعالى حتى يكتفوا تمامًا، ويقول كل منهم: حسبي، حسبي.

الفصل الخامس: في وصف يوم القيامة وأهواله، فهو يوم لا يُسمح فيه لأحد بالكلام ولا بالشفاعة إلا بإذن الله تعالى، وأن يكون المشفوع له أهلًا للشفاعة.

ويوم القيامة يوم فظيع الأهوال، يتمنى فيه الكافر أن يكون مصيره كمصير البهائم حين تكون ترابًا بعد أن يُقْتصَّ لها ويُقتص منها، وقد جاء هذا في الآيات الخمس الأخيرة.

وهذا الجزء الأخير من القرآن يشتمل على سبع وثلاثين سورة، كلها مكية سوى سورتي: البينة، والنصر، وكلها تتميز بِقِصَرِ الآيات، وتُركِّز على النشأة الأولى للإنسان،وعلى مشاهد القيامة العنيفة فهي: الطامَّة، والصاخَّة، والغاشية، والقارعة، كما تركِّز على مشاهد الحساب والجزاء، والثواب والعقاب، وأهوال الساعة عند قيامها.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

اخْتِلافُ النَّاسِ فِي الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

١ - ٣- ﴿عَمَّ[(١)] يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ[(٢)] ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾.

عن أي شيء يسأل المكذبون بآيات الله وبالبعث والنشور بعضهم بعضًا؟ ثم بيّن سبحانه وتعالى ما يتساءلون عنه: إنهم يتساءلون عن الخبر العظيم الهائل الذي طال نزاعهم فيه، وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد، وهو أمر البعث الذي يختلفون في تصديقه وتكذيبه والشك فيه ، ويتساءلون أيضاً عن صدق رسالة محمد ﷺ فهم بين مصدق ومكذب، ويتساءلون عن القرآن الذى جاء به محمد ﷺ وفيه البعث والنشور والحساب والجزاء، وهو يوم لا يقبل الشك ولا يدخله ريب، ولكن المكذبين بلقاء الله تعالى لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت قريش تجلس لَمَّا نزل القرآن، فتتحدث فيما بينها، فمنهم المصدِّق، ومنهم المكذِّب به، فنزلت: عم يتساءلون.

وعن الحسن: لما بُعث النبي ﷺ جعلوا يتساءلون بينهم، فأنزل الله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

والمعنى: أن النبي ﷺ لما دعا الناس إلى التوحيد والرسالة ، وأخبرهم بالبعث بعد الموت ، وتلا عليهم القرآن - جعلوا يتساءلون فيما بينهم ، فيقول بعضهم لبعض: ماذا جاء به محمد ﷺ ويتجادلون ويختصمون فيما بُعث به[(٣)].

---

(١) وقف البزي ويعقوب على (عم) بهاء السكت، بخلف عنهما، وبقية القراء يقفون بميم مشددة مع الغنة وليست محلاً للوقف وإنما يكون هذا عند السؤال أوالإضطرار.

(٢) وقف حمزة وهشام بخلف عنه بإبدال الهمزة ألفًا من (النبأ) وبتسهيلها بالرَّوْم، وحققها باقى القراء ومعهم هشام فى وجهه الآخر.

(٣) «تفسير الطبري» (٣/١)، و«الدر المنثور» (٦/٣٠٥)، و«فتح القدير» (٥/٣٥٩).

ومن حق كل قوم إذا جاء إليهم مَن يدَّعي النبوة أن يتفحَّصُوا أقواله، وينظروا في دلائل صدقه، ثم يَحْكُموا له أو عليه، فإذا ثبت لديهم أنه صادق فيما يدَّعيه، فعليهم أن يطيعوه ويتبعوه.

ولقد جاء محمد ﷺ بالتوحيد الخالص، وأقام الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى أن كل من في السموات والأرض سيأتي ربه يوم القيامة عبدًا، لا استثناء لإنس ولا لجنٍّ ولا لملَك، وأن لقاء الله تعالى حتْم لمحاسبة كل مكلَّف على ما قدم، والمشركون يقرون بوجود الخالق سبحانه، ولكنهم لا يفردونه بالعبادة، ويتقربون إليه بالأوثان، ويعبدون آلهة شتى، ولا يؤمنون بالبعث والنشور.

فلما أخبرهم محمد ﷺ في بدء الدعوة أن هناك بعثًا وحسابًا وجزاءً، أنكروا هذا، وأخذوا يتساءلون فيما بينهم عن هذا الخبر الهائل، وهذا الخبر الهائل هو القرآن، وما اشتمل عليه من البعث والنشور الذي تدور حوله السورة.

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ عن أي شيء يسأل المنكرون الجاحدون، فيتجادلون ويتساءلون تهكُّمًا وسُخْرِيةً بما جاء به محمد ﷺ؟ وفي هذا تعجيب للسامعين من سؤالهم، إنهم يسألون: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾. وهو الخبر عظيم الشأن، الذي جاء به محمد ﷺ في القرآن الكريم، من بعث الناس بعد موتهم، فهو من أول ما أنبأ به محمد ﷺ.

وقد ذكر الله تعالى تكذيبهم له في مثل قوله سبحانه: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾[سبأ: ٧ – ٨].

وقال بعضهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾[النمل: ٦٧]. وهكذا ..

فالنبأ العظيم الذي اختلفوا فيه هو القرآن قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨] حيث قال تعالى قل هو نبأ عظيم أنتم عنة معرضون، قال بعضهم: إنه سحر، وقال آخرون: إنه شعر، وقال غيرهم: أساطير الأولين وهكذا.

ومما جاء به القرآن: البعث، فأنكره الكفار والملحدون والعلمانيون والشيوعيون

وغيرهم وآمن به المؤمنون:

واختلف أهل الكتاب فيه: فقالت اليهود يكون البعث بالجسد، وقالت النصارى: يكون البعث بالروح، وفيه نعيم للمطيعين وعذاب للعاصين.

وكان كفار العرب ينكرون البعث تمامًا، فيقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[المؤمنون: ٣٧].

وقال الدهريون: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[الجاثية: ٢٤].

والكفار في كل زمان ومكان ينكرونه، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

ومنهم من يشك فيه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[الجاثية: ٣٢].

أما المؤمنون فهم يزدادون يقيناً وثباتاً، ويصدقون بالبعث والحساب والثواب والعقاب.

وهذا التساؤل يزيد المؤمنين خشيةً واستعدادًا، ويزيد الكافرين إنكارًا واستهزاءً، ويزيد الشاكين مرضاً وارتياباً.

قال قتادة: هو البعث بعد الموت، صار الناس فيه رجلين: مصدقًا ومكذبًا، فأما الموت فأقروا به كلهم، لمعاينتهم إياه، واختلفوا في البعث بعد الموت[1].

التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ لِمُنْكِرِي الْبَعْثِ

٤، ٥- ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾

ثم توعَّد الله تعالى منكري البعث بأنهم سيلْقوْن عاقبة تكذيبهم، فهم سَيَرَوْن قريباً سوء عاقبة إنكارهم حين يروُا البعث أمرًا حقيقيًا، وهذا معنى ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما يزعم منكرو البعث والنشور، من أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، فلْيرتدعوا وينزجروا عما قالوه، فإنهم ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ إذا نزل العذاب بهم عاقبة تكذيبهم، ويَظْهَر لهم

---

(١) «تفسير الطبري» (٧/٢٤).

ما الله فاعل بهم يوم لقائه.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ ويقال لهم ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور: ١٣، ١٤].

ولم يبيّن الله تبارك وتعالى: هل علموا سوء عاقبتهم أم لا؟ ولكن دلائل القدرة الآتي ذكرها في الآيات التالية بمثابة إعلامهم فيما اختلفوا فيه.

والمعنى: إن كنتم مختلفين في إثبات البعث ونفيه فهذا دلائله، والعلم الحقيقي به سيكون بالمعاينة له كما جاء في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ٣ – ٧]، وهو يوم الفصل المنصوص عليه في سياق هذه الآيات.

وسوف يتأكد لهم أن محمدًا ﷺ صادق في كل ما بلّغه عن ربه -عزَّ وجلَّ- من القرآن والبعث والجنة والنار، وسيعلمون ما يحل بهم من العذاب والنكال ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج: ٦ – ٧]. فهم سيوقنون بوقوعه، ويعاقبون على إنكاره.

والفرق بين ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ الأولى والثانية، أن المراد بالأولى: العلم اليقيني بوقوع البعث، والمراد بالثانية: العلم اليقيني بالعقوبة على إنكار البعث.

ثم بيّن سبحانه أنّ من نعمه ما يدل على صدق ما أخبرت به الرسل:

تِسْعَةُ أَدِلَّةٍ كَوْنِيَّةٍ عَلَى إِمْكَانِيَّةِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٦- ٩- ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾

ثم أقام سبحانه لمنكري البعث تسعة من الأدلة الكونية على قدرة الله تعالى على إحياء الخلق بعد الموت، لإقامة الحجة عليهم بصدق الرسل فيما أخبروا به من البعث والحساب والجزاء، وللدلالة على أن القادر على هذه المخلوقات العظام، قادر على إحياء الناس بعد موتهم:

ومجمل هذه الأدلة هو: خلْق الأرض والجبال والناس، وجعْلُ النوم سباتًا، والليل

لباسًا، والنهار معاشًا، وخلْق السبع الشداد، والسراج الوهاج، وإنزال المطر من السحب.

فمَنْ قَدِر على خلْق ما ذُكر فهو من باب أولى قادر على البعث وإحياء الناس من قبورها.

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ تَذْلِيلُ الأَرْضِ لِلْبَشَرِ:

قال تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ أي: ألم نجعل لكم – أيها الناس - الأرض التي تسكنونها فراشًا وبساطًا؛ لتستقر عليها الأقدام، للمشي في مناكبها، والتقلُّب في أنحائها والاستقرار على ظهرها، والأكل من رزقه تعالى، والانتفاع بكنوزها وخيراتها، ولكي يسعى المرء ويتقلب فيها كما يتقلَّب الطفل في مهده، فالمهاد هو الفراش الممهد الموطأ للاستقرار عليه والتقلب فيه، وجعلها صالحة للحرث والزرع والمساكن والطُّرق.

وفي هذا امتنان من الله تعالى على خلقه وتذكير لهم بفضله عليهم؛ فالقادر على تذليل الأرض للناس قادر على إحيائهم بعد الموت.

الدَّلِيلُ الثَّانِي تَثْبِيتُ الْجِبَالِ لِلأَرْضِ :

قال تعالى :﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي: وجعلنا الجبال كالأوتاد للأرض؛ تُمسك بها حتى لا تتحرك وتميد بكم، كما يُثَبَّتُ البيت بالأعمدة الخرسانية، فمن يُمسك الماء على سطح الأرض، وهو أربعة أخماس الكرة الأرضية يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه.

والوتد: هو ما يُشدُّ به الشيء؛ حتى لا يتحرك أو يضطرب، وقد شُبهت الجبال بالأوتاد؛ لأنها تُمسك الأرض أن تميد، قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥]، وقال سبحانه:﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ [ق: ٧].

وفي الجبال: تسيل الأودية، ويستقر الماء في سفوحها، وترعى الأنعام، ويُختفَى فيها من العدو، ويُراقب منها الغازي وهكذا.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ أَصْنَافُ الْبَشَرِ:

قال تعالى :﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: وجعلناكم - أيها الناس- أصنافًا، ذكورًا وإناثًا من جنس واحد، ليسكن كل منكما إلى الآخر، فتكون المودة والرحمة، وتنشأ بينكما الذرية

لبقاء التناسل، وحفظ النوع الإنساني من الانقراض، وتنظيم أمر المعاش في الأرض؛ ليستمتع كل نوع بالآخر ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

والناس أزواج وأصناف كثيرة في اللون والصورة واللسان.

وقد جاء الاستدلال على البعث بخلْق الناس، بعد الاستدلال عليه بخلْق الأرض والجبال للجمع بين أن الله وحده هو الخالق، وهو المحيي المميت، وأنه تعالى قادر على إعادتهم للبعث والنشور، وفي هذا رد على من أنكر البعث من السابقين والمعاصرين واللاحقين، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٦ – ٦٧].

الدَّليلُ الرَّابعُ: نعمَةُ النَّومِ لإنهَاءِ التَّعَبِ والنَّصَبِ:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي: وجعلنا النوم قاطعًا لأشغالكم، وراحة لأبدانكم، تتخلّصون به من مشاق العمل في النهار، وذلك أنه بعد الاستدلال على البعث بخلْق الناس، يأتي الاستدلال عليه بأحوالهم، ومنها أن النوم يقطع الحركة، ويقطع التصرف في الأعمال، فينهي التعب ويزيله، وبذلك تحصل الراحة والسكون للبدن.

فالسبت هو القطع، ومنه أن اليهود ينقطعون عن العمل يوم السبت راحة لأبدانهم.

وهذا النوم نعمة من الله تعالى لأخذ قسط من الراحة، يستطيع المرء بعدها أن يستأنف عمله.

وهكذا عند القيام من النوم، فإنه يشبه إعادة الحياة إلى الإنسان بعد الموت، والنوم يأتي للإنسان قَسْرًا بدون اختياره؛ إذ لابد أن يغلبه النوم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧].

الدَّليلُ الخَامِسُ جَعْلُ اللهِ اللَّيْلِ رَاحَةً للأَبْدَانِ

١٠ - ١٢ - ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أي: وقد جعل الله لكم الليل مهيأً لتكييف النوم، معينًا عليه؛ لأنه ظُلْمة مزيلة لضوء الشمس، حيث تُحجَب الرؤيا، ويعسُر العمل.

والليل يستر الإنسان ويغشاه بظلامه كما يستره اللباس ويغشاه، وقد شبَّه الله الليل بالثياب التي تُلبس؛ لأنه سترٌ له عن العيون ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٧].

وهذه الآية جمعت بين معنى الآيات الثلاث من التاسعة إلى الحادية عشرة في هذه السورة.

والليلُ يُبعِد الإنسان من الأخطار والاعتداءات عادة، وكان العرب لا يُغير بعضهم على بعض في الليل، والنوم يقي الإنسان ويحفظه كما يقيه ثيابه.

ولا تقاس الكهرباء التي تضيء على الناس الظلمة، بضوء النهار، فالكهرباء لا تعم الأرض، ولا تضيء من نفسها، وإنما يتحكم فيها الإنسان كما يشاء، واستغلال الليل في العمل على ضوء الكهرباء ليس هو الأصل، بل هو أمر طارئ مخالف للسنن الكونية، إلا ما كان للضرورة كحفظ الأمن ونحوه.

وقد كان بعض المجوس من الثَّنوية والمانَوية والمزدكية، يُثْبتون أن للكون إلهين، إلهًا للظلمة، هو إله الشر، وإلهًا للنور هو إله الخير.

والله تعالى يمتنُّ على عباده بأن جعل الليل سكنًا لهم ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ [النمل: ٨٦]، ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٢].

فالليل كاللباس، يغشاكم ويستركم بظلامه، كما يغطي الثوب لابسه، فهو وقت الراحة والسكون والهدوء ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [القصص: ٧٣].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ [الأنعام: ٦٠].

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢].

الدَّليلُ السَّادِسُ: النَّهَارُ وَقْتُ الْعَمَلِ وَالنَّشَاطِ:

جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ وكما أن الله تعالى جعل الليل للنوم والراحة، فقد جعل النهار وقتًا للسعي والحركة والانتشار لقضاء المصالح وتحصيل الأرزاق، والابتغاء من فضل الله تعالى، فالنهار مشرق مضيء؛ ليتمكن الناس فيه من التصرف ومن الذهاب والمجيء ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

الدَّليلُ السَّابِعُ: السَّبْعُ الطِّبَاقُ:

قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أى وأوجدنا بقدرتنا فوقكم - أيها الناس - سبع سماوات قوية متينة، محكمة الخلق، ليس فيها صدوع ولا فطور، ولا يتطرق إليها شيء من التغيير على مر الأزمان، حتى يأتي أمر الله تعالى بقيام الساعة، والسماء كالسقف للأرض، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وقد أمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وجعلها سقفاً للأرض، وزينها بالنجوم، وجعلها رجوماً للشياطين.

قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

والكون في ازدياد، والسماء في اتساع: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فهي متينة الخلْق، قوية الأَجرام، لا يختل بناؤها ولا يتصدع على مر الأزمان.

ويجوز أن يراد بالسموات السبع: الكواكب السبعة المشهورة، وهي: زُحَل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر، وهذا ترتيبها بحسب ارتفاع بعضها فوق بعض، وخلْق السموات والأرض أعظم من خلق غيرهما:

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

الدَّليلُ الثَّامِنُ: كَوْكَبُ الشَّمْسِ

١٣ - ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾

أي: وخلقنا بقدرتنا في السماء سراجًا متوهجًا من شدة حرارته، كالمصباح في لمعانه وضيائه، وهو شمس منيرة ساطعة، يتوهج ضوؤها ويتوقد لأهل الأرض كلهم، وهي دائمة الحركة والتوقُّد، وقد نبه سبحانه بلفظ السراج على نعمة النور، وهو ضروري لحياة الناس، ونبه بلفظ الوهاج على شدة حرارتها وما في هذه الحرارة من منافع للناس.

فالسراج الوهاج: هو المصباح المتوقِّد شديد الإضاءة، وهو يضطرم ويلتهب من شدة لهبه وتلألؤه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥ – ١٦].

وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، وقال جلَّ شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

الدَّلِيلُ التَّاسِعُ: نِعْمَةُ الْمَاءِ

١٤ – ١٦ – ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

المعصرات: هي السحب قبل أن تُمطِر، والمعصرات أيضاً هي السحب الممتلئة بالماء، فهو ينهمر منها ويتدفق بشدة وقوة؛ وسميت كذلك لأن السحاب ينعصر فينزل منه الماء، وهذا معنى ﴿ثَجَّاجًا﴾ فهو الماء الكثير المتتابع المتصبب بقوة.

والعرب تقول: إذا جُعل السحاب ركاماً، جاء بالريح، عصَر بعضُه بعضًا، فيخرج الودْق منه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

فالمعنى: وأنزلنا من السحب التي حان وقت مطرها ماء متدفقًا منهمرًا بشدة وقوة.

وقد جاء هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق: ٩ – ١١].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥ – ٧].

وهذا الماء النازل من السحب بغزارة، يُخرج الله به حبًا ليقتات به الناس من سائر أنواع الزروع والثمار، والحشائش والعشْب، وكل ما هو غذاء للإنسان والحيوان ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ أي: بالمطر ﴿حَبًّا﴾ كالقمح والشعير، والذرة والأرز، وكل ما يقتات به الإنسان ﴿وَنَبَاتًا﴾ كالتبن والعشب والكلأ للدواب.

ونخرج به أيضًا الحدائق والبساتين كثيرة الأغصان، والأشجار والنخيل والأعناب، ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾، وهذه الجنات لِتشعُّبِ أغصانها يلْتَفُّ بعضها ببعض لتقارُبِ أشجارها وتشابكها، فكيف لا يستدل بهذه النعم على البعث والنشور؟ وكيف يستعان بنعم الله على معاصيه؟

وهذا الاستدلال على البعث بإنزال المطر على الأرض، حيث يُخرِج الله به سنابل الحبِّ كالقمح والذرة والأرز والفول وغير ذلك مما يأكله الإنسان، وأخرجنا به الشجر والكلأ، لحياة الإنسان والنبات لحياة الحيوان، ويحيي الله بهذا الماء الأرض بعد موتها، كذلك يحيي الله الخلق بعد موتهم.

فهذه تسعة أدلة مقْنِعة، مشاهدة محسوسة، لا يستطيع عاقل أن ينكر أنها دالة على قدرة الله تعالى، ومنها البعث والنشور.

تَغْيِيرُ مَعَالِمِ الْكَوْنِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

١٧، ١٨ - ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾

أَمَا وقد تهيَّأت النفوس للحديث عن القيامة، بعد ذكر أدلتها، فقد ذكر سبحانه فى هذة الأيات ثلاثاً من علامات الساعة الكبرى وأماراتها، وهى: النفخ فى الصور، وتشقق السماء، وتسيير الجبال، وسمَّاه يوم الفصل؛ لأنه اليوم الذي يُفصل فيه بين المحق والمبطل، والمحسن والمسيء ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ جعله الله وقتاً محددًا للفصل فيه بين الخلائق، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر.

والآية فيها إثبات لما تساءل عنه المنكرون، وما جحده المكذبون من البعث والجزاء، وفيها إثبات للقضاء بين الناس يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، وما ظلم فيه بعضهم بعضاً، وليس تأخُّر وقوعه دالاً على انتفاء حصوله، فهو واقع في وقته لا محالة ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:١٠٣ - ١٠٤].

١ـ ويبدأ قيام الساعة بالنفخ في الصور، حيث يأمر الله تعالى إسرافيل بالنفخ في البوق، فيخرج منه الصوت قويًا لنداء الناس للاجتماع في أرض المحشر ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ أي: تخرجون من قبوركم: مؤمنين وكافرين، طوائف وجماعات، وأحزابًا وفرقًا وزُمَرًا للحساب والجزاء، وهو يوم شديد الأهوال، يتم فيه الفصل والقضاء بين الخلائق بحكم الله العادل ، وفيما كان بينهم من مظالم في الدنيا .

وليس بوسع أحد أن يتخلف عن الحضور إلى أرض المحشر، مهما كان وأيًا كان، من الأمم أو الرسل وغيرهم: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] وهذه هي النفخة الثانية.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين النفختين أربعون، قال: أربعون يومًا؟ قال: أبيت، قال: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت قال: ثم يُنْزِلُ الله من السماء ماء فينبُتون كما ينبُت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا

يبلى، إلا عظماً واحداً، وهو عجبُ الذنَب، ومنه يركَّب الخلق يوم القيامة»[1].

١٩، ٢٠- ﴿وَفُتِحَتِ[2] ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾

وبعد النفخ في الصور يبدأ تغييرُ معالِم هذا الكون، لإعداده إلى حياة أخرى تختلف عن هذه الحياة، حيث تُبدَّل الأرض غير الأرض والسموات، فالسموات هي أكبر المخلوقات وأعظمها، وبَدْءُ التغيير يكون بها.

٢-﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ تشققت من كل جانب وصارت طرقاً ومسالك ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ كثيرة لنزول الملائكة، كالأبواب التي في الجدران، حيث تفتح في السماء أبواب لصعود الملائكة ونزولهم، فَفَتْحُ السماء: انشقاقها بنزول الملائكة من بعض السموات التي هي مقرُّهم، حيث ينزلون منها لتنفيذ أمر الجزاء الذي يقضي الله به بين العباد.

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

وإذا انفتحت السموات بعد أن كانت محكمة قوية، شديدة البنيان، اختل نظام العالم وتغيرت معالمه، والسماء هي أقوى ما في العالم العلوي بالنسبة للإنسان.

أما أقوى ما في الأرض فهي الجبال، الشُّم الرواسي،وهي الأوتاد الممسكة بالأرض؛ لئلَّا تميد بالناس في البحار والمحيطات، وهي أربعة أضعاف مساحة اليابسة.

٣- فإذا جاءت القيامة فإن هذه الجبال تُقلَع وتُزال عن أماكنها ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: نُسفت الجبال بعد أن كانت ثابتة، فكانت كالسراب، أي: أنها تُنقَل وتقلَع من مقارها، وهذا النقل يصحبه تفتيت لها، حتى تظهر للرائي كأنها سراب يشبه الماء في الصحراء، فتخفُّ جزئياتها حتى تكون في خفة الصوف المنفوش، أو الهباء المنثور ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ

---

(١) صحيح البخاري) برقم (٤٨١٤، ٤٩٣٥)، وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٥).

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف تاء (وفتحت) الأولى، على الأصل، والباقون بتشديدها للتكثير.

أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ – ١٠٧]، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

الحديث عن جهنم وصفاتها وعذاب أهلها

٢١ - ٢٣ - ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ [1] فِيهَآ أَحْقَابًا﴾.

وبعد النفخ في الصور، وجعل السماء طُرُقاً وفجاجاً، ونسف الجبال وتفتيتها، يتهيأ المقام للحديث عن الجنة والنار، ولأن السورة تخاطب منكري البعث.

لذا: فإن البدء بالحديث عن جهنم وصفاتها وعذاب أهلها هو الأنسب.

وجهنم: اسم لدار العذاب في الآخرة، وهي مهيَّأة ومعدة للكافرين، وهي ترصُدهم وتنتظر نزولهم فيها، وتتطلع إلى من يمر عليها من الكفار؛ لتلتقطهم إليها، وهي ترقبُهم فلا يستطيعون الهرب منها، كالحارس اليقظ الذي لا يتجاوزه أحد ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ ترصد أهل الكفر وتمنعهم من دخول الجنة، وهي تترقب أهلها وتطَّلع عليهم فتلتقطهم من حيث كانوا. وفي يوم القيامة توقد نار جهنم التي أرصدها الله وأعدها للطاغين وجعلها مثوى لهم ومآباً.

جاء في الحديث: «إن الصراط جسر يُنْصَبُ على متن جهنم، ثم يجوز عليه الناس، فناجٍ ومكدوس»[2].

وقال الحسن بن أبي الحسن: لا يدخل أحد الجنة حتى يجوز على متن جهنم، فمن كان عنده أسباب نجاة نجا، وإلا هلك[3].

وجهنم هي مرجع الطغاة والجبابرة، ومأواهم ومستقرهم في الآخرة، فقد أعدها الله ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ المتجاوزين حدود الله في الظلم والعدوان، وجعلها لهم ﴿مَـَٔابًا﴾ أي: مأوى ومنزلاً، يأوي إليها مَنْ سُئِل عن الشهادتين، ثم الصلاة، ثم الزكاة، ثم الصيام، ثم الحج، ثم العمرة، ثم المظالم، ثم النوافل، فإن لم يكن عنده رصيد من الإيمان والعمل

(١) قرأ حمزة وروح بغير ألف في (لابثين) صفة مشبهة، والباقون بإثبات الألف، اسم فاعل من لبث.
(٢، ٣) تفسير ابن عطية (٥/٤٢٥).

الصالح، وإجابة تامة لكل ما سبق، كان مصيره النار.

ثم إن أهل النار يقيمون فيها إقامة دائمة، لا يزولون عنها ولا يحولون، حيث يبقى العذاب سرمدًا، فهم ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ أي: مقيمين في جهنم ﴿أَحۡقَابٗا﴾ أزمنة متطاولة، لا نهاية لها، كما قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال أيضًا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

قال الحسن: إن الله تعالى لم يجعل لأهل النار مدة، بل قال سبحانه: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل حقب آخر، ثم آخر، إلى الأبد، فليس للأحقاب عدة إلا الخلود[1].

أي: ليس له أجل ينتهي إليه، كلما مضى حُقُبٌ دخل آخر.

قال بعض أهل العلم: الحقب، ثمانون سنة.

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا، ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا[2]. قال تعالى:

٢٤- ٢٦- ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا[3] ﴿٢٥﴾ جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾.

ومع هذه الأحقاب المتطاولة، فإن أهل جهنم لا يذوقون فيها برودة تُخفِّف عنهم حر النار، ولا شرابًا يسكِّن عطشهم فيها، وإذا أرادوا شيئًا يخفف عنهم حر النار - كالماء البارد، أو الهواء البارد، أو النسيم العليل، أو أي شيء آخر- فإنهم لا يجدون إلا ما هو أشد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾ أي: أن هذه البرودة لا

(١، ٢) تفسير الخازن (٤/٣٤٧).

(٣) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بتشديد السين من (وغسّاقًا) صيغة مبالغة، والباقون بتخفيفها، اسم مصدر.

يتذوقها أهل النار مجرد تذوق، ولا مجرد إحساس ولا شعور، وإذا أرادُوا شرابًا يُطفئ عطشهم، ويخفف عنهم حر النار، فليس أمامهم إلا الحميم والغسلين.

إنهم يُغاثون بأمرين جاء ذكرهما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾.

أحدهما: الحميم، وهو الماء الذي بلغ منتهى الحرارة يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء فيراق على أجسادهم.

وثانيهما: الغساق، وهو الصديد الذي يسيل من جروح أهل النار، فيسيل على مواضع الحروق فيهم، فيزيدهم ألماً وهو في غاية النتن وكراهة المذاق.

والحميم والغساق من جنس النار التي يعذّبون بها، وليس فيهما برد ينفع ولا شراب يَرْوِي ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وهذا العذاب في نار جهنم، جزاء عادلاً موافقًا لأعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا، فهو ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ ولا ذنب أكبر من الشرك، ولا عقوبة أعظم من النار، والله تعالى لم يظلمهم بإلقائهم في جهنم، وإنما كان هذا العقاب موافقاً لأعمالهم القبيحة فهم الذين ظلموا أنفسهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]. ثم ذكر سبحانه بعض أعمال أهل جهنم، التي استحقوا بها هذا الجزاء، فهم كانوا لا يؤمنون بالبعث، وكذبوا بآيات الله.

لِعَذَابِ أَهْلِ النَّارِ سَبَبَانِ

٢٧، ٢٨- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾

ثم بيَّن سبحانه أن ما أصاب الكفار من عذاب جهنم له سببان:

السبب الأول: هو إصرارهم على الكفر، بإنكار البعث، إلى نهاية أعمارهم، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: إنهم كانوا في الدنيا لا يخافون يوم الحساب، ولم يؤمنوا به، ولم يصدقوا بالثواب والعقاب، فلم يعملوا له، ولم

يستعدُّوا للقاء الله؛ ،أهملوا العمل للآخرة، لأنهم لم يكونوا معتقدين أن هناك دارًا يحاسب فيها العباد ويُجازوْن على أقوالهم وأعمالهم، فعاقبهم الله تعالى على هذا بحرمانهم في الآخرة من البرد والشراب.

وفُسِّر الرجاء بمعنى: الخوف؛ لأنه لا رجاء بدون خوف، ولا خوف بدون رجاء، وهؤلاء لا يرجون ولا يخافون.

والسبب الآخر: هو تكذيبهم للرسول ﷺ والوحي الذي جاء به من عند الله، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ أي: أن تكذيبهم لرسول الله ﷺ قد بلغ منتهاه، فكذَّبوا بما اشتملت عليه آيات الله تعالى من إثبات الوحدانية، وإثبات رسالة محمد ﷺ، وإثبات البعث والجزاء، بالجنة أو النار، تكذيباً واضحاً صريحاً، مع وجود البينات ودلائل التصديق فعاندوها ولم يؤمنوا بها، كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

قال تعالى:

٢٩، ٣٠-﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾

وكل ما فعله الكفار من جرائم صغيرة أو كبيرة في الدنيا أحصاه الله عليهم وسجله في اللوح المحفوظ، وهذا معنى ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ أى مما عملوه وقالوه قليلاً أو كثيراً ﴿أَحْصَيْنَـٰهُ﴾ أي: ضبطْناه ضبطًا محكمًا وأودعْناه ﴿كِتَـٰبًا﴾ محفوظًا ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾[طه: ٥٢] ولا يعزب شيء عن علمه تعالى مهما قل أو كثر.

١- كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

٢- وفي وصايا لقمان لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ﴾ [لقمان: ١٦].

٣- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

٤- وقوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩].

٥- وقوله جل شأنه: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: ٦].

٦- وقوله أيضاً: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ١٢].

٧-وقوله كذلك: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن: ٢٨].

٨-وقوله أيضًا: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨].

فلا يظن المجرمون أن الله تعالى معذبهم بذنوب لم يعملوها، ولا يظنون أن الله تعالى يُضيّع أو ينسى شيئاً من أعمالهم، فكلها محفوظة ومسجلة في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩].

ويقال لأهل النار يوم القيامة: ﴿فَذُوقُواْ﴾ أيها المكذبون سوء عاقبة كفركم وعنادكم، ذوقوا نار جهنم ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمۡ﴾ إذا استغثتم وطلبتم التخفيف ﴿إِلَّا عَذَابًا﴾ فوق عذابكم الذي أنتم فيه وهو عذاب دائم ومتجدد في كل وقت وحين.

وقد تكون هذه الزيادة بنوع آخر من أنواع العذاب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي برزة الأسلمي، وأبي هريرة ﷺ: أن هذه الآية أشد ما نزل في أهل النار؛ وذلك لأنهم كلما استغاثوا بنوع من العذاب أغيثوا بأشد منه فهم في مزيد من عذاب الله أبدًا[1].

وهي نهاية الحديث في هذه السورة عن أهل جهنم وعذابهم، أعاذنا الله منها ومن عذابها.

أَرْبَعَةُ ألوانٍ مِنْ نَعِيمِ الْمُتَّقِينَ فِي الْجَنَّةِ

٣١- ٣٤- ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ٣٣ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ٣٤﴾

---

(١) يُنظَر: تفسير الطبري (٣٦/٢٤)، وفتح الباري (٣٣٣/٦).

ثم يأتي الحديث عن نعيم المتقين الأخيار - جعلنا الله منهم - بعد ذكر عذاب أهل الطغيان والكفر، وإذا كان السبب في عذاب أهل النار، هو عدم الخوف من لقاء الله تعالى، وعدم الإيمان برسول الله ﷺ، فإن المتقين الذين آمنوا باليوم الآخر، واستعدوا بالعمل الصالح للقاء الله، وآمنوا بما جاء به رسول الله ﷺ ، واتقوا ما يُسخط ربهم، فتمسكوا بطاعته وتركوا معاصيه، هؤلاء هم الذين يَظْفَرون يوم القيامة بالنجاة من النار، والفوز بالجنة ونعيمها.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين صانوا أنفسهم عما لا يُرضي الله تعالى، وتقربوا له بأنواع الطاعات، لهم يوم القيامة ﴿مَفَازًا﴾ أي: فوزًا بدخول الجنة، والنجاة من النار، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ثم فصَّل سبحانه شيئًا من هذا النعيم الذي يفوز به المتقون، فذكر منه أربعة هي: الحدائق، والأعناب، والكواعب الأتراب، والكأس الدهاق، وسماع الطيِّب من القول.

النَّعِيمُ الأَوَّلُ : الْحَدَائِقُ وَالْبَسَاتِينُ:

ففي الجنة ﴿حَدَآئِقَ﴾ من نخيل، وأشجار وأزهار، وزروع وثمار ورياحين، وبساتين محاطة بالأسوار، تتفجر فيها الأنهار ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ والعنب من أحسن الفواكه، وأحبها للنفوس، وأنفعها للأبدان، ولذا خُص العنب بالذكر في هذه الآية، وفيه إشارة إلى بقية الفواكه، اكتفاء بذكر البعض عن الكل.

وقد نهى الإسلام أن نقول للعنب: (شجر الكرم)، كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا يقل أحدكم الكرم، فإنما الكرم: الرجل المسلم، ولكن قولوا: حدائق الأعناب**»(١).

النَّعِيمُ الثَّانِي : الْحُورُ الْعِينُ:

ومن نعيم أهل الجنة: زوجات من الحور العين، ومن نسائهم اللاتي كُنَّ في الدنيا

---

(١) البخاري (٦١٨٢)، ومسلم (٢٢٤٧)، وأبو داود (٤٩٧٤)، والمسند (٧٢٥٧)، وابن حبان (٥٨٣٢)، والنسائي في الكبرى (١١٥٨٠).

بعد أن يُنشِئَهُنَّ الله إنشاءً، فيعيد خلقهن من جديد، ويجعلهن متحببات لأزواجهن.

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٣٥- ٣٨].

وقد نزع الله ما في قلوبهن من الغل والحقد والحسد، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ذلكم قول الله تعالى: ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ والكواعب: جمع كاعب، وهي الجارية التي بلغت سن الخامسة عشرة، قد تكعَّب ثديها واستدار استدارة الكعب.

والكواعب هي النواهد، والناهد هي التي لم ينكسر ثديها من شبابها ونضارتها وقوتها.

والأتراب: جمع تِرْب، وهو المساواة في السن، والمراد: أنهن إناث عذارى، نواهد، قد برزتْ أثداؤهن، وهن في سن واحدة. ومن عادة الأتراب أن يكن متآلفات متعاثرات، وهو سن الثالثة والثلاثين، وهذا السن هو أفضل سن الشباب.

النَّعِيمُ الثَّالِثُ خَمْرُ الْجَنَّةِ:

ومن نعيم أهل الجنة: ما حَرموا أنفسهم منه في الدنيا؛ حيث منعوها من شرب الخمر، فيكافئهم الله تعالى على ذلك بخمر الآخرة الخالية من أضرارِ ومفاسدِ خمر الدنيا ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ أي: إناء مملوء بالخمر من رحيق مختوم، ختامه مسك، لذة للشاربين.

والدهاق: هو الإناء المملوء بالماء حتى يفيض من جوانبه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الممتلئة المُتْرَعَة المتتابعة، وربما سمعتُ العباس ﷺ يقول: يا غلام، اسقنا وادْهق لنا[1]، وهي كأس مملوءة قد عُصرت وصُفِّيت.

النَّعِيمُ الرَّابِعُ سَمَاعُ الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ

٣٥، ٣٦- ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا[2] ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾

---

(١) الطبري (٢٤/٣٩)، والحاكم (٢/٥١٢)، والبيهقي في «البعث» (٣٥٨)، وقول العباس في «البخاري» (٣٨٤٠).

(٢) قرأ الكسائي بتخفيف الذال من (ولا كذَابًا) مصدر كاذب مثل قاتل قتالًا، أو مصدر كذب مثل كتب كتابًا، والباقون بتشديد الذال، مصدر كذَّب تكذيبًا.

ومن نعيم أهل الجنة: أنهم لا يسمعون فيها كذبًا ولا نفاقًا ولا خداعًا، ولا كلامًا ساقطًا ولا باطلًا ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿لَغْوًا﴾ كلامًا خاليًا من الفائدة ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾ أي: ولا كذبًا أو زورًا من القول؛ يؤثم قائله، لأن الجنة دار السلام، وكل ما فيها سالم من النقص والباطل.

قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

فأهل الجنة لا يكذِّب بعضهم بعضًا، ولا يسخر بعضهم من بعض، ولا يغتب بعضهم بعضًا، ولا ينتقص بعضهم بعضًا، لقد نزع الله من قلوبهم الغل والحقد والحسد والبغضاء والعداء.

وما سبق ذكره من الحدائق والأعناب والكواعب والخمر وغيرها مما ذكر في آيات أُخر، مما أعده الله تعالى للمتقين في الآخرة، هو محض فضل من الله تعالى ومِنَّة، جزاء لهم على صالح أعمالهم، وهو عطاء محسوب لكل منهم بمقدار ما عمل، حتى يرضى ويكتفي ويقول: حسبي، حسبي.

فهذا النعيم ﴿جَزَآءً﴾ أي: مكافأة صادرة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ - يا رسولنا - لأهل الجنة على سبيل العطية ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي: كافيًا وافيًا تفضُّلاً من الله تعالى وإحسانًا.

وإيمانهم وأعمالهم الصالحة في الدنيا كانت سبباً لهذا النعيم المقيم.

وهذا الحساب الذي جاء ذكره في الآية، بيَّنه قول الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقوله سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وهذا الحساب لعطاء الله ، لا يحترز به عن تجاوز حد معيَّن من الأجر والمثوبة،لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] فدخول الجنة يكون برحمة الله تعالى وفضله، وليس بالعمل، والنعيم فيها يكون على قدر الأعمال، فكل من المكثِر أو المقل يضاعف له من الحسنات على قدر عمله، فالحساب موازنة الأعمال بالحسنات.

ويصح أن يكون ﴿حِسَابًا﴾ بمعنى: أن الله تعالى يُعطى العبد الصالح ما يكفيه حتى يقول: حسبي، حسبي، كما يقال: أَحْسَبَنِي هذا الأمر، أي: كفاني[1].

لا كلام ولا شفاعة في اليوم الرهيب إلا بإذن الله تعالى

٣٧- ﴿رَبِّ[2] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ[3] لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ٣٧﴾

ثم إن هذا العطاء والنعيم صادر من الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، فهو ربك وربهم، الذي ربّاهم ورحمهم وأعطاهم هذا النعيم، وهو ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ من مخلوقات لا يعلمها إلا الله، ولكن المشركين عبدوا غيره جهلاً وكفرا لنعمته، مع أنه سبحانه رحمن الدنيا والآخرة، فهو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِۖ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، وهو الذي أنكر المشركون اسمه الوارد في القرآن، فكانوا كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٠].

ومع أنه سبحانه رحمن الدنيا والآخرة، فهو شديد العقاب ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٩٨].

وفي يوم القيامة لا يقدر أحد على مخاطبته سبحانه في طلب دفع البلاء، أو رفع العذاب، رهبة منه وإجلالاً له، فهم ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ إلا من أذن له الرحمن، أي: لا يقدر أحد -كائنًا من كان- أن يخاطب ربه إلا بإذنه، ولا يملك أحد أن يفعل ذلك إلا بمشيئته ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [هود: ١٠٥]. قال تعالى:

٣٨- ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨﴾

---

(١) وبهذا قال جمهور المفسرين واللغويين، وبالأول قال مجاهد، يُنظَر: تفسير ابن عطية (٤٢٨/٥).

(٢،٣) قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بخفض الباء من (ربِّ) والنون من (الرحمنِ) على أنهما بدل من (ربِّك) بدل كل من كل، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بخفض باء (ربِّ) بدل من (ربِّك) ورفع النون من (الرحمنُ) على أنه مبتدأ، والجملة بعده خبر، أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو الرحمن، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر برفعهما، خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو رب وهو الرحمن.

ومن هذا الخطاب طلبُ الشفاعة؛ فإنها لا تكون إلا بالإذن للشافع في الشفاعة والرضى عن المشفوع له، فالقول الصواب، هو قول الحق المشتمل على هذين الشرطين، الإذن والرضى كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وهذا اليوم الذي لا يملك فيه أحد أن يخاطب الرحمن إلا بإذنه، هو يوم القيامة، حيث تقوم الملائكة عامة وجبريل بوجه خاص، بين يدي خالقهم خضوعًا وتذلُّلاً، وهم في صفوف منتظمة، بأدب وخشوع ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ وهو جبريل عليه السلام وهو أشرف الملائكة كما صرَّحت بذلك الآيات الأخر في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥].

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤].

فيقوم جبريل ﴿وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ واحدًا أو صفوفًا منتظمة، وقيل: إن المراد بالروح: أرواح بني آدم، حيث تقوم الأرواح في أجسادها يوم البعث والنشور كما صح عن مجاهد: الروح خلْق على صورة بني آدم(١).

وكان ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «سُبُّوح قُدُّوس رب الملائكة والروح»(٢).

فالناس في هذا اليوم الرهيب ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: لا يتكلم الخلق كلهم بين يدي خالقهم إجلالاً لعظمته، ورهبة لجلاله، إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يأذن الرحمن بالكلام أو الشفاعة لمن يريد الاستئذان في ذلك،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٣٤٤/٢)، والطبري (٤٨/٢٤)، وأبو الشيخ (٤١٤)، وصححه محقق «الأسماء والصفات» للبيهقي برقم (٧٨٣).

(٢) صحيح مسلم (٤٨٧)، وأبو داود (٨٧٢)، والنسائي (١١٣٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٥٧).

وهذا معنى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بأن يلهمه الاستئذان، ويُلْقيه في نفسه، فتزول عنه الرهبة فيستأذن فيأذن الله له.

والشرط الآخر: أن يكون المشفوع له قد نطق بالصواب في الدنيا، بأن كان مؤمنًا موحِّدًا متَّبعاً لما جاء به محمد ﷺ، فالقول الصواب هو كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وهو أيضًا قول الحق والسداد الذي يُرضي رب العالمين.

والمعنى: أن الخلق كلهم بما فيهم الملائكة الكرام، والروح الأمين، لا يشفعون إلا في شخص أذن له الرحمن في الشفاعة، وكان في الدنيا ممن يقول قولاً صوابًا.

النَّجَاةُ مِنْ أَهْوَالِ الآخِرَةِ بِالإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ

٣٩- ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾

وهذا اليوم الذي يُفْصل فيه بين الخلائق، والذي تقوم فيه الروح والملائكة صفًّا بين يدي ربهم، هو يوم كائن لا محالة، ولا ريب في مجيئه ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت وقوعه، ولا يكون فيه باطل ولا كذب، وهو يومٌ يقوم فيه الخلائق للحساب والجزاء، وهو أعظم يوم يجتمع فيه الناس كلهم، ويُعْطَى فيه كل واحد منهم ثوابه وعقابه.

فإذا علمتم ما في ذلك اليوم من الخير والشر، وحسن العاقبة أو سوء العاقبة -فليختر كل إنسان ما يريده من المصير الحسن، أو المصير السيئ ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي: فمن أراد النجاة من أهوال ذلك اليوم، فليتخذ إلى ربه مرجعًا، بالإيمان والعمل الصالح، وقد تقدَّم أن مرجع الطاغين جهنم، والحرمان من النعيم المقيم، ومرجع المتقين الفوز بالجنة، والنجاة من النار، وليس هذا بمقام تخيير، وإنما هو إلى التهديد والوعيد أقرب، كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

فليس في الآية تخيير بين الإيمان والكفر، وإنما فيها تهديد ووعيد لمن كفر.

فعلى المرء أن يتدارك نفسه من قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

إِنْذَارُ النَّاسِ قَطْعٌ لِلأَعْذَارِ قَبْلَ الْمَوْقِفِ الْعَصِيبِ

٤٠ - ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا[1] يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾﴾

وبعد استعراض ما في السورة من أهوال يوم القيامة، وما فيها من نعيمٍ لأهل التقوى، وعذابٍ موجعٍ لأهل الضلال، تُختم السورة بإنذار الناس وهم في الدنيا، أن يعملوا بطاعة الله تعالى، قبل أن يأتي ذلك اليوم، قطعًا لأعذار الخلائق، حتى يأخذوا حِذْرهم مما أُنذروا به، كما يقول النذير عند الإنذار: «أنا النذير العريان» ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ حذرناكم عذاب اليوم الآخر، وسماه الله قريباً بالنظر إلى عمر الدنيا، ولأن كل آتٍ قريب، ولأن بعثة النبي ﷺ من علامات الساعة ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٦، ٧].

والإنذار:هو الإخبار بحصول شيء تسوء عاقبته في وقت لا يستطيع المرء أن يجنِّب نفسه هذا الخطر.

وهذا اليوم الذي تسوء عاقبته هو ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ يرى فيه كل امرئ ما عمل من خير، أو اكتسب من إثم، ونظرُ المرء ما قدمت يداه يُعلم عند حصول الجزاء له يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال أيضًا: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [الزلزلة: ٦].

ويوم القيامة يفزع المرء لما كان قد عمله في الدنيا من سيء الأقوال والأعمال، ولهذا فإن الله تعالى يأمرنا أن نستعد لهذا اليوم بالعمل الصالح ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: ١٨] فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وبعد تعميم هذا الإنذار لكل ذكر وأنثى، وهو مقتضى لفظ ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾ في الآية، وهو يشمل جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، بعد ذلك يخص الله تعالى الكافرين بالذكر، مبيِّنًا

---

(١) عدّ المكي والبصري (عذاباً قريباً) آية، فيكون متروكاً لغيرهما.

سوء خاتمتهم، وهم منكرو البعث، وجاحدو وحدانية الله تعالى، ومكذبو الرسالة الخاتمة، فهو يوم يتمنى فيه الكافر أن لو كان في الدنيا بغير عقل ولا إدراك؛ حتى لا يعاقب في الآخرة ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ على وجه الحسرة والندامة ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ﴾ في الدنيا ﴿تُرَٰبًا﴾ ولم أُخلَق بشرًا، ولم أُبعث أو أُحاسب، فيتمنى أنه لم يُخلق ولم يُكلَّف من باب الحسرة والندامة.

قيل: إن الكافر يقول ذلك حين يَحشُر الله الحيوانات يوم القيامة فيُقتصُّ للجمَّاء من القرناء، وبعد ذلك يصيِّرها ترابًا، فيتمنى الكافر أن لو كان كذلك حتى لا يعذب.

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: إذا كان يوم القيامة، مُدَّت الأرض مدَّ الأديم، وحُشِر الدواب والبهائم والوحوش، ثم يُجعلُ القِصَاصَ بينها حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء نطحتها، فإذا فُرِغ من القِصَاص، قيل لها: كوني ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت ترابًا[١].

قال أبو هريرة ﷺ: يقول التراب: لا، ولا كرامة لك مِنْ جَعْلِكَ مثلي[٢].

وجاء في حديث الصور الطويل ما يؤيد هذا المعنى، قال ﷺ: «فيقضي الله عزَّ وجلَّ بين خلقه إلا الثقلين: الجن والإنس، فيقضي بين الوحوش والبهائم، حتى إنه ليقضي للجماء من ذات القرن، فإذا فرغ من ذلك، فلم تبقَ تبِعة عند واحدة لأخرى، قال الله لها: كوني ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ ثم يقضي الله عزَّ وجلَّ بين العباد فأول ما يقضي فيه الدماء»[٣].

وقيل: إن الكافر إذا رأى ما أنعم الله به على المؤمنين من الخير والرحمة قال: يا ليتني كنت متواضعًا مطيعاً لله في الدنيا، ولم أكن جباراً متكبراً[٤].

(١،٢) تفسير الخازن (٣١٩/٤) وابن عطية (٤٣٩/٥).

(٣) يُنظَر الحديث بطوله كما أورده ابن كثير في التفسير (٢٨٥/٣)، وهو من الأحاديث الطوال للطبراني برقم (٣٦)، والبيهقي في «البعث» برقم (٦٦٩) وأبو الشيخ (٣٨٧).

(٤) تفسير الخازن (٣١٩/٤).

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال في هذا الكافر: هو الهالك المفرط العاجز، وما يمنعه أنه يقول ذلك، وقد راج عليه عورات عمله، وقد استقبل الرحمن وهو عليه غضبان، فتمنى الموت يومئذ، ولم يكن في الدنيا شيء أكره عنده من الموت.

تم تفسير (**سورة النبأ**) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّازِعَاتِ (٧٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة النازعات) هي السورة التاسعة والسبعون في ترتيب المصحف، والحادية والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النبأ وقبل سورة الانفطار.

وتسمى سورة النازعات، وهو الأشهر، وسميت سورة الساهرة، وسورة الطامة.

وهي سورة مكية باتفاق.

وعدد آياتها عند أهل الكوفة ستّ وأربعون آية، وخمس وأربعون آية عند بقية علماء العدد ، والخلاف في موضعين عما ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ و﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾

وهي مئة وسبع وتسعون كلمة، وسبع مئة وثلاثة وخمسون حرفاً.

موضوع السورة:

١- أَبرزُ ما تتميز به السوَرُ المكية: إرْساء قواعد التوحيد، والإيمان بالنبي الخاتم، والإيمان باليوم الآخر، وقد اهتمت هذه السورة بترسيخ التصديق بالبعث والحساب والجزاء، وبيان مآل المتقين، ومآل الفجار، بالإضافة إلى نضب دلائل الوحدانية، والإيمان بخاتم الرسل ﷺ.

٢- وقد بدأت السورة بالقسَم بخمسة طوائف من الملائكة هي: النازعات، والناشطات، والسابحات، والسابقات، والمدبرات، وجواب القسم أن البعث حق، وهذا البعث يأتي ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ الآية:٦ فتضطرب الأرض، ويُنفَخ في الصور، ويقوم الناس لرب العالمين، وأبصار المنكرين للبعث منكسرة، خاشعة ذليلة، وقلوبهم ترجف من الفزع والخوف لأنهم كانوا يستبعدون هذا اليوم ويُنْكِرُونه، وقد صوّر القرآن حالهم ليعتبر الناس فيعملوا لذلك اليوم.

٣- ثم تضرب آيات السورة مثلاً لمن جحد وحدانية الخالق سبحانه، فطغى وتجبَّر

في الأرض، وأنكر اليوم الآخر ومافيه، وهو فرعون الطاغية الذي أنكر رسالة موسى عليه السلام، وادّعى الربوبية والألوهية، فأخذه الله أخذاً وبيلاً، وفي ذلك عبرة لمن يخاف لقاء ربه، وينتفع بما حدث لغيره.

٤- ثم تمضي آيات السورة في الحديث عن القيامة، وتُقدّم لذلك ببيان أن مُحْيي الناس بعد موتهم، هو خالق السموات والأرض، والليل والنهار، والمياه والجبال، وكلها من أعظم المخلوقات، وعند مجيء الطامة، يُعرض على الإنسان عملُه، وتبرز جهنم للناظرين، ويكون الناس فريقان: فتسوء خاتمة من تجبّر واتبع هواه، وآثر الحياة الدنيا على الآخرة، وتحسُن خاتمة من خاف لقاء ربه ونهى نفسه عن هواها السيء.

٥- وتُختم السورة ببيان أن علم قيام الساعة عند الله وحده، وأن الرسول ﷺ - فضلاً عن سائر البشر - لا علم له بها، وعندما تقوم الساعة يتصور الإنسان أنه لم يلبث في الدنيا أو في قبره وبرزخه إلا عشية أو ضحاها.

وهكذا فإن السورة تأخذ بيد الإنسان إلى الدار الآخرة، بدْءا بخروج الروح من الجسد، إلى المشهد الأول من مشاهد القيامة، حيث القلوب الواجفة، والأبصار الذليلة المنكسرة، لمن أنكر لقاء الله تعالى ولم يتزوّد لمعاده. ومن ثَم تعرض بعض آيات السورة صورة لمصرع المكذبين بالله ورسوله واليوم الآخر، لكبير من أكابر المجرمين، هو فرعون الطاغية، فتذكُر عاقبته الوخيمة لمن أراد أن يذكّر أو يخشى.

ومن صفحة التاريخ إلى كتاب الكون المفتوح في مشهد يطوف بالعبد من السماء إلى الأرض والجبال، والليل والنهار، والماء والمرعى، ليستدل بذلك على أن القادر على خلق هذه المخلوقات أقدر على ما دونها، وهو إحياء الناس بعد موتهم، وبعد هذه التمهيدات يأتي مشهد الطامة الكبرى وما يصاحبها من جزاء على ما كان في الدنيا من قول وفعل.

ثم يعود السياق إلى المكذبين بقيام الساعة وسؤالهم عن موعدها بردّ علمها إلى الله تعالى، ولكنها وشيكة الوقوع، وهي تأتي فجأة، وعلى المرء أن يستعد لها بالإيمان

والعمل الصالح، فإن متاع الدنيا لا يساوي غمسة واحدة في نار جهنم، والدنيا تمرّ سريعاً كأنها لحظة من ليل أو نهار، والعاقل من لا يُضيِّع مستقبله الدائم بلحظات عابرة، لا يبقى لها أثر في النفس، بل تمضي وراءه وكأن شيئاً لم يكن!

وعلى هذا فيمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: من أول السورة إلى الأية الرابعة عشرة وهذا المقطع فيه قسم بطوائف من الملائكة على أن البعث حق، وأن القيامة تقوم على المكذبين بها المنكرين لها، فلا يسعهم إلا الاعتراف بها حين يروْا أنفسهم فى عرصات القيامة، بعد أن لفظتْهم الأرض للعرض والحساب والجزاء.

المقطع الثانى: من الآية الخامسة عشرة إلى الآية السادسة والعشرين، وهذا المقطع يتناول جانباً من قصة موسى مع فرعون الذى ادّعى الربوبية والألوهية فأغرقه الله فى اليمّ، وجعله عبرة لمن يتعظ.

المقطع الثالث: من الآية السابعة والعشرين إلى الآية الثالثة والثلاثين، وهو مقطع يتناول جانباًمن آثار قدرة الله فى الكون، يتمثل فى خلق السماء والأرض والمياه والنبات والمرعى والجبال، وهى نعم متّع الله بها الإنسان والحيوان.

المقطع الرابع: من الآية الرابعة والثلاثين إلى نهاية السورة، وهو مقطع يتناول اليوم الآخر وما فيه من نعيم وشقاء ، أعدهما الله تعالى لمن خاف مقام ربه، ولمن طغى وفضّل دنياه على آخرته، وهذا يحصل عند قيام الساعة، ولا يعلم موعدها إلا رب العالمين، وعندما يراها الناس كأنهم لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهارّ.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

القَسَمُ بالملائِكَةِ في أحْوَالِهَا المخْتَلِفَةِ عَلَى أنَّ البَعْثَ حَقٌّ

١ ـ ٥ ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥ ﴾

تعددت أقوال المفسرين في المراد بالنازعات وما بعدها، من الناشطات والسابحات والسابقات والمدبرات:

١- فقال بعضهم: المراد بها كلها: الملائكة وهو المختار.

٢- وقال آخرون: هى النجوم تنتقل من مكان إلى مكان.

٣- وقال غيرهم: المراد بالمدبرات الملائكة، وبالأربعة الباقية: النجوم.

٤- أو أن المراد بالسابقات والمدبرات: الملائكة، وبالثلاثة الباقية: النجوم.

وبكل من الأقوال الأربعة قال بعض السلف، وكلهم متفقون على أن المراد بالمدبرات: الملائكة.

والقول الأول الذي هو البعث هو المناسب لموضوع السورة، وهو يستغرق أنواع القسم الخمس ولا يفرق بينها، فقد أقسم الله تبارك وتعالى بخمسة طوائف من طوائف الملائكة:

الطائفة الأولى: الملائكة وهي تنزع أرواح الكفار عند خروجها من الجسد، نزعاً شديداً بقوة وعنف، كما يُسلَخ عن الشاة جلدها، وكما يُنزع سيخ الحديد كثير الشُّعب، من الصوف المبتل، فتخرج روح الكافر من أقصى جسده، حتى تخرج من أنامله وأظفاره، فيبلُغ النزع غايته في الشدة، حتى يكون الإنسان، كالغريق في الماء، وتستعصي روحه على الخروج، وتغرق الملائكة وتعاني في نزعها لروح الكافر، لِمَا ترى من سوء الخاتمة، حين يُعرض عليها مقعدها من النار.

كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [الأنفال: ٥٠ - ٥١].

٢-وقال سبحانه: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٧].

٣-وقال أيضاً: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

والطائفة الثانية: طائفة من الملائكة تجذب أرواح المؤمنين عند الموت بنشاط وخفة ورفق وسهولة ويسر، فتقبضها كما يُنشط العقال من يد البعير، وكما تُسلّ الشعرة من العجين، وهذه الأرواح تنشَط للخروج عند الموت من أجسادها، فتجذبها الملائكة بسرعة، لما تَرى لها من الكرامة عند ربها، حين يُعرض عليها مقعدها في الجنة، وتُبشّر به، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣]. وقيل: إن النشط يكون لأرواح الكفار والنزع يكون لأرواح المؤمنين، ولعل الأول هو الأصوب.

والطائفة الثالثة: طائفة من الملائكة تسبح في نزولها من السماء وصعودها إليها، كالذي يَسبح في الماء، مسرعين في التنقل إلى تنفيذ أمر الله تعالى إسراعاً شديداً - كالفرس الجواد- وهي تسبّح بحمد الله تعالى وتكبّره وتقدسه.

الطائفة الرابعة: طائفة من الملائكة:

١- تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

٢- وتسبق غيرها إلى المكان المقصود لتنفيذ أمر الله تعالى.

٣- وتسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء، لئلا يسرقوه ويوصّلوه إلى الكهان.

فهذه ثلاث صور من السبق.

والطائفة الخامسة: طائفة من الملائكة تُنفِّذ أمر ربها فيما أُوكِل إليها تدبيرُه من شؤون الكون: كالرياح، والأمطار، والأرزاق، والأعمار، وتنظيم أحوال الخلق، وتنفيذ قضاء الله

تعالى وقدره في العالم العلوي والعالم السفلي، من الأمطار والنبات والأقوات والأرزاق، والآجال والأعمال، والرياح والبحار والأجنة والحيوانات، والجنة والنار وما إلى ذلك.

أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن عليّ ﷺ في قوله تعالى:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ الملائكة تنزع أرواح الكفار.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ الملائكة تَنْشِطُ أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تُخرجَها.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾ الملائكة تسبَح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾ الملائكة يسبق بعضُها بعضاً بأرواح المؤمنين إلى الله تعالى.

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾ الملائكة تدبر أمر العباد من السَّنَةِ إلى السَّنَة.

قال عبد الرحمن بن سابط: يدبر الأمر في الدنيا أربعة أملاك:

جبريل وميكائيل وإسرافيل وملَك الموت.

فأما جبريل فوُكل بالرياح والجنود. وأما ميكائيل فوُكل بالقطر والنبات.

وأما إسرافيل فينزل عليهم بالأمر من الله تعالى.

وأما ملك الموت فقد وكل بقبض الأنفس(١).

وقد أقسم الله تعالى بالملائكة لِشَرفهم وعلُوِّ منزلتهم عند الله تعالى، وله جل شأنه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يقسم إلا بالله تعالى.

وقد عُطف القسم الرابع والخامس بالفاء، للإعلام بأن هاتين الصفتين متفرعتين عما قبلهما، وليستا مستقلّتين كالتي قبلهما، وكلها صفات لموصوف واحد، تمشيا مع ما سبق بيانه.

وجواب الأقسام الخمسة محذوف تقديره: لَتبعثُنّ ولَتحاسبُنّ، ولتُجزوُنّ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٥٨)، وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن.

حَالُ النَّاسِ وَالْكَوْنِ عِنْدَ النَّفْخِ فِي الصُّوَرِ

٦-٩- ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩﴾

وقد دل على جواب القسم دلالة صريحة، قوله تعالى بعد أنواع القسم الخمس: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ فتضطرب الأرض وتُزلزل، ويُصعق من في السموات والأرض إلا من شاء الله، أي أن هذا اليوم الذي يموت فيه العباد، يجيء عند نهاية أجل هذا العالم، حيث يحدث الزلزال الكبير الذي يُفقِد كل شيء توازنه، وذلك عند النفخة الأولى التي يموت فيها كل حي إلا ماشاء الله:

١ - ومن نظائر هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ [الواقعة: ٤].

٢ - وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤].

٣- وقوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١ - ٢].

٤- وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وهذه الرجفة للأرض تحدث من قوة صوت النفخ في الصور وشدته، فترتجُ الأرض وتهتز وتضطرب، ويموت الخلق كلهم إلا من شاء الله.

وبعد أربعين عاماً، تتبع هذه النفخة، نفخة أخرى لإحياء الموتى من قبورهم، وهي الرادفة التي تتبع الراجفة، وتأتي بعدها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الراجفة والرادفة، هما النفختان: الأولى والثانية، أما الأولى: فتُميت كل شيء بإذن الله تعالى، وأما الثانية: فتُحيي كل شيء بإذن الله تعالى[1].

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وفي حديث الطفيل بن كعب عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ثُلثا الليل قام فقال: «**يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه**» قال

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/١٩٣).

أُبيّ: قلت: يا رسول الله، إني أُكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: «ما شئت» قال: قلت: الربع؟ قال: «ماشئت، فإن زدت فهو خير لك» قلت: النصف؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» قال: قلت: فالثلثين؟ قال: «ماشئت، فإن زدت فهو خير لك» قلت: أجعل لك صلاتي كلها، قال: «إذاً تُكفى همّك، ويُغفر لك ذنبك»[1].

وعندما ينفخ في الصور النفخة الثانية، تترادفُ المزعجات، مِنْ هول ما ترى وتسمع، قد ملَك الخوف قلوبهم، وأذهل الفزع أفئدتهم، وغلب عليهم الأسف، واستولت الحسرة على نفوسهم، فإذا قلوب مَنْ كانوا ينكرون البعث في الدنيا مضطربة من شدة الخوف، وأبصارهم منكسرة ذليلة، لَمّا أيقنوا بسوء المصير، وعلموا أنهم كانوا في الدنيا على ضلال، وعاينوا أهوال القيامة، ورأوا الجحيم قد برزَت للغاوين، لقد كان عملهم في الدنيا في غير موضعه.

وقد وصف الله هذه الوجوه بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٢ - ٣].

وخشوع البصر: ذلته وانكساره وما يعلوه من السواد والغبَرة.

قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٠ - ٤٢].

وقال سبحانه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤ - ٢٥] هذا هو حال الكفار.

أما قلوب المؤمنين فإنها تكون مطمئنة اطمئناناً يتفاوت بحسب درجة التقوى وقوة الإيمان.

وهم بوجه عام ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

---

(١) قال الترمذي في السنن (٢٤٥٧)، حديث حسن صحيح، وأخرجه البيهقي في الشعب (١٠٥٧٩،٥١٧)، وقال الحاكم في المستدرك (٥١٣/٢)، صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسنه محقق المختارة للضياء المقدسي (١١٨٥،١١٨٤)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٩٥٤)، وفي صحيح سنن الترمذي (١٩٩٩).

أقوال المكذبين بالبعث والرد عليهم

١٠، ١١ - ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا[1] لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا[2] كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً[3] ۝١١﴾

لقد كان المكذبون بالبعث وهم في الدنيا إذا قيل لهم: اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم، واعملوا لما بعد الموت، يقولون على وجه التهكم والاستبعاد: أنُردّ إلى الحياة مرة أخرى، بعد أن مِتْنا وصِرْنا في قبورنا عظاماً بالية متعفنة؟

أنعود أحياء بعد الموت، كما كنا أول مرة؟ فالحافرة هي الدنيا أو الأرض، أو الحالة التي كانوا عليها قبل الموت، يقال: رجع فلان في حافرته، أي رجع من حيث جاء.

والحافرة اسم من أسماء النار، ومن أسمائها أيضاً:

الجحيم، وسقر، وجهنم، والهاوية، ولظى، والحطمة.

والمعنى: أراجعون نحن إلى الطريق التي جئنا منها؟ أعائدون إلى الحياة مرة أخرى؟ وكان من أقوال قريش: لئن حيينا بعد الموت لنخسرنّ فنزل القرآن[4] يحكي قولهم:

١٢ - ١٤ - ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾

أي لئن حدث هذا وعُدنا إلى الحياة مرة أخرى، فهي عودة خاسرة بكل المقاييس، إنها رجعة يتحقق فيها خسران كل شيء، فقد كذّبنا محمدا، وتبين صدق ما أنذرَنا به، فالمصير إلى النار، والكرّة هي العودة والرجعة فقد استبعدوا أن يبعثهم الله ويعيدهم بعد ما كانوا عظاماً نخرة، جهلاً منهم بقدرة الله تعالى وتجرؤاً عليه.

(١، ٢) قرأ نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني وقرأ أبو جعفر بهمزة واحدة في (إنا) على الإخبار، وهمزتين في ﴿أَءِذَا﴾ على الاستفهام وقرأ الباقون وهم ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة وخلف بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني، وكل على أصله في التسهيل والتحقيق والإدخال وعدمه حال الاستفهام.

(٣) قرأ شعبة وحمزة والكسائي بخلف عن الدوري، ورويس، وخلَف، بألف بعد النون من (ناخرة) والباقون بحذفها، وهما لغتان بمعنى بالية.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور عن محمد بن كعب وعبد بن حميد وابن المنذر كما في أسباب النزول للسيوطي (ص ٣٢٦)، وتفسير ابن كثير للآية، والدر (١٥/٢٢٥).

وهنا يأتي الرد الحاسم من رب العزة والجلال، فليس الأمر كما زعموا من أنه لا بعث ولا جزاء، بل إن العودة إلى الحياة لا تكلّف شيئاً، فهي في غاية السهولة واليُسْر، فما هي إلا نفخة واحدة من الملَك الموكل بالنفخ، يصيح بها وأنتم في عالم البرزخ، فإذا الأرواح تحلّ في الأجساد التي كانت فيها في الدنيا، وإذا هم أحياء بعد أن كانوا أمواتاً، وعلى وجه الأرض بعد أن كانوا في بطنها، فيحضرون بسرعة إلى ساحة الحشر للعرض والحساب.

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق: ٤٢ - ٤٤].

وقال أيضاً: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣ - ٤٤].

فالزجرة هي النفخة الثانية، وقد وُصِفَتْ بذلك لأن ذِكْرَها جاء في محل الاعتبار والاتعاظ، والساهرة هي القيامة، كما أن الراجفة هي النفخة الأولى، والرادفة هي النفخة الثانية التي يكون عندها البعث.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل: ٧٧].

وقال سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٢].

وقال أيضاً: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [ابراهيم: ٤٨].

وعند قيام الساعة (الساهرة) يكون الخلائق كلهم على وجه الأرض قياماً ينظرون، فيجمعهم الله تعالى، ويقضي بينهم بحكمه العادل، ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

نَمُوذَجٌ مِنْ مَصِيرِ الطُّغَاةِ

١٥، ١٦ - ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ [١] ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى [٢] ۝١٦ ﴾

(١) وقف يعقوب على (بالوادي) بياء بعد الدال وحذفها وصلاً، والباقون بحذفها في الحالين

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بتنوين واو ﴿ طُوًى ﴾ وصلاً على أنه اسم مكان معروف وقرأ الباقون بدون تنوين وصلاً ووقفاً ممنوعاً من االصرف للعلمية والتأنيث أو العلمية والعجمة.

ويتوسط الحديث عن القيامة، ضرب المثل بأقوى كفار الأرض «فرعون» لبيان كيف كانت عاقبته، حين كذّب نبي الله موسى عليه السلام، وأنكر البعث والنشور، حيث انتقم الله منه في الدنيا والآخرة، وكان بهذا عبرة لمن يعتبر.

وبعد هذه القصة المختصرة تعود آيات السورة للحديث عن القيامة مرة أخرى، وفي هذا وعيد وتهديد لكل منكرٍ للبعث إلى يوم القيامة.

وفيه تثبيت وتسلية للنبي ﷺ ليمضي في دعوته وهو موقن من نصر الله له، وانتقامه ممن كذب الله ورسوله، وأنكر لقاءه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وتبدأ هذه الجولة بتشويق السامع - عن طريق الاستفهام - إلى ما يُلْقَى عليه:

هل أتاك - يا رسولنا - ووصل إلى علمك خبرُ موسى حين أرسلهُ الله إلى فرعون وقومه؟

إن كان لم يصل إلى علمك خبره، فهذا جانب من خبره نقصه عليك، فتنبه له، لتزداد ثباتاً على ثباتك، وثقة على ثقتك في نصر الله تعالى لك.

ثم بيّن سبحانه وتعالى هذا الخبر، وموضوعه ومكانه فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي اذكر - يا رسولنا - حين ناجى موسى ربه بالوادي المبارك المطهر، المسمى «طوى» في أسفل جبل طور سيناء، حيث كلمه ربه دون واسطة ملَك، قائلاً ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١١ - ١٣] فأوحى الله تعالى إليه بالرسالة، واختصه من بين قومه بالوحي واجتباه، وفي هذا امتنان من الله تعالى عليه.

وكان ذلك حين خرج موسى بأهله من مدين متوجهاً إلى مصر، وقد ضل الطريق في ليلة شاتية مظلمة، فأبصر في جانب جبل الطور الغربي الأيمن، في صحراء سيناء، ناراً حينئذ ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٢٩ - ٣٠].

وفي هذا المكان أَطْلع الله موسى على معجزة العصا التي يحملها في يده ليهش بها

على غنمه، إلى جوار معجزة اليد التي يضعها تحت إبطه ويخرجها، فإذا هي بيضاء يختلف لونها عن لون جسده، ثم يضعها تحت إبطه مرة أخرى فتعود كما كانت.

أيد الله موسى بهاتين المعجزتين ثم قال له:

١٧ - ١٩ - ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ[1] ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾

اذهب إلى فرعون رسولاً مؤيّداً بالمعجزات فادْعُه إلى التوحيد، وانهه عن الشرك وخلّص بني إسرائيل من طغيانه وجبروته، فقد أفرط في العصيان وجاوز الحد في الظلم والغرور، ولتكن دعوتك له بقول طيب وكلام لطيف، لعله يتعظ ويُقلع عما هو فيه.

ولفْظ «فرعون» معرّب عن اللغة العبرانية، ولم يطلقه القرآن إلا على مَلِكِ مصر الذي أُرسل إليه موسى وهو «منفتاح بن رمسيس الثاني» أما حاكم مصر الذي كان في زمن يوسف عليه السلام، فقد أطلق عليه القرآن لقب «الملك» ولم يصرح بأنه فرعون.

ولم يوجد على وجه الأرض في زمن موسى عليه السلام ولا بعده، مَنْ هو أشد طغياناً من فرعون، حيث ادعى الربوبية والألوهية معاً فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

كما أنه لا يوجد على وجه الأرض آنئذ من هو أكرم على الله تعالى من نبي الله موسى وأخيه هارون عليهما السلام.

ومع ذلك فإن الله تعالى حين أرسل موسى إلى فرعون، أمره أن يحسن عرْض الدعوة عليه بأسلوب حكيم هادىء لين، ليس فيه شدة، ولا تعالٍ ولا زجر، ولا تأنيب، فأمره أن يقول له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ هل لك رغبة في أن أرشدك إلى الطريق الذي يوصلك إلى رضى ربك، ويزكيك ويطهرك من النقائص، ومن كل ما يغضب الله تعالى من الذنوب والآثام؟ هل لك في خصلة حميدة، ومحْمدة جميلة، يتنافس فيها أهل الخير والصلاح؟ وهي أن تزكى نفسك من الشرك وتطهرها من الكفر إلى الإيمان والعمل

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبوجعفر ويعقوب بتشديد الزاي من ﴿تَزَّكَّىٰ﴾ والباقون بالتخفيف على حذف إحدى التائين.

الصالح؟ فقال تعالى لموسى وهارون: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه: ٤٣ – ٤٤].

وهذا المنهج تحقيق لقول الله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله بالنسبة لليهود والنصارى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

قال موسى لفرعون: وهل تودّ أن أدلك على معرفة الله تعالى كي تُطيعه وتتّقيه، فيؤدي ذلك بك إلى الخشية منه سبحانه، فإن الخوف من الله تعالى ملاك كل أمر، ورأس كل خير، كما في حديث أبي هريرة وأُبَيّ بن كعب رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه**»[1].

وفي هذا العزض، حثٌّ لفرعون على التخلص من العقيدة الضالة، وقبول ما يرشده إليه موسى، حتى يعالج نفسه ويروّضها على الهداية والتزكية، وفي هذا من الرفق والتلطف ما يستميله ويستنزله من عتوه.

وكان فرعون يعلم من الآلهة الباطلة التي يعبدها أن له رَبّاً، فلم يُرد القرآن أن يصطدم معه في أول لقاء مع نبي الله موسى عليه السلام، فأتى بلفظ ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه من سخطه، ولم يقل أهديك إلى الله حتى لا ينافي عقيدته، وتستطير نفسه غضباً ونفوراً، فيصغي إليه بسمعه، فإذا استمع إليه دخل الإيمان قلبه تدرُّجاً. وإذا علم الصراط المستقيم خشي الله تعالى وخاف عقابه.

ويدأ موسى بدعوة فرعون، لأنه رأس الدولة ودعوتُه دعوة لقومه. قال تعالى:

---

(١) أخرجه الحاكم عن أُبيّ بهذا اللفظ (٣٠٨/٤)، وأخرجه عن أبي هريرة إلى (غاليه) (٣٠٧/٤)، والترمذي وحسنه (٢٤٥٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٩٩٣)، وفي السلسلة الصحيحية (٩٥٤، ٢٣٣٥)، ومشكاة المصابيح (٥٣٤٨) التحقيق الثاني.

٢٠-٢٢- ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢)﴾

ذهب موسى إلى فرعون ودعاه إلى ربه، ولَمَّا لم يستجب لدعوته وكذّبه، عرَض عليه أن يُطلعه على معجزة تدل على صدقه، لعله يوقن، قال موسى لفرعون: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٠ - ٣٣].

أَطْلَع موسى فرعون على الآية الكبرى التي أيده الله بها، وهي معجزة العصا واليد، فألقى أمامه عصاه، فإذا هي حية تسعى، وأخرج يده من جيبه، فإذا هي بيضاء من غير برص.

ولكن فرعون لم يتمهل حتى يتأمل في معجزة موسى عليه السلام، بل حمله عناده وشدة مكابرته على التكذيب والعناد من أول لحظة، فكذب موسى وعصى أمر الله عصياناً كبيراً، وأبى أن يُطْلق سراح بني إسرائيل من الاستعباد والتسخير في خدمة بلاده.

وبالإضافة إلى ذلك فقد تولى فرعون عن موسى معرضاً عن الإيمان به والاستجابة له، مجتهدا في إبطال دعوته، ساعياً في ذلك سعياً حثيثاً. قال تعالى:

٢٣-٢٥- ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ (٢٥)﴾

استمع فرعون إلى دعوة التوحيد، ثم خرج غاضبا مسرعا يخشى شيوع دعوة موسى بين قومه، فجمع أهل مملكته وجنوده وأتباعه، ووقف في الناس خطيبا، ونادى بصوت جهوري قائلا لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ولا رب غيري، وليس لكم إله سواي، فلا تستمعوا لما يقوله موسى، فأذعَنوا له وأقروا بباطله وأطاعوه حين استخفهم.

قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] بأربعين سنة[1].

ولمّا جُمع لفرعون جنوده وأتباعه قالوا له: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٦ - ٣٧] وكان ما كان من أمر إيمان السحرة،

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣١٥).

وإصرار فرعون على طغيانه وجبروته بعد جمع السحرة لمعارضة موسى.

فكانت النتيجة أنه لم يُفْلِت هو وجنده من عقاب الله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

وكما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠] وهذا فضلاً عما ينتظره في الآخرة من سوء العذاب، حيث انتقم الله منه في الدنيا بالغرق، مع بقاء جُسمانه، عبرة على مر الزمن، وهو في مرحلة البرزخ يُعرض على النار صباحاً ومساءً، وسوف يعذب في الآخرة بأشد أنواع الإحراق في النار. قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ غافر: ٤٥-٤٦، وهذا معنى ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ بأن جعل عقوبته في الدنيا دليلاً على عقوبته في الآخرة.

ولأن فرعون من أشد المتمردين على الله تعالى، فقد جعله الله عبرة لأمثاله في الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤١ - ٤٢].

وفي يوم القيامة يقود جماعته إلى النار كما كان قائداً لهم في الدنيا ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]. قال تعالى:

٢٦- ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

ثم ختم الله تعالى القصة: ببيان أن ما حدث لفرعون وجنده عبرة وعظة لكل من يخشى الله تعالى ويتعظ، فينزجر ويرتدع، وهو الذي ينتفع بالآيات والعبَر، فإذا علم ما حدث لفرعون، عرف أن هذا هو نهاية كل من طغى وتجبّر، وبارز الله ورسوله، أما من لم يخش الله تعالى فإنه لن يؤمن ولو جاءته كل آية، وفي هذا تهديد ووعيد لكل من كذّب الله ورسوله.

وكم في الأرض من الفراعنة؟ وأساس الفرعنة بطر الحق وغمط سورة النازعات: ٢٧ـ٢٨

خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَعْظَمُ مِنْ بَعْثِ النَّاسِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ

٢٧، ٢٨- ﴿ ءَأَنتُمْ[1] أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾

وبعد ذكر قصة موسى مع فرعون ، عادت آيات السورة إلى تهديد كل من أنكر البعث والنشور، إذ كيف ينكرون البعث بعد الموت، على صغرهم وضعفهم، بالنسبة إلى خلْق السموات والأرض، والليل والنهار، والمياه والجبال، وهي مخلوقات أكبر وأعظم من خلق الإنسان كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١].

فهل بعثُكم بعد الموت ـ أيها الناس ـ أعظم وأشد في تقديركم من خلْق السماء، مع عِظَم أحوالها؟ فكيف تُنكرون البعث، ولا تُنكِرون خَلْق السماء، وهو أعظم؟ فإذا كان الله تعالى قدْ قدِر على ما هو أعظم من البعث، فقدْرتُه على البعث من باب أولى ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

وإفراد السماء في الآية، يمكن أن يراد به السماء الدنيا، الظاهرة للناس.

والمراد بالسماء: الكُرَة الفضائية المحيطة بالأرض، ويبدُوا فيها ضوء النهار وظلمة الليل.

وقد أتقن الله تعالى خلْق السماء، فليس فيها صدوع ولا شقوق، ورفعها فوقكم كالبناء بلا عمَد، وجعلَها سقْفاً للأرض، وأعلى هذا السقف في الهواء ، فقد ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي أعلى جُرمها وسَقْفها في الفضاء ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي جعلها مستوية الأرجاء، خالية من الثقوب متقنة بإحكام يحير العقول ويأخد بالألباب ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣] وجعلها مُزْدانة بالكواكب للناظرين في ظلم الليل ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الحجر: ١٦] . قال تعالى :

---

(١) سهل الهمزة الثانية مع الإدخال في (ءأنتم) قالون وأبوعمرو وأبوجعفر، وسهلها بدون إدخال الأصبهاني وابن كثير ورويس، وللأزرق التسهيل مع عدم الإدخال وإبدالها حرف مد٠ ولهشام التسهيل مع الإدخال، والتحقيق مع الادخال وعدمه.

٢٩ - ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾

ولما كانت الأرض هي التي يبدو فيها ضوء النهار وظلمة الليل، فقد أضاف سبحانه الليل والنهار إلى السماء، لأنهما يجريان بسبب غروب الشمس وشروقها، والشمس في السماء، ولذا قال تعالى ﴿وَأَغْطَشَ﴾ أي أظلم ﴿لَيْلَهَا﴾ أي ليل السماء، فجعل الليل مُظْلِماً عند غروب الشمس فعمّت الظلمة أرجاء الدنيا ﴿وَأَخْرَجَ﴾ أي أظهر وأبرز ﴿ضُحَاهَا﴾ أي أن النهار يبرُز بإشراقه بعد احمرار شعاع الشمس، حيث تنتشر أشعتها من جهة المشرق، فتقع على وجه الأرض، ثم ترتفع شيئاً فشيئاً، إلى أن تكون في كبد السماء، ثم يتقلّص شعاعها شيئاً فشيئاً إلى أن يصير ليلاً مظلماً محيطاً بجزء من الكرة الأرضية.

دَحْوُ الأَرْضِ وَتَسْخِيرُهَا لِنَفْعِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ

٣٠، ٣١ - ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾﴾

وبعد أن ذكر سبحانه خلْق السماء والأرض، والليل والنهار، في مقام الاستدلال على وقوع البعث بعد الموت، ذكر سبحانه دحْيَ الأرض بعد خلق السماء، أمّا خلْقُ الأرض نفسها، فقد كان قبل خلق السماء كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] إلى أن قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

قال رجل لابن عباس: آيتان في كتاب الله، تُخالف إحداهما الأخرى؟ فقال: إنما أُتيتَ من قبل رأيك، اقرأ. قال ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ حتى بلغ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [فصلت: ١١].

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] قال ابن عباس: خلق الله الأرض قبل أن يخلق السماء، ثم خلق السماء، ثم دحى الأرض بعدما خلق السماء[1].

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس كما في الدر المنثور (٢٣٣/١٥).

فخلْق الأرض متقدّم على خلْق السماء، ودَحْيُ الأرض متأخر عن خَلْق السماء، وتم خلْقُ الأرض في يومين، وتقديرُ أقواتها في يومين، ثم خلَق الله السموات في يومين ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

كروية الأرض:

وقد وُصفت الأرض في هذه السورة بأن الله تعالى دحاها.

وجاء في آية أخرى أنه طحاها فقال ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [الشمس: ٦] وذكر سبحانه في آية ثالثة أنه بسطها فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥].

وقال جال شأنه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩ - ٢٠] وجاء في آية رابعة أنها مسطحة فقال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠].

والمعنى: أنه سبحانه مهّد الأرض للتنقُّل والسُكْنى والاستقرار، والسعي فيها للمعيشة، وذلك ببسط قشرتها وسطْحها. والطحْو بمعنى الدحو، وليس في كتب اللغة ما يدل على أن الدحْو بمعنى التكوير، والدحية هي مبْيض النعام، وسمّي بذلك، لأنها تدْحُوه بيدها لتبيض فيه، إذ لا عشّ لها، وليس معناها البيضة نفسها.

وقد ثبت في الكتاب والسنة أن الأفلاك مستديرة كما قال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥] والتكوير هو التدوير، ومنه تكوير العمامة أي لفّها.

وقال أحمد بن جعفر المنادي من أصحاب الإمام أحمد: لا خلاف بين العلماء فى أن السماء على مثال الكُرة، وأنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب، كدورة الكُرة على قُطْبيْن ثابتين غير متحركين، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب.

قال: ويدل على ذلك أن الكواكب تدور من المشرق، تقع قليلاً على ترتيب واحد في حركتها ومقادير أجزائها إلى أن تتوسط السماء، ثم تنحدر على ذلك الترتيب، فكأنها ثابتة في كرة، تُديرها جميعَها دَوْراً واحداً[1].

(١) جاء هذا في رسالة الهلال لابن تيمية، ينظر: تفسير تتمة أضواء البيان للشيخ عطية سالم (٣٧/٩) وما بعدها.

ويدل على أن الأرض مثل الكرة، أن الشمس والقمر والكواكب لا تطلُع وتغرب على جميع من في الأرض في وقت واحد، بل على المشرق قبل المغرب.

قال ابن تيمية: فكُرة الأرض مُثبتة في وسط كُرة السماء، كالنقطة في الدائرة: يدل على أن جِرْم كل كوكب، يُرى في جميع نواحي السماء على قدرٍ واحد، فيدل ذلك على بُعد ما بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد[1].

والشمس تغرب وتستمر في الأفق في جهة أخرى حتى تصل إلى مطلعها في صبيحة اليوم الثاني.

فالبسط والتمهيد في عين الرائي ، يكون بالنظر لكل إقليم ، وليس للأرض كلها، وبالنظر إلى جزء من الشمس، وذلك لسعتها وعِظَمِ جرمها[2].

وكما أن السماء يتفرع عنها ظلمة الليل ونور النهار، فإن الأرض يخرج منها الماء والمرعى، وقد أودع الله في الأرض منافعها، وفجّر فيها عيون الماء، وأجرى فيها الأنهار والبحار والمحيطات والآبار، وأنبت فيها ما يَقْتات به الناس من الحبوب والثمار، وما يقتات به الحيوان من الكلأ والمرعى. قال تعالى:

٣٢، ٣٣- ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ[3] ﴿٣٣﴾﴾

وكما أحكم الله تعالى بناء السماء، وذلل الأرض لنفع الإنسان، فقد أرسى سبحانه الجبال، فثبّت بها الأرض وجعلها أوتاداً لها، وذلك بتغلْغل صخُورها وعروق أشجارها في الأرض.

ومعنى إرساء الأرض: جعْلها منحدرة ، ليتمكن الناس من الصعود فيها بسهولة، كما يتمكن الراكب من ركوب السفينة الراسية، ولو كانت في داخل البحر ما تمكن من ركوبها إلا بمشقة.

وقد خلق الله سبحانه كل هذه النعم فجعل في الأرض أقواتها، وبسطها ومهدها، وأخرج منها الماء والمرعى لنفع الإنسان والحيوان، بالتمتع في الدنيا إلى انتهاء

(3،1) جاء هذا في رسالة الهلال لابن تيمية، ينظر: تفسير تتمة أضواء البيان للشيخ عطية سالم (٣٧/٩) وما بعدها.

(٣) قوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ معدود آية عند الحجازين وهم المدني الأول والمدني الأخير والمكى وعند الكوفى، فيكون متروكاً للبصري والشامى.

أعمارهم، فكيف للإنسان أن يستبعد قيام الساعة، والأمر لا يكلِّف سوى صيحة واحدة، يقوم بها الملَك الموكل بها ، فإذا هم قيام ينظرون، فالذى خلق السموات العظام، وما فيها من الأنوار والأجرام، والذي خلق الأرض الكثيفة الغبراء وما فيها من ضرورات الحياة ومنافع العباد، والذي خلق الجبال الشم الرواسى لئلا تميد الأرض بالمخلوقات، قادر على أن يبعث الخلق بعد موتهم فيحاسبهم ويجازيهم بما يستحقون، فمن أحسن فله الحسنى، ومن أساء فلا يلومن إلا نفسه.

عَرْضُ الأَعْمَالِ وَبُرُوزُ جَهَنَّمَ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ

٣٤-٣٦- ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾

وبعد أن استدل سبحانه على وقوع البعث بعد الموت، بما هو أشد خلقاً من الإنسان، عادت الآيات لتبين حال السعداء والأشقياء عند مجيء الطامة الكبرى، والداهية العظمى التي يهون عندها كل شدة بعد النفخة الثانية، حيث يغمر الناس أحوالها فلا يفكرون في شيء سوى الحشر والجزاء حيث لايغني الوالد عن ولده، ولاالزوج عن زوجة، ولا والصاحب عن صاحبة، و لاالمحب عن حبيبه.

إن أتباع الإلحاد والفلسفة المادية المعاصرة لا يزيدون شيئاً على مشركي الصحراء الأقدمين عندما يقولون: إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر! ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

فما هو موقفهم عندما يقومون من قبورهم، ويجد أحدهم نفسه أحد رجلين:

١-إما عبد لشهواته قد عاش لإشباعها، فينظر أمامه وخلْفه فلا يرى إلا جهنم قد برزت لمن يرى.

٢-وإما رجل قد عبد ربه وراقبه في السر والعلن، ولم ينس حقه وحق العباد، فيجد الجنة مأواه، والنعيم مثواه.

فما هو الموقف حين يُعرض على الإنسان عمله من خير وشر، فيتذكره ويعترف به،

فإذا أنكر، ختم الله على فيه وشهدت عليه جوارحه وأعضاؤه، وشهدت عليه الأرض التي كان يطيع الله تعالى عليها أو يعصاه فوقها، فيحاسبهم ويجازيهم بما يستحقون، فمن أحسن فله الحسنى، ومن أساء فلا يلومنّ إلا نفسه:

كما قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤].

وقال جل شأنه: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة: ٤ – ٥].

وقال سبحانه: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤].

وفي ساحة الحشر والنشور تظهر جهنم لكل ذي عين، ويُكشف عنها الغطاء، فيراها كل إنسان، وهي: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٢].

و﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ [الملك: ٧ – ٨].

ويوم القيامة يتذكر الإنسان ما قدمه في الدنيا من خير وشر، فيتمنى زيادة حسناته ويتحسر ويحزن على سيئاته، ويعلم أن ما قدمه لنفسه في دنياه هو مادة سعادته أو شقائه في الآخرة.

عَبِيدُ الشَّهْوَةِ وَعِبَادُ اللهِ

٣٧-٣٩- ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ[1] ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ ﴾

والناس يومئذ فريقان: فأما من تمرد على أمر الله تعالى وطاعته، وتجرأ عليه بإرتكاب كبائر الذنوب، وجاوز الحد في الطغيان والكفر.

وفضّل الحياة الدنيا على الآخرة، فانْهمك في شهواته المحرمة، وأتبع نفسه هواها، وكان سعيه كله لدنياه ولم يستعد لآخرته بالإيمان والعمل الصالح، فكان ممّن قال الله فيهم: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠].

فإن مصيره ومستقره هو النار، لا منزل له سواها، يَصْلَى حرها وسعيرها. **قال تعالى:**

٤٠، ٤١- ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١ ﴾

وأما من استعدّ للقاء ربه بالإيمان والعمل الصالح، فخاف القيام بين يدي ربه

(١) قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ معدد آية عند الشامى والعراقي أي البصري والكوفي ومتروك من العدد عند الحجازين.

للحساب والجزاء، فقام وهو في الدنيا بحقوق الله تعالى وحقوق عباده، ونهى نفسه عما حرم الله تعالى، فزجرها وكفّها عن السيآت والمعاصي والتوجه نحو الأهواء الفاسدة الضالة المضلة، وكان هواه تبعاً لما جاء به محمد ﷺ، وجاهد النفس والهوى والشهوة والشيطان، فإن الجنة هي مسكنه، ودار النعيم هي مأواه، ليس له منزلاً سواها.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

عِلْمُ السَّاعَةِ عِنْدَ اللهِ وَحْدَهُ

٤٢ - ٤٤ - ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ[1] أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾

ويوم القيامة، الذي هو موضوع السورة: محل إنكار واستخفاف واستهزاء من المكذبين، لأن الكافر به قد عقد قلبه على استحالة وقوعه، فربما طلب التعجيل به إن كان حقّاً، وربما أوهم نفسه بأن عدم قيام الساعة في الزمن الذي هو فيه، دليل على عدم وقوعها ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف: ٥٨] وكثيراً ما يسأل المنكرون للبعث عن وقت حلول الساعة التي يتوعد بها القرآن من لم يصدق بها بأن مصيره النار ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أيها المخاطب عن وقت مجيء ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ استخفافاً بها، وإنكاراً لها: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى تحل؟ ومتى تقع؟

والجواب يَحْمِلُ توبيخاً لهم: بأن الرسول نفسه لا يعلم عنها شيئاً، ومرد علمها إلى الله وحده ﴿فِيمَ أَنتَ﴾ يا رسولنا ﴿مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي أنت لا تعلم عنها شيئاً، وما فائدة علمك وعلمهم بمعرفة وقت مجيئها؟

ولما لم يكن هناك مصلحة دينية ولا دنيوية في تعين وقتها أخفاها الله سبحانه عنا واستأثر بعلمها، بل إن المصلحة تقتضى عدم معرفتهم لها، حتى يكونوا على تمام الاستعداد لها في كل وقت، كأنها ستقوم الآن.

---

(١) وقف البزي ويعقوب بخلف عنهما بهاء السكت على ﴿فِيمَ﴾ والباقون بدونها.

والخطاب وإن كان موجها إلى النبي ﷺ فإن المقصود بلوغه إلى مسامع المكذبين.

وفي هذا الجواب، وهو ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ صرف للأنظار عن السؤال عن موعد قيام الساعة، والتوجه إلى ما هو أهم من ذلك بصرف العناية إلى الإعداد لها، بكثير من الرصيد الذي ينفع العبد يوم لقاء ربه، كما قال ﷺ لمن سأل عنها: «**ماذا أعددت لها**»؟

أما علم قيام الساعة نفسه، فهذا من الغيب الذي حجبه الله عنا، وإليه وحده منتهى عِلْمُ قيامها، كما قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: مازال رسول الله ﷺ يُسأل عن الساعة حتى أنزل الله تعالى ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ فانتهى فلم يسأل عنها[1].

لأن الآية تقرر أن منتهى علمهاعند الله وحده كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وعن طارق بن شهاب ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يكثر من ذكر الساعة حتى نزلت ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ فكف عنها[2].

وفي حديث سهل بن سعد ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا: بالوسطى والتي تلي الإبهام «**بعثت والساعة كهاتين**»[3].

---

(١) تفسير الطبري (٣٠/٤٩) والبزار في كشف الأستار برقم: (٢٢٧٩) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح المجمع (٧/١٣٣) وصححه الحاكم (٢/٥١٣) ووافقه الذهبي.

(٢) النسائي بسند حسن (٦٦٥) وفي الكبرى (١١٦٤٥) وفي ط الرسالة (١١٥٨١) والطبراني في الكبير (٨٢١٠) وقال ابن كثير: إسناده جيد (٨/٣١٥).

(٣) صحيح البخاري برقم: (٤٩٣٦).

الاستعداد لليوم الآخر

٤٥، ٤٦ - ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ[1] مَن يَخْشَىٰهَا ۝ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝﴾

أي فليس من مهماتك - يا رسولنا - معرفة وقت قيام الساعة، وإنما مهمتك أن تحذّر وتنذر من لا يخاف قيام الساعة ويخشى الوقوف بين يدى ربه، فهو يستعدُّ لها ويعمل لأجلها، فوظيفتك ـ أيها الرسول ـ دعوة الناس إلى الاستعداد لهذا اليوم، وهذا الإنذار ينتفع به صاحب الفطرة السليمة ممن كان عنده استعداد للإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.

أمّا من عطّل حواسه ومداركه عن الانتفاع بما يسمع من الخير والهدى، ممن علم الله تعالى أنه لن يؤمن، فإنه لن ينتفع بشيء لأنه مطموس البصيرة.

والآية تبين أن مهمة النبي ﷺ هي التحذير من مجيئها بغتة، والاستعداد لمجيئها في أي وقت، وليس مهمة النبي ﷺ أن يُعْلم الناس بزمن قيامها.

وقيام الساعة مهما طال أو تأخر، فإنها آتية لا محالة، ويكون الناس عند قيامها كأنهم لم يمكثوا في انتظارها إلا بعض يوم، فهم يستقصرون مدة الحياة الدنيا، أو مدة البرزخ، وكأنها ساعة من نهار عندما يقوم الناس لرب العالمين ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ووقت العشي: من الزوال إلى الغروب، ووقت الضحى: من شروق الشمس إلى وقت الزوال.

والمعنى: أن هذه الدنيا قصيرة عاجلة سريعة الزوال.

تم تفسير (سورة النازعات) ولله الحمد والمنة

---

(١) نون أبوجعفر لفظ ﴿مُنذِرٌ﴾ و ﴿مَن﴾ مفعول به، والباقون بعدم التنوين على إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله.

تَفْسِيرُ سُورَةِ عَبَسَ (٨٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة عبس) هي السورة الثمانون في ترتيب المصحف، والرابعة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة النجم) وقبل (سورة القدر).

ومما ورد في أسمائها: سورة ابن أم مكتوم، وسورة الأعمى، وسورة الصاخة، وسورة السفَرة، فهذه خمسة أسماء، سميت بها لورود هذه الألفاظ فيها، وأشهرها: الأول ﴿عَبَسَ﴾ وهي سورة مكية باتفاق، وهي أول سورة من أواسط المفصل.

وعدد آياتها اثنتان وأربعون آية في العدد الكوفي والمكي والمدني الأول، وأربعون آية في العدد الدمشقي، وإحدى وأربعون آية في العدد البصري والحمصي والمدني الأخير.

وهي مئة وثلاثون كلمة، وخمس مئة وثلاثة وثلاثون حرفاً.

موضوع السورة:

١- تناولت السورة قضية الوحي والرسالة في قصة عبد الله بن أم مكتوم ﷺ، حين كان النبي ﷺ مشغولاً بدعوة كبار قريش إلى الإسلام، لأنهم إذا اهتدوْا، استنَّ بهم غيرهم من جماهير الناس، ولما جاء ابن أم مكتوم يطلب التحدث مع النبي ﷺ ظل مهتما بدعوة الزعماء، فعاتبه ربه في ذلك.

وكان عبد الله إذا قدم على رسول الله ﷺ بعد ذلك قام إليه وأحسن استقباله، ويسط له رداءه، وقال: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي، وإذا غاب عن المدينة بعد الهجرة ولاّه عليها.

٢- وتمضي الآيات فتشرح طبيعة البلاغ الإلهي بأنه آيات تُسمع للتذكرة، وتُقرأ من صحف ملائكةٍ كرامٍ بررة، يدوّنها كتبة الوحي، ويستظهرها حفظة القرآن، وعلى من يَبْلُغُه الوحي أن يتدبر ويعمل، ويَفِرُّ إلى الله تعالى، ويستعدّ للقائه.

وكم من إنسان مُغلق الذهن، يضرب الأرض بقدميه، ولا يدري كيف جاء إلى الدنيا، ولماذا خُلق، وما مصيره بعد الموت؟ ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [الآية:١٧].

٣- وتتناول السورة جانب العقيدة، فتقيم جملة من دلائل الوحدانية، ممثّلة في خلْق الإنسان من نطفة، ثم موته بعد استغراق منهج حياته، وقد يسر الله للإنسان سبل العيش، فصبّ له الماء، وشق له الأرض، وأنبت له الزرع وأخرج له الضرع، كما يسر له الطريق إلى الإيمان وهداه إليه.

٤- ثم تناولت السورة الجانب الثالث من عناصر القرآن المكي، وهو الحديث عن يوم القيامة، فبينت حال المؤمنين وحال الكافرين يوم يكون كل إنسان مشغولاً بنفسه عن غيره، ولو كان ابنه فلذة كبده، وذلك حين تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه!

وهكذا بدأت السورة بعلاج حادثة معينة تتعلق بالضعفاء والفقراء وذوي العاهات، للرفق بهم في مجال الدعوة إلى الله تعالى وعدم الإعراض عنهم، أو تفضيل الأثرياء وذوي الجاه عليهم.

ثم عالجت جحود الإنسان وكفره، فذكّرته ببدايته ونهايته وأصل نشأته، وتيسير حياته، ومقابلة ذلك بالتقصير وعدم شكر المنعِم سبحانه.

ثم عرّجت آيات السورة على أمسّ شيء بالإنسان، يتعلق بطعامه وشرابه وتدبير أموره وتقديرها.

وفي نهاية السورة حديث عن الصاخة وأهوالها، وأحوال الناس فيها، وذهول كل إنسان عن غيره لأنه مشغول بنفسه، وفي هذا دعوة للاستعداد لها في وقت الرخاء.

إن البشر اليوم مشغولون بالدنيا، وقليل منهم من يصرف بعض همه للآخرة، ومن المؤسف أن التقدم العلمي يبحث مكانه، ولا يريد أن يعرف ما أمامه.

نبذة عن ابن أم مكتوم

٥- **عبد الله بن أم مكتوم**: هو ابن خال السيدة خديجة رضي الله عنها، واسمه: عمرو ابن قيس، كان كفيف البصر، وأم مكتوم: كنية أمه، نُسب إليها لشرفها وشرف قومها،

واسمها: عاتكة بنت عبد الله المخزومية.

وقد استخلفه النبي ﷺ على المدينة في خروجه إلى الغزوات ثلاث عشرة مرة، وقيل مرتين[1].

فكان النبي ﷺ يوليه إمارة المدينة حتى يعود، مع أنه كفيف البصر.

وهو من المهاجرين الأولين: كان مؤذِّناً للنبي ﷺ هو وبلال، ومن ذلك حديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ كان يقول: «إن بلالاً يؤذِّن بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم، وهو الأعمى الذي أنزل الله فيه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ وكان يؤذن مع بلال، وكان رجلاً ضرير البصر، فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس»[2].

قيل: إنه مات شهيدا بالقادسية يوم فتح المدائن، في خلافة عمر رضي الله عنه سنة أربع عشرة[3].

وفيه نزل قوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾[النساء:٩٥].

قال أنس: رأيته يوم القادسية، وعليه درع، ومعه راية[4].

مقاطع السورة:

١ ـ فالآيات العشر الأول من السورة تتحدث عن ابن أم مكتوم.

٢ ـ والآيات الست بعدها تتحدث عن الوحي والرسالة.

٣ ـ ومن الآية السابعة عشرة إلى الآية الثانية والثلاثين تتحدث عن جانب العقيدة وأدلة التوحيد، وهي تتمثل في خلق الإنسان وموته، وتتمثل في طعام الإنسان والحيوان ومراحل تكوينه.

٤ ـ والآيات الأخيرة من الثالثة والثلاثين إلى نهاية السورة تتناول جانب الإيمان باليوم الآخرة، يوم يفر المرء من أقرب الناس إليه، ويكون الناس فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير.

---

(١) وهو الذي جاء عند ابن سعد (٤/٢٠٩).

(٢) انظر الحديث في صحيح مسلم (١٠٩٢) والبخاري (٦١٧،٧٢٤٨) والترمذي (٢٠٣) والكبرى للنسائي (١٦١٣) والمسند (٤٥٥١) وابن حبان (٣٤٦٩-٣٤٧١).

(٣) ينظر: تفسير الألوسي (٣٠/٣٩) وابن عاشور (٣٠/١٠٤).

(٤) تفسير الخازن (٤/٣٥٣) وابن عطية (٥/٤٣٦).

سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله، أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يُعرِض عنه ويُقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً، فيقال: لا، ففي هذا أنزل[1].

وابن أم مكتوم كان ممن أسلم قديماً، وقد رأى النبي ﷺ أن من لم يدخل في الإسلام أحوج إلى الإقبال عليه، لاسيما إذا كان ممن يَقتدي به غيره.

وإلى جوار اجتهاد النبي ﷺ فإن ابن أم مكتوم كان رجلاً أعمى، لا يرى ما كان مشغولاً به النبي ﷺ من دعوة أشراف قريش.

قال ابن عطية وغيره عن ابن أم مكتوم: وهو رجل أعمى، جاء يقوده رجل آخر، فأومأ رسول الله ﷺ إلى قائده أن يؤخره عنه، ففعل، فدفعه عبد الله نحو رسول الله ﷺ وقال: علمني مما علمك الله، وكان رسول الله ﷺ مع الرجل المذكور يقرأ عليه القرآن، ويقول له: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول الرجل: لا، والأصنام، فلما ألح عليه عبد الله، عبس النبي ﷺ وأعرض عنه، وانصرف الرجل، فلما ذهب النبي ﷺ إلى بيته، لَوى رأسه وشخص بصره فأنزل الله عليه السورة[2]. وفهم الآيات التالية يتوقف على معرفة سبب النزول هذا.

وابن أم مكتوم هو الذي قال للنبي ﷺ: إني أسمع النداء، ولعلي لا أجد قائداً، فقال ﷺ: «**إذا سمعت النداء فأجب**»[3].

---

(١) صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٦٥١)، وهو في الترمذي برقم (٣٣٣١)، وأخرجه ابن حبان في الإحسان برقم (٥٣٥) بتصحيح الأرناؤوط، كما صححه الحاكم ووافقه الذهبي في المستدرك (٥١٤/٢) وكلاهما من طريق آخر.

(٢) تفسير ابن عطية (٤٣١/٥)، ورواه مالك في الموطأ مرسلا عن هشام بن عروة عن أبيه ومسند أبي يعلى (٢٦١/٨) وتفسير الطبري (٣٢/٣٠).

(٣) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة عن كعب بن عُجْرة برقم (١٣٥٤)، وهو عند الطبراني في الكبير برقم (٣٠٤).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

قِصَّةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ

١، ٢ - ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ [1] ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ ﴾

بدأ الله تعالى عتاب رسوله محمداً ﷺ في شأن عبد الله بن أم مكتوم، مسنَداً إلى ضمير الغائب، فقال سبحانه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ولم يقل (عبست وتوليت) وفي هذا تطمين من الله تعالى لرسوله، وعَفْوٌ مُسبق قبل إخباره بالذنب، حتى يسْكُن قلبه، لأن المشافهة بتاء الخطاب فيها شدة وصعوبة.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [التوبة:٤٣] .

والعبُوس: تقطيب الوجه وإظهار الغضب.

والتولي: استدارة البدن والإعراض عن المخاطب.

والمعنى: ظهر التقطيب والعُبوس في وجه الرسول ﷺ والاشتغال بما هو فيه، من الحرص على تبليغ الدعوة إلى من يرجو إسلامه، مع اطمئنانه على إسلام عبد الله.

فمواصلة الحديث مع من كان يتحدث إليه، أولى من قطعه لمن طرأ عليه قادماً، ومع هذا فالنبي ﷺ لم يُسْمِعه شيئاً يزعجه، وتقطيب الجبين، حركة مرئية لا مسموعة، والرجل أعمى.

وكان هذا العبوس لأجل أن الأعمى: عبد الله بن أم مكتوم جاءه مُسترشداً، وكان ﷺ منشغلاً بدعوة كبار القوم إلى الإسلام، وفي ذكر لفظ الأعمى دون غيره، ترقيق لقلب النبي ﷺ لبيان أن هذا العتاب ملحوظ فيه أن ابن أم مكتوم كان أجدر بالعناية والاهتمام،

---

(١) سورة عبس من السور الإحدى عشرة التي تمال رؤوس آيها، وقد أمال ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ وما بعدها من نظائرها حمزة والكسائي وخلف، وقللها الأزرق وأبوعمرو، إلا كلمة (الذكرى) بالنسبة لأبي عمرو فقد أمالها، وفتحها الباقون.

لأنه كفيف البصر، ومثله يكون سريع انكسار الخاطر.

ومن جهة ثانية: فإن لفظ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ يُشعر بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول ﷺ وأنه لو لم يكن كذلك، لرأى انشغال النبي ﷺ مع صناديد قريش، ولم يقطع كلامه، على أن النبي ﷺ لم يكن مشغولاً بأمر دنيوي، ولا بشيء خاص، ولا بأمر له فيه مصلحة.

وعتاب الله تعالى لرسوله ﷺ من باب أنه كان عليه أن يترفق به مراعاة لظروفه، مع أن ابن أم مكتوم كان يسمع، ومقتضى هذا ألا يُقدم على قطع كلام النبي ﷺ لاسيما وأن معه قائداً يعَلِّمه ويرشده.

ومن جهة ثالثة: فإن في هذا العتاب تعريضاً بغير عبد الله بن أم مكتوم ممن لم يُقبلوا على الإسلام ورفضوه، وكأن الله تعالى يقول لهم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[الحج:٤٦] فهذا رجلٌ كفيف البصر، ولكنه وقّاد البصيرة. أبصَر الحق وآمن، ومع أنه أعمى فقد جاء يطلب المزيد من العلم .

وهؤلاء القوم من المشركين قد أُغلقت قلوبهم وعَميت أبصارهم، فلم يُبْصِرُوا الحقيقة، ولم يُبْصِرُوا نور الإيمان(١).

وفي هذه القصة درس للدعاة إلى الله تعالى، كي يصبروا على ضعَفة المسلمين، ولا يفرقوا بين غني وفقير، فقد حثّ الله تعالى رسوله ﷺ على أن يصبّر نفسه مع الضعفاء والمساكين، ولا يطردهم عن مجلسه، ولا يتعدَّاهم إلى غيرهم .

قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ الكهف: ٢٨

وهكذا قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾[هود:٢٩].

بعد أن قال له قومه: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود:٢٧] .

---

(١) تتمة أضواء البيان (٩/٤٨).

وشأن الأنبياء أن يتبعهم ضعفاء القوم لا سادتهم، كما جاء في سؤال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن أتباع محمد ﷺ: أهم سادة القوم أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال: هكذا هم أتباع الرسل.

وهكذا كان بلال وعمار وصهيب وخبيب وابن أم مكتوم، فأكرم الناس على الله تعالى أتقاهم، ولا يوجد مع ذلك قيم أخرى من مال أو جاه أو سلطان.

ولفظ (أعمى) لم يذكر للتنقيص، بل للتعريف، وإذا قيل: فلان قصير، أو أفطس، أو أعرج، أو أعمى، ونحو ذلك، فهذا من باب الغيبة والهمز واللمز، وقد سمع النبي ﷺ عائشة تقول عن حفصة: إنها لقصيرة، فقال لها: «لقد قلتِ كلمة لو مُزِجَتْ بماء البحر لمزجته»[1].

قال تعالى مبيناً الفائدة في الإقبال على طالب الهداية الحريص على طلب العلم والزيادة منه:

٣، ٤ -﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ[2] ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ ﴾

وبعد أن جاء العتاب للنبي ﷺ بضمير الغائب مراعاة لمشاعره ﷺ خاطب الله تعالى رسوله مباشرة فقال له: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أي وما أعلمك بحال هذا الأعمى الذي عبسْتَ في وجهه ﴿ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ أي لعله يتطهر من ذنوبه، ويزداد خشية لربه بما يتلقاه عنك من علم ومعرفة، فتنفعه الموعظة التي استمع إليها.

ولعلك - أيها الرسول - إذا أقبلْتَ عليه بالإرشاد، يزداد الإيمان رسوخاً في نفسه، ويُقبل على التحلي بفضائل الشريعة ومكارم الأخلاق، والهدى الذي يزداد به المؤمن

---

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح (٢٥٠٤، ٢٥٠٥)، وأخرجه أيضاً أبوداود (٤٨٧٥)، وأحمد في المسند (١٨٩/٦) بإسناد صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٠)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٣٦، ٢٦٣٧)، ومشكاة المصابيح (٤٨٥٣، ٤٨٥٧)، وغاية المرام (٤٢٧).

(٢) قرأ عاصم بفتح العين من ﴿ فَتَنفَعَهُ ﴾ وهي منصوبة بأن مضمرة بعد الفاء وقرأ الباقون برفعها عطفا على ﴿ يَذَّكَّرُ ﴾.

رفعة، كاهتداء الكافر إلى الإيمان، وهذا معنى ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أي يتذكر بما ينفعه ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أي يحصل له المزيد من الاعتبار والانزجار، ويعمل بتلك الموعظة.

مَنْهَجُ الدَّاعِيَةِ فِي دَعْوَةِ الْفُقَرَاءِ وَالأَثْرِيَاءِ

٥ -٧-﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ[1] ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾﴾

وأشهر الأقوال أن الذي تصدى النبي ﷺ لدعوته وعرْض القرآن عليه، هو الوليد بن المغيرة المخزومي، وهو ممن عدّ نفسه غنيا عن هديك يا رسولنا، وممن استغنى بالمال والولد والجاه، فمع أنه لا يرى بأساً بما جاء في القرآن، يرى أنه غير محتاج إليه، وهكذا كل من كان على شاكلته إلى يوم القيامة.

وعلى هذا: فلا ينبغي للإنسان أن يترك أمراً معلوماً لأمر موهوم، ولا يترك مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة، وينبغي الإقبال على طالب العلم، الحريص عليه أكثر من غيره.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ عن الإيمان بالله ورسوله مغتراً بثروته وجاهه، فأنت تتعرض له بالإقبال عليه، والإصغاء لكلامه، مع أنه يُظهر الاستغناء عنك للإعراض عما جئت به، ووعظ الوعّاظ يكون لمن جاء بنفسه مقبلاً عليه مفتقراً إليه، فهو الذى ينبغى التصدى له، ولست مسؤولاً عمن أعرض ولم ينتفع بما جئت به.

فالمراد: وأي حرج عليك ـ يا أيها الرسول ـ في ألا يتطهر هذا الكافر وأمثاله من دنس الكفر والمعاصي، وأنت غير مطالب بهدايته، إنما عليك البلاغ.

وهذا معنى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ أي: وأي شيء، أو: وأيّ تَبِعة أو مسؤولية تقع عليك ـ أيها الرسول ـ إذا لم يتزكى الكافر ويتطهر من كفره، فلستَ مؤاخذاً بعدم اهتدائه، حتى تزيد من الحرص على الإقبال عليه، وهذا رِفْق من الله تعالى برسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦] . **قال تعالى:**

٨-١٠-﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ[1] ﴿١٠﴾﴾

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبوجعفر بتشديد الصاد من ﴿تَصَدَّىٰ﴾ والباقون بالتخفيف على حذف إحدى التاءين.

وبعد أن عاتب الله رسوله في شأن مَنِ استغنى وامتعض من التصدّي لدعوته، عاتبه ربه مرة أخرى بصورة أشد في شأن ابن أم مكتوم الذي جاء يسعى، ويشتد في مشيئته، حرصا على لقائه ﷺ طالباً تزكية نفسه، لأنه يخشى الله تعالى من التقصير، ويرغب في التزود من الهدى الذي لا يرغب فيه المستغنى.

وعلى هذا فإن في هذه الحادثة إرشاد كل كافر إلى الإسلام، عساه أن يسلم.

وإرشاد كل مؤمن إلى شُعب الإسلام عساه أن يزداد تزكية.

وكان اجتهاد النبي ﷺ قد أداه إلى أن دعوة الكافر أهم وأولى من دعوة المؤمن، لأن في إيمان الكافر نفع عام للأمة بزيادة عدد المسلمين وعزتهم، أما تزكية المؤمن فهو نفع خاص به.

والرسول ﷺ معنيٌّ بالمصالح العامة والخاصة، إلا أن الكافر صاحِب هذه القضية - وهو الوليد بن المغيرة ـ يضعُف الرجاء في إيمانه بالنظر إلى سيرته الطويلة.

ولذا: فقد أعلم الله تعالى رسوله ﷺ أن هذا المشرك الذي أخلص في نُصحه لا يُرجى منه صلاح هو وأمثاله، وأن هذا المؤمن الذي أرجأ نُصحه حتى يفرغ مما هو فيه، قد جاء متلهفا على النصيحة مستعدا لها، فازدياد صلاحه أمر مضمون، ولذا وجب التصدي له.

وهذه الأسرار والحِكَم التي في دخائل النفوس، لا يعلمها إلا الله، وقد أطلع الله رسوله عليها ليُعْلمه محل العتاب وسببه، مع ما له من الأجر على اجتهاده فيما لم يُوح إليه فيه.

وقد أُمِرْنا أن نأخذ بالظاهر، والله يتولى السرائر، ولا سبيل لمعرفة الأمور الغيبية إلا بإخبار الله تعالى لنا.

وهذا المشرك يُضْمِر الكفر والعناد في قلبه، والله وحده هو الذي يعلم أنه لن يؤمن، أما المؤمن فقد حانت له لحظة صفاء نفس، وإشراق قلب، قد لا يحصلان له في وقت آخر، لذا: عاتب الله رسوله ﷺ.

---

(١) شدّد البزي بخلف عنه التاء من ﴿تَلَهَّىٰ﴾ حال وصلها بما قبلها، مع صلة هاء الضمير قبلها ومدها مدا مشبعا لالتقاء الساكنين، والباقون بعدم التشديد.

وبعد هذا العتاب، كان النبي ﷺ يحتفي بابن أم مكتوم، فيفرش له رداءه ويقول: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي.

وبهذا يتبين أن ما أوحاه الله تعالى إلى نبيه ﷺ في هذه السورة، بما كان مغيَّباً عنه ﷺ حين أقبل على دعوة المشرك، وأرجأ إرشاد المؤمن هو من باب الوحي.

ومناط المعاتبة هو العبوس في وجه المؤمن، بحضرة المشرك، الذي يستصغر أمثال ابن أم مكتوم، وفيه تنويه بشأن المؤمن، وجمع بين التعليم والمعاتبة.

ذلكم قول الله تعالى ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ أي حريصاً على لقائك لطلب العلم والهداية، ولم يمنعه فُقدان بصره من الحرص على التفقه في الدين، ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي يخشى الله تعالى من التقصير في طلب العلم، ويخاف عقاب الله ، ويرجو ثوابه باتقاء محارمه، وامتثال أمره واجتناب نهيه، فأنت تتشاغل عنه، وتنصرف إلى رؤساء الكفر وزعماء القوم، وتُفرغ جهدك معهم طمعا في إيمانهم، قالوا: كان النبي ﷺ بعد هذا العتاب لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبداً، وكان الفقراء في مجلسه أمراء.

وهذه الآيات أشد عتاباً من سابقتها لأنها في صورة التعجب ممن يفعل ذلك.

قال ابن زيد وعائشة وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآيات، وآيات قصة زيد وزينب بنت جحش[١].

آيَاتُ الْقُرْآنِ هِدَايَةٌ وَمَوْعِظَةٌ

١١، ١٢- ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾

﴿كَلَّآ﴾ أي: حقاً إن هذه الموعظة تذكرة من الله لعباده المؤمنين، كي يبين لهم الرشد من الغيِّ والهدى من الضلال، فلا تظن - يا رسولنا - أنك مسؤول عن إيمان من لم

(١) تفسير ابن عطية (٥/٤٣٦)، وانظر الحديث في المسند (٢٤٢٢٧،٢٦٠٤١)، وهو حديث صحيح كما قال محققوه، وأخرجه الترمذي (٣٢٠٨)، وابن خزيمة في التوحيد (ص ٢٢٤)، وهو في مسلم (١٧٧،٢٨٨)، والنسائي في الكبرى (١١٤٠٨)، والطبراني في الكبير (١١١).

يؤمن، فليس الأمر كذلك ، فإن ما أُمرت به هو البلاغ، وقد أديتَ هذه المهمة على أكمل وجه.

وقد أنزل الله عليك آيات هذا القرآن لتذكير الناس ودعوتهم إلى التوحيد، وهذا معنى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي إن آيات هذه السورة موعظة لمن شاء أن يتعظ، وفيها تذكير لك بما غفلت عنه.

فمن شاء اتعظ وانتفع بهذا القرآن ، فذكر الله تعالى وتوخّى مرضاته، وعمل بما فيه ومن شاء خسر دنياه وأخراه، وهذا للتهديد والوعيد، وليس للتخيير بين الاتعاظ وعدمه كما قال تعالى ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ ﴾ [الزخرف:٤٤] .

وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الحاقة:٤٨] .

وقال أيضا: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر:٤٩] .

صُحُفُ الْمَلَائِكَةِ وَصُحُفُ الْقُرآنِ

١٣-١٦- ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾

ثم وصف الله سبحانه آيات القرآن التي فيها الاتعاظ بأنها آيات كائنة ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي معظمة موقّرة عند الله تعالى، والصحف هي القِطَع التي كان يُكتب فيها آي الذكر الحكيم، من جلد أو ورق أو خِرَق، أو جريد ونحو ذلك، والصحف المكتوب فيها القرآن حالياً هي ما بين دفتي المصحف، وهي صحف عظيمة الشأن، رفيعة القدر.

وتُطْلَقُ الصحف على الكتب المنزلة على الرسل السابقين، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى:١٩،٢٠] .

فيراد بالصحف في هذه الحالة ما ينسخ من اللوح المحفوظ.

وهي صحف مقدسة عالية القدر، منزهة عن الدنس والنقص والزيادة، فهي ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ الشأن عند الله تعالى ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ عما ليس من كلام الله تعالى، لا يمسها إلا المطهرون.

ولا تنالها الشياطين، ولا يقربها مسترقو السمع، ولا يتطرق إليها التغيير ولا التحريف ولا التبديل.

وهذه الصحف ﴿بِأَيْدِي﴾ ملائكة كَتَبة، وهؤلاء الملائكة وُصفوا بأنهم: ﴿سَفَرَةٍ﴾ أي سفراء بين الله تعالى وبين خلقه، وهم الذين ينسخون هذه الصحف من اللوح المحفوظ.

وهؤلاء الملائكة ﴿كِرَامٍ﴾ أي كرام الخلق على الله تعالى، وهم كثيرو الخير والبركة، لهم منزلة عظيمة عند الله تعالى من بين خلقه، وهم عباد له سبحانه، موصوفون بأنهم ﴿بَرَرَةٍ﴾ أي: في قلوبهم وأعمالهم، فهم أتقياء صالحون مطيعون لله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

ومن حِفْظِ الله تعالى لكتابه أن جعل السفراء بينه وبين رسله: الملائكة الكرام الأتقياء الأقوياء، ولم يجعل للشياطين عليهم سبيلاً.

١ - وبناء عليه: فإن هذه الأوصاف الثلاثة ﴿سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ إما أن تكون للملائكة كما جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها «**مثلُ الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة**»[1].

ولفظ مسلم: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**»[2].

على أن المراد بالصحف ما نسخته الملائكة من اللوح المحفوظ.

٢ - وإما أن يراد بالأوصاف الثلاثة كُتَّابُ الوحي: مثل زيد بن ثابت، وعبد الله بن عمرو، وعمر، وعثمان، وعلي، فيكون المراد بالصحف: ما كتب فيه آيات التنزيل في

(١- ٢) من حديث عائشة عند أحمد (٢٤٢١١)، والبخاري (٤٩٣٧) واللفظ الأول له، ومسلم (٧٩٨) واللفظ الثاني له، وانظر: أبوداود (١٤٥٤)، والترمذي (٢٩٠٤)، وابن ماجة (٣٧٧٩)، والنسائي في الكبرى (٨٠٤٥،٨٠٤٧،٧٩٩٢)، وابن حبان (٧٦٧).

القديم والحديث.

والقول الأول أرجح، لدلالة الدليل عليه، ونزوله بهذه الكيفية توجب الإيمان به وتلَقِّيه بالقبول، ولكن الإنسان يأبى إلا كفوراً.

أَصْلُ الإِنْسَانِ وَمُنْتَهَاهُ

١٧-١٩- ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾

ولما كانت القصة السابقة تشتمل على ترفّع الثري على الفقير، واستعلاء الكافر واستغنائه عن طريق الحق والنور، مع أن جنس الإنسان قد خُلق من نطفة قذرة، وينتهي أمره إلى جيفة مذرة، وهو في حياته كان يتبختر على الأرض متكبراً، وهو يحمل في بطنه أسوأ القاذورات.

أفلا يُستدل بهذا الخلْق على وحدانية الخالق سبحانه، وعلى أن الناس مبعوثون بعد موتهم للحساب والجزاء، ومَنْ كان هذا شأنه فهو جاحد لنِعَم ربه، مستحق للطرد واللعن من رحمة الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لُعن كل كافر وعُذّب، وطُرد من رحمة الله تعالى، وفي هذا تحقير لشأنه وتهديد له، وتعجيب من إفراطه في الكفر، مع كثرة نعم الله عليه ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ أي ما أشد كفره لأنعم الله وما أشنع ذلك ، وما أشد معاندته للحق بعد ما تبين، وفي هذا أكبر مذمة وأغلظ أسلوب، وأدل على سخط الله تعالى على الكافر.

والآية عامة في كل كافر إلى يوم القيامة.

وهذا الإنسان الكافر المعاند، من هو؟ إنه أضعف المخلوقات، فقد خُلق من ماء مهين:

ثم بيّن سبحانه أصل هذه الإنسان ومنتهاه، فتساءل جل شأنه على وجه التعجب عن مادة خلْق الإنسان قائلاً ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ ألم ير هذا الإنسان الكافر من أي شيء خلقه الله أول مرة؟ حتى يتكبر ويتعاظم على خلق الله، ويجحد وحدانيته، وينكر البعث والنشور، وهل يتكبر على الله أو على الناس من خرج من مجرى البول مرتين؟

قيل: إن هذه الآية نزلت في عتبة بن أبي لهب، وذلك أنه غاضَب أباه، فأتى النبي ﷺ

ثم إن أباه استصلحه وأعطاه مالاً، وجهزه إلى الشام، فبعث عُتْبة إلى النبي ﷺ وقال: إني كافر برب النجم إذا هوى، فَيُرْوَى أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم ابعث عليه كلبا من كلابك**»[١] أو قال: «**أما يخاف أن يرسل الله عليه كلبه**»[٢].

ثم إن عتبة خرج في سفْرة (فجاء الأسد فأكله بين الرفقة)[٣].

والآية عامة في كل من حارب الله ورسوله، وهذه النشأة للإنسان تشمل الكافر والمؤمن.

ثم أوضح سبحانه هذا الشيء الذي خُلق منه الإنسان فقال ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي أن الله تعالى خلقه من ماء قليل، هو المني الذي يخرج من الرجل إلى رحم المرأة، ثم قدّر خلقه، وسواه بشراً، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة، وليس في هذا الخلق من نطفة، تحقير لأصل نشأة الإنسان، بل فيه تقرير للمادة التي خلق منها ، كما في قوله تعالى ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٥-٧] وقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات:٢٠] أي ضعيف، وقد جعل الله خلق الإنسان أطواراً: فقد خلقه من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعلها عظماً، ثم كساه لحماً، فتبارك الخلاق العليم.

وقد تم هذا الخلق بمقدار مضبوط منظم، وهذا معنى: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي وقد جعله الله إنساناً عاقلاً مهيّأ للزيادة، ينظر ويتأمل ويتصرف، فقد قدّر الله رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤] .

---

(١) جاء هذا عن عكرمة كما في كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني (١٧٦/١٦) وعن أبي نعيم عن طاووس (٣٨٠)، وابن عساكر (٣٠٢/٣٨).

(٢) أخرجه أبونعيم عن أبي الضحى.

(٣) تفسير ابن عطية (٥/ ٤٣٨)، وأخرجه ابن المنذر عن عكرمة كما في الدر (١٥/ ٢٤٦).

تَيْسِيرُ اللهِ لِلإِنْسَانِ سُبُلَ مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ

• ٢٠-٢٢- ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) ﴾

وبعد أن خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، ومنحه العقل والتفكير، وجعله يميز بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، وضّح الله له طريق الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، والأمر والنهى، عن طريق العقل وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ليختار ما يوافق الفطرة، ويفي بعهد الميثاق المأخوذ عليه وهو في صلب آبائه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان:٣] فالسبيل هو النظر الصحيح المؤدي إلى الإيمان، وتيسيره بهبة العقل وإرسال الرسل، فإن اختار غيره فقد ضل السبيل وخالف الفطرة.

وبعد أن يأخذ العبد طريقه في الدنيا إلى الحق أو الباطل، ويكوّن في حياته رصيداً من الإيمان أو الكفر، والطاعة أو المعصية، يموت الإنسان، ويُجعل له مكاناً يُقبر فيه وهذا معنى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾ أي أمات هذا الإنسان، بأن سلبه الحياة، وجعله صاحب قبر يوارى فيه جسده تكريماً له، ولم يجعله كسائر الحيوانات بحيث تُلقى جثته جيفة على وجه الأرض.

ودفنُ الجسد في القبر من سنن الإسلام، أما تركه بدون دفن، أو حرقه، أو تحنيطه، ونحو ذلك، فليس فيه تكريم للإنسان.

والله تعالى يجمع ذرات جسد عبده للبعث يوم القيامة، على أي مصير كانت نهاية حياته: تذرية في الهواء، أو مواراةً في بطون السباع، أو تقطيع أشلاءٍ في الحروب، أو غير ذلك. ولأن الدفن في القبر هو الأكثر، وهو الوضع الطبيعي، فإن القرآن يعبِّر به دون غيره.

والقبر فترة يسميها الإسلام «البرزخ» فتشمل كل الصُوَر التي تنتهي بها حياة الإنسان.

وبعد انتهاء حياة البرزخ يأتي البعث والنشور ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ أي إذا شاء الله أحياه

بعد الموت للحساب والجزاء، وقال تعالى: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد، فهو إلى مشيئة الله تعالى، متى أراد أن يحيي الخلق أحياهم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:١٧، ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠]

وقال جل شأنه: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة:٢٥٩].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عَجْبُ الذَّنَب، منه خُلق، وفيه يركب**»[1].

والقبور تكون في بطن الأرض، والأرض أُمُّ الخلْق، فإذا خلق الله ما أراد، ومُلئت هذه القبور، انتهت الدنيا ومات كل من عليها، بعدها يأذن الله بالقيامة فتلفظ الأرض ما في جوفها وتخرج ما فيها،وتتحدث عن أخبارها وماجرى من الناس وهم فوق سطحها!

فالله تعالى هو المتفرد بالإحياء والإماتة وتدبير شؤون خلقه، لا يشاركه مشارك، ومع هذا فالإنسان لا يقوم بما أمره الله به، ولم يقض ما فرضه الله عليه، بل لا يزال مقصراً في حق الله تعالى:

الإِنْسَانُ لَمْ يَقُمْ بِجَمِيعِ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ

٢٣- ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾

أي: إن الإنسان الكافر، قد حُكِمَ عليه بالعذاب واللعن لشدة كفره، وإنكاره البعث والنشور، بسبب استدلاله الباطل بأن الله تعالى لم يبعث أحداً منذ القدم إلى الآن، هذا الإنسان، لم يزل مُعْرِضاً عن الإيمان الذي أمره الله به، ولو أنه أدى ما أمره الله به لَعلِمَ بُطلان زَعْمِه، فليس الأمر كما يزعُم من إنكاره للبعث والنشور، ولكنه لم يؤد ما أمره الله به من الإيمان والعمل بطاعته.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨١٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٥) واللفظ له.

﴿كَلَّا﴾ فليرتدع هذا الكافر، ولينزجر عن جهله وغروره وجحوده، لأنه ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي لم يقم بما أمره الله به من التكاليف الشرعية، وشُكْرِ الخالق على نِعَمِه، وأداء فرائضه وأوامره، واجتناب نواهيه، فقد أخل به، فكان خلل بعض الناس بالكفر وبعضهم بالعصيان ،ولم يقم بما أمر الله به إلا قليل.

ثم أرشد الله الإنسان إلى النظر والتأمل في طعامه، وكيف وصل إليه، بعد ما مرّ بأحوال عديدة واشترك في إعدادِ أعدادٌ من البشر لا يعلم عددهم إلا الله .

قِصَّةُ نَشْأَةِ الطَّعَامِ وَتَكْوِينِهِ

٢٤-٢٦- ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ[1] ﴿٢٤﴾ أَنَّا[2] صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾

فإذا أراد الإنسان أن يؤدي ما أمره الله به من أوامر ونواه، فعليه أن ينظر إلى تكوين الطعام ونشأة خلْقه، وينظر إلى تهيأة الماء لنفعه، وشقِّ الأرض لإخراج أنواع الغذاء للإنسان والحيوان، إبقاء على حياتهم، وليتدبر كيف أوجد الله طعامه، ورزَقه إياه ومكّنه منه، ويسّر له تحصيله، وجعله سبباً لحياته.

وليتأمل الإنسان مدخل ومخرج هذا الطعام، كيف يتلذذ به في دخوله، ويتقزز منه في خروج فَضَلاته، وكيف امتصّ الجسد منه ما به قِوامُ حياته، ففي هذا ما يأخذ بيده إلى الإيمان، ويُعينُه على طاعة الله تعالى، وإخلاص العبادة له.

ورد أن رجلاً استضافه عابد، فقدّم إليه رغيفاً قفاراً، فكأن الرجل استخشنه، فقال له: كُلْه، فإن الله تعالى لم يُنعم به عليك وكَمَلَّهُ لك حتى سخّر فيه ثلاث مئة وستين عاملاً منهم الماء والريح والشمس[3].

---

(١) قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ معدود آية عند جميع علماء العدد إلا المدني الأخير فلم يعده آية.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بفتح همزة ﴿أَنَّا﴾ على تقدير لام العلة، أي لأنا، وقرأ الباقون عدا رويس بالكسر، وقرأ رويس بالفتح وصلا، والكسر بدءاً.

(٣) تفسير ابن عطية (٥/٤٣٩).

ثم فصل سبحانه مراحل نشأة طعام الإنسان فقال: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ﴾ أي أنزلنا المطر بقوة وغزارة على الأرض، فصببناه ﴿صَبًّا﴾ أي أنزلناه بقُدْرتنا إنزالاً غزيراً عجيباً لحاجتكم الشديدة إليه، حيث لا تستطيعون الحياة بدونه.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا﴾ سطح ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿شَقًّا﴾ بديعاً محكماً، فخرج الزرع من باطن الأرض خروجاً يبهر النفوس، وتقر به العيون، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه:٥٣] . **قال تعالى:**

٢٧-٣٢- ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ[1] ﴿٣٢﴾﴾

أي: فأنبتنا في الأرض من هذا الماء حباً كثيراً، تقْتاتُون منه وتدّخرون لحاجتكم، كالأرز والفول والعدس والحنطة والشعير والذرة، وسائر البقول مما يُقتات ويُدّخر. فلفظ الحب: يشمل جميع الحبوب على اختلاف أصنافها.

وأخرجنا من الأرض ضمن الفواكه الكثيرة: عِنَباً شهياً لذيذ الطعم والمذاق، كما أخرجنا من الأرض ما تأكله الدواب وترعاه من العشب والكلأ وهو «القضب» لأنه يُقْضَب أي يُقْطَع مرة بعد مرة، وقيل: القضب: كل ما يؤكل رطباً من النبات.

وأخرجنا من الأرض أشجار الزيتون والنخيل، يخرج منها الزيت، والرطَب والبُسْر والتمر، وتخصيصهما بالذكر لما فيهما من الثمار المفيدة والمنافع الجمة.

وخص هذه الأربعة بالذكر وهي : (العنب والقضْب والزيتون والنخل) لكثرة منافعها وفوائدها.

وأنبتنا في الأرض حدائق كثيرة، وبساتين مليئة بالزروع والثمار، مُلْتفَّة الأشجار.

ومعنى ﴿غُلْبًا﴾ أي بساتين كثيرة وضخمة، متلاقية الأغصان والأطراف ملتفة الأشجار الكثير.

---

(١) عدّ ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ آية: الحجازيّون والكوفي، وتركه البصري والشامي.

وأنبتنا في الأرض بقدرتنا وفَضْلِنا: ألواناً من الفواكه والثمار، تؤكل للتفكه والتلذذ لا للقوت: كالتفاح والبرتقال والموز والمانجو والبطيخ.. الخ،،، كما أنبتنا الكلأ والعُشْب الذي ترعاه الدواب، وهذا معنى الأب.

١ - سئل أبوبكر ﷺ عن قوله تعالى:﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم[١].

٢ - وعن أنس أن عمر رضي الله عنهما قرأ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ فلما أتى على هذه الآية ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ قال: عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟ فقال أنس: لعمْرُك يا ابن الخطاب، إن هذا لهو التكلّف[٢].

قال ابن كثير: وهو محمول على أنه أراد أن يَعْرِفَ شكْله وجنْسه وعيْنه، وإلا فإن كل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض.

٣ - وعن عمر ﷺ بلفظ فيه زيادة، أنه قرأ هذه الآية فقال: كل هذا قد عرفناه ، فما الأب؟ ثم رفع عصاً كانت في يده وقال: هذا لَعمْرُ الله التكلّف، وما عليك يا بن أم عمر أن لا تدري ما الأب؟ ثم قال: اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدَعوه[٣].

قال الزمخشري: إن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره، وقد عُلم من فحوى الآية أن الأب بعضُ ما أنبته الله للإنسان متاعاً له ولأنعامه، فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله تعالى، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب، ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له، واكتف بمعرفته في الجملة إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت[٤].

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ٢٢٧)، وفي إسناده انقطاع بين إبراهيم التيمي وأبي بكر، وأخرجه عبد بن حميد كما في تخريج الكشاف (١٥٨/٤) وهو في فتح الباري (٢٧١/١٣).

(٢) تفسير الطبري (٣٨/٣٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٨٠/٧)، قال ابن كثير: فهذا إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس برقم (٣٢٥).

(٣) ينظر: ابن سعد (٣٢٧/٣)، والحاكم (٢٩٠/٢)، وتفسير سعيد بن منصور (٤٣)، والبيهقي في الشعب (٢٢٨١).

(٤) تفسير الكشاف (٧٠٥/٤).

ويبدو أن الأب يطلق على أشياء كثيرة من النبات الذي ترعاه الأنعام، ومنها: التبن، ويابس ورق الشجر، والبرسيم وحشيش الأرض ونحو ذلك.

في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر ﷺ يدعوني مع أصحاب محمد ﷺ فيقول لي: لا تتكلم حتى يتكلموا، قال: فدعاهم فسألهم عن ليلة القدر، فقال: أرأيتم قول رسول الله ﷺ (التمسوها في العشر الأواخر) أي ليلة ترونها؟ فقال: بعضهم: ليلة إحدى، وقال بعضهم: ليلة ثلاث، وقال آخر: خمس، وأنا ساكت، قال:- أي عمر- ما لَك لا تتكلم؟ قال: قلت: إنْ أَذِنت لي يا أمير المؤمنين تكلّمت؟ قال: فقال: ما أَرسَلْتُ إليك إلا للتكلم، قال: فقلت: أحدّثكم برأيي؟ قال: عن ذلك نسألك، قال: فقلت: السبع، رأيت الله عز وجل ذكَر سبع سموات، ومن الأرض سبعاً، وخلق الإنسان من سبع، ونبت الأرض سبع، قال: فقلت: إن الله يقول: ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ والأب نبت الأرض، ما يأكله الدواب ولا يأكله الناس، قال: فقال عمر: أعجزتم أن تقولوا كما قال هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه بعد، إني والله ما أرى القول إلا كما قلت، وقال: (قد كنتُ أمرتك ألا تتكلم حتى يتكلموا، وإني آمرك أن تتكلم معهم)[1].

وقد خلق الله هذه الفواكه، وخلق الحب والعُشْب، كي تنعموا بها أنتم وأنعامكم.

هذه هي قصة نشأة الطعام وتكوينه، والمبدع لها هو الله الذي خلق الإنسان، فأنشأها وتعهدها في كل مراحلها، حتى الحبوب والبذور التي يضعها الإنسان في الأرض ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ [الواقعة:٦٤] .

إن التربة واحدة، والماء واحد، والبذر واحد ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾ [الرعد:٤] .

---

(١) صحيح ابن خزيمة برقم (٢١٧٢) قال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤٣٧/١) من طريق عبد الله بن إدريس عن عاصم به، وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وذكره ابن حجر مختصرا في تفسير أبّاً، وصحح إسناده في الفتح (٢٧١/١٣).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:٩٩] .

وهذه النعم خلقها الله لكم، وسخرها من أجلكم، لتتمتعوا بها أنتم وأنعامكم، فوجب عليكم شكر المنعم بها وإفراده بالعبادة والإقبال عليه بالطاعة.

إنها أدلة على وحدانية الله تعالى في وجه الملاحدة ومن لا دين لهم، إنها أدلة على البعث، ليتعرف العباد على ربهم، ويأخذوا الأُهبة للقائه، فيفكّرون: كيف خُلقت هذه السنابل الحافلة، والعناقيد الزاهية؟ وكيف توزعت عليها الحلاوة والعطور والأذواق؟ إن مبدع ذلك من الأتربة والأرواث، هو الذي سيُنبت الأجساد مرة أخرى، ثم يواجه كل إنسان بما قدّم!

القيامة وأهوالها وانشغال كلّ إنسان بنفسه

٣٣-٣٧- ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ [١] ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ [٢] مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ [٣] مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾

ثم ذكر الله تعالى بعض أهوال الصاخة، وهي صيحة يوم القيامة التي تُصمّ من أهوالها الأسماع، وذلك عند النفخة الثانية التي يخرج الناس بعدها من قبورهم للحساب والجزاء.

وسميت كذلك لأنها تصخّ الآذان أي تزلزلها لشدة صوتها.

فإذا جاءت صيحة القيامة، التي تتفطر منها القلوب وتنزعج لها الأسماء، من شدة أهوالها وأحوالها، عندئذ يفر كل إنسان من أقرب الناس إليه، لأن مشغول بفكاك نفسه وتخليصها مما هو فيه.

ويومئذ يكون الناس في كرب عظيم، وكل واحد يهرب من ألصق الناس به وأقربهم

---

(١) قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ معدود آية عند جميع علماء العدد إلا الدمشقي فلا يعده.

(٢) المرء (فيه لحمزة وقفاً وهشام بخلف عنه : النقل مع السكون المحض والروم والإشمام .

(٣)وقف حمزة وهشام بخلف عنه بإبدال همزة ﴿ ٱمْرِئٍ ﴾ ياء مكسورة، ثم تسكن للوقف مع السكون المحض والروم والتسهيل بالروم..

إليه، فمبلغ كل إنسان أن ينجو بنفسه، ويهرب من أخيه وأمه وأبيه وزوجته وبنيه.

وخُص هؤلاء النفر بالذكر لأنهم أخص القرابات، وأوْلاهم بالحُنُوّ والرأفة، فالفرار منهم لا يكون إلا في أشد حالات الخوف والفزع، وهذا الفرار أوهذا التباعد خوفاً من المطالبة بالحقوق، حتى لا يطلب أحد من أحد مواساة، ولا تحمُّل تبعات، ولا أوزار، ولا شيء من حسنات، أو التنازل عن حقوق وواجبات، وفي الدنيا كانوا يَحْتَمون فيهم، ويتعززون بهم، ويتودّدون إليهم، وهم اليوم يفرون عنهم.

أخرج ابن عساكر عن الحسن قال: إن أول من يفر يوم القيامة من أبيه، إبراهيم، وأول من يفر من أمه، إبراهيم، وأول من يفر من ابنه، نوح، وأول من يفر من أخيه، هابيل، وأول من يفر من صاحبته، نوح ولوط، وتلا هذه الآية، فيرون أن هذه الآية نزلت فيهم[١].

قال في التسهيل: ذكر تعالى فرار الإنسان من أحبابه، ورتّبهم على مراتبهم في الحنوّ والشفقة، فبدأ بالأقل وختم بالأكثر، لأن الإنسان أشد شفقة على بنيه من كل ما تقدم ذكْره[٢].

فابتدأ بالأخ، لأنه أشد اتصالاً بأخيه في زمن الصبا، ثم ارتقى إلى الأبوين، لأنهما أشد قرباً، وقُدمت الأم على الأب لكثرة حُنوّها على أبنائها، ثم انتقل إلى الزوجة، لأن أحوالها كثيرة، فقد تكون حسَنَة العِشْرَة، أو سيئة العِشْرَة.

والأقرب أن يكون المراد بالفرار من هؤلاء الأقارب الخمسة: إذا كانوا غير مسلمين، خشية أن يؤخذ بِجُرْمِهم إذا ماتوا على الكفر.

ثم بين سبحانه أن سبب الفرار: هو انشغال كل إنسان بنفسه، وعدم التفكير في غيره، لشدة الهول، وعِظَم الخطب، كما صح في حديث الشفاعة أن كُلاًّ من أولي العزم من الرسل، حين تُطلبُ منهم الشفاعة في الخلائق يوم القيامة يقول كل منهم: (نفسي، نفسي، لا أسأل اليوم إلا نفسي، حتى إن عيسى ابن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدتني).

---

(١) ابن عساكر (٨/٦٤).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/١٨٠).

وعن عكرمة عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**تحشرون حفاةً عراةً غرلاً**» فقالت امرأة: أيُبْصِرُ بعضُنا عورة بعض؟ قال: «**يا فلانة ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾**»[1].

وعن سودة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**يُبعث الناس حفاة عراة غرلا، قد ألْجمهم العرق، ويلغ شحوم الآذان**»، فقلت: يا رسول الله، واسَوْأتاه، ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: «**قد شُغل الناس ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾**»[2].

ويوم القيامة يلقى الرجل زوجته، فيذكّرها بما كان بينهما في الدنيا من حسن العشرة، ويطلب منها حسنة واحدة تهبها له، فتقول له: لعلي أنجو، إني أخاف ما تخاف.

ويلقى الرجل ابنه فيتعلق به، ويذكّره بِحُسْن تربيته له، ثم يطلب منه حسنة ينجو بها، فيقول الولد: إني أتخوف مما تتخوف منه، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً[3].

ثم بين سبحانه أن الناس في هذا اليوم: سعداء وأشقياء، أما السعداء فقد ظهر في وجوههم السرور والبهجة، عند ما يعرفون نجاتهم من النار وفوزهم بالجنة، وأما الأشقياء، فتكون وجوههم سوداء مظلمة لمّا عرفت شفاءها وهلاكها.

وَصْفُ وُجُوهِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٣٨-٤٢- ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

---

(١) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح برقم (٣٣٣٢)، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٦٥٢)، وعند الحاكم (٢/٢٥١)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٦٤٧،١١٦٤٨) عن عائشة.

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٨/٣٤٠)، والحاكم بنحوه في المستدرك (٢/٥١٤)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذا اللفظ وأخرجه الطبراني (٩١)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عباس وهو ثقة، مجمع الزوائد (١٠/٣٣٣)، والحديث عن عائشة في البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩)، وابن ماجة (٤٢٧٦)، والمسند (٢٤٢٦٥)، والنسائي في الكبرى (٢٢٢١،١١٥٨٤)، وجاء أيضاً عن ابن عباس وغيره.

(٣) جاء هذا المعنى عن عكرمة كما في تفسير ابن كثير (٨/٣٢٥).

ثم إن الناس يوم القيامة: إما مؤمنون، وجوههم مبيضّة، وإما كافرون، وجوههم مسودة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي أن وجوه أهل النعيم مستبشرة، مسرورة، فرحة، من حُسْنِ استقبال الملائكة، ومن حُسْنِ العاقبة التي يرونها، وهؤلاء هم الذين خافوا مقام ربهم، ونهوْا أنفسهم عن الهوى، ممن ذُكِرُوا في آخر سورة النازعات في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ النازعات: ٤٠ - ٤١

فوجوههم يوم القيامة تتهلل إشراقاً وضياءً من أثر النعيم، فهي وجوه ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ بهذا النعيم الدائم، وما ترى من كرامة الله ورضوانه.

أما الصنف الآخر، وهم الكفار، فإن وجوههم تكون مغبرّة مُكْفهِرّة، يعلوها السواد والكآبة، وتغشاها الذلة والمهانة ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ مظلمة، عليها غبار، من شدة الهم والغم والكرب.

يغلب عليها الدخان والغبار والسواد، لشدة ما أصابها من خزي وخسران.

وأصحاب هذا الوصف هم الذين كفروا بنعم الله تعالى، وكذبوا بآياته، وتَجرّؤوا على محارمه بالفجور والطغيان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: أصحاب الوجوه التي يغلُوها الغبار والسواد ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ الجامعون بين فساد الاعتقاد، وفساد القول والعمل، فجمعوا بهذا بين الكفر والفجور.

وبهذا ذم الله تعالى قوم نوح عليه السلام كما جاء على لسانه ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٧].

لأنهم غير مؤمنين بالله ورسوله، وقد خرجوا عن حدوده تعالى، وانتهكوا حرماته.

وهؤلاء هم الذين جاء ذكرهم في سورة النازعات في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات:٣٧-٣٩].

تم تفسير (سورة عبس) ولله الحمد والمنة

تَفسِيرُ سُورَةِ التَّكْوِيرِ (٨١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة التكوير) هي السورة الحادية والثمانون في ترتيب المصحف، والسابعة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الفاتحة) وقبل (سورة الأعلى)، فهي من أوائل ما نزل من القرآن.

وتسمى سورة التكوير، وهو المشهور ويقال: سورة كُوِّرت، وعنْون لها البخاري والترمذي والطبري (سورة إذا الشمس كورت) وهي سورة مكية باتفاق.

وعدد آياتها تسع وعشرون آية عند الجميع، إلا المدني الأخير، فهى عنده ثمان وعشرون آية، وهي مئة وأربع كلمات، وخمس مئة وثلاثون حرفاً.

وسورة التكوير على نصفين:

النصف الأول يتحدث عن يوم القيامة ومقدماته. وجاء ذلك في الأربع عشرة آية الأولى من السورة.

والنصف الآخر يتحدث عن أن القرآن الكريم وحي من عند الله تعالى، وأنه بلاغ وتذكرة لمن شاء أن يستقيم من العالمين. وجاء ذلك من الآية الخامسة عشر إلى نهاية السورة.

أما النصف الأول فهو يتناول حقيقة القيامة وما يصاحبها من تغييرٍ لمعالم الكون في العالم العلوي والسفلي، فقد جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عين، فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾**»[1].

---

(١) المسند (٣٦/٢) (٤٨٠٦،٥٧٥٥) بإسناد حسن (محققوه)، والترمذي (٣٣٣٣) وقال: حسن غريب، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٥٣) بتصحيح الألباني له، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في المستدرك (٥٧٦/٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٤/٧): رواه أحمد بإسنادين ورجالهما ثقات، ونقله عن الطبراني، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٠٨١)، وفي صحيح الترغيب والترهيب (١٤٧).

وأخرج الطبري وغيره بسند جيد عن أبي العالية قال: حدثني أُبيّ بن كعب ﷺ، وقال: ستٌّ آيات قَبْلَ يوم القيامة، بينما الناس في أسواقهم، إذْ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك، إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت واحترقت، وفزعت الجن إلى الإنس، والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش، وماجُوا بعضهم في بعض ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال: اختلطت، و﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال: أهملها أهلها ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال: قالت الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلَقُوا إلى البحار، فإذا هي نار تتأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صَدْعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم[1].

وقد ذكرتْ سورة التكوير في الأربعة عشر آية الأولى ، اثنيْ عشر حدثاً، ستةٌ منها تقع في آخر الحياة الدنيا، تصاحب قيام الساعة، وعودة الناس إلى ربهم للحساب الكبير، وهذه الأحداث هي:

١- توقُّف إشعاع الشمس، و مجيء الظلام الذي يسود العالم ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١].

٢- تَساقُط النجوم واختلال نظامها ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢].

٣- نسف الجبال وتفتتها ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣].

٤- توقف الإنسان والحيوان عن الإنجاب، وتوقف عجلة الحياة عن الحركة، وامتناع نزول المطر ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤].

٥- تلاقي الوحوش من مقارها البعيدة ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

٦- امْتلاء البحار وفيضانها، وانفجارها حتى تطارد الإنسان والحيوان، وتوْجج بالنار ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

---

(١) تفسير الطبري (٤٣/٣٠)، وابن أبي الدنيا (٢٣)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٣٥٣/٨)، ونقله السيوطي في الدر (٢٥٩/١٥) عن عبد بن حميد وابن المنذر.

وستة أخرى تحصل في الآخرة وهي:

١- عودة الأرواح إلى أبدانها بعد فراقها أمداً بعيداً، وتَلاقي كل نظير بنظيره.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

٢- تَطْييب خاطر الموؤودة وتبكيت وائدها: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ – ٩].

٣- نَشْرُ الصحف، وتسلُّم كل إنسان كتاب أعماله بما فيه من خير أو شر.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠].

٤- محْوُ معالم السماء، بعد أن فُتِحت أبوابا لعروج الملائكة، إلى أنْ يتم الفصل والقضاء ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١].

٥- استقبال جهنم للمجرمين ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير: ١٢].

٦- وتقريب النعيم من أهل الجنة ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١٣].

فهذا تلخيص لما يقع عند قيام الساعة، وتوزيع للناس على مصيرهم المحتوم بعد قيامها.

وقد شمل هذا التغيير: الشمس، والنجوم، والجبال، والبحار، والأرض، والسماء، والأنعام، والوحوش، والبشر.

ويُبدىء كل منها بلفظ ﴿إِذَا﴾ لأن كل حدث منها مستقل بنفسه.

وجواب الشرط في الجميع قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

أما النصف الثاني: من السورة، فهو يتناول حقيقة الوحي وما يتعلق به، من صِفَةِ الملَكَ الذي يحْمِلُه، وصِفَةِ النبي الذي يتلقاه، وصِفَة القرآن المنّزل عليه، وشأنِ القومِ المخاطبين به.

فيبدأ هذا النصف بالقسم بالنجوم، وبالليل والصبح، على أن كتاب الله تعالى، هو الكتاب الحق الوحيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد حَمَل هذا الوحي إلى الأرض ملَك أمينٌ عليه، مقربٌ عند الله تعالى، صاحبُ قوة وبطش، وصاحبُ ثبات في تنفيذ أمر الله تعالى، وقد رآه النبي ﷺ على صورته الحقيقية حين نزل عليه أول مرة بالأفق المبين.

وهذا النبي الكريم منزه عما يصفه به المكذبون من السحر والجنون، وقد جاء بكتاب يُنْذِر البشر أجمعين ويأمرهم بالانخراط في طريق الاستقامة والحق والإيمان، وهذا الكتاب يقرر عالمية الرسالة، والذين يَخْرُجون عنه عاقّون لوحي السماء.

وقد خُتمت السورة ببطلان مزاعم المكذبين المعارضين للقرآن، في أنه ليس من عند الله تعالى، وإنما ينتفع به من فَتحوا قلوبهم للحق، ولم يُعطّلوا حواسهم ومداركهم عماً خُلِقت لأجله.

والسورة تهزّ النفس البشرية هزاً عنيفاً، وتروّع الآمن، وينْخلِع لها القلب، ويقْشعر لها البدن، فتأخذ بيد الإنسان إلى الملأ الآمن في كنَف الله تعالى، وتجْعله يأوي إلى حِمَاه، ويطلب عنده الأمْن والطمأنينة.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْمَوْضُوعُ الأَوَّلُ فِي السُّورَةِ: سِتَّةُ أَحْدَاثٍ تَقَعُ فِي الدُّنْيَا عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

الحدث الأول: توقف شعاع الشمس:

١ - ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾

يبدأ انفراط عِقْد نظام هذا الكون، وتناثُر أجزائه، وانتهاء صفحة الحياة الدنيا، وتبديل الأرض غير الأرض والسموات، يبدأ كل ذلك بالظلام الذي يسود العالم، فإذا الشمس تبرُد، وتنطفىء شعْلتها، وتنكمش ألْسنتها الملتهبة، فتتحول إلى حالة تجمّد، كقشرة الأرض، ويكون ذلك عندما تكور الشمس، أي تُجْمع وتُلف، ويُخسف القمر، ويُلْقيان في النار.

وقد أفاد الزمخشري أن التكوير له معنيان:

أحدهما: أن يكون التكوير من كَوَّرْتُ العمامة، إذا لَفَفتُها، وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها.

وثانيهما: أن يكون لَفُّها بمعنى رَفْعها وسَتْرُها، لأن الثوب إذا أريد رفْعُه: لُفَّ وطُوى[1].

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي لُفّت وجُعِلَتْ كالكرة، كما تُلف العمامة، فكُورت وذهب ضوؤها، لأن الله تعالى جعل لها أجلاً مسمى تنتهي إليه، وتتوقف عن حركتها فيه، كما قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٥] فإذا جاء هذا الأجل توقفتْ عن جريانها.

وهذا معنى اجتماع الشمس والقمر عند قيام الساعة في قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩] وما كان لهما أن يجتمعا قبل ذلك ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

ويكون اجتماع الشمس مع القمر عندما يقال لها: عودي من حيث جئت، فتطلُع من

(١) ينظر تفسير الكشاف (٤/٧٠٧).

مغربها، وتجتمع مع القمر، ويُضَم بعضها إلى بعض، ثم تُلف ويذهب ضوؤها بعد أن كان منبسطاً غير ملفوف.

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**الشمس والقمر يُكَوّران يوم القيامة**»[1].

قيل: إن الشمس والقمر جمادان، فإلقاؤهما في النار يكون سبباً لازدياد الحر في جهنم.

وقيل: إن لفّ الشمس يعني رفعها وسترها وطيّها كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[2] [الأنبياء: ١٠٤].

والمعنى: إذا الشمس أزيل ضوؤها بعد انتشاره وانبساطه، فأصبحت مظلمة بعد أن كانت مضيئة، ومستترة بعد أن كانت بارزة، فعند ذلك تقوم الساعة، ويَعْرِف كل إنسان مصيره.

الْحَدَثُ الثَّانِي: تَسَاقُطُ النُّجُومِ

٢ - ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾

أي أن النجوم تتناثر من السماء وتتساقط من أفلاكها وتتغير وتنقلب هيأتها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] فإذا تناثرت ذهبت من أماكنها، وتغيّر نظامها، فتُطمس ويَذهب نورها، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات:٨] وهذا معنى الانكدار، وهو التغيّر لأحوالها، حينما يتغير لونها من اللمعان والظهور، إلى الظلام الدامس، ثم تنقضّ وتتصبّب، وهي تهوى وتسقط.

الْحَدَثُ الثَّالِثُ: زَوَالُ الْجِبَالِ عَنْ أَمَاكِنِهَا

٣ - ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾

أي أن الجبال تقلع من أماكنها فتتفتّتُ، وتتناثر، وتصير كثيباً مهيلاً، ثم تصير كالعهن المنفوش، وتُسيّر في الفضاء بقدرة الله تعالى، فتكون هباءً منثوراً وتسير عن أماكنها:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٠٠)، وأخرجه البزار في مسنده بزيادة «في النار».

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٢)، والمسند (٧٢٠٤، ٧٩٩٦، ٨٨٤٧)، وصحيح سنن الترمذي (١٩٧٢)، والسلسلة الصحيحة (١٥٨٨).

١- كما قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

٣- وقال جل شأنه: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥ – ٦].

٤- وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

٥ – وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

الْحَدَثُ الرَّابِعُ: تَوَقُّفُ الْحَمْلِ وَالإِنْجَابِ

٤ – ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾

وعند قيام الساعة، تتوقف عجلة الحياة، فالسعي على المعاش لا حاجة له، حيث يعطل الناس أنفس أموالهم من تجارات وأسهم وزراعة وصناعة، ويَتْرُكُ كل عامل عمله، ويُهْمِلُ كل راع ما كان يرعاه، وتتوقف حركة الحمل والإنجاب في الإنسان والحيوان، كما أن السحب المحمّلة بالأمطار تخلو من المياه، فتتوقف السماء عن الأمطار.

والعشار هي: النوق الحوامل. والناقة العُشَراء، هي الحامل، إذا بلغ حملها عشرة أشهر، وأوشكت على وضع الحمل، لأن الناقة تحمل عاماً كاملاً، ومع أنها أنْفَس الأموال عند أصحابها، فإنها تُعطّل عن الحركة وعن الحمل، وتُهْمَل ولا تجد من يرعاها عندما تقوم الساعة، والتعبير بالعشار، وهي النوق التي تتبعها أولادها، للتنبيه بها على ما عداها، فقد جاء للناس ما يذهلهم عن أموالهم وعن معاشهم.

ويُستعار معنى العشار: للسحب الممتلئة بالماء عندما يُحبس عن النزول، أو أن السحاب الثقال لا تتجمع ولا تحمل ماء، فيتعطل تكوينها وذلك عندما يهلك الناس والأنعام.. والآية محتملة لهذا وذاك.

الْحَدَثُ الْخَامِسُ: حَشْرُ الْوُحُوشِ وَالْحَيْوَانَاتِ

٥ – ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾

ويوم القيامة تُجمع الحيوانات الوحشية كالأسد والنمر، وتختلط في صعيدٍ واحد، ليقتصّ الله من بعضها لبعض، حتى إنه لَيُقْتص للشاة الجماء من الشاة القرناء وذلك أنه عند اقتراب فناء العالم، يغمُر الأرض فيَضان البحار، فكلما غمر جزءاً من الأرض، فرّت وحوشُه حتى تجتمع في مكان واحد، تطلب النجاة من الهلاك، فإن مِنْ طبْع الوحوش أن ينفِرَ بعضها عن بعض، ولكنها من شدة الهول تتجمع في مكان واحد، ولا يعتدي بعضها على بعض، ولا يفترس بعضها بعضاً، لأنها قد أُذهلت عما في طبعها.

وتسجير البحار في الآية التالية يرشح هذا المعنى، ويوصى به.

وهذا الحشر للحيوانات من أشراط الساعة، وليس هو اليوم الذي يحشر الناس فيه للحساب.

جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لتُؤدُّنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجمّاء من الشاة القرناء**»[1].

والوحش هو الحيوان البري غير المستأنس بالناس. وفي حشر الوحوش يوم القيامة خلاف:

١- فقال ابن عباس: تحشر بالموت، ولا تُبعث في القيامة، ولا يحضر القيامة غير الثقلين.

٢- وقال قتادة وجماعة: تحشر يوم القيامة، ويُقتص للجماء من القرناء، فجعلوا الحديث الوارد في ذلك على الحقيقة، وليس مثالاً في العدل.

٣- وقال أبي بن كعب: تحشر في الدنيا في أول أهوال القيامة، فتجتمع إلى بني آدم تأنيساً، بهم ولا تفرّ في الأرض[2].

الحَدَثُ السَّادِسُ: تَسْجِيرُ البِحَارِ

٦ - ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ[3]﴾

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٥٨٢)، والمسند (٧٢٠٤،٧٩٩٦،٨٨٤٧)، وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (١٩٧٢)، والسلسلة الصحيحة (١٥٨٨).

(٢) تنظر هذه الأقوال في تفسير ابن عطية (٥/٤٤١).

(٣) قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب بخلف عن رويس بتخفيف الجيم من ﴿سُجِرَتْ﴾ على الأصل ، والباقون بتشديدها على التكثير.

أما تسجير البحار، فمعناه أنها تمتلىء بالمياه، حتى يفيض من جوانبها، ويتجاوز معدّله سطح الأرض، فيختلط بعض البحار ببعض، وتتفجر وتسيل، ويختلط الماء بالرمل فيتغير لونها، ويختلط العذب بالملح، وتصير بحراً واحداً، وذلك باختلال قوة الهواء الضاغطة عليها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].

وتدفُّق مياه البحار بعضها في بعض، يكون بالزلازل والبراكين التي تُزيل الحواجز بين البحار.

قال تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦].

قال ابن عباس في معنى ﴿سُجِّرَتْ﴾ أُوقدتْ، فصارت ناراً تضطرم[1].

وأثبت العلم أن تحت البحر ناراً، فإذا فاضت البحار ظهرت النيران في أماكنها، وحينئذ تتأجج النار، فتلتهب، ويضطرم بعضها في بعض.

وفي الأثر عن عبد الله بن عمرو ﷺ: (لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غازٍ فى سبيل الله ، فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً..)[2].

وقال علي ﷺ لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر، فقال: ما أراه إلا صادقاً ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦] ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[3].

ستة أحداث أخرى تقع في الآخرة بعد قيام الساعة

الحدث الأول: عودة الأرواح إلى الأبدان وتلاقي كل نظير بنظيره

٧ - ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾

تزويج النفوس له معنيان:

أحدهما: إعادة الروح إلى الجسد عند البعث.

---

(١) تفسير الخازن (٣٥٥/٤).

(٢) أبوداود برقم (٢٤٨٩) باب ركوب البحر فى الغزو ، وفي رفعه مقال.

(٣) تفسير الطبري (٤٣/٣٠).

وثانيهما: أن كل قرين يتبع قرينه، فالمسلمون مع المسلمين، واليهود مع اليهود، وهكذا، يقرن كل صاحب عمل مع نظيره: الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار.

ومن ذلك أن كل من كان يعبد غير الله تعالى فإنه يتبعه.

ومن ذلك أيضاً أن المؤمنين يزوَّجون بالحور العين، وأن الكفار يُقْرَنون بالشياطين.

وهكذا شرع سبحانه وتعالى في ذكر الأحوال الستة الحاصلة في الآخرة يوم القيامة، وهي التي تقع عقب الأحوال الستة السابق ذكرها.

وأول شيء يحدث هو: تزويج الأرواح بالأجساد المخصصة لها، وعودتها لها، فيصير الروح زوجاً بعد أن كان فرداً لا جسم له في عالم الأرواح، فتعطى الأرواح للأجساد، ويُعاد خلْقها، فأول منازل البعث وتحقق وقوعه يكون باقتران الأرواح بالأجساد.

ثم إن الناس في عرصات القيامة، بالنسبة إلى مراتبهم في الحشر على قسمين:

حيث يساق الكفار مع الكفار إلى جهنم زمراً، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] ويساق المتقون مع المتقين إلى الجنة زمراً، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣].

وفي أول سورة الواقعة ونهايتها تصنيف الناس يوم الحشر إلى ثلاثة أصناف:

١-السابقون المقربون. ٢- وعامة المؤمنين من أصحاب اليمين.

٣- ثم الكفار الفجار المكذبون الضالون، وهم أصحاب المشأمة.

وحينئذ فإن كل صنف يُضم إلى طائفته ممن هو في طبقته، فالصالح مع الصالح، والطالح مع الطالح، والعاصي مع العاصي، وأهل الجنة مع أهل الجنة، كلٌّ مع من يماثله في الدرجة والمنزلة، وأهل النار كذلك، فكل إنسان يقرَن بنظيره.

وهذا معنى: تزويج النفوس، كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾ [الواقعة: ٧].

والمرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل، والمرء مع من أحب.

قال تعالى ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

قال عمر ﷺ في معنى النفوس زوجت: يزوج كل نظير نظيره من أهل الجنة والنار، ثم قرأ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[1] [الصافات: ٢٢ ــ ٢٤].

ولفظ الحاكم: هما الرجلان يعملان العمل، يدخُلان به الجنة والنار: الفاجر مع الفاجر، والصالح مع الصالح. فيقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار[2].

ومن ذلك أن المؤمنين يُزوّجون بالحور العين، ويزوّج الكافرون بالشياطين[3].

الْحَدَثُ الثَّانِي: تَطْيِيبُ خَاطِرِ الْمَوْؤُودَةِ وَتَبْكِيتِ مَنْ وَأَدَهَا

٨، ٩ - ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ[4] سُئِلَتْ[5] ﴿٨﴾ بِأَىِّ[6] ذَنۢبٍ قُتِلَتْ[7] ﴿٩﴾﴾

ويوم القيامة يتوجه سؤال عجيب غريب إلى الموؤودة: فقد جرت العادة أن الظالم هو الذي يُسأل، أما هذا السؤال فإنه يُوجّه للمظلوم، فكيف بالظالم؟ إن الطفلة التي دُفنت وهي حية، تُسأل يوم القيامة سؤال تطييب لها، وتبكيت لوائدها: بأي ذنب دُفنت

---

(١) أخرجه ابن مردويه عن النعمان بن بشير (٦٩٤/٨)، قال ابن حجر: وصلَه عبد بن حميد، والحاكم وأبونعيم في الحلية ثم قال: وهذا إسناد متصل صحيح، وهو أيضا في تغليق التعليق (٣٦١/٤).

(٢) ورد هذا عن عمر بن الخطاب ﷺ كما أخرجه عبد الرزاق (٣٥٠/٢) وابن أبي شيبة (٢٧٩/١٣) والطبري (١٤٢/٢٤) والحاكم (٥١٥/٢).

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي (ص ٢١٣).

(٤) وقف حمزة على ﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ بالنقل والإدغام، ووقف الكسائي بإمالة هاء التأنيث قولاً واحداً، والباقون بتحقيق الهمزة وعدم إمالة الهاء.

(٥) وقف حمزة على ﴿سُئِلَتْ﴾ بالتسهيل بين بين، وله أيضاً الإبدال ياء، على مذهب الأخفش، ووقف باقى القراء بتحقيق الهمزة.

(٦) قرأ الأصبهاني بإبدال الهمزة ياء في ﴿بِأَىِّ﴾ بخلْف عنه، ولحمزة وقفا: التحقيق والإبدال ياء، وباقى القراء بتحقيق الهمزةوصلاً ووقفاً.

(٧) قرأ أبوجعفر بتشديد التاء من ﴿قُتِلَتْ﴾ على التكثير، والباقون بالتخفيف على الأصل.

في التراب؟ ما هو ذنبها حتى قُتلت؟

ولا شك أنها لم ترتكب ما يوجب قتلها، وإنما القصد من ذلك: إلزام قائلها الحجة، وتقريعه وتوبيخه.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف: ١٧].

وكان الكثير من قبائل العرب لا يفعلون هذا الوأد، وينكرونه ولا يرضوْن عنه، وقد عُرف الوأد في قبائل ربيعة وكندة وتميم، وكانوا يفعلون ذلك خوفاً من الفقر والعار، وهذه صور من الوأد في الجاهلية:

١- جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المرأة كانت في الجاهلية إذا حملت، وحان وقت ولادتها، حفرت لها حفرة، وجعلت المخاض يأتيها على رأس هذه الحفرة، فإن خرج المولود بنتاً رمتْ بها في الحفرة، ووارتْها التراب، وإن كان ولداً أبْقته[1] نحمد الله على نعمة الإسلام ! !

٢- وعن سلمة بن يزيد الجُعْفيّ قال: ذهبتُ أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله: إن أُمّنا كانت في الجاهلية تقري الضيف، وتصل الرحم، هل ينفعها عملها ذلك؟ قال: لا، قال: فإنها أوْدتْ أختاً لها في الجاهلية لم تبلغ الحنث؟ فقال ﷺ «الموؤودة والوائدة في النار، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام»[2] وكونهما في النارلأنهما أهل كفر وشرك .

٣ - وكان بعض الرجال إذا وُلدت له بنت، وأراد بقاءها، ألبسها جبة من صوف أو من شعر، وجعلها ترعى الإبل والغنم في البادية، فإن عَزم على وأدها تركها حتى تبلغ السادسة، ثم قال لأمها: طيّبيها، وزيّنيها، حتى أذهب بها إلى أحْماها، فيأخذها إلى بئر

---

(١) ينظر: الدر المنثور (١٥/٢٦٢).

(٢) السنن الكبرى للنسائى (١١٥٨٥)، والطبراني في الكبير (٦٣١٩)، وأحمد فى المسند (١٥٩٣٢) قال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين غير داود بن أبي هند فمن رجال مسلم.

أعدَّها، ثم يقول لها: انظري، فإذا نظرتْ، دفَعها من ورائها وهال عليها التراب، حتى تستوي البئر بالأرض[١].

٤- جاء قيس بن عاصم إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: إني وأدْتُ بناتٍ لي في الجاهلية، في بعض الروايات أنهن: ثمان، وفي بعضها: عشر، وفي بعضها: ثلاث عشرة، فقال: «**اعتق عن كل واحدة منهن**».

وفي رواية: «**اعتق عددهن نَسَماً**» فأعتق عددهن نَسَماً، فلما كان العام القادم جاء بمئة ناقة، فقال: يا رسول الله، هذه صدقة قومي على إثر ما صنعتُ بالمسلمين[٢].

والوأد أفظع أعمال أهل الشرك، لأن الفطرة تقضي بحرص الآباء على أبنائهم، وهو أفظع طريقة لإزهاق الروح.

٥- وكان صعصة «جدّ الفرزدق» من بني تميم: يفتدي من يعلم أنه يريد وأد ابنته، فكان يعطيه ناقتين عُشراوين وجَمَل[٣].

٦- وأخرج مسلم وغيره بسنده عن عائشة، عن أخت عكاشة «جذامة بنت وهب» قالت: حضرتُ رسول الله ﷺ في أناس وهو يقول: «**لقد هممتُ أن أنهى عن الغِيلة، فنظرت في الروم وفارس، فإذا هم يغيلون أولادهم، فلا يضر أولادهم ذلك شيئاً**» ثم سألوه عن العزل؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ذلك الوأد الخفي**»[٤].

٧- وقد جاء عن عمر رضي الله عنه قال: أمران في الجاهلية:

أحدهما يُبكيني، والآخر يضحكني، أما الذي يبكيني فقد ذهبتُ بابنة لي لِوَأْدِها،

---

(١) من تفسير الكشاف والخازن للآية (٣٥٦/٤).

(٢) ينظر الأثر: في مسند البزار (كشف الأستار) برقم (٢٢٨٠،٢٣٨)، والطبراني في المعجم الكبير (٣٣٨/١٨)، والبيهقي في السنن (١١٦/٨).

(٣) تفسير التحرير والتنوير (١٤٦/٣٠)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٤/٧): رجال البزار رجال الصحيح غير حسين بن مهدي الإيلي، وهو ثقة.

(٤) صحيح مسلم برقم (١٤٤٢)، وأبوداود (٣٨٨٢)، والترمذي (٢٠٧٧)، والنسائي (٣٣٦٦)، وابن ماجة (٢٠١١)، والطبراني (٢٠٩/٢٤)، وأحمد (٢٧٠٣٧،٢٧٠٣٦).

فكنتُ أحفر لها الحفرة، وتنفض التراب عن لحيتي، وهي لا تدري ماذا أريد لها، فإذا تذكرتُ ذلك بكيت.

والأخرى: كنت أصنع إلاهاً من التمر، أضعه عند رأسي، يحرُسني ليلاً، فإذا أصبحت معافى أكلْتُه، فإذا تذكرتُ ذلك ضحكتُ من نفسي[1].

والمؤودة: هي المثقلة بالتراب الذي يُهال عليها وهي حية حتى تموت.

وآية سؤال المؤودة تفيد أن الوأد: أول ما يُقضى فيه من الحقوق يوم القيامة.

وإذا كان الوأد للبنات صورة من صور إهانة المرأة قبل الإسلام، فعلى من يقولون بأن المرأة مهضومة الحقوق، أن ينظروا كيف رفع الإسلام من شأنها بعد أن كانت متاعاً يورث، وكلأً مباحاً، ومخلوقاً غير مرغوب فيه! وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته ويغذوا كلبه!

تنظيم النسل:

وقد نهى القرآن عن الوأد، وما يشبه الوأد، من تحديد النسل أو تنظيمه، أو الإجهاض المبكر، خوفاً من الفقر في المستقبل، أو خشية إملاق حاصل، قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقد كان الصحابة يعزلون والقرآن ينزل فسألوا النبي ﷺ عن ذلك فرد عليهم بجواب هو أقرب إلى النهي، حيث قال: «**لا عليكم ألا تفعلوا، ما كتب الله خلْق نسَمة هي كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون**»[2].

مع أنَّ هذا العزل كان في ظرف يحتاج إلى الرخصة، هو غزوة بني المصطلق، وقد تم لهم سبي من كرائم العرب، وكانوا في غربة، ورغبوا في الفداء، قالوا: فأردنا أن نستمتع ونعزل، فقلنا: كيف نفعل، ورسول الله بين أظهرنا؟

---

(١) تتمة أضواء البيان للشيخ عطية سالم (٩/٦٣).

(٢) صحيح مسلم عن أبى سعيد برقم (١٤٣٨)، والبخاري (٢٥٤٢، ٤١٣٨، ٧٤٠٩).

والدعوة إلى تحديد أو تنظيم النسل، دعوة يهودية، وهم يبذلون الأموال الطائلة لتفشي هذا الأمر بين المسلمين، وفي المنطقة العربية بوجه خاص.

ولقد كان الناس قديماً يُغْمَى عليهم من الجوع على قلّتهم، والناس في وقتنا يشكون التخمة، وتملأ المصحات دراسة وسائل نقص الوزن في كل مكان، وأكثر الناس في ترف وكماليات، وكثرة من وسائل الترفيه والفسق أحياناً، فهل الناس في فقر يضطرهم إلى تحديد النسل؟ اللهم لا.

الحَدَثُ الثَّالِثُ: تَوْزِيعُ صُحُفِ الأَعْمَالِ

١٠ - ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ[1] ﴿١٠﴾﴾

ويوم القيامة تُنشر صحف الأعمال، المشتملة على ما عمله العاملون من حسنات وسيئات، وتوزع على أهلها، وَيقرأ كل إنسان كتابه بنفسه، وهذه الصحف بأسماء أصحابها في سجلات الملائكة، قد طُويت على ما فيها من خير أو شر عند موت أصحابها، فإذا كان يوم القيامة فإنها تُنشر للعرض وإقامة الحجة على العباد للحساب والجزاء، ويأخذ كل منهم كتابه إما بيمينه وإما بشماله بعد أن تُلوى من وراء ظهره: قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥].

وقال جل شأنه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤].

قال قتادة: صحيفتك يا ابن آدم يُملي ما فيها، ثم تُطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة[2].

---

(١) قرأ ابن كثير وأبوعمرو وحمزة والكسائي وخلف بتشديد الشين من ﴿نُشِرَتْ﴾ على التكثير، والباقون بالتخفيف على الأصل.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن وعبد بن حميد وابن أبي حاتم، انظر: الدر المنثور (١٥/٢٦١).

الحَدَثُ الرَّابِعُ: مَحْوُ مَعَالِمِ السَّمَاء

١١ - ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ ﴾

ويوم القيامة تُقلَع السماء وتُنزَع من مكانها كما ينزع الجلد عن الشاة، ويزال عنها، فلا تبقى على هيأتها التي كانت عليها في الدنيا، والظاهر من النصوص أن السماء تبقى عند قيام الساعة منشقة منفطرة، تعرج الملائكة بينها وبين أرض المحشر حتى يتم الحساب، فإذا قُضي الحساب، أُزيلت عن مكانها، حيث يكون الناس في عالم الخلود، والأحوال تتغير، والسماء والأرض تتبدل.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وقال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقال أيضاً: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧].

الحَدَثُ الخَامِسُ: تَأْجِيجُ النَّارِ وَاسْتِقْبَالُهَا لِلْمُجْرِمِينَ

١٢ - ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِرَتْ [(١)] ۝١٢ ﴾

وبعد قراءة الصحف، ومناقشة الحساب توقد النار وتسعّر، وتُعدّ لعذاب مَنْ حَقّ عليه العذاب.

والجحيم هي النار ذات الطبقات المتعددة من الوقود، بعضها بالحطب، وبعضها بالحجارة، وبعضها بالناس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

ويُساق أهل النار إليها كما تُساق الإبل العطشى إلى موارد المياه ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] وكان لهبها قد امتدّ إليهم، وسمعوا لها شهيقاً وزفيراً وغلياناً، وهي تتقطع غيظاً ولهفاً عليهم، وقد بَرَزتْ للناظرين ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١].

---

(١) قرأ نافع وابن ذكوان وحفص وأبوجعفر ورويس وشعبة بخلف عنه بتشديد السين من ﴿سُعِّرَتْ﴾ للمبالغة، والباقون بالتخفيف على الأصل، ومعهم شعبة في وجهه الثاني.

ثم أوقد عليها فاستعرت والتهبت التهاباً لم يحدث لها من قبل.

الْحَدَثُ السَّادِسُ: تَقْرِيبُ النَّعِيمِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ

١٣ - ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾

أي أن دار النعيم تقرب من المتقين، وتكون بالقرب من أرض المحشر، كرامة لأهلها، فلا تَعَبَ عليهم في الوصول إليها، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] وقال سبحانه:﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

جَوَابُ الْحَوَادِثِ الاثْنَيْ عَشَرَ

١٤ - ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾

وجواب الشرط لكل لفظ ﴿إِذَا﴾ من أول السورة، وقد ذُكِرتْ اثنتي عشرة مرة، هو قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

أي: أن هذه الآية ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ هي جواب الشرط، وهو علم يحصل به اليقين بما لم يكن للإنسان به علم، مما نسيه، أو فهمه على غير وجهه، أو جهله، أو جهل عاقبته.

فإذا حدثت تلك الأمور قبل وبعد قيام الساعة، علمتْ كل نفس ما قدمتْه من صالح الأعمال أو فاسدها: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

وقد كثُر ذكر الجُمَل السابقة تشويقاً لهذا الجواب، أي إذا وقع كل ما سبق من الحوادث الاثنتي عشرة، تيقّنتْ ووجدتْ كل نفس ما قدّمت من خير أو شر حاضراً بين يديها: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]

فكل نفس تُعْلَم بما أحضرت في هذا الموقف العظيم،من خير أو شر، فتعْلَمُه.

عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قرأ أول هذه السورة، فلما بلغ هذه الآية قال: (لهذا أُجْريت القصة)[1].

---

(١) ينظر: تفسير ابن عاشور (١٥١/٣٠) وينظر: تفسير ابن كثير (٣٣٥/٨) عن زيد بن أسلم عن أبيه.

وهذه الأوصاف التي وصف الله بها يوم القيامة، أوصاف تنخلع لها القلوب، وتعظم الكروب، وترتعد الفرائض، وتحث كل صاحب عقل على الاستعداد لذلك اليوم.

فمعنى: تكوير الشمس: ذهاب ضوئها فلا ضوء لها، وانكدار النجوم: تساقطها وتهافتها.

وتعطيل العشار: ترك أهلها لها، فلم تُحلَب ولم تحمِل، لانشغال الناس عنها، وقد كانت في الدنيا أحب أموالهم، أما أحب أموال الناس اليوم فهي الأسهم والسندات والذهب وأموال البنوك، وكل هذا ونحوه لا يجد عند قيام الساعة من يديره، ولا من يلتفت إليه، فالناس مشغولون بما هو أهم، مشغولون بالمصير الدائم، إلى الجنة أو النار، نسأل الله السلامة.

أما الوحوش وسائر البهائم والحيوان فإنه يتم فصل القضاء بينها، وماء البحار يذهب فلا يبق فيها قطرة.

وكل إنسان يلحق بنظيره، اليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصرانى، والمسلم مع المسلم، وكل زوج مع زوجه وهكذا.

ويوم القيامة تُسأل كل نفس قُتلت ظلماً بأي ذنب كان سبب قتلها، يُسأل من خافوا الفقر وهم في الدنيا، لماذا حدّدُوا نسلهم، لماذا قلّلوا منه، ولماذا كانت حوادث الإجهاض في العالم، وهذا العدد الكبير، للأبناء غير الشرعيين من أين جاؤوا؟

وفي يوم القيامة تنشر الصحف، ويقرأ كل إنسان كتابه بنفسه، ولا سبيل إلى الإنكار، فإن الشهود ليسوا من خارج الإنسان!

والباب مفتوح أمام كل إنسان إما إلى النار المستعرة ـ عياذا بالله ـ وإما إلى الجنة المقربة من أهلها، نسأل الله من فضله، ومن أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأى العين فليتدبر هذه السورة.

الْمَوْضُوعُ الثَّانِي فِي السُّورَةِ: ثَلاثَةُ أَقْسَامٍ عَلَى صِدْقِ الْقُرْآنِ وَصِحَّةِ الرِّسَالَةِ

١٥ - ١٨ - ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ[1] ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾

وبعد أن تحدثت الآيات السابقة عن البعث والجزاء الذي أنكره المكذبون، فأنذرتهم وحذّرتهم، وبيّنتْ أهوال الساعة وأشراطها، شرعت في الحديث عن هذا القرآن العظيم الذي حذّرهم وأنذرهم، فإن الجاحدين لا يؤمنون به،ولذا فقد أقسم الله سبحانه بالنجوم حين تختفي وتظهر، وبالليل إذا أقبل بظلامه، وبالصبح إذا ظهر ضوؤه، والْقَسَم بهذه الكواكب المسخرة بأمر الله تعالى على أن القرآن حق، وأن محمداً ﷺ أرسله الله تعالى رحمة وهداية للناس أجمعين،كلها قسم من الله تعالى بعظمة هذا الكون للتأكيد على عظمة هذا القرآن،والكون والقرآن،كلاً منهما دليل على وحدانية الله تعالى وعظمته.

فهذه آية صامتة، وتلك آية ناطقة، ﴿وَلَآ﴾ من ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ مؤكدة للقسم.

والمعنى: أن الله تعالى أقسم بالنجوم التي تختفي أنوارها بالنهار، وتظهر بالليل.

أخرج الطبري بسند صحيح عن علي بن أبي طالب ﵁ ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ قال: هي النجوم تخنس بالنهار، وتكنس بالليل[2].

وهذه الكواكب هي: زحل والمشترِي والمريخ والزُّهرة وعطارد، وبَهْرَام،والشمس والقمر، قاله ابن عباس. وقيل: الخنّس: الكواكب كلها لأنها تختفي بالنهار.

وقال قتادة: هي النجوم تبدو بالليل، وتَخْنس بالنهار، يقال: خنست الظبية والبقرة، إذا اختفت في بيتها.

فالخنوس هو: الاستتار والاستخفاء، فهي تختفي بالنهار وتظهر في الليل.

أما الجواري فهي النجوم تجري وتسير مع الشمس والقمر ثم تستتر وقت غروبها.

وقد شُبهت النجوم الجواري حين يذهب نورها بالظباء تختفي في بيوتها، ولا تظهر

---

(١) وقف يعقوب بالياء على ﴿ٱلۡجَوَارِ﴾ والباقون بالحذف.

(٢) وأخرجه أيضا: سعيد بن منصور بسند حسن كما في فتح الباري (٨/٦٩٤).

إلا في أوقات معينة، فهي كالوحش الذي يجري بعد خنوسه.

والكنس: جمع كانس، والكانس هو البيت الذي يُتخذ للمبيت.

والجوار: أي التي تجري بسرعة، فهذه ثلاثة أحوال للنجوم:

١- الخنس، أي التي يختفي نورها بالنهار.

أو هي الكواكب التي تتأخر عن سيرها المعتاد إلى جهة المشرق.

٢- الكنس وهي النجوم حين تأوي إلى بيتها ليلاً.

٣- الجوار، وهي النجوم حين تجري وتسير بسرعة.

وقد أقسم الله بالنجوم حال خنوسها أي تأخرها، واختفائهاحال كنوسها، أى جريانها وإنارتها.

ثم أقسم سبحانة تعالى بالليل إذا عسعس، أي أقبل بظلامه حتى غطى الكون.

والعسعسة: رقة الظلام في طرف الليل، قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١] وقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ٢].

كما أقسم جل شأنة بالصبح إذا تنفس، أي انشق نوره شيئاً فشيئاً حتى تكامل وظهر ضوءه وتلألأ، وبدأ أوله حتى صار نهاراً واضحاً، فقد شبه الليل بالمكروب المحزون، فإذا تنفس وَجَدَ راحة، كأنه تخلَّص من الحزن، فعبر عنه بالتنفس، وإذا بدأ الصباح أقبل معه نسيم، كأنه نفَس، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢].

والمعنى: أُقسم بالنجوم التي تغيب بالنهار، وبالليل حين يقبل بظلامه، وبالنهار إذا أقبل بضيائه:

جَوَابُ الْقَسَمِ

١٩ - ٢١ - ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ[1] أَمِينٖ ٢١﴾

أي: أُقسم على أن هذا القرآن، لَتبليغ جبريل الأمين إلى الرسول محمد ﷺ نزل به من

(١) وقف رويس بخلف عنه على ﴿ثَمَّ﴾ بهاء السكت والباقون بدونها

عند الله تبارك وتعالى.

وإذا كانت المجموعة الشمسية شيئاً ضئيلاً في هذا العالم الضخم، فإن الله تعالى يقسم بالكواكب المسخرة بأمره تعالى على أن القرآن حق، وأن محمدا أُرسل به هداية ورحمة للعالمين، إنه سبحانة أقسم بعظمة الكون على عظمة الوحي.

والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود على القرآن، وهو عائد على غير مذكور، ولكنه معلوم من المقام.

والمراد بالقول في ﴿لَقَوْلُ﴾ هو القرآن، والرسول الكريم هو جبريل عليه السلام، أي إن هذا القرآن لَكلام الله المنزل على محمد ﷺ بواسطة جبريل الأمين، وأضيف القرآن في الآية إلى جبريل لأنه الذي نزل به، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥].

وصف جبريل عليه السلام بخمسة أوصاف:

ثم وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بخمسة أوصاف، تزكية من الله تعالى وتشريفاً له، وهذه الأوصاف تفيد أن المراد بالرسول في الآية هو جبريل:

الوصف الأول: أنه رسول كريم، والكريم هو النفيس الفريد في نوعه. فهو ملَك شريف، حَسَنَ الخلُق، بهيّ المنظر، كريم عند ربه. كثير الخصال الحميدة، وهو أفضل الملائكة وأعظمهم رتبة عند ربه.

الوصف الثاني: أن جبريل عليه السلام يبلّغ وحي ربه، وينفّذ ما أُمر به بقوة، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم:٥ ـ ٦] أي أنه موصوف بالقوة، ولديه مقدرة فائقة على القيام بأعمال عظيمة، فهو الذي اقتلع قرى قوم لوط على جناحه وقلَبها، وصاح بقوم عاد وثمود صيحة فأهلكتهم، فجبريل صاحب بطش وقوة ذاتية، وهو ذو ثبات ورباطة جأش في أداء ما أُرسل به.

الوصف الثالث: أنه صاحب مكانة رفيعة عند الله تعالى، وله كرامة واستجابة، ومنزلة سامية، عند صاحب العرش، وهو رب العالمين. فجبريل مقرب من ربه، له منزلة رفيعة،

وخاصية اختصه الله بها من بين الملائكة.

وجملة ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ يتنازعها الوصف الذي قبلها وهو القوة، والوصف الذي بعدها وهو المكانة العالية.

والوصف الرابع: أن جبريل ﷺ مطاع بين الملائكة، كما يطيع الجيش القائد، وأمره نافذ في جنوده المقربين منه، ومن ذلك أنهم فتحوا له الأبواب، ليلة المعراج، فهو ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي هناك في الملأ الأعلى، فيما يأمر به الملائكة الكرام.

والوصف الخامس: أنه أمين على الوحي، يحفظ كل ما عُهد إليه بتبليغه حتى يؤديه دون زيادة ولا نقص، وهذا نص في تمكينه مِنْ حِفظ ما أُرسل به، وصيانته عن التغيير والتبديل، فلا يصل إليه ما يُخل برسالته، فالمطاع: لا يؤثّر عليه شيء، والأمين لا يخون ولا يبدّل، وقد حمل جبريل الوحي إلى محمد فأقام به دولة ضمت المشارق والمغارب.

وهذا كله يدل على شرف القرآن وعظيم مكانته.

إِبْطَالُ بُهْتَانِ الْمُكَذِّبِينَ بِخَاتَمِ الأَنْبِيَاء

٢٢- ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾

وبعد أن أثنى الله سبحانه على جبريل عليه السلام، وأثنى على القرآن العظيم، أعقب ذلك بإبطال بهتان المكذبين للنبي ﷺ فأثنى عليه ﷺ بأنه صادق فيما بلغه عن ربه.

قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ أي محمد ﷺ الذي تَرَبَّى بينكم، وتعرفون نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، ولا يخفى عليكم دقائق أحواله، فأنتم متأكدون أنه ليس بمجنون، كما يقول أعداؤه المكذبون، ومتأكدون أن هذا القرآن سالماً من وساوس المجانين، والذي بلّغه إليكم قد لازمتُموه، وتعرفون حقيقة حاله، ونفي الجنون عن النبي ﷺ داخل في جواب القسم السابق، فقد أقسم تعالى على أن القرآن نزل به جبريل ﷺ وأن محمداً ﷺ ليس بمجنون. بل أكمل الناس عقلاً وأرجحهم رأياً، وأصدقهم لهجة.

رأى الرسول جبريل على صورته الحقيقية مرتين

٢٣- ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولما بلَغ المشركون أن الرسول ﷺ نزل عليه جبريل بالوحي في غار حراء، استهزؤوا به وقالوا: إن ذلك الذي يتراءى له جنّي، فكذبهم الله تعالى بنفي الجنون عنه، ثم بإثبات وتحقيق أن الذي رآه النبي ﷺ في غار حراء، هو جبريل الأمين.

وقد وصف النبي ﷺ الملَك الذي رآه عند نزول سورة المدثر عليه، بأنه جالس على كرسي بين السماء والأرض، فأقسم سبحانه على أن محمداً ﷺ رأى جبريل عليه السلام في صورته التي خلقه الله عليها، له ست مئة جناح قد سد ما بين المشرق والمغرب، وكان ذلك بالأفق العظيم الواضح من ناحية المشرق، وكان الرسول ﷺ قد سأل جبريل عليه السلام فى المرة الأولى أن يراه على حقيقته.

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لجبريل: أُحِب أن أراك في صورتك التي تكون عليها في السماء؟ قال: (لن تقْوى على ذلك)، قال: بلى، قال: فأين تشاء أن أتخيل لك؟ قال: بالأبطح، قال: لا يسعُني ذلك، قال: فبعرفات، قال: لا يسعني، قال: فبحراء، فواعده، وجاء إليه جبريل في موعده، فلما رآه النبي ﷺ خر مغشياً عليه، فتحول جبريل عن صورته وضمه إليه، وقال: فكيف لو رأيت إسرافيل[1].

ورؤية الرسول ﷺ لجبريل عليه السلام بالأفق المبين هي التي قال الله تعالى عنها: ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ٦ ـ١٠] وقد رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة أخرى على صورته الحقيقية عند سدرة المنتهى ليلة المعراج كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم:١٣،١٤] وكان ينزل عليه بعد ذلك في صورة دحية الكلبي، وكان يأتيه مثل صلصلة الجرس وغير ذلك من صور نزول الوحي.

---

(١) باختصار من تفسير الخازن (٤/٣٥٧).

نَفْيُ كِتْمَانِ شَيْءٍ مِنَ الْوَحْيِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ

٢٤- ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ[1] ﴿٢٤﴾﴾

وليس من صفة النبي ﷺ أن يبخل بتبليغ الرسالة، فهو لم يقصّر في تبليغها، ولم يبخل بتعليم الناس الخير، بل بلّغ رسالة ربه بكل صدق وأمانة، وهذا بخلاف أهل السحر والشعر والكهانة، فإنهم لا يُطْلعون غيرهم على ما في جُعبتهم خوفاً من تفشّيه بين الناس، احتكاراً للمعلومات حتى تبقى وقفاً على الساحر أو الكاهن يستدرّ بها الأموال والمنافع من الناس، ومحمد ﷺ لا يسأل الناس أجراً على البلاغ، ولا يحتكر علماً، بل يحرص النبي ﷺ على تعليم الجاهل، وزيادة علم المتعلم.

ولفظ ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضاد، معناه: البخل الشديد، وعلى قراءة ﴿بِظَنِينٍ﴾ بالظاء يكون المعنى: وما هو بمتهم في شيء، فلا يزيد في الوحى ولا ينقُص منه، ولا يكتم شيئاً منه، بل هو أمين أهل السماء وأهل الأرض، وقد بلغ القرآن للإنس والجن، ولم يحجُب شيئاً عن غني ولا فقير، ولا حاكم ولا محكوم، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضرى ولا بدوى.

فمحمد ﷺ ليس ببخيل في تبليغ الوحي، بل بلّغ رسالة ربه على أكمل وجه، وليس بمتَّهم فيما يبلغه عن ربه، فهو ﷺ سيد الصدق والأمانة.

وسُمِّيَ القرآن غيب: لأن الوحي من الغيب، والغيب هو الذي استأثر الله بعلمه، والنبي ﷺ لا يضنُّ بما أطلعه الله عليه منه، أمّا ما لم يُطْلِعه عليه، فلا علم له به، حتى يضنّ به أو يتّهم بعدم تبليغه.

الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ وَوَحْيُهُ يَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ يَتَّبِعُ الْحَقَّ

٢٥- ٢٦- ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ[2] ﴿٢٦﴾﴾

---

(١) قرأ ابن كثير وأبوعمرو والكسائي ورويس بالظاء في ﴿بِضَنِينٍ﴾ من الظن وهو التهمة، فعيل بمعنى مفعول والباقون بالضاد، اسم فاعل من ضن بمعنى بخل.

(٢) قوله تعالى ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ معدود آية عند جميع علماء العدد، عدا المدني الأخير فيتركه.

وبعد أن أثنى سبحانه على رسول الملائكة ورسول البشر، أثنى على القرآن الكريم فنفى عنه كل نقص وآفة.

وما دام القرآن قول رسول كريم، فهو ليس من أقوال الكهنة، تلقّنُه لهم الشياطين، وليس بقول شيطان ملعون يسترق السمع، بل هو كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٨].

وكما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢] فهو كلام الله ووحيه.

فأين تذهب عقولكم في التكذيب بالقرآن، وكيف يخطر ببالكم التنقيص من شأن القرآن بعد هذه الحجج القاطعة، والأدلة الدامغة، وأي طريق تسلكونه أوضح وأبين من هذا الطريق الذي أرشدناكم إليه، لقد تركتم الحق وذهبتم إلى الباطل، وعدلتم عن القرآن، وفيه الهدى والنور إلى ما أنتم فيه من ضلال {فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} عن هذا الطريق الواضح؟ وماذا بعد الحق إلا الضلال وانقلاب الحقائق.

لما قدم وفد بني حنيفة مسلمين، طلب منهم أبوبكر ﷺ أن يقرؤوا عليه شيئاً من أقوال مسيلمة، فلما سمع مافيه من ركاكة وهذيان قال: ويحكم، أين يُذْهَب بعقولكم؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إلّ، أي من إله[1]. **قال تعالى:**

٢٧، ٢٨ - ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾

وبعد أن بيّن الله تعالى ضلال المكذبين، أرشدهم إلى حقيقة القرآن، وبيّن لهم أنه تذكير لجميع الناس، ينتفعون به في صلاح اعتقادهم، وطاعة ربهم، وتهذيب أخلاقهم، وأداء حق الله عليهم وحق عباده، وكيف يتعامل المسلمون مع بعضهم، ومع غيرهم من الأمم الأخرى، فما هذا القرآن إلا موعظة وتذكرة للخلق أجمعين. يتذكرون به ربهم،

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٤٠).

ويتذكرون أوامره ونواهيه، ويتذكرون به ما يسعدهم في الدارين.

وينتفع بهذه الموعظة من يتّبع الحق، ويستقيم على الإيمان، فمن شاء اتعظ واعتبر، والذين استجابوا لهذي القرآن، قد شاؤوا لأنفسهم الإيمان والاستقامة، وفي هذا ثناء عليهم، وتنويه بشأنهم، وتعريض بغيرهم ممن لم يهتدوا بهدي القرآن، فمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاة وهداية له، ولا هداية له فيما سواه.

لِلْعَبْدِ مَشِيئَةٌ وَإِرَادَةٌ عَلِمَهَا اللهُ مِنْ عَبْدِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ

٢٩- ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ولما نزلت الآية السابقة قال أبوجهل: الأمر إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1] ليُبين سبحانه أن المشيئة ليست موكولة لنا، وإنما تتّبع مشيئة الله تعالى وتكون في إطارها، فأنتم لا تقدرون على شيء إلا بتوفيق الله ولطفه، فاطلبوا منه التوفيق والهداية، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩ - ٣٠].

ومعنى هذا: أن للعبد مشيئة وإرادة، يكتسب بها أعماله، وقد بين الله له الخير والشر، ومنَحه نعمة العقل، وهذه الإرادة أو المشيئة لا تخرج عما علمه الله تعالى عن توجُّه العبد بعد بلوغه سن التكليف قبل أن يوجد في هذه الحياة.

وعِلْمُ الله تعالى لا يتخلف، ومشيئته نافذة، وقضاؤه لا يرد، وما على العبد إلا أن يضع البذرة الصالحة، وسيُنضِجُ الله له ما بذَر، وما زرع أحدٌ تفاحاً، فأخرجه الله له بصلاً، فالإنسان يَجْني ما غرس، والعبد في توجهه إلى ربه عدة مرات في اليوم الواحد يطلب منه أن يهديه إلى الصراط المستقيم، وذلك لأن مشيئة الله تعالى محيطة بما كان وما يكون.

تم تفسير (سورة التكوير) ولله الحمد والمنة

---

(١) رواه الطبري بسنده عن سفيان الثوري في تفسيره (٣٠/٥٣)، وعبد الرزاق (٢/٣٥٣)، والشوكاني (٥/٣٩٠) عن أبي هريرة عند ابن أبي حاتم وابن مردويه.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الإنْفِطَارِ (٨٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الانفطار) هي السورة الثانية والثمانون في ترتيب المصحف وترتيب النزول، نزلت بعد (سورة النازعات) وقبل (سورة الانشقاق). وتشتهر بأنها (سورة الانفطار) وفي حديث ابن عمر الآتي (سورة إذا السماء انفطرت) وربما سميت (سورة انفطرت)، أو (المنفطرة)، أي السماء المنفطرة. فهذه أربعة أسماء لها أشهرها الأول.

وهي سورة مكية باتفاق.

وعدد آياتها تسع عشرة آية باتفاق، وهي ثمانون كلمة، وثلاث مئة وسبعة وعشرون حرفاً.

وسورة الانفطار ذات مقاطع ثلاث:

المقطع الأول: يبيّن فيه سبحانه شيئاً من مشاهد القيامة، وما يحدث في هذا اليوم من أحداث جسام، فقد كان الإنسان وهو في الدنيا ينظر فوقه فما يجد في خلق الرحمن من تفاوت، السماء محبوكة الأطراف، فلا فتور ولا شقوق، والكواكب تتهادى فلا تتعطل ولا تتوقف.

وعند قيام الساعة، يتغير كل شيء: الشقوق تملأ الآفاق، وأبواب السماء تُفْتح فيما بينها وبين أرض المحشر، لنزول الملائكة وصعودهم، والكواكب ينفرط عقدها، ويختل توازنها، فلا يمسكها نظام، والبحار تَطْغَى على الشواطىء، وتتأجّج بالنيران، وأهل القبور يستعدّون للخروج، وهم شاعرون بالحرج والحيرة! وتقف كل نفس على ما عملت من خير أو شر. وهذا من أول السورة إلى الآية الخامسة.

أما المقطع الثاني من السورة في الآيات الثلاث التي تليها فهو: عتاب مرير مؤسف، يتضمن الوعيد وسوء المصير، لمن جحد وحْدانية الله تعالى، ولم يعرف قدر ربه، فقابل فضله ونعمه بالجحود والعصيان، فيقال له: ماذا فعلت بالأمس الفائت؟ وماذا قدمت

لمستقبلك الخالد؟

لقد كانت وصايا الله إليك أهون شيء عليك - أيها الإنسان - وكنت إذا كُلِّفت بصلاة أو زكاة أو جهاد.. تقاعست واسترخيت ومرقْت منها كما يمرق السهم من الرمية، ولم تشكر فضل ربك ونعمه عليك.

والمقطع الثالث: من الآية التاسعة إلى آخر السورة، وهي عشر آيات يقرر الله تعالى فيها علة الجحود والطغيان، فبعد أن بيَّن سبحانه أن الدار الآخرة، سيكون فيها مفاجآت كثيبة لأغلب الناس، بيّن سبحانه أن التكذيب بيوم الحساب، هو الذي جعلهم يُهملون العمل للقائه، فسجّلتْ عليهم الملائكة كل ما عملوه في دنياهم، ليواجَهُون به أمام ربهم في هذا اليوم، بلا زيادة ولا نقصان.

وبعد فصل القضاء، يذهب الخلائق إلى مستقرهم العتيد، في نعيم أهل الأبرار، أو جحيم أهل الفجار، وهو يوم عظيم يتفرد فيه رب العالمين بالحكم والسلطان، وتتجرد فيه النفوس من كل حوْل وطوْل، فالمُلْك يومئذ لله، وليس لسواه أدنى مُلْك ولا حُكم ولو كان حكماً صورياً.

عن جابر ﷺ قال: قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطوّل، فقال النبي ﷺ: «**أفتّان أنت يا معاذ؟ أين أنت عن سبح اسم ربك الأعلى، والضحى، وإذا السماء انفطرت؟**»[1].

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة رأْيُ العين، فليقرأ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾**»[2].

* * *

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٥٢)، والسنن (٩٩٦)، وهو في البخاري برقم (٧٠٥،٧٠١)، ومسلم برقم (٤٦٥)، وصحيح سنن النسائي (٩٥٣).

(٢) سنن الترمذي برقم (٣٣٣٣)، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٦٥٣)، والمسند (٥٧٥٥،٤٨٠٦) بإسناد حسن، والحاكم (٥١٥/٢)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وأخرجه الطبراني.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

أَرْبَعَةُ أَحْدَاثٍ إِذَا تَمَّتْ قَامَتِ الْقِيَامَةُ

١ - ٥ - ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾

ذكر الله تبارك وتعالى في أول هذه السورة مخلوقيْن من العالم العلوي هما: السماء والكواكب، ومخلوقيْن من العالم السفلي هما: البحار والقبور.

وبيّن سبحانه أنه إذا حدث تصدّع السماء وتشقّقها، وتهاوى النجوم وتَساقُطها، وإزالة الحواجز التي بين البحار، حتى يختلط بعضها ببعض وتصير بحراً واحداً.

وإذا تم بعثرة القبور بحيث يصير باطنها ظاهرها، وأُخرِج ما في جوفها من الموتى، وحُشروا بين يدى ربهم للحساب والجزاء.

إذا تمت هذه الأربع على هذا النحو، قامت القيامة، وكان الحشر والنشر، وأخذ كل إنسان صحيفة عمله، فقرأ فيها ما تقدم من أعماله وأقواله وما تأخر، وانكشف له الغطاء، وزال عنه كل ما كان خفياً، وعلم كل إنسان ما معه من الأرباح والخسائر، هنالك يعض الظالم على يديه عند ما يرى أعماله السيئة، ويرى أن ميزانه قد خف، وأن الشقاء قد أقبل، وأن النعيم قد أدبر، فليس أمامه إلا العذاب.

ومن شأن من يقرأ هذه السورة وأمثالها، أن ينخلع من كل ما يركن إليه في هذا الوجود، ويتجه بقلبه وروحه إلى الله وحده، حتى يجد نفسه ثابتاً مستقراً في مواجهة أحداث الاضطراب والانقلاب يوم لقاء الله، وسورة التكوير من أول السور نزولاً، فهي السورة السابعة في ترتيب النزول، أما سورة الانفطار فهي السورة الثانية والثمانون.

ولذا: فإن جُمل العطف في سورة التكوير كثيرة، لأن المقام فيها يتطلب الإطناب، أما سورة الانفطار فإن بينها وبين نزول سورة التكوير أربع وسبعون سورة، وقد تكرر

إثبات البعث والحساب والجزاء والإنذار، وتقرّر ذلك في أذهان المخاطبين، فأغنى عن تطويل الإطناب والتهويل في هذه السورة[1].

وقد ذكرت الآيات أنه إذا تم في العالم العلوي: انفطار السماء وتشقّقها، واختلال نظامها، وانتثار الكواكب وزوالها عن بروجها وأماكنها، ضمن علامات الساعة الكبرى، وإذا تم في العالم السفلي: انفجار البحار، ففُتح بعضها على بعض، واختلط عذبها بملحها، وخرجت النار منها، وبُعثرت القبور، فصار ما في بطن الأرض على ظهرها، وتشققت الأرض عنهم سراعاً وتم انقلاب الأرض وانخسافها، ضمن علامات الساعة الكبرى.

إذا حدثت هذه الأربع، وفَني العالم، وانقطعت التكاليف، قامت الساعة، وعلمت كل نفس ما قدمت من خير أو شر، وما أخرت من سنة حسنة أو سيئة، يُعمل بها بعد موته، وما قدّمت من الصدقات، وماأخَّرت من الميراث. وعندئذ يكون الحساب والجزاء.

عن حذيفة بن اليمان ﵁ قال: قام سائل على عهد النبي ﷺ فسأل، فسكت القوم، ثم إن رجلا أعطاه، فأعطاه القوم، فقال النبي ﷺ: **«من استنّ خيراً، فاسْتُنّ به، فله أجره، ومثل أجور من اتبعه، غير منتقص من أجورهم شيئاً، ومن استنّ شراً، فاستُنّ به، فعليه وزره، ومثل أوزار من اتّبعه، غير منتقص من أوزارهم شيئاً»** قال: وتلا حذيفة بن اليمان ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[2].

ولفظ مسلم: **«من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر**

---

(١) تفسير ابن عاشور(٣٠/١٧٠).

(٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذا اللفظ، المستدرك (٢/٥١٦) وافقه الذهبي، وله شاهد من حديث أبي هريرة، ورواه ابن ماجة وقال البوصيري: إسناده صحيح (٢٠٤) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة برقم: (١٦٩) والتعليق الرغيب (١/ ٤٨)، وهو عند ابن المبارك في الزهد عن ابن مسعود (١٤٦٩) بنحوه.

من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1].

والمناسبة التي قيل فيها هذا الحديث، هي المناسبة نفسها التي جاءت في الحث على الصدقة، وفيها بيان أجر من بدأ بها في ملإ من الناس بقصد ترغيبهم، وليس من باب الرياء والمفاخرة.

وهكذا كل عمل صالح كان الإنسان فيه قدوة لغيره، فإن له أجر من عمل به في حياة من سن هذه السنة وبعد مماته، وهكذا العمل السيء، نسأل الله العفو والعافية.

وكل هذا من باب ما يؤخره العبد لنفسه من الخير أو الشر، كلما عمل به من اقتدى.

ويظهر أثر ذلك عندما تُنشر الصحف وتُقرأ الكتب، ومن ذلك ما يقدمه الإنسان لنفسه من الصدقات والخيرات في الدنيا، وما يؤخره لنفسه من الميراث الذي يتركه وراءه.

وهذا عِلْم تفصيلي لما قدّمَتْه كل نفْس وما أخّرتْه، وقبل ذلك يكون هناك علم إجمالي يحصل العلم به في أول الحشر، فيَعْلَم أنه من أهل السعادة أو من أهل الشقاء.

وعِلْمُ الناس بما قدّموه في الدنيا مِنْ عَمَل، يكون بعد حصول هذه الأحداث المذكورة في الآيات، وهي تؤذن بفناء العالم، فيَعْلَمُ الإنسان ما نسيَهُ، وما جَهله، ويعلم ما لم يكن معلوماً لديه.

وفي هذا وعيد بالحساب على جميع الأقوال والأعمال، للمكذبين الضالين، ووعْد حَسَن للمتقين، ووعد مبشّر لمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

إيقاظُ القلوبِ والضمائرِ وتذكيرُ الغافلِ بعجيبِ خلقِ اللهِ فيه

٦ - ٨ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ[2] ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾

---

(١) من حديث جرير بن عبد الله البجلي في مسلم برقم: (١٠١٧).

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الدال من ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بمعنى صرفك عن الخلقة المكروهة، والباقون بالتشديد بمعنى سوّى خلقك وعدّله وجعله متناسب الأطراف.

وبعد تهيئة النفوس لقبول الموعظة، وترقيق القلوب بما سبق ذكره من التهويل والتخويف، أصبحت النفس مستعدة لزوال خطر الطغيان والمكابرة عنها، فجاءت هذه الآيات لتنبيه الحواس والمشاعر، وإيقاظ القلوب والضمائر، ليغدل الإنسان عمّا هو فيه من غفلة، فيشكُر نعم الله عليه ويسلك الطريق السوي.

والآية عامة في كل كافر تجرّأ على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ فغرّه جهْله وشيطانه وتجاوز حده وتطاول على محارم الله تعالى.

قيل: إن الأسود بن شريق، أو كَلدة بن خلف، أو الوليد بن المغيرة، أساء إلى النبي ﷺ وآذاه، ولم ينزل به عقاب، فنزلت هذه الآية[1] وورد فيها بعض الآثار:

١- قال ابن مسعود ﷺ: ما منكم من أحد إلا سيخْلُوا الله عز وجل به يوم القيامة، فيقول: يا ابن آدم، ما غرك بي، يا ابن آدم، ماذا عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم، ماذا أجبت المرسلين؟

٢- وقيل للفُضَيل بن عياض: لو أقامك الله يوم القيامة، فيقول لك: يا ابن آدم، ما غرك بربك الكريم؟ ماذا كنت تقول؟ قال: أقول: غرني ستورك المرخاة.

٣- وقال يحيى بن معاذ: لو أقامني الله بين يديه، وقال: ما غرك بي؟ أقول: غرني بِرُّك بي سالفاً وآنفاً.

٤- وقال أبوبكر الورّاق: لو قال لي: ما غرك بربك الكريم؟ لقلت: غرني كرمُ الكريم.

٥- وقال بعضهم: إنما قال ﴿بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه لقّنه حجته في الإجابة، حتى يقول: غرني كرم الكريم[2].

٦- وعن ابن أبي حاتم وغيره أن عمر ﷺ سمع رجلا يقرأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ فقال: عمر: غره والله جهله[3] وهكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما.

---

(١) ينظر: تفسير ابن الجوزي (٩/٤٧)، والخازن (٤/٣٥٨)، ومعالم التنزيل للبغوي (٨/٣٥٦).

(٢) وردت هذه الآثار الخمسة في تفسير الخازن (٤/٣٥٩)، والبغوي، ونقل ابن كثير وابن الجوزي بعضها.

(٣) الدر المنثور (١٥/٢٨٣) عن سعيد بن منصور وابن المنذر. من ص ١٠٨

٧- وقال قتادة: شيء مَّا غرّ ابن آدم، هذا العدوّ والشيطان[١].

٨- وعن بُسر بن جَحَّاش القرشي، أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها إصبعه، ثم قال: قال الله عز وجل: ابن آدم، أنّى تُعجزني وقد خلقتُك من مثل هذه؟ حتى إذا سوّيتُك وعدّلْتك، مشيْت بين بُرْديك وللأرض منك وئيد، فجمعْت ومنعْت، حتى إذا بلَغت التراقي، قلت: أتصدّق، وأنّى أوان الصدقة؟[٢].

ومعنى الآية: يعاتب الله سبحانه الإنسان المقصرَّ في حق ربه المتجرئ على معاصيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ المنكر للبعث ﴿مَا غَرَّكَ﴾ أي شيء خدعك وجرّأك على معاصي الله، فأشركت ﴿بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ وخالفت أمره، وتمرّدْت عليه بالكفر والطغيان، وقابلْت إحسانه بما لا يليق بجلاله، فصنعْت ما صنعْت، وضيّعت ما وجب عليك، وغرّك عفو الله، وعدم معاجلته لك بالعقوبة، وتوسيعه عليك في المال والجاه، فأمِنْت عقوبته، وتجرّأت على ربك، وتماديْت فيما أنت فيه إلى الممات، وكان الأجْدرُ بك أن تشكُر وتطيع، فتؤمن بوحدانية الله تعالى، وتُصدق رسوله وكتابه، وتؤمن بالبعث والنشور.

فهل حدوث هذا منك تهاوناً في حقوق الله، أم عدمَ إيمان منك بجزائه، أم استخفافاً بعذابه؟

وهذا توبيخ وعتاب وخيم على تقصير الإنسان وجحوده، وتهديد له بسوء المصير إذا استمر في غفلته وغروره، وفي جهله وعناده، وعليه أن يحمد الله ويشكره على أنه لم يجعله في صورة، كلْبٍ أو حمار.

ثم ذكّر الله الإنسان بشيء من أفضاله عليه، فبين سبحانه أنه قد أوجده من العدم، وجعله مستوي الأعضاء، يسمع ويعقل ويُبصر، وجعلَهُ معتدل القامة منتصباً في أحسن

---

(١) حسّن الطبري إسناده.

(٢) المسند (٤/٢١٠) برقم (١٧٨٤٢، ١٧٨٤٤) بإسناد حسن (محققوه)، والحاكم (٢/٥١٢)، وابن سعد (٧/٢٤٧)، وابن ماجة (٢٧٠٧)، وقال البوصيري في الزوائد: (٢/٣٦٥) إسناده صحيح، رجاله ثقات والطبراني في الكبير (١١٩٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٢١٨٨)، والسلسلة الصحيحة (١١٤٣، ٢١٠٩٩).

الهيئآت والأشكال، فلم يجعل إحدى اليدين طويلة والأخرى قصيرة، ولم يجعل جانباً من الإنسان أبيض والآخر أسود، ولم يجعله يمشي على أربع، منكَبّاً على وجهه كالحيوان، ولم يجعل عيناه، أو الجهاز الهضمي أو الرئتين أو القلب في الخلف.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أي أوجدك في هذه الدنيا من العدم ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أي جعل قُواك وجَوارحك متعادلة غير متفاوتة، فهي تقوم بوظائفها من غير خلل ولا نقص في الإدراك أو الإحساس، ولا ينشأ انحراف ولا خلل في المزاج، ولا في أداء الوظائف المنوطة بالجوارح والأعضاء، لقد خلقك الله في أحسن تقويم، وركبك تركيباً قوياً معتدلاً في أحسن شكل وأجمل هيأة.

ومن ذلك: التناسب في اليدين والرجلين والعينين وملامح الوجه، وخلْق الذكر والأنثى.

وقد خلق الله سبحانه جسد الإنسان وقسّم أعضاءه وجوارحه على جهتين، لا تفاوُت بين جهة وأخرى، وجعل في كل جهة مثل الأخرى من الأوْردة والأعصاب والشرايين قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى:٢،٣].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٧].

وقال جل وعلا: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِىٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ﴾ [التين:٤].

وقد خلق الله الإنسان وعدّل خلْقه، وركّبه في أي صورة من الصور شاءها جل شأنه، لأداء وظائفه المنوطة به، كما قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٦] وقال أيضاً ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ [الأعراف:١١] وهذه الصورة متفاوتة في درجات الحسْن ونحوه.

عن أبي هريرة ﷺ أن رجلا قال: يا رسول الله، إن امرأتي ولَدتْ غلاماً أسود؟ فقال: «**هل لك من إبل؟**» قال: نعم، قال: «**ما ألوانها؟**» قال: حُمْر، قال: «**هل فيها من أوْرق؟**» قال: نعم، قال: «**فأنّى كان ذلك؟**» قال: أراه عِرْق نزعه، قال: «**فلعل ابنك هذا نزعه عرق**»[1].

قال قتادة: إن الله عز وجل قادر على خلق النطفة على شكل قبيح مثل الحيوانات

(١) صحيح البخاري برقم (٥٣٠٥،٦٨٤٧،٧٣١٤)، وهذا لفظه وصحيح مسلم برقم (١٥٠٠).

المنكَرةُ الخلق، ولكن بقدرته ولُطْفه وحلمه يخلُقه على شكل حسن، مستقيم معتدل، تام الخلقة، حَسَن المنظر والهيأة[(١)].

إن عجائب الإبداع في خلق الإنسان، أضخم من أن يحيط به الإنسان، وهو أعجب من كل ما يراه حوله.

وخلْق الإنسان على هذه الصورة السوية المعتدلة، الكاملة الشكل والوظيفة، أَمْرٌ يستحق التدبّر الطويل، والشكر الجزيل.

وقد كُتبت مؤلفات في وصف كمال التكوين الجسدي للإنسان، ومنه: التكوين العضلي، والجلدي، والهضمي، والدموي، والعظمي، والتنفسي، والتناسلي، والعصبي، والجهاز البولي، واللمفاوي، والغدد، وأجهزة الذوق، والشم، والسمع، والبصر:

وإن جزءا من **أُذن الإنسان** (الجزء الأوسط) يتكون من سلسلة تُقدر بنحو أربعة آلاف جزئية دقيقة معقدة، متدرجة بنظام بالغ الدقة في الحجم والشكل.

ومركز **حاسة البصر**، يحتوي على مئة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء، وهي أطراف الأعصاب، ويقوم بحمايتها: الجفْنُ ذو الأهداب الذي يحميها ليلاً ونهاراً.

وحركة العين تمنع جفاف العين، وما يُعرف بالدموع أقوى مُطَهّر لها.

ومن ذلك: **جهاز الذوق** في الإنسان (اللسان) ففيه مجموعة من الخلايا في حلَمات غشائه المخاطي.

ويغذّى هذه الحلَمات: الخيطية، والفطرية، والعدَسية، فروع من العصب اللساني البلعومي، والعصب الذوقي، فينتقل أثرها إلى المخ، مع أن الجهاز في أول الفم.

ولذا: فإن الإنسان يلفظ ما لا يستسيغه، ويَحسُّ بالمرارة والحلاوة والبرودة والسخونة، والحامض والملح، واللاذع وغيره.

ويحتوي اللسان على تسعة آلاف من نتُوءات الذوق الدقيقة، وكل منها يتصل بأكثر

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٤٣).

من عصب.

ويتكون الجهاز العصبي من شعيرات دقيقة تمرّ بكافة أنحاء الجسم.

وتبلغ سرعة الإشارات والتنبيهات في الأعصاب، مئة متر في الثانية[1].

سبحان الخلاق العظيم!!

عَدَمُ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ هُوَ سَبَبُ الْغَفْلَةِ وَالْجُحُودِ

٩- ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ[2] بِالدِّينِ ۝٩﴾

ثم بين سبحانه أنه لا عذر للإنسان في الإشراك بالله تعالى، إذ لا يوجد ما يَغُرُّه أو يَحْمله على ذلك، ولكن الذي حمله على ذلك هو التكذيب بالبعث والنشور، فليس الأمر كما تقولون ـ أيها المكذبون ـ من أنكم محقّون في عبادتكم غير الله تعالى، بل أنتم مكذبون بيوم الحساب والجزاء، فهو الذي حملكم على الجرأة في ارتكاب المعاصي والفسوق، ولو أنكم فكّرتم وتدبّرتم لارْتدعْتُم وانزجرتم، ولم تكذّبوا بدين الإسلام، ولا بالبعث والجزاء، وعلمتم أن هناك ثواباً وعقاباً على الأقوال والأفعال.

فلا تغْتروا ـ أيها الناس ـ بحلم الله تعالى، واعلموا أنكم محاسبون، ومجزيّون بالإحسان إحسانا، وبالسوء سوءاً.

وقد أقام الله عليكم الحجة، فأرسل الرسل وأنزل الكتب، وسجلت عليكم الملائكة أعمالكم وأقوالكم، وعَلِم الله سركم ونجواكم.

أَرْبَعَةُ أَوْصَافٍ لِلْحَفَظَةِ

١٠-١٢- ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾

واعلموا - أيها الناس - أن لكل واحد منكم ملَكان يحفظان عليه أعماله ويحصونها،

(١) ينظر فيما سبق كتاب: الله والعلم الحديث، من فقرات وصفحات عدة بتصرف.

(٢) قرأ أبوجعفر بياء الغيبة في ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ والباقون بتاء الخطاب.

ويراقبونها ويسجلونها عليه كما قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١] .

وكما قال سبحانه: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٧، ١٨] .

وكما قال جل شأنه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

وقد أكد الله سبحانه ثبوت تسجيل أعمال العبد وإحصاءها عليه إحصاءً دقيقاً، كما أكد سبحانه ثبوت الجزاء على هذه الأعمال، فقال ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ﴾ من الملائكة ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾ رقباء على أعمالكم وتصرفاتكم، يحفظونها ويسجلونها عليكم دون أن يضيّعوا منها شيئا، والذي يكتب الحسنات والسيئات ملَكان.

وجاء التعبير في الآية بلفظ الجمع باعتبار التوزيع على الناس: قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١] .

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لله ملائكة يعرفون بني آدم ـ وأحسبه قال: ويعرفون أعمالهم ـ فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله، ذكَروه بينهم وسمّوه، وقالوا: أفلح الليلة فلان، نجا الليلة فلان، وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله، ذكَروه بينهم وسمّوه، وقالوا: هلك الليلة فلان**»(١).

وقد وصف الله تعالى الحفظة الموكلين بإحصاء الأعمال بأربعة أوصاف هي مهمة هؤلاء الملائكة: وهي الحفظ، والكرم، والكتابة، والعلم بما يعمله الناس.

الصفة الأولى: حفظ أعمال العباد: وقد بدأ الله تعالى بصفة حفظه الملائكة لأعمال العباد، لأنه الغرض الذي سيق لأجله الكلام، وهو: إثبات الجزاء على الأعمال.

والحفظ معناه الرعاية والمراقبة وهو الوظيفة الأولى للحفظة.

الصفة الثانية: أنهم كرام على الله تعالى: وهذه صفة كمال الحفظ والإحصاء،

---

(١) مسند البزار برقم (٢١٩٥)، قال البزار في (سلام) أحد رواته: أحسبه (سلام المدائني)، وهو لين الحديث.

والتنويه بشأن الملائكة الحافظين.

والكرم المذكور في الآية، صفة نفسية جامعة للكمال في المعاملة، وما يَصْدُر عنهم من الأعمال النفيسة، فهم ملائكة ﴿كِرَامًا﴾ على الله، لهم كرامة ومنزلة حسنة.

والصفة الثالثة: أنهم ﴿كَٰتِبِينَ﴾ لِمَا وُكّلوا بإحصائه، لا يفوتهم شيء من أعمالكم وأسراركم وأقوالكم، وهذه الكتابة للضبط والإحصاء، حتى لا تتعرض أعمال العبد وأقواله للنسيان، ولا للإنكار ولا للزيادة أو النقص.

ولم يرد حديث صحيح عن المعصوم ﷺ يبين كيفية كتابة الملائكة لأعمال الإنسان، فهي من الأمور الغَيْبيّة التي يجب الإيمان بها كما وردت.

والصفة الرابعة للحفظة: أنهم ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أيها الناس من خير أو شر، فهم يحيطون بما يصدر عنكم من أقوال وأعمال صغيرة أو كبيرة، ويحيطون بما يخطر ببالكم من تفكير يترتب عليه العزم والهم بالفعل.

كان الفُضَيْل إذا قرأ هذه الآية قال: ما أشدها من آية على الغافلين.

وقد فطر الله الحفظة على معرفة أقوال وأفعال العباد، ويدخل فيه الخواطر القلبية، أي ما يُعمِل فيه الإنسان عقله، فيعزم عليه أو يتردد.

وكل من يتول عملاً للأمة: كالعلماء والحكام، والأمراء والولاة، والقضاة وأهل الفتوى، وغيرهم، ينبغي أن يتوافر فيه هذه **الصفات الأربع**:

١- فيكون حافظاً أميناً غير مفرط فيما يقوم به من عمل.

٢- ويكون كريماً، زكيّ الفطرة، طاهر النفس.

٣- ويكون ضابطاً لما يجري على يديه بالكتابة، بحيث لا تضيع مصالح العباد والبلاد.

ومن وسائل ذلك: الحاسوب، والملفات، والفواتير، والدواوين، ودفاتر الشهود، وتوثيق الأحوال الشخصية،ونحو ذلك .

٤- ويكون هذا المسؤول محيطاً بما يتعلق بأحوال الناس المؤتمن عليها، فينتفي عنه الغلط والخطأ وعدم التمييز بين الأمور.

ويختلف العلم المطلوب من الحاكم، عنه في الوالي، عنه في قائد الجيش، عنه في العالم والمفتي، فيقدَّمُ في كل ولاية مَنْ هو أقوى كفاءة لإتقان عمله، وأكثر اضطلاعاً بممارستها.

مَصِيرُ الأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ

١٣-١٦- ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾

وللملائكة الحفظة غاية ونهاية ينتهي فيها قيامهم بإحصاء أعمال العباد، هو يوم الحساب والجزاء، الذي جحده ا لمكذبون.

ولمّا تشوّفت النفوس إلى معرفة هذا الجزاء على الأقوال والأعمال التي سجلتها الملائكة على العباد، بيّن تعالى أن الناس يوم القيامة فريقان:

الأبرار، وهم أهل السعادة، **والفجار** وهم أهل الشقاء:

أما الأبرار: فهم المتقون، الذين بَرُّوا بربهم، فصدقوا معه، ووفّوا بما عهد لهم به من الأوامر والنواهي، وهم القائمون بحقوق الله تعالى وحقوق العباد، وكان البر ملازماً لهم في أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وهؤلاء الأبرار الأتقياء لهم عند ربهم جنات النعيم، وهم سعداء في حياتهم الدنيوية والبرزخية.

فالمعنى: إن المؤمنين الصادقين الذين اتقوْا ربهم في الدنيا، ووفوا بما عاهدوا الله عليه، لفي نعيم دائم، وهناء مقيم، وفي بهجة وسرور، يتنعّمون في رياض الجنة بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهم مخلدون فيها دائماً وأبداً ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة].

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما سماهم الله الأبرار، لأنهم بَرُّوا الآباء والأبناء**»[1].

---

(١) مخطوطة تاريخ دمشق (١٧/٤٠٠) مستفاداً من تحقيق تفسير ابن كثير (٨/٣٤٥)، ط. دار طيبة بالرياض.

أما الفجار الذين نقضوا عهودهم مع الله تعالى، وخرجوا عن طوْعه، فعَصوْا ربهم، وقصَّروا في حقه وحق العباد، فهم في نار مُحْرِقة، متأججة بعضها فوق بعض، يَصْلَوْن لهيبها ، ويقاسون حرها في يوم الجزاء الذين كانوا يكذبون به، ولأنهم شقّو عصا الطاعة، وماتوا على ذلك.

معنى وصَلِيَ النار مسَّ حرها، أما اصطلى بالنار: أي استدفأ بها.

ورد أن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم المزَني: ليت شعري، ما لنا عند الله؟ فقال له: اعرض عملك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله، قال: أين أجد ذلك في كتاب الله؟ قال: عند قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ قال سليمان: فأين أجد رحمة الله؟ قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] [الأعراف:٥٦] .

ثم إن الذين ماتوا على الكفر، ملازمون للنار ملازمة تامة، لا يفارقونها ولا يغيبون عنها لحظة، ولا يخرجون منها أبداً.

١ - كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧] .

٢ - وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾ [فاطر:٣٦،٣٧] .

٣ - وقال عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧] .

٤ - وقال جل شأنه: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾ [الأعلى].

٥ ـ وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا

(١) تفسير الخازن (٤/٣٥٩).

لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء:٥٦] .

فأهل النار لا يغيبون عنها ساعة، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يجابون إلى ما يَسألون من الموت أو الراحة، ولو يوماً واحداً.

وقد فَصَّلَت سورة المطففين التالية، نعيم الأبرار في الآيات من ١٨-٢٨ وفَصَّلَت عذاب الفجار في الآيات من ٧-١٧ وكلا الفريقين لا يموت، ولا يخرج مما هو فيه. قال تعالى: مفخماً يوم الحساب والجزاء.

١٧، ١٨ - ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ ﴾

ثم عظّم الله تعالى أمر يوم القيامة وهوَّل من شأنه، فالإنسان لا يدري كُنْه هذا اليوم، ولا حقيقة ما يجري فيه، فما أعظم شأن هذا اليوم، فأي شيء أدراك عِظَم وشدة يوم الحساب والجزاء.

ثم أكد الله سبحانه أن المخاطب لا يعلم شيئاً عما يجري في يوم الحساب والجزاء.

والسؤال الأول في الآية السابقة ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ عن تهويل شأن يوم الدين.

والسؤال الثاني في هذه الآية ﴿ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ هو سؤال عن حقيقة يوم الدين.

فليس بين هذه الآية والتي قبلها تكرار، وإنما كل منهما له معنى. فيومُ القيامة بحقيقته وأهواله فوق الوصف والبيان، لا يعلم أحد حقيقته ولا يعلم مافيه من أهوال.

ومثل ذلك: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ ﴾ [الحاقة: ١ _ ٣].

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾ [القارعة:١-٣] .

اللهُ تَعَالَى هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالسُّلْطَانِ وَالْحُكْمِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

١٩ - ﴿ يَوْمَ[١] لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

ويوم الحساب لا يقدر أحد على نفع أحد فيه، ولا يدفع عنه ضراً، فلا يمكن لأحد أن يخلّص أحداً مما هو فيه، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. وهو اليوم الذى يفصل

(١) قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب برفع ﴿ يَوْمُ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي هو يوم والباقون بنصبها على الظرفية.

الله فيه بين العباد ويأخذ للمظلوم حقه من الظالم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

وقال سبحانه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦].

وضعف الخلائق في هذا اليوم شديد، فلكل امرىء منهم شيء يغنيه، وكل نبي يقول: نفسي نفسي، وذلك حين يطلب الخلق من هذا النبي الخاتم، الشفاعة عند الله تعالى للفصل والقضاء بينهم من هول ما هم فيه، حيث يلجمهم العرق ويبلغ آذانهم، ثم ينتهي طلب الشفاعة إلى النبي ﷺ فيقول ﷺ: «أنا لها»[1].

ومن ذلك أن النبي ﷺ يقول لابنته (يا فاطمة، سليني بما شئت، لا أغني عنكِ من الله شيئاً)[2].

والشاهد أن كل نفس كافرة لا تملك نفعاً لنفس كافرة أخرى، فالنافع الضار هو الله تعالى، والمعطي المانع هو الله، والأمر كله بيد الله، لا ينازعه فيه منازع، ولا يغالبه فيه مغالب، ولا يقهره قاهر.

١ - قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

٢ - وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

٣ - وقال عز وجل: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم:٤].

٤ - وقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣].

فلا أمر مع أمر الله، ولا تقدُّم على قضائه ولا بكلمة، إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً.

وكما فتحت السورة بالحديث عن يوم القيامة، ختمت به أيضا ردّاً للعجز على الصدر.

تم تفسير (سورة الإنفطار) ولله الحمد والمنة

---

(١) من حديث ابن عباس في الشفاعة العظمى في المسند (٢٥٤٦،٢٦٩٢)، وهو في البخاري عن أبي هريرة (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)، وعن أنس في البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

(٢) ينظر: حديث أبي هريرة في مسلم (٢٠٤، ٣٤٨)، والترمذي (٣١٨٥)، والمسند (٨٤٠٢) بإسناد صحيح والبخارى (٢٧٥٣).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ(٨٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المطففين) هي السورة الثالثة والثمانون في ترتيب المصحف، والسادسة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة العنكبوت) وقبل (سورة البقرة).

وتسمى (سورة المطففين) وهو الأشهر، وسميت في كتب السنة وبعض التفاسير (سورة ويل للمطففين) والأول اختصاراً له.

وعدد آياتها ست وثلاثون آية باتفاق، وهي مئة وتسع وستون كلمة.

وسبع مئة وثلاثون حرفاً.

وهي من السور المختلف بين كونها مكية أو مدنية على **أقوال ثلاثة:**

١- فمن قال: إنها مكية نظر إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ [الآية:١٣] فإنّ رَمْيَ القرآن بهذا الإفك كان في مكة، ومع هذا فإن تطفيف الكيل والميزان كان في مكة، كما هو في كل أمة وفي كل زمان، فهو أمر حاصل في كل بلد، لاسيما إذا كان أهلها كفاراً، وبهذا قال ابن عباس والسُّدِّي والنقاش[1].

ومنهم من قال هي آخر ما نزل بمكة[2].

٢- وقال مقاتل: هي أول سورة نزلت بالمدينة.

قال ابن عباس: لما قدم النبي ﷺ كانوا أخبث الناس كيلا، فأنزل الله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك[3].

---

(١) أخرجه ابن الضريس (١٧،١٨) عن ابن عباس.

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية (٥/٤٤٩).

(٣) ينظر: سنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٩٠،١١٦٥٤)، وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٢٣)، قال البوصيري: هذا إسناد حسن، وهو عند ابن حبان (٤٨٩٨،٤٩١٩)، والمستدرك (٢/٣٣)، وحسن إسناده الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٨٠٨)، وأخرجه الطبراني (١٢٠٤١)، والطبري (٢٤/١٨٦).

وقيل: إن النبي ﷺ لما قدم المدينة وبها رجل يقال له: أبوجهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فنزلت الآية[1].

وبعض من قال: إنها مدنية، استثنى الآيات الثمانية الأخيرة فقال: إنها مكية.

وقال القُرظي: كان بالمدينة تجّاراً يطففون الكيل، وكانوا يتبايعون بالقمار ونحوه فأنزل الله الآية، فخرج النبي ﷺ إلى السوق وقرأها، وكانت عادة متفشية فيهم[2].

٣ - وقال بعضهم: نزلت السورة في الهجرة بين مكة والمدينة، وكان التطفيف متفشياً في البلدين، فأراد الله تعالى أن يطهّر المدينة من فساد المعاملات التجارية، قبل أن يدخلها النبي ﷺ لئلا يشهد فيها منكراً عاما، في الأسواق والمبادلات، وهذا مقصد حسن، ولذا فقد قيل إنها آخر ما نزل بمكة، وأول ما نزل بالمدينة[3].

عن أبي هريرة ﷺ قال: (قدمتُ المدينة والنبي ﷺ بخيبر، ورجل من بني غفار يؤمّهم في الصبح، فقرأ في الأولى ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ وفي الثانية ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ وكان عندنا رجل له مكيالان، مكيال كبير، ومكيال صغير، يُعْطي بهذا ويأخذ بهذا، فقلتُ: ويل لفلان[4].

موضوع السورة:

١- تأتي سورة المطففين بعد سورة الانفطار كأنها تكمّلها، فهي تُفصّل ما أجملته عن الأبرار والفجار، وقبل ذلك فإنها تُطهّر المجتمع المسلم من المعاملات التي لا تتفق مع مبادىء الإسلام السامية، فهي تفصّل علاقة العمل في الدنيا بالجزاء في الآخرة، كي يتدارك الإنسان نفسه قبل حلول الأجل، وانتهاء وقت العمل.

٢- وتبدأ السورة في آياتها الست الأُول، بإعلان الحرب على المطففين في الكيل

---

(١) تفسير الخازن (٤/٤٥٩).

(٢) تفسير ابن عاشور (٣٠/١٨٨) وابن عطية وابن الجوزي.

(٣) زاد المسير (٩/٥١) وابن عاشور (٣٠/١٨٧).

(٤) صحيح ابن حبان (٧١٥٦)، قال محقق الإحسان: إسناده صحيح على شرط مسلم، وهو في البزار (٢٢٨١) كشف، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٣٥) رجاله رجال الصحيح.

والوزن، ونحو ذلك من كل ما هو معنوي أو محسوس، سواء في تعامل العبد مع ربه أو تعامله مع الناس.

فمن لم يطمئن في ركوعه وسجوده فهو مطفف في عبادته.

ومن ظلم غيره وتعالى عليه فقد طفّ الصاع.

والذي ينتقص من وقت العمل، أو لا يؤديه كما يجب، فقد نقص الكيل والوزن.

والذي يعامل الناس بمكيالين، لثراء وفقر، أو لسبب مّا من الأسباب، فهو من المطففين.

والذي لم يسوِّ بين زوجاته ولا بين أولاده، فهو من المطففين.

والذي يغشُّ في البيع والشراء فهو من المطففين، وهكذا.

وقد وصف الله المطففين بأنهم لا يخافون حساباً ولا قياماً بين يدي رب العالمين.

٣ - ولأن مرتكبي جريمة التطفيف بكل صوَرِه، يرتكبها الفجار الأشقياء، فقد هدّدهم الله تعالى وتوعدهم بعذاب جهنم، وصوّرت السورة جزاءهم يوم القيامة، حيث يساقون إلى الجحيم مع الزجر والتهديد، وهم محجوبون عن رؤية ربهم يوم لقائه بسبب كفرهم بآيات الله تعالى، وبسبب كثرة وقوع الذنوب منهم حتى رانت على قلوبهم، فطُمست وطُبع عليها.

٤- وبعد الحديث عن الفجار، تأتي الصفحة المقابلة للأبرار المتقين، وما أعده الله لهم من النعيم المقيم، فتصف طعامهم وشرابهم ومساكنهم، ونُضْرة وجوههم، وشرابهم من رحيق ختامه مسك، ممزوج من عين التسنيم، وفي كل هذا جمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

٥- وخُتمت السورة ببيان جانب مما كان يلْقاه الأبرار من الفجار في الدنيا، حيث كانوا يسْخَرون منهم ويستهزؤون بهم، ويغمِزُون ويلمزون ضعفاء المسلمين احتقارًا لهم، وكانوا يظنون أنهم على حق، وأن هؤلاء الضعفاء من الأبرار المتقين في ضلال بيّن، فإذا كان يوم القيامة فإن الجزاء يكون من جنس العمل، فكما ضحك الكفار من

المؤمنين في الدنيا، فإنهم يفعلون بهم كذلك يوم القيامة، وهم على أسِرّتهم ينظرون إليهم ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الآية:٣٦].

نعم، لقد جُوزوا بمثل ما فعلوا في الدنيا أعدل الجزاء.

وعلى هذا فإن في السورة أربعة مقاطع:

المقطع الأول: عن المطففين في الكيل والميزان ونحو ذلك، من كل ما هو مادي أو معنوي، وذلك في الآيات الست الأول.

والمقطع الثاني عن ردع الفجار وزجْرهم، وتهديدهم بالويل والهلاك.

وهذا من الآية السابعة إلى الآية السابعة عشرة.

والمقطع الثالث عن الأبرار ونعيمهم ونُضرة وجوههم، والرحيق الذي يشربون منه، والأرائك التي يجلسون عليها، وهذا من الآية الثامنة عشرة إلى الآية الثامنة والعشرين.

والمقطع الرابع فيما يحدث من سُخْرِية الأقوياء من الضعفاء، واحتقارهم لهم في الدنيا، وعقاب الله لهم في الآخرة من جنس ما كانوا يصنعون.

وهذا من الآية التاسعة والعشرين إلى انتهاء السورة، بالآية السادسة والثلاثين.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

وَصفُ التَّطْفِيفِ فِي الْمَحْسُوسَاتِ وَالْمَعْنَوِيَّاتِ

١-٣- ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾

بدأت السورة ببيان العذاب الشديد، والوعيد بالهلاك والثبور، لمن يبخس الناس حقوقهم في الكيل والميزان وما يشبههما، فالويل: كلمة تهديد ووعيد بالعقاب لكل مخالف.

والتطفيف: النقص في المكيل والموزون، وغالباً ما يكون ذلك من كبار التجار، أصحاب رؤوس الأموال، فالمكاييل والموازين في قبضتهم.

وقد كانت هذه الآفة متفشية بين التجار قبل الإسلام، وقد عدّها الإسلام من كبائر الذنوب، وأرسل الله نبيه شعيباً عليه السلام للقضاء على هذه الجريمة بين أهل مدين، وأصحاب الأيكة.

ولَمَّا نزلت هذه الآية، أحسن الناس الكيل والميزان بعدها.

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما «**ولا طفّفُوا الكيل إلا مُنعوا النبات، وأخذوا بالسنين**»[1].

ثم وصف الله سبحانه وتعالى حال هؤلاء المطففين، فبين أنهم يكيلون بمكيالين، فإذا أَخذوا الحق لأنفسهم أخذوه وافياً كاملاً، وإذا أعطوه لغيرهم بَخَسوه ونقصوه، وهي عادة ذميمة.

وممن اشتهر بهذا في المدينة في عصر التنزيل: رجل يكنى (أبا جهينة) واسمه (عمرو) كان له صاعان، يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر[2].

---

(١) من حديث ابن عباس عند الطبراني (١٠٩٩٢) وهو صحيح لغيره كما في صحيح الترغيب والترهيب (٧٦٥) وأخرجه ابن مردويه أيضاً.

(٢) ينظر: طبقات ابن سعد (٣٢٧/٤)، والبزار (٢٢٨١) كشف، والبيهقي (١٩٨/٤).

وقد وصف القرآن المطففين بأنهم إذا اكتالوا على الناس، أي أخذوا الكيل منهم على سبيل الشراء، أخذوه وافياً كاملاً لأنفسهم، وإذا كالوا للناس، أي باعوا لهم، ينقصون الكيل والوزن.

واكتفت الآية بذكر الوزن في البيع دون الشراء، لأن كلا منهما يدل على الآخر.

والآية تحذّر من التساهل في أمر التطفيف لأنه يجمع ظُلْماً واختلاساً ولُؤماً، وينشأ هذا من فساد الدين والأخلاق، فالأنانيُّون لا يعرفون إلا مطالبهم وإن كانت باطلة، ويَضيقُون بمطالب غيرهم وإن كانت حقا، فهم كالوحوش لا يعرفون إلا ما يشتهون.

وإذاً فإن صورة التطفيف القريبة تُطْلق على الكيل والميزان، ولكنها تطّرد في صور شتى للحياة.

وهناك أناس ترتفع في أعينهم قيمة كل ما يملكون، أما ما يملكه غيرهم فلا حرمة له عندهم.

والمعنى: أنهم إذا اشتروْا من الناس شيئاً، استوْفُوا لأنفسهم الكيل والوزن، وإذا باعوا إليهم شيئاً، فإنهم يبخسونهم حقوقهم، وينقصونهم الكيل والوزن.

والوعيد الذي في أول السورة يلحق كل من يأخذ لنفسه زائداً في السلع ونحوها، أو يدفع لغيره ناقصاً، سواء قل ذلك أم كثُر، ما لم يتب منه، فإن تاب ورد المظالم والحقوق إلى أهلها، تاب الله عليه، ومَنْ أصر على ذلك واستمر عليه، فهو مصر على كبيرة من الكبائر.

قال نافع: كان ابن عمر ﷺ يمر بالبائع فيقول له: اتق الله، أوف الكيل والوزن، فإن المطففين يوقَفُون يوم القيامة، حتى يُلجمهم العرق[١].

وقال قتادة: أوف يا ابن آدم، كما تحب أن يوفّى لك، واعدل كما تحب أن يُعْدل لك[٢].

وقال الفضيل: بخس الميزان سواد يوم القيامة[٣].

(١-٣) تفسير الخازن (٣٥٩/٤).

حتى تكون منهم كمقدار ميل» قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين، قال: «**فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حِقْويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً**» قال: وأشار رسول الله بيده إلى فيه[(١)].

٦- وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **بمقدار نصف يوم، من خمسين ألف سنة، فيهون ذلك على المؤمن، كتدلّي الشمس إلى الغروب إلى أن تغرُب**»[(٢)].

٧- وأخرج الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: يا رسول الله، كم مقام الناس بين يدي رب العالمين يوم القيامة؟ قال: «**ألف سنة، لا يؤذن لهم**»[(٣)].

أما مقدار هذا اليوم الذي يقوم فيه العباد لرب العالمين فقد جاء تحديده في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

٨ - وفي حديث أبي هريرة ﷺ «**في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**»[(٤)].

ولكن هذا اليوم يخف ويثقل، ويطول ويقصر باعتبار أحوال الناس.

وقد كان النبي ﷺ على جلالة قدره يستعيذ بالله من ضيق هذا اليوم.

ففي حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل، يكبر عشراً، ويحمد عشراً، ويسبح عشراً، ويستغفر عشراً، ويقول: «**اللهم اغفر لي، واهدني، وارزقني، وعافني، ويتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة**»[(٥)].

قال ابن عطية عن قيام الناس لرب العالمين:

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٤).

(٢) أخرجه أبويعلى برقم (٦٠٢٥)، وابن حبان برقم (٧٣٣٣) قال محقق أبي يعلى: إسناده صحيح.

(٣) أخرجه الطبراني وقال الهيثمي: فيه هشام بن بلال، وبقية رجاله وثقوا: مجمع الزوائد (١٠/٣٣٧).

(٤) من حديث طويل في صحيح مسلم برقم (٩٨٧).

(٥) أبوداود برقم (٧٦٦)، وسنن النسائي (٣/٢٠٨)، وفي الكبرى (١٣١٩،١٠٦٤٢)، وابن ماجة برقم (١٣٥٦)، وابن حبان (٢٦٠٢)، وانظر: مسند أحمد (٢٥١٠٢) بإسناد حسن، وقد روى هذا الحديث عدة طرق.

يوم القيامة يوم يختلف الناس فيه بحسب منازلهم:

١- فروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «يقام فيه خمسون ألف سنة»[(١)] وهذا بتقدير شدته.

٢- وقيل: ثلاث مئة سنة[(٢)].

٣- وقال ابن مسعود ﷺ: «أربعين سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء، لا يؤمرون، ولا يكلَّمون»[(٣)]. وقيل غير هذا، وفيه كله آثار مروية.

ومعناها: إن لكل قوم مدة مّا، حسبما تقتضي حالهم وشدة أمرهم.

وورد أن القيام في يوم القيامة يكون على المؤمن على قدر ما بين الظهر إلى العصر، أو بمقدار صلاة مكتوبة[(٤)].

فمقادير بلوغ العرَق منهم، وكذا طول الموقف بين يدي الله تعالى وقِصَرِه، كل على قدر عمله، فكل منهما يختلف باختلاف أحوال الناس.

عن القاسم بن أبي بزّة قال: حدثني من سمع ابن عمر رضي الله عنهما قرأ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ حتى بلغ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فبكى حتى خر وامتنع عن قراءة ما بعده[(٥)].

فالتطفيف في مظهره القريب يطلق على الكيل والميزان، ولكن معناه يطّرد في صور شتى للسلوك الإنساني.

سِجِلُّ أَعْمَالِ المطَفِّفِ فِي دِيوَانِ أَهْلِ الشَّرِّ

٧-٩- ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾

---

(١) الطبراني (٨٥)، والحاكم (٥٧٢/٤).

(٢) جاء هذا عن حذيفة وعن أبي هريرة كما في الدر المنثور (٢٩١/١٥).

(٣) جاء هذا عن ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر (٢٩١/١٥)، وانظر فيما سبق تفسير ابن عطية (٤٥٠/٥) وينظر: تفسير الطبري (٥٩/٣٠)، وابن كثير (٣٤٧/٨).

(٤) جاء هذا عن قتادة وعن كعب عند عبد بن حميد وابن المنذر، الدر المنثور (٢٩١/١٥).

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١٩٢) وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة.

ثم إن مطفف الكيل والميزان يُكتب عمله في سجل الفجار، من الكفار والمنافقين والفاسقين، لأنهم يحشرون في زمرتهم يوم القيامة، فالحديث عنهم واحد، والمصير الذي ينتظرهم واحد، والفاجر هو المتجاوز الحد في المعصية والإثم، وسجلُّ عمله يودَع في مكان، اسمه ﴿سِجِّينٍ﴾ مكتوب عليه ﴿سِجِّينٍ﴾ كتابة واضحة تشبه الرقم المنسوج في الثوب، وهو مكان ضيق كالسجن، يودع فيه أرواح الكفار.

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان:١٣، ١٤].

١- قال ابن عمر وعائشة ومجاهد وقتادة وغيرهم: هي الأرض السابعة السفلى، وفيها أرواح الكفار[١].

٢- وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن البراء أن (سجين أسفل سبع أرضين، وعلِّيين في السماء السابعة تحت العرش)[٢].

٣- وعن عبد الله بن كعب بن مالك قال: لما حضرت كعباً الوفاة أتته أُمُّ بِشْر بنت البراء فقالت: إن لقيتَ ابني فأقرئه مني السلام، فقال: غفر الله لكِ يا أم بشر، نحن أشغل من ذلك، فقالت: أما سمعتَ رسول الله ﷺ يقول: «**إن نَسَمة المؤمن تسرح في الجنة حيث شاءت، وإن نسمة الكافر في سجين؟**» قال: بلى، قالت: فهو ذلك[٣].

وقد ورد أن سجين كتاب جامع لأعمال الشر الصادر من الشياطين والكفرة والفسقة.

وسجين في الأصل مشتق من السجل وهو الكتاب.

وقيل: هو المكان الضيق كالسجين، وقيل: هو أسفل الأرض السابعة، وهو ضد

---

(١) ورد هذا في آثار كثيرة، انظرها في المصدر السابق (١٥/٢٩٤).

(٢) تفسير الخازن (٤/٣٦٠).

(٣) ينظر: سنن ابن ماجة (١/١١٨٧)، والطبراني (١٩/٦٤) (١٢٢)، والبيهقي في البعث (٢٢٦)، وعبد بن حميد (١٥٦٩)، ومشكاة المصابيح (١٦٣١)، قال الألباني: ضعيف، والمرفوع منه صحيح، وهو في صحيح ابن ماجه أيضاً برقم (٣٤٤٦)، والسلسلة الصحيحة (٩٩٥).

علِّيين محل كتاب الأبرار.

وفي سجين: صحف أعمال الشياطين والكَفرة من الجن والإنس، فكل ما كُتب من أعمالهم مسجل في هذا الديوان الضيق المتسافل، ومصير الفجار إلى جهنم في أسفل سافلين.

وكل ما كان أعلى فهو أوسع، لأنه دركات كدركات جهنم بعضها دون بعض.

فليس الأمر كما يزعم الجاحدون المنكرون للبعث والحساب والجزاء، ولا كما يظن المطففون أنه لا ثواب ولا عقاب، بل الحق أن البعث واقع ما له من دافع، وأن ما يفعله الفجار من الكفر والتطفيف في الكيل والميزان، مكتوب ومسجل في صحف أعمالهم، بديوان الشر الذي يوصّلهم إلى قاع جهنم، فلْيرتدعوا عن فعلهم، حتى لا يصلوا إلى هذه النهاية.

ثم هوّل سبحانه من شأن هذا المكان الضيق الذي يودَع فيه صحف أعمال الفجار وأرواحهم، بأنه مكان فظيع لا يعرف الإنسان حقيقته، ولا حقيقة ما يجري فيه، أما وصف هذا الكتاب المودع فيه:

فهو كالرقم في الثوب، مكتوب كتابة كالنسيج الذي لا يُمحى ولا يزول، ولا يزاد فيه ولا ينقص منه، وهذه الكتابة الثابتة ثبوت النسج في الثوب، واضحة، يفهمها أصحابها فهماً بيّناً، لا لَبْس فيه ولا غموض، إنه ديوان الشر الجامع لأعمالهم السيئة.

ثَلاثَةُ أَوصَافٍ لِمَنْ لَمْ يُؤمِنْ بِالْيَومِ الآخِرِ

١٠ - ١٢ - ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾

والويل الشديد لهؤلاء الفجار المكذبين، إذا صاروا إلى ما توعّدهم الله به من السجن والعذاب المهين، ويل لهم، ثم ويل لهم، وفي هذا تحذير مسبق للناس وهم في الدنيا، قبل أن يصل بهم المقام إلى هذا المصير.

ثم وصف سبحانه مَنْ كان هذا شأنهم، وبيّن أن منشأ الإقدام على الجرائم، وارتكاب السيئات والموبقات هو عدم التصديق باليوم الذي يدان فيه العباد وهم قيام لرب

العالمين، ولو أنهم آمنوا بما فيه من أن الجنة دار الثواب، والجحيم دار العقاب، لأقْلَعُوا عما هم فيه واستعدوا للقاء ربهم.

ولا يجحد هذا اليوم ويكذب بما فيه، إلا كل من تجاوز الحد في الكفر والطغيان، وبالغ في ارتكاب الآثام والمعاصي، وهو جاحد لكتاب الله، منكر للبعث والنشور، فهذه ثلاثة أوصاف، ذكرتْ هذه الآية صفتان منها في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ في أقواله وأفعاله، متجاوز الحلال إلى الحرام، ومتعدّ حدود الله تعالى وشرائعه، فهو ظالم لنفسه بالكفر والشرك، وارتكاب المحرمات، وإنكار الحساب والجزاء، وظالم للناس بأكل أموالهم، وإضاعة حقوقهم، ومنها تطفيف الكيل والميزان.

فالوصف الأول للمكذب باليوم الذي يدان فيه العباد أنه ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي ظالم متجاوز للحدود فيما بينه وبين الله، وفيما بينه وبين الناس.

والوصف الثاني أنه ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير ارتكاب الذنوب والآثام، أي أنه مبالغ في ارتكاب القبائح والخطايا. قال تعالى:

١٣ - ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

أما الوصف الثالث: فهو التكذيب بما جاء به محمد ﷺ ومنه اليوم الآخر، ومافيه من الثواب والجزاء، فهو إذا تليت عليه آيات القرآن، قال: هذه خرافات وأباطيل وحكايات مَنْ سبقونا، وكذّب بما فيها من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته، والدالة على صدق محمد ﷺ في رسالته ودعوته.

فهم يقولون: إنها حكايات وقصص، سطّرها الأوّلُون في كتبهم وزخْرفُوها، يقول بهذا كل من لا دين له من الدهريين والشيوعيين والملحدين والوثنيين .. إلخ.

وقد كان المشركون يصفون القرآن بهذا حين يستمعون إلى قصص القرآن، فحسبوا أن قصة أهل الكهف – مثلاً - وأضرابها من قصص الأساطير القديمة.

وممن قال بهذا: النضر بن الحارث، فقد كتب قصة رستم، وقصة إسفنديار، حيث وجدها في الحيرة، وكان يُحدّث بها في مكة ويقول: أنا أَحْسَنُ حديثاً من محمد، فإنما

يحدثكم بأساطير الأولين.

والآية عامة في كل من كذب بالله ورسوله واليوم الآخر، وفي كل عصر ومِصْر، وفي كل من يصف القرآن بأنه أساطير الأولين!

ولهذه الآية نظائر منها قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۙ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٤، ٢٥].

وقوله سبحانه: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان: ٥].

والقرآن الكريم قد قامت الأدلة القطعية على أنه الحق المبين، فلا يكذب به إلا كل جاهل أو معاند مغرور.

كَثْرَةُ الذُّنُوبِ تَحْجُبُ الإِيمَانَ عَنِ القَلْبِ

١٤ - ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ[(١)] رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ثم بين سبحانه وتعالى أنه ليس الأمر كما زعم هؤلاء وأولئك، من أن القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله تعالى ووحيه، وتنزيله على رسوله ﷺ وإنما الذي حجب قلوبهم عن الإيمان به، هو كثرة الذنوب والخطايا التي غطّت على قلوبهم بسبب ما ارتكبوه من المعاصي وعدم التوبة منها.

فالكفر والعناد هو الذي استولى على قلوبهم في الدنيا، فغطّاها، وطمسها بحيث أصبحت لا تُميز بين الحق والباطل، ولا بين الهدى والضلال، ولا تميز بين كلام الله تعالى وكلام الناس، وهذا هو الرّان على قلبه.

---

(١) قرأ حفص بخلف عنه بالسكت على لام ﴿بَلۡۜ رَانَ﴾ سكتة خفيفة من غير تنفس، ويلزم منه إظهار اللام وقرأ غيره بعدم السكت مع إدغام اللام في الراء، ومعهم حفص في وجهه الآخر، وهو من طريق طيبة النشر، ويُقرأ به على قصر المد المنفصل.

والرّيْن هو: الصدأ الذي يكْسُوا الحديد والنحاس ونحوهما، وهكذا الكافر فإن أعماله الضالة تغطي على قلبه، فيصدأ، بحيث لا يقبل الاستماع إلى القرآن والسنة ومجالس العلم، وإذا سمع شيئاً منها فإن الفهم لا يدخل قلبه، وفي هذا بوْن شاسع بين هذا الرّيْن، وبين أساطير الأولين، فليرتدع ولينزجز هؤلاء عما قالوه، فقد بصّرهم القرآن بما في قولهم من باطل، حتى يُقلعوا عما يقولوه ويفعلوه من الزور والضلال، من قبل أن يأتي يوم لا خلة فيه ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون.

والأحاديث الصحيحة تُفسّر معنى الرّان، وهو أن العبد إذا أذنب ذنباً، ولم يتب منه، تَرَكَ هذا الذنب على قلبه علامة سوداء، ثم يتكرر ذلك منه مرات، دون توبة، ولا يزال الأمر كذلك: نكتة إلى جوار أخرى، دون أن يُمحى الذنب بتوبة، حتى يَسْودّ القلب ويَعْلُوه الصّدأ والغشاوة، فلا يقبل هُدى، ويكره الخير وأهله، كما قال تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ﴾ [الكهف:٥٧].

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنبا نكتتْ نكتة في قلبه سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر، صُقل قلبه، فإن زاد زادت، فذلك الرّان الذي ذكره الله في كتابه ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾»[1].

قال الحسن البصري في معنى الرَّان: هو الذنب على الذنب، حتى يَعْمى القلب ويموت.

لقد غطّت المعاصي التي اكتسبها على قلبه حتى غمرتْه، فقسى قلبه، وزادت الغفلة، واستمرأها بالمداومة عليها، فأحاطت به من كل جانب، حتى مات القلب كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٨١].

---

(١) سنن ابن ماجة برقم (٤٢٤٤)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجة (٤١٧/٢) برقم (٣٤٢٢)، وصححه الحاكم في المستدرك (١/ ٥ ٥١٧/٢)، ووافقه الذهبي، وأخرجه الترمذي من طريق آخر وقال: حديث حسن صحيح برقم (٣٣٣٤)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠١٧٩،١١٦٥٨،١١٥٩٤)، وتفسير الطبري (٦٢/٣٠)، والمسند (٢٩٧/٢) (٧٩٥٢) بإسناد قويّ، محمد بن عجلان، صدوق قوي الحديث، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه)، والبيهقي (٧٢٠٣)، وابن حبان (٢٧٨٧،٩٣٠).

وفي هذه الآية تحذير من الذنوب والخطايا، فإنها تُغطِّي القلب شيئاً فشيئاً حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتنقلب عليه الحقائق، ويرى الباطل حقاً والحق باطلاً، وهذا من عقوبات الذنوب.

وبهذا يتبين أن مستقبل الناس عند الله تعالى: لا تقرره فلتات اللسان، ولا عثرات الطريق، وإنما تقرره مناهج مرسومة، وعدالة إلهية، إن الخطأ العابر، يَطْهُر منه العبد بمجرد التوبة والندم والعزم على عدم العودة، فإن عاد وتاب، تاب الله عليه.

أما من وضع لنفسه برنامجاً لحياة هابطة، وعقيدة فاسدة، فقد أسس لنفسه المصير المهلك.

إن الذين يألفون الدّنايا ويعيشون لها، كعيشة الحشرات في السراديب والحُفَر.

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠].

إنهم لم يحاولوا التسامي بأنفسهم، فكيف يرتفعون؟

الفُجَّارُ مَمْنُوعُونَ مِنْ رُؤيَةِ رَبِّهِمْ فِي الآخِرَةِ، دَاخِلُونَ جَهَنَّمَ

١٥، ١٦ - ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه وتعالى سوء المصير الذي ينتظر الفجار يوم لقاء الله تعالى.

وإذا كان أعظم نعيم أهل الجنة، هو رؤية الله تعالى بلا كيف ولا انحصار، فإن أكبر ما يُحْرَم منه أهل الجحيم: هو حَجْبُهم عن رؤية رب العالمين يوم القيامة، إنهم ممنوعون من رؤية الله تعالى، وهذا معنى ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما زعم الكفار من أن القرآن أساطير الأولين، بل إن لهم منزِلاً ضيِّقاً في سجين، بسبب إصرارهم على الكفر إلى الممات، وهم فوق ذلك محجوبون عن رؤية ربهم - جل وعلا- ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ عن الله، كما حجبوا قلوبهم عن الحق.

قال الشافعي: في الآية دليل على أن المؤمنين يَرَوْن ربهم يوم القيامة[1].

(١) رواه البيهقي في مناقب الشافعي (٤١٩/١).

وقال سلمان: الصلاة مكيال، فمن أوفى، أُوفيَ له، ومن طفف فقد سمعتم ما قال الله في المطففين[1].

وقد أمر القرآن الكريم بالوفاء بالكيل والميزان ونهى عن تطفيفهما في مواضع كثيرة منها:

١- في سورة الأنعام: ١٥٢ ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾.

٢- وفي سورة الأعراف: ٨٥ ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ في قصة أهل مدين.

٣- وفي سورة هود: ٨٤، ٨٥ في قصة مدين أيضاً ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

٤- وفي سورة الإسراء: ٣٥ ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

٥- وفي سورة الشعراء: ١٨١ - ١٨٣ ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

وكل ما طففه الإنسان من الكيل والميزان، فهو مما يقدّمه لنفسه بعد موته من سوء العمل المسؤول عنه يوم القيامة، وسيندم عليه ويقول ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] ولات ساعة مندم.

والآيات تشير إلى أن المطففين الذين يتهدّدهم الله بالويل، هم طبقة الكبراء، أصحاب النفوذ الذين يملكون إكراه الناس على ما يريدون، ولهم على الناس سلطان بأي سبيل، فهم يحصُلون على ما يريدون قسراً، سواء في الكيل والميزان، أو في سائر الحقوق والواجبات.

وقد أدرك هذا المعنى الذين بايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة من نقباء الأوس والخزرج.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عن سلمان كما في الدر المنثور (١٥/٢٨٩).

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لمّا اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة: (يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترؤن أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلى، أَسلمتموه، فمن الآن! فهو والله بما دعوتموه إليه، على نهكة الأموال، وقتل الأشراف، قالوا: فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وَفّينا؟ قال: «الجنة» قالوا: ابسط يدك، فبسط يده، فبايعوه).

ومراقبة الغش في البيع والشراء، وتطفيف الكيل والميزان من مهام رجال الحسبة في الأسواق والمتاجر.

وقد كان عمر يتجول بنفسه في السوق، ويتفقد المكيال والميزان، ويُخرج من السوق من يجد في مكياله نقصاً، وهكذا يجب على ولاة الأمور.

قال علماء الحسبة: على الأمة أن تطيع السلطان في أربع: في نوع المكيال والميزان، ونوع العملة التي يطرحها للتعامل بها، وإعلان الحرب أو قبول الصلح.

وإذا كان هذا الوعيد على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان، فالذي يأخذ أموالهم قسراً أو سرقة أو رشوة أو ظلماً أولى بهذا الوعيد، وقد دلت الآية على أن الإنسان كما يأخذ من الناس ماله، يجب عليه أن يعطيهم ما لهم، وهذ أمر عام في الأموال والمعاملات والحجج والمناظرات والحقوق والواجبات، وأن ينصف الناس كما يجب أن ينتصف لنفسه.

تَهْدِيدُ الْمُطَفِّفِينَ وَوَعِيدُهُمْ بِالْعِقَابِ يَوْمَ لِقَاءِ اللهِ تَعَالَى

٤-٦- ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

بين ـ سبحانه ـ أن الذي جرأ هؤلاء الظلمة على التطفيف، هو عدم إيمانهم باليوم الآخرة، وإلا فلو أنهم آمنوا به وعلموا أنهم سيقفون بين يدي ربهم للحساب والجزاء، لأقلعوا عن ذلك وتابوا إلى الله عز وجل، ولهذا فإن الله تعالى توعدّهم وتعجب من

حالهم وإقامتهم على ما هم فيه من ضلال.

والذي يعصم الإنسان من الوقوع في هذه الدنايا، ويكبح جماحه، ويقيّد يده عن الحرام، وضميره عن الجور: هو الإيمان بالله واليوم الآخر، ولو أن المطففين للكيل والميزان تيقنوا أنهم سيبعثون في يوم شديد الهول، كثير الفزع لما أقدموا على ذلك ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ﴾ ألا يعلم ويستيقن هؤلاء المطففين، ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾؟ لو كانوا يعلمون ذلك ما نقصوا الكيل والميزان، فكيف بحال من يسرق ويختلس، ويبخس الناس أشياءهم؟ إنه أولى بالوعيد من مطففي الكيل والميزان. وفي هذا إنكار عليهم وتعجُّب من حالهم في جرأتهم على أكل أموال الناس بالباطل.

عن عبد الملك بن مروان أن أعرابياً قال له: قد سمعت ما قال الله في المطففين - أراد الوعيد الشديد الذي توعدهم الله به - فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال الناس بلا كيل ولا وزن ولا نصب[1].؟

والظن في الآية مستعمل في حقيقته، وهو هنا اعتقاد قيام الساعة اعتقاداً راجحاً.

فلو أنهم خافوا لقاء الله، وخافوا نزول العقوبة بهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ من قبورهم استجابة لأمر الله تعالى، حيث يَلْقَوْا جزاءهم العادل، وحكمه النافذ، ويحاسبهم على القليل والكثير، وهم خاضعون فيه ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً. لو أنهم خافوا هذا اليوم ما فعلوا ذلك. ومن الأحاديث التي توضح هذا المعنى ما ورد:

١- عن عبد الله بن عمر وابن مسعود ﵁ أن النبي ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **حتى يغيب أحدهم في رَشْحِه إلى أنصاف أذنيه**»[2].

أي يقوم الناس للبعث حفاة عُراة غُرلاً، ويكونون في كرْب وضنْك، ويغشاهم من

---

(١) من تفسير القرطبي للآية وتفسير النسفي بحاشية الخازن (٤/٣٦٠).

(٢) المسند (٢/٣١) برقم (٤٦١٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و(٥٨٢٣)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٢)، وسنن الترمذي برقم (٢٤٢٢،٣٣٣٥)، وصحيح البخاري برقم (٤٩٣٨،٦٥٣١)، وابن حبان (٧٣٣١)، والنسائي في الكبرى (١١٦٥)، وعبد بن حميد (٧٦٣)، والبيهقي في الشعب (٢٥٧).

أمر الله ما تعجز القوى والحواس عن تحمله.

٢- وفي رواية أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لعظمة الرحمن تبارك وتعالى يوم القيامة، حتى إن العرق ليُلجم الرجال إلى أنصاف آذانهم»(١).

٣- وعن المقداد بن الأسود الكندي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة أُدنيَت الشمس من العباد، حتى تكون قِيد ميل أو ميلين، قال: فتصهَرُهم الشمس، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى حَقْويه، ومنهم من يُلْجمه إلجاما»(٢).

٤- وعن عقبة بن عامر ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ العجُز، ومنهم من يبلغ الخاصرة، ومنهم من يبلغ منكبيه، ومن يبلغ وَسَطِ فيه، وأشار بيده فألجمها فاه - رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا- ومنهم من يُغطّيه عرقه، وضرب بيده إشارة»(٣).

فهذه ثماني مراتب من الأدنى للأعلى:

١- العقِب. ٢- ثم نصف الساق. ٣- ثم الركبتين. ٤- ثم العجُز. ٥- ثم الخاصرة.
٦- ثم المنكبين. ٧- ثم الفم. ٨- ثم من يغطيه العرق ويلجمه إلجاماً.

وهذا يمثل مختلف أحوال الناس في يوم الحشر العصيب.

٥- وفي لفظ آخر عند مسلم أن النبي ﷺ قال: «تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق،

---

(١) المسند (٤٨٦٢)، وهو حديث صحيح، وأخرجه الطبري في تفسيره (٩٣٣٠).

(٢) سنن الترمذي (٢٤٢١) وقال: حديث حسن صحيح، والمسند (٣/٦) برقم (٢٣٨١٣) واللفظ له، وأخرجه ابن حبان (٧٣٣٠)، والبغوي في شرح السنة (٤٣١٧) قال محققو المسند: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٣) المسند (١٥٧/٤) برقم (١٧٤٣٩) وهو حديث صحيح، أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ٨٤٤)، وصححه الحاكم بموافقة الذهبي (٤/ ٥٧١)، وأخرجه ابن حبان (٣٢٢٩).

وهذا الاستدلال على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة، هو أمر حاصل بمنطوق قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢،٢٣] وهي رؤية بصرية في عرصات القيامة، وفي روضات الجنات.

قال الحسين بن فضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيده، حجبهم في العُقْبى عن رؤيته.

وقال مالك بن أنس: لما حَجَب أعداءه فلم يروْه، تجلى لأوليائه حتى رأوْه.

ثم أخبر سبحانه أن الكفار مع كونهم محجوبون عن رؤية ربهم يوم القيامة، فإنهم يدخلون النار، ويصلَوْن سعيرها، والله تعالى لا ينظر إليهم نظر رحمة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، فقد سخِط الله عليهم، ومنعهم من رحمته، وأدخلهم أشد طبقات النار حرا ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ ﴾ أي الفجار ﴿ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ أي داخلوها ومُقاسُون حرها. قال تعالى:

١٧ - ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

أي: وتقول لهم الخزنة تقريعاً وتوبيخاً: هذا هو الجزاء الذي كنتم تكذبونه في الدنيا، وتنكرون وقوعه ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور:١٥،١٦].

لقد كنتم تقولون وأنتم في الدنيا ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الملك:٢٥].

وفي هذه الآيات ثلاثة أنواع من العذاب للفجار المكذبين، وهي:

١ - عذاب الجحيم ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾.

٢ - عذاب التوبيخ واللوم والتقريع ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾.

٣ - عذاب الحرمان من رؤية الله تعالى في الآخرة ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ وهذا علامة على غضب الله تعالى وسخطه وهو أعظم من عذاب النار.

كِتَابُ أَعْمَالِ الأَبْرَارِ فِي دِيوَانِ أَهْلِ الْخَيرِ

١٨، ١٩ - ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

وبعد أن فرغت الآيات من وعيد الفجار بالعذاب المهين، قابلت ذلك بوعد المتقين الأبرار: بالنعيم المقيم، على عادة القرآن في الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار.

ولما كان الأبرار - وهم أهل التقوى وأهل التزكية -يساندون الحق، ويَضبرون على أعبائه، كان لهم شأن آخر يختلف عن شأن الفجار حيث يكافئهم الله تعالى على صدقهم، وحُسْن اعتقادهم بدار النعيم وحسن الخاتمة، جزاء لهم على تحمّل السخرية والأذى بمقعد صدق ورحيق مختوم.

هذا معنى: ﴿كَلَّآ﴾ أي ليس الأمر كما يزعم الفجار من أن القرآن أساطير الأولين، فالأبرار والفجار لا يستوون، بل إن محل كتاب أعمال الفجار في سجين، أي: في أسفل الأمكنة وأضيقها، لأنهم لا يؤمنون بالبعث والحساب، و﴿إِنَّ﴾ محل ﴿كِتَٰبَ﴾ أعمال ﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾ المطيعين لله والرسول والمؤمنين باليوم الآخر ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ أي: في أعلى الأمكنة وأوسعها وأفسحها، وهي المراتب العالية في الجنة، فهو في مكان رفيع تحت العرش، وهو ديوان أهل الخير، الذي دُوّن فيه كلّ ما عَمِلَهُ الصالحون من الإنس والجن. وعليون: اسم لأعلى الجنة.

ثم فخم الله تعالى من شأن هذا الديوان ونوه بشرفه، وبين سبحانه أن منزلته عالية لا يدركها عامة البشر.

وأعمال الأبرار المتقون مسطرة ومكتوبة في سجل أعمالهم، كالرقم في الثوب، لا يُنسى ولا يُمحى، ولا يزاد عليه ولا يُنقص منه، وهو كتاب واضح، يقرأه أهله بيُسْر وسهولة، لا يخفى عليهم منه شيء، فتنْشرح له صدورهم، وتقرُّ أعينهم.

وكتاب الأبرار المتضمن لصحف أعمالهم، في أسمى مكان وأعلاه، يطّلع عليه الملائكة المقربون من الله تعالى، وكذا أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء.

وفي هذا شهادة للأبرار أنهم محل رضا من الله تعالى وثواب وتكريم.

وقد ورد: أن روح المؤمن إذا قُبضت صُعد بها إلى السماء، ففُتِحت لها، وتلقّتها الملائكة بالبشرى، ثم يخرجون معهم حتى ينتهوا إلى العرش، فيَخْرُج لهم رقّ، فيُكْتَب

فيه، ويختم عليه بالنجاة من الحساب والعذاب، ويشهده الملائكة المقربون.

وفي حديث أبي أمامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة على إثْر صلاة لا لَغْوَ بينهما كتابٌ في عِلّيين**»[١].

أما روح الفاجر، فإنه يصعد بها إلى السماء، فتأبى السماء أن تقْبلَها، ثم يُهبط بها إلى الأرض، فتأبى أن تقبلها، فتدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجين[٢].

أَرْبَعَةٌ مِنْ نَعِيمِ الأَبْرَارِ

٢٢-٢٤ - ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ[٣] فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ[٤] ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾

وكما وصف الله تعالى عذاب الفجار، وصف نعيم الأبرار فقال ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ أي أهل الصدق والطاعة ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ في الجنة، فهم ينعمون في الجنان الوارفة، والظلال الممتدة، في فاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، وهو نعيم دائم لا يحول ولا يزول، والنعيم: اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن.

ثم ذكر سبحانه أربعة من أنواع هذا النعيم:

فهم أولا: متكئون على السرر المزينة بفاخر الثياب والستور، ينظرون إلى ما أعد الله لهم من أنواع الكرامة والنعيم في الجنة، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله قال: «**إن أدنى أهل الجنة منزلة لَمَنْ ينظرُ في مُلْكِه مسيرة ألفَيْ سنة، يرى**

---

(١) المسند (٢٢٣٠٤)، وعبد الرزاق (١٥٢)، وأبوداود (١٢٨٨،٥٥٨)، والطبراني في الكبير (٧٧٦٤،٧٧٣٤)، وفي الأوسط (٣٢٦٢)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٢٨٨،٥٢٢)، قال محققو المسند: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن وأول الحديث (من مشى إلى صلاة مكتوبة وهو متطهر كان له كأجر الحاج المعتمر، ومن مشى إلى صلاة الضحى كان له كأجر المعتمر ..).

(٢) جاء هذا المعنى في إجابة كعب الأحبار لابن عباس كما نقله الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يسار: وهو صحيح المعنى، ينظر: تفسير القرطبي ٢٦٠/١٩ والخازن ٣٦٠/٤ وذكره ابن كثيرا مختصرا ٣٥٢/٨ وابن المبارك في الزهد ١٢٢٣ زوائد الحسين

(٣،٤) قرأ أبوجعفر ويعقوب بالبناء للمفعول في ﴿تُعْرَفُ﴾ و ﴿نَضْرَةُ﴾ بالرفع، نائب فاعل. والباقون بالبناء للفاعل في ﴿تَعْرِفُ﴾ ونصب ﴿نَضْرَةَ﴾ مفعول به.

أقصاه كما يرى أدناه، وإن أعلاه لَمَنْ ينظُر إلى الله في اليوم مرتين»[1].

وهم أيضا ينظرون إلى عذاب أهل الجحيم ممن كانوا يسخرون بهم ويهزؤون منهم، فيزداد نعيمهم وشكرهم لله تعالى على ما حباهم به من نعمة، إنهم في نعيم دائم يجلسون على السرر المهيأة لجلوسهم تهيأة حسنة، ينظرون إلى كل ما يدخل البهجة والسرور عليهم.

وهم ثانياً: إذا نظرت إليهم ترى الحُسْن والبهاء والنضرة والحبور، وهذا معنى (نضرة النعيم) فالنور يعلو وجوههم، والسرور يملأ قلوبهم، وهم ينظرون إلى ما أعده الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم. قال تعالى في وصف شراب أهل الجنة:

٢٥، ٢٦- ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ[2] مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

وهم ثالثاً: يقوم على خدمتهم في الجنة غِلْمان مخلّدون فيها، يمرّون عليهم بالخمر الصّافية المحكمة الإناء، من تمام الترفُّه ولذة الراحة.

فالرحيق هو الخمر الصافية الطيبة، التي لا تغتال العقل ولا تُسْقم الجسد.

ويكون هذا الرحيق في إناء مختوم، أي مسدود، لم تمسه يد قبلهم.

وجُعل ختام خمر الجنة بعجين المسك، يفوح في آخر شربه رائحة المسك ونكهته.

فهي خمر بيضاء لذة للشاربين، خالية مما يكدّر أو يُذهب العقل.

وقد جُعل الختم الذي عليها بالمسك، كما يُختم الشيء بالرصاص أو الطين ونحوهما، لئلا يدخل عليه شيء ينقص لذته أو يفسد طعمه، فإذا شرب المؤمن من هذه الخمر فإن ختام شُربها تفوح منه رائحة هذا المسك.

---

(١) بنحوه في المسند (٢/١٣) برقم (٤٦٢٣) بإسناد ضعيف، والترمذي برقم (٣٣٣٠)، وأخرجه أبو يعلى (٥٧٢٩)، والبيهقي في البعث (٤٣٣)، وكتاب النهاية في الفتن لابن كثير (٢/٣٠٠).

(٢) قرأ الكسائي (خاتمه) بفتح الخاء بعدها ألف مع سكون، اسم لما يختم به الكأس، أي آخره مسك، والباقون بكسر الخاء وفتح التاء وألف بعدها ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾ وهو الطين الذي يختم به الشيء، فجعل المسك بدلاً منه.

عن أبي الدرداء: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ قال: شراب أبيض، مثل الفضة، يختمون به شرابهم، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل إصبعه فيه ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وَجد طيبها[1].

ولعل هذه الخمر المختوم عليها بخاتم المسك، غير الخمر التي تجري في الأنهار الواردة في قوله تعالى: ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد:١٥] لأن الأنهار لا يُختم عليها، فتكون الخمر الأولى أنفس وألذ شراباً.

وإذا كان آخر الإناء من شراب الدنيا يُراق لما فيه من ترسُّبات وكدر، فإن آخر إناء شراب الآخرة هو المسك الإذخر، أطيب ما يكون من الأشربة وألذها.

وعلى من يُرِد الحصول على الرحيق المختوم، والنعيم المقيم، أن يسارع إلى الأعمال التي تقربه من رب العالمين، فهذا هو دليل الرغبة في الخير، وهو مجال التنافس والتسابق، والتزاحم إلى الوصول إلى دار النعيم.

ولمثل هذا النعيم يعمل العاملون، ويحرصون عليه، ليحصل لهم نعيم الجنة، ومنه هذا الشراب المختوم بالمسك.

وفي هذا تحريض للناس وحثّ لهم على العمل الصالح الذي يوصلهم لأعلى الدرجات.

وهذا هو التنافس الحقيقي وليس التنافس في تطفيف الكيل والميزان.

شَرَابُ التَّسْنِيمِ

٢٧، ٢٨- ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ثم بين سبحانه أن شراب خمر الآخرة، المختوم بالمسك، ممزوج ومخلوط من ماءٍ عين في الجنة، يقال لها (عين التسنيم).

فهم رابعاً: يشربون أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه، وهو شراب ينْصَبُّ عليهم كلما رَغبوا فيه، وهو موجود في أي مكان من الجنة، تمتلىء منه أوانيهم، فإذا امتلأت

(١) تفسير الطبري (٦٨/٣٠).

أَمسك، وهذا أعلى أشربة أهل الجنة على الإطلاق، والمقربون هم أعلى أهل الجنة منزلة، وهو شراب مخلوط بالرحيق بالنسبة لأصحاب اليمين.

وهذا مما قاله رب العالمين ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧].

فتسنيم: عَلَمٌ لِعَيْن في الجنة، يشربها المقربون، وتُمزج لأصحاب اليمين[1].

ولغرابة هذه التسمية وهي ﴿تَسْنِيمٍ﴾ بيّنها سبحانه، فذكر أنها عين ماء في الجنة، يشرب منها على وجه الخصوص: المقربون من عباد الله، فهي لهم خاصة، وتُمزَج مع الرحيق المختوم لسائر أهل الجنة، كما قال ابن عباس وابن مسعود ﷺ.

وفي الآية دلالة على أن درجة المقربين فوق درجة الأبرار.

أَهْلُ الإِجْرَامِ يَرْتَكِبُونَ أَرْبَعَةَ قَبَائِحَ فِي حَقِّ أَهْلِ الإِيمَانِ

٢٩، ٣٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾

في هذه الآية والآيات الأربع التي تليها، ذَكَر الله تعالى أربعة من قبائح أهل الكفر كانوا يرتكبونها في شأن ضعفاء المسلمين في الدنيا، وقد كان عرْضُ صور النعيم الذي ينتظره الأبرار في الجنة، تمهيدا للحديث عما كانوا يَلْقَوْنه من أذى الفجار في الدنيا، وتعاليهم عليهم، واستخفافهم بهم، وقد طال عَرْض ذلك ليعْقُبه الجزاء الموافق لما فعلوه في الدنيا، بسخرية المؤمنين منهم، وهم يصلَوْن نار جهنم.

ولما ذكر سبحانه جزاء الفجار وجزاء الأبرار، أخبر في هذه الآيات عن حال الفجار المجرمين عند ما كانوا وهم في الدنيا يسخرون من ضعفاء المسلمين ويستهزئون بهم، فيضحكون منهم ويتغامرون عند مرورهم عليهم احتقاراً لهم، وهم في حالة فرح وسرور، قد جمعوا بين الإساءة إلى المسلمين وعدم الخوف من عقاب الله، ظانين أنهم

---

(١) أورد هذا المعنى: الطبري بسنده عن مسروق عن عبد الله بإسناد صحيح، رجاله ثقات، وهو في فتح الباري عن ابن عباس عن عبد بن حميد (٣٢١/٦).

على هدي وأن المسلمين على ضلال.

لقد كان الأغنياء وذوُ الجاه يسخرون من الفقراء وهم في الدنيا، لضعف حالهم، ورثاثة هيئتهم، ترفعاً عليهم، وتنقيصاً من شأنهم، فإذا كان يوم القيامة فإن المؤمنين يضحكون من الكفار وهم على الآرائك يوم القيامة، ينظرون إليهم على رؤوس الأشهاد.

وقد قرر الله تعالى هذا الأمر في آيات أخرى، منها:

١ - قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ ﴾ [البقرة:٢١٢].

٢ - وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٩-١١١].

ومن هؤلاء الفقراء الذين كانوا يضحكون منهم في عصر التنزيل: عمار، وخباب، وصهيب، وبلال، وأمثالهم من فقراء الصحابة.

أما صناديد الكفر الذين كانوا يضحكون من المؤمنين فمنهم: أبوجهل، والوليد بن المغيرة، وعقبة بن أبي معيط، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن هشام، والنضر بالحارث.

وهذا المنظر يتكرر في كل جيل، وفي كل عصر ومصر، فلا يزال يوجد من أهل الثراء والجاه والإلحاد والعلمانية وأضرابهم ممن يلمزون أهل الإيمان، ويتندّرون بهم في المجالس!

وهؤلاء المؤمنون السابقون على قلة ما في أيديهم، كانوا أحراراً في عقولهم، كباراً في قلوبهم.

ولذا: فقد نصرهم الله تعالى بعد محنتهم، وملأوا الدنيا حضارة ونضارة! أما من حملوا لواء الإسلام بعدهم، فهم كأولاد العبقري الذين ورثوا شهرته، ولم يرثوا كفايته، ولا يُقبل منهم أن يُقدّموا الإسلام إلى غيرهم، وهم لم يُزكّوا به أنفسهم، ولم

يَرْفعُوا به رؤوسهم.

وقد ذكرت هذه الآيات الخمس أربعة قبائح للمجرمين كانوا وهم في الدنيا يرتكبونها بالنسبة لفقراء المسلمين وضعَفتهم:

الأمر الأول: الضحك من فقراء المسلمين استهزاء بهم وسخرية منهم؛ أي أن من القبائح الأربع ضَحِك المجرمين على ضعفاء المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ بارتكاب المحرمات والآثام والذنوب ﴿كَانُواْ﴾ في دنياهم يرتكبون أقبح المنكرات وأشنعها، فيتهكمون بالمؤمنين، ويعتبرونهم أراذل يجب الابتعاد عنهم، فقد كانوا في الدنيا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ احتقاراً لهم وتنقيصاً من شأنهم.

في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ويل للذي يُحدِّث فيكْذب ليضحك به القوم، ويل له، ويل له**»[1].

والأمر الثاني: الغمز واللمز بهم. أي: أن المجرمين كانوا إذا مرُّوا بفقراء المسلمين، يغمز بعضهم الآخر بيده، أو جَفنِه، أو حاجبه، أو عينيه، بتحريك طرفه، لينظر إلى ما هو عليه من رثاثة الهيئة، وشظف العيش، وغير ذلك من الأحوال.

وقد نزلت هذه الآية في صناديد قريش، كأبي جهل وغيره، مرّ بهم عليّ بن أبي طالب ﷺ وجماعة من المؤمنين، فضحكوا منهم، واستخفوا بهم[2].

قال بعض المفسرين: كان المشركون إذا مر بهم أصحاب رسول الله ﷺ تغامزوا بأعينهم عليهم، احتقاراً لهم وازدراءً بهم، ويقولون عنهم: جاءكم ملوك الدنيا، يسخرون منهم، ومن إيمانهم واستمساكهم بالدين.

ويكون هذا الغمز دون إعلان السخرية بهم، اتقاء لتطاول المؤمنين عليهم. قال تعالى:

---

(١) سنن النسائي الكبرى (١١٠٦١، ١١٥٩١)، وأبوداود (٤٩٩٠)، والبغوي (٤١٣٠)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٩٥٠)، والترمذي (٢٣١٥)، والمسند (٢٠٠٢١) بإسناد حسن.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/١٨٦)، وتفسير الخازن والنسفي (٤/٣٦٢)، وينظر: ابن كثير (٨/٣٥٣).

٣١، ٣٢ - ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ (١) انقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ (٢) ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

والأمر الثالث: السخرية منهم. أي أن المجرمين كانوا إذا رجعوا من مجالسهم إلى منازلهم ومنازل ذويهم، تفكّهُوا معهم بالسخرية من المؤمنين ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ﴾.

أي رجعوا إلى منازلهم ﴿انقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴾ متلذذين بالضحك منهم استخفافا بهم.

والأمر الرابع: وصف المؤمنين بالضلال. أي أن المجرمين كانوا إذا رَأَوْا أصحاب محمد ﷺ وقد منّ الله عليهم بالإيمان والهدى، لا يكتفون بالغمز واللمز، وجَعْلهم مادة للسخرية مع أهليهم، بل يقولون عنهم: إن هؤلاء تائهون خاطئون في اتباعهم محمداً ﷺ فقد تركوا دين آبائهم وأجدادهم، ودخلوا في دين محمد ﷺ وهم بهذا يجمعون بين الأذى بالإشارة والهيأة، وبين سوء القول حال غيابهم وعلى مسامعهم، لعلهم يرجعون عن الإسلام إلى الكفر.

وهذا أمر مكرر في كل زمان ومكان، فعندما يدخل جماعة من غير المسلمين في الإسلام، يضايقونهم وينبذونهم، ويسيئون إليهم بالقول في غيبتهم وعلى مسامعهم، وهكذا أهل الشرّ يرؤن أن أهل الحق والتقى في ضلال!! قال تعالى:

٣٣ - ﴿وَمَآ أُرۡسِلُوا۟ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

ثم إن الله تعالى أنّب أهل الكفر والضلال، ووبّخهم على تصرفاتهم تجاه المؤمنين، فهم ليسوا أهلا للحكم عليهم بالهداية أو الضلال، والله تعالى لم يكلفهم أن يكونوا رقباء عليهم، وإنما كلفهم اتباع محمد ﷺ.

---

(١) قرأ أبوعمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من ﴿أَهۡلِهِمُ انقَلَبُوا۟ ﴾ وصلا وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الهاء والميم وصلا كذلك، وقرأ الباقون بكسر الهاء وضم الميم، ووقف الجميع على الميم بالسكون مع كسر الهاء.

(٢) قرأ حفص وأبوجعفر وابن عامر بخلف عنه بحذف الألف بعد الفاء من ﴿فَكِهِينَ ﴾ صفة مشبهة، من فكه بمعنى فرح أو عجب أو تلذذ أو تفكه، والباقون بإثبات الألف بعد الفاء، اسم فاعل بمعنى أصحاب فاكهة، وهو الوجه الثاني لابن عامر.

وهذا يدل على نهاية غرورهم وجهلهم، وتعنتهم وعنادهم، فهم ليسوا حافظين لهم ولا وكلاء عليهم.

وفي هذا تهكُّم بالكفار وسخرية منهم، كأنه تعالى يقول: أنا ما أرسلتكم رقباء على ضعفاء المؤمنين، ولا وكّلتكم بحفظ أعمالهم، حتى ترشدوهم إلى ما تزعمون أنه في مصلحتهم، وترمونهم بالضلال، فلِمَ تشغلون أنفسكم فيما لا يعنيكم؟ بلا دليل ولا مستند.

الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ

٣٤، ٣٥- ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه أنه إذا كان يوم القيامة، فإن الجزاء يكون من جنس العمل ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ أي يوم الجزاء العظيم، يضحك المؤمنون من الكافرين، حين يرونهم يتقلّبون في ألوان من العذاب، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة.

والمراد باليوم، هو اليوم الحاضر في وقت نزول الآية، وذلك على حكاية ما يقال يوم القيامة، باعتبار ما كان وما يكون.

والآيات السابقة قد صرّحت بيوم القيامة، وبينت أنه اليوم المراد بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي أن استهزاء الكفار بالمؤمنين في الدنيا، كان سبباً في جزائهم بما هو من نوعه في الآخرة، إذ جعل الله الذين آمنوا يضحكون من المشركين، فكان هذا جزاءً وفاقاً، وكما سخر الكفار من المؤمنين في الدنيا، فإن المؤمنين يسخرون من المؤمنين يوم لقاء الله.

وفي يوم القيامة يشاهد المؤمنون الكافرين الذين يعذبون في النار، والمؤمنون متكئون على الأسرّة، ناظرين إليهم، وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار، بعد العزة والاستكبار.

قال كعب الأحبار: بين الجنة والنار كُوى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّه في الدنيا من الكفار، اطّلع عليه من تلك الكُوى وهو يعذب[1].

---

(١) تفسير الخازن (٤/٢٦٣).

كما أن المؤمنين ينظرون وهم على أسرّتهم، إلى ما أعطاهم الله من النعيم والكرامة في الجنة، وأعظمها النظر إلى وجه الله الكريم. قال تعالى:

٣٦- ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

وتختم السورة ببيان أن الكفار يُجازوْن في الآخرة بالجزاء المناسب، لتهكُّمهم بالمؤمنين في الدنيا، لأن عدالة الله تعالى تقتصُّ من المعتدين مهما طالت بهم الحياة.

﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ ﴾ أي هل جُوزي الكفار - إذا فُعل بهم ذلك - يوم القيامة ﴿ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ بفقراء المؤمنين في الدنيا جزاءً موافقاً لما عملوه في الدنيا من الشرور والآثام؟

الجواب: نعم، جوزوا أتم جزاء، فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة حين رأوهم في العذاب المهين.

ويا لها من سخرية تكمن في كلمة الثواب في هذا المقام.

كما قال تعالى في شأن الكافرين تهكما ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانشقاق:٢٤].

وهل العذاب يُبشّر به؟!

وكما قال سبحانه في حق الكافر وهو يتجرع مرارة العذاب ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان:٤٩] فأي عزة وأي كرامة وهو يتجرع نار السموم؟

وفي هذه الآية تقرير وتوقيف لمحمد ﷺ وأمته، أن في هذه الآيات بلْسم لجراح القلوب من فقراء المسلمين في كل عصر ومصر، يمسح الله به آلامهم، ويضمّد جراحهم.

وفي الآية أيضاً وعيد أن يُفعل بعدوهم في الآخرة، ما فعلوه بهم في الدنيا.

تم تفسير (**سورة المطففين**) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الانْشِقَاقِ (٨٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الانشقاق) هي السورة الرابعة والثمانون في ترتيب المصحف، والثالثة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الانفطار) وقبل (سورة الروم).

وهي خمس وعشرون آية في العدد الكوفي والمكي والمدني، وعند أهل البصرة والشام ثلاث وعشرون آية، وأربع وعشرون آية في العدد الحمصي.

وهي مئة وسبع كلمات، وأربع مئة وثلاثون حرفاً.

وتسمى (سورة الانشقاق) وهو الأشهر، ويقال: (سورة انشقت) اختصاراً، وسماها الجعبري (سورة كدح) وسميت في عصر الصحابة (سورة إذا السماء انشقت) كما في الأحاديث التالية، فهذه أربعة أسماء، أشهرها الأول: وهي سورة مكية باتفاق.

سجود التلاوة في آخرها:

ومما جاء في سجود التلاوة قُرْبَ آخرها ما جاء:

١- عن أبي رافع قال: (صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ فسجد، فقلت له: قال: سجدتُ خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه)[1].

٢- وعن أبي هريرة ﷺ قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[2].

٣- وعن أبي سلمة أن أبا هريرة قرأ بهم ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ فسجد فيها، فلما

---

(١) صحيح البخاري برقم (٧٦٦،٧٦٨،١٠٧٢،١٠٧٣،١٠٧٨)، وصحيح مسلم برقم (٥٧٧،٥٧٨)، وسنن أبي داود برقم (١٤٠٨)، وسنن النسائي (١٦١/٢) برقم (٩٦٧)، وابن أبي شيبة (٧/٢).

(٢) صحيح مسلم برقم (٥٧٨)، وصحيح البخاري (١٠٧٤)، وسنن أبي داود (١٤٠٧)، وسنن الترمذي برقم (٥٧٣)، وسنن النسائي (٩٦٦)، وفي الكبرى (١٠٣٥،١١٥٩٦)، وابن ماجة (١٠٥٩)، وابن أبي شيبة (٦/٢).

انصرف، أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها[(١)].

فهذه آحاديث صريحة صحيحة في سُنِّية سجود التلاوة في أواخر سُور المفصَّل.

وكان النبي ﷺ يقرأ بها في صلاة الظهر، كما في حديث بريدة ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾[(٢)].

موضوع السورة:

يمكن تقسيم سورة الانشقاق إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: في الآيات الخمس الأول، وهو يتناول الحديث عن بعض مشاهد القيامة، وأهوالها الجسام، فبدأ بانشقاق السماء، واستسلامها لأمر ربها في طواعية وخشوع ويُسْر.

والسماء ليست هي القبة الزرقاء التي نراها فوقنا، ولا ندري شيئاً عن طباقها، ولا عن سُكّانها، ولا عن طبيعة الحياة فيها.

وقد أخبرنا الله تعالى في أول السورة بأن السماء ستنشق، ويظهر ذلك مع قيام الساعة.

وثنَّتْ آيات السورة ببيان أن الأرض تتمدّد يوم القيامة، وتتخلّى عما في باطنها من كل خسيس ونفيس، استجابة لأمر الله تعالى بخشوع وانقياد.

وكان الله تعالى عند بدء الخليقة قال للأرض والسماء ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١] وهما لا يملكان إلا السمع والطاعة.

وهذا التغيير للسماء والأرض عند انتهاء العالم، سبق ذِكْره من هذا الجزء في سورة النبأ والتكوير والانفطار، ولكنه يتميز هنا ببيان استجابتهما لأمر الله تعالى، وانقيادهما له، تمهيداً لإلقاء الطاعة والخشوع في قلوب عباده الذين تتحدث عنهم الآية السادسة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٥٧٨)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٦٠)، وصحيح البخاري برقم (٧٦٦،٧٦٨)، والمسند (٩٣٤٨)، وابن حبان (٢٧٦١).

(٢) أخرجه ابن خزيمة برقم (٥١٢) قال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه الضياء المقدسي في المختارة.

ولم يُذكر في هذه السورة من أحداث التغيير عند قيام الساعة سوى الأرض والسماء، فلم تُذكر الشمس ولا القمر، ولا النجوم، ولا الجبال، ولا البحار، ولا العشار، ولا القبور ولا غير ذلك، لأن المطلوب هنا هو هذا الطابع الخاص الذي تستسلم فيه السموات والأرض وما فيهما وما عليهما لإذن ربهما، كأنهما من ذوات الأرواح.

المقطع الثاني: يبيِّن الله تبارك وتعالى فيه أن الدنيا دار تكليف، وامتحان شاق وجاد، فالإنسان يسعى في الأرض، يكدّ ويتعب في تحصيل أسباب رزقه ومعاشه، ويجدّ ويجتهد فيما يُحصّله لآخرته وما يؤول إليه أمره، من خير أو شر، ليلقى في آخرته الجزاء العادل، وعلى المرء أن يختار ويحدِّد مصيره، فإما أن يختار طريق السعداء، وإما أن يختار طريق الأشقياء، إذا أنكر وحدانية ربه، وأنكر ما في الآخرة من ثواب وعقاب، وقد استغرق هذا المعنى من الآية السادسة إلى الآية الخامسة عشرة من السورة.

المقطع الثالث: في الأربع آيات التالية، وفيها يُقْسم ربنا سبحانه بالشفق، وهو حُمْرَةُ الأفق بعد غروب الشمس، وبالليل الذي يأوي الناس بظلامه ليسكنوا فيه، وبالقمر إذا تكامل نوره، وهذه الثلاث: الشفق، والليل، والقمر، مشاهد كونية تقع تحت عين الإنسان وبصره، يتقلب فيها ليل نهار، ويقسم ربنا بها على أن الإنسان تتطور أحواله وتتغير حالاً بعد حال، في الدنيا والآخرة:

١- ففي بطن أمه، يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً، ثم لحماً، ثم إنساناً كامل الخلْق، بشراً سوياً، بجسد وروح.

٢- وبعدما ينزل إلى الأرض، يكون طفلاً، ثم صبياً، ثم شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً.

٣- وتتغير عليه أحوال الحياة من فقر وغنى، وصحة ومرض، وحزن وفرح، ونصر وهزيمة، وسعادة وشقاء، وشدة ورخاء، وعسر ويسر، وقوة وضعف، وحياة وموت، وحساب وجزاء، وكلها أحوال دنيوية.

٤- أما أحوال الآخرة، ففيها: البعث، والحشر والنشر، والعرض والحساب، والميزان والصراط، وتطاير الصحف، ثم المصير المحتوم في النعيم، أو الجحيم.

٥- ومِنْ تَطوُّرِ حال الإنسان في الدنيا والآخرة، إلى تطوُّر المشاهد الكونية من شفق عند الغروب، إلى ليل يغطي الناس بظلامه، إلى قمر يبدُو هلالاً، ثم يتكامل حتى يكون بدراً، ثم يتراجع حتى يكون كالعرجون القديم، والآية محتملة لهذه المعاني.

ويتوقع الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله- أَنْ يكون المراد بالشفق في الآية: هو الإشارة إلى تاريخ المسلمين، وما يعتريه من نصر وهزيمة، وعسر ويسر، قال: وقد بدا لي ذلك وأنا أطالع حديثاً رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: «صلّى بنا رسول الله ﷺ يوماً صلاة العصر»، ثم قام خطيباً، فلم يدعْ شيئاً إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه من حَفِظَه، ونسيه من نسيه، وكان فيما قال: «إن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون؟» ثم قال ﷺ: **«ألا لا يمنعنّ رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه»** ومضى ﷺ في خطابه الجليل، قال: أبوسعيد: وجعلْنا نلتفت إلى الشمس، هل بقى من النهار شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: **«ألا إنه لم يبق من الدنيا - فيما مضى منها- إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه»**[1].

هذا الأمد القليل الباقي قبل قيام الساعة، هو تاريخنا، وما ظهر من دول وما يبقى!! لقد جئنا في أصيل العالم، أو في شفقه، والغروب مُوشك.

والسؤال الخطير: هل أدّينا رسالتنا، وأنصفْنا الناس من أنفسنا؟ وركبْنا طبقاً عن طبق، وانتقلنا من حال إلى حال؟ فهل اعتبرنا؟ فما لهم لا يؤمنون[2].

قلت: وهذا اجتهاد منه مشكور في توسيع نطاق معنى الآية.

أما المقطع الرابع والأخير في السورة: فهو في التعجب من حال الناس إن لم يؤمنوا،

---

(١) من حديث طويل في سنن الترمذي (٢١٩١)، قال أبو عيسى: وفي الباب عن المغيرة بن شعبة، وأبي زيد بن أخطب، وحذيفة، وأبي مريم، وذكروا: أن النبي ﷺ حدّثهم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، وهذا حديث حسن صحيح، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٤٠٣٩)، والطيالسي (٢١٥٦)، والحميدي (٧٥٢). وانظر: مسند أحمد (١١١٤٣ و١١٥٨٧)، وفيه: ابن جدعان ضعيف، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم (ص ٥٠٧).

فيوبخهم القرآن على عدم إيمانهم بالله تعالى، مع وضوح آياته، وسطوع براهينه.

وقد حذرتْهم السورة وهم في فترة المهلة، فإن أصروا على كفرهم وماتوا عليه، فلهم سوء العاقبة في دار البوار والجحيم، وإذا كان هذا مصير الكافر، فإن المؤمن له أجر لا ينقطع.

وهذا المقطع من السورة، في الآيات الست الأخيرة منها، أي من الآية العشرين إلى الآية الخامسة والعشرين.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

عِنْدَ نِهَايَةِ الدُّنْيَا تَنْشَقُّ السَّمَاءُ وَتَمْتَدُّ الأَرْضُ ثُمَّ يَكُونُ الْحِسَابُ

١، ٢- ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢﴾

عند قيام الساعة يختل نظام هذا الكون، فتتبدل الأرض غير الأرض والسموات، وتتغير هيأتها، إيذاناً بانتهاء العالم الدنيوي، وبدء العالم الأخروي، فتتصدع السماء وتتفطر، ويتمايز بعضها من بعض، وتتغير الأجرام العظام لصعود الملائكة وهبوطهم يوم البعث والنشور، كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥، ٢٦] .

وقد وصف الله تعالى السماء يومئذ بأنها تكون كالوردة الحمراء السائلة أو تكون كالمهل، وهو خثالة الزيت، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

وقد أطاعت السماء أمرَ ربها فيما أمرها به من الانشقاق وغيره، وانقادت لحكم الله تعالى، وحُق لها أن تسمع وتطيع، وتنشق من أهوال يوم القيامة، وهي حقيقة وجديرة بالاستماع والانقياد في جميع الأحوال.

وليس في وسعها الانفكاك عنه، فهي لا تخرج عن سلطان قدرته تعالى وإن عَظُم سُمكها، واشتد خلقها، وطال زمان رتْقها، فكله بتقدير الله تعالى، وهو الذي إذا شاء أزالها ومعنى ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ استمعت وانقادت لأمر ربها، فألقت سمعها وأصاخت لخطابه، وحُق لها أن تسمع وتطيع، لأنها لا تخرج عن سلطان قدرته سبحانه، فهي مسخرة مدبَّرة لا تعصي أمر ربها ولا تخالف حكمه.

٣-٥- ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٥﴾

أما الأرض فإنه ستُمدّ، وتُبسط، وتوسّع، وتُدكُّ جبالها، وتُنسف فتكون مستوية بلا

ارتفاع ولا انخفاض ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ [طه:١٠٧].

ليس فيها بناء، ولا وهاد، ولا أودية، ولا جبال، ولا مرتفعات ولا منخفضات.

فترجف الأرض ويدك كل ما عليها من بناء ومَعْلَم، فتُسوَّى وتمدّ مدّ الأديم فتتسع لأهل الموقف على كثرتهم بعد ما تُخرِج ما في جوفها من الأموات والكنوز، وتتخلى عنهم حين يُنفخ في الصور.

وإزالة الجبال عن أماكنها، ودكِّها، وتسوية الوهاد، وتسجير البحار، وإخراج الأرض لما في جوفها، يكون سبباً لبسط الأرض وخفَّتِها وزيادة بُقْعتها:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٣-١٦].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه:١٠٥-١٠٧].

عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«إذا كان يوم القيامة مدّ الله الأرض مدّ الأديم، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه، فأكون أول من يُدعَى، وجبريل عن يمين الرحمن، والله ما رآه قبلها، فأقول: يا رب، إن هذا أخبرني أنك أرسلته إليّ؟ فيقول الله عز وجل، صدق، ثم أشفع فأقول: يا رب، عبادك عبدُوك في أطراف الأرض، قال: وهو المقام المحمود»**[1].

وبمد الأرض يزول تكويرها، ويتمدّد جسمها وتكون أقرب إلى الاستطالة، وهذا يؤذن باختلال نظام سير الأرض، وتغيير أحوال الجاذبية، وما يحيط بها من الهواء، فيعقبُ ذلك زوال العالم.

---

(١) هذا حديث مرسل، قال ابن حجر في الفتح (٤٠٠/٨) رجاله ثقات، وهو صحيح إن كان الرجل صحابياً ١٠هـ وهذا الصحابي مختلف في اسمه عن الزهري، وقال الحاكم في المستدرك (٥٧٠/٥)، صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ورواه أبونعيم في الحلية (١٤٥/٣)، والطبري (٧٢/٣٠) وعبدالرزاق في تفسيره (٣٢٨/١).

وعندئذ تُخرِج الأرضُ ما في بطنها، من الأموات، والكنوز، والزروع، والأجياد، والمعادن، فلا يبقى فيها شيء كما قال تعالى: ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة:٢] فتطرح ما في جوفها من الأموات والكنوز وتُلقيه على ظهرها، وتخلو منه خلوّاً تاماً، وتتبرأ منه كما تُلقي الحامل ما في بطنها من الحمل، ولا تُمسِك منه شيئاً.

وكما انقادت السماء واستمعت لأمر ربها فانشقت وصارت أبواباً، فإن الأرض كذلك انصاعت وانقادت لأمر ربها، فنفّذت أمره سبحانه، وألقت ما في جوفها من الموتى والكنوز والمعادن وتخلت عنهم، وحُق لها أن تسمع وتطيع، فهي منقادة ومستجيبة لإذن ربها، وليس في وسعها الخروج عن سلطان الله تعالى وقدرته، وعند بدء الخليقة قيل للأرض والسماء ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت:١١].

وعند انتهاء العالم تستجيب الأرض والسماء لما يراد منهما كذلك، وهل يستطيعا إلا السمع والطاعة؟

لاَ يَمْسَحُ كَدْحَ الدُّنْيَا إِلاَّ نَعِيمُ الْجَنَّةِ

٦- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ [١] إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا [٢] فَمُلَـٰقِيهِ [٣] ﴿٦﴾ ﴾

يا أيها الإنسان إنك ساع إلى الله، عاملٍ بأوامره ونواهيه، متقرب إليه بالخير أو الشر، ويوم القيامة تجد جزاء عملك بفضل الله وعدله.

وجواب ﴿إِذَا ﴾ في المرتين ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ و﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ محذوف للتهويل، دل عليه ﴿فَمُلَـٰقِيهِ﴾ أي إذا حدث ما تقدم، فانشقّت السماء، وامتدت الأرض، لقى الإنسان من الشدائد والأهوال ما لا يحيط به الوصف والخيال.

والمعنى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ لقيتَ أيها الإنسان ربك، ورأيت الثواب والعقاب.

(١،٢) انفرد الحمصي وحده بعدِّ ﴿كَادِحٌ﴾ و﴿كَدْحًا﴾ في الموضعين، وتركهما جمهور أهل العدد.

(٣) انفرد الحمصي بعدم عدّ (فملاقيه) وعدها جمهور أهل العدد.

وقيل: إن الجواب، هو ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا ﴾ أي: إنك ساع إلى ربك سعياً حثيثاً، وإنك ستلقى ما عملت من خير أو شر، أي أن السماء إذا انشقت، والأرض إذا مُدت: لقى كل كادح ربه بما عمل من خير أو شر.

ثم أخبر سبحانه عن كدح الإنسان وتعبه في الحياة، والمراد جنس الإنسان، وليس إنسانا معيّناً، فالكل ساع إلى الله تعالى، وعاملٍ أعمالاً من خير أو شر، ثم يلاقي ربه يوم القيامة، فيكافئه على عمله بفضله وعدله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وقد كان الكافر وهو في الدنيا يُنكر وجود الله تعالى ويُكَذب وحيه، ولا يعرف إلا المادة وفناءها.

فكن مسارعاً يا ابن آدم إلى الخيرات، مجدّاً في أعمالك الصالحة، فإن الزمان يطير، وكل لحظة تمر عليك تقطع شوطا من عمرك، فأنت سائر ومسرع إلى الموت، فتدارك نفسك قبل أن ينفُذ السهم، وتأتيك المنية، وتلق ربك صفر اليدين، فالزم الكدّ المشروع والسعي للعمل الصالح، فأنت مُجازَى بعملك:

عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال جبريل عليه السلام: يا محمد، عِش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه**»[1].

وعن عبادة بن الصامت ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه**» قالت عائشة: - أوْ بعض أزواجه- إنا لَنكْره الموت، قال: «**ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضِر، بُشّر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه**»[2].

ولا راحة في الدنيا أبداً، ونعيم الآخرة هو الذي يمسح كدح الدنيا ونصَبِها.

والكدح يكون للآخرة بالعمل والسعي إليها، ويكون للدنيا بالسعي في تحصيل الرزق والمعاش وأمور الدنيا.

---

(١) مسند الطيالسي برقم (١٧٥٥).

(٢) صحيح البخاري برقم (٦٥٠٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٦٨٣).

أَهْلُ السَّعَادَةِ يَفْرَحُونَ بِنَتِيجَةِ امْتِحَانِ الدُّنْيَا

٧-٩- ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ(١) ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾

ويستمر كدْح الإنسان في هذه الحياة إلى الموت، ثم تأتي نتائجه عندما يعود العبد إلى ربه في يوم العرض والحساب. فإما أن يكون من أهل اليمين، وإما أن يكون من أهل الشمال.

فأما مَنْ أُعطي صحيفة عمله بيمينه، وهو المؤمن الصادق في إيمانه، فإن هذا علامة سعادته وفوزه، لأن النجاة من النار ودخول الجنة هو الفوز العظيم، قال تعالى:

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وفي وصف نعيم أهل اليمين يقول سبحانه: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٣].

ومن يأخذ كتابه بيمينه: فإن أعماله تُعرض عليه دون مناقشة، فلا يطول زمن وقوفه بين يدي ربه، لأن حسابه سهل يسير بسبب أعماله الصالحة، فليست هناك مؤاخذة، بل عتاب وستْر، فتُعرض عليه أعماله، ويعرّف بالطاعات والمعاصي، دون لوْم، ولا مناقشة، ولا شدة، ولا طلب اعتذار ولا قيام حجة، ولا فضيحة في الموقف، بل يُعجَّل به إلى الجنة، حيث يُجازى على حسناته، ويُتجاوز عن سيآته.

فالحساب اليسير هو السهل الذي لا مناقشة فيه، فيقرره الله بذنوبه حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله تعالى له: (**سترتها عليك في الدنيا فأنا أسترها لك اليوم**) فهذا الحساب اليسير، هو مجرد عرض للأعمال مع التجاوز عن الهفوات.

وقد جاءت الأحاديث بهذا:

---

(١) لم يعُدّ البصري والشامي (بيمينه) آية، وعدّها الكوفي والحجازيون.

١- عن ابن أبي ملكية أن عائشة رضي الله عنها كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعتْ فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: «من حوسب عُذب» قالت: فقلت: أوَليس يقول الله عز وجل ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قالت: فقال: «فإنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب عُذب»[1].

٢- وفي لفظ آخر: أن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسب إلا هلك» قالت: قلت: يا رسول الله، جعلني الله فداءك، أليس يقول الله عز وجل ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قال: «ذاك العرض، يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك»[2].

٣- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حسابا يسيرا، فلما انصرف قلت: يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟ قال: أن يُنظر في كتابه فيُتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك»[3].

٤- وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يدنىَ المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب أعرف، قال: فإني سترتها عليك في الدنيا، وأني أغفرها لك اليوم»[4].

ومن حاسب نفسه في الدنيا، هوّن الله تعالى حسابه يوم القيامة.

وصاحب الحساب اليسير، يرجع إلى المكان الذي كان فيه قبل العرض على رب

(١،٢) صحيح البخاري برقم (٦٥٣٧،٤٩٣٩)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٧٦)، والمسند (٤٧/٦) (٢٤٢٠٠، ٢٤٦٠٥)، وسنن الترمذي برقم (٣٣٣٧،٢٤٢٦)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٥٩،١١٥٥٤)، وتفسير الطبري (٧٤/٣٠)، وابن أبي شيبة (٣٦١/١٣)، وابن حبان (٧٣٧٠،٧٣٦٩).

(٣) المسند (٨٤/٦) (٢٤٢١٥) وهو حديث صحيح (محققوه)، والحاكم (٥٧/٨) وقال: صحيح على شرط مسلم، والطبري (٢٣٦/٢٤)، والبيهقي في الشعب (٢٧٠)، وابن خزيمة (٧٣٧٢)، والطبراني في الأوسط (٣٦٦٢)، وابن حبان (٧٣٧٢).

(٤) ينظر: الحديث في صحيح مسلم (٢٧٦٨) وهذا لفظه، والبخاري (٧٥١٤،٦٠٧٠،٤٦٨٥،٢٤٤١).

العالمين، وهو فَرِح مسرور، مبتهج بما أعطاه الله من الفضل والكرامة، وقد يكون له في هذا المكان أهل وعشيرة، وقد يوجد له نساؤه الذين كانوا معه في الدنيا، أو من الحور العين، أو منهما معاً فيقول لهم ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة:١٩] كالناجح الذي يُطْلِع أهله على نجاحه وهو فَرِح مسرور، وقد لا يكون له أهل ولا عشيرة، وليس المراد أنه يعود إلى منزله في الجنة، لأنه لم يكن فيه قبل ذلك.

والمعنى: أنه يستريح استراحة المسافر من طول السفر، فقد فارق المتاعب بعد الكد والكدح، ففاز بالثواب ونجا من العقاب.

ويصح أن يكون المراد بالانقلاب: الذهاب إلى المكان الذي أعده الله له في الجنة، وأنه سينزله أول مرة.

أَهْلُ الشَّقَاءِ يَدْعُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْهَلَاكِ

١٠-١٢- ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ[(١)] ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ[(٢)] سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾

وأما من يأخذ صحيفة عمله بشماله من وراء ظهره بعد لَيّها إلى الخلف على سبيل الإهانة والإذلال، وبعد أن تُغلّ يده اليمنى عن الحركة، فإن هذا يكون علامة على الشقاء للكافر بالله تعالى.

وعندما يعلم أنه من أهل النار، يدعو على نفسه بالويل والهلاك.

فالثبور: كلمة تقال عند الوقوع في الشقاء على سبيل التحسُّر والتوجّع، فيتمنى الإنسان الموت، ويسأل الله الرجعة دون جدوى، لأنه ولابد داخل نارا مستعرة، يقاسي عذابها ولهيبها، إنها نار شديدة الاشتعال، يتقلب فيها ليل نار، وكلما نضج جلده بُدّل بجلد آخر.

---

(١) لم يعدّ البصري والشامي (وراء ظهره) آية، وعدّها الكوفي والحجازيون.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام في ﴿وَيَصَلَّىٰ﴾ مضارع صلى مبنياً للمفعول مضعف، والباقون بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام مضارع صلى مخففاً مبنياً للفاعل.

ويقال: إن هذه الآيات نزلت في أبي سلمة بن عبد الأسد، وكان من أفضل المؤمنين، وأخوه من عتاة الكافرين(١) والثبور: اسم جامع للمكاره كالويل.

سَبَبُ الشَّقَاءِ وَإِحَاطَةُ عِلْمِ اللهِ بِهِ

١٣-١٥- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾

ومن أسباب عذاب الكافر أنه كان في دنياه مغروراً، مسروراً بين أهله، لا يفكر في العواقب، وكانت الغفْلة، والملذات والشهوات، تُطْغيه وتُلْيهه عن العمل ليوم الحساب، ولم تخطر له الآخرة على بال، قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة:٣١-٣٣] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ [المطففين:٣١].

قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها، فأعقبهم به الحزن الطويل(٢).

ومن أسباب عذاب الشقي يوم القيامة، أنه كان وهو في الدنيا يعتقد أنه لن يرجع إلى خالقه حيّاً للحساب والثواب والعقاب، لقد أيقن أنه لن يرجع إلى الحياة بعد الموت، لأنه يكذب بالبعث والنشور، فلذلك كذّب وفجر.

والحَوْر: هو الرجوع والعودة، ومنه ما جاء في الأثر (اللهم إني أعوذ بك من الْحَوْر بعد الكَوْر) أي أستعيذ بك من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم أعلم ما معنى (ويحور) حتى سمعت أعرابية تقول لِبُنيّة لها: حُوري، أي ارجعي(٣).

ثم أجاب الله سبحانه عن هذا الزعم الفاسد: بأنه جل شأنه لابد أنه سيعيد الإنسان

(١) تفسير ابن عطية (٤٥٧/٥).

(٢) تفسير القرطبي (٢٧١/١٩).

(٣) تفسير ابن عطية (٤٥٨/٥).

بعد موته، ويجازيه على أعماله، خيرها وشرها، وهذا معنى ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي ليس الأمر كما يزعم هذا الشقي أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، بل إن الله تعالى سيعيده كما بدأه ويجازيه على أقواله وأعماله، وهو سبحانه مطَّلع على أعمال عباده، لا تخفى عليه خافية من شؤونهم ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ يرى مكانهم ويسمع قولهم، فعلْمه محيط بأحوال خَلْقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥] ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٨].

ولا يحسن أن يترك الله الإنسان دون أن يأمره وينهاه، ويثيبه ويعاقبه.

وفي هذا إشارة إلى حكمة البعث والجزاء، فإن الله تعالى يعلم الكافر من المؤمن، ويعلم المصلح من المفسد، وهم متفاوتون في ذلك تفاوتاً كبيراً، ومن العبث أن يستوي مَن قدّم حياته لآخرته، بمن نسي لقاء ربه واشتغل بدنياه.

ثلاثة أقسام على أن البعث حق

١٦-١٩- ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ[1] طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾

وفي مواجهة إنكار البعث والجزاء الوارد في قوله تعالى عن الكافر ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أقسم سبحانه وتعالى بثلاثة من مخلوقاته المشاهدة، وهي: الشفق، والليل، والقمر، مع تأكيد هذا القسم، بحرف (لا) على أن ثَمّة حساباً يختلف فيه الناس اختلافاً كبيراً من حيث درجات الجنة ودركات النار.

أقسم سبحانه وتعالى - **أولا** - باحمرار الأفق عند غروب الشمس، فالشفق: اسم للحمرة التي تظهر في الأفق عقب غروب الشمس، وهذا الشفق أثر من شعاع الشمس حين يحجبها جزء من الأرض عن عيون الناس.

---

(١) قرأ نافع وأبوعمرو وابن عامر وعاصم وأبوجعفر ويعقوب بضم الباء من ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ خطابا للجمع على إرادة جس الإنسان وقرأ الباقون بفتح الباء، على خطاب الواحد وهو الإنسان.

والمعنى: أقسم بالشفق، وهو ما يبقى من نور الشمس آخر النهار وما يُفتح به الليل من دخول الظلام.

وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ووقت صلاة المغرب إذا غابت الشمس»[1].

ثم أقسم – ثانياً- بالليل، وما جمع ولفَّ في ظلمته وآوى إليه من الدواب والهوام والحيوانات والحشرات، فكل يأوي إلى مكانه وسربه، فمعنى ﴿وَسَقَ﴾ جمع الأشياء بعضها إلى بعض، وهذا الليل بسكونه وهدوئه وظلامه، يجمع الإنسان والحيوان وغيرهما، على ما هو الأصل في حياة الناس قال تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص:٧٣].

ومن يعكس هذه السنة الإلهية من خلق الله تعالى فيجعل ليله نهارا بالسهر فيه، ونهاره ليلاً بالنوم فيه، ولو كان ذلك تحت الأضواء الكهربائية الكاشفة، فهو مخالف لمقتضى الفطرة، إلا ما كان من باب الضرورات كحفظ الأمن وحراسة الحدود ونحوهما.

وهكذا أقسم الله تعالى بالنهار مدبرا، وبالليل مقبلاً، وإذا كان الليل يجمع بظلمته ما كان منتشراً بالنهار من الإنسان والدواب، فإن النجوم تظهر في الليل متناثرة هنا وهناك، ولفظ ﴿وَسَقَ﴾ يتسع للمعنيين.

وأقسم سبحانه – ثالثاً- بالقمر إذا اتسق، أي إذا اجتمع نوره وتكامل في الليلة الرابعة عشرة وصار بدراً ساطعاً قد امتلأ نوراً وازداد نفعاً وفائدة.

وفي القسم بهذه المخلوقات الثلاث وهي: الشفق والليل والقمر، دليل واضح على أن أحوال الكون تتغير من حال إلى حال، ومن هيأة إلى هيأة، فالشفق يأتي عقب الغروب، والليل يأتي بعد النهار، والقمر يكتمل بعد نقصان، وكلها أطوار متعاقبة.

ولعل في ذكر الشفق، ما يشير إلى انتهاء الدنيا، لأن غروب الشمس يشبه الموت.

وفي ذكر الليل ما يشير إلى شدة الهول يوم الحساب، وفي ذكر القمر ما يشير إلى

(١) من حديث عبد الله بن عمرو في صحيح مسلم برقم (٦١٢).

حصول الرحمة للمؤمنين[1].

جواب القسم:

أقسم سبحانه بوقت الشفق، وبالليل إذا أقبل، وبالقمر إذا اكتمل نوره، على أن البعث حق، والجنة والنار حق، وأن المؤمنين متفاوتون في درجات نعيم الجنات وفق تفاوُت أعمالهم الصالحة، درجة أعلى من درجة، كما أن الكفار متفاوتون في دركات النار، بعضهم أسفل من بعض، ومنافقوا العقيدة في الدرك الأسفل من النار، ولعل هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ طوْراً بعد طوْر، وحالاً بعد حال.

ومن معاني (الطبق) المرتبة والمنْزلة والمكان، أي مكاناً فوق مكان، أو مكاناً دون مكان، كما قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر:٢٠]. وقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨].

١ - فالمراد بالطبق: الحالة المطابقة لعمل صاحبها، ولعل هذا ما يشير إليه الحديث «لتركبُنّ حالا بعد حال»[2]. فهي طبقات في شدة العذاب، بعضها أقوى من بعض، وطبقات في نعيم الجنة بعضها أرفع من بعض.

وهذا المعنى هو الأنسب لسياق الآيات، جوابا للقسم في الرد على منكري البعث ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾.

٢ - وقد يراد بالطبقات: أطوار خلق الإنسان، من نطفة إلى علقة، إلى مضغة، إلى نفخ الروح، إلى وليد وطفل وصبي مميز، ثم شاباً وشيخاً وهكذا. حيث يأمره ربه وينهاه، ثم يموت، ويُبعث للحساب والجزاء على ما قدمت يداه، وهي أطوار دالة على وحدانية الله تعالى، وعلى أن هذا العبد فقير عاجز تحت تدبير الله سبحانه، وعلى وجوب صرف العبادة إلى الله وحده.

٣ - ومن المعاني التي وردت: أن الآية تتعلق بالنبي ﷺ ليلة المعراج، أي لتركبن

---

(١) تفسير ابن عاشور (٣٠/٢٢٦) بتصرف.

(٢) من حديث ابن عباس في صحيح البخاري برقم (٤٩٤٠)، وتفسير الطبري (٣٠/٧٨).

- أيها الرسول - سماء بعد سماء.

٤ - ومنها: أنها تتعلق بأعمال الأمة في تقليد من سبقها من الأمم، ومتابعتها منزلة بعد منزلة.

واستدلّوا على ذلك بما صح عن رسول الله ﷺ «لتركبن سَنَن من كان قبلكم، حذْوا القُذَّة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله:، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟

ولفظ البخاري عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «لتتبعنّ سَنَن من كان قبلكم شبرا شبرا، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»[1].

تَعْنِيفُ الْكُفَّارِ عَلَى عَدَمِ إِيمَانِهِمْ مَعَ وُضُوحِ الأَدِلَّةِ

٢٠، ٢١ - ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ[2] عَلَيْهِمُ[3] الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١ ﴾

ومادام البعث حقاً، والجزاء على الأعمال حق، فأي شيء يمنع الكافرين من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، بعد إقامة الحجج ووضوح الدلائل ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بوحدانية الله تعالى، ويقرُّون باستحقاقه للعبادة دون سواه، فهم لا يخضعون للقرآن، ولا ينقادون لأوامره ونواهيه، وماذا يمنعهم من التصديق باليوم الآخر والعمل للقاء ربهم؟ وهو استفهام يُقصد به التوبيخ والإنكار عليهم.

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ [النساء:٣٩].

---

(١) ينظر صحيح البخاري برقم (٧٣٢٠)، وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٩).

(٢) قرأ أبوجعفر بإبدال همزة ﴿قُرِئَ﴾ ياء مفتوحة وصلا ساكنة وقفا، ولحمزة وقفا وهشام بخلفه بإبدال الهمزة ياء ساكنة، وتسهيلها بالروم.

(٣) قرأ أبوعمرو بكسر الهاء والميم من ﴿عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ﴾ وصلا، وبضمهما حمزة والكسائي ويعقوب وخلف، والباقون بكسر الهاء وضم الميم، وعند الوقف على ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الكل يقف بكسر الهاء وسكون الميم ماعدا حمزة ويعقوب فبضم الهاء وسكون الميم.

وما لهم إذا بلَغتْهم الدعوة إلى الله تعالى لا يستجيبون لها، ولا يُسلِّمون بما جاء فيها، وإذا تُلي عليهم القرآن لا يؤمنون به، ولا يخضعُون له، ولا يعملون بما فيه لإخراج أنفسهم من الظلمات إلى النور.

وفي هذا تعجُّب من إصرارهم على الكفر والجحود والعناد، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٠].

وقد صح أن النبي ﷺ سجد عند قراءة هذه الآية من سورة الانشقاق[1].

وهي من آيات سجود التلاوة: سنة عند الشافعي وأحمد، وواجبة عند أبي حنيفة، وليست من آيات السجود عند مالك، اعتماداً على آثار غير صحيحة.

وعدد سجدات التلاوة في القرآن عنده إحدى عشرة سجدة، زاد عليها الشافعي وأبوحنيفة ثلاث سجدات في سور: النجم والانشقاق والعلق، وقال أحمد: هي خمس عشرة سجدة بزيادة السجدة التي في آخر سورة الحج، ففيها سجدتان عنده.

سَبَبُ الْكُفْرِ وَمَصِيرُ الْكَافِرِ

٢٢-٢٤- ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

ثم بين سبحانه السبب في عدم إيمانهم، وهو أنهم مستمرون على الكفر والطعن في القرآن، يعاندون الحق بعد ما تبيّن، فلا يوجد سبب آخر يمنعهم من التصديق بالله ورسوله واليوم الآخر، وذلك لأن الفطرة لديهم قد فسدت، وأغلقوا قلوبهم، فلم ينتفعوا بشيء من الهدى، وهذا معنى ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ أي أن سجيتهم التكذيب ومخالفة الحق، وحسد الرسول ﷺ على ما آتاه الله من فضله، فلا يُستغرب عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن، فإن المكذب بالحق عناداً، لا يُرجى منه خير.

إنه لأمر عجيب حقًّا يضرب السياق عنه صفحاً، ليذكر ما ينتظرهم من مآل..

حيث أنذر القرآن الكفار، فأخبرهم أن الله سبحانه يعلم سوء طويتهم، ويعلم ما بداخل نفوسهم، وأنه مجازيهم عليها ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أي بما يظهرون وما

---

(١) كما سبق بيانه في مقدمة السورة.

يضمرون، فالله يعلم سرهم وجهرهم وسوف يحاسبهم ويجازيهم بأعمالهم.

وأصل الإيعاء: حفظ الأمتعة في الوعاء، فالله تعالى أعلم بحقيقة حالهم من تكذيبهم للحق، وجحودهم للقرآن، ومعاداتهم للمؤمنين، وهو أعلم بما يكتمونه في صدورهم، وما يضمرونه في نفوسهم، فهم يعلمون على وجه الحقيقة أن ما جاء به محمد حق، ولكنهم لعنادهم يُظهرون التكذيب به، ليكون صُدُودهم عنه مقبولا عند أتباعهم ومعارفهم.

فبشر - يا رسولنا - هؤلاء الكفار، بأن الله تعالى قد أعدّ لهم عذاباً موجعاً يوم لقائه على كفرهم وعنادهم، والبشرى تستعمل فيما يَسُرُّ – عادة- وقد جاءت البشرى في الآية بما يسوء على وجه التهكم بهم، بدليل اقترانها بالعذاب الأليم، واستثناء المؤمنين منها. وسميت البشارة، بشارة، لأنها تؤثر في البشرة سروراً أو غماً، والتكذيب بالحق حال أكثر الناس ومنهم فريق هداهم الله فآمنوا به وصدقوا رسله، وهم الذين استثناهم الله في الآية التالية:

أَجْرُ المؤمِنِ لاَ يَنْقَطِعُ

٢٥- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾

وهذا الاستثناء من الضمير في ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ أي لكن الذين صدقوا الله ورسوله، وجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وأدُّوا فرائض الله وحقوق العباد ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي لهم ثواب غير مقطوع ولا منقوص، وهو أجر دائم مستمر، خال من شوائب الامتنان من أحد، فإن المنّ يُنغّص على الإنسان حياته، والله تعالى له المنة على خلْقه أجمعين في كل زمان ومكان، أما دخولهم الجنة فهو بفضل الله ورحمته بهم، وليس بأعمالهم، ولذا: فإن الملائكة يُلْهَمُون التسبيح والتحميد كما يُلهَمُون النفَس.

وقد ختم الله السورة ببيان نعيم الأبرار وعذاب الفجار الذين سبق ذكرهم في أول السورة، وهو توضيح لما أُجمل في أولها، من ملاقاة كل عامل لجزائه بعد أن ظل طيلة حياته يكدح إلى ربه كدحاً، ويسعى في الدنيا سعياً حثيثاً.

تم تفسير (**سورة الانشقاق**) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ البروج (٨٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة البروج) هي السورة الخامسة والثمانون في ترتيب المصحف، والسابعة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الشمس) وقبل (سورة التين).

وهي اثنتان وعشرون آية باتفاق، ومئة وتسع كلمات، وأربع مئة وخمسة وستون حرفاً.

وتسمى (سورة البروج) وهو الأشهر، وسميت في الحديث (سورة السماء ذات البروج) بدون واو قبلها، وهي سورة مكية باتفاق.

وروى أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ بها وبسورة الطارق في صلاة العشاء الآخرة[١].

وعن جابر بن سمرة ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ وشبهها[٢].

موضوع السورة:

أ ـ تتحدث السورة عن التضحية بالنفس في سبيل العقيدة، فتذكُر قصة أهل الأخدود الذين شق لهم الطغاة شقوقاً في الأرض، وأوقدوا النيران، وأحرقوهم فيها على مرآى من الجموع المحتشدة، لمشاهدة مصارعهم، ولم يكن لهم من ذنب سوى أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد.

---

(١) ورد ذلك في المسند (٣٢٦/٢، ٣٢٧) (٨٣٣٢، ٨٣٣٣)، (١٠٨٧٩)، وإسناده ضعيف لضعف يزيد بن سفيان أبو المهزم.

(٢) المسند (١٠٦/٥) (٢٠٩٨٢) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، من أجل سماك بن حرب، وباقي رجال الإسناد ثقات، رجال الصحيح وابن أبي شيبة (٣٥٦/١) وأبوداود (٨٠٥) والترمذي (٣٠٧) والنسائي (١٦٦) وفي الكبرى (١١٥٩٨، ١٠٥٥) وابن حبان (١٨٢٤، ١٨٢٧) والبيهقي (٣٩١/٢)، والبغوى (٥٩٤)، والطيالسى (٧٧٤)، والدارمي (٢٩٥/١) وصحيح سنن الترمذي (٢٥٢) وصحيح سنن أبي داود (٧٢٢) والبخاري في القراءة خلف الإمام (٢٩٦).

وتبدأ السورة بثلاثة أنواع من القسم: فيُقسم الله تبارك وتعالى فيها بالسماء ذات النجوم والمنازل، ويقسم بيوم الحساب والجزاء، ويقسم بكل شاهد يَشهد، وبكل مشهود يُشهد عليه، على أن أصحاب الأخدود ملعونون مطرودون من رحمة الله تعالى بسبب كفرهم وبغيهم.

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يقسم إلا بالله تعالى.

ب ـ ثم تشير السورة إلى قصة تعذيب أهل الأخدود، وتُعقّب عليها بالتهديد والوعيد الشديد لكل من يفعل مثل فعلتهم، ويموت على ظلمه دون أن يتوب ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الآية:١٠] أي فلهم في الآخرة عذاب من جنس ما فعلوا بغيرهم.

أما المؤمنون الصالحون، فهم في جنات ونعيم وفوز عظيم، وكأن الله تعالى يقول لأهل الإيمان: اصبروا كما صبر السابقون من المؤمنين، واثبتوا كما ثبتوا، فإن العاقبة ستكون لكم، فالمقصود هو تثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان، وتسليتهم عما لحقهم من تعذيب وأذى، وإعلامهم أن ما نزل بهم قد نزل أكبر منه بغيرهم.

ج ـ وفي نهاية الحديث عن أصحاب الأخدود وصف الله تعالى نفسه بأربعة أوصاف، فهو العزيز الحيمد، مالك الأرض والسماء، والشهيد على كل شيء ثم تأتي تعقيبات أربع:

يشير أولها إلى سنة الله تعالى في خلقه بالانتقام من الظالمين.

ويشير التعقيب الثاني في السورة إلى بطش الله الشديد بالطغاة والمتجبرين، وفيه وصف الله تعالى بخمسة أوصاف.

فهو سبحانه شديد البطش، وهو يبدئ الخلق ويعيده، يغفر لعباده ويتوب عليهم ويتودد لهم، وهو صاحب العرش المجيد، يفعل ما يريد، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

ويشير التعقيب الثالث في السورة إلى سبب ما لحق بالطغاة من عقوبة.

والتعقيب الرابع فيه ثناء على القرآن وتنديد بالمكذبين له.

د ـ وتُلوّح السورة بأن بطش الله شديد لكل جبارعنيد، وانتقامه تعالى ينتظر كل من بغى وتجبّر، ولهم عبرة في قصة فرعون الطاغية الجبار، وما أصابه من الهلاك والدمار، وكذا في قصة قوم ثمود الذين جعل الله بيوتهم خاوية بما ظلموا، لهم فيهم عبرة وعظة، للإقلاع عن ظلم الناس والتكبر في الأرض بغير الحق، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

قصة أصحاب الأخدود:

هذه القصة ليست قصة واحدة، فقد حدثت أكثر من مرة، في أكثر من بلد، وأكثر من زمن، لأكثر من قوم فُتنوا في إيمانهم، في القديم والحديث، وما أكثر أمثالها في عالمنا المعاصر وغير المعاصر:

١- فقد عُذب في الأخاديد قوم اتبعوا النصرانية في بلاد اليمن، وعلى هذا أكثر الروايات.

٢- وعُذّب قوم آخرون بالأخاديد في بلاد الحبشة.

٣- وعذب قوم من بني إسرائيل بمثل عذابهم على يد بختنصّر في أرض بابل بالعراق.

أما الطغاة الذين عَذبوا المؤمنين في الأخاديد فقد:

١- كان منهم: (يوسف، ذو نواس) بنجران.

٢- وكان منهم (بختنصر) بالعراق.

٣- وكان منهم (انطانيوس) الرومي، بالشام.

قال مقاتل: كانت الأخاديد ثلاثة: واحدة بنجران باليمن، والثانية بالشام، والثالثة بفارس.

أما التي بالشام، فهو انطانيوس الرومي، وأما التي بفارس فهو بختنصّر.

وأما التي بأرض العرب فهو: يوسف ذو نواس.

فأما التي بفارس والشام، فلم ينزل الله فيهم قرآناً، وأنزل في التي كانت بنجران[1].

وقصص الأخاديد كثيرة في التاريخ.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣٧٠/٨).

والتعذيب بالحرق بالنار طريقة قديمة، ومنها: نار إبراهيم عليه السلام.

وممن حرّق بالنار دون شق الأخاديد (عمرو بن هند التميمي) فقد حرق مئة من بني تميم بالنار.

قال ابن كثير بعد أن ذكر جملة من الروايات:

ويحتمل أن ذلك وقع كثيرا في العالم، كما قال ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن جبير:

١- كانت الأخدود في اليمن زمان تُبّع.

٢- وفي القسطنطينية، زمان قسطنطين، حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، فاتخذوا أتوناً، وألقوا فيه الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد.

وفي العراق في أرض بابل، كان بختنصّر، الذي وضع الصنم، وأمر الناس أن يسجدوا له، فامتنع دانيال وصاحباه، فأوقد لهم أتوناً، وألقى فيه الحطب والنار، ثم ألقاهم فيه، فجعلها الله عليهم بردا وسلاماً، وألقى فيها الذين بغوْا عليه، وهم تسعة رهط، فأكلتهم النار.

وهذه أربع روايات من الروايات التي وردت في قصص أصحاب الأخدود:

الرواية الأولى: أن ملِك فارس شرب خمراً ووقع على أخته وهو سكران، فلما أفاق قال لها: ويحك، أين المخرج؟ فقالت له: اجْمَعْ أهلَ مملكتِك، فأخبِرْهم أن الله عز وجل قد أحل نكاح الأخوات والبنات، فإذا مضى ذلك في الناس وتناسوه، خَطَبْتَهُمْ مرة ثانية فحرّمْتَهُ، ففعل ذلك، فأطاعه أناس، وعصاه آخرون، فأبوْا أن يقبلوا ذلك منه، فشق لهم أخاديد طويلة كالخنادق في الأرض، وأوقد فيها النار، وقذف فيها مَنْ أَبى ذلك، وكان هذا الملِك مَجُوِسياً، أراد أن يحلل نكاح المحارم بين الناس[1].

الرواية الثانية: عن عليّ ﷺ أن أهل الأخدود كانوا بمزارع باليمن، وأن الذي شق الأخاديد هو ملك حمير، حيث اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم، فغلب مؤمنوهم على

(١) تفسير الطبري (١٣٢/٣٠) عن علي بن أبي طالب ﷺ وانظر تفسير البغوي والخازن وزاد المسير للسورة.

كفارهم، ثم اقتتلوا، فغلب الكفار المؤمنين، فخدُّوا لهم الأخاديد وأحرقوهم فيها.

وقيل: إنهم كانوا من الحبشة، وفيهم كانت المرأة المؤمنة التي قادها الزبانية إلى الأخدود، فتقاعست قليلاً من أجل ولدها، فقال لها الطفل: امض إلى الأخدود، واثبتي فأنت على الحق، فاقتحمت النار!!

الرواية الثالثة: وهي القصة التي أشار إليها القرآن الكريم، وقد جرت هذه القصة في نجران، وهي أن الملك ذو نواس، كان له كاهن أو ساحر، وكان للساحر تلميذ اسمه (عبد الله بن الثامر) فكان إذا مشى إلى الكاهن، وجد في طريقه صَوْمعة فيها راهب، يعبد الله تعالى على دين عيسى عليه السلام قبل رسالة محمد ﷺ وكان يقرأ الإنجيل، وظهر لـ (عبد الله بن الثامر) كرامات، وكلما ظهر له كرامة اتّبعه عدد من النصارى، فكثُر المتنصّرون في نجران.

وبلغ هذا الأمر الملك ذا نواس، وكان يهوديّاً، وكان أهل نجران مشركين، يعبدون نخلةً طويلة، فقتل الملك الغلام، وقتل الراهب، وأمر بشق أخاديد، وجمع الحطب لها، وأمر بإشعال النار فيها، وعُرض أهل نجران على النار، فمن رجع عن التوحيد تركه، ومن ثبت على الدين الحق قذفه في النار، حيث سار إليهم ذو نواس بجنده، فدعاهم إلى اليهودية، وخيّرهم بينها وبين القتل، فحرق بالنار في الأخاديد من لم يدخل في اليهودية، وقتلهم بالسيف، ومثّل بهم، حتى قتل منهم قريبا من عشرين ألفاً[1].

قصة الأخدود في السنة:

ولعل هذا مجمل لما رواه صهيب ﷺ عن النبي ﷺ أن ملكاً كان له ساحر، فلما تقدّمتْ السن بالساحر، طلب من الملك أن يُعطيه غلاماً يُعلّمه السحر.

وكان بين الملك والساحر راهب، كان الغلام يجلس إليه ويعجب به، ويَلْقى الأذى بسبب ذلك من الساحر ومن أهله، فرأى الغلام في طريقه ذات يوم دابة عظيمة قد

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٤) وما بعدها، بتصرف.

سدت الطريق وحبست الناس، ولم يستطيعوا اجتيازه، فأخذ الغلام حجراً، وقال: اللهم إن كان أمر هذا الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يمرّ الناس، ورماها بحجر فقتلها.

فأُخبر الراهب بذلك، فقال له: أنت أفضل مني، وإنك ستُبتلى، فإن ابتُليت فلا تدل عليّ، وقد أيد الله الغلام ببعض الكرامات، فكان يبرىء الأكمه والأبرص، وسائر الأدواء.

وكان للملك جليس أعمى، فأتى الغلام بهدايا كثيرة، وقال له: اشفني، قال الغلام: إنما يشفي الله عز وجل، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن، فدعا الله فشفاه.

ثم إن الملك سأله: مَن ردّ عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: أوَلَك رب غيري؟

قال: نعم، ربي وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دلّه على الغلام، فعذّبه.

ثم دلّه على الراهب، فأُتي به، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شِقّاه.

وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرقه أيضاً.

وقال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر من جنده يقذفونه من ذروة الجبل إن لم يرجع عن دينه، فلما علَوْا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل وماتوا جميعاً.

ورجع الغلام إلى الملِك، فبعث به مع نفر من جنده إلى البحر، وقال لهم: ألقوه في لجة البحر إن لم يرجع عن دينه، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، فأغرقهم الله جميعاً، فرجع الغلام إلى الملك وقال له: إنك لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلُبني على جذع، ثم تأخذ سهماً من كنانتي وتقول: باسم الله رب الغلام، فإن فعلت ذلك قتلْتني، ففعل، ومات الغلام، فقال الناس: آمنا برب الغلام.

فلما آمن الناس كلهم، شقّ الملك أخاديد في أفواه السكك وأضرم فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، ومن لم يرجع أقحموه فيها، فكانوا يتعادون ويتدافعون، فجاءت امرأة بابنٍ لها ترضعه، وتقاعست أن تلقيه في النار، فقال الصبي: اصبري يا

أماه، فإنك على الحق.

قيل: إن هذا الغلام وُجد في زمن عمر مدفونا ويده على صدغه، كلما رُفعت خرج الدم من جُرحه، وإذا تُركت أعيدت على الجرح[1] وهذه الرواية تفصيل لما أجملته الرواية الثالثة.

الرواية الرابعة: جاءت عن الربيع بن أنس، أن أصحاب الأخدود، كانوا قوماً في زمن الفترة، وذلك أنهم لما رأوْا ما وقع في الناس من الفتنة والشر، وصاروا أحزاباً، اعتزلوا الناس، وأقاموا على عبادة الله وحده، فسمع بخبرهم أحد الجبارين، فأرسل إليهم، يأمرهم بعبادة الأوثان، وإلا قتلهم، فأبوْا فحفر أخاديد، وقال لهم: اختاروا هذه النار، أو عبادة الأوثان، فقالوا: هذه النار أحب إلينا.

وكان فيهم نساء وذرية، ففزعت الذرية، فقال لهم: لا نار بعد اليوم، فقبض الله أرواحهم، بأن بعث عليهم ريحاً قبضتهم من قبل أن يمسهم حرّها، وخرجت النار من مكانها، وأحاطت بالجبارين على جانبي الأخدود، فأحرقهم الله بها، وفي ذلك أنزل الله الآيات[2].

* * *

(١) ينظر هذا المعنى في صحيح مسلم برقم (٣٠٠٥)، والمسند (١٦/٦) برقم (٢٣٩٣١) بإسناد صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم، والترمذي برقم (٣٣٤٠)، والنسائي في التفسير برقم (٦٨١)، وفي الكبرى (١١٥٩٧)، وعبد الرزاق في المصنف برقم (٩٧٥١)، والتفسير (٣٦٢/٢)، والبزار في مسنده (٢٠٩٠)، والطبراني برقم (٧٣١٩)، وابن أبي شيبة (٣١٩/١٠)، وابن حبان (٨٧٣).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٨٨/٣٠) بتصرف.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ثلاثة أنواع من القسم، على الانتقام من كل من شق أخدوداً لمؤمن

١ - ٣ - ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾

اقسم سبحانه وتعالى في هذه الآيات بثلاثة أنواع من القسم:

أولها: من العالم العلوي، وهو السماء ذات المدارات الفلكية، المنتظمة في سيرها أكمل ترتيب وأدق نظام يدل على كمال قدرة الله تعالى وسعة علمه وحكمته.

والمنازل التي تمر بها الشمس والقمر، والكواكب السيارة، وهي بروج تتلألأ بأنوار النجوم اللامعة تلوح للناظرين في قبة الجوّ.

والقسم في هذه الآية يتضمن قَسَماً بأمرين هما: السماء، والبروج، للفْت أفكار المتدبرين إلى ما فيهما من مخلوقات.

والبرج يتألف من مجموعة نجوم بعضها قريب من بعض، لا تختلف أبعادها.

وسميت بروجاً: لأن علماء الفلك يتخيلون أن الشمس تحلّ فيه لمدة شهر من السنة، فهو كالبرج أو الحصن لها، وقد تخيلوا أن كل برج منها يشبه صورة إنسان أو حيوان أو نبات أو آلات، فميزوها بإضافتها إلى ما يشبه تلك الصورة.

ويوقَّت بهذه البروج، للأشهر، والفصول، والليل والنهار، عن طريق موقع الشمس نهاراً، في المكان الذي تطلع فيه نجوم تلك البروج ليلاً ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١] ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر: ١٦] .

وهذه البروج أو المنازل الاثنا عشر هي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، وهي منازل خاصة بالكواكب السيارة، تشبه منازل الناس.

وهذه البروج تقطعها الشمس في سنة، ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوماً.

حيث تقطع الشمس كل برج في شهر، ويقطع القمر كل برج في يومين وثلثاً.

وأقسم جل شأنه ـ ثانياً ـ باليوم الآخر، الذي وعد الله به عباده، أن يجمعهم فيه، ويضم أولهم وآخرهم وقاصيهم ودانيهم، ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فاليوم الموعود هو يوم القيامة، وعد الله به المؤمنين في قوله: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٣] .

كما وَعد به الكفار في قوله: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج:٤٢] .

وهو اليوم الذي يجمع الله فيه الخلائق للحشر والحساب ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران:٩] .

وليس في وسع أحد يوم القيامة أن ينكر وجود هذا اليوم، حيث يقول الجميع.

﴿ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس:٥٢] .

وهو يوم محدد لا يمكن أن يتغير، والله لا يخلف الميعاد.

ثم أقسم - ثالثاً - بكل شاهد يشهد، وبكل مشهود يُشهد عليه، وهذا يشمل كل مبصِر ومبصَر، وحاضر ومحضور، وراءٍ ومرئيّ، وقد ذكر المفسرون نحو عشرين معنىً للشاهد والمشهود، وهو قسم عام، يدخل تحته صورًا كثيرة:

فالشاهد يطلق على: الرائي، والحاضر، والملائكة، والرسل، ومحمد ﷺ خاصة.

ويطلق على الإنسان بشكل عام، ويطلق على الأرض وهي تشهد بعمل الإنسان، كشهادة جوانحه وأعضائه، ويطلق على كل من يسمع المؤذن ويشهد له، كما يطلق الشاهد على يوم الجمعة، وغير ذلك، فهذه عشرة معاني للشاهد.

والمشهود يطلق على: المرئي، ويطلق على أصحاب الأعمال التي كانت في الدنيا ومن يُطْلعهُم عليها، ويطلق المشهود على يوم القيامة، وعلى الأمم المشهود عليها، وعلى الناس المشهود عليهم، كما يطلق على يوم عرفة.

فهذه ستة معاني للمشهود، ولكل منها أدلة من الكتاب والسنة:

١ ـ قال تعالى في شهادة الأمة على الناس وشهادة الرسول عليها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾[البقرة:١٤٣].

٢ ـ وقال سبحانه في شهادة رب العالمين على الناس: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[الأنعام:١٩].

وقال ابن عباس: الشاهد هو محمد ﷺ والمشهود: يوم القيامة(١).

٣ ـ قال جل شأنه في شهادة الرسول على أمته وشهادة الرسل على أممهم:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[النساء:٤١].

٤ ـ وقال تعالى في شهادة أعضاء الإنسان عليه يوم القيامة:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النور:٢٤].

٥ ـ وقال سبحانه في شهادة الأرض على عمل الإنسان يوم القيامة:

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[الزلزلة:٤].

٦ ـ وقال تعالى في شهادة الملكين على الإنسان:

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[ق:٢١].

٧ ـ وقال سبحانه في عموم الشهادة: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[البروج:٩].

٨ ـ وقال تعالى في شهادته على صدق ما جاء به محمد ﷺ:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[الرعد:٤٣].

٩ ـ وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٧].

١٠ ـ وقال تعالى في شهادة الرسل على أممهم: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ [النحل:٨٩].

فهذه عشرة أنواع من الشهادة جاءت في كتاب الله عزوجل.

والآثار ترجح أن الشاهد: هو يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة.

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «اليوم الموعود: يوم القيامة، واليوم المشهود: يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه، فيه

---

(١) السنن الكبرى للنسائي (١١٦٦٣) والبزار، كشف الأستار (٢٢٨٣) والطبري (٥٧٤/١٢).

ساعة لا يوافقها عبد مؤمن، يدعو الله بخير، إلا استجاب الله له، ولا يستعيذ من شر إلا أعاذه الله منه»(١).

وجاء هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة عند الطبري بسند صحيح.

وقال أبوهريرة ﷺ: الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة(٢).

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ ظُلْماً

٤-٧- ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ ﴾

خلاصة قصة أصحاب الأخدود: أن قوماً من الكفار، راودوا قوماً من المؤمنين على الدخول في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكفار لهم أخاديد في الأرض وأضرموا فيها النار، وقذفوهم فيها، وقعدوا حول النار، وفتنوا المؤمنين، فمن تبعهم أطلقوه. ومن استمر على إيمانه قذفوه فيها.

وجواب القسم بالسماء وأبراجها، وباليوم الموعود للبعث والحساب والجزاء، وبكل شاهد، وكل مشهود، قوله تعالى ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ أي هلك، ولُعن، وعُذب، كل من شق الأخاديد في الأرض، وأوقد فيها النار الشديدة لتعذيب المؤمنين، من كل طاغية في أي عصرٍ ومصرٍ، يتفنّن في تعذيب المؤمنين بأي لون من ألوان التعذيب:

كالصعْق بالكهرباء، أو قطْع بعض الأطراف، أو إتلاف بعض الأعضاء، أو فعل الفاحشة بهم، أو بنسائهم ومحارمهم أمام أعينهم إمعانا في تعذيبهم، أو بعمليّات غسْل

---

(١) سنن الترمذي برقم (٣٣٣٩) وقال: حسن غريب وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٦٥٩)، وفي الطبراني شاهد له من حديث أبي مالك الأشعري في المعجم الكبير برقم (٣٤٥٨) فيه ضعف وانقطاع، وحسنه الألباني بهذا الشاهد في السلسلة الصحيحة برقم (١٥٠٢)، وهو عند الطبري (٢٦٣/٢٤).

(٢) المسند (٢٩٨/٢) برقم: (٧٩٧٣)، بإسناد صحيح على شرط مسلم، عمار مولى بني هاشم، من رجال مسلم، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين وأخرجه الترمذي (٣٣٣٩) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٦٥٩) والبيهقي في السنن (١٧٠/٣) والطبري (٢٦٣/٢٤) وبين الروايات زيادة ونقص وتقديم وتأخير.

المخ، أو أي نوع من طُرُق الإجبار، للإدلاء بأقوال مطلوبة لهم، ونحو ذلك، فكلّه من باب فتنة المؤمنين والمؤمنات،وهو تعذيب لهم:بغير جريمة حدّ ولا قصاص ولا تعزير.

ومن ذلك ماسبق ذكره من قصص لأصحاب الأخدود.

ونصرُ الله تعالى حليف لهؤلاء المظلومين ـ إن عاجلا أو آجلا ـ وإن لم يحدث النصر في الدنيا، فإنه حليفهم يوم القيامة ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾[غافر:٥١] والعقاب وخيم للظالمين في يوم الموقف العظيم.

وقيل: إن المقسم عليه، هو ما تضمنه القسم من آيات الله الباهرة، وحكَمِه الظاهرة ورحمته الواسعة.

العبرة المستفادة من قصة أهل الأخدود:

١ - وماسبق ذكرُه في قصة الغلام الذي أبْلَى بلاءً حسَناً في نشر الإيمان، فحكم عليه الطاغية بالقتل عن طريق التَّردِّي من قمة جبل عال تارة، وبالإغراق في البحر تارة، وتمّ ذلك على أيدي زبانية، فرجع الغلام إلى الملك المدّعي للألوهية، بعد أن نجاه الله من جنده، ويتكرر الفشل في محاولة قتله مرات.

ثم أراد الغلام أن يُغلي كلمة الله تعالى، ويبطل دعوى الملك للألوهية، ليعُمّ التوحيد، وتنتهي خرافة الملك الطاغية، فقال له: إن كنت تريد قتْلي، فاصْلُبني أمام الناس جميعا، وصوِّبْ إليّ السهم، وأنت تقول: باسم الله رب الغلام، فأطلق السهم عليه باسم الله، فقتله، وقُتلت معه خرافة فرعون المتأله، فعُرِف أنه ليس بإله، وبذلك انتشر الإيمان، وعلَتْ راية التوحيد!

٢ - وثبات أهل الحق في مثل هذه الأحوال، يتمثل أيضاً في هذه المرأة المؤمنة التي قادها الزبانية إلى الأخدود، ومعها ولدها، فخافت عليه، فقال لها: اثبتي فأنت على حق، فاقتحمت النار بوليدها!

٣ - وكما سبق ذكره في رواية الربيع بن أنس: من أن الله تعالى نجّى المؤمنين الذي حُفرت لهم الأخاديد، فقبض الله أرواحهم قبل أن تمسّهم النار، وخرجت النار على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم.

ثم فسّرت السورة معنى الأخدود: فذكرتْ أنها نار متأججة، ذات حطب ولهب، يضرمها الطغاة في تلك الشقوق العميقة في الأرض، لإحراق المؤمنين وتعذيبهم فيها، فهي نار لا يخمُد لهيبها، لأن لها وَقُوداً من نفْط أو غاز أو حطب.. وكلما خبتْ يُلْقى فيها ما يوقِدُها، ولو شاء الله لسلَب هذه النار خاصيّة الإحراق، وجعلها برداً وسلاماً على من أُلقي فيها، كما حدث لإبراهيم عليه السلام.

ويدخل في معنى الأخدود: كل وسيلة من وسائل الحرق أو الصعْق أو القتل أو التعذيب، قديمه أو حديثه، وكل ما يجدّ في المستقبل ، وشأن الطغاة في كل زمان ومكان أن يتلذّذُوا بتعذيب المؤمنين،ويشهدوا ذلك بأعينهم.

وقد بيّن سبحانه أن اللعن والطرد من رحمة الله تعالى، يحِلُّ بهؤلاء حين يشرفون على تعذيب المؤمنين بأنفسهم، ويشهدون بشاعته، ويأمرون أتباعهم وزبانيتهم بالجدّ في تعذيبهم حتى لا يتهاونوا في أمرهم، وهذا معنى ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ أي لعنوا وغضب الله عليهم حين قعدوا يشاهدون بشاعة التعذيب في الأخاديد.

وهؤلاء الطغاة الذين يعذِّبون المؤمنين أو يقتلونهم صلْباً أو حرقاً أو صعقاً.. لا يرأفون بمن يعذبونهم، فتأخذهم الشفقة بهم، ولا يشْمئزون من شناعة ما يُفعل بهم، لقسوة قلوبهم وغلظتها، فهم يراقبون مَنْ وكّلوهم بتعذيبهم وإهانتهم، والتمثيل بهم، بعد إحراقهم أو قتلهم بصورة من الصور.

وهذا معنى ﴿وَهُمْ﴾ أي أنَّ الذين شقُّوا الأخاديد وأضرموا فيها النار، والذين أقاموا وسائل التعذيب المختلفة ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من التنكيل والتعذيب ﴿شُهُودٌ﴾ أي حضور، ملازمون له.

وهذا من أعظم أنواع التجبر وقساوة القلب، لأنه جمع بين الكفر بالله وتعذيب المؤمنين ومشاهدة عذابهم.

وفي الآيات تحذير ووعيد لكل من عذّب مؤمنا بغير جُرم يستحق عليه عقاباً شرعياً، وينطبق هذا على الأفراد كما ينطبق على الجماعات والأمم:

سَبَبُ تَعْذِيبِ الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ

٨، ٩ - ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾

فكم من أمة غير مسلمة عَذَّبتْ أمة مسلمة، لا لشيء، إلا لإيمانها بالله واليوم الآخر، وكم من حزب أو جماعة مخالفة في الدين قامت بتعذيب جماعات من المؤمنين لمجرد أنهم مخالفون لهم في الفكر والعقيدة، وكم من مجرم عذب مؤمناً تشفياً أو انتقاماً أو خوفاً على تقويض حكم ونحو ذلك.

وهكذا بيّن رب العالمين في قوله ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي وما انتقموا منهم، وأخذوهم بمثل هذا العذاب الشديد، إلا بسبب خصلة واحدة هي الإيمان بالله رب العالمين، وهي خصلة يُمدَحون عليها ولا يُذَمُّون، فضلاً عن أن يعذبوا بسببها، وهذا معنى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهذا تعجب من حال المجرمين الذين يعذبون المؤمنين، لا لشيء إلا من أجل إيمانهم بخالقهم. فليس هناك من ذنب اقترفوه، ولا من جريمة فعلوها، إلا أنهم أخلصوا العبادة لله تعالى، وليس هذا ذنب يستحقون العقوبة عليه، بل إن المؤمن بالله جدير بالتقدير والاحترام، وحقيق أن يُمدح ويُثنى عليه.

ومن نظائر هذه الآية قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة:٥٩] ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج:٤٠].

أربعة أوصاف وصف الله تعالى بها نفسه:

ثم وصف الله نفسه ببعض الصفات التي توجب الإيمان به تعالى، وتجعله جديراً باستحقاق الوحدانية والتفرد بالعبادة لله وحده دون سواه، وهي صفات: العزة، والحمد، ومُلك الكون، والاطلاع المطلق على خلق الله تعالى، فهذه أربع صفات:

الصفة الأولى: أنه سبحانه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الذي لا يُضام من لاذ بجنابه، وهو الغالب الذي

لا يُقهر، والقادر الذي يُخشى عقابه، ومن كان كذلك، فهو المستحق للعبادة دون سواه.

الصفة الثانية: أنه سبحانه ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ أي المستحق للحمد والشكر والثناء على جليل نعمه، وعظيم فضله، وعلى جميع أقواله وأفعاله، وأوصافه فهو أهل الحمد والثناء، وهو الذي لا يحمد على مكروه سواه، ومن كان كذلك، فهو الجدير بالعبادة دون سواه.

الصفة الثالثة: أنه سبحانه، مالك لهذا الكون بعالَميْه: العلوي والسفلي، لم يشاركه أحد في خلق ذرة، وليس في مقدور الخلق أجمعين أن يخلقُوا ذبابة ولو تضافرت قواهم على خلقها، ولا يمكن لأحد أن يخرج عن سلطانه تعالى، ولا أن يدبّر أمر نفسه، والخلق والتكوين من خصائص الإله، فهو المستحق للعبادة دون سواه.

الصفة الرابعة: أن الله وحده هو المطلع على أحوال عباده ظاهرها وباطنها، لا تخفى عليه خافية من شؤونهم، ولا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو على كل شيء شهيد، علماً وسمعاً وبصراً، ومن ذلك: إحاطته التامة بما فُعل بأهل الأخدود، ومَنْ كان على شاكلتهم إلى يوم القيامة.

أفلا خاف هؤلاء المتمردون أن يبطش الله بهم، فهم مملوكون لله، وليس لأحد عليه سلطان، وهو القاد على الانتقام من كل ظالم مغرور، وفي هذا تهديد ووعيد لكل من عَذّب مسلماً إلى يوم القيامة.

أَرْبَعُ تَعْقِيبَاتٍ عَلَى قِصَّةِ أَصْحَابِ الأُخْدُودِ

١٠ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾

قال الحسن: انظرو إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أولياء الله وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة.

وفي هذه الآية بيان لسوء مصير المجرمين، يعقبه ذكر لحسن مصير المؤمنين، وذلك أنه بعد أن فرغت السورة من قصة أصحاب الأخدود، يأتي عليها أربع تعقيبات:

التعقيب الأول: أن الجزاء من جنس العمل: حيث يبين سبحانه أن لله تعالى سنة عامة،

وقاعدة مطردة في خلقه، وهذه القاعدة تنص على أن كل من عذّب المسلمين والمسلمات ليصرفُوهم عن دين الله، على أي شكل كانت هذه الفتنة، فقد أعد الله لهم يوم القيامة عقاباً من جنس العمل، إن استمروا على ذلك إلى الموت، وهو العذاب المحرق في نار جهنم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ أي عذّبوا ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ليفتنُوهم عن دينهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ أي لم يرجعوا عن تعذيب المؤمنين، ولم يرجعوا عما هم فيه من الكفر والعدوان ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بسبب إصرارهم على الكفر والاعتداء على خلْق الله، ولهم فوق ذلك عذاب زائد من جنس ما فعلوه، وهو الإحراق بالنار في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾، وهذه عقوبة الظالمين.

ومفهوم الآية: أنهم إن رجعوا عن كفرهم وعن تعذيب المؤمنين، فإن الله تعالى يقبل توبتهم.

ويستفاد من ذلك قبول توبة القاتل.

هذا: وممن فَتن المؤمنين والمؤمنات عن دينهم في صدْر الإسلام:

أبوجهل، وأمية بن خلف، وصفوان بن أمية، والأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، وأمّ أنمار، ورجل من بني تيْم.

وممن فُتنوا في دينهم:

١- بلال بن رباح، كان عبداً لأمية بن خلف، فكان يعذبه ليرجع عن التوحيد، فلم يزد عن قوله: أحد، أحد.

٢- وأبوفُكَيْهة، كان عبداً لصفوان بن أمية، فكان يعذبه ليرجع عن إيمانه.

٣- وخبّاب بن الأرتّ كان عبداً لأم أنمار.

٤- وعمار بن ياسر، وأبوه، وأخوه: عبد الله، كانوا عبيداً لأبي حذيفة بن المغيرة، فوكَل بهم أباجهل.

٥- وعامر بن فُهيرة، كان عبداً لرجل من بني تيْم.

أما المؤمنات اللاتي فُتنّ في دينهن في صدر الإسلام فمنهن:

١- حَمَامةُ، أم بلال، أَمَةُ أمية بن خلف.

٢- وزنّيرة، أم عَنبس، كانت أمَة للأسود بن عبد يغُوث.

٣- والنَّهْديّة وابنتها، كانتا للوليد بن المغيرة.

٤- ولطيفة، ولبينةُ بنت فُهَيْرة، كانتا لعمر بن الخطاب قبل أن يُسْلم، وكان يضربهما.

٥- وسُمَيّة،أم عمار، كانت لعم أبي جهل.

وكم من أفراد وجماعات لَقوا حتْفهم في سبيل الله، وكسبوا الدار الآخرة ، وكانوا في عداد الشهداء :﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾[الأحزاب:٢٣] .

وقد فُتن ورجع إلى الشرك:

١- الحارث بن ربيعة بن الأسود. ٢- وأبوقيس بن الوليد.

٣- وعليّ بن أمية بن خلف. ٤- والعاص بن المنبه بن الحجاج.

وقد نصت الآية على المؤمنات لئلا يُظن أن هذه المزيّة خاصة بالرجال[1].

وكم من أفراد وجماعات ماتوا في سبيل الله، وكسبوا الدار الآخرة، وكانوا في عداد الشهداء. **قال تعالى:**

١١- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

وتتمة لهذا التعقيب يأتي ذكر المؤمنين العاملين للصالحات، وما أعد الله لهم في الآخرة، مقابل ذكر الكافرين الذين صدُّوا الناس عن دين الله، فأعد لهم عذاب جهنم في الآخرة، وعذاب الحريق في الدنيا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي تزودوا فوق الإيمان بالعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَنَّـٰتٌ﴾ بساتين وحدائق زاهرة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ أي من تحت قصورها وأشجارها.

قال الطبري: هي أنهار الخمر واللبن والعسل[2].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي العطاء والثواب الجزيل الذي أعده الله للمؤمنين والمؤمنات هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي لا فوز يضارعه ولا يقاربه.

---

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٣٩/٣٠).

(٢) تفسير الطبري (٢٥٣/٣٠).

خمسُ صفاتٍ لله تعالى في التعقيب الثاني: منها البطشُ بالظلمةِ

١٢ - ١٤ - ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ[1] ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾

التعقيب الثاني على قصة أصحاب الأخدود: بيان أن الله تعالى شديد العقاب لمن مات على كفره وظلمه للمؤمنين، وأنه تعالى غفور رحيم لمن تاب وأناب إلى ربه.

ومن الطغاة الذين بطش الله بهم: فرعون وقوم ثمود، ويتكون هذا التعقيب من خمس نقاط:

أولها: أن الله تعالى شديد البطش والانتقام من الظَّلَمة ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي إن انتقام الله تعالى وأخذه للجبابرة، بالغ الغاية في العنف والشدة والسرعة، فعقابه تعالى حاصل لهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ فاصبروا ـ أيها المؤمنون ـ على أذاهم، فإن العاقبة الحسنة لكم إن شاء الله.

وثانيها: أن الله وحده هو الذي يبدأ الخلق في الدنيا، ثم يعيده مرة أخرى بعد الموت، ليجازيهم على أعمالهم، فهو تعالى القوي المتين، ومن مظاهر قوته وقدرته التامة: أن يُبدىء الخلق كما شاء، وكيف يشاء، ثم يعيده كما بدأه، بلا ممانع ولا مدافع، فهو سبحانه المنفرد ببدء الخلق وإعادته بلا مشارك ولا مُعاون.

وثالثها: أنه تعالى يستُر ذنوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويتجاوز عمّا فرط منهم، ويحب التوابين من خلقه، فيرحمهم ويتودد إليهم ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ أي واسع المغفرة لمن تاب وآمن ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ كثير الودّ والمحبة لمن أطاع الله واتبع هداه، والودود يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ والمودة هي المحبة الصادقة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يود أولياءه، كما يود أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة[2].

وفي قرن الودود بالغفور، ما يدل على أن أهل الذنوب إذا تابوا وأنابوا غفر الله لهم ذنوبهم وأحبهم، والله تعالى يفرح بتوبة عبده أكثر من فرح من وجد ضالته بعد ضياعها منه.

---

(١) قرأ قالون وأبوعمرو والكسائي وأبوجعفر بإسكان الهاء من ﴿وَهُوَ﴾ والباقون بضمها، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.

(٢) تفسير القرطبي (١٩/٢٩٤).

١٥، ١٦ - ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ[(١)] ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

ورابعها: أنه جل شأنه صاحب العرش العظيم، وهو سرير الملك، وخُص العرش بالذكر، لأنه أعظم المخلوقات، وأوسع من السموات السبع لإحاطته بها، وهي بالنسبة إلى العرش كحلقة مُلقاة في فلاة بالنسبة لسائر الأرض، وهو يدل على عظمة الخالق سبحانه.

وفي هذا تنبيه للعباد على وجوب عبادته تعالى.

ولفظ ﴿الْمَجِيدُ﴾ قُرىء بالرفع على أنه صفة لله تعالى، بمعنى أنه سبحانه هو: العظيم في ذاته وصفاته وأفعاله، وقرىء بالكسر، على أنه صفة للعرش، أي السرير العظيم الذي لا يدرك حقيقته إلا خالقه سبحانه.

وخامسها: أنه تعالى إذا تعلّقت إرادته بفعل شيء، فَعَلَهُ على أكمل وجه، لا ينقص منه شيء، ولا يؤخر ما أراد تعجيله شيء، وفعْلُه تعالى نافذ لا يعترض عليه أحد، ولا يعجزه شيء، ولا يمنعه مانع، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا يمتنع منه شيء أراده.

ورد أن أبابكر الصديق رضي الله عنه قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: إني فعال لما أريد[(٢)].

وليس أحد فعالاً لِمَا يريد إلا الله سبحانه، فإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، ثم ذكر سبحانه أنَّ من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به الرسل، هلاك الأمم المكذبة لرسل الله:

عَلَى كُلِّ طَاغِيَةٍ أَنْ يَعْتَبِرَ بِمَا حَلَّ بِغَيْرِهِ

١٧، ١٨ - ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾

وبعد أن ذكر سبحانه خمساً من صفات الجلال والكمال، ليتّعظ من يتّعظ، فيخشى من يخشى، ويتوب من يتوب: قرر جل شأنه ما جاء في التعقيب الثاني: من أنه تعالى إذا أخذ

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بخفض الدال من ﴿الْمَجِيدُ﴾ صفة لعرش، والباقون برفعها خبر بعد خبر، أو صفة لذو.

(٢) الأثر في تفسير ابن كثير (٣٧٢/٨).

الظالم، أخذه أخذ عزيز مقتدر، فبعد أن بيّن سبحانه أن بطْشه شديد، أشار إشارة موجزة إلى ما فعله تعالى بالجبابرة الأقدمين، فقد أملى الله لهم، ثم أخذهم أخذًا شديدًا.

وقد جاء هذا المعنى بأسلوب الاستفهام للتشويق ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ هل بلغك - يا رسولنا - وهل وصل إلى علمك - أيها المخاطب - خبر الجموع الكافرة المكذبة الذين جنّدوا أنفسهم لحرب الله ورسله؟ ومن جملتهم فرعون الذى كذب موسى عليه السلام، وقوم ثمود الذين كذبوا صالحاً عليه السلام، هل علمت ما حلّ بهم من العذاب والنكال، كيف أن الله تعالى استأصلهم ودمّرهم تدميرًا، جزاء كفرهم وبغيهم؟ وعلى كل طاغية أن يعتبر بما حل لغيره.

ثم إنه سبحانه بَطَشَ بفرعون وقومه، فأغرقهم في البحر، لمّا أصرُّوا على كفرهم، وكذبوا موسى وهارون عليهما السلام، وقد ضرب الله المثل بقوم فرعون، لأنهم كانوا أكبر أمة تألّبت على أحد أولي العزم من الرسل، بعثه الله لتخليص بني إسرائيل من ذل العبودية لفرعون، كما بعثه لدعوة الناس إلى عبادة الله الواحد، وكان فرعون يزعم أنه إله المصريين وابن آلهتهم.

وهذه أربعة أوجه للشبه بين فرعون والملك الذي شق الأخدود:

١ـ فكما أن الملك الذي شق الأخدود، وعذب فيه المؤمنين، يدّعي الألوهية، حيث قال لجليسه: ألك رب غيري؟ فإن فرعون قد ادعى الربوبية والألوهية، ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

٢ـ وكما عجز فرعون عن إدراك موسى عليه السلام، عند البحر الأحمر، فإن الملك عجز عن قتل الغلام، فنجاه الله من الغرق ومن التردّي من قمة الجبل.

٣ـ وكما آمن الناس برب الغلام، فإن السحرة آمنوا برب هارون وموسى.

٤ ـ وكما جمع الله بين فرعون وثمود هنا، فقد جمع بينهما في سورة الفجر في قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ [الفجر:٩، ١٠] .

وكان أبوجهل، فرعون صدر هذه الأمة، وما أكثر الفراعنة في كل زمان ومكان.

أما قوم ثمود فقد كانوا مظهرا من مظاهر القوة والطغيان، فكانوا أشد الناس بأسا وأقوى مراسًا، ومع ذلك فقد ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧] .

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ۝﴾ [النجم:٥٠،٥١] . **قال تعالى:**

١٩،٢٠- ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ۝﴾

التعقيب الثالث على قصة أصحاب الأخدود أن سبب عذابهم هو إصرارهم واستمرارهم على الكفر والتكذيب، وفي هذا بيان أن سبب ما يلحق بالطغاة من مصير مؤلم في كل زمان ومكان، هو استمرارهم وإصرارهم على التكذيب بالوحي المنزل، وبالنبي الخاتم، وبالبعث والنشور.

فتكذيبهم متواصل، كحال مَنْ كان قبلهم، ولم يعتبروا بإهلاك الله تعالى للطغاة، وعدم اتعاظهم بمن سبقهم، ليس لخفاء حالهم عليهم، وإنما لعنادهم وكفرهم، فلا تنفع فيهم الآيات، ولا تُجْدِ فيهم العظات.

وهؤلاء المستمرون على التكذيب بالله ورسله، لن يفْلتوا من عقاب الله تعالى، إن عاجلاً أو آجلاً، فالله تعالى يسلط عليهم عذاباً في الدنيا والآخرة، وهم في قبضته تعالى في كل زمان ومكان.

فاعلم - يا رسولنا - أن الله تعالى محيط بالطغاة والجبابرة في هذه الأمة وفي كل أمة، محيط بهم بعلمه، ومحيط بهم بقدرته ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[الفجر: ١٤].

وفي هذا وعيد شديد للكافرين وأهل الأخدود وأنهم لن يفْلتوا من عقابه تعالى، فهم تحت قبضته وسلطانه، وسيُنزل الله بهم بأسه في الوقت الذي يريده سبحانه.

ثَنَاءٌ عَلَى الْقُرْآنِ وَتَنْدِيدٌ بِالْمُكَذِّبِينَ بِهِ

٢١،٢٢- ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ[1] مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ[2] ۝﴾

---

(١) قرأ ابن كثير بنقل حركة الهمزة من ﴿قُرْآنٌ﴾ إلى ما قبلها ومثله حمزة عند الوقف، وسكت على الراء الساكنة بدون تنفس حمزة بخلف عنه وصلا. وسكت عليها أيضاً ابن ذكوان وحفص وإدريس بخلف عنهم وصلا ووقفًا.

(٢) قرأ نافع برفع ﴿مَحْفُوظٌ﴾ صفة لقرآن، والباقون بالجر صفة للّوح.

أما التعقيب الرابع والأخير على قصة أصحاب الأخدود، فهو تعقيب عام، تختم به السورة، وهو في بيان أن سبب استمرار المكذبين من هذه الأمة، ناشىء عن سوء اعتقادهم بصدق القرآن، فبعضهم ينكره، ويعضهم يقول إنه: أساطير الأولين، أو أنه إفك مفترى، والله تعالى يقول: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ كتاب عظيم الشرف، رفيع المكانة، عالي الشأن، وهو كتاب محفوظ بحفظ الله له ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

وهو كتاب مُدَوَّن في لوح محفوظ من التغيير والتبديل، ومن الزيادة والنقص، ومحفوظ من وصول الشياطين إليه، ومن تحريف البشر له، ولا ينسخه كتاب آخر.

واللوح المحفوظ من الغيب الذي لم يصل إلينا معرفة حقيقته من طريق صحيح يحتج به.

وهو كائن قُدسيّ من الكائنات المغيبات في العالم العلوي، أودع الله فيه القرآن وغيره من الكتب السماوية.

واللوح المحفوظ، والكتاب المكنون، وأم الكتاب: شيء واحد.

فالمحفوظ هو: المصون عن التحريف والنقص والزيادة، ومنه نسخ القرآن وسائر الكتب السماوية.

والمكنون هو: الذي لا يباح لكل أحد أن يتناوله.

وأم الكتاب: أصل الكتب المنزلة من عند الله تعالى، والذي أودع الله فيه كل ما كان وما يكون، وهو كائن إلى قيام الساعة.

تم تفسير (**سورة البروج**) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الطارق (٨٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الطارق) هي السورة السادسة والثمانون في ترتيب المصحف، والسادسة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة البلد) وقبل (سورة القمر).

٢- واشتهرت باسم ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ بدون الواو، ويقال: سورة ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق[1].

وغالباً ما تقتصر التسمية على (سورة الطارق) فهذة ثلاثة أسماء لها.

٣- وعدد آياتها سبع عشرة آية عند غير المدنى الأول، وهى عنده ست عشرة آية. وهى إحدى وستون كلمة، ومئتان وتسعة وثلاثون حرفاً.

٤- وهي سورة مكية باتفاق، نزلت قبل سنة عشر من البعثة، كما في حديث عبد الرحمن بن خالد بن أبي أحمد العَدْوَاني، أنه (أبصر رسول الله ﷺ في سوق ثقيف، وهو قائم على قوس أو عصاً، حين أتاهم يبتغي عندهم النُّصرة، فسمعْتُهُ يقول: (﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ حتى ختمها)، قال: فوعَيْتُها في الجاهلية، ثم قرأتُها في الإسلام، قال: فدعتْني ثقيف، فقالوا: ماذا سمعتَ مِنْ هذا الرجل؟ فقرأتُها، فقال مَنْ معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، ولو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه)[2].

---

(١) المسند (٢/٢٢٧) وسنده ضعيف كما قال محققوه برقم (٨٣٣٣)، وانظر مقدمة سورة البروج.

(٢) المسند (٤/٣٣٥)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٧/١٣٦) عبد الرحمن، ذكره ابن أبي حاتم، ولم يخرجه أحد غيره، وبقية رجاله ثقات، وأخرجه البخاري في التاريخ (٣/١٣٨) والطبراني في الكبير (٤١٢٦،٤١٢٨) وضعفه محققوا المسند برقم: (١٨٩٥٨) لجهالة عبدالرحمن بن خالدالعدوانى، لم يوثقة غير ابن حبان.

وعن جابر ﷺ قال: صلى (معاذ) المغرب، فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي ﷺ: «أفتّان أنت يا معاذ؟ أَما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق، والشمس وضحاها، ونحو هذا»[١]؟

٥- ومدار سورة الطارق على إقامة الأدلة على توحيد الله تعالى، وكمال قدرته، وبليغ حكمته، وسعة علمه، وبطبيعة الحال، فإن القادر على البدء قادر على الإعادة من باب أولى، فأدلة البعث والنشور تملأ آفاق السورة.

وهي تبدأ بالقسم بذات الكواكب التي تَطْرُق، أي تظهر ليلاً وتختفي نهاراً، على أن كل نفس قد وكّل الله بها مَنْ يحرُسها، ويتعهد أمرها، ويحفظ عليها أعمالها.

٦- ثم تستدل آيات السورة على وحدانية الله تعالى، فهو الذي خلق الإنسان من ماء دافق، وهو القادر على إعادته بعد موته ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ [الآية:٨].

وقد ساقت السورة ثلاثة أدلة على البعث بعد الموت وهي:

أ- السماء والطارق، ب- وخلق الإنسان من نطفة، ج - وإحياء الأرض بعد موتها.

٧- وفي هذا اليوم العظيم تُهتك الأستار، وتُكشف الأسرار، حيث لا مُعين للعبد ولا ناصر له إلا الله.

٨- وماجاء به القرآن من التوحيد، ووجوب الإيمان بالنبى الخاتم ﷺ ، ووجوب الإيمان بالبعث والثواب والعقاب، كل ذلك قد أودعه رب العالمين في كتابه، وهو حجة الله البالغة، ومعجزة محمد ﷺ القائمة إلى يوم الساعة، فهو حق وليس بهزل.

وقد وعد الله المؤمنين بالجنة، ووعد الكافرين بالنار، وهو سبحانه يمهلهم ولا يهملهم.

٩- هذا :والآيات الأربع الأول من السورة، فيها قسم على أن الله تعالى وكّل على كل نفس رقيب من الملائكة، يحفظ عليها ما تكسِبه من خير أو شر، وتحصيها له فى صحيفة أعماله.

---

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (٧٠٩،١١٦٦٤)، وهو في البخاري (٧٠٥)، وأبوداود (٥٩٩،٧٩٣)، وبنحوه فى المسند (١٤١٩٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٢٤٠١،٢٤٠٤).

والآيات الست التى بعدها فيها استدلال على أن القادر على خلق الإنسان من نطفة قادر على بعثه يوم تبلى السرائر فَيُجْزَى بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً.

ـ ومن الآية الحادية عشرة إلى نهاية السورة فيها قسم من الله تعالى على أن القرآن حق وصدق، وأن كيد المكذبين له سيعود عليهم ، ويحل بهم عقاب الله إن عاجلاً أو آجلاً.

سبب النزول:

١٠- قيل: إن أباطالب أتى النبي ﷺ فأتحفه بخُبْزٍ ولبن، وبينما هو جالس يأكل إذ سقط نجم، فامتلأ ماءً ثم ناراً، ففزع أبوطالب، وقال: أي شيء هذا؟ فقال النبي ﷺ: (رُمي به، وهو آية من آيات الله تعالى) فعجب أبوطالب، فأنزل الله ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾[1].

* * *

(١) تفسير الخازن (٤/١٦٨).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقَسَمُ عَلَى أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ حَافِظٌ يُسَجِّلُ أَعْمَالَهَا وَيَحْرُسُهَا

١ - ٤ - ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا[(١)] عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾

أقسم سبحانه وتعالى بمخلوقيْن عظيميْن للدلالة على قدرة خالقهما، هما: السماء، والنجم، الذي يطرُق ليلاً، وهو نجم عظيم معروف، هو النجم الثاقب، أي: المضئ الذي يثقب نوره فيخرق السماوات فينفذ حتى يُرَى في الأرض، قيل: إنه رجل.

وقيل: هو اسم جنس يشتمل سائر النجوم الثواقب.

وفي السماء كواكب مُعْتِمة، تُشبه هذه الأرض التي نعيش فوقها، لا وهَجَ فيها ولا نور.

وفي السماء نجوم أخرى متألقة الكيان، كالشمس أو دُونها، والطارق أحد هذه النجوم.

١- والطارق هو النجم الذي يأتي ليلاً، ويختفي بالنهار، ويسميه العرب الشاهد، وهو ما يَظْهَرُ مع الغروب.

٢- وربما قُصد به جملة النجوم التي تظهر بالليل وتختفي بالنهار، فالنجم الذي يظهر نهاراً، يسمى طارقاً.

٣- وقد يُراد بالطارق جنس الشهب التي تنقضُّ على الشياطين فتحرقُها.

فهذه أقوال ثلاثة.

قال قتادة: إنما سُمِّيَ طارقاً: لأنه إنما يُرى بالليل ويختفي بالنهار.

ويؤيده ما صح عن رسول الله ﷺ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه «**نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً**»[(٢)].

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبوجعفر بتشديد الميم من ﴿لَّمَّا﴾ وهي بمعنى إلا وإن نافية، وقرأ الباقون بتخفيفها، فاللام هي الفارقة، والميم هي المزحلقة.

(٢) من حديث جابر في البخاري برقم (٤٤٣، ٥٢٤٣)، ومسلم (٧١٥).

وفي الحديث عن عبدالرحمن بن حنبش: (أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن)[1]. فهو لفظ عام في كل ما يأتي فجأة.

وأصل الطَّرْق: الدّق، ومنه سميت المِطْرَقة، وكل ما جاء ليلاً فهو طارق، وهذا النجم يظهر عقب غروب الشمس، وبه سميت صلاة المغرب: صلاة الشاهد.

وفي الحديث: (إن هذه الصلاة «أي العصر» عُرِضَتْ على من كان قبلكم فضيَّعُوها) إلى أن قال (ولا صلاة بعدها حتى يطلع الشاهد) قال أبو بصرة الغفاري - راوي الحديث -: قلت لابن لَهِيعة: ما الشاهد؟ قال: الكوكب، الأعراب يسمون الكوكب شاهد الليل[2].

وفي لفظ آخر: والشاهد النجم[3] فهو إذاً: النجم الذي يظهر في أول ظلمة الليل.

ثم عظّم سبحانه من شأن هذا النجم المضيء، فبين أنه نجم عظيم الشأن، فوق إدراك البشر.

فما أعلمك ـ أيها الإنسان ـ بحقيقته؟ ولم يكن أحد يعرف شيئاً عن هذا النجم، حتى بيّنه سبحانه.

وقد وقعت جملة ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ في القرآن ثلاث عشرة مرة، كلها أخبر الله بها إلا ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ وهذه المواضع الثلاثة عشر، كلها في قصار السور، من الحاقة وما بعدها، وهي في سور: المرسلات والانفطار والمطففين والبلد والقدر، وفي القارعة مرتين، وكلها جاء خبرها في سورها إلا في سورة الحاقة.

أمّا ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فقد جاءت ثلاث مرات: في الأحزاب والشورى وعبس.

---

(١) من حديث عبد الرحمن بن حنبش في المسند (٤١٩/٣).

(٢) النسائي في المجتبى (٢٥٩/١) وأخرجه أحمد في المسند (٢٧٢٢٧) قال محققوه: حديث صحيح، ابن لَهِيعة - وإن كان سيء الحظ - إلا أنه توبع كما في الروايتين (٢٧٢٢٥،٢٧٢٢٨) وأخرجه الطبراني في الكبير (٢١٦٦).

(٣) المسند (٢٧٢٢٥) وهو حديث صحيح، وصحيح مسلم (٨٣٠)، وأبويعلى (٧٢٠٥)، وعبد الرزاق (٢٢٠٩).

ثم فُسِّر الطارق بأنه ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ أي المضيء، كأنه يثقُب الظلام فينفُذ فيه بضيائه.

أو هو ما يثقُب الشياطين عند استراق السمع، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡءَانَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ [الجن: ٩] وكما قال سبحانه ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [الصافات: ١٠].

وإذا أُطلق النجم عند العرب كان مُرَاداً به الثريا، والقسم بالنجوم: لعظم أمرها وكِبَرِ خلْقها، كما قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٧٦] والمراد به: تنزيل القرآن نجوماً أي متفرقاً، وقد أقسم تعالى بالنجم إذا هوى، والذي هوى به هو جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١].

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته وليس لأحد أن يقسم إلا بالله تعالى.

وجواب القسم بالسماء والطارق، هو قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾.

١- وفيه دلالة على انفراد الخالق بالخلق.

٢- وفيه دلالة على أن الصنعة تدل على الصانع.

٣- وفيه دلالة على إثبات البعث والنشور.

حيث وكَّل الله بكل نفس ملَك رقيب يحفظ عليها أعمالها: خيرها وشرها، لتحاسَب وتجازى عليه يوم القيامة، ولئلا تذهب أعمال الخلق سدى، ولو أُهمل هذا الجزاء لكان ذلك منافياً لحكمة الله تعالى، حتى لا يستوي الصالح بالطالح، والمؤمن بالفاجر.

وهذا يستلزم الحساب والجزاء بعد الموت، وإلا كان خلْق الناس عبثاً.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وهؤلاء الحفظة هم الذين يَحصُون على الإنسان أقواله وأفعاله، وهناك ملائكة يحرسونه من الآفات، كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

وفي حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «إن الله وكّل بالرحم ملكاً»[1].

---

(١) الحديث بتمامه في مسند أحمد برقم (٢١٥٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وهو في البخارى (٣١٨)، ومسلم (٢٦٤٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١٨٧).

وعن أبي أمامة ﷺ مرفوعا: إن لكل نفس حفظة من الله تعالى ، يذبّون عنها كما يُذَبُّ عن العسل، ولو وُكِلَ المرء إلى نفسه طرفة عين لاختطفتْه الطير والشياطين[1].

قال قتادة: عليك حفظة يحفظون عملك ورزقك وأجلك، إذا توفيته يا ابن آدم ، قُبضتَ إلى ربك[2].

وهذا أيضاً من باب الحفظ والحراسة من المضار، وأعمال العبد التي يحاسب عليها هي ما كانت بعد بلوغ سن التكليف، حيث يجري عليه القلم فيحفظ عليه عمله، والحافظ في الحقيقة هو الله، وحفظ الملائكة من حفظه تعالى لأنه بأمره.

الْخَلْقُ الثَّانِي أَهْوَنُ مِنَ الْخَلْقِ الأَوَّلِ

٥،٦- ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ[3] ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ ﴾

قال عكرمة: إن هذه الآية نزلت في أبي الأشدّ، كان يقوم على الأديم، فيقول:

يا معشر قريش، من أزالني عنه فله كذا وكذا، ويقول: إن محمدا يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر، فأنا أكفيكم وحدي عشرة، واكفوني أنتم تسعة[4].

والآية تدعو الإنسان إلى التأمل في أصل خَلْقه، حتى لا يتجبر ولا يتطاول على الناس، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن رأى بعض الناس أن البعث محالٌ، فعليه أن ينظر في أصل خَلْقه أيضاً، ليعلم أن إعادة خلق الإنسان ليست أصعب من الخلق الأول ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] فلينظر الإنسان المنكِر للبعث والنشور، نظر تأمل واعتبار، من أي شيء خلقه الله تعالى؟ ليَعْلَم أن مَنْ أنشأه قادر على إعادته، ولا ينبغي للإنسان أن يتكبر أو يتجبر، وهو يعلم أصله الذي خُلق منه.

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/ ٤٦٥).

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن وعبدالرزاق (٢/ ٣٦٥).

(٣) وقب البزي ويعقوب على (مم) بهاء السكت، والباقون بغيرها ومعهم يعقوب في الوجه الآخر.

(٤) أسباب النزول للسيوطي (ص ٣٣١)، وتفسير الطبري (٣٠/٩١)، والدر المنثور (١٥/ ٣٥٠)..

ثم بين سبحانه المادة التي خُلق منها الإنسان فقال ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ مضبوب في الرحم، أي خُلق من منيٍ متدفّق ينصبُّ بسرعة وقوة في رحم المرأة، فيتكوّن منه الولد بإذن الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] أي قليل.

وقال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[الإنسان: ٢].

الصُّلْبُ وَالتَّرَائِبُ

٧، ٨- ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾

ثم وصف الله سبحانه هذا الماء الدافق، بأنه يُفرَز من فقرات صُلْب الرجل في وسط ظهره، ويُفرَز أيضاً من عظام الصدر، بين الترقُوتين والثّديَين، وهو موضع القلادة من المرأة.

والترائب تضاف إلى الرجل وإلى المرأة معاً، ولكنها تُنسب إلى النساء أكثر، لأن الرجال لا يحتاجون إلى وصفها فيهم.

والمعنى: أن المنيّ يتنقّل من بين الصلب والترائب معاً في الرجل والمرأة، وبعد أن يختلط الحيوان المنوي من نطفة الرجل، بِبُوَيْضة من بُوَيْضات الأنثى، وهي بويضات دقيقة كُرَوية الشكل، يتكوّن منهما الجنين في رحم المرأة.

ومحل تكوين منيّ الرجل في خِصْيتيه، حيث يندفع منهما الماء بقوة عبْر القضيب إلى رحم المرأة.

وأصله مادة دموية تنفصل عن الدماغ، وتنزل في عِرْقين إلى النخاع في الصلب، ثم ينتهي إلى الحبل المنوي، وهو مؤلّف من شرايين وأوردة وأعصاب.

وينتهي إلى الغدّتين اللتين تُفرزان المني في الخصيتين.

وللمرأة مِبْيضان في جانبي الرحم، كالخصيتين بالنسبة للرجل، كل مِبْيض يشتمل على عدد من الحويْصلات يتراوح من عشر إلى عشرين، ويتم خروج البيضة من الحويصلة بعد نموها وقت الحيض في قناة تبلغ بها إلى تجويف الرحم.

ويتكون ماء المرأة من عِرقين خلْف الأذنين كالرَّجُل، ولكنهما يمرّان بأعلى صدر المرأة من الثديين، وهذه العروق تنتفخ إبّان المحيض، وتنْقبض عقب الطهر من الحيض، والرحم يأتيها عصب من الدّماغ.

وهذا من الإعجاز العلمي في القرآن الذي لم يكن لأحد به علم، كما في حديث أم سلمة وعائشة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن احتلام المرأة، فقال: «**تغتسل إذا أبصرت الماء**» فقيل له: أَتَرَى المرأة ذلك؟ فقال: «**وهل يكون الشبه إلا من قِبَل ذلك، إذا علا ماءُ المرأة، ماءَ الرجل، أشبه الرجل أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه**»[١].

وقد وضع ابن عباس رضى الله عنهما يده على صدره وقال: هذه هي الترائب.

وقال: هي موضع القلادة من الصدر.

وقد خص الله الصلب والترائب بالذِّكْر، لأن المني يتصبب في عرقٍ في ظهر الرَّجُل من العظام الفِقَرِيّة، بإشارة من الدماغ.

وينزل المنيّ في عروق كثيرة من مقدَّم بَدَنِ المرأة، وهي الترائب، أي عظام الصدر العُلْوية[٢] وتفاصيل خلق الإنسان مشروحة في علم الأحياء، وكثير من علماء الأجنة في الغرب أعلنوا إسلامهم للدقة التي تحدث بها القرآن عن أطوار الخلق ومراحله، ولا يُعرف هذا في كتاب سابق!

إن العامة والخاصة يُدركون أن بداية الخلق ماء يمر بمجاري البول، تُشرِف عليه غُدَد معقدة متصلة بالجهاز العصبي!

(ويشترك في تكوين الإنسان بعد ولادته أطعمة وأشربة شتى، تجمعت من الماء والأتربة في بلاد وأقطار شتى، ولو قيل لكل ذرة من لحم الإنسان وعظمه وشعره.. عودي من حيث جئت لتوزَّعت على سطح الأرض كلها!)[٣].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٣١٣، ٣١٤).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (٣٠/٣٩٣).

(٣) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن (ص ٥١١).

يقول سيد قطب - رحمه الله -: ولقد كان هذا سرّاً مكنوناً في علم الله تعالى، لا يعلمه بشر، حتى كان نصف القرن الأخير - العشرين - حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته، وعرف أنه في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل، وفي عظام الصدر العُلْوية يتكون ماء المرأة، حيث يلتقيان في قرار مكين فينشأ منهما الإنسان![1]، وهذا القول على أساس أن الترائب تنسب إلى النساء أكثر من الرجال.

والمسافة هائلة بين المنشأ والمصير، أي بين الماء الدافق، وبين الإنسان العاقل المدرك، هذه المسافة الهائلة توحي بأن هناك يداً قادرة، تدفع بهذا المائع في رحلة عجيبة حتى تنتهي به إلى النهاية الماثلة، وتوحي بأن هناك حافظاً من أمر الله تعالى يرعى هذه النطفة في رحلتها الطويلة من مولده إلى مماته، إن الخلية الواحدة الملقّحة لا تكاد تُرى بالمجهر، إذ أن هناك ملايين الخلايا في الدّفقة الواحدة.

وكما أنشأ الله الإنسان من ماء مهين، فإنه تعالى قادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت للحساب والجزاء ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾. أي: قادر على إعادته للبعث بعد الموت.

فالضمير في ﴿رَجۡعِهِۦ﴾ يعود على الإنسان السابق ذكره في الآية، أي أن الله تعالى قادر على إعادة الحياة إلى الإنسان بعد موته. ويرشح هذا المعنى الآية التي تليه ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ فالسياق في إثبات البعث والنشور.

ويصح أن يعود الضمير على الماء الدافق، فيكون المعنى: أن الله تعالى قادر على رجع هذا الماء المدفوق وإعادته من حيث خرج، كردّ اللبن إلى الضرع، وردّ الطفل إلى الرحم:

١- أي أنه تعالى قادر على رد النطفة في الإحليل، ورد الماء في الصلب الذي خرج منه.

٢- وقادر على ردّ الإنسان من الشيخوخة إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، ومن الصبا إلى النطفة.

٣- وقادر على حبس هذا الماء حتى لا يخرج.

---

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٨٧٩).

٤- وهو تعالى قادر على خلق الإنسان بأسباب أخرى غير المني والبويضة.

٥- وقارد على خلقه بدون شيء.

٦- وقادر على خلقه بدون أب، وعلى خلقه بدون أم..الخ.

يَوْمُ الْقِيَامَةِ تَظْهَرُ فِيهِ مَكْنُونَاتُ الصُّدُورِ وَلاَ يَجِدُ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ مَنْ يَحْمِيهِ

٩، ١٠- ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾

ويوم القيامة تظهر الخفايا، وما تكنه القلوب من عقائد، وما تستره من جرائم، وما تُسِرّه من نيّات، فتُختبر السرائر فيما أخفته، ويُمَيَّزُ الصالح من الفاسد، والخبيث من الطيب.

ويظهر ما كان في القلوب من خير أو شر على صفحات الوجوه، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران:١٠٦]ففي الدنيا لا تظهر الأمور عياناً للناس، أما في الآخرة فيظهر برّ الأبرار، وفجور الفجار، وتصير الأمور علانية.

وفحوى الكلام يدل على أن الأقوال والأعمال الظاهرة تُبتلى من باب أولى، وهذا مشعر بالمؤاخذة على العقائد الباطلة والأعمال الشنيعة ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠] ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

وفي حديث ابن عمررضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فقيل: هذه غدرة فلان ابن فلان**»[1].

ومما يدخل في الآية محاسبة العبد على صحة العقيدة أو النفاق، وعلى أداء الفرائض وترك المنهيات ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩ - ١٠].

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧].

فمن أدّى الفرائض وترك المحرمات، كان وَجْهُه مشرقاً مستنيراً، ومن ضَيّعها أو انتقص منها كان وجهه كالحاً مغبراً ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣١٨٨،٦١٧٧،٧١١١)، وصحيح مسلم برقم (١٧٣٥) وهذا لفظه.

تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٨ - ٤٢].

وأيًا ما كان الأمر، فإن الخلائق عائدون لحساب مُرّ، في يوم تُختبر فيه السرائر، فلا يجد المرء له غير الله تعالى وليا ولا نصيراً.

ثم بين سبحانه أنه عندما تُكشف المكنونات، فتصبح ظاهرة للعيان، وتُرفع الحجب عما كان يُخفيه الإنسان في دنياه من عقائد ونيات.. فإن الإنسان الكافر لا يجد له في هذا اليوم قوة تحميه من الحساب والجزاء، يمنع بها عن نفسه ما يلاقيه من شدائد وأهوال، ولا يجد ناصراً يدفع عنه عذاب الله، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف: ٤٣].

وقال جل شأنه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وقد وصفهم القرآن بقوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [المعارج: ٤٤].

ويوم القيامة يحشرون مجردين من كل شيء: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ٤٨] ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] وهذا بخلاف الدنيا فقد يكون للإنسان فيها ما يرفع عنه الضر، وقد يجد من ينصره من المهالك.

القَسَمُ عَلَى أَنَّ القُرْآنَ كُلَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ

١١ - ١٤ - ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾

كان القسم السابق في أول السورة، على العمل والجزاء وهذا القسم على صدق القرآن.

١ - فقد أقسم سبحانه وتعالى بالسماء التي تفيض علينا بالماء، ويتكرر نزول المطر منها.

٢ - كما أن الشمس والقمر والنجوم يرجِعْنَ في السماء، فتطلع الشمس والقمر من ناحية وتغيب في الأخرى.

٣ - وأيضاً فإن الملائكة ترجع إلى السماء وهي تحمل أعمال العباد، كما أن السماء ترجع بالمطر كل عام، ولفظ ﴿ٱلرَّجْعِ﴾ يحتمل هذا المعاني الثلاثة، وهي: رجوع المطر من السماء، ورجوع الكواكب في السماء، ورجوع الملائكة إلى السماء.

- كما أقسم الله تعالى على أن الأرض تُخرِج لنا الثمار والنبات فتتشقّق عنه، وتتولد النعم والخيرات التي بها بقاء الإنسان والحيوان، قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ [عبس: ٢٤-٢٨].

كما تتصدع الأرض عن الأموات ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾.

وهكذا يقسم تعالى بالسماء صاحبة المطر وبالأرض ذات النبات.

- فقد أقسم الله تعالى بالسماء والأرض على أن هذا القرآن هو القول الفصل بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشد، وبه تُفْصَل الخصومات، ويُفْصَل به بين الطوائف والأحزاب، وليس فيه شائبة من الهزل أو اللعب أو المزاح، إنه كلام رب العالمين، وأحكم الحاكمين، جدٌّ كله، قد بلغ الغاية في بيانه وتشريعه وإعجازه.

فجدير بكل من قرأه أن يتعظ بآياته، ويستنير بتوجيهاته، ويستضيء بإرشاداته.

وكل ما وعد به القرآن حق وصدق، ومنه الحياة بعد الموت للبعث والحساب والجزاء، والمنكِر لذلك يخرج من دائرة الإسلام.

فالسماء تمطُر لأرزاق العباد، والملائكة تنزل من السماء وترجع إليها بأعمال العباد.

والأرض تتصدع فتنشق عن الحبوب، والفواكه تُجْنَى وتصدُر هنا وهناك.

(وحين وُلد ابن آدم كان وزنه كيلاً أو كيلين، وإذ به يصبح قنطاراً من العضلات والأعضاء! من حبوب القمح والأرز والجرجير والفجل، إلى جوار طاقات وعوامل يفكر بها المخ؟!

مَنْ حوّل النبات واللحوم والأسماك إلى جسم تتوزع على جلده أعصاب الإحساس والوعي)[1].

وهذا الماء الذي يتدفق من السماء مرة بعد مرة، والنبات الذي تنبثق عنه الأرض، يشبه الماء الذي يتدفق من الصلب والترائب.

والجنين الذي ينبثق من ظلمات الرحم، مشهد قريب الشبه بالنجم الثاقب الذي يشق الحجب فينشر فيها الضوء.

---

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم (٥١٢).

ثلاثة أدلة على البعث والنشور:

هذا: ولما كانت السورة في معرض إثبات القدرة على البعث، وإعادة الإنسان بعد الفناء، فقد تضمنت ثلاثة أدلة على البعث:

الأول: السماء ذات الطارق، لعظم خلقها، وعِظَم دلالتها على القدرة، فالقادر على خلقها قادر على بعث الناس بعد موتهم ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[غافر: ٥٧].

الثاني: خلق الإنسان من ماء دافق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، فالقادر على البداية قادر على الإعادة.

الثالث: إنزال المطر، وإنبات النبات، وهو إحياء الأرض بعد موتها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩].

الْوَعِيدُ بِإِظْهَارِ الدِّينِ وَإِمْهَالِ الْمُبْطِلِينَ

١٥-١٧- ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا[1] ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾

إن الناس الذين خلقهم الله تعالى من ماء دافق لا حول لهم ولا قوة، فتعهدتْهم يدُ القدرة الإلهية إلى أن رجعوا إلى الله تعالى في يوم تبلى فيه السرائر، حيث يحاسبون ويُجْزون بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهذه حقائق جاء بها القرآن، فكيف يُعْرِض عنه المكذبون، ويَرْمُونه بالهزل والباطل، وهو الفاصل بين الحق والباطل، والهدى والضلال.

ومما أخبر به القرآن أن الأموات سيعادون إلى الحياة مرة أخرة، وأن الكافر يستبعد ذلك. إن هذا لأمر عجيب، وما الحامل لهم على ذلك إلا خلْق معاذير كاذبة، ينصرفون بها عن الإيمان بالقرآن والعمل بما فيه.

إن المكذبين للرسول والقرآن، يكيدون للإسلام في أقوالهم وأفعالهم، ويمكرون به للنيل منه ويدبرون له المؤامرات لرد أمره وليذفعوا بكيدهم الحق، ويؤيدوا الباطل، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وما يمنعهم من الإيمان به إلا الجحود والاستكبار

---

(١) ترك المدنى الأول عدّ (كيداً) الأولى، وعدّها غيره، وكلهم متفقون على عدّ (كيدا) الثانية.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

والله تعالى يمهلهم ويستدرجهم، ويجازيهم على أعمالهم، وهو سبحانه مظهر دينه ولو كره الكافرون، فلا تستعجل لهم – أيها الرسول - بطلب إنزال العذاب بهم، بل أمهلهم، وأنظرهم قليلاً، وسترى ما يحل بهم من العذاب والنكال، والعقوبة والهلاك.

كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال أيضاً: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

والمعنى: إن المعارضين يدبرون لك - أيها الرسول - المكايد لإبطال دعوتك، وإني أُقابل مكرهم باستدراجهم من حيث لا يعلمون، ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر، فلا تستعجل عقابهم فإن الله منفذ فيهم وعده، وهو واقع بهم لا محالة.

وسوف ترى - أيها المخاطب - أن الله تعالى مُعْلِي كلمته، ومُظْهِرٌ دينه، وإن تخلل ذلك عقبات في بعض الأزمنة، فالعاقبة للمتقين إن شاء الله تعالى.

تم تفسير (سورة الطارق) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الأَعْلَى (٨٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الأعلى) هي السورة السابعة والثمانون في ترتيب المصحف، والسابعة أو الثامنة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التكوير) وقبل (سورة الليل)، ولم يسبقها في النزول سوى سُور: العلق، والمدثر، والمزمل، والقلم، والمسد، والتكوير.

وعن جابر بن زيد أن سورة الفاتحة نزلت بعد سورة المدثر، فسورة الأعلى من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، وقوله تعالى فيها ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الآية:٦] يشير إلى ذلك.

٢- وهي تسع عشرة آية باتفاق أهل العدد، واثنتان وسبعون كلمة، ومئتان وإحدى وتسعون حرفاً.

٣- وهي سورة مكية عند جمهور أهل العلم، واستثنى ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الآيتان:١٤،١٥] فقالا: إنها مدنيتان، نزلتا في صلاة العيد وصدقة الفطر.

٤- واشتهرت السورة باسم (سورة الأعلى) وسمّتها عائشة رضي الله عنها سورة ﴿سَبِّحِ﴾ كما سمّتها بعض كتب السنة سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فهذه ثلاثة أسماء، أشهرها الأول.

٥- والسورة تتضمن قواعد الإيمان في ثلاثة عناصر، هي مجموع عناصر القرآن المكي:

العنصر الأول: توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق بجلاله، فهو الذي خلق فأبدع، وصوّر فأحسن، وأخرج العشب والنبات رحمة بالعباد.

جاء هذا في الآيات الخمس الأول من السورة.

العنصر الثاني: إثبات الوحي الإلهي، وتقرير أن هذا القرآن من عند الله تعالى، وتبشير الرسول ﷺ بتيسير حفظه له بحيث لا ينساه، وتيسير العمل به، وهذا من [الآية ٦-٨].

العنصر الثالث: تقرير الجزاء الأخروي، ببيان أن من ينتفع بالقرآن ويستفيد من نوره، ويتعظ بهديه، هم المتقون المفلحون الذين آثروا الآخرة على الأولى، وطهَّرُوا أنفسهم من الذنوب والآثام.

أما الفريق الآخر الذي تجنَّب هذي القرآن، ولم يُطهّر نفسه من الكفر والشرك، وآثر الدنيا على الآخرة، فإن لهم نار جهنم لا يموتون فيها ولا يَحْيَوْن، وهذه القواعد الإيمانية مقررة في صحف إبراهيم وموسى، وجاء هذا العنصر من [الآية ٩-١٩] آخرها.

ورد في الأثر عن علي بن أبي طالب ﷺ أن النبي ﷺ كان يحب هذه السورة(١).

يحبها لأنها تجعل الكون كله مَعْبَداً يسبح بحمد الله تعالى ويمجّده وينزهه عن كل نقص.

ويحبها لما تحمل له من البُشْرَيات العظيمة، ومنها عدم نسيان الوحي وهدايته إلى أيسر الطرق وأقومها.

ويحبها لأن فيها توحيد الله تعالى، ومقومات العقيدة الصحيحة، وقواعد الإيمان الحقيقي.

٦ـ بعض ما ورد في سورة الأعلى من أحاديث:

١- ومما يدل على أن سورة الأعلى من أوائل ما نزل على رسول الله ﷺ: ما رواه البراء بن عازب ﷺ قال: أول مَن قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ (يعني بالمدينة) مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلا يُقرآننا القرآن، ثم جاء عمّار، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأتُ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ في سور مثلها(٢).

٢- وجاء في مشروعية التسبيح بها في السجود: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ قال: سبحان ربي الأعلى(٣).

---

(١) جاء هذا في حديث عند أحمد برقم (٧٤٢)، والبزار برقم (٧٧٥،٧٧٦)، وضعفه محققو المسند لضعف ثوير بن أبي فاختة.

(٢) البخاري (٣٩٢٤،٤٩٤١)، والمسند (٢٨٤/٤) برقم (١٨٥١٢،١٨٥٦٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن أبي شيبة (٨٢/١٤)، وابن سعد (٢٣٤/١)، وسنن النسائي الكبرى (١١٦٠١،١١٦٠٢)، والزيارة برقم (١٧٥٠).

(٣) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، كما في المستدرك (٢٦٣/١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم (٧٨٥)، وهو في المسند برقم (٢٦٦)، والطبراني (١٢٣٣٥)، والبيهقي (٣١٠/٢)، قال محققو المسند: صحيح موقوف، ورجاله رجال الشيخين، وأخرجه عبد الرزاق (٣٦٧/٢)، وابن أبي شيبة (٥٠٩/٢).

٣- وعن عقبة بن عامر ﷺ أنه لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال: (اجعلوها في ركوعكم) فلما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: (اجعلوها في سجودكم)(١).

٤- وعن أبي بن كعب ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يوتر بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾(٢).

٥- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر في الركعة الأولى بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وفي الثانية ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وفي الثالثة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين(٣). كما كان ﷺ يقرأ بها في العيدين والجمعة:

٦- وعن النعمان بن بشير ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ وإن وافق يوم جمعة، قرأهما جميعا.

وفي لفظ: وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما(٤). وكان ﷺ يقرؤها في صلاة الظهر:

٧- عن جابر بن سمرة ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾(٥) وقراءة المفصل في الصلاة من باب التخفيف بها:

---

(١) المسند (٤/١٥٥) (١٧٤١٤)، وأبوداود (٨٦٩)، وابن حبان (١٨٩٥)، والمستدرك (٢/٤٧٧)، والبيهقي (٢/٨٦) وسنده ضعيف، كما في ضعيف سنن ابن ماجة (١٨٦)، قال محققو المسند: وإسنادة محتمل للتحسين، وأخرجه الطيالسى (١٠٠٠)، والترمذى (٢٦١) عن ابن مسعود.

(٢) أبو داود (١٤٢٣)، والنسائي (٣/٢٤٤) (١٦٩٨،١٧٠٠)، وابن ماجة (١١٧١)، والدار قطني (٢/٣١)، وصححه الحاكم (٢/٢٥٧) ووافقه الذهبي، وابن حبان (٢٤٣٦)، والبيهقي (٣/٣٨)، وصحيح سنن ابن ماجة (٩٦١) وإسناده صحيح .

(٣) أبوداود (١٤٢٤)، والترمذي (٤٦٣) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجة (١١٧٣)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين (٢/٥٢٠) ووافقه الذهبي، والبيهقي (٣/٣٧)، وصحيح سنن أبي داود (١٢٦١) بإسناد صحيح، وهو في المسند عن ابن عباس (٢٧٢٥، ٢٧٢٠)، حديث صحيح (محققوه)، وأخرجه النسائى في الكبرى (٤٢٦)، وابن أبي شيبة (٢/ ٢٩٩)، وأبو يعلى (٢٥٥٥).

(٤) المسند (٤/٢٧١) (١٨٣٨٣،١٨٤٠٩) وهو حديث صحيح، ومسلم (٨٧٨)، وابن أبي شيبة (٢/١٤١)، والحميدى (٩٢٠)، وابن خزيمة (١٤٦٣)، وأبو داود (١١٢٢)، والترمذي (٥٣٣)، والنسائي (١٤٣٣)، وفي الكبرى (١٧٣٨)، وابن ماجة (١٢٨١).

(٥) صحيح مسلم (٤٦٠)، وابن أبي شيبة (١/٣٥٦).

٨- وفي الصحيح وغيره من حديث جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: (هلاّ صليت بـ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾)[1].

وفي لفظ البخاري زيادة﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[2] [العلق: ١].

٩- وعن سمرة بن جندب ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ في الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾[3].

١٠- وعن ابن عباس وسمُرة بن جندب ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين بـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾[4].

١١- وعن عمران بن حصين ﷺ أن رسول الله ﷺ صلّى الظهر، فلما سلّم قال: هل قرأ أحد منكم ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ فقال: رجل: أنا، قال: (قد علمتُ أن بعضكم خالَجنيها)[5].

فهذه جملة من الأحاديث تفيد أن من السنة قراءة سورة الأعلى في صلاة الوتر، وفي العيدين، وفي صلاة الجمعة، وفي صلاة الظهر، بالإضافة إلى غيرها.

والسنة إذا التزمها المسلم بصفة دائمة كانت فرضاً، ولكي يُفرّق بين الفرض والسنة، فإنها تُترك أحياناً حتى لا تُشبه الفرض، وحتى لا يستنكر الناس عدم قراءتها أحياناً، وليستفيد المسلمون من تنوُّع ما يُقرأ عليهم، وحتى لا يكون الاستماع إليها مجرد عادة مكررة دون الانتباه إليها والتفكير فيها.

---

(١) صحيح البخاري (٦١٠٦)، وصحيح مسلم (٤٦٥)، وابن أبي شيبة (٣٥٩/١).

(٢) وعند ابن ماجة (٨٣٦)، كما في صحيح سننه (٦٨٢)، وهو في البخاري (٧٠٥)، والنسائي في الكبرى (١١٦٠٣)، والمسند (١٤١٩٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وابن حبان (٢٤٠١)، والطيالسى (١٧٢٨)، وعبد ابن حميد (١١٠٢) من طرق أخرى.

(٣) صحيح سنن ابن ماجة (٩١٩)، وعن سمرة بن جندب في المسند (٢٠١٦٤) ورجاله ثقات بإسناد صحيح (محققوه)، والنسائي (١٤٢١)، وابن خزيمة (١٨٤٧)، وابن حبان (٢٨٠٨)، والطبراني (٦٧٧٥)، والبيهقى (٢٠١/٣)، والشافعى فى مسندة (١٤٩/١)، وابن أبى شيبة (١٤٢/٢).

(٤) صحيح سنن ابن ماجة (١٠٦١)، وفي سنن ابن ماجة (١٢٨٣)، والمسند (٢٠٠٨٠) بإسناد صحيح ورجاله ثقات (محققوه)، والطبراني (٦٧٧٣) ومواضع أخرى .

(٥) مسلم (٣٩٨)، وابن أبي شيبة (٣٥٧/١)، والبيهقي في السنن (١٦٢/٢).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

مُقَوِّمَاتُ التَّوحِيدِ الْخَالِصِ وَالإِيمَانِ الْكَامِلِ

١-٣- ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ[1] فَهَدَىٰ ۝٣﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ وأمر كل مخاطب بهذا القرآن أن يداوم على تسبيح الله تعالى بالقول والفعل، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وهذا التسبيح يشمل ذكره بأسمائه الحسنى، وذكره بأفعاله، ومنها أنه تعالى خلق المخلوقات فأتقنها وأحسن خلقها، وذلك بتنزيهه تعالى عن الشريك والولد، وجميع النقائص التي لا تليق بجلاله سبحانه، وتنزيه الله تعالى في أسمائه يشمل ما يأتي:

انواع التنزيه:

١- تنزيه أسماء الله الحسنى وصفاته العليا عن إطلاقها على ما يُعبد من دون الله تعالى، من الأصنام والأوثان، كاللاَّت، والعزى، ومناة، وهُبل، والبقرة..الخ.

فالتسبيح من الأسماء التي لا تضاف لغير الله تعالى، وكذا ما يُشتق منها من الأفعال مثل، نسبح، والمصادر مثل، سبحان، فلا يضاف شيء من ذلك لغير الله تعالى.

٢- وتنزيه أسماء الله تعالى عن اللهو، واللعب، والمزاح، والتمثيل، والتحريف، كالنطق بها في حالة من السخرية أو الاستخفاف، أو الاستهزاء، أو لإضحاك الناس، عبثاً ولهواً، أو نقْشها في الثوب أو الفراش الممتهن ونحوه، فهذا وغيره يتنافى مع جلالها وعظمتها، والخشوع لها.

٣- ومن ذلك تنزيهها عن المَواطن غير الطاهرة، وكان ﷺ إذا دخل الخلاء نزع خاتمه لما فيه من نقش محمد رسول الله ﷺ.

٤- ومن تنزيه أسماء الله تعالى وصفاته: صيانتها من الابتذال والمهانة، بإلقائها في

---

(١) قرأ الكسائي بتخفيف الدال من ﴿قَدَرَ﴾ من القدرة، والباقون بتشديدها من التقدير.

القاذورات، أو الأكل عليها وافتراشها، ونحو ذلك، كأوراق الصحف والمجلات وغيرهما[١].

٥ـ ومن ذلك تنزيه أسماء الحسنى بإثبات المعانى الدالة عليها، فصفة (القدير) تدل على القدرة، وصفة (العليم) تدل على العلم التام، وهكذا.

قال الجَمل في معنى الآية: نزه ربك عن كل ما لا يليق به، في ذاته، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، وأحكامه:

١- أما في ذاته: فأنْ تعتقد أن ذات الله تعالى ليست من الجواهر ولا من الأعراض.

٢- وأما في صفاته: فأنْ تعتقد أن ذات الله تعالى ليست مُحْدَثة، ولا متناهية، ولا متناقضة.

٣- وأما في أفعاله: فأن تعتقد أنه - سبحانه - مطلق الإرادة، لا اعتراض لأحد عليه في أمر من الأمور.

٤- وأما في أسمائه: فأن لا تذكره - سبحانه - إلا بالأسماء التي لا توهم نقصاً بوجه من الوجوه.

٥- وأما في أحكامه: فأن تعلم أنه جل شأنه ما كلّفنا لنفع يعود عليه[٢].

والمراد بالاسم في قوله تعالى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ جميع الأسماء الدالة على الله تعالى من الأعلام والصفات. هذا هو الاسم.

أما المسمى فهو ذات الله تعالى، ومعناه: تنزيه المسمى بهذه الأسماء والصفات، وهو الله تعالى.

التسبيح باسم الله، والتسبيح لذات الله:

١ ـ أما التسبيح المتعلق بالذات العلية، فمن ذلك: التفكير في عظمة الله تعالى، والنظر في ملكوته، وتنزيهه سبحانه عن كل ما لا يليق به، واستحضار تلك المعاني في ذهن العبد، ويتجدد ذلك في نفسه دائماً، فإن هذا ليس تسبيحاً باسم الله تعالى وإنما هو تسبيح لذات الله تعالى.

---

(١) ينظر تتمة أضواء البيان (١٧٢/٩).

(٢) حاشية الجمل على الجلالين (٥٢٠/٤) بتصرف.

وفي هذا المعنى يقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

ويقول أيضا: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ ـ ١٨].

وقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

فهذا النوع من التسبيح لذات الله تعالى.

وأما التسبيح باسم الله تعالى فمنه قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣ ـ ٢٤].

فهذا من التسبيح باسم الله تعالى[1].

من مواطن التسبيح:

وقد جاءت السنة بأنواع من التسبيح منها ما يقال في السجود: (سبحان ربي الأعلى)[2].

ومنها ما يقال في الركوع (سبحان ربي العظيم).

ومنها ما يقال عقب كل صلاة كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«تسبحون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وتحمدون ثلاثاً وثلاثين، وتكبرون ثلاثاً وثلاثين، وتختمون المئة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»**[3].

وحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ ما صلى صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١] إلا قال: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك،

---

(١) ينظر تفسير ابن عاشور (٣٠٢٧٣).

(٢) جاء هذا في حديث أبي هريرة عند ابن مَرْدُوَيه وغيرة كما في الدر المنثور (٣٦١/١٥).

(٣) ينظر: حديث أبي هريرة في البخاري (٨٤٣) ومسلم (٥٩٥،٥٩٧).

اللهم اغفر لي) وقالت: (يتأول القرآن)[1].

وهكذا جاء التسبيح بمعنى الذكر، وجاء الأمر به في جميع تصرفات الكلمة: المصدر، والماضي، والمضارع، والأمر.

ومن حق أسماء الله تعالى وصفاته: الدعاء بها، وتنزيهه تعالى وتسبيحه بها.

ولفظ ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ ليس من أسماء الله الحسنى، لأن أسماء الله تعالى توقيفية، وإنما هو من العلو والارتفاع، ومن أسمائه تعالى ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾.

والمراد: وصف الله تعالى بعلو المكانة، ورفعة القدر، وسُموّ الذات.

والمسلم يسجد لله تعالى مِراراً في اليوم الواحد، قائلاً (سبحان ربي الأعلى) مؤكدا قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣] ماذا لو أدرك الإنسان ومضة برق لتكْشِف له طَرفاً من علُوه سبحانه، في عالم تغيب عنا أبعاده وآماده؟ إننا نتيه في عالم الذرة، فماذا عسانا أن نفعل في عالم الغيب؟! إن مبدع هذا الكون من الصّفْر، باهر العظمة، جليل القدر، عظيم الشأن (سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك)[2].

وصْف الله تعالى لنفسه بثلاثة أوصاف:

أولها: إتقان الخلق: خلَق الله المخلوقات، وأتقن خلْقها وأحسنه، فقد أبدع سبحانه صُنعها، وجعلها بالغة الغاية في الكمال والتناسب والإحكام، فسوّى جل شأنه في كل ذي روح يديه ورجليه وعينيه وأذنيه.. الخ وجعله مستوياً، معتدل القامة، حَسَن الهيأة، جميل الشكل، ولم يجعله متفاوتاً غير ملتئم ولا متسق.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ قوّم وعدّل، وجعل كل مخلوق على أحسن ما خُلق له.

وقد خلق الله السموات، وقوّى بناءها، وأعلى سُمكها، وأحكم سقفها، وزيّنها بالنجوم.

وخلق الأرض ودحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، وجعلها فراشاً ومهاداً.

---

(١) ينظر الحديث في البخاري (٤٩٦،٧٩٤)، ومسلم (٤٨٤)، والمسند (٢٤١٦٣،٢٤٦٨٥)، وعبد الرزاق في المصنف (٢٨٧٨)، وأبوداود (٨٧٧)، وابن ماجة (٨٨٩)، والنسائي (١٠٤٦)، وفي الكبرى (١٠/١١١).

(٢) من حديث أبى سعيد (١١٦٥٧،١١٤٧٣) وإسنادة ضعيف لضعف جعفر بن سليمان تفرد بهذا الحديث وهو مختلف فيه ،وأخرجه ابن أبى شيبة (٢٣٢/١)، والنسائى فى الكبرى (٩٧٣)، وابن ماجة (٨٠٤) وغيرهم.

وجعل الجبال أوتاداً للأرض، وخلَق الأشجار فسواها وجعَلها صالحة للثمار والوقود، وغير ذلك: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

ثانيها: هداية كل مخلوق لما خُلق له:

وضع الله سبحانه لكل مخلوق وظيفة وغاية، ووضع له نظاماً لا يَعْدُوه، وهَدَى كل مخلوق إلى ما خُلق من أجله، وألْهمه إلى ما يُصلح بقاءه وحياته.

فقدّر له رزقه، وهداه لاكتسابه، وقدّر له عمله، وهداه لاكتسابه، وقدّر له السعادة والشقاء، وهداه لاكتسابهما، فالتقدير من لوازم الخلق، وهكذا هدى الله الإنسان لوجه الانتفاع بما أودعه فيه من ملَكات، كما هداه لاستخراج الأدوية والعقاقير النافعة من النباتات، وهداه إلى استخدام الحديد في صُنْع المدافع والطائرات، وهكذا قدّر الله تعالى أجناس الأشياء وأنواعها، وهدَى كل مخلوق إلى ما يصدر عنه، ويسره لما خلقه له.

فهذه هداية عامة لجيمع المخلوقات، ومن ذلك هداية الأنعام إلى مراعيها..

قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [القمر: ٤٩].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [الطلاق: ٥٠].

وفي حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**» قال: «**وكان عرشه على الماء**»[1].

وكل مخلوق ميسر لما خلق له:

١ - فقد قدّر الله في العالم العلوي مقادير، وهدى الملائكة لتنفيذها.

٢ - وقدّر سير الأفلاك، وهداها إلى ما قُدِّرَ لها ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

٣ - وقدّر للأشجار والزروع والنباتات أزمنة معينة لِنُضْجِها وإيتاء أكلها، وهداها إلى

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٥٣)، والترمذي (٢١٥٦)، والبيهقي (٧٩٨).

ما قُدر لها.

٤ - وقدّر للإنسان إدراك وإرادة، وجعله قابلاً للنطق والعلم والصناعة بما أودع فيه من العقل والجوارح.

٥ - وقدّر للنحل إنتاج العسل، وألهمه أن يرعى الثمار، وأن يبني خلاياها السداسيّة.

٦ - وقدّر للبقرة درّ الحليب، وألهمها الرعْي، ورعاية ولدها، وحرث الأرض.

٧ - وقدّر للطيور غريزة العودة إلى الموطن بعد أن تغدو خماصاً وتروح بطاناً.

٨ - وقدّر للحصان أن يلزم الطريق مهما اشتدت ظلمة الليل، فهو يرى ولو في غير وضوح.

٩ - وقدّر للعنكبوت أن يصنع لنفسه عُشًا على شكل (بالون) ينسجه من خيوطه، ليعيش فيه، ويلد صغاره ويربيها آمنة من هبوب الهواء.

١٠- وقدّر للسمك الصغير أن يعيش سنوات في البحر، ثم يصعد إلى جانب النهر، ومن ثم يرجع إلى مكان مولده[1].

١١ - الوا: إن مقدار الماء في الأرض لا يزيد ولا ينقص، فالإنسان والحيوان والنبات وشتى الأحياء، تستهلك منه الكثير، ثم إنه يعود مرة أخرى إلى البحار مَطَراً، بعدما خرج منه بخاراً، لا يزيد ولا ينقص!! وهذا من تقدير الله سبحانه وهدايته للكائنات.

أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد في معنى ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قال:
هدي الإنسان للشقوة والسعادة، وهدي الأنعام لمراتعها.

ثَالِثُهَا: إِحْيَاءُ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا

٤، ٥- ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾

أي: أنه تعالى أنبت الكلأ الأخضر الذي ترعاه الدواب من الحشائش والأعشاب، فجعله بعد نُضرته وخُضرته متغيراً هشيماً يابساً أسْوَداً حتى يُقدّر له الفناء.

وقد خلق الله الأرض وقدّر فيها أقواتها لكل كائن حي يدبّ فوق ظهرها، أو يختبىء

(١) هذه النقاط بعضها مستفاد اختصارا من كتاب في ظلال القرآن ٣٨٨٣/٦ وما بعدها.

في جوفها، أو يطير في جوها.

والمرعى يكون في أول أمره خَضِراً، ثم يذبل، فإذا هو غثاء أحوى، أي يميل إلى السواد بعد أن كان ناضراً زاهياً.

وقد يصلح هذا المرعى للطعام وهو أخضر، وقد يصلح للطعام بعد أن يكون هشًّا يابسًا.

وكل ذلك بتقدير الله تعالى، فهو الذي خلق فسوى، وهو الذي قدر فهدى.

فقد أنزل الله من السماء ماءً فأنبت به النبات والعشْب، فطعم منه الإنسان والحيوان.

وبعد أن استكمل هذا النبات نُضرته وخُضرته ذَبل واسودّ، وصار هشيمًا رميمًا.

وهذا يُذَكِّر الإنسان بأصله ونشأته ونهايته.

قال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥].

وفي آية أخرى قال سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ [يونس: ٢٤].

وقد مثّل الله تعالى بهذا المثل كثيراً فقال أيضا: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٢١].

والذي حوّل الزرع الأخضر إلى زرع يابس جاف ، قادر على إحياء الإنسان بعد موته.

وفي هذا دلالة على كمال قدرة الله تعالى وتنوع نعمه، وهكذا خلق الله الإنسان.

﴿مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ ﴾ [الروم: ٥٤].

بشارتان عظيمتان للنبي ﷺ

٦، ٧- ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾

البشرى الأولى: عدم نسيان الوحي: وبعد أن فرغت السورة من العنصر الأول فيها وهو إقامة بعض دلائل التوحيد والقدرة، شرعت في الحديث عن العنصر الثاني وهو: تيسير حفظ القرآن للنبي ﷺ وتوفيقه للعمل بما فيه، فقال تعالى عن الشق الأول ﴿سَنُقْرِئُكَ

﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ سنقرئك - يا رسولنا - هذا القرآن، فتحفظُه في صدرك ولا تنساه.

وهذه بشارة عظيمة من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ، أن الله تعالى سيعلمه علماً لا ينساه.

وكان جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحي على رسول الله ﷺ لم يَفْرَغْ من آخر الكلمة حتى ينطق الرسول بأولها مخافة أن ينساها، فأنزل الله تعالى يقول له: اطمئن – أيها النبي – فإن الذي اختارك سيُعينُك حتى تؤدّي رسالتك، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

وهذا وعد وبشرى من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن يقرئه قراءة لا ينساها، ولو شاء لأزاله من صدره كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦].

وفي هذا معجزة للنبي ﷺ لأنه كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يأخذ عن نبيّ ولا عن كتاب قبله، ومع ذلك فهو لا ينسى، ما يقرأه، وهذا من أعظم البراهين على صدق الرسالة.

والسورة من أوائل ما نزل على النبي ﷺ فالإخبار بذلك، إخبار بأمر غيبي.

استثناء النسخ والنسيان من البشري:

ثم استثنى سبحانه من عدم النسيان فقال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ﴾ أي إلا ما قدّر الله أن ينسيك إياه، لحكمة اقتضت ذلك، أو لمصلحة يعلمها سبحانه، وهذا النسيان إذا شاء الله تعالى على نوعين:

النوع الأول: نسخ تلاوة بعض ما أُنزل على النبي ﷺ ونسخ حكمه فيأمره بترك قراءته وترك حكمه وترك العمل به لحكمة أرادها الله تعالى، وكل ما ورد في ذلك من أخبار الآحاد لم تثبت به رواية، وهذا بخلاف ما نُسخت تلاوته وبقي حكمه، فكثير من العلماء يرى أنه من أحاديث الرسول ﷺ ولم يثبت بالتواتر أنه من القرآن، كما في نَسْخ حكم الرجم.

كما ورد عن عمر ﷺ أنه قال: كان فيما أنزل: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) قال عمر: لقد قرأناها ووعيناها وعقلناها ورَجَمَ

رسول الله ﷺ ورَجَمْنا بعده[1].

وأنه كان فيما أنزل «لا ترغبوا عن آبائكم، فإن كُفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم».

ولفظ أبي هريرة ﷺ: «فإن من رغب عن أبيه فإنه كُفرٌ»[2].

وهذا مما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

النوع الثاني: ما يعرض للإنسان من النسيان البشَرِي، نسياناً مؤقتاً، كما يعرض لحافظ القرآن وهو يقرأ في صلاته أو غيرها، فيُقيِّض الله له من يذكِّره.

كما صح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سمع النبي ﷺ رجلاً يقرأ من الليل في المسجد، فقال: يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا، آية، أسْقَطْتُهُنّ، أو كنتُ أُنسيتها من سورة كذا وكذا» وكان النبي ﷺ قد أسقط آية في الصلاة، فسأله أبيّ بن كعب: أُنسِخَتْ؟ فقال: «نَسِيتُها»[3].

ثم بين سبحانه الحكمة في عدم نسيان الرسول ﷺ لما يقرأ، واستثناء ما يُنسخ تلاوته وحكمه، وما يعتري البشَر من النسيان العارض، كما قال ﷺ من حديث ابن مسعود ﷺ «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»[4].

ولكن هذا النسيان لا يحصل بالنسبة لتبليغ الرسالة بحالة من الأحوال، ولا بإسقاط شيء من الوحي، حيث بيّن جل شأنه أنه يعلم الجهر وما يخفى، وأن ما يقرأه الرسول ﷺ من القرآن جهراً، فالله يعلمه، وما يُسقطه بسبب نَسْخِه فهو من قبيل الخفي الذي لا

---

(١) النسائي في السنن الكبرى (٧١١٣،٧١١٥،٧١١٨)، وهو عن أبيّ بن كعب في الطيالسي (٥٤٠)، وعبد الرزاق (٥٩٩٠)، والمسند (٢١٢٠٧) بإسناد فيه عاصم بن بهدلة، وفي البخاري عن ابن عباس (٦٨٢٩،٧٣٢٣)، ومسلم (١٦٩١)، وأبو داود (٤٤١٨)، وابن ماجة (٢٥٥٣)، والترمذي (١٤٣٢).

(٢) من حديث عمر في المسند (٢٢١)، وعن أبي هريرة (١٠٨١٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، ورواه البخارى (٦٧٦٨)، ومسلم (٦٢)، والطحاوى فى شرح مشكل الآثار (٨٥٣).

(٣) صحيح البخاري برقم (٢٦٥٥،٥٠٣٧،٥٠٤٢،٦٣٣٥)، وصحيح مسلم (٧٨٨).

(٤) من حديث ابن مسعود في البخاري (٤٠١،٤٠٤،١٢٢٦،٦٦٧١،٧٢٤٩)، ومسلم (٥٧٢).

يعلمه إلا الله أيضاً.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ﴾ من القول والعمل ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ منهما، أي يعلم السر والعلن، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وفي هذه الآية ضمان من الله تعالى بحفظ القرآن من النقص والزيادة، وفيها بيان أن الله تعالى يشرع لعباده ما يصلح شؤونهم في الدنيا والآخرة.

البُشْرَى الثَّانِيَةُ: تَيْسِيرُ الشَّرِيعَةِ وَمَظَاهِرُهُ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا

٨- ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ[1]﴾

أما الشق الآخر المتعلق بجانب الوحي والرسالة في السورة، فهو بيان أن الله تعالى قد أنزل على رسوله كتاباً خالداً، وبعثه بالحنيفية السمحة، ويسره لليسرى في جميع أموره، وجعل شرعه ودينه يسراً، فقال سبحانه ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي نُهَوِّن عليك عمل الجنة، ونيسره لك، ونوفِّقك إلى جميع أمورك في الدين والدنيا، ومن ذلك إعانته ﷺ في تلقِّي أعباء الرسالة وتبليغها للناس، وجعْل دينه يسراً لا عسر فيه، سمحاً، مستقيماً، وسطاً، لا عوج فيه ولا حرج، فالإسلام هو أيسر وأسهل الشرائع السماوية.

وقد وعد الله تعالى أن يوفق أهل الفطرة السليمة لأسباب السعادة، فيُقرِّب لهم البعيد، ويسهل عليهم العسير، وييسر لهم الخير في الدنيا والآخرة، والآية اشتملت على تيسيرين:

أحدهما: تيسير ما كَلَّف الله به أمته، وجعْله سهلاً لا مشقة فيه، مع وفائه بالمقصود.

وثانيهما: التيسير على الأمة في القيام بما كُلِّفت به.

وفي الحديث عن علي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»[2].

ومن ذلك قوله ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ «**فإنما بعثتم ميسرين لا معسرين**»[3].

---

(١) قرأ أبوجعفر بضم السين من ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ والباقون بإسكانها.

(٢) رواه البخاري (٦٦٠٥،١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٣) من حديث أبي هريرة ﷺ في البخاري (٢٢٠،٦١٢٨).

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ «**ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن فيه إثماً، فإن كان فيه إثم كان أبعد الناس منه**»(١).

ويوضِّح هذا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠] ومن مظاهر التيسير في أحوال الدنيا:

١- أن النبي ﷺ كان إذا خلا في بيته، كان ألْين الناس، بسَّاماً ضحّاكاً. وكان يخصِف نعله، ويُرقّع ثوبه، ويكون في خدمة أهله. وكانت الأمَةُ تأخذ بيده فتنطلق به حيث شاءت.

٢- وكان ﷺ لا يتكلف في ملابسه، ويخص المجامع والأعياد بفاخر الثياب، ويلبس عمامة، يُرْخِي لها ذؤابة بين كتفيه أحياناً، وأحياناً يترك هذه الذؤابة، ويلبس ما تيسر من الصوف أو القطن أو الكتان وغير ذلك.

٣- وفي طعامه كان ﷺ لا يَرُدّ موجوداً، ولا يتكلف مفقوداً، وما عاب طعاماً قط، فإن عافت نفسه شيئاً تركه من غير أن يُنَفِّر منه غيره، وكان يحب أكل الحلوى والعسل والتمر والرطب وشرب اللبن ونحو ذلك.

٤- وربما نام على الفراش، أو على الحصير، أو على النِّطَع، وهو فراش من جلد، أو نام على الأرض، أو على السرير.

٥- وكان النبي ﷺ سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى(٢).

ويقول ﷺ: «**إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة: أحاسنهم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠،٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) انظر صحيح البخارى برقم (٢٠٧٦) بلفظ «رحم الله رجلاً سمحاً» من حديث جابر، وفى المسند عن عثمان برقم (٤١٠).

(٣) ينظر حديث جابر في الترمذي (٢٠١٩) بإسناد حسن، وحديث أبي ثعلبة في المسند (١٩٣/٤)، وابن حبان (١٩١٧)، وحديث أبي هريرة في المسند (٣٦٩/٢)، وعبد الله بن عمرو (٦٥٠٤) بنحوه بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأبي بن كعب (٦٧٦٧).

وكان ﷺ يعالج الناس بما يصلح شأنهم، فمن كان همه المال أعطاه حتى يَرْضَى، ومن كان همه الفخر حقق له غرضه كقوله ﷺ: **«ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»** علماً بأنه لا حاجة لأحد في دخول دار أبي سفيان، لأن من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق بابه فهو آمن[(١)].

أما التيسير في الدين فمن مظاهره:

قوله ﷺ فيما يرويه أنس ﷺ **«إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق»**[(٢)].

وقوله ﷺ فيما يرويه أبوهريرة ﷺ **«إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»**[(٣)].

وقوله ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ **«إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا»**[(٤)].

وعن بُريدة الأسلَمي ﷺ قال: خرجت ذات يوم لحاجة، فإذا أنا بالنبي ﷺ يمشي بيْن يَديَّ، فأخذ بيدي، فانطلْقنا نمشي جميعاً، فإذا نحن بيْنَ أيدينا برجل يصلي، يكثر الركوع والسجود، فقال النبي ﷺ: **«أتُراه يُرائي؟»** فقلت: الله ورسوله أعلم، فترك يَدِي من يده، ثم جمع بين يديْه، فجعل يُصَوبُهُما ويرفعُهما ويقول: **«عليكم هَدْياً قاصداً، عليكم هَدْياً قاصداً، عليكم هَدْياً قاصداً، فإنه من يُشادَّ هذا الدين غلبه»**[(٥)].

ومن الناس من يجعل نفسه أحرص على شرع الله تعالى من رسول الله ﷺ.

ومنهم من يجعل نفسه أغير من الله تعالى على شرعه، وهذا تنطّع وغُلُو، وتنفير

(١) من حديث النبي ﷺ يوم فتح مكة في صحيح مسلم (١٧٨٠)، عن أبي هريرة.

(٢) من حديث حسن بشواهده كما في المسند (١٣٠٥٢)، وأخرجه الضياء فى المختارة (٢١١٥).

(٣) البخاري (٣٩)، ومسلم (٢٨١٦)، وانظر في البخاري (٥٦٧٣،٦٤٦٣،٧٢٣٥)، والنسائي (٥٠٤٩)، والبيهقي في الشعب (٣٨٨١).

(٤) ينظر: المسند (٧٥٠١،٨١٤٤،٩٧٨٠،١٠٦٠٧) وإسنادة صحيح، وأخرجه الطبرانى فى الدعاء (١٠٩)، والبخارى (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧)، والترمذى (٣٥٠٨).

(٥) قال محققو المسند (٢٢٩٦٣): إسناده صحيح، وأخرجه الحاكم من طريق عبد الله بن أحمد (٣١٢/١)، وابن خزيمة (١١٧٩)، والبغوي (٩٣٦) وغيرهم.

للناس من دين الله، ومُخالفةٌ لقول النبي ﷺ «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»[1].

وقد وصف الله تعالى هذه الرسالة بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

وهكذا فقد بشر الله تعالى رسوله ﷺ ببشارتين عظيمتين:

أولاهما: أن الله تعالى سيلهمه الذاكرة الواعية التي تحفظ ما يوحى إليه به، وهذا معنى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦].

وثانيهما: توفيق النبي ﷺ وهدايته إلى الشريعة السمحة الميسرة، وإلى الأخذ بما هو أرفق وأيسر في كل أحواله، وهذا معنى ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

يَنْتَفِعُ بِالْمَوْعِظَةِ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْحَيِّ

٩، ١٠ - ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾

وبعد أن تكفل الله تعالى للرسول ﷺ بحفظ الوحي، ودفْع النسيان عنه، وبشَّره بتسيير أمور الدين عليه وعلى الأمة، أَمَرَهُ بالمداومة على البلاغ بتذكير الناس ووعْظِهم، والاستمرار على ذلك، شحْذاً للهمة، وتجديداً للنشاط.

﴿فَذَكِّرْ﴾ بشرع الله وآياته، وعظ - يا رسولنا - بالقرآن، من ينتفع بالموعظة، واتبع في ذلك: أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، واهتمَّ في دعوتك بمن تتوقع منهم قبول الدعوة، وأعرض عن الجاحدين المكابرين بعد الاجتهاد في تذكيرهم وإقامة الحجة عليهم ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

ذكِّر مادامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء أحصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه، فإن كانت الذكرى تزيد في الشر أوتنقص من الخير، فلا داعي لها.

---

(١) من حديث أنس بن مالك في البخاري (٦٩، ٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤).

وفي قوله تعالى: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ حث وتحريض للنبي ﷺ ولجميع الدعاة إلى الله عزوجل على تبليغ الدعوة، والمداومة على التذكير بها.

فلفظ ﴿إِن﴾ ليس شرطاً، وإنما معناه الذم لمن لم ينتفع بالذكرى، فإن لم ينتفع بها جميع الناس، فسينتفع به بعضهم، فلا تخلو الأرض ممن يستمع للحق ويستجب له.

ففرعون وأبوجهل وأبولهب وهامان وقارون ونحوهم مدعوُّون للإيمان، والله تعالى يعلم أنهم لن يؤمنوا، لكن النبي ﷺ مأمور أن يدعو الناس جميعاً، وسيكشف الواقع، ويفرّق بين أمة الدعوة وأمة الإجابة.

قال علي ﷺ: ما أنت بمحدِّثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم.

وقال: حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله[1].

ثم بيّن سبحانه أنه سينتفع بالتذكير ويتعظ بالقرآن صاحب القلب الحي، الذي يخشى الله ويخاف عقابه ويرجو ثوابه ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وغير المتقين لا يقبلون الهدى، فيستوى عندهم الإنذار وعدمه.

فالناس بالنسبة للذكرى على قسمين: منتفعون تخشع قلوبهم، فيسعون في الخير وينتهون عن الشر ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ وغير منتفعين بالذكرى، يزدادون شقاء في الدنيا وعذاباً في الآخرة ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ أي يتجنب الانتفاع بالذكرى أهل الشقاء.

مَصِيرُ مَنْ عَطَّلَ عَقْلَهُ وَحَوَاسَّهُ عَنْ الانْتِفَاعِ بِهَدْيِ الإِسْلَامِ

١١-١٣- ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾

أي فيبتعد عن هذه الذكرى، ولا ينتفع بها، الذي لا يخشى ربه ولا يخاف عقابه، بل يرفضها ولا يقبلها، ومعنى ذلك أن الناس على ثلاثة أقسام:

منهم المقطوع بنفعه من الدعوة، ومنهم المقطوع بعدم نفعه منها، ومنهم المحتمل.

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٨٠)، والأثر في البخاري (١٢٧).

ومحل التذكير: هو الصنف الأول والثالث، أما الصنف الثاني فقد وصفه الله تعالى بالأشقى، لأنه شديد البُعد عن النصيحة، شديد الشقاوة والتعاسة، يأبى الإصرار على الكفر والعناد، وليس لخشية الله تعالى محلاً في قلبه.

وهذا الأشقى المصرّ على الكفر حتى الموت، سيدخل يوم القيامة أشدَّ طبقات النار سعيراً، في أسفل الدركات، يُقاسي حرها ويخلّد فيها، وهي نارموقدة تطلع على القلوب والأفئدة.

قال الحسن: النار الكبرى، نار الآخرة، والنار الصغرى، نار الدنيا[1].

وقيل: وصُفَتْ بالكبرى: للتهويل والإنذار، بالنسبة للمُصِرّين على كُفْرهم.

ثم إن أهل النار الكبرى مخلدون فيها دائماً، لا يموتون فيستريحون، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يزول عنهم الإحساس، ولا يحيَوْن حياة تنفعهم.

فهم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

إنه عذاب دائم من غير راحة ولا استراحة حتى إنهم يتمنون الموت فلا يحصل لهم.

وهم لا يخرجون من النار أبداً ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢] وخازن النار لا يستجيب لاستغاثتهم:

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

ومعنى ذلك أن احتراق الكفار في النار لا يبلغ درجة الإهلاك، بل تبقى معه حياة وإحساس ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وعن أبي سعيد الخدرى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إن أهل النار الذين لا يريد الله إخراجهم، لا يموتون فيها ولا يَحْيَوْن، وإن أهل النار الذين يريد الله إخراجهم، يُميتهم فيها إماتة، حتى يصيروا فحماً، ثم يخرجون ضبائر فيُلقوْن على أنهار الجنة، أو يُرشُّ

(١) البحر المحيط (٨/٤٥٩).

عليهم من أنهار الجنة، فينبتُون كما تنبت الحبّة في حميل السيل»[١].

ثَلاثُ خِصَالٍ لأَهْلِ السَّعَادَةِ

١٤، ١٥ - ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾

قد فاز وربح من طهر نفسه بالتوحيد، ونقّاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق، وذكَر الله تعالى في كل أحيانه، وفي مقدمة هذا الذكر أداء الصلاة المفروضة والنافلة، وأخرج زكاة ماله وتصدق به في وجوه الخير، ومن ذلك صلاة العيد وزكاة الفطر، وفي كل هذا ثلاث خصال:

الخصلة الأولى: تزكية النفس بالعقيدة الصحيحة:

وفي مقابل هذا الشقاء الدائم - السابق ذِكْره بالنسبة لأهل الجحيم - يفوز بالجنة والنعيم من طهّر نفسه بالإيمان، وأخلص عمله للرحمن، وزكّى نفسه من الأخلاق الرديئة، لأنه قد جمع أنواع الخير والفلاح.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩ - ١٠] فقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ تشمل أصول الإيمان، من تزكية النفس بالتوحيد وطهارتها من الشرك: والاستعداد للعمل الصالح.

كما تشمل زكاة الأموال، وهو قول ابن عباس وعطاء وعكرمة وقتادة.

وجاء عن أبي سعيد الخدري ﷺ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ قال: أعطى صدقة الفطر[٢].

وقال أبوالعالية: إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها، ومن سقاية الماء[٣].

قال ابن كثير: وكذا روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس

---

(١) المسند (١١/٣) وهو حديث صحيح برقم (١١١٥١)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥)، وأخرجه عبد بن حميد في المنتخب (٨٦٣)، وابن خزيمة في التوحيد (ص٢٨٧)، وابن حبان (٧٤٣٢).

(٢) تفسير الخازن (٣٧٠/٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٣٨١/٨).

بإخراج صدقة الفطر، ويتلوا هذه الآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾.

الخصلة الثانية: استحضار عظمة الله تعالى بذكره وتسبيحه:

أي قد أفلح وفاز ونجا من انتفع بالذكرى والموعظة، فطهّر نفسه من العقائد الباطلة، وزكّاها بالتوحيد الخالص، والعقيدة الحقّة، وطهّرها من سوء الأخلاق وفساد الأعمال والأقوال.

الخصلة الثالثة: الإقبال على الله تعالى بالطاعة والعبادة:

وذلك بأداء الصلوات الخمس التي فرضها الله عليه، وإضافةِ ما استطاع إليها من النوافل، وامتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه ، وقد وردتْ آثار تخص بالذكر صلاة العيد وزكاة الفطر.

وذلك أنه بعد إخراج زكاة الفطر، يَخْرُج المسلم إلى صلاة العيد، مهلّلاً مكبراً، موحداً ربّه، عاملاً بما يُرضيه، ابتغاء مرضاة الله تعالى، وامتثالاً لشرعه.

قال أبوسعيد الخدري ﷺ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ أي خرج إلى العيد فصلّى.

وكان ابن مسعود ﷺ يقول: رحم الله امرأً تصدّق ثم صلّى، ثم يقرأ هذه الآية.

وقال نافع: كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا صلّى الغداة، يوم صلاة العيد، قال: يا نافع، أخْرَجْتَ الصدقة؟ فإن قلتُ: نعم، مضى إلى المصلّى، وإن قلتُ: لا، قال: الآن فأخرِج، فإنما هذه الآية في هذه.

ولهذا: قيل: إن هاتين الآيتين نزلتا بالمدينة، وقال بعضهم: إنَّ نزولهما سابق على حكمهما.

كما نزل قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] قال عمر: كنت لا أدري، أي جمع سيهزم، فلما كان يوم بدر، رأيت النبي ﷺ يَثِب في الدرع ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

ومعنى ذلك أن هزيمتهم كانت في علم الله تعالى فأُخبِر بها مسبقاً.

ولهذا قيل: أراد بالذكر: تكبيرات العيد، وبالصلاة صلاة العيد.

قال أبوسعيد وابن المسيب وابن عمر: هذه الآية في صبيحة يوم الفطر.

ومعنى ﴿تَزَكَّىٰ﴾ أدى زكاة الفطر، ومعنى ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ أي ذكر الله تعالى وهو في

طريقه إلى أن يخرج الإمام إلى صلاة العيد[1].

وهكذا رتب الله تعالى هذه الخصال الثلاث وهي:

تزكية النفس، وذكر الله تعالى، ثم أداء الصلاة، رتَّبها ترتيباً حسناً، حيث بدأ أولاً بتطهير النفس من العقائد الباطلة، وإزالة العوائق من طريق الإيمان الصحيح.

ثم ثنّى باستحضار عظمة الله تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته عن طريق ذكر اسم الله تعالى رجاء رحمته وخشية عذابه.

ثم ثلّث بالإقبال على الله تعالى بالطاعة والعبادة وأهمها أداء الصلاة في أوقاتها.

التَّنَافُسُ عَلَى حُظُوظِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

١٦، ١٧ - ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ [2] ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾

وبعد أن ذكر سبحانه أهل الشقاء وأهل السعادة، بيّن تعالى أن التنافس على حظوظ الدنيا والآخرة، هو سبب السعادة أو الشقاء، فمن آثر الدنيا على الآخرة، فقد خاب وخسر، ومن آثر الآخرة على الدنيا فقد فاز وربح، والمؤمن يأخذ حظه المشروع من الدنيا ويَرْغَب فيما عند الله أكثر.

كما قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [القصص: ٧٧]. وقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح: ٧ - ٨].

فالغفلة، وإيثار الدنيا على الآخرة، والإعراض عن ذكر الله تعالى هو أساس كل بلوى، إنكم تفضلون زينة الحياة الدنيا على نعيم الآخرة، وتختارون النعيم الزائل على النعيم الباقي.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/٤٧٠).

(٢) قرأ أبوعمرو بياء الغيب في ﴿ تُؤْثِرُونَ ﴾ والباقون بتاء الخطاب، وأبدل الهمزة ياء ورش وأبوجعفر وأبوعمرو بخلف عنه، وحمزة عند الوقف، وللأزرق ترقيق الراء وتفخيمها.

مال له، ولها يجمع من لاعقل له»[1].

أما الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم فهي خير من الدنيا وأبقى من حطامها، فالدنيا متاعها زائل، والآخرة خيرها باق قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧] وقال جل شأنه ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧].

فالدنيا فانية، والآخرة باقية، والباقي خير من الفاني، والعاقل يُؤْثِر ما يبقى على ما يفنى.

أخرج ابن جرير بسنده عن عرفجة الثقفي قال: استقرأتُ ابن مسعود، أي طلبتُ منه أن يقرأ سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] فلما بلغ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٦] ترك القراءة، وأقبل على أصحابه، وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة! فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا، لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزُويتْ عنا الآخرة، فاخترنا هذا العاجل، وتركنا الآجل[2].

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[3].

وقد وصف الله تعالى الدنيا في قوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤] روى القرطبي عن مالك بن دينار قوله: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان الواجب أن يؤثَرَ خزفٌ يبقى، على ذهب يفنى، فكيف والآخرة من

---

(١) المسند (٧١/٦ (٢٤٤١٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (١٨٨/١٠) رجاله رجال الصحيح غير زويد وهو ثقة، والبيهقي (١٠٦٣٨)، وقد ضعف إسناده محققو المسند، ورواه ابن أبى الدنيا فى (ذم الدنيا) (١٨٢)، والبيهقى فى الشعب (١٠٦٣٨).

(٢) تفسير الطبري (١٠٠/٣٠)، والطبراني (٩١٤٧)، والبيهقي (١٠٦٤٥)، قال الهيثمي: فيه عطاء بن السائب وقد اختلط وبقية رجاله ثقات، المجمع (٢٣٦/١٠).

(٣) المسند (٤١٢/٤) (١٩٦٩٧)، وصحيح ابن حبان برقم (٢٤٧٣) موارد الظمآن من طريق يعقوب بن عبدالرحمن عن عمرو بن أبي عمرو، والبيهقي في الشعب (١٠٣٣٧)، وفي السنن (٣٧٠/٣)، قال محققو المسند: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف.

ذهب يبقى، والدنيا من خزف يفنى؟

وقد أجمل الله ألوان المتاع في الدنيا، وبيَّن أنه يتمثل في: النساء والبنين، والمال والخيول، والأنعام، والأرض﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [عمران: ١٤].

فمتاع الأنعام والأرض، لفِئَةٍ من الناس، هم أهل الزراعة، وهم طائفة كبيرة من الخلق.

والخيول متاع لطائفة أخرى من الناس مترفة.

وحب النساء يولع به طائفة أخرى، وهكذا المال والذرية والجاه..

وبعد ذكر شهوات الدنيا هذه قال تعالى:﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٥].

فأسباب إيثار الدنيا هو الشهوة وقسوة القلب، وطول الأمد، والتسويف هو أساس الغفلة وإيثار الدنيا كما قال تعالى:﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وكما قال سبحانه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [الكهف: ٤٦].

والخشية والتذكر، هما أساس إيثار الآخرة، وهي دار خلد وبقاء وصفاء، والدنيا دار فناء وأكدار، والعاقل لا يبيع لذة ساعة بسعادة دائمة، ولا يختار الأرد أو يترك الأجود.

وقد وصف الله الداء والدواء معاً في قوله تعالى:﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢٠ – ٢١].

فبين الله تعالى أن الداء هو دار الغرور، وأن الدواء هو المسابقة إلى الخيرات.

جُذُورُ الإِسْلَامِ فِي الرِّسَالَاتِ السَّابِقَةِ

١٨، ١٩ - ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾

وفي ختام السورة بين سبحانه وتعالى أن دعوة الإسلام عريقة في القِدَم، ممتدة الجُذور في جميع الأزمنة والأمكنة ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور لكم في هذه السورة من الأوامر الحسنة والخصال الحميد ﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ وفسرت هذه الصحف الأولى بأنها نزلت على إبراهيم وموسى عليهما السلام.

والضمير في ﴿هَٰذَا﴾ إما أن يعود على كل ما جاء في السورة، كما قال أبوالعالية وغيره.

واختار ابن جرير وغيره أنه يعود على الآيات الأربع الأخيرة، وهي ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] إلى ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧] قال: ومضمون هذا الكلام في الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى[1].

وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: كلها في صحف إبراهيم وموسى. يعني﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٦ - ٣٧] وما بعدهما.

وقد ذكر الله عز وجل أشياء من صحف موسى، وصحف إبراهيم في ثماني عشرة آية من سورة النجم من قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ [النجم: ٣٦] **إلى قوله:** ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ [النجم: ٥٤].

والمعنى: أن هذه المعاني مذكورة في جميع صحف الأنبياء، وفي صحف إبراهيم وموسى على وجه الخصوص، فجميع الشرائع متفقة عليها.

جاء في الأثر عن رزين[2] أن أباذر ﷺ قال: دخلتُ المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «**إن للمسجد تحية**» فقلت: وما تحيته يا رسول الله، قال: «**ركعتان تركعهما**»، قلت: يا رسول

---

(١) تفسير الطبري (٣٠/١٠١).

(٢) كما في جامع الأصول.

الله، هل أنزل الله عليك شيئاً مما كان في صحف إبراهيم وموسى، قال: «يا أباذر، اقرأ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ الخ السورة.

قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟

قال: «كانت عبراً كلها: عجبتُ لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ عجبتُ لمن أيقن بالنار كيف يضحك؟ عجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلّبها بأهلها، كيف يطمئن؟ عجبتُ لمن أيقن بالقدَر ثم ينصَب؟ عجبتُ لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل»[١].

ونظير هذا قول النبي ﷺ من حديث أبي مسعود الأنصاري: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[٢].

وعن أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، كم أَنزل الله من كتاب؟ قال: «مئة كتاب، وأربعة كتب، على آدم عشر صحف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان»[٣].

وفى حديث واثلة بن الأسقع ﷺ أن النبى ﷺ قال أنزلت صحف إبراهيم فى ثلاث عشر مضين من رمضان ، وأنزل الإنجيل على عيسى فى ثلاث عشر ليلة مضتْ من رمضان وأنزل زبور داود فى ثمانى عشرة ليله مضتْ من رمضان ،وأنزل الفرقان على محمد ﷺ فى الرابعة والعشرين لستٍّ بقين[٤].

تم تفسير (سورة الأعلى) ولله الحمد والمنة

---

(١) ابن عساكر مطولا (٢٣/٢٧٦ - ٢٧٨).

(٢) من حديث أبي مسعود الأنصاري في البخاري (٣٤٨٤، ٦١٢٠)، والمسند (١٧٠٩٠، ١٧١٠٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وعن حذيفة (٢٣٢٥٤)، والبزار (٢٨٣٥)، والطيالسى (٦٢١)، وعبدالرزاق في المصنف (٢٠١٤٩).

(٣) أخرجه عبد بن حيمد وابن مردويه وابن عساكر مطولاً (٢٣/ ٢٧٦ - ٢٧٨)، وهو في الدر (١٥/ ٣٧٨).

(٤) صححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٠٩)، والسلسلة الصحيحة (١٥٧٥)، وصححه البنا عن الإمام أحمد في الفتح الربانى (١٨/ ٤٦)، وأخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب وابن عساكر وغيرهم، وانظر مقدمة سورة القدر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْغَاشِيَةِ (٨٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الغاشية) هي السورة الثامنة والثمانون في ترتيب المصحف، والسابعة والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الذاريات) وقبل (سورة الكهف).

وهي ست وعشرون آية باتفاق، واثنتان وتسعون كلمة، وثلاث مئة وإحدى وثمانون حرفاً.

٢- وشهرتها (سورة الغاشية) كما في حديث النعمان بن بشير ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ والغاشية، في صلاة العيد ويوم الجمعة[1].

وجاء تسميتها بـ (سورة هل أتاك حديث الغاشية) كما في رواية الموطأ وغيره أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير ﷺ: بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾[2].

وعَنْون لها ابن عطية في تفسيره بـ (سورة هل أتاك) اختصاراً.

فهذه ثلاثة أسماء أشهرها الأول.

٣- وهي سورة مكية باتفاق.

٤- وقد اشتملت السورة على موضوعين:

الموضوع الأول: الحديث عن القيامة وأهوالها، وما يلْقاهُ الكافر فيها من العناء والبلاء، وما يلقاه المؤمن من السعادة والهناء.

وقد بدأت السورة بردّ العباد إلى الله تعالى وحسابهم، في يوم تغشاهم فيه الداهية العظمى، وتغمرهم بشدائدها، فتغطى أفكارهم وتُدوِّخهم، فمنهم أصحاب الوجوه

(١) المسند (٤/٢٧١) (١٨٣٨٣،١٨٤٠٩) وهو حديث صحيح، وصحيح مسلم برقم (٨٧٨)، وأبوداود (١١٢٢)، والترمذي (٥٣٣)، وسنن النسائي (٣/١١٢)، وفي الكبرى (١٧٣٨).

(٢) أخرجه مالك (١/١١١)، ومسلم (٨٧٨)، وأبوداود (١١٢٣)، والنسائي (١٤٢٢)، وابن ماجة (١١١٩)، وسنن النسائي الكبرى (١٧٤٩،١١٦٠٥).

الكئيبة البائسة المرهقة، وهم في عقاب وخيم، وكَرب عظيم، شرابُهم ماء حار، يقطّع الأمعاء ويشْوي الوجوه، وطعامهم لا يسمن ولا يغني من جوع.

ومنهم أصحاب الوجوه الناعمة التي أرْضت ربها في الدنيا، فرضي الله عنها وأرضاها في جنة عالية قطوفها دانية، وهذا من أول السورة إلى الآية السادسة عشرة.

والموضوع الثاني: إقامة أربعة أدلة على وحدانية الله تعالى، وقدرته الباهرة.

وقد ضربت السورة هذه البراهين للرجل الأول الذي نزلت عليه هذه الآيات، فهو رجل بَدوِيّ يفترش الأرض، ويلتحف السماء، ويَرْكَب الإبل، ويشرب من ألبانها، ويأوي إلى الجبال والكهوف.

بهذه البيئة الصحراوية خاطب القرآن الناس في عصر التنزيل، ولو خاطبهم بالذَّرةِ والفضاء وشبكَة المعلومات، وناطحات السحاب، وطائرات التجسس وما إلى ذلك.. لَمَا صدّق الناس ذلك.

وفي الأثر عن عليّ ﷺ موقوفاً عليه: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله)[1].

ويستدل بهذه المخلوقات على أن الذي أوجدها من العدم، قادر من باب أولى على بعثهم بعد الموت.

فهي أدلة أربعة مطلوبة للإيمان بالبعث والنشور، وهذا من الآية السابعة عشرة إلى الآية العشرين.

وهكذا فقد بينت السورة أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، كما لفتت أنظار الناس إلى مظاهر قدرة الله تعالى في خلقه، لكي يتفكروا ويتدبروا، فيذْركوا أن الخالق لهذا الكون هو المستحق وحده للطاعة والعبادة دون سواه، وأنهم سيعودون إلى ربهم للحساب والجزاء فيجازي كُلاً بما قدمت يداه، ومهما طالت الأعمار أو قصرت، فالمصير إلى الله تعالى والمرجع إليه.

---

(١) صحيح البخاري (١٢٧)، كتاب العلم باب رقم (٤٩).

٥- وبعد هذا الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، تختم السورة ببيان أن مهمة الرسول ﷺ وجميع الدعاة إلى الله من بعده، أن ينشروا دعوة الله تعالى بين الناس كافة، ليقيموا دولة الإسلام على أرض المعمورة، ويحرروا العقول من رق العبودية لغير الله تعالى، وإخراج الخلق من عبادة الناس إلى عبادة رب الناس.

فليست دولة الإسلام دولة جنس ولا لون ولا لغة ولا نسب، ولا دولة تدق أعناق الناس، وتسلُب خيراتهم ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١،٢٢].

ومن لم يتبع دعوة الإسلام من الخلق كافة يعذبه الله تعالى العذاب الأكبر، والمصير العادل إلى الله وحده ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥،٢٦].

وهذا من الآية الحادية والعشرين إلى نهاية السورة.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

أَصْحَابُ الْوُجُوهِ الذَّلِيلَةِ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ

١-٣- ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾

تذكر هذه السورة شيئاً من أهوال يوم القيامة وأنها تغشى الناس بشدائدها، وأنهم يجزون فيها بأعمالهم:

منهم أهل النار، وجوهم ذليلة متعبة من العذاب، يشربون الماء الحار، ويأكلون الضريع.

ومنهم أهل الجنة قد استنارت وجوهم لسرورهم بما قدموه في الدنيا من صالح الأعمال، وهم في جنة عالية وفواكه كثيرة في متناول أيديهم، وفي عيون جارية، وسرور مرفوعة، وأوان أعدت لهم، ووسائد من حرير وإستبرق، وبُسُطٍ تملأ المجالس.

وقد ابتدأت السورة بذكر يوم القيامة في أسلوب استفهام محقق، أي قد جاءك – أيها الرسول - حديث القيامة التي تُغَشِّي الخلائق بأهوالها وتُغطِّي عقول الناس عن التفكير في أي شيء، وإن لم يصل إلى علمك خبرها - أيها المخاطب - فهذه هي أحوالها:

لقد قَسَّمَت آيات السورة أحوال الناس في يوم القيامة إلى قسمين:

القسم الأول: أصحاب الوجوه الذليلة المتْعبة، فذكَرتْ طعامهم وشرابهم في النار.

والقسم الثاني: أصحاب الوجوه الناعمة ، وهم في أعلى الجنان، وعلى أرفع السرُر، وفي أحسن النعيم.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ - يا رسولنا - ﴿حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ حديث الساعة وخبر يوم القيامة، التي تغشى الناس بأهوالها،و تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت.

عن عمرو بن ميمون قال: (مر النبي ﷺ على امرأة تقرأ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ فقام يستمع ويقول: نعم، قد جاءني)[1].

---

(١) هذا حديث مرسل فيه انقطاع في السند بالنسبة لعمرو بن ميمون.

وكأنما يتلقى النبي ﷺ هذا الخطاب لأول مرة، فأخذ بمجامع نفسه، وملَك عليه قلبه.

وهو خطاب عام لكل شخص في هذه الأمة، إنه خطاب يُذكّر ويحذر، وينذر ويبشر، ويثير في النفس الخشية والترقّب لما يكون في هذا اليوم من نعيم مقيم، أو عذاب أليم.

والغاشية في أصل اللغة، هي الداهية العظمى، التي تغْشى الناس بأهوالها، وأعظم أهوال الساعة: النار التي يَدْخُلها أهلها ويغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

وسميت يوم القيامة بالغاشية، لأنها تأتي الناس وتغشا هم بغتة، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧].

وتغشى الأولين والآخرين بشدائدها وأهوالها: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝٤٨ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٤٨ - ٥١].

ثم إن الناس في يوم القيامة فريقان: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ وهم أهل النار.

و﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ [الغاشية: ٨] وهم أهل الجنة:

وقد وصف الله تعالى وجوه الكفار بثلاثة أوصاف فهي: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ و﴿عَامِلَةٞ﴾ و﴿نَّاصِبَةٞ﴾ إلى جوار ثلاثة ألوان من العذاب يوم القيامة، فهذه ستة أخبار عن وجوه أهل النار:

الخبر الأول: أن وجوههم ذليلة منكسرة:

أي أن وجوه الكفار في يوم القيامة تبدُوا عليها آثار الهوان والخشوع والذلة والانكسار، وظهور أثر الهوان والانتكاس والخزي عليها، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٥] وقد وصف الله تعالى وجوه الكفار حين خروجهم من القبور بقوله ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ [المعارج: ٤٤].

والمراد بالوجوه في الآية: أصحابها، وخصت الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء، ولأن آثار الحزن والفرح تظهر عليها كما قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠ - ٤١].

الخبر الثاني والثالث: أن وجوه الكفار يوم القيامة متعبة مجهدة من عذاب النار، تُجَرّ عليها كجُّر السلاسل، وصعُودهم في النار وهبوطهم منها كحال من يترددون بين الجبال والوهاد والوديان.

كما قال تعالى عن الوليد بن المغيرة ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧].

وقال سبحانه عمن أعرض وكذب بآيات الله:

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

فهم يَشْقوْن في النار بِجَرّ الأغلال والسلاسل والخَوض فيها، كما قال تعالى:

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١ - ٧٢].

والكفار يُؤخَذون من الدار إلى النار: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٢].

وهم يسحبون على وجوههم في نار جهنم:

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨].

ويُحشرون وقد فقدوا حواسهم التي عطّلوها في الدنيا عما خُلقت له: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وثياب أهل النار من قطران، والنار تغشى وجوهم: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩ ـ ٥٠].

والكفار شر الناس منزلة وأبعدُهم عن طريق الحق:

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤].

والنار تُصَبُّ فوق رؤوس الكفار صبّاً: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ١٩ - ٢١].

وهذا العذاب جزاء تكبُّرِهم في الدنيا وموتهم على الكفر، وانهماكهم في الملذات والشهوات دون رجعة ولا توبة، وذلك أن وجوههم لمّا لم تعمل في الدنيا لله تعالى، جعلها الله تعالى تعمل في النار وتَنْصَب بمعالجة القيود والأغلال، وجرّهم على وجوههم، واتقاء

كل حدب وشوك بوجوههم، والخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل، وتكليفهم ارتقاء جبال من النار بالصعود فيها.

وعلى هذا فإن العمل والنصَب للوجوه الذليلة يكون في الآخرة، وقد يقال: إن بعض أهل النار كانوا في الدنيا أهل عمل وعبادة، ولكن هذه العبادة لَمَّا فُقد شرط الإيمان والمتابعة صار عملهم يوم القيامة هباء منثوراً، وهكذا فإن هذه الوجوه عملت في الدنيا وتعِبت في عبادات فاسدة، كعمل الرهبان والقساوسة والمبتدعة، وعملُهم هذا قد ارتدّ عليهم، لأنه لم يكن خالصاً لله تعالى، فقد تعبتْ فيه الأبدان في الدنيا، وعُذبت عليه في الآخرة، فهي قد خشعت للأوثان، وعملت لغير الله، ونصَبت في طاعة الشيطان.

والوجه الأول: وهو أن التعب والنصب يكون للوجوة الذليله فى الآخرة هو الأولى، لأن عمل الكفار والمبتدعة لا أجر لهم عليه، بل هو كالهباء المنثور، وعذابُهم إنما يكون على كفرهم وتركهم العمل لله وحده، وعقاب المبتدعة يكون على ما ابتدعوه في دين الله تعالى.

وفي الآية زيادة توبيخ لأهل النار، لأنهم لَمَّا تركوا الخشوع لله في الدنيا، كان جزاؤهم الذُّل والعمل الشاق يوم القيامة.

ورد أن عمر بن الخطاب ﷺ لما قدم الشام، أتاه راهب، شيخ كبير، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى، فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين، إنه نصراني؟ فقال: ذكرْتُ قول الله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ فبكيت[1] رحمةً عليه، فذلك الذي أبكاني، وقد بكى عمر على الرجل لاجتهاده في عبادته على غير هُدىً، حيث لا ثَمَرة لعملِه إلا النّصَب، ومأواه النار.

اللهُ تَعَالَى يَصِفُ عَذَابَ الْوُجُوهِ الذَّلِيلَةِ

٤-٧- ﴿تَصْلَىٰ[2] نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾

---

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢٩٩/٢٥)، والحاكم في المستدرك (٥٢٢/٢)، وفي سنده انقطاع بين راويه أبي عمران الجوني وبين عمر ﷺ، لأنه لم يدرك زمانه.

(٢) قرأ أبوعمرو وشعبة ويعقوب بالبناء للمفعول في ﴿تَصْلَىٰ﴾ ونائب الفاعل ضمير يعود على الوجوه، والباقون بالبناء للفاعل، والفاعل ضمير يعود على الوجوه أيضاً.

وبعد أن وصف الله تعالى وجوه الكفار بأنها تكون يوم القيامة: خاشعة، عاملة، ناصبة، ذكر سبحانه في هذه الآيات، أن هذه الوجوه: تدخل يوم القيامة ناراً شديدة التوهج، وتشرب من عين شديدة الحرارة، وليس لهم من طعام يأكلونه إلا أخبث الطعام، كالضريع، فهو نبات له شوك يغص في الحلق، وهو طعام لا يَحمي بدَن صاحبه من الهزال، ولا يسد جوعه ولا رمقه، فهذه ثلاثة ألوان من العذاب:

والخبر الرابع: أن وجوه الكفار يوم القيامة تُشوى في نار جهنم، وتدخُل ناراً مستعرة، شديدة الحرارة، قد اشتد لهبها على أعداء الله، فهي تُشوى بالنار الحامية.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

إن وجوههم مع الذل والإرهاق في العذاب والألم، تذوق النار الحامية وتتجرع مرارتها كما قال تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٦ - ١٧].

والخبر الخامس: شراب أهل النار: وحين يبلغ الاحتراق بالنار منهم مبلغه، فإنهم يحتاجون إلى إطفاء حرارتها بالشراب، فيُجعَل شرابهم من عين بالغة منتهى الحرارة، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

والخبر السادس: طعام أهل النار: أما طعام أهل النار، فهو مجرد إيلام وتعذيب دون نفع ولا فائدة، والطعام إما أن يسد الجوع، وإما أن يسمن البدن، وهذا الضريع ليس فيه شئ من هذين الأمرين، بل هو في غاية المرارة والنّتن، إنه نبت له شوك لاصق بالأرض، معروف عند العرب، وهو شر طعام وأبشعُه، وهو مرعى للإبل والحمُر الوحشية، ويسمى ضريعاً إذا كان رطباً، ويسمى (الشِّبْرِقْ) إذا كان يابساً.

قال عكرمة: الضريع الشّبرِق، شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض[1].

---

(١) ابن أبي شيبة (٤٤/١٤).

والضريع في الآخرة هو الخارج من الغسلين، كما قال تعالى:

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٥ - ٣٧].

وهذه الآية تؤيد أن الضريع اسم لشجر في جنهم يسيل منه الغسلين.

ومن طعام أهل النار (الزقوم) كما جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٤].

وهذا الضريع لا يعود على آكله إلا بالضر، فهو لا يُصلِح أجسادهم، ولا يدفع عنهم ألم الجوع.

ورد أن أهل النار يسلَّط عليهم الجوع فيضطرهم إلى الأكل من الضريع، فإذا أكلوا يسلط عليهم العطش، فيضطرهم إلى شراب الحميم، فيشوي وجوههم ويقطِّع أمعاءهم[1].

فهذه ستة أخبار عن عذاب (وجوه) أهل النار، الذين جاء ذكرهم في الآية الثانية من السورة، فهي وجوه:

﴿خَاشِعَةٌ﴾ ﴿عَامِلَةٌ﴾ ﴿نَاصِبَةٌ﴾ ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾.

هذه هي أحوال أهل النار! كما قال تعالى عنهم ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤ – ٢٥].

وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٠ - ٤٢].

تسعة أخبار عن وجوه أهل الجنة

٨-١٠ - ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾

الخبر الأول: أهل الوجوه الناعمة: ولما ذكر سبحانه حال الأشقياء أتبعه بذكر حال السعداء ، فبيَّن تعالى أن وجوه أهل الجنة منعَّمة يعلوها الحُسْن والبهجة والرضى، فهي ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣].

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/٢٥٩).

وهي: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨ - ٣٩].

وهي: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ في نعمة وبهجة وسرور، وإشراق ونُضرة، كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] وهم يتنعَّمُون في الجنة بألوان النعيم، من كل ما تشتهي وتتمنى، هذا هو الخبر الأول عن أهل الجنة:

والخبر الثاني: الرضى عن الأعمال والرضى عن الأجر والثواب: إنهم يُحمدون على ما عملوه، ويجدون عقباه خيراً، فهم يستمتعون بالرضى عن عملهم، فقد رضي الله عنهم.

وأصحاب هذه الوجوه ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ الذي عملته في الدنيا بالطاعات ﴿رَاضِيَةٌ﴾ عنها في الآخرة، فقد أورثها هذا العمل: الفردوس، دار النعيم، وأعطاها الله من الأجر ما أرضاها، فهي لثواب سعيها راضية، إذ وجدته مدخراً لها في الآخرة، فحمدت عقباه وحصل لها ما تتمناه.

الخبر الثالث: درجات الجنة: أي إن أهل التقوى يوم القيامة ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ فالجنة درجات ، بعضها أعلى من بعض، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**في الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**»[1].

فهي حدائق وبساتين مرتفعة المكان والقدر، وهم في الغرفات والمساكن العالية آمنون، وقد وصف الله تعالى الجنة بالعلوّ في المكان والمكانة، والشرف والرفعة، والحُسن والمنزلة.

وثمار بساتين الجنة وفواكها سهلة التناول، فهي في متناول أيديهم، لا يحتاجون إلى القيام لها، ولا إلى من يناولهم إياها، ولا يستعصى عليهم شيء منها.

الْخَبَرُ الرَّابِعُ: لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ لَغْوٌ وَلاَ جِدَالٌ وَلاَ خِصَامٌ

١١-١٣- ﴿لَّا تَسْمَعُ[2] فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾

---

(١) صحيح سنن الترمذي (٢٠٥٤)، والمسند (١١٢٣٦) وإسناده صحيح عل شرط مسلم، وفي صحيح مسلم برقم (١٨٨٤) عن أبي سعيد، وعبد بن حميد (٩٢٢)، وله شاهد في البخاري (٢٧٩٠).

(٢) قرأ نافع بالتاء والبناء للمفعول في ﴿تَسْمَعُ﴾ و﴿لَغِيَةً﴾ بالرفع، نائب فاعل، وقرأ ابن كثير وأبوعمرو ورويس مثله ولكن بالياء في ﴿تَسْمَعُ﴾ والباقون بالتاء، والبناء للفاعل، و ﴿لَغِيَةً﴾ بالنصب، مفعول به، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي، وللفصل بالجار والمجرور.

إنك لا تسمع في الجنة لغوًا ولا جدالاً ولا لَجاجاً ولا خصاماً، ولا تسمع فيها كذباً، ولا فحشاً، ولا أذى، ولا باطلاً، فضلاً عن الكلام المحرم، بل يسمعون ما يسر القلوب ويشرح الصدور.

واللغو هو الكلام الذي لا فائدة فيه، وهذا تنبيه على أن الجنة دارُ جدّ وحقيقة، فلا يوجد فيها كلام إلا لفائدة، لأن النفوس فيها تخلّصت من النقائص، فلا تنْطلق إلا بما تريدُ النفوس الزكية، ولا تلتذ إلا بالسموِّ العقلي والخلُقي.

قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥ - ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

وقال جل شأنه: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣].

الخبر الخامس: عيون الماء تجري في الجنة:

أي إن في الجنة عيون الماء الجارية تتدفق منها ولا تنقطع أبداً، ففيها:

عيون الكافور والسلسبيل والزنجبيل والتنسيم، وعيون أخرى في غاية الكثرة، تجري بالماء العذب الزلال المتدفق، والعيون الجارية، اسم جنس،تشمل جميع العيون التي يفجرها أهل الجنة ويُصَرِّفونها كيفما شاؤوا.

الخبر السادس: السرر العالية: أي إن في الجنة سرراً عالية، عليها فرش لينة وطيئة، يجلس عليها أهلها في أماكن مرتفعة، تنخفض وترتفع وتتنقّل لهم، حسْبَما أرادوا، ليرى كل منهم ما حوله من الملك والنعيم. **قال تعالى:**

١٤-١٦ - ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾

الخبر السابع: أكواب الجنة: أي إن في الجنة أكواباً معدة للشاربين، مهيأة لهم، ممتلئة بأنواع الأشربة اللذيذة وُضعت تحت الطلب.

والكوب: إناء للخمر له ساق، ولا عروة له، فأكواب الخمر وغيرُها، موضوعة بين أيديهم ليحصلوا عليها دون تعب ولا عناء.

الخبر الثامن: وسائد الجنة: وفي الجنة وسائد مصفوفة، الواحدة إلى جوار الأخرى، يتكيء عليها الجالس والمضطجع، أينما كان وجدَها، فالنمارق هي الوسائد التي يتكيء عليها الإنسان في كل أحواله، وهى من الحرير والاستبرق قد صفت للجلوس والاتكاء عليها.

الخبر التاسع: فراش أرض الجنة: وأرض الجنة مفروشة بالبُسُط الحسان المتفرقة في كل مكان، والطنافس أو السجاجيد الفاخرة، مبسوطة في أنحاء الجنة، ومملوءة بهامجالسهم.

فالزرابي جمع زَرْبِيَة، وهي البساط أو الطُّنفسة من الصوف الملون الناعم، يُفرش في الأرض للزينة والجلوس عليه عند أهل الترف والغنى، وهو منسوب إلى (أذربيجان) لأنها اشتهرت بدقة صنعه.

وقد قوبلت صفات وجوه أهل النار بصفات وجوه أهل الجنة على النحو التالي:

وجوه أهل النار	وجوه أهل الجنة
١ - ﴿خَٰشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾	﴿نَّاعِمَةٌ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾
٢ - ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾	﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾
٣ - ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾	﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾
٤ - ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾	﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾
٥ - ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾	﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾

وقد قوبل طعام أهل النار بأربعة ألوان من نعيم أهل الجنة هي: السرر، والأكواب، والنمارق، والزرابي، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

جاء في الأثر: ألا هل من مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في دار سليمة، وفاكهة وخُضْرة، وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهيّة؟ قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها، قال: قولوا: إن شاء الله، قال القوم: إن شاء الله[1].

---

(١) من حديث أسامة بن زيد عند ابن أبي داود برقم (٧١)، وابن ماجة برقم (٤٣٣٢)، قال البوصيري في الزاوئد: (٣/٣٢٥) هذا إسناد فيه مقال، ففيه الضحاك المعافري، وسليمان بن موسى متكلم فيهما، وهو في ضعيف سنن ابن ماجة (٩٤٦)، والسلسلة الضعيفة (٣٣٥٨).

أَرْبَعَةٌ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ

١٧-٢٠ - ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾

ثم ذكر سبحانه أربعة من دلائل وحدانيته تعالى وعظيم قدرته وهي: الإبل، والسماء، والأرض، والجبال، وذلك أنه لما ذكر الله تعالى ما في الجنة، من نعيم تعجّب الكفار وكذبوا النبي ﷺ فذكّرهم الله تعالى بهذه المخلوقات الأربع التي تملأ عليهم حياتهم: فالسماء، فوقهم، والأرض تحتهم، والجبال حولهم، وأول ما يقع بصر الرجل العربي الذى نزل عليه القرآن يقع على إبله.

وهذه الأربع هي أطراف البيئة العربية، فبيّن تعالى أن الذي صنع لهم هذه الدنيا هو الذي صنع لأهل الجنة ما صنع، وذكر لهم هذه **الدلائل الأربع**:

الدليل الأول: الإبل: أفلا ينظر الكافرون المكذبون إلى الإبل، كيف خُلِقتْ هذا الخلْق العجيب، وكيف ذللها الله للعباد وسخرها لمنافعهم.

والإبل حيوان الرجل العربي الأول، عليها يسافر وعليها يحمل متاعه، ومنها يأكل ويشرب، ومن أوبارها وجلودها يلبس وينزل، فهي مورد الحياة الأول للإنسان البدوي.

وهي على قوّتها وضخامتها يقودها الصبي الصغير، وهي أصبر الحيوانات على الجوع والعطش.

ويوجه القرآن النظر إلى تأمل خَلْقها وتكوينها وإبداعها.

والإبل هي أعز أموال العرب، وأكثرها نفعاً لهم، فهي متاعهم ورواحلهم، ومنها عيشهم، ولباسهم، ونسْجُ بيوتهم، وحَمْلُ أثقالهم.

وقد جعل الله تعالى لها قوائم قوية، ويسّر بُروكها، لِحمْل الأمتعة عليها، وجعَل أعناقها طويلة ليُمكنها النهوض بما عليها من أثقال، وجعَل في بطونها أمعاء، تختزن الطعام والماء إلى عشرة أيام قال تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا

مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٧٢ - ٧٣].

وقال سبحانه: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٥ - ٧].

الدليل الثاني: السماء: أفلا ينظر الكفار المكذبون، إلى السماء كيف رُفعت هذا الرفع العظيم بدون عمد، وقد نثر الله فيها النجوم بلا عدد، وجعلها بهجة للناظرين، وعلاماتٍ للمسافرين، ورجوماً للشياطين، بلا صدوع ولا شقوق، كي يعتبروا ويتعظوا؟

الدليل الثالث: الجبال: أفلا ينظر الكفار المكذبون إلى الجبال الشاهقة كيف نُصِبت، لاستقرار الأرض وثباتها عند الاضطراب فهي قائمة في الهواء، وجُعلت رواسي ثابتة للأرض ومستقَرّاً لها، والجبال هي الملجأ والملاذ، والأنيس والصاحب لسكان البادية.

وقد تحنَّث النبي ﷺ في غار جبل حراء قبل البعثة، واختبأ في غار جبل ثور ليلة الهجرة.

قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٢ - ٣٣].

الدليل الرابع: الأرض: أفلا ينظر الكفار المكذبون إلى الأرض كيف بُسطت ومُهّدت ومدت حتى صارت واسعة شاسعة، يستقرون عليها، ويعيشون فوقها، ويحصّلون أرزاقهم منها.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ: ٦].

وهذا لا ينافي كُروية الأرض واستدارتها، فقد أحاطت بها الأفلاك من كل جانب، فهي في غاية السهولة ليستقر عليها الخلق، ويتمكنوا من حرثها وزرعها والبنيان عليها، وسلوك طرقها ونحو ذلك، لأن الكرة إذا كانت كبيرة، كانت كل قطعة منها كالسطح في إمكان الانتفاع به، وقد دل على كروية الأرض: العقل والنقل والحس والمشاهدة، والتسطيح ينافى كروية الجسم الصغير، وجسم الأرض في غاية الكبر والسعة، فهى كروية مسطحة.

قال أنس ﷺ: (كان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية، فيسأل النبي ﷺ ونحن نستمع، فجاء رجل، فقال: يا محمد، إنه أتانا رسول من طرفك، يقول: إنك رسول الله،

قال: (صدق).

فسأله: بالذي خلق السموات والأرض ونَصَب الجبال؟ (آلله أرسلك)؟ قال: (نعم).

قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال:(صدق).

قال: فبالذي أرسلك، (آلله أمرك بهذا)؟ قال: (نعم).

قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة أموالنا؟ قال:(صدق).

قال فبالذي أرسلك، (آلله أمرك بهذا)؟ قال: (نعم).

قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا؟ قال:(صدق).

قال: ثم ولّى، فقال: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن شيئا، فقال النبي ﷺ: «إن صدق ليدخلن الجنة»[1] والسائل هو: ضِمَام بن ثعلبة، أخو بني سعد بن بكر.

مَنْ أَعْرَضَ عَنْ دَلائِلِ الْوَحْدَانِيَّةِ فَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ

٢١، ٢٢- ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم[2] بِمُصَيْطِرٍ[3]﴾

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بوعظ الناس وتذكيرهم، فينذرهم ويبشرهم، ويخبرهم أنه رسول الله إلى الإنس والجن، وأنه لم يبعث مسيطراً عليهم، وأمره ألاّ يهتم بإعراضهم، بل يترك النتائج على الله تعالى، فداوم - يا رسولنا - على تبليغ الدعوة للناس، واستمر على ذلك، فهذه مهمتك، واترك أمرهم إلينا فنحن نتولى حسابهم وجزاءهم.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

ولا تحزن على إعراضهم فإنما أنت واعظ لهم، وليس في مقدورك أن تكرههم على

---

(١) ينظر المسند برقم (١٢٤٥٧،١٣٠١١) وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، وصحيح مسلم برقم (١٢)، والبخاري برقم (٦٣)، والترمذي (٦١٩)، وسنن النسائي الكبرى (٢٤٠١،٢٤٠٢)، وابن ماجة (١٤٢٠)، والبغوى (٤)، وأبو عوانة (٢/١،٣).

(٢) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من ﴿عَلَيْهِم﴾ والباقون بكسرها.

(٣) قرأ هشام بالسين في ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، وقرأ قنبل وابن ذكوان وحفص بالسين والصاد، وقرأ خلاد بالإشمام كخلف وبالصاد الخالصة والباقون بالصاد الخالصة.

الإيمان، فلستَ عليهم بجبار ولا متسلط، بل اترك شأنهم إلينا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقال جل شأنه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقد شُرع الجهاد لا لحمل الناس على الإيمان، وإنما لإزالة العقبات من وجه الدعوة، حتى تصل إلى الناس، فلا يُمنَعون من سماعها، ولا يُفَتنون عن دينهم.

فالأصل هو التذكير والبلاغ، فمن يبقى على شِرْكه وكُفْره بعد أن بلغتْه الدعوة، فإنه يُترَك بحريته، ولا يقاتَل إلا إذا قاتل المسلمين، أو وقف حائلاً بين وصول الدعوة إلى الناس، أو اغتصب أرض المسلمين.

وله في ديار الإسلام ما للمسلمين من حقوق وواجبات، فيدافع معهم عن حِمَى أرضهم، ويُساهم في أمن البلاد، ويدفع ما يقابل الخدمات العامة التي ينتفع بها من الضرائب التي تَفْرِضُها الدولة عليهم خاصة، وهي ما يسمى بالجزية، كما يدفع المسلمون الزكاة.

ومن لم يدخل في الإسلام أصلاً، يختلف حاله عن حال من يدخل فيه ثم يرتد، فإنه يكون فتنة للناس وسبباً لردتهم عن الإسلام، فيستتاب ثلاثاً، فإن تاب وإلا قتل، لأنه يكون فتنة لغيره، وسبباً في الصد عن دين الله، واتهام الإسلام بما ليس فيه، فإن لم يُقْدَرْ عليه عُومل معاملة المحاربين، وكذا من أنكر أصلاً من أصول الإسلام معلوماً من الدين بالضرورة، كما قال تعالى عمن أنكر الصلاة والزكاة ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١ - ٣٢].

عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله، ثم قرأ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾»[1].

---

(١) مسلم (٢١/٤٥٢) برقم (٣٥،٢١)، والترمذي (٣٣٤١)، وابن أبي شيبة (١٠/١٢٢)، والمسند (١٤٢٠٩،١٤١٤١) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، دون الآية، والطبراني فى الكبير (١٧٤٦)، والأوسط (٤٢٩٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦٧٠،١١٦٠٦،٣٤٢٥)، والحاكم (٢/٥٢٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٧٠)، ومصنف عبدالرزاق (١٠٠٢١)، وابن ماجة (٣٩٢٨).

مَصِيرُ الْكَافِرِ نَارُ جَهَنَّمَ

٢٣، ٢٤ - ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤ ﴾

أي: وهذا الذي لم يقبل الدعوة، فتولى وأعرض، وداوم على كفره ولم يؤمن بالله وخاتم رسله، فإن الله تعالى يعذبه يوم القيامة عذاباً شديداً دائماً.

والعذاب الأكبر هو عذاب جهنم، وفي الدنيا عذاب أصغر بالقحط والجدب والجوع والهزائم، ومنه عذاب القبر، كما قال تعالى:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

قال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦].

وفي الحديث عن خالد بن يزيد بن معاويه «**ألا كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شِراد البعير على أهله**»[(١)].

لاَ مَفَرَّ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، فَالْمَرْجِعُ إِلَى اللهِ تَعَالَى

٢٥، ٢٦ - ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ [(٢)] ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦ ﴾

فما عليك - أيها الرسول - إلا تذكير الناس بدعوة الحق دون إجبار لهم، ولا تسلُّطٍ عليهم، فإن رجوعهم إلينا بعد الموت ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤]، وسوف نجمعهم في يوم لاريب فيه.

ثم إن علينا حسابهم على أقوالهم وأعمالهم بعد بعثهم من قبورهم، ونُجازيهم عليها

---

(١) من حديث خالد بن يزيد بن معاوية في المسند (٥/٢٥٨) برقم (٢٢٢٢٦) بإسناد حسن، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (١٠/٤٠٣) ورجاله رجال الصحيح غير علي بن خالد الدؤلي وهو ثقة، وصححه الحاكم والذهبي عن أبي هريرة في المستدرك (١/٥٥)، وهو في صحيح الجامع برقم (٤٥٧٠)، وابن حبان عن أبي سعيد في الإحسان (١/١٩٦)، والطبراني في الأوسط (٣١٧٣)، وفي الكبير (٧٧٣٠)، ونظيره حديث أبي هريرة في المسند (٨٧٢٨) بلفظ «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى..».

(٢) قرأ أبوجعفر بتشديد الياء من ﴿إِيَابَهُمْ﴾ والباقون بتخفيفها.

بالجزاء الأوفى.

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقال جل شأنه: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٥ - ٥٧].

والحساب في الآخرة عام لجميع الخلائق وليس خاصا بالكفار، فلا مفر من عودة الجميع إلى الله تعالى، ولا محيص لهم من حسابه تعالى وجزائه.

تم تفسير (**سورة الغاشية**) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَجْرِ (٨٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الفجر) هي السورة التاسعة والثمانون في ترتيب المصحف، والعاشرة في ترتيب النزول، فهي من أوائل ما نزل من القرآن. نزلت بعد (سورة الليل) وقبل (سورة الضحى).

وعدد آياتها ثلاثون آية عند أهل الكوفة والشام[1].

وهي مئة وتسع وثلاثون كلمة، وخمس مئة وسبعة وتسعون حرفاً.

ويقال: سورة ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ بالواو. وهي سورة مكية.

٢- عن جابر ﷺ قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه، فطوّل فصلى في ناحية المسجد، ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذاً، فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، جئتُ أصلي، فطوّل عليّ، فانصرفتُ، فصليتُ في ناحية المسجد، فعلفْتُ ناضحي، فقال رسول الله ﷺ: أفتان أنت يا معاذ؟ أين أنت من ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾[2].

٣- وقد تحدثت آيات السورة عن ثلاثة أمور:

أولاً: بيان ما حل ببعض الأمم المكذبة لرسل الله من عذاب ونكال، كقوم عاد وثمود وفرعون، مع قوتّهم وحضارتهم وطولِ أعمارهم، وكيف أنّ طغيانهم أوردهم المهالك، كي يعتبر بهم كل من كذب خاتم الرسل ﷺ من أهل الغرب والشرقُ، والشمال والجنوب، وقد استغرق ذلك أربعة عشر آية من أول السورة.

---

(١) وتسع وعشرون آية عند أهل البصرة، واثنتان وثلاثون آية في العدد المكي والمدني.

(٢) النسائي في التفسير (٦٩٣)، وفي السنن الكبرى برقم (٩٠٧،١١٦٠٩،١١٦٧٣)، والبخاري (٧٠٥)، وأبوداود (٧٩٣)، والمسند (١٤١٩٠) بنحوه وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٢٤٠٤)، والطيالسى (١٧٢٨)، وعبد بن حميد (١١٠٢)، وجاء هذا الحديث من طرق كثيرة متقاربة الألفاظ.

ثانياً: تحدثت السورة عن طبيعة سيّئة في بعض البشر الذين يغترُّون بالحاضر وينسوْن الماضي والمستقبل، ولا يعرفون أن الله تعالى يداول الأيام بين الناس، فكثير منهم ينخدع بيومه الحاضر، فيغتر بغناه، ويجزع من فقره، ولا يدري أنه مُمتحَن بالخير والشر، والنفع والضر.

إن الله تعالى يبتلي بالغنى والفقر، والنصر والهزيمة، ولا يدل أي منهما على الرضى أو السخط من الله تعالى، إنه تقسيم يُمحِّص الناس، ويحدد منازلهم يوم القيامة، والعاقبة للتقوى.

وقد وقع التفاوت بين أرزاق الناس من بدء الخليقة، ليواسي الغني المحتاج ويفرّج كربته، وليصْبِر الفقير، ويكافح فى طلب الرزق، ويتربَّى على العفاف، ولا يبكي على دنيا فاتَتْه، أو يحسُد أحدا على رزق الله له، وقد استغرق هذا المعنى ست آيات من [الآية ١٥-٢٠].

ثالثاً: تحدثت السورة في الآيات العشر المتبقية منها، عن الدار الآخرة وأهوالها وشدائدها، فالناس في الدنيا يلتمسون الحرية فلا يجدونها، ويبحثون عن العدالة فيفتقدونها، ولن يتحقق لهم ذلك إلا في يوم تُدَكُّ فيه الأرض، ويأتي ربك للفصل بين الخلائق، وتأتي الملائكة صفوفاً، وتبرز جهنم للناظرين، ويَصيح الإنسان بالندم في يوم لا ينفع فيه الندم، ويكون الناس فريقان: أهل الشقاء، ممن لا يعذب عذابهم أحد، وأهل النفس المطمئنة التي تدخل جنة ربها راضية مرضية..

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

خَمْسَةُ أَيْمَانٍ عَلَى تَعْذِيبِ الْمُكَذِّبِينَ لِخَاتَمِ الأَنْبِيَاءِ

١ - ٤ - ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ [١] ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ [٢] ۝٤﴾

أقسم الله تبارك وتعالى في أول السورة بخمسة من مخلوقاته، لشرفها وعظمها، ودلالتها على بديع صنعه تعالى وسعة قدرته، والمراد بها خمسة أزمنة:

١- وقت ظهور النور. ٢- وليالي عشر ذي الحجة على الأرجح.

٣- وليالي الشفع. ٤- وليالي الوتر. ٥- ووقت الظلمة.

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، والعبد لا يقسم إلا بالله تعالى[٣].

وجواب القسم محذوف، دل عليه﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ أي والله لتعذبُن أيها المكذبون لخاتم الرسل، كما عُذب قوم عاد وثمود وفرعون، فتُبعثُنّ من قبوركم، وتُحاسبُن، وتُعاقبنّ على عدم إيمانكم بالله ورسوله واليوم الآخر.

وقد يكون المقسم به هو نفسه المقسم عليه كما في هذه الآيات إذا كان أمراً ظاهراً مُهِمًّا، وهذا جائز لغة ومستعمل في مثل هذه الحالة، أما تفصيل ذلك ففي شرح الآيات:

القَسَم الأول: أقسم الله تعالى بميلاد النهار وذهاب الظلام ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ والمراد به فجر كل يوم، ويدخل فيه فجر يوم النحر، وفجر يوم الجمعة، وفجر أول يوم في عمر الدنيا.

والقَسَم بوقت الفجر لفضيلة صلاة الفجر التي تشهدها الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الواو من ﴿وَٱلْوَتْرِ﴾ لغة تميم، والباقون بالفتح، لغة قريش.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلاً من ﴿يَسْرِ﴾ وابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلاً ووقفاً، والباقون بحذفها في الحالين، وفي الراء حال الوقف عليها وجهان: التفخيم، لأنها ساكنة للوقف بعد ساكن أصلي قبله فتح، والترقيق نظراً للياء المحذوفة، فأصلها (يسرى) وهذا لحفص وغيره.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة عن ميمون بن مهران.

وقد يراد بالفجر: أول فجر انبثق فيه النهار، وتفجّرت به الحياة لما خلق الله هذا الكون.

ويراد بالعشر: الأيام العشر الأول بعد أن خلق الله السموات والأرض.

وفي إدبار الليل وإقبال النهار، آيات دالة على عظيم قدرة الله تعالى، وأنه سبحانه المدبر لهذا الكون، فلا تصرف العبادة إلا له جل شانه.

وانفجار النهار من ظلمة الليل يقول الله تعالى عنه: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨].

القَسَم الثاني: أقسم تبارك وتعالى بالليالي العشر الأُول من شهر ذي الحجة - على الأرجح - لأن فيها مناسك الحج: من الإحرام والطواف والوقوف بعرفة، وتنتهي المناسك بوقفة عرفة ويوم النحر (وليال عشر).

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله تعالى من هذه الأيام**» - يعني عشر ذي الحجة - قالوا: (ولا الجهاد في سبيل الله)؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلاً خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء**»[1].

وعن جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن العشرَ، عَشْرُ الأضحى، والوِتر، يومُ عرفة، والشفع يومُ النحر**»[2].

وهي عشرة ذى الحجة الأيام المعلومات التي قال الله فيها:

﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ [الحج: ٢٨].

أما الأيام المعدودات فهي أيام التشريق التي قال الله تعالى عنها:

﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٩٦٩)، والبيهقي فى الشعب (٣٧٤٩،٣٧٥٢)، والمسند (١٩٦٨،٣١٣٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود (٢٤٣٨)، والترمذى (٧٥٧)، وابن ماجه (١٧٢٧)، والبغوى (١١٢٥) وغيرهم.

(٢) المسند (٣/٣٢٧) (١٤٥١١)، والنسائي في السنن الكبرى (٤١٠١،١١٦٧١)، والبزار (٢٢٨٦) كشف، والبيهقي في الشعب (٣٧٤٣)، وصححه الحاكم والذهبي على شرط مسلم من طريق علي بن عفان العامري عن زيد بن الحباب، المستدرك (٤/٢٢٠)، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٣٧) إلى أحمد والبزار وقال: رجالهما رجال الصحيح غير عياش بن عقبة وهو ثقة، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف، وقال ابن كثير إسناد لابأس به.

وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: عشر ذي الحجة.

وهذه الأدلة ترجِّح أنه ليس المراد بها العشر الآواخر من رمضان، على ما فيها من فضل لا شتمالها على ليلة القدر، ولا العشر الأُول من شهر الله المحرم.

القسَم الثالث: ثم أقسم سبحانه وتعالى بكل شفْعٍ من المخلوقات فقال ﴿وَالشَّفْعِ﴾ وهو ما يكون ثانياً لغيره، كالصلاة الثنائية، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

فلكل شيء في الوجود مقابل: كالأنثى والذكر، والليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والأرض، والجبل والبحر، والنار والماء، والظلمة والنور، والإيمان والكفر، والشقاء والسعادة، والضلال والهدى، والعز والذل، والفقر والغنى، والصحة والمرض، والبَرّ والبحر، والجن والإنس، والعلم والجهل، والموت والحياة، والضعف والقوة، والبصر والعمى، والجنة والنار، الخ.

كأن الله تعالى يُقْسِم بكل شفْع من مخلوقاته، وفي مقدمة ذلك يوم النحر كما جاء في حديث جابر السابق.

وهذا القسَم يشمل قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٣٩].

القسَم الرابع: أقسم تبارك وتعالى بالوتر، وقد جاء في حديث جابر أنه يوم عرفة، فكأن الله تعالى أقسم بعشر ذي الحجة كلها، وخص منها يوم عرفة ويوم النحر، لعظم شأنهما ومزيد فضلهما، ولا يمنع هذا أن يشمل القسَم كل وتر، قياساً على القسَم بكل شفع، وهذا من ناحية استواء اللفظ بين الشفع والوتر.

ولكن إذا ثبت عِلْميًا أنه لا يوجد كائن مّا، جماداً أو غيره، بمعنى الوتر، فإنه لا يكون موجوداً، حتى في الحصاة الصغيرة، لأنها مكونة من ذرّات، والذرّة لها نواة ومحيط، وحتى الهواء، فإنه مكوّن من غازات وتراكيب، والماء مكون من عنصرين: أوكسجين، وهيدروجين، فلم يبق شيء في الكون فرداً وترًا بذاته، إلا ما نص عليه الحديث (إن الله وتر يحب الوتر)[1].

---

(١) من حديث علىّ ﷺ (٧٨٦، ١٢١٤) وهو حديث صحيح، وأخرجه البيهقى فى السنن (٢/ ٤٦٧).

كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر**»[1].

فهو سبحانه وِتْرٌ مستغْنٍ بذاته عن غيره، واحد في ذاته، وأسمائه وصفاته وأفعاله.

وعلى هذا فإن الشفع هو المخلوقات جميعاً، والوتر هو الله وحده[2].

قال الخازن: الشفع هو الخلق، والوتر هو الله[3].

وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ قال: كل خلْق الله شفع: السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر، والله الوتر وحده.

وهذا القسَم يشمل قوله تعالى:﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٣٩].

ومفهوم هذا: وجود وتر من المخلوقات يُشفع بغيره، ولا يستغنى بذاته عن غيره، فهو يحتاج إلى العنصر الآخر ولابد.

وعليه: يحمل إطلاق الوتر على يوم عرفة، وإطلاقه على كل نظير يُضَم إليه فيكون شَفْعاً.

ومنه حديث عمران بن حصين ﷺ أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر، فقال: «**هي الصلاة، بعضها شفع وبعضها وتر**»[4].

أما القسَم الخامس فهو قوله تعالى ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أي أُقسم بالليل وهو يسري بظلامه، ويُرخي ظلاله على العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمئنون رحمة من الله بهم كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣] ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧] ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ٢] أي إذا تمكن ظلامه واشتد، وعندما يسري الليل يأخذ الناس حظهم من النوم، والمراد جنس الليل، وخصه بعضهم بليلة مزدلفة، والعموم أولى.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٤١٠)، وصحيح مسلم برقم (٢٦٧٧).

(٢) ينظر بحث الشيخ عطية سالم في تتمة أضواء البيان (٢١٠/٩).

(٣) تفسير الخازن (٣٧٤/٤).

(٤) المسند (٤٣٧/٤) برقم (١٩٩١٩،١٩٩٣٥) وإسناده ضعيف لإبهام الراوى عن عمران، وبقية رجاله ثقات، وأخرجه الترمذى (٣٣٤٢)، والطبرانى فى الكبير (٥٧٩/١٨).

قَسَمٌ مُقْنِعٌ لِكُلِّ صَاحِبِ عَقْلٍ

٥ - ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ ﴾

أقسم الله تعالى: بالفجر والليالي العشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر، ثم قال: أليس فيما أقسمتُ لكم به ما هو جدير أن تؤكَّد به الأخبار عند كل ذي عقل سليم.

﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ ﴾ مقنع لكل صاحب عقل يحجُر صاحبه عن ارتكاب ما لا ينبغي؟

والجواب: بلى، فإن مما لاشك فيه أن كل ذي عقل يعلم تمام العلم أن ما أقسم الله تعالى به من عظيم مخلوقاته، فيه تأكيد كاف ومقنع لصدق ما أقسم الله تعالى عليه، وبعض هذا القسم يكفي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

والله تعالى يقسم بأسمائه وصفاته لعلمه.

ويقسم بأفعاله لقدرته، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ [الليل: ٣].

ويقسم بمفعولاته لعجائب صنعه كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾[1].

فالأقسام الخمسة في هذه الآيات لما فيها من بديع صنع الله تعالى وعظيم قدرته.

إِهْلَاكُ أَقْوَى الأُمَمِ فِي السَّابِقِ يُؤْذِنُ بِإِهْلَاكِ أَمْثَالِهَا فِي الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ

٦-٨- ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ[2] ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ ﴾

ثم ذكر الله سبحانه مقدمة دليل جواب القسم، وهو ما فُعل بقوم عاد وثمود وفرعون من عذاب الاستئصال.

والمعنى: أن الله تعالى سيصُبّ العذاب صبّاً على كل من كذب بخاتم الرسل ﷺ كما صبّه على أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم:

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم يصل إلى علمك - يا رسولنا - وترى بقلبك وبصيرتك ﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ وهم أهل الأحقاف الذين كانوا في الربع الخالي من جنوب الجزيرة العربية، الذين قال الله عنهم: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [هود: ٥٩].

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٤١/١٩).

(٢) رقق الأزرق راء ﴿ إِرَمَ ﴾ وفخمها، والباقون بالتفخيم قولاً واحداً.

وقال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨].

وقوم عاد، نُسِبُوا إلى أبيهم: عاد بن عُوصي، بن إرم، بن سام، بن نوح.

و﴿ إِرَمَ ﴾ هو جدهم الأول، وهم عادا الأولى، الذين أرسل الله إليهم نبيه هوداً عليه السلام، وكانوا أقوى القبائل في عصرهم، معروفين بالبطش والقوة، وضخامة الأجسام، وطول الأعمار، ومهارة البنيان في الأماكن المرتفعة، واتخاذ المصانع، وكانوا أهل زروع وجنات وعيون، كما كانو أهل عُمُد وخيام وماشية.

وكان لعاد ابنان: شداد وشديد، فملَك (شديد) بعد أبيه البلاد وقهر العباد، ثم ملَكها بعده (شدّاد) فبنى مدينة عظيمة وسماها باسم جده ﴿ إِرَمَ ﴾ وَوُصفت هذه المدينة بأنها ﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ وهي الأعمدة والدعائم القوية التي ترتكز في الأرض ليقوم عليها البيت أو القبة أو الخيمة، وكان لها أعلام بنوْها في طرقهم ليهتدي بها المسافرون، وهي التي قال الله عنها﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ أي مرتفع من الأرض﴿ ءَايَةً ﴾ أي علامة لمجرد العبث والفخر والزينة﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

وقد وصف الله تعالى هذه المدينة بأنه لم يُبن مثلها في زمانها، فكانت بيوتهم ذات أعمدة ترتفع عليها خيامهم، ومبانيهم الفارهة، كما كان أهل القبيلة ضخام الأجسام، أقوياء الأبدان، عتاة، جبارين، متمردين، وقد وصفهم الله تعالى بقوله:

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ [الأعراف: ٦٩].

ومن الأمم في عصرنا الحاضر من يقول مقالة قوم عاد (من أشد منا قوة) كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ ﴾ [فصلت: ١٥].

ومع هذه القوة في الأجساد والبنيان والحضارة، فإن الله تعالى قد أهلك قوم عاد، وأتى عليهم، بجُنْد ضعيف من جنوده، هي الريح، كما جاء في قوله تعالى:

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات: ٤١ - ٤٢].

لقد سلط الله على أقوى أمم الأرض ريحًا فاستأصلتهم:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر: ١٩ - ٢٠].

وقد استمرت هذه الريح ثمانية أيام: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٦].

هَلاكُ القُوَّةِ الثَّانِيَةِ فِي الأَرْضِ

٩- ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ [١] ۝٩ ﴾

وبعد أن ذكر الله تعالى هلاك أقوى الجبارين في الأرض من الأمم القديمة، في جنوب الجزيرة العربية، ذكر في هذه الآية هلاك أقوى الجبارين في شمال الجزيرة العربية، وهم قوم عاد الآخرة، الذين قال الله فيهم﴿ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴾ [النجم: ٥١] بعد أن قال سبحانه:﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [النجم: ٥٠] وهم قوم عاد الذين سبق ذكرهم.

وقوم ثمود: نسبة إلى جدهم ثمود، وهم من بقايا (عاداً الأولى)، ممن هاجر منهم من جنوب الجزيرة إلى شمالها، ومنازل ثمود في (وادي القرى) وتسمّى (الحجر) كما في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الحجر: ٨٠] كما تسمى (حجر ثمود) وهو وادٍ بين خيبر وتيماء، في الطريق من المدينة إلى الشام، وبيوتهم موجودة إلى الآن، تعرف بـ (مدائن صالح).

وهم أول أمم البشر الذين نحتوا الصخر والجبال والرخام، وكانوا يُنقِّبون الجبال ويجعلونها بيوتاً لهم، وقد بنوْا ألف وسبع مئة مدينة كلها بالحجارة بوادي القرى[٢].

كما قال تعالى: عنهم﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤٩] وهم أول من قطع الصخر واتخذ في الجبال بيوتاً ومساكن.

---

(١) أثبت الياء وصلاً من ﴿ بِٱلْوَادِ ﴾ ورش، وأثبتها في الحالين البزي ويعقوب، وأما قنبل فقد أثبتها وصلاً، واختلف عنه فيها وقفا بين الحذف والإثبات، وحذفها الباقون وصلاً ووقفاً.

(٢) تفسير القرطبي (١٩/٤٨).

وكما أهلك الله قوم عاد واستأصلهم لمَّا كذبوا نبيهم هوداً، فعَل ذلك بقوم ثمود حين كذَّبوا نبيهم صالحاً، وعقروا الناقة﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٥].

وكما سمَّى الله وسيلة هلاك قوم ثمود بالطاغية سمَّاها أيضاً بالصاعقة وبالصيحة.

فقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ [القمر: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴾ [الذاريات: ٤٣ - ٤٥].

وقد وصف الله تعالى حضارتهم بقوله ﴿الَّذِينَ جَابُوا﴾ أي نحتوا وقطعوا ﴿الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أي وادي القرى بمدائن صالح، واتخذوا فيها بيوتاً ومساكن.

هَلاكُ فِرْعَوْنَ أَقْوَى الطُّغَاة

١٠ - ١٢ - ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾

أما ثالث أقوى الجبارين في التاريخ القديم: فهو فرعون الطاغية، الذي قال لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤].

وقال لهم ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨].

وقال لموسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقد ذكر فرعون أن مقومات الإله متوافرة فيه، فقال:

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٥١].

ومع هذا الطغيان والجبروت الذي لا يضاهَى، فقد علمتَ - أيها المخاطب - ما فعل الله بفرعون مصر، صاحب الجنود الكثيرين الذين ثبَّتوا مُلْكه، وقوُّوا أمره.

كما كان له أوتاد يضربها في الأرض ويشد فيها الناس لتعذيبهم كما فعل بآسية.

وكان لجنوده خيام كثيرة يضربونها في الأرض حيث نزلوا، وهو باني إهرامات مصر على شكل الأوتاد.

تعذيب ماشطة بنت فرعون:

جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أن خازن فرعون (حزقيل) كان مؤمناً يكتم إيمانه، وكانت امرأته ماشطة، لبنت فرعون، وكانت مؤمنة أيضاً، فوقع المشط من يدها يوماً فقالت: تعس من كفر بالله، فقالت بنت فرعون: هل لكِ من إله غير أبي؟ فقالت: إلهي وإله أبيك، وإله السموات والأرض واحد، هو رب العالمين وحدة لا شريك له، فلما ذكرتْ ذلك لأبيها طلب منها أن تُقرّ بأنه الإله، وتكفر بما تقول، فأبت فشدَّها في أربعة أوتاد، وأرسل عليها الحيّات والعقارب، وذبح ابنتها الكبرى أمامها كي تكفر، فأبت، فجيء بابنتها الرضيعة، فلمّا أراد ذبْحها أنطق الله لسانها ـ وهي من الأربعة الذين تكلموا في المهد ـ فقالت لأمها: لا تجزعي يا أماه، فإن الله قد بنى لك بيتاً في الجنة، فاصبري، فذُبحت الطفلة، وماتت الأم فأسكنها الله جنته.

تعذيب آسية امرأة فرعون:

وكان فرعون قد تزوج امرأة من بني إسرائيل هي (آسية بنت مزاحم) فلما رأت ما صنع فرعون بالماشطة أنكرت ذلك عليه، فأرسل إلى أبويْها فأنكرَا عليها قولها، فأعلنتْ إيمانها بالله وكُفْرها بفرعون، فشدَّها في أربعة أوتاد لتعذيبها، ففتح الله لها باباً إلى الجنة، ليهوّن عليها ما يصنع فرعون، فقالت عندئذ ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١] فقبض الله روحها وأدخلها الجنة[١].

وإلى جوار كَثْرَةِ جنود فرعون، والأوتاد التي كان يربط فيها الناس لتعذيبهم:

فقد أخرج ابن جرير وغيره بسنده عن قتادة أن فرعون كانت له مظال وملاعب يُلْعَبُ لَه تحتها، وأوتاد كانت تُضرَب له[٢].

وفسّر بعض أهل العلم أن المراد بالأوتاد: الإهرامات المعروفة في مصر، فهي تشبه الأوتاد في منظرها، على شكل مثلّث قاعدتُه إلى أسفل، وطرفُ قِمَّتِهِ مُدبَّب في أعلاه

(١) ينظر: تفسير الخازن (٤/٣٧٦)، والبغوي وغيرهما.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢/٣٧١)، والطبري (٢٤/٣٧١).

شِبْه الوتد، وقد بناها الفراعنة لتكون قبوراً لهم، وسخَّروا شعوبهم في بنائها، ولعل هذا هو المراد بالأوتاد.

وموضع العظة والعبرة أن الله تعالى قد أهلك هذا الطاغية، باني هذه الإهرامات القائمة المشاهدة لكل جيل في كل زمان، لأنه كذَّب نبي الله موسى عليه السلام، وهكذا يهلك الله تعالى كل من كذب خاتم النبيِّن ﷺ وليس هناك ما يمنع الجمع بيْن أن يراد بالأوتاد: الأهرامات، أو الأوتاد التي كان فرعون يعذب فيها الناس.

ثم وصف الله تعالى: عاداً وثمود وفرعون، بشدة الطغيان والظلم والعصيان، فكان ظُلْم كل منهم في بلَده بما أوْقع من طُغيان في كل جانب من جوانب الحياة، فأفسدوا فيها وتجاوزوا كل حد في العصيان والظلم.

ثم فسر سبحانه هذا الطغيان: بأن كُلًّا من هؤلاء الثلاثة: عاد وثمود وفرعون، قد تجاوز الحد بالفسق والخروج عن طاعة الله تعالى، فأكثر من القتل والظلم والجور واستعباد الناس، وصد الناس عن دين الله، وهذا موجب لهلاكهم.

عِقَابُ اللهِ تَعَالَى لِلطُّغَاةِ وَالظَّالِمِينَ

١٣، ١٤ - ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ[1] ﴿١٤﴾ ﴾

أي: وكان هذا الإكثار من الفساد سبباً في غضب الله تعالى عليهم، فصب الله عليهم العذاب صبّاً، وتم ذلك بصورة مفاجئة قضتْ عليهم جملة﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

١- أما عاد فقد رأوا السحُب في الأفق، فظنوها تحمل المطر إليهم، وإذ به ريح فيه عذاب شديد﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

٢- وأما ثمود فقد أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأنهم لم يكونوا فيها.

٣- وأما فرعون وجنوده: فقد رأوا البحر قد انحسر ماؤه، وتجمّد، وصار كالجبل الأشم، وعبَر موسى ومن معه طريقاً يابساً آمناً، فنزل فرعون بجنده البحر وراءهم في هذا الطريق اليابس الآمن، فلما اكتملوا داخل البحر أطبقه الله عليهم وأغرقهم ﴿فَغَشِيَهُم

(١) راء (لبلمرصاد) مفخمة لجميع القراء، لوجود حرف استعلاء بعدها.

﴿مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠].

وهذا معنى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي أفرغ العذاب عليهم إفراغا فكان كالسوط في سرعته وشدته.

وهكذا يفعل الله بكل ظالم، وبكل طاغية مفسد في كل زمان ومكان.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ يرصُد عمل كل إنسان، ويُحصيه عليه، ويجازيه به.

وفي هذا تهديد ووعيد لكل من أصر على الجحود والعناد، أن يصيبه مثل ما أصاب أسلافه، والله تعالى يمهل الظالمين قليلاً، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩].

وإذا علم المؤمن أن ربه بالمرصاد لكل طاغية جبار، اطمأن قلبه، ونام ملىء جُفُونه، فلن يفوت أحد من الحساب والجزاء وفق ميزان دقيق لا يخطىء ولا يَظْلِم، ولا يأخذ أحداً بذنب غيره ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

كَثْرَةُ الْمَالِ وَالْجَاهِ لاَ يَعْنِيانِ رِضَى اللهِ تَعَالَى عَنِ الْعَبْدِ

١٥ - ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ[1] فَيَقُولُ رَبِّىٓ[2] أَكْرَمَنِ[3] ﴿١٥﴾﴾

يخبر الله سبحانه أن الإنسان لا علم له بعواقب الأمور، فهو يظن أن إكرام الله له بالمال والصحة والجاه دليل رضا الله تعالى عنه، وأن هذا الإكرام سيستمر ويدوم، وهو لا يعلم أن السبب فيما أصابه هو عدم إيمانه بالله وإهانته لليتيم وعدم رحمته بالمساكين وحب المال حبا جماً، وهكذا.

---

(١) عدّ المدنى الأول والأخير والمكى والحمصى، قوله تعالى ﴿نَعَّمَهُۥ﴾ آية، وتركها غيرهم.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو وأبوجعفر بفتح ياء الإضافة من ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ وصلاً، والباقون بإسكانها ومثلها ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ في الآية بعدها.

(٣) أثبت ياء بعد النون من ﴿أَكْرَمَنِ﴾ و ﴿أَهَٰنَنِ﴾ في حالة الوصل، نافع وأبوجعفر وأبوعمرو بخلف عنه، وأثبتها وصلا ووقفا البزي ويعقوب، والباقون بحذفهما في الحالين، هذا: وقد انفرد الحمصى وحده بترك عدّ ﴿أَكْرَمَنِ﴾ وعدّها غيره.

هذه سنة الله في خلقه - وفق علمه وحكمته - أن يراقب أعمال عباده ويحاسبهم ويجازيهم عليها، والإنسان العاقل هو الذي يفهم هذا المعنى، فيؤدي ما كلَّفه الله به، كي يسعَد في الدنيا والآخرة.

أما الإنسان الشقي فإن النعمة تُبطره وتُطغيه، كحال الأمم الثلاث: عاد وثمود وفرعون وقومه، فقد توهَّموا أنهم أهل كرامة عند ربهم بحكم ما هم فيه من نعمة وترف، فكذّبوا رسل الله ولم يصدقوهم، ونَفَوا أن يكون هناك يوم آخر، يُسألون فيه عما أُنذورا به في الدنيا.

فإذا أصيب هذا الشقي بما هو عكس لذلك، بأن سُلبت منه النعمة، أو ضُيِّق عليه في الرزق، فإنه يعتبر ذلك ذلة ومهانة فيسخط ويتضجر.

والإنسان في كلتا الحالتين مُخطىء مذموم، فهو يظن أنه أهل لكثرة المال، وأنه قد آل إليه عن طريق الخبرة والحنكة والعلم، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

وهو يحسب أن هذا المال دليل رضى من الله تعالى عليه﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦] يظن أنه سيكون سعيداً في الآخرة - إن كان هناك آخرة على حد زعمه - كما هو سعيد في الدنيا، فيقول:

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [فصلت: ٥٠].

ويقول: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

هذا في حالة ما إذا مسه الخير.

أما إذا مسه الشر والفقر فسرعان ما يسخط ويجزع، كما قال تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩ - ١٠].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت: ٥١].

والمفهوم الصحيح أن يعتقد العبد أن الله تعالى يبتلي بسعة الرزق، كما يبتلي بتضييقه، وأن المال فتنة في كلتا الحالتين﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥].

كما أن الله تعالى يبتلي بالمنصب والجاه، والصحة والمرض، والنصر والهزيمة، والخير والشر، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وكثرة المال قد تؤدي بالإنسان إلى أسوأ المهالك قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤ – ٤٥].

ولذلك فإن الله تعالى في هذه الآية، ينكر على الإنسان زعمه الفاسد واعتقاده الخاطىء في أن توسعة الرزق عليه إكرام من الله تعالى له، بل هو ابتلاء واختبار.

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ ﴾ أي اختبره بالنعمة وبسط العيش ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾. يظن أن ذلك لكرامته على ربه ورضاه عنه، هذا هو الصنف الأول من الناس.

الفَقْرُ وَالضَّعْفُ لاَ يَعْنِيانِ سَخَطَ اللهِ تَعَالَى عَلَى العَبْدِ

١٦ – ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ[1] عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ[2] فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

هذه الآية وصف للكافر الذي لا يؤمن بالبعث، ويعتقد أن الكرامة والهوان في حظوظ الدنيا، أي أن الإنسان إذا اختبره ربه بتضييق الرزق عليه، فإنه يظن أن ذلك لهوانه على الله تعالى، وهذا عندما يخلو القلب من الإيمان، فلا يدرك أن قيمة العبد عند الله تعالى لا تتعلق بما يعطيه الله له من عَرَض الدنيا، وأنه لا يُستدل بذلك على رِضَى الله تعالى أو سخطه بالمنح أو المنع، وأن الله تعالى يعطي ليبتَلِي، ويمنع ليبتلي، غير أن الإنسان لا يدرك حكمة المنع والعطاء، ولا حقيقة القيم في ميزان الله تعالى، فإذا عمَر القلب بالإيمان، أدرك هذه المعاني، وعرف أن وراء الابتلاء حساب وجزاء، فيشكر على الخير، ويصبر على الضر.

---

(١) قرأ ابن عامر وأبوجعفر بتشديد الدال من ﴿فَقَدَرَ﴾ والباقون بتخفيفها، وهما لغتان بمعنى واحد هو التضييق.

(٢) عد الحجازيون (رزقه) آية، وتركها غيرهم.

وغير المؤمن هو الذي يعتقد أنه لا كرامة للعبد إلا في متاع الدنيا، ولا إهانة له إلا في الحرمان منها، لأنه لا يؤمن بالبعث، وهذا هو الصنف الثاني من الناس.

أما المؤمن فيعتقد أن كرامته عند الله تعالى بالفوز برضاه والجنة عندما يحسن العمل للدار الآخرة.

فالكريم عند الله تعالى هو: من يوفقه لطاعته والعملِ لآخرته ويدخله جنته.

والإهانة عند الله تعالى: ألاّ يوفَّق العبد للطاعة وأن يكون من أهل النار.

أَرْبَعَةُ أَسْبَابٍ لإِهَانَةِ الْعَبْدِ عِنْدَ رَبِّهِ

١٧، ١٨- ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ[1] ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ[2] عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾

ولما صحح سبحانه المفاهيم في العطاء والمنع، والسعة والضيق، بيّن الحقيقة في فتنة الابتلاء بالمال: إيجاباً وسلباً، وجمعاً وبذلاً، وأنه ليس الأمر كما يزعم غير المؤمن، من أن الله تعالى يعطي العبد الثرىّ من المال والجاه لكرامته على الله تعالى، ويمنع العبد الفقير لهوانه على الله تعالى، وإنما هو ابتلاء اقتضته حكمته تعالى، ليختبر العبد، أيشكر أم يكفر؟ أيصبر أم يتضجر؟ وكرم المرء يكون بطاعة الله تعالى، وإهانته تكون بمعصيته، فليس الإكرام والإهانة في كثرة المال أو قلّته، بل الإكرام: في التوفيق لطاعة الرحمن، والإهانة: في الحرمان والخذلان.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أربعة أسباب لإهانة العبد عند ربه وعدم قيامه بشكر النعمة، فكان ذلك سبباً في فشله في الاختبار.

---

(١) قرأ أبوعمرو ويعقوب بخلْفٍ عن روح، بياء الغيبة في هذه الأفعال الأربعة (تكرمون، تحاضون، تأكلون، تحبون) والباقون بتاء الخطاب في الجميع على الالتفات وهو الوجه الثاني لروح.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وأبوجعفر وخلَف بفتح الحاء وألف بعدها من ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ على حذف إحدى التاءين تخفيفاً، لأن أصلها تتحاضون، والباقون بضم الحاء وحذف الألف التي بعدها، مضارع حَضّ يحض.

ومجمل هذه الأسباب هى: إهانة اليتيم، وعدم إطعام المسكين، وأكل المال الحرام، وحب الدنيا، وهذه نبذة يسيرة عن كل منها:

السبب الأول: هو عدم إكرام اليتيم، وعدم إحسان معاملته، فالذي يضنّ بماله على اليتيم ـ وهو الذي مات أبوه وهو صغير قبل سن التكليف ـ فلا يُطعمه، ولا يقوم بكفالته وتربيته، يكون قد رسَب في فتنة الابتلاء بالمال، واستحق الإهانة، لأنه عصى الله تعالى بعدم جبر خاطر اليتيم والإحسان إليه، وربما نهره وأهانه.

وكفالة اليتيم من أفضل القربات إلى الله تعالى، وما أكثرهم في العالم الإسلامي اليوم، الذي ابتُلي بالحروب في جنبات الأرض، وكثُرت فيه الأرامل والثكالى واليتامى لاسيما في فلسطين وأفغانستان والعراق والبوسنة والشيشيان..الخ.

عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة**» وقرن بين أصبعيه: الوسطى والتي تلي الإبهام[(١)].

والسبب الثاني: هو عدم الحث على إطعام المسكين:

أي أنهم لا يأمرون غيرهم بسد حاجة الفقراء والمعوزين المحتاجين، وذلك للشح الذى استولى على نفوسهم وحب الدنيا الذى تمكّن من قلوبهم.

ونَفْي الحضِّ على إطعامهم، نَفْي لإطعامهم من باب أولى، فهم لا يُطْعِمون المسكين، ولا يحثّون غيرهم على إطعامه، لأن قلوبهم قد خلَتْ من الرحمة والعطف، وهذا من أسباب الإخفاق في الابتلاء بالمال، لأنّ المبتلَى لا يعلم أن إنفاق المال في عتق الرقيق، وإطعام اليتيم والمسكين، من أسباب تجاوز الشدة والعقبة يوم القيامة.

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [البلد: ١١ - ١٦].

---

(١) سنن أبي داود برقم (٥١٥٠)، وهو في صحيح البخاري من طريق ابن أبي حازم برقم (٦٠٠٥)، وفى المسند (٢٢٨٢٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الترمذى (١٩١٨)، وابن حبان (٤٦٠) وغيرهم.

وعدم إطعام المسكين جاء مقروناً بترك الصلاة، وبالتكذيب بيوم الحساب والجزاء عندما يقال لأهل النار ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٤].

كما أن عدم الحض على طعام المسكين جاء مقروناً بالتكذيب بيوم البعث والنشور، كما في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١ - ٣].

فهم لا ينفعون المساكين، لا بِبذل أموالهم، ولا بالوساطة والشفاعة الحسنة في حث الناس على إطعامهم، فيبقى المسكين مغلوباً مقهوراً بينهم لا تمتد إليه يد بالعون.

السَّبَبُ الثَّالِثُ: فِي عَدَمِ اجْتِيَازِ فِتْنَةِ الْمَالِ بِنَجَاحٍ

١٩، ٢٠- ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

إن هؤلاء المفتونين بالمال يأكلون حقوق الآخرين في الميراث وغيره أكلاً شديداً بِنهَم، فربما أكل مال وصيّه أو وَليّه، أو أُختِه، ولا يزال هذا موجوداً في بعض البلاد لدى بعض القبائل وبعض المجتمعات إلى وقتنا.

فالمراد بالتراث: هو المال الذي يتركُه المورّث لوارثه الصغير، أو الضعيف، أو الأنثى، أو صاحبِ العاهة وغيرهم، ممن يكون عاجزاً عن حماية ماله، فيأكله مَن لا حق له فيه ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي يضم مال الصغير إلى مال نفسه ويأكلهما جميعاً، ولا يبقى شيئاً كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

فيأخذ أحدكم نصيب غيره في الميراث ويضمه إلى نصيبه، من غير تفْرقة بين الحلال والحرام.

وكان العرب لا يعطون الأنثى، ولا الصغير من الميراث، بل ينفرد به الرجال[1].

وأكل التراث يشمل جميع الانتفاعِ والتصرفات المالية.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (١٩٨/٤)، والخازن والنسفي (٣٧٨/٤)، والشوكاني وغيرهم.

والسبب الرابع: محبتكم للمال حُبّاً مفرطاً مع شدة الحرص عليه، ومنع حقوق الله وحقوق العباد منه، فأنتم مولَعون بحب المال حتى استعبدكم وألهاكم التكاثر فيه:

قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر].

وقال سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾[الأعلى].

وقال جل شأنه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٢١﴾ [القيامة].

والإفراط في حب المال يوقع في اكتسابه من طرق غير مشروعة، كالغصب والسرقة والرشوة وأكل الأمانات، وغير ذلك.

والإفراط في حب المال، يجعل الإنسان يضنّ به على نفسه وعلى من يعول، ولا ينفق منه في سبيل الله: في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟» قالوا: يا رسول الله، ما مِنّا أحدٌ إلا مالُه أحب إليه، قال: «فإن مالَه ما قدم ومالُ وارثه ما أَخَّر».

زاد في رواية: «ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبِسْتَ فأبليتَ، أو أعطيتَ فأمضيتَ»[1].

فهذه الأسباب الأربعة تقول: إنكم أيها الأشقياء لا تُدرِكُون معنى الابتلاء بالمال، فلم تحاولوا النجاح فيه: بإكرام اليتيم، والتواصي على إطعام المسكين، بل أنتم على العكس من ذلك، تأكلون ميراث غيْرِكُم أكلاً شرِهاً، وتحبون المال حباً طاغياً، وهذه هي أسباب الإهانة وعدم الكرامة عند رب العالمين.

نَتيجَةُ الابتِلاءِ في الدُّنيا تَظهَرُ يَومَ القِيامَةِ

٢١، ٢٢- ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾

ثم بيّن سبحانه وتعالى أن نتيجة الابتلاء بالمال وسعة الرزق تَظْهَرُ يوم القيامة، فإن العذاب الذي لا محيص عنه، ينتظر من يفشل في الامتحان، حين يتذكر فلا تنفعه التذكرة،

---

(١) البخاري (٦٤٤٢) والمسند (٣٦٢٦) من حديث طويل بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

ويندم، ولات ساعة مندم، أما من نجح في الابتلاء فسيدخل الجنة راضياً مرضيّاً.

والمعنى: ليست الأموال ولا الملذات باقية لكم، بل أمامكم يوم عظيم تُدكّ فيه الأرض والجبال، ويجئ الله لفصل القضاء بين عبادة، وتجئ الملائكة وأهل السموات صفًّا بعد صف ثم يكون الحساب الجزاء.

ذلكم قول الله تعالى ﴿كَلَّآ﴾ أي ما ينبغي أن يكون هذا حالكم، فارتدعوا وانزجروا عما أنتم فيه، فإن أمامكم أهوالاً عظيمة في يوم عصيب، إذا زلزلت الأرض، وكسّر بعضُها بعضاً، فانْهَدَم كل بناء وانعدم، فزالت معالم الأرض، واستوت الجبال بالوديان، وكان ذلك إيذاناً بخراب هذا العالم وزواله، وقيام الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

وجاء ربك مَجيئاً يليق بجلاله لفصل القضاء بين خلقه، ويطول انتظارهم في أرض المحشر، فيستشفعون برسل الله، وعلى رأسهم أولوا العزم منهم، كي يقضي الله بينهم إما إلى الجنة وإما إلى النار، فيعتذر كل واحد منهم، حتى ينتهي الأمر إلى محمد ﷺ فيقول: أنا لها، أنا لها، فيشفّعُه الله تعالى في خلقه، وهي أول الشفاعات، وهي المقام المحمود، فيجيء رب العالمين لفصل القضاء بين الخلق، مجيئاً لا يعلم حقيقته إلا هو سبحانه، كما تأتي الملائكة صفوفاً صفوفاً، يأتى ملائكة كل سماء صفاً، لتنفيذ أوامر الله تعالى فيما يقضي به بين عباده، وهم مُحدّقون بالإنس والجن من كل جانب.

جَهَنَّمُ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ، وَالْكَافِرُ يَتَحَسَّرُ عَلَى نَفْسِهِ

٢٣، ٢٤- ﴿وَجِاْيٓءَ[1] يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَۚ[2] يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾

أي وأُحْضِرَتْ جهنم في عرَصات القيامة، تقودها الملائكة بالسلاسل، وفُتِحَتْ أبوابُها، فأُظْهِرَت وبرزَت للكافرين والمشركين يوم القيامة، كما قال تعالى:

---

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسرة الجيم للضم من ﴿وَجِاْيٓءَ﴾ والباقون بالكسرة الخالصة.

(٢) لم يعد الكوفى والبصرى (بجنهم) آية، وعدها الحجازيون والشامى.

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ [الشعراء: ٩١] قال سبحانه: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٦].

وأهل جهنم يساقون إليها كما تساق الإبل العطشى إلى موارد المياه، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر: ٧١].

وإذا رأت النار أهلها من بعيد، سمعوا لها تغيظاً وزفيراً، فهي تكاد تتقطع من الحِنْقِ عليهم.

عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[1].

وفي هذا اليوم يتعظ الكافر ويندم على ما فرّط منه، وما وقع فيه من كفر وفسوق وعصيان، ومن أين له أن ينتفع بهذا الاتعاظ وهذا الندم، وقد فات أوانه وفرّط في جنب الله وهو في دنياه، إلى أن جاء وقت الحساب والعقاب، وانتهى وقت العمل والنذير، ومضى عهد الذكرى، فلا تفيد الحسرة على فوات الفرصة قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الزمر: ٧١].

وقال جل شأنه: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٧].

وحين يتجلى الموقف للكافر يتحسر على نفسه ويتفجع، ويتقطع قلبه ألماً وتوجُّعاً، فيقول: ياليتني قدمت في الدنيا من الأعمال الصالحة التي تنفعني في حياتي الآخرة، فهي الحياة التي تستحق أن يُستعدّ لها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وينتهي الأمر إلى عذاب لا ينقطع ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٣].

وفي هذا دليل على أن دار الخلد والبقاء هي التي يجب أن يعمل لها العبد ويسعى جاهداً في تقديم الزاد الذي ينفعه لهذه الدار.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٢)، وسنن الترمذي برقم (٢٥٧٣)، وتفسير الطبري (٣٨٩/٢٤)، وابن أبي شيبة (١٥١/٣).

عَذَابُ الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ

٢٥، ٢٦ - ﴿ فَيَوْمَئِذٍ [1] لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

وفي هذا اليوم العصيب، لا يعذِّب أحد كعذاب الله للكافر يوم القيامة، ولا يوجد فيما يعرفه الإنسان عذاباً أشد من عذاب الله تعالى لمن عصاه ولم يؤمن بخاتم الرسل ﷺ.

وليس في استطاعة أحد أن يعذِّب أحدا مثل تعذيب الله تعالى لمن كفر به:

قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٥].

وليس في قدرة أحد أن يُوثِق أحداً مِثْل وثاق الله لمن عصاه، ولا يبلغ مبلغه، فإن الكافر يُقيّد بسلاسل من نار، ويُسحب على وجهه في الحميم، ثم يسجر في النار، والوثاق هو: الأسْر في الأغلال والسلاسل، كما يُربط الأسير، أو يقيد بالحديد مَنْ يُساق إلى القتل أو المحاكمة أو السجن..

وإذا كان هذا جزاء المجرمين،فما جزاء من اطمأن إلى الله تعالى وآمن به وصدق رسله؟

مَصِيرُ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ

٢٧ - ٣٠ - ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ [2] ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى [3] ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾

وعندما تُدَكُّ الأرض، وتَرجع الأرواح إلى الأجساد، أو تفارقها عند الموت، يقال للنفس التقية الزكية، الموقنة بالإيمان وبتوحيد الله تعالى، التي لم يغتريها ريب، ولم يخالطها شك في إيمانها، بل رضيتْ بقضاء الله تعالى وقدَره، وعلمتْ أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها وما أصابها لم يكن ليخطئها، ويقال لهذه النفس عند الوفاة وعند تمام الحساب ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ

(١) قرأ الكسائي ويعقوب بفتح الذال من ﴿يُعَذَّبُ﴾ والثاء من ﴿يُوثَقُ﴾ على البناء للمفعول، ونائب الفاعل ﴿أَحَدٌ﴾ والباقون بالبناء للفاعل، والفاعل ﴿أَحَدٌ﴾.

(٢) وقف حمزة بالتسهيل فقط على ﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ وأمالها الكسائي وقفا، وكذا حمزة بخلفه.

(٣) انفرد الكوفى بعد ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ آية، وتركها غيره.

﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إلى ذكر الله تعالى والإيمان به في الدنيا، الساكنة إلى محبة الله، التي قرّتْ عينها به، والمطمئنة بما أعده للمؤمنين من النعيم في الآخرة؛ ويقال لها: ليس عليكِ اليوم خوف ولا فزع، ولا حُزْن، فأنتِ في مأمن وطمأنينة، والنفس المطمئنة مكرّمة في ضيافة الرحمن ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥] لأنها استحقت وعد الله تعالى على أعمالها الصالحة. وهذا النداء يشمل كل نفس طاهرة مؤمنة.

ويليها في الدرجة: النفس التي تلوم صاحبها على فعل المعاصي، فترجع وتتوب.

أما النفس الخبيثة فهي التي لا تأمر صاحبها إلا بالسوء.

ويقال للنفس المطمئنة عند الاحتضار وعند تمام الحساب: ارجعي إلى جوار ربك ودار كرامته ونعيمه، راضية بإكرام الله تعالى لك ودخولكِ جنته، فالله سبحانه قد رضي عنك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت وأبوبكر جالس، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذا؟ فقال ﷺ: «**أما إنه سيقال لك هذا؟**»[1].

وفي رواية سعيد بن جبير أن النبي ﷺ قال له: «**أما إن الملَك سيقول لك هذا عند الموت**»[2].

وعن سعيد بن جبير قال: (مات ابن عباس بالطائف، فجاء طير لم يُر على خلقته، فدخل نعشه، ثم لم يُر خارجاً منه، فلما دُفن، تُليت هذه الآية على شفير القبر، ما يُدْرَى من تلاها)[3].

وذكر ابن كثير وغيره عن قُبَاث بن رزين أبي هاشم قال: أُسِرْتُ في بلاد الروم، فجمعَنا الملِك، وعرض علينا دينه، على أنَّ مَنْ يمتنع تُضرَب عنقه، فارتدّ ثلاثة وامتنع

---

(١) الدر المنثور (٥١٣/٨) عن الضياء المقدسي في المختارة برقم (١٢٤)، وابن مردويه كما في فتح الباري (٧٠٣/٨)، وابن أبي حاتم.

(٢) تفسير الطبري (١٢٢/٣٠)، وابن أبي حاتم، وأبونعيم في الحلية (٢٨٣/٤)، قال ابن كثير: وهذا مرسل حسن (٤٠٠/٨).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٩٠/١٠) (١٠٥٨١)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٢٨٥/٩) رجاله رجال الصحيح، وهو عن عبد الله بن أحمد عن أبيه.

الرابع، فضرب عنقه، وألقى رأسه في النهر، فرسب في الماء ثم طفا على وجه الماء ونظر إلى الثلاثة الذين ارتدوا وناداهم كل واحد باسمه، ثم قرأ عليهم ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ ثم غاص في الماء، فكاد النصارى أن يسلموا، ووقع سرير المُلْك، ورجع الثلاثة إلى الإسلام، وجاء فداؤهم من أبي جعفر المنصور[1].

ومما جاء في الأثر: (اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة، تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك)[2].

وهذه النفس المطمئنة يقال لها يوم القيامة: ادخلي في زمرة عبادي الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، زيادة في الثناء، وزيادة في إفاضة الإنعام، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٩].

وقال جل شأنه: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النساء: ٦٩].

والنفس تطلق على الذات كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ﴾ [الإسراء: ٣٣].

وتطلق على الروح التي بها حياة الجسد، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]. والمراد بها في الآية: الجسد والروح معا.

حيث يقال لها: ادخلي جنتي في زمرة عبادي المتقين، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، في دار الأبرار الصالحين.

كما يقال للنفس المطمئنة عند الموت: اخرجي إلى روْح وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح مسكٍ وجَدَهُ أحدٌ في أنفه، وتُفتح لها أبواب السماء، ويوسَّع لها في القبر سبعون ذراعاً.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤٠١/٨) وغيره.

(٢) المعجم الكبير للطبراني عن أبي أمامة (١١٨/٨).

ويقال للنفس الكافرة: اخرجي إلى جهنم، وعذاب أليم، وربكِ عليك غضبان[1].

وممن تنطبق عليهم هذه الآيات الثلاث: عثمان بن عفان ﷺ، لمّا تصدق ببئر رومة.

وحمزة بن عبد المطلب ﷺ حين استشهد في سبيل الله تعالى.

وخبيب بن عديّ ﷺ لمّا صلبه أهل مكة.

وبلال بن رباح، وغيرهم وغيرهم من السلف والخلَف ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه.

فالآية عامة في كل نفس مؤمنة مطمئنة، وتلك هي الكرامة التي لا تَعْدِلُها كرامة.

والخطاب الذى في الآية يخاطب الروح المؤمنة عند الموت، وتخاطب به الروح والجسد يوم القيامة.

تم تفسير (سورة الفجر) ولله الحمد والمنة

---

(١) ينظر: تفسير الخازن (٣٧٩/٤) عن عبد الله بن عمر مختصراً

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَلَدِ (٩٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة البلد) هي السورة التسعون في ترتيب المصحف، والخامسة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة ق) وقبل (سورة الطارق).

وعدد آياتها عشرون آية باتفاق.

وهي اثنتان وثمانون كلمة، وثلاث مئة وعشرون حرفاً.

سميت (سورة البلد) وترجم لها البخاري بـ (سورة لا أقسم).

وهي سورة مكية عند الجمهور.

٢- ابتدأت السورة بقَسَمينْ عظيمَيْن، على أن الله تعالى خلَق الإنسان في شدة وعناء، يحمل أثقال التكاليف الشرعية، ولجام الحلال والحرام، الذي يحجز بينه وبين الشهوات، ولكن الإنسان قد يكفر، ويُنكر البعث والنشور، ويغترّ بما أوتي من جاه ومال وولد، وهو لا يُدرك أنه لا قيمة لهذه الموازين إذا لقى العبد ربه عُرْياناً، لا يكسوه إيماناً ولا صلاحاً، ولا يدري أن الله تعالى سائله عن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه؟

٣- ثم إن الله تعالى أفاض على الإنسان بنعم كثيرة كالعينيْن واللسان والشفتيْن، فهلاَّ كسر قُيود الكفر والتقليد الأعمى، واقتحم طريقه إلى الله تعالى، بإنفاق الأموال في وجوه الخير، بعد أن يكون مؤمناً متزوداً بصالح الأعمال، متواصياً بالصبر والمرحمة، أما من أَبى اقتحام العقبة فله عاقبة أخرى!

٤- وسورة البلد بيّنتْ أن الأنبياء العرب كهود وصالح وشعيب، قاموا بواجب الدعوة إلى الله في أطراف الجزيرة شمالاً وجنوباً، حتى جاء خاتم النبيين ﷺ فكوّن من وسط الجزيرة مَنْ حَمل مشاعل العلم والدعوة إلى العالم أجمع.

٥ - هذا: والآيات الأربع الأول من السورة، فيها قسم مؤكد على أن الله تعالى خلق الإنسان الكافر فى نصب وشقاء ومكابدة فى الدنيا والآخرة.

وبقية السورة تصف هذا الإنسان بأوصاف الكفر وتذكره بنعم الله عليه، ولكنه لم يقتحم طريق النجاة، فكان من أصحاب الشمال الذين أَطبقت عليهم نار جهنم.

أما المؤمن الذى عمل الصالحات وأنفق أمواله في وجوه الخير، وكان من أهل التواصي بالصبر على طاعة الله والبعد عن معاصيه، ومن أهل الرحمة بالناس والشفقة على ضعفائهم، فهو من أهل اليمين السعداء في دار النعيم.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقَسَمُ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الْكَافِرَ فِي شَقَاءٍ، دُنْيَوِيّ وأُخْرَوِيّ

١ - ٤ - ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾

أقسم الله تبارك وتعالى بالبلد الحرام، مكة المكرمة، التي شرّفها ببيته العتيق، وجعله قبلة المسلمين في الشرق والغرب، والشمال والجنوب، ومهبط الرحمات، وإليها تُجْبَى الثمرات، وقد جعلها الله حرَماً آمناً منذ خلق السموات والأرض، والقسم بها تشريف لها.

كما أقسم سبحانه بمكان نزول التوراة والإنجيل في قوله تعالى:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١ ـ ٣] فالبلد هي مكة باتفاق.

و﴿لَا﴾ من ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ لتأكيد القسم، وهو أسلوب تستعمله العرب ، لتعظيم المقسم به، ولبيان أن المقسم به في ظهوره وثبوته أجلى وأكبر من أن يحتاج إلى قسم.

وجملة ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ معترضة بين القسمين، للتنويه بشأن البلد الحرام، وللدلالة على أن الله تعالى : أقسم بمكة التي استحلّ فيها المشركون إيذاء النبي ﷺ بالبلد الحرام الذي يحرُم صيده وشجره ونباته وطيره.

أو أن الله تعالى أقسم بمكة والرسول ﷺ مقيم فيها يدعو إلى الله على بصيرة.

وفي هذا القسَم تشريف وتعظيم لقدْر النبي ﷺ ولمنزلة مكة عند الله تعالى.

وقد أقام النبي ﷺ بمكة ثلاثة عشر عاماً يدعو إلى التوحيد، نزل خلالها عليه أكثر من ثمانين سورة، ومنها هذه السورة، حيث كان ترتيبها في النزول الخامسة والثلاثين.

١-ولفظ ﴿حِلٌّ﴾ يأتي بمعنى استحلال المَحرَّم، أي أن المشركين استباحوا في مكة العدوان على الرسول ﷺ وظُلْمِهم له، وهو بلد حرام يأمن فيه الإنسان والحيوان والطير والشجر والنبات على نفسه، وفي هذا تعريض بالمشركين، وذمّ لهم.

٢-أو أن ﴿حِلٌّ﴾ بمعنى (حَالٌّ) من أَحَلَّ بالمكان أي أقام فيه، ومنه قولهم (في حله

وترحاله) فلأن الرسول ﷺ مقيم فيها بين أهله وأهلها، فكأن مكة قد عُظِّمتْ مرتيْن: مرة لوجود الكعبة بها، ومرة لوجود الرسول ﷺ فيها.

وسواء أكان المراد بإقامة النبى ﷺ فى مكة: الفترة التى كانت قبل الهجرة، أم كان وعْدا من الله تعالى لنبيه ﷺ بالفتح والنصر في المستقبل بعد الهجرة.

٣- ومن معاني ﴿حِلٌّ﴾ بمعنى: أباح، أى أن الله تعالى قد أحل مكة يوم الفتح، ساعة من نهار، للنبي ﷺ يصنع فيها ما يريد من القتل والأسر، فأمر بقتل (ابن خطَل) وهو متعلق بأستار الكعبة، وأمر بقتل (مقيس بن صُبابة) وأحل دماء قوم وحرم دماء قوم، وقال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ (دخل عام الفتح وعلى رأسه المِغْفر، فلمّا نزعه جاء رجل فقال: إن ابن خطَل متعلق بأستار الكعبة، فقال: «اقتلوه»)[١].

وأخرج ابن عبد البر عن سعيد بن جبير ﷺ أن النبي ﷺ لمّا افتتح مكة، أخذ أبوبَرْزة الأسلمي هو وسعيد بن حُرَيْث: عبد الله بنَ خطَل، وهو الذي كانت قريش تسميه ذا القلْبيْن فأنزل الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤] فقدّمه أبوبرزة فضرب عنقه وهو متعلق بأستار الكعبة، بين الركن والمقام، فأنزل الله ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾.

وكان ابن خطل قد قال لقريش: أنا أعلم لكم عِلْمَ محمد، فجاء إلى النبي ﷺ يطلب منه أن يجعله من كُتّاب الوحي، فكان النبي ﷺ إذا أملى عليه (عليماً حكيماً) يكتب حكيماً عليماً، فإذا قرأ ما كتبه على النبي ﷺ قال له (ما هكذا أمليتُ عليك)، فلم يؤمّنْه النبي ﷺ وكان أحد أربعة لم يؤمّنهم النبي ﷺ[٢].

وفي حرمة مكة يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ﴾ [النمل: ٩١].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٤٥٠)، والبخاري برقم (١٨٤٦).

(٢) ينظر: التمهيد (١٧٠/٦)، وكذا الطبري (٤٠١/٢٤)، وابن مردُويه، وعبد بن حُميد.

ويقول أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ومع أن الله تعالى قد حرَّم مكة إلى يوم القيامة، وصان فيها حرمة الإنسان والحيوان والنبات والطير والشجر، ولم يحلّها إلا لرسوله ﷺ ساعة دخولها فاتحاً، لتحطيم الشرك والوثنية، فإن أهل مكة قد استباحوا حرمة النبي ﷺ فيها واستمرؤوا العدوان عليه وهو بين أظهرهم، فآذوه كل الإيذاء حتى وضعوا سَلاَ الجزُور عليه وهو يصلي، وآذُوه في دعوته بالطائف، ومنعوه من دخول مكة مَسْقَط رأسه حين جاء إليها معتمراً، فكانوا يحرّمون أن يقتلوا صيداً في البلد الحرام، ويستحلون قتل النبي ﷺ فيه، وإخراجه منه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحلّ القتال فيه لأحد قبلي، ولم يَحلّ لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضَد شوكه، ولا يُنفّر صيده، ولا يُلتقَطُ لُقطتُه إلا من عرَّفها، ولا يُختلى خلاها**» قال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخِر، فإنه لِقَيْنهم ولبيوتهم، قال: قال: «**إلا الإذخر**»[1].

وأخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد في معنى ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾.

قال: لا تؤاخَذُ بما عملتَ فيه، وليس عليك فيه ما على الناس.

فخلاصة المعاني في هذه الآية:

١ - وأنت حل: أي مقيم بمكة.

٢ - أو وأنت حل: أي أحل الله لك مكة ساعة من نهار.

٣ - أو وأنت حل: أي أن المشركين استحلوا العدوان عليك فيها وهم يحرّمونها.

٤ - أو وأنت حل: ليس عليك مؤاخذه فيما فعلت فيه مع الناس.

ولا تعارُض بين هذه المعاني الأربعة، فالآية تشملهم جميعاً، وكلها قد حدثت ووقعت.

---

(١) صحيح البخاري برقم (١٨٣٤)، وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣)، والطبري (٢٤/٤٠٥).

ثم أقسم تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ تنبيهاً على قدرة الله تعالى وتعظيماً للتناسل والتوالد بين الناس.

وقد اختلف الناس في المراد بالوالد والمراد بالولد:

١- قال عكرمة: المراد بالوالد والولد: العاقر الذي لا يلد من الرجال والنساء[1].

فما نافية، فى ﴿وَمَاوَلَدَ﴾ وهو الذى عناه عكرمة.

٢- وقال ابن عباس: المراد: آدم وما تناسل منه من ولد[2].

٣- وقيل: هو عام في كل والد وولده من إنسان وحيوان.

٤- واختار بعضهم أن الوالد هو إبراهيم عليه السلام، والولد: الصالحون من ذريته، لمناسبة أن إبراهيم هو الذي اتخذ مكة مسكناً لابنه إسماعيل وزوجه هاجر.

وهو القائل: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] فإبراهيم وابنه إسماعيل سكان البلد الأصليين، وإسماعيل جد محمد ﷺ.

وقد قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ٦٨].

وإبراهيم هو الذي دعا ربه أن يبعث في هذه الأمة رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

فإبراهيم هو الوالد، ومحمد من ذرية إسماعيل، وهو ولده الذي خُتمت به الرسالات، وأقام دولة التوحيد في الأرض.

وكما أقسم الله تعالى بأم القرى، أقسم بمن أقام قواعد البيت بمكة، وبمن ختم الله به الرسالات في أم القرى وما حولها.

ومع وجاهة هذا التحليل، فإنني أميل لما رجَّحه بعض أهل العلم من أن المراد بالوالد والولد: آدم عليه السلام وذريته، فهو قسَم يشمل البشر جميعا، وكأن الله تعالى قد أقسم بأبي البشر، كما أقسم بأم القرى، وهذا قسَم بأصول الموجودات وفروعها.

---

(١) أخرجه الطبري برجال ثقات إلا النضر بن عربي، لا بأس به، فالإسناد حسن، تفسير الطبري (٢٤/٤٠٦).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/٥٢٣) وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس.

أما المقسم عليه فهو قوله تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ ويصح أن يراد به عموم الإنسان، المؤمن والكافر، أي أنه لا يزال يكابد شدائد الحياة مِنْ حَمْلِه حتى موته.

وفي قبره إلى آخرته، ولكن سياق الآيات لا يرشح هذا المعنى.

ويصح أن يكون المراد بالإنسان: الكافر، وهو الأنسب للسياق، لأن الآية التالية وصَفَتْهُ بأنه لا يؤمن بالبعث، وأنه يظن أن الله تعالى لا يراه ولا يحاسبه على ما قدمت يداه، والسورة مكية تخاطب المجتمع المشرك.

والإنسان الشقي خلَقه الله تعالى في تعب ونصب في الدنيا والآخرة بسبب انحرافه عن الفطرة:

أ - أما الكبَدُ الذي يعانيه الكافر في الدنيا فمنه: التّشتّت في تعدد الآلهة، واضطراب العقيدة بين دعوة الشركاء، والتوجه إلى الله تعالى عندما يصاب بالضر، ومنه: الإقرار بوجود الخالق الرازق والتوجه بالعبادة إلى غيره، وعدم الإيمان بالبعث والنشور مع اعترافه بوجود الله تعالى، وعدم التوجه المباشر إليه سبحانه بالعبادة، واتخاذ وسطاء بينه وبينهم.

ب ـ والكبَدُ في الآخرة هو التقلّب في النار والخلود فيها بلا حياة ولا موت:

قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ [سبأ: ٨].

١- وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

٢- وقال سبحانه: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

٣- وقال جل شأنه: ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٢].

٤- وقال عز وجل: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦].

٥- وقال أيضاً: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف: ٤١].

٦- وقال سبحانه: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٤٩ - ٥٠].

٧- وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٤ ـ ٧٥].

فالكبَد الذي خُلق فيه الكافر، هو كما وصف الله تعالى وجوه الكفار بأنها ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ [الغاشية:٣] أي أنها تكلّف يوم القيامة بأعمال شاقة مُتعِبة، من الخوض في النار، والجر في السلاسل والأغلال ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١ - ٧٢].

فأي كبد أشد من هذا، يلاقيه الكافر الذي مات على الكفر في دنياه وأخراه!

والواجب على الإنسان أن يسعى ليريح نفسه من هذه الشدائد، ويجلب لها الفرح والسرور، وإن لم يفعل فإنه لا يزال يكابد الشدائد بسبب الآباء.

ج ـ أما ما يقاسيه الإنسان بوصف عام، من كبد ومشقة فى الدنيا، من نفخ الروح فيه إلى نزعها منه، بما في ذلك مراحل التخلّق، والتعليم، والسعي على الرزق، ونحو ذلك، فلا يساعد عليه سياق الآيات.

إنكار الكافر للحساب وإنفاقه المال للصد عن سبيل الله

٥، ٧- ﴿ أَيَحْسَبُ[1] أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا[2] ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ ﴾

أيظن هذا الكافر أنه غير عائد إليه تعالى فلا يحاسبه ولا يجازيه؟ أيحسب أن الله تعالى لن يقدر على جمع عظامه وبعث رُفاته؟ وأنه قد بلغ من القوة والمنَعة بحيث لا

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبوجعفر بفتح السين من ﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ في هذه الآية والتي بعدها، والباقون بكسرها فيهما.

(٢) قرأ أبو جعفر بتشديد الباء من ﴿لُبَدًا﴾ جمع لابد، والباقون بتخفيفها، جمع لبدة، ومعناهما واحد، وهو المال الكثير بعضه فوق بعض.

يقدر عليه أحد؟

- يقول هذا المغرور المفتون بماله على سبيل التفاخر والتباهي والتعالي على غيره: لقد أنفقتُ أموالاً كثيرة هنا وهناك، فهو يتبجح ويجاهر بإنفاق الأموال في المعاصي والشهوات، وإنفاقها من باب الرياء والسمعة، وفي عداوة الإسلام وأهله، وإيجاد العقبات في طريق الدعوة إلى الله تعالى.

- أيظن هذا الكافر أن الله عز وجل لا يراه ولا يحاسبه على الصغيرة والكبيرة.

أيحسب أن الله تعالى غير مطلع عليه وهو ينفق أمواله في المعاصي والسيئات؟

وقد سمىَّ الله تعالى من ينفق ماله في المعاصى إهلاكاً، لأن المنفق لا ينتفع بما أنفق، ولا يعود عليه إلا بالحسرة والندامة، وهذا بخلاف من ينفق ماله في وجوه الخير فهو في تجارة مع الله تضاعف له أضعافاً كثيرة.

ألا يعلم أنه سبحانه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؟ وأنه سيحاسبه على النقير والقطمير، وأنه (**لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن شبابه فيم أبلاه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه**).

وهذه الآيات عامة في كل كافر تنطبق عليه الأوصاف السابقة: من كونه منكراً للبعث، مغترّاً بقوته وشدته، ظانّاً أن لن يقدر عليه أحد، مُنْفِقاً لأموال كثيرة في عداوة الإسلام وأهله، وظنه أن هذه الأعمال تخفى على رب العباد.

ورد أن هذه الآيات نزلت في (أبي الأشد بن كلدة) كان قوي البدن، مغترّاً بنفسه، وكان عنده جِلْد بقر متين يضعه تحت قدميه، ويقول: من أزالني عنه فله كذا وكذا، فيجذبُه عشرة من الناس، فيتقطّع الجلد تحت قدميْه قِطَعاً، ولا تزلّ قدماه، وكان يقول: لقد أنفقتُ أموالاً كثيرة في عداوة محمد ﷺ. وقيل: هو الوليد بن المغيرة[(١)].

ومثْلُ هذا الإنسان، هو الذي خُلق في عناء وشقاءَ وقلَق واضطراب، وإن كثُرت

---

(١) ينظر: تفسير الخازن (٣٨٠/٤)، والألوسي (١٣٦/٣٠).

أمواله وعظُمت دنياه، وهو الذي تسبب في هذا الكبَد بانحرافه عن الطريق السويّ، ومخالفته للعهد والميثاق الذي أُخذ عليه بالتوحيد وهو في عالم الذر.

ويوضِّح هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤ - ٥] أي بسبب كفره وعدم استقامته.

فالأصل: الهداية والإيمان، أما الضلال والكفر، فيطرآن على العبد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

الْكَافِرُ لَمْ يَسْتَثْمِرْ حَوَاسَّهُ فِي اجْتِيَازِ الْعَقَبَةِ الْمَانِعَةِ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ

٨ - ١٠ - ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾

لقد أودع الله في الإنسان نعماً كثيرة تستوجب شكره سبحانه والامتنان له، فكان الأجدر بالعبد أن يسلك طريق السعادة بالإيمان بربه واليوم الآخر، وأن يترك طريق الشقاء بسبب كفره وعناده. ومن هذه النعم الموجبة للإيمان:

١- نعمة العينين. ٢- واللسان. ٣- والشفتين ٤- وبيان طريق الحق من طريق الضلال.

فمن الذي جَعَل للإنسان عينين يُبصر بهما؟ وهو سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

ومَنْ جَعَل له لساناً يَنْطِق به؟ يُحصِي عليه أقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

ومن جعل للإنسان شفتين للجمال وتمام الخلق وحسن الهيأة؟

جاء في الأثر: أن الله عز وجل يقول: ابن آدم:

إن نازعك لسانُك فيما حرَّمت عليك، فقد أعنتُك عليه بطبقتين، فأَطبق عليه.

وإن نازعك بصرك فيما حرمتُ عليك، فقد أعنتك عليه بطبقتين، فأطبق عليه.

وإن نازعك فَرْجك فيما حرمتُ عليك، فقد أعنتك عليه بطبقتين، فأطبق عليه(١).

وخَص العينين بالذكْر لأنهما أنفع مشاعر الإدراك، وخَص الشفتين مع اللسان، لأنه

(١) تفسير الخازن (٤/٣٨٠)، وذكره بنحوه ابن عساكر عن مكحول (٦٦/٢٢٩).

يتم بهما معاً الكلام والإبانة، وتناول الطعام والشراب، ولا ينطبق اللسان بدون الشفتين، ولا تنطق الشفتين بدون اللسان.

ومن انفتاح الشفتين وإطباقهما، تتكيف أصوات الحروف التي يحصل بها العلم والمعرفة، وتستُران الفم والأسنان، وهذا اللسان يأخذ بيد صاحبه إلى الجنة أو إلى النار:

عن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت مع النبي ﷺ في سفَر، فأصبحتُ يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أَخبِرْني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار، قال: «**لقد سألتَ عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**»، ثم قال: «**ألا أدلك على أبواب الخير؟**» قلت: بلى، يا رسول الله، قال: «**الصوم جنة، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين**» ثم تلى ﷺ ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

ثم قال: «**ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟**» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد**».

ثم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «**كف عليك هذا**» وأشار إلى لسانه، قلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «**ثكلتك أمك! وهل يكب الناس في النار على وجوههم**»، أو قال: «**على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم**»[1]؟

فها هو اللسان يكون أداة خير أو أداة شر.

وإلى جوار ذلك فقد أرشد الله الإنسان إلى طريق الخير والشر، فجعل له عقلاً مميزاً، وأرسل له الرسل، وأنزل عليه الكتُب ليدلّه على أقوم الطرق، قال تعالى:

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٢٠١٦)، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده، وأخرجه الترمذي برقم (٢٦١٦)، والنسائي برقم (١١٣٣٠)، وفي السنن الكبرى (١١٣٩٤)، وابن ماجة برقم (١٩٧٣)، ومصنف عبدالرزاق (٢٠٣٠٣)، والبغوى فى شرح السنة (١١)، وفى التفسير (٣/٥٠٠)، والبيهقى فى الشعب (٣٣٥٠)، وغيرهم وهو صحيح بطرقة وشواهدة.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وقال سبحانه: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨].

وفي هذا امتنان من الله تعالى بنعم الدين بعد أن امتنّ عليهم بنعم الدنيا.

والنجد في الأصل: الأرض المرتفعة ارتفاعاً دون الجبل.

وسُمِّيَ طريق الخير والشر نجدان: لصعوبة اتباع أحدهما، فطريق الخير صعب في سلوكه محفوف بالمكاره، وطريق الشر صعب في عواقبه، وكلاهما كالطريق المرتفعة العالية، وفي كل منهما وُعُورة، ولا يصل إلى طريق الخير إلا من صبر وجاهد نفسه وراضها.

وهذه المنن تقضى شكر العبد لربه وألا يستعين بها على معاصى الله، ولكنه لم يفعل:

ثَلاثَةُ أَسْبَابٍ لاجْتِيَازِ الْعَقَبَةِ

١١-١٣- ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ[1] رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾

والأجدر بالإنسان الذي أنعم الله عليه بهذه النعم أن يَكْسِر قيود الكفر والتقليد الأعمى، ويقتحم طريقه إلى الله تعالى مؤمناً به، ومطيعاً لأمره. فهلاّ اقتحم العبد العقبة التي تحول بينه وبين دخول الجنة؟ واقتحام العقبة يكون بما يأتي:

١- فك الأسير، وعتق الرقيق، وإعانة المكاتب.

٢- وإطعام الطعام في أوقات المجاعة على المحتاج الذي لا يجد شيئاً.

٣- وقبل ذلك يكون العبد مؤمناً بالله عاملاً للصالحات، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر.

وهذه العقبة لو تخطّاها العبد، واقتحمها بما تتطلب من جهد، فإنه يزحزَح عن النار، ويدخُل الجنة، وهذا هو الفوز العظيم.

ذلكم قول الله تعالى ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ أي فهلاّ تجاوز مشقة الآخرة بإيمانه وإنفاق

---

(١) قرأ ابن كثير وأبوعمرو والكسائي بفتح الكاف من ﴿فَكُّ﴾ على أنه فعل ماض، و ﴿رَقَبَةٍ﴾ بالنصب، مفعول به، و (أطعم) في الآية التالية بفتح الهمزة والميم، فعلا ماضيا، معطوف على ﴿فَكُّ﴾ والباقون برفع كاف ﴿فَكُّ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي هو فك، و ﴿رَقَبَةٍ﴾ بالجر، على الإضافة، و (إطعام) بكسر الهمزة وألف بعد العين وتنوين الميم المرفوعة عطفا على ﴿فَكُّ﴾ و (أو) للتخيير.

ماله في وجوه الخير، بدلاً من إنفاقها في عداوة الإسلام وأهله، والمجاهرة بالمعاصي.

والاقتحام هو الدخول العسير، وفي اقتحام العقبات تظهر المسابرة والمجادلة.

والعقبة أعلى نقطة في الشيء المرتفع، ويراد بها في الآية: العمل الموصّل للخير، فهي تُطلق على مجاهدة النفس والهوى، ومجابهة العمل الشاق، كأن يتكلف العبد سلوك طريق وَعِر.

والذي لم يشكر نعم الله تعالى عليه بفعل هذه المنَجّيات، فلا فكَّ رقبة، ولا أَطْعَم يتيماً ولا مسكيناً، فقد غمط نعم الله عليه، وكَفَر بالمنعِم سبحانه.

ثم عظّم تبارك وتعالى من شأن حمْل النفس على فعل الطاعات فقال ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ أيُّ شيء أعلمك بهذه المشقة التي تُعينك على تجاوز محنة الدار الآخرة؟ إن شأنها عظيم، تحتاج إلى جهد ومكابدة وجهاد وصبر.

وشبّه بعضهم العقبة: بالصراط المضروب على متن جهنم، وعلى جانبيْه كلاليب وخطاطيف، كأنها شوْك السعدان:

فمن الناس من يمرُّعليه وقد نجا وسلِم، ومنهم من يُخدش، ومنهم من يقع في النار، يمرُّ بعضهم كالبرق الخاطف، وبعضهم يمر كالريح العاصف، وبعضهم يمر كالفارس، ومنهم من يمر كالرجل الذي يُسرع الخُطى، ومنهم من يسير سيراً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من تزل قدمه، ومنهم من يسقط في النار.

فمن سَلِم وهو يمر على الصراط، فقد سلك طريق النجاة، وتجاوز حالة الشدة، نسأل الله السلامة والعافية!

ثم شرعت الآيات في تفصيل أسباب اجتياز الحاجز بين العبد وبين دخوله الجنة:

السبب الأول: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي عتق رقبة مؤمنة من أَسْر الرق، أو الإسهام في تخليصها من العبودية واستقلالها بحريتها.

وفك الرقبة أصل من أصول التشريع الإسلامي في التشوّف إلى الحرية، وإبطال الرق والعبودية، وذلك بأن يعتق الإنسان ما هو مملوك له، أو يعطي مكاتَباً ويُعينه على دفع الفدية، أويعينه على دفع الأقساط المتفق عليها مع سيِّده لتخليص نفسه من الرق، وقد

حث الإسلام على فك الرقاب بجميع الطريق:

١- في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من أعتق رقبة مسلمة، أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار، حتى فرجه بفرجه»**[١].

٢- وعن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: **«أيما رجل أعتق امرأ مسلماً، استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار»**.

قال سعيد بن مرجانة: فانطلقتُ به - أي بهذا الحديث - إلى عليّ بن الحسين، فعمد عليّ بن الحسين رضي الله عنهما إلى عبدٍ له، قد أعطاه به عبد الله بن جعفر، عشرة آلاف درهم - أو ألف دينار - فأعتقه)[٢].

وكلما كانت الرقبة نفيسة، وثمنها أغلى، كان ذلك أفضل:

٣- عن أبي ذر ﷺ قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: **«إيمان بالله، وجهاد في سبيله»** قلت: فأي الرقاب أفضل؟ قال: **«أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها»** قلت: فإن لم أفعل؟ قال: **«تُعين صانعاً، أو تصنع لأخرق»** قال: فإن لم أفعل؟ قال: **«تدع الناس من الشر، فإنها صدقة، تَصَدّقْ بها على نفِسك»**[٣].

وفي عتق الرقبة فك من النار لمن أعتقها:

٤- عن أبي نجيح السلميّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أعتق رقبة مؤمنة، فإنه يُجزَى مكان كل عَظْمٍ من عظامها، عَظْماً من عِظَامِه من النار»**[٤].

أى أن الله تعالى يحرر أعضاء المعتق من النار ، مقابل تحرير العتيق من الرق.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٧١٥)، وصحيح مسلم برقم (١٥٠٩)، وسنن الترمذي برقم (١٥٤١)، وسنن النسائي الكبرى برقم (٤٨٧٥)، والمسند (٢/٤٢٢) (٩٧٧٣).

(٢) صحيح البخاري برقم (٦٧١٥،٢٥١٧)، وصحيح مسلم (١٥٠٩)، والترمذي (١٥٤١)، والمسند (٩٤٤١)، وابن حبان (٤٣٠٨)، والنسائي في الكبرى (٤٨٥٤).

(٣) صحيح البخاري برقم (٢٥١٨)، وصحيح مسلم برقم (٨٤) كتاب الإيمان.

(٤) ينظر: صحيح سنن أبي داود (٣٣٥٥)، والترمذي (١٦٣٨)، والنسائي (٣١٤٣)، وهو في سنن أبي داود (٣٩٦٥)، ومن حديث طويل فى المسند (١٧٠٢٢).

٥- وعن عمرو بن عبسة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداؤه من النار**»(١).

وعتق الرقبة أو المساهمة في عِتْقها من أسباب دخول الجنة:

٦- عن البراء بن عازب ﷺ قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، علّمني عملاً يدخلني الجنة، فقال: «**لئن كنتَ أقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ، لقد أعرضتَ المسألة (أَعِتق النَّسمة، وفُك الرقبة)** فقال: يا رسول الله، أوَلَيْستا بواحدة؟ قال: «**لا، إن عتق النّسمة: أن تنفرد بعتقها، وفَكُّ الرقبة، أن تعين في عتقها، والمنحة الوَكُوف - أي غزيرة اللبن - والْفَيْءُ على ذي الرحم الظالم، فإن لم تُطِقْ ذلك، فأطعم الجائع، واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن لم تُطِقْ ذلك فكُف لسانك إلا من خير**»(٢).

الإسلام حرر العبيد من الرق:

وهكذا فقد جعل الإسلام عتق الرقبة، سُلّم اقتحام العقبة، وجعله عتقاً من النار للمُعتِق، كل عضو بعضو، وجعله كفارة لليمين، وللظهار، والقتل الخطأ.

فسوّى الإسلام فى عتق الرقبة بين ما مقابلُه صيام ثلاثة أيام، ككفارة اليمين، بما مقابله صيام ستين يوما، ككفارة الظهار!

وجعل كل ذلك نوافذ لإطلاق الأسرى وفك الرقاب.

ولم يُبق الإسلام للاسترقاق، إلا باباً واحداً، هو الأسر في القتال مع غير المسلمين في حرب إسلامية مشروعة.

وفي مطلع الإسلام كان الرق منتشراً في العالم، وكان الرقيق يعامل معاملة قاسية، فلما أسلم بعضهم كعمّار وأسرته، وبلال، وصهيب، وخُبيب، وغيرهم، اشتد عليهم البلاء من سادتهم، وعذّبُوهم تعذيباً لا يطاق، فكان هذا بدْأَ خلاصِهم من الرق، بِشرَائهم وتحريرهم:

---

(١) سنن أبي داود برقم (٣٩٦٦)، والمسند (٣٨٦/٤) برقم (١٧٠٢٠)، وعن عقبة ابن عامر برقم (١٧٣٥٧)، وهو صحيح لغيره (محققوه)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٠٥٠) وهو في الترمذي (١٦٣٨).

(٢) المسند (٢٩٩/٤) (١٨٦٤٧)، وأخرجه البغوي بسنده فى شرح السنة (٢٤١٩)، وابن حبان (٣٧٤)، والبيهقي (٢٧٢/١٠)، وفي الشعب (٤٣٣٥)، قال محققو المسند: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه الطيالسى (٧٣٩)، والطحاوى فى مشكل الآثار (٢٧٤٤).

فاشترى أبو بكر، بلالاً، من أمية بن خلف، وأعتقه لوجه الله، وأعتق معه ست رقاب:

١ - عامر بن فهيرة. ٢ - وأم عبيس.

٣ - وزنّيرة وقد عَمِيَ بصرُها لمّا أُعتقت، فقال المشركون: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذَبوا، وبيتُ الله، ما تضرّ اللات والعزى، ولا تنفعان، فرد الله بصرها.

٤،٥ - وأعتق أبوبكر: المرأة النهدية وابنتها ـ وكانتا لامرأة من بني عبد الدار، فأرسلتهما بطحين لها، وهي تقول: والله لا أعتقُهما أبداً، فقال أبوبكر: تحلّلي من يمينك، قالت: أنتَ أفسدتُهما فأعتِقْهُما، قال بكم هما؟ قالت بكذا وكذا، قال: قد أخذتهما، وهما حُرّتان، أَرْجِعا إليها طحينها.

٦ - ومر أبوبكر بجاريةٍ مُسْلِمَةٍ من بني عدي، وكان عمر بن الخطاب ـ قبل إسلامه ـ يعذبها لتترك الإسلام، فاشتراها أبوبكر وأعتقها.

قال أبوقُحافة لابنه أبي بكر الصديق: إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أعتقت رجالاً أقوياء يمنعونك، ويقومون دونك، فقال أبوبكر: يا أبت إنما أريد ما يريد الله[1].

وقد انتهى الرق غالباً من بلاد الإسلام بسبب ترغيبه في عتق الرقاب بشتى السبل، وتضييق الخناق عليه بعد أن كان متفشياً بكثرة.

ولكنا أصبحنا نقرأ عن أسواق للرقيق الأبيض والأسود في أنحاء كثيرة من العالم، لاسيما شرق آسيا والهند وأفريقيا، فهل من مشمِّرين لاقتحام العقبة؟ وفي الحديث (ثلاثة حق على الله عونهم) منهم (المكاتب)[2] وهو الرقيق الذي تعاقد مع سيدّه على أقساط يدفعها له، ليفك أسره، وهو سهم من مصارف الزكاة، قال الله عنه ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [التوبة:٦٠] فقد شرع الله سهم المكاتبين لتخليصهم من الرق أو إعانتهم على ذلك.

---

(١) ينظر: سيرة ابن إسحاق فيما سبق.

(٢) ينظر حديث أبي هريرة في المسند (٧٤١٦) بإسناد قوي رجاله ثقات (محققوه)، وعبد الرزاق (٩٥٤٢)، والترمذي (١٦٥٥)، والنسائي (٣١٢٠)، وابن ماجة (٢٥١٨)، وصحيح سنن ابن ماجة (٢٠٤١) بإسناد حسن، وابن حبان (٤٠٣٠).

السَّبَبُ الثَّانِي مِنْ أَسْبَابِ اجْتِيَازِ الْعَقَبَةِ

١٤-١٦- ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾

والمراد إطعام الطعام حال شدة المجاعة، في أوقات المحن التي يعزّ فيها وجود الطعام.

وإطعام الطعام في كل وقت مَقْرُبة إلى الله تعالى، ولكنه في أيام المجاعة يكون أشد على النفس، ولذا جاء التقييد به في الآية، لأنه علامة على قوة الإيمان في هذه الحالة، كما قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨ - ٩].

وقال سبحانه: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وقد مدح الله الأنصار حين أكرموا المهاجرين وقدّموهم على أنفسهم فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وختم الله هذه الآية من سورة الحشر بقاعدة جليلة فقال:

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

والمسغبة: هي إطعام المحتاجين في يوم تشتد فيه المجاعة، فإطعامهم للطعام ليس تفاخراً ولا رياءً ولا سمعة، وإنما هو ابتغاء وجه الله تعالى:

في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«شر الطعام طعام الوليمة، يُمنعها من يأتيها، ويُدعى إليها من يأباها، ومن لم يُجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله»[1].

وروى الطبراني (**شر الطعام طعام الوليمة، يدعى إليه الشبعان ويحبس عنه الجائع**).

أولى الناس بالإطعام:

وأولى الناس بإطعام الطعام في شدة المجاعة صنفان من الناس:

أحدهما: اليتيم، الذي مات أبوه وهو صغير، ولم يترك له ميراثاً يكفيه، وهو من ذوي

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٣٢)، والمسند (٧٢٧٩، ٧٦٢٤، ٩٢٦١).

القرابة، فإنه يجتمع فيه فضل الصدقة، وفضل صلة الرحم، لأن الصدقة على البعيد لها أجر واحد، ومن كَفل يتيماً فهو مع رسول الله ﷺ في الجنة.

وثانيهما: سد حاجة الفقير المعدم الذي لا يجد شيئاً، وهو المسكين الذي جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي التصقتْ يده بالتراب من شدة الفقر، فهو ينام على التراب لأنه لا يجد ما يفترشه على الأرض.

وإذا ذُكر المسكين فإنه يشمل الفقير، وإذا ذُكر الفقير فإنه يشمل المسكين، أما إذا ذُكر كلاهما فإنه يفرق بينهما.

وقالوا: في تعريف المسكين هو الذي يجد أقل مما يكفيه، والفقير هو الذي لا يجد شيئاً.

ويرجَّح كون الفقير أشد حاجة من المسكين: وذلك أن الله تعالى قد سَمّى أهل السفينة مساكين، فقال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩].

وقوله ﷺ من حديث أبي سعيد ﷺ **«اللهم أَحيني مسكيناً وأَمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين»**[١] أي في حالة الكفاف أو أدنى.

أما الفقر فقد استعاذ منه النبي ﷺ كما في حديث أبي هريرة ﷺ «اللهم إني أعوذ بك من الفقر وأعوذ بك من القلة والذلة، وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم»[٢].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من موجبات المغفرة: إطعام المسلم السّغْبان»[٣].

وعن سلمان بن عامر ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصدقة على المسكين

---

(١) من حديث أبي سعيد في سنن ابن ماجة (٤١٢٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٣٣٤٥)، والسلسلة الصحيحة (٣٠٨)، وإرواء الغليل (٨٦١).

(٢) البخاري في الأدب المفرد (٦٧٨)، وأبوداود (١٥٤٤)، وابن ماجة (٣٨٤٢)، والنسائي في السنن الكبرى (٧٨٤٤)، والمسند (٨٠٥٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجاله رجال الشيخين إلا حماد ابن سلمة فمن رجال مسلم (محققوه)، وابن حبان (١٠٠٣).

(٣) البيهقي في الشعب (٣٣٦٤)، والمستدرك (٢/٥٢٤) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وابن الملقن وتكلم فيه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٥٥٠).

صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة»[1].

فمن أطعم هذين الصنفين في أيام المجاعات التي تُذهِل الإنسان عن نفسه، كان حريصاً على طاعة الله تعالى وعلى نفع عباده، فهو حريّ أن يكون من أصحاب اليمين.

أَرْبَعَةُ شُرُوطٍ لِقَبُولِ عِتْقِ الرَّقَبَةِ وَسَائِرِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ

١٧، ١٨ - ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾

ثم ذكر سبحانه شرط قبول عتق الرقبة، وشرط إطعام اليتيم والمسكين، لاجتياز العقبة يوم القيامة، فبين جل شأنه أن ذلك مشروط بأربعة شروط:

الشرط الأول: هو الإيمان ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي من الذين أخلصوا دينهم لله، فآمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، لأن الطاعات لا تُقبل بدون إيمان، ولأن المؤمن هو الذي يبتغي بعمله وجه الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤].

وقال سبحانه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [النحل: ٩٧].

فغير المؤمن لا يقتحم العقبة ولا تنفعه القُرب.

ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله: إن ابن جدعان، كان في الجاهلية، يصل الرحم، ويُطْعِم الطعام، ويفُكّ العاني، ويعتِق الرقاب، ويحمل على إبله لله، فهل ينفعه ذلك شيئاً؟ قال: «لا، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[2].

ويفهم من هذا أن غير المسلم لو تقرب إلى الله تعالى بالطاعات قبل إسلامه، ثم أسلم، فإن أعماله السابقة تنفعه.

---

(١) قال الترمذي برقم (٦٥٨): هذا إسناد صحيح، وكذا قال النسائي في السنن (٥/٩٢)، وفي الكبرى (٢٣٧٤)، وهو في المسند (٤/٢١٤) برقم (١٦٢٢٧)، وهو حديث صحيح لغيره (محققوه)، وأخرجه ابن ماجه (١٨٤٤)، وابن خزيمه (٢٣٨٥).

(٢) ينظر: تتمة أضواء البيان (٩/٢٣٢)، والحديث عند مسلم (٢١٤)، والحاكم (٢/٤٠٥)، والطبري (٢٤/٥٦٦).

وقد جاء هذا صريحاً في حديث حكيم بن حزام ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أرأيتَ أشياء كنتُ أتحنَّثُ بها في الجاهلية، من صدقة، أو عتاقة، وصلة رحم، فهل فيها من أجر؟ فقال لي النبي ﷺ: «أسلمت على ما سلف من خير»[1].

والتحنث هو التعبد، ومعنى ذلك أنه لمّا أسلم نفعه ما عمله قبل إسلامه.

والشرط الثاني لقبول العمل الصالح هو: التواصي بالصبر على طاعة الله تعالى، وعن معاصيه، وعلى الرضا بقضائه وقدره، وتوطين النفس على قبول الحق من الناس.

أما الشرط الثالث: فهو التواصي بالرحمة بين الناس، لاسيما الشفقة بالضعفاء والمساكين.

وقد وصف الله المؤمنين بأنهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وأن بعضهم يوصي بعضاً على إطعام المسكين.

١- وفي حديث جرير بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يرحم الله من لا يرحم الناس»[2].

٢- وعن عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال:

«الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء»[3].

٣ ـ وعن عبد الله بن عمرو أيضاً قال: قال النبي ﷺ:

«من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا فليس منا»[4].

---

(١) المسند (١٥٥٧٥،١٥٣١٨،١٥٣١٩) وإسنادة صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وهو فى مصنف عبد الرزاق (١٩٦٨٥)، ومسلم (١٢٣،١٩٥)، والبخارى (٢٢٢٠ ٥٩٩) من طرق متعددة.

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٣٧٦)، وصحيح مسلم برقم (٢٣١٩).

(٣) أبوداود برقم (٤٩٤١)، والترمذي برقم (١٩٢٤)، والمستدرك (١٥٩/٤)، وفي صحيح أبي داود برقم (٣٢)، وكلها أسانيد صحيحة.

(٤) أبوداود برقم (٤٩٤٣)، والمسند (٢٢٢/٢) برقم (٧٠٧٣) بإسناد صحيح (محققوه)، وأخرجه الحميدى (٥٨٦)، والبيهقى فى الشعب (١٠٩٧٦)، والترمذي برقم (١٩٢٠)، وصحيح أبي داود (٤١٣٤) بإسناد صحيح، وابن أبي شيبة (٣٣٩/٨).

أهل السعادة وأهل الشقاء:

والذين أنفقوا أموالهم في فك الرقاب، وإطعام المحتاجين من المؤمنين، هم أهل السعادة، يظلُّوا ناشطين في عمل الخير حتى يدركهم الموت، فيأخذون كتابهم بأيمانهم، ثم يؤُولُون إلى جنة رضوان على قدر سبقهم في الخيرات. قال تعالى:

١٩، ٢٠ - ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ[1] ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ[2] ﴿٢٠﴾ ﴾

أما أهل الكفر والضلال من مدمني الآثام الذين ماتوا على ذلك، فلم يؤمنوا بالله ورسوله، ولم يعملوا صالحاً، ولم يحسنو إلى خلق الله، فلهم عاقبة أخرى، إنهم يأخذون كتابهم يوم القيامة بشمالهم، علامة الشؤم وسوء العاقبة، وهم أصحاب الشمال والمشأمة، أي النار المشؤومة.

فالكفر يُنهي الموقف، فلا حسنة مع الكفر، ولا سيئة إلا والكفر يغطي عليها.

ثم يؤول الحال بالكفار إلى نار مطبقة تُغْلق عليهم فلا يخرجون منها، فالعذاب ملازم لهم، محبوسون فيه، كما قال تعالى: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾ ﴾ [الهمزة: ٦ - ٩] إنه لا ضوء فيها، ولا فُرَج، ولا خروج منها إلى الأبد، فهذه العمُد قد مُدَّت من وراء النار، لئلا تفتح أبوابها فيظلوا في العذاب الشديد دائماً وأبداً.

اللهم نجِّنا من نارك، ولا تهلكنا بعذابك، ولا تحرمنا جنتك ورضوانك، يارب العالمين، يا أرحم الراحمين.

تم تفسير (**سورة البلد**) ولله الحمد والمنة

---

(١) وقف حمزة على ﴿ٱلْمَشَمَةِ﴾ بالنقل.

(٢) قرأ أبوعمرو وحفص وحمزة ويعقوب وخلف بالهمز في ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ من آصد بمعنى أغلق، والباقون بإبدالها واواً من أوصد، ويبدلها حمزة عند الوقف واواً.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الشَّمْسِ (٩١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الشمس) هي السورة الحادية والتسعون في ترتيب المصحف، والسادسة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة القدر) وقبل (سورة البروج).

وعدد آياتها ست عشرة آية في المصحف المدنى الأول، قيل: والمكي.

وخمس عشرة آية في بقية المصاحف.

وهي أربع وخمسون كلمة، ومئتان وسبعة وأربعون حرفاً.

وهي سورة مكية باتفاق.

وتسمى (سورة الشمس) بدون واو، وعنْون لها البخاري وغيره بسورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾.

موضوع السورة:

تناولت (سورة الشمس) موضوعين، ثانيهما: مَثَلٌ تطبيقي للأول:

أما أولهما: فهو موضوع النفس الإنسانية، وما جُبلتْ عليه من خير وشر، وهُدًى وضلال، وذلك في الآيات العشر الأُوَل منها، حيث أقسم سبحانه سبع مرات متتابعة في الآيات الثمانية الأول: بالشمس وضوئها الساطع، والقمر إذا أعقبها، والنهار إذا جلّى ظلمة الليل، وبالليل إذا غطّى الكائنات بظلامه، وبالسماء وبناءها بلا عمد، وبالأرض وبسطها، وبالنفس البشرية وما زيّنها به من الفضائل والكمالات.

أقسم تعالى بهذا كله على شيء واحد هو: فلاح من زكّى نفسه بالتقوى، وشقاوة من أتبع نفسه هواها، وأخلد إلى الأرض، فأخفى نفسه في المعاصي، ودسّها فيها، فأشقاها في دنياها وأخراها. وهذا فى الآيات العشر الأول من السورة.

وثانيهما: مثلٌ لمن أهلك نفسه بالإسفاف والغفلة، فطغى وتجبّر، وخرج عن طاعة الله والرسول، وهذا يتمثل في قصة قوم ثمود لَمَّا كذّبوا نبيهم صالحاً، وعقروا الناقة التي

هي معجزة الله لرسوله صالح عليه السلام، وقد فَجَرتْ قبيلة ثمود وطغتْ، فكان عاقبتها أن جعلها الله مثلاً وعبرة لكل فاجر مكذب لله ورسوله، فأمستْ هشيماً تُداس بالأقدام ،وكان هذا المثَل التطبيقى للنفس الشقيّة فى الآيات الخمس الأخيرة من السورة.

عن أبي بريدة ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة العشاء بـ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ وأشباهها من السور[١].

وفي حديث أنس ﷺ أن معاذ بن جبل ﷺ أطال في صلاته وهو يؤم الناس فقال له النبي ﷺ «أفتان أنت؟ لا تُطَول بهم، اقرأ بـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ونحوها»[٢].

إن سورة الشمس من قصار السور، تتضمن معاني وجيزة، وتوجيهات سريعة، ولكنها كافية شافية لمن يُكثر قراءتها في الصلوات الخمس، لتكون زاداً رُوحياً نافعاً.

* * *

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٩٤) بإسناد قوى ومتنٍ صحيح، كما قال محققوه، وسنن الترمذي (٢٥٤)، والنسائي (٩٩٨)، والبغوى فى شرح السنة (٦٠٠)، والنسائى (١٧٣/٢).

(٢) ينظر الحديث بطوله في سنن النسائي الكبرى (١١٦٧٤) والمسند (١٢٢٤٧) بإسناد على شرط الشيخين (محققوه)، وأخرجه الضياء فى المختارة، والبزار (٤٨١)، وعن جابر فى المسند (١٤١٩٠)، وهو متفق عليه.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

سَبْعَةُ أَيْمَانٍ عَلَى فَلَاحِ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ بِالتَّقْوَى، وَشَقَاءِ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا

١-٨- ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾

يُكثِر القرآن الكريم من توجيه قلوب عباد الله تعالى إلى المَشاهِد الكونية بأساليب متعددة، كما يُلفِت أنظارهم إلى آيات الله في الكون، والتأمل فيها، للاستدلال بها على وحدانية الخالق سبحانه، الذي يقسم بما شاء من مخلوقاته العظيمة، ومنها ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ضمن سبعة أنواع من القسم في مطلع هذه السورة:

القسم الأول: أي: أُقسم بالشمس حين تُشرق في وقت الضحى، وهي ترتفع ويضفُو ضوؤها ويستمر في النهار كله، حيث يسطع نورها وينبسط، فيضيء الكون كله ويُبدّد ظلامه. والشمس وحدها آية دالة على قدرة خالقها، لما فيها من طاقة حرارية في ذاتها تفوق كل تقدير، وهو أمر مستمر على مرّ الزمان دون انتقاص.

يقول الشيخ محمد الغزالي: عندما أنظر إلى الشمس في كبد السماء، أحسبها تزيد قليلاً عن شبر في شبر، ثم أذكر أقوال العلماء أنها تكبُر أرضنا (مليوناً ونصف مليون مرة) وأن المسافة التي تباعدُنا عنها (١٥٠ مليون كيلو متر) وأن الكواكب التي تتبعهُا تسعة كواكب من بينها هذه الأرض التي تحمل ستة مليارات من البشر وحدهم!

وأن هذه الشمس وتوابعها تجري بين شموس أخرى لا تُحصَى في مَجرّة مديدة الآفاق، وأن هذه المجرات على كثرتها المذهلة تدور في زاوية محدودة من الكون الفسيح الذي تُعرف آماده ولا تُدرَك أبعاده!

يقول: قلت: وأنا مبهور: ما أوسع الكون! وما أعظم قدرة خالقه، وقرأت قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] [البقرة: ١١٥].

---

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن (ص ٥٢٢) بتصرف.

وقد وصف الله سبحانه أثر الشمس المقسم بها في قوله ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ وهو انتشار ضوئها في وقت الضحى نتيجة لحركتها، وهذا وحده آية دالة على قدرة الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧ ـ ٣٨].

وقد أقسم الله تعالى بالضحى وحده في قوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١ – ٢].

وقدرة العزيز العليم اقتضت نظاماً مُعَيَّناً لبُعد الشمس من الأرض، بحيث لو اقتربت درجة أو ارتفعت درجة، لما استطاع أحد أن ينتفع منها بشيء، لأنها تُحرق باقترابها ويتجمد العالم من بُعدها[1].

وحكمة القسَم بالشمس أن الناس في غيبتها كأنهم أموات، فإذا بزغت الشمس دبت فيهم الحياة، وصار الأموات أحياء فانتشروا في الأرض، وهذا يشبه أحوال يوم القيامة.

وجاء القسم الثاني في السورة، وهو القسم بالقمر إذا تَبع الشمس في ظهوره وأُفُوله، لاسيما ليلة أربع عشرة، وخمس عشرة، وست عشرة وهي الليالي التي يطلع فيها القمر من المشرق ممتلئاً بعد غروب الشمس في ليالي الظهور، وهو بذْر متكامل.

ففي النصف الأول من الشهر، يَخْلُف القمر الشمس في النور، فتغرب الشمس ويتلوها نور القمر.

والآية تشير إلى أن القمر يستمد نوره من الشمس، عندما تتوجه أشعتها إلى ما يقابل الأرض من القمر، فهو ليس منيراً بذاته.

ولكنه تقدير العزيز العليم لمسيرة القمر، فهو لا يسبق الشمس ولا تفوته.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وبحركة القمر ترتبط مصالح الناس، وتتعلق به منافع العالم من تخفيف ظُلْمة الليل، وفوائده على النبات والزرع، وأهميته بالنسبة لمعرفة الشهور ومواسم العبادة وأوقاتها..

---

(١) تتمة أضواء البيان (٩/٢٣٨).

وقد جاء القسم في القرآن بالقمر وحده في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٨]. وقوله: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ [المدثر: ٣٢].

أما القَسَم الثالث: فهو قسَم بالنهار إذا جلّى الظلمة وكشفَها بنوره فأضاء الكون، وإنما تتجلّى الظلمة إذا ظهرت الشمس كالذي قبله، قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [يونس: ٦٧].

وقد أقسم الله تعالى بالنهار إذا تجلى، في مقابلة ظلام الليل فقال:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: ١ - ٢].

أما القسَم الرابع: فهو قسم بالليل عندما يغطي الأرض، فيكون ما عليها مُظْلِماً، حين يغشى نصف الكرة الأرضية لِقُرْص الشمس، بدْءًا من وقت الغروب، وذلك في الحركة اليومية لدوَران الأرض تجاه مظهر الشمس.

والضمائر في هذه الأقسام الأربعة راجع إلى الشمس حال: ضَحْوتها وتجلّيها وغروبها وتُلُوِّ القمر لَها، وقد وصفها الله تعالى بهذه الأوصاف الأربعة لأنها أعظم المحسوسات.

فتعاقُب الظلمة والضياء، والشمس والقمر، بانتظام وإتقان، أكبر دليل على أن الله تعالى بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه وحده المستحق للعبادة دون سواه.

القسَم الخامس: قَسَم بالسماء وبناءها المحكَم كما قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧] وخلْق ما فيها من نجوم وكواكب وأفلاك ومدارات قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧].

ولفظ ﴿وَمَا﴾ من ﴿ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ إما أن يكون مصدراً، فيكون القسَم بالسماء وببنائها المتْقَن المحكم.

وإما أن يكون أسماً موصولاً، فيكون القسم بالسماء وبناها وبالذي خلق السماء، وهو رب العالمين وهكذا يقال في الآيتين بعدها ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾.

القسم السادس: قسم بالأرض وبسْطها، وجعْلها ممهدة ممتدة واسعة، ميسَّرة للسكنى والزراعة والحياة، ولفظ ﴿ طَحَىٰهَا ﴾ مرادف للفظ ﴿دَحَىٰهَآ﴾ فالطحْو هو الدحْو،

وهما بمعنى بسط الأرض في عين الرائي من كل جانب من جوانبها قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥].

القَسَم السابع: قسم بكل نفس بشرية خلقها الله تعالى، وأعدّها لأداء مهمتها، فسوّى أعضاءها، وأكمل قواها الظاهرة كالسمع والبصر، وأكمل قواها الباطنة كالفهم والإدراك والتفكير، ووهبها العقل الذي تميز به بين الخير والشر، والهدى والضلال، وجَعله مناط الرغبة والاختيار، والرفض والمنع.

فالمراد بالنفس: كامل خلْق الإنسان بجسمه وروحه، وتفكيره وسلوكه.

ومعنى ﴿سَوَّىٰهَا﴾ جعلها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] فكل مولود يولد على الفطرة، وأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

ولعل الأرجح أن المراد بالنفس في الآية: نفس الإنسان المكلف فهو الذى ألهمه الله الفجور أو التقوى، وتطلق النفس على النفس البشرية صغيرها وكبيرها، كما تطلق على كل ذى روح من الإنسان والحيوان والطير.

وقد بيّن سبحانه وتعالى أنه خلق تلك النفس البشرية، وجعلها قابلة للإلهام بقسميه (الفجور والتقوى) بما أودع في النفوس من إدراك المعلومات، وما تدعو إليه الشرائع الإلهية عن طريق العقل واستقباله لتلقي الإيمان والكفر، والهدى والضلال، ومَقْدِرَته على الأخذ والمنع، والقبول والرفض، وقد أرشد الله تعالى العقل البشري إلى الأخذ بطريق الهدى والرشاد عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وهذا على أنَّ معنى الإلهام: هو هداية الدلالة والإرشاد عن طريق العقل والرسل والكتب.

أما الإلهام بمعنى خلْق الهدَى في نفس الإنسان، فيكون ذلك وفقاً لعلم الله تعالى عما سيكون عليه العبد من الإيمان أو الكفر، والطاعة أو المعصية، عندما يكون إنساناً مكلّفاً.

والآيات المذكورة تشير إلى حرية اختيار الإنسان، وتحمّله تبعة مصيره، وضرورة

الرجوع الدائم إلى التعاليم الإلهية الثابتة التي تُوجه الإنسان إلى حُسْن الاختيار، وعدم اتباع الهوى أو التقليد على غير بصيرة.

والنفس من أكبر الدلائل على قدرة الله تعالى وهى تشمل الروح، والإنسان بغير روح تمثال لا فائدة فيه، وبالروح تكون الحياة والحركة والانفعالات والإحساس والحب والبغض والهم والقصد والإرادة والتنقل والتأثرات النفسيه.

وهذه الضمائر الأربعة التي تلت الضمائر الأربعة السابقة، تعود على الله تعالى فهو الذي بنى السماء، وبسط الأرض، وسوّى الأنفس، وألهمها التقوى والفجور.

وفي ذكر النفس بعد السماء والأرض، جذب للعقل من عالم المحسوسات إلى عالم ما لا يدركه الإنسان بحسه.

النَّفْسُ البَشَرِيَّةُ قَابِلَةٌ لِلْكُفْرِ وَالإِيمَانِ

٩-١٠- ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾

هذا هو جواب الأقسام السبعة، وهو أنه قد فاز بالمطلوب، ونجا من المكروه، من طَهَّر نفسه ونمّاها بالخير، فتجنب الشر والفجور،وسلك طريق التقوى والنجاة.

وقد باء بالخسران من اتَّبع هواه وشيطانه، وعصى مولاه، ووقع في المعاصي والآثام، فأوردها المهالك وخرج من عداد العقلاء والتحق بالجهلة الأغبياء.

ومعنى ﴿دَسَّىٰهَا﴾ أخفى المعاصي وكتمها في نفسه، فتدنس بالرذائل واقترب من الدنايا واستعملها فيما يشينهما ويدنسها.

وما يتزكى به العبد من الإيمان والعمل الصالح.

وتَرْكُ المعاصي، إنما هو بفضل الله تعالى وتوفيقه، ورحمته بعبده، فالعبد يزكي نفسه بتوفيق الله تعالى وإلهامه.

والمعنى: قد أفلح من زكّى نفسه واتَّبع ما ألهمه الله تعالى من الهدى والتقوى، وخاب من اختار الضلال والفجور، بعد أن ألهمه الله التمييز بين الخير والشر، وكثيراً

ما كان النبي ﷺ يدعو ربه أن يرزقه طهارة النفس وتقواها، ومن ذلك ما جاء:

١- عن زيد بن أرقم ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**»[1].

٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان إذا مر بهذه الآية ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ وقف ثم قال: «**اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليُّها ومولاها، وخير من زكاها**»[2].

٣- وعن عائشة رضي الله عنها أنها فقدَت النبي ﷺ من مضجعه، فلمستْهُ بيدها فوقعتْ عليه وهو ساجد، ويقول: «**رب، أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**»[3].

وخروج النفس عن هذه التزكية: خروج عن مقتضى الفطرة التي خلق الله الناس عليها، وهو من عمل الشيطان في انحراف الإنسان عن الطريق القويم.

٤- عن عياض بن حمار المجاشعي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله عز وجل: وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتْهم عن دينهم**»[4].

---

(١) المسند (٣٧١/٤) (١٩٣٠٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٢٢)، وهو عند ابن أبي شيبة مختصراً (١٨٦/١٠)، والنسائي (٥٤٧٣،٥٥٥٣).

(٢) المعجم الكبير للطبراني (١٠٦/١١) (١١١٩١)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٨/٧): إسناده حسن وهو عن زيد بن أرقم في المسند (١٩٣٠٨)، ضمن الحديث السابق وإسناد على شرط الشيخين (محققوه).

(٣) المسند (٢٠٩/٦) برقم (٢٥٧٥٧) قال محققوه: رجاله ثقات، رجال الشيخين غير صالح بن سعيد فقد روى عنه نافع بن عمر الجمحي، وله إسناد آخر صحيح برقم (٢٥٦٥٥)، وانظر (٢٤٣١٢)، والحديث عند مسلم (٢٧٢٢) عن زيد ابن أرقم، وذكره ابن حبان في الثقات (٣٧٦/٤).

(٤) من حديث طويل فى صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥)، والطبري (٤٤٢/٢٤).

ومع أن القلم قد جف بما كان وما يكون، إلا أن العبد مكلف بالعمل الذي يأخذ بيده إلى رضوان الله تعالى وجنته، فإن ثوابه وعقابه مرتب على هذا العمل.

أما ما قضى به القدَر فهو في علم الله تعالى، والإنسان لا يَدْرِي إن كان من أهل السعادة أو من أهل الشقاء، فهو يعمل ليصل إلى النتيجة التي علمها الله منه سلفاً قبل أن يكون بشراً سوياً:

١- عن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن الحصين: أرأيت ما يَعمل الناس اليوم ويَكْدحُون فيه، أشيءٌ قُضي عليهم، ومضى عليهم من قدَرٍ سبق؟ أو فيما يُستقبلون به، مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بلى، شيء قُضي عليهم، ومضى عليهم، فقال: أفلا يكون ظُلْماً؟ قال: ففزعتُ من ذلك فزعاً شديداً وقلتُ: كل شيء خلْقُ الله، ومِلْكُ يده، فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، فقال لي: يرحمك الله، إني لم أُرِدْ بما سألتُك إلا لأَحْرز عقلك، إنّ رَجُلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكْدحون فيه، أشيءٌ قُضي عليهم، ومضى فيهم من قدَرٍ قد سبق، أو فيما يُستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «**لا، بل شيء قُضي عليهم، ومضى فيهم**» وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[1].

٢- وعن جابر ﷺ قال: جاء سراقة بن مالك بن جُعشُم فقال: يا رسول الله، بيّن لنا ديننا، كأننا خُلِقْنا الآن؟ فيم العمل اليوم؟ فيما جفّت به الأقلام، وجرت به المقادير، أو فيما يُستقبل؟ قال: «**لا، بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير**» قال: ففيم العمل؟ فقال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»[2].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٠)، والمسند (٤/٤٣٨) برقم (١٩٩٣٦) بإسناد قوي على شرط مسلم، وأخرجه الطيالسي (٨٤٢)، وتفسير الطبري (٣٠/١٣٥).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٧) (٢٦٤٨)، وبنحوه عن عليّ ﷺ في البخاري (٤٩٤٥،١٣٦٢،٧٥٥٢).

لقد منح الله الإنسان حرية الاختيار، فآمن مَنْ آمن، وكفر مَنْ كفر!

وهكذا أقسم الله تعالى بسبعة أشياء هي: الشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض، والنفس البشرية، على أن الفلاح لمن زكى نفسه بالتقوى، والخيبة والخسران لمن انغمس في الكفر والمعاصي.

قَوْمُ ثَمُودَ مِثَالٌ لِمَنْ دَنَّسَ نَفْسَهُ بِالْمَعَاصِي وَحَجَبَهَا عَنِ الْهُدَى

١١-١٣- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾

ثم ذكرت الآيات مثالاً لمن دسَّى نفسه بالآثام والذنوب، فحجبها عن الهُدَى، ودنّسها بالمعاصي، فحلّ بها عقاب الله، وجعلها عبرة يتعظ بها كل من اتصف بالطغيان، وخرج عن تعاليم الإسلام، ولم يؤمن بخاتم النبيين ﷺ ويتمثل هذا في قصة قوم ثمود الذين كذبوا نبيهم صالحا، فطلبوا منه معجزة دالة على صدق رسالته، وحدّدوا تلك المعجزة بأن يُخرج لهم ناقة عُشَراء من صخرة صمّاء، فأيده الله بالمعجزة ظهرت أمام أعينهم، وكان الماء قليلاً، فأمرهم الله تعالى على لسان صالح عليه السلام أن الماء قسمة بينهم وبين الناقة﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وفي اليوم الذي تشرب فيه الناقة الماء، تسقيهم من لبنها وتكفيهم.

ونهاهم أن يمسوها بسوء فقال:﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

ولكن القوم كذّبوا رسولهم صالحاً عليه السلام، بسبب طغيانهم وإفراطهم في الجحود والتكبر والعناد.

فانبعث وانتدب لذبح الناقة أشقى القوم وأتعسهم وهو (قُدَارُ بن سالِف) وكان ذلك برضى القوم وتآمرهم، كما قال تعالى: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ [القمر:٢٩] وصاحبهم هو أشقى القبيلة، وكان زعيماً مطاعاً:

أخرج البخاري وغيره عن عبد الله بن زَمعَة أنه سمع النبي ﷺ يخطب، وذكر الناقة والذي عقرها، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ انبعث لها رجل عزيز عارم، منيع

في رهطه، مثلُ أبي زَمعَة[1]. وأبو زمعة هو عم الزبير بن العوام ﷺ.

وهذا الرهط هم الذين تآمروا على الفتك بنبي الله صالح، وعلى قتل الناقة.

قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل: ٤٨].

والعقْر: هو جرح البعير في يديْه ليبرُك على الأرض من الألم فيُذْبح من لبّته، فذبح (قُدَارُ بن سالِف) الناقة بمعاونة قوم ثمود ورضاهم:

عن عمّار بن ياسر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ «ألا أحدثك بأشقى الناس؟» قال: بلى، قال: «رجلان، أُحَيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضْربُك على هذا» يعني قرنه «حتى تبتلّ منه هذه»[2]، يعني لحيته.

وكان رسول الله صالح عليه السلام قد حذّرهم أن يُقدموا على إيذاء الناقة، فنهاهم أن يمسّوها بسوء، وحذّرهم أن يمنعوها من سُقياها، أي من شربها، ونصيبها في الماء، وهكذا حذرهم نبي الله صالح عليه السلام من أمرين هما: الاعتداء على الناقة بقتلها، والاعتداء على الوقت المحدد لشربها من ماء البئر، فلا يشاركوها في اليوم الخاص بها.

عِقَابُ اللهِ تَعَالَى لِمَنْ عَقَرَ النَّاقَةَ

١٤، ١٥ - ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا [3] فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا [4] ﴿١٤﴾ وَلَا [5] يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾

كذب قوم ثمود نبيهم صالحاً، ولم يقابلوا نعمة الله عليهم بشكرة على شربهم للبن الناقة تعويضاً لهم عن الماء.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٣٧٧، ٤٩٤٢، ٥٢٠٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٥)، والمسند (١٦٢٢٢)، وابن ماجة (١٩٨٣)، وابن حبان (٤١٩٠)، والترمذي (٣٣٤٣)، والنسائي في الكبرى (٩١٢١، ١١٦٧٥).

(٢) المسند (١٨٣٢١)، وأبو نعيم في الدلائل (٤٩٠)، والحاكم (١٤٠/٣)، والبخاري في التاريخ (٧١/١)، قال محققو المسند: حسن لغيره، والبزار فى مسنده (١٤١٧)، والطحاوى فى مشكل الآثار (٨١١).

(٣) عدّ المدني الأول والحمصى، قيل: والمكى ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ آية، فيكون متروكاً لغيرها.

(٤) انفرد الحمصى بترك عدّ ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ وعدّها غيره.

(٥) قرأ نافع وابن عامر وأبوجعفر بالفاء بدلاً من الواو في ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ للمساواة بينه وبين ما قبله (فقال لهم) والباقون بالواو، إما للحال، أو لاستئناف الأخبار.

فشق عليهم أن يكون للناقة يوم خاص بها في قسمة الماء مع استعاضتهم عنه بحليبها الذي يسدُّ حاجتهم في يومهم هذا، وكذَّبوا صالحاً فيما توعّدهم به من نزول العذاب بهم إن هم عقروا الناقة، فأقدموا على ذبحها يتقدمهم أتعس القوم وأشقاهم.

فأمهلهم الله ثلاثة أيام ينزل بعدها عذاب الله بهم ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] وفي نهايتها أطبق الله عليهم العقوبة بِجُرمِهم، فأهلكهم واستأصلهم عن آخرهم، وعمهم العذاب جميعاً فلم يُفلت منهم أحد، وسوّى الله في العقوبة بين الصغير والكبير، والرجل والمرأة، والقريب والبعيد، والغني والفقير.

وهذا معنى ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي سوى بينهم فيما نزل بهم، ومعنى ﴿فَدَمْدَمَ﴾ أطبق عليهم الأرض، كما يُطبق القبر على الميت، فجعل الأرض مستوية عليهم لا تُظهر أجسامهم ولا بلادهم، وكان ذلك بصيحة الغضب الإلهي حين صاح بهم جبريل، فجاءهم صوت الصاعقة، ورجفت الأرض تحت أقدامهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: ٦٧ -٦٨] أي كأنه لم يكن لهم وجود قبل ذلك على سطح هذه الأرض، فاستأصلهم عن بَكْرة أبيهم وصاروا تحت التراب وعمهم الله بعقاب!

وربك الذي أنزل بهم العذاب لا يخاف تبعة ما أنزله بهم من شديد العقاب، فهو سبحانه الغالب الذي لا يقدر أحد على أخذ الثأر منه، وكيف يخاف - سبحانه - وهو القاهر فوق عباده، لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق؟!

والخوف صفة من صفات المخلوق وليس من صفات الخالق، فهو سبحانه العادل في أحكامه، وهو الذي لا يُسأل عما يفعل، وهو الحكيم في كل ما قضاه وشرعه.

والمقصود من القصة تحذير وإنذار من يكذب رسول الله خاتم النبيين ﷺ حتى لا يصيبهم ما أصاب قوم ثمود، إن عاجلاً أو آجلاً ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٢ - ١٠٣].

تم تفسير (**سورة الشمس**) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الليل (٩٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الليل) هي السورة الثانية والتسعون في ترتيب المصحف، والتاسعة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الأعلى) وقبل (سورة القمر).

وعدد آياتها إحدى وعشرين آية، باتفاق.

وهي إحدى وسبعين كلمة، وثلاث مئة وعشرة أحرف.

وتسمى (سورة الليل) بالواو، وبدونها، وعنْون لها البخاري والترمذي سورة. ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾.

وهي سورة مكية عند الجمهور، وقيل: إن قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ نزلت في أبي الدحداح الأنصاري، فقالوا: إن بعضها مدني، والصحيح أنها مكية خالصة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن هذه السورة نزلت في السماحة والبخل[1].

موضوع السورة:

١- تُقرر (سورة الليل) حقيقة العمل والجزاء، وأنَّ سعْيَ الإنسان وكفاحه ونضاله في هذه الحياة، ثم نهايته إلى النعيم أو الجحيم، وفيها قسم بالليل حين يُغطِّي العالم بظلامه، وبالنهار وهو يكشف هذه الظلمة، وبخلْق الذكر والأنثى، على أن سعْي الخلْق مختلف، وتوجُّهاتهم متباينة، فمع اختلاف الليل والنهار، يقضي الناس آجالهم، ويصنعون مستقبلهم إما إلى جنة، وإما إلى نار.

فالسعي الصالح يرشِّح صاحبه لمستقبل عظيم، والعمل السيء يمهد لصاحبه نهاية مُخْزية.

وقد أساء قوم فهم القضاء والقدر، فجمَّدُوا طاقاتهم، ولاذُوا بالقعُود عن العمل، ففشلوا وعجزوا، وفقدُوا حاضرهم ومستقبلهم، هذا هو مضمون الآيات الأربع الأول.

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٥/٤٥١).

٢- وإنفاق المال مع إخلاص النية، والخوف من لقاء الله تعالى، وذم البخل بالمال مع الرياء، وعدم الخوف من لقاء الله تعالى، يرسُمان الخط البياني لطالب السعادة وطالب الشقاء، ويُبيّنان صفات الأبرار والفجار، وكلاهما قد يسّر الله له طريق عمله، ووضّح له طريق الهدى والضلال، وهذا هو مضمون [الآيات: ٥-١٣].

٣- ثم حذّرت السورة وأنذرت من تكذيب خاتم النبيين ﷺ وتكذيب الكِتَاب الذي نزل عليه، ومن التكذيب باليوم الآخر، ومافيه من بعث ونشور، فهذا الشقي المعرض عن هداية الله تعالى سوف يصلى ناراً حامية، فيذوق سعيرها وجحيمها، أما من آمن بالله ورسوله وكتابه وجنته وناره، وعمل صالحاً، ولم يبخل بماله، وزكى نفسه من الذنوب وطهرها، من الشرك فهو الفائز بالجنة، المبعَد عن النار، المَرْضِيّ عنه يوم لقاء الله تعالى.

وبهذين المثلين لأهل الشقاء وأهل السعادة ختمت السورة.

عن جابر بن سَمُرة قال: كان النبي ﷺ يقرأ في صلاة الظهر والعصر بـ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ ونحوها[1].

* * *

(١) ينظر: صحيح مسلم (٤٥٩) والبيهقي في سننه (٣٩١/٢).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ثلاثة أيمان على أن سعي الإنسان إما إلى جنة أو نار

١ - ٤ - ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴾

أقسم سبحانه وتعالى في مطلع هذه السورة بثلاثة أشياء - تشتمل على الزمان الذى تقع فيه أفعال العباد وتتفاوت أحوالهم - على أن عمل الناس في الدنيا مختلف:

أولاً: أقسَم جل شأنه بالليل عندما يغطي بظلامه الأرض وما عليها، فيأوي كل إنسان وحيوان إلى مأواه، وتسكُن حركة الحياة بعد اضطراب، ويتحول الكون من تقلّب الناس في معاشهم وأمور دنياهم، فيستقبلون الليل لنومهم وراحة أبدانهم كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ۝١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴾ [النبأ: ١٠، ١١] .

وقد ابتدأ سبحانه القسم في هذه السورة بالليل، على عكس ما في سورة الشمس حيث ابتدأ القسم فيها بالنهار، لأن هذه السورة نزلت قبل سورة الشمس، والظلمة هي الأصل.

ثانياً: أقسم سبحانه بالنهار إذا انكشف عن ظلام الليل بضيائه، فظهر وتجلّى بعد الظلمة، وانتشر الناس في الأرض لمصالهم، لأن فيه حركة الخلْق في السعي وطلب الرزق، وفي تعاقُب الليل والنهار من مصالح العباد ما لا يُحصى، ولو كان العمر كله ليلاً أو نهارا لاختلّتْ مصالح البشر، كما قال تعالى: ﴿ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٣] .

ثالثاً: أقسم سبحانه وتعالى بخلْق الزوجين: الذكر والأنثى، من الإنسان والحيوان والنبات، وسائر الكائنات الحية، وخصه بعضهم بالإنسان، لأنه أرفع المخلوقات، ولقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾ [الحجرات: ١٣] وقوله: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] .

والقسَم هنا بخلْق جسد الإنسان واختلاف صِنْفَيه بين ذكر وأنثى، أما القسم الذي في (سورة الشمس) فقد كان بتسوية النفس، أي بخلْق العقل والمعرفة في الإنسان.

والتخالف بين الذكر والأنثى من دلائل المبدع الحكيم، العالم بما يفعل، المحكِم لما يصنع.

فالذكر والأنثى مخلوقان من ماء واحد ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ [النجم:٤٥،٤٦] وهذا المنيّ يختلط من الأب والأم، فيصير أمشاجاً أي خليطاً منهما.

وأثبت القرآن الكريم أن المرأة حرث ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢٢٣] والرجل هو الزارع، فسبَبُ التذكير والتأنيث يكون من جانبه، والمرأة صالحة للأمرين معا.

وثبت علميا أن خلية التلقيح عند الذكَر تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: أربعة وعشرون جزءاً والآخر: ثلاثة وعشرون جزْءاً، وذلك بالنسبة للرجل.

فإذا أراد الله تعالى تذكير الحمْل، سبق القِسْمُ الثاني، وإذا أراد تأنيث الحمل سبق القِسْمُ الأول.

فيندمج في كلا الحالتين مع قسيم خلية الأنثى، وهو أربعة وعشرون جزءاً دائماً وأبداً، وعند اختلاطهما يكون مجموعهما بالنسبة لخلْق الذكر سبعة وأربعون جزءاً، وبالنسبة لخلْق الأنثى ثمانية وأربعون جزءاً، وهكذا جميع الحيوانات[1].

هذا: ولفظ ﴿مَا﴾ من قول تعالى ﴿وَمَا[2] خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾. إما أن يكون حرفاً مصدرياً،

---

(١) ينظر: تتمة أضواء البيان للشيخ عطية سالم (٢٥٦/٩).

(٢) جاء في المسند (٢٧٥٣٥)، والبخاري (٣٢٨٧،٣٧٤٢،٦٢٧٨)، ومسلم (٢٨٢،٨٢٤-٢٨٤)، والترمذي (٢٩٣٩)، وابن حبان (٦٣٣٠)، والكبرى للنسائي (٨٢٤١) وغيرهم، وفي سنده: داود بن أبي هند من رجال مسلم وبقية رجاله رجال الشيخين، جاء عن علْقمة أن ابن مسعود ﷺ كان يقرأ ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ هكذا (والذكر والأنثى) بدون (ما) وأن أباالدرداء شهد أنه سمعها من رسول الله ﷺ، وسماها الزمخشرى صاحب تفسير الكشاف (قراءة النبي ﷺ).

قلت: إن هذه القراءة غير موجودة في القراءات المتواترة ولا الشاذة، وهي قراءة مخالفة للرسم العثماني، ولم توافق شرطاً من شروط صحة القراءة، ولم تثبت هذه القراءة في العرضتين الأخيرتين في آخر حياة النبي ﷺ بينه وبين جبريل عليه السلام ولم تُنقل هذه القراءة في شيء من المصاحف العثمانية التي أُرسلت للأمصار، فلا يُعدّ ما جاء في الحديث قرآنا، فثبت بهذا أنها قراءة منسوخة، لأن المصحف الإمام الذي جمعه عثمان ﷺ قد جُرّد من المنسوخ، ومما كانت تحمله بعض المصاحف الخاصة بأصحابها من تفسير وحواشي أو معاني كتبوها لأنفسهم، وليست من القرآن في شيء كمصحف عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب وغيرهما.

فيكون القسَمُ بخلْق الذكَر والأنثى.

وإما أن يكون اسماً موصولاً بمعنى الذي، فيكون المعنى: أن الله تعالى أقسم بذاته العليّة، أنه خالق الذكر والأنثى.

وقد خلق الله من كل كائن حي ذكراً وأنثى، ليبقى النوع ولا ينقرض، وجذب كلاً منها إلى الأخر بواسطة الشهوة، وجعل كلا منها مناسباً للآخر.

أما المقسم عليه فهو: أن الناس عملهم مختلف، منهم من يعمل للدنيا، ومنهم من يعمل للآخرة، وقد نتج عن ذلك أن كان منهم المؤمن ومنهم الكافر، منهم الشقي ومنهم السعيد، منهم الصالح ومنهم الطالح، فالفرق بين سعي الناس متباعد ومفترق.

وجواب القسم هذا كجواب القسم الذي في سورة الشمس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ فكلاهما سعي وعمل وتوجُّه، ويوم القيامة يتفرقون أوزاعا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم:١٤] أي يكونون أصنافا، منهم من يتوجه إلى الجنة ومنهم من يتوجه إلى النار، وفي هذا يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة:٦] فمنهم من عمل خيراً ومنهم من عمل شراً، وكُلاً منهما مجزيٌّ بعمله.

ويفسر هذه الآية ما صح عن رسول الله ﷺ من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يَغْدُو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها»[1].

والمعنى: أن كل إنسان يسعى بنفسه، ويُحصّل أعماله، فمنهم من يشتري نفسه بطاعة الله، فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيع نفسه للشيطان والهوى، فيهلكها في عذاب جهنم، فسعيكم - أيها المكلفون - متفاوت تفاوُتاً كبيراً بحسب تفاوت الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، بحسب قصد الإنسان وإخلاصه في عمله من عدمه.

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٣/١) برقم (٢٢٣)، والمسند (٢٢٩٠٢،٢٢٩٠٩)، حديث صحيح ورجال ثقات رجال الصحيح إلا أنه منقطع فإن إبا سلام لم يسمع من أبي مالك الأشعرى، وبينهما عبدالرحمن بن غنم، وهو ثقه (محققو المسند).

العَمَلُ الصَّالِحُ يُرَشِّحُ صَاحِبَهُ لِمُسْتَقْبَلٍ عَظِيمٍ، وَالعَمَلُ السَّيِّءُ يُرَشِّحُ صَاحِبَهُ لِنِهَايَةٍ مُخْزِيَةٍ

٥-٧- ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ[1]﴾.

ثم فصّل سبحانه ما أجمله جواب القسم، فبيّن أن الناس فريقان:

الفريق الأول: يتصف بثلاث صفات هي: التقوى، والعطاء، والتصديق باليوم الآخر.

وهذا الفريق: ميسَّر لليسرى، فهو موفق للإيمان والعمل الصالح، وبالتالي فهو يدخل الجنة بسهولة ويسر.

والفريق الآخر يتصف بثلاث صفات أيضاً وهي: البخل بالمال، والاستغناء عن ثواب ربه، والتكذيب باليوم الآخر، ومافيه من ثواب وعقاب.

وهذا الفريق: ميسر للعسرى، فهو غير موفق للإيمان والعمل الصالح، وبالتالي فهو يدخل النار سريعاً بدون عوائق:

ثلاثة من أسباب السعادة:

١- فأما مَنْ بذلَ من ماله تطوعاً، فيما أُمر ببذله فيه، مبتغياً بذلك وجه ربه.

٢- واتقى الله تعالى، فامتثل أمره واجتنب نهيه، وكف عن محارمه.

٣- وصدّق بالبعث والحساب، والثواب والعقاب على أعماله وأقواله في الدنيا..

فإن هذا الذي ينفق من ماله، ويتقي غضب الله تعالى، ويُصدّق بأن الجنة دارٌ للثواب، والنار دارٌ للعقاب، يكون قد بذل أقصى ما في وُسعه ليزكّي نفسه ويهْديها، وهو حينئذ يستحق عون الله تعالى وتوفيقه له.

وهذا معنى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي نرشده إلى أسباب الخير، ونوفقه إلى العمل الصالح، ونُيسر له أموره، ونكتبه في أهل السعادة.

وقد قطع الله على نفسه أن يهيء لهذا الصنف من الناس طُرق السعادة، فضلاً منه وكرماً، ومنًّا وإحساناً، ومن يسره الله لليسرى، فقد وصل إلى رحاب الله تعالى وهو لا يزال فوق الأرض.

---

(١) قرأ أبوجعفر بضم السين من ﴿لِلْيُسُرَىٰ﴾ و﴿لِلْعُسُرَىٰ﴾ والباقون بإسكانها.

ومن أسباب النزول:

١- أن بلال بن رباح ﷺ، كان عبداً مملوكاً لـ (أمية بن خلف) فكان يعذبه لإسلامه، ويُخرجه إذا حميت الشمس وقْت القيلولة، فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد! فيقول وهو في تلك الحالة: أحد، أحد، فمرّ به أبوبكر الصديق وهم يصنعون به ذلك، فقال لأمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين، قال له: أنت أفسدته عليّ فأَنقذْهُ مما ترى.

فاشتراه منه أبوبكر ببردة وعشرة أواق، وأعتقه في سبيل الله، فقال المشركون: إنما أعتقه لِيَدٍ كانت له عنده، فنزلت الآيات[1] .

ولما نزلت هذه الآيات اشترى أبوبكر ستة من ضعفاء المسملين كانوا في أيدي أهل مكة يعذبونهم، فأعتقهم.

٢- وقيل: كان لرجل من الأنصار نخلة، كانت مائلة في دار رجل فقير يجاوره، وهذا الجار له عيال، فربما سقطت التمرة في بيته فيأخذها صِبْيان هذا الجار الفقير، فينزل صاحب النخلة عن نخلته، ويأخذ التمرة من أيديهم، فاشتكى الفقير إلى النبي ﷺ فقال لصاحب النخلة: تعطيني نخلتك التي تميل في دار فلان، ولك بها نخلة في الجنة؟ فأبى الرجل.

فسمع بذلك أبوالدحداح، فقال لصاحب النخلة: هل لك أن تبيعها ببستان فيه أربعون نخلة؟ فقال: هي لك، فدعا النبي ﷺ صاحب النخلة وجاره الفقير، وقال له: خذها لك ولعيالك، فنزلت الآيات[2].

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين (٣٢٦/٤)، وتفسير الخازن (٣٨٤/٤)، وابن عاشور (٣٨٢/٣٠) وغيرهم.

(٢) تفسير الخازن (٣٨٤/٤) بتصرف، وضعّف بعضهم هذا السبب لأن السورة مكية والقصة في رجلين من الأنصار، وهي في الدر المنثور (٥٣٢/٨)، وأخرجها ابن أبي حاتم بسند ضعيف عن ابن عباس عن عكرمة، وهى في تفسير ابن كثير (٤١٩/٨) وقال عنهما: حديث غريب جدا وهي في تفسير ابن الجوزي وابن عطية والشوكاني وغيرهم. قلت: إن القرآن المكى يعم أحداث المدينة وغيرها، ولا يلزم أن تكون القصة سبباً لنزول الآية.

وكان النبي ﷺ يقول «كم من عذق ردّاح في الجنة لأبي الدحداح»[1] كلما مر بالأقناء التي كان يعلّقها أبوالدحداح في المسجد صدقة: ويقول ذلك أيضا كلما مر على الحائط الذي أعطاه أبو الدحداح لصاحب النخلة وقد تعلقت أقناؤها.

وسبب النزول لا يخصص العموم، ولا يقتضي أن تكون السورة مدنية، فالآيات عامة تشمل قصة أبي بكر وأبي الدحداح، وكل من عمل مثل عملهما.

وقد يتعدد سبب النزول على الآية الواحدة أو الآيات، فيقولون: فأنزل الله في كذا، قوله كذا، وهم يريدون أن القصة مما تشمله الآية. وقد سبق ذكر قصة أبي الدحداح في سورة البقرة والحديد وغيرهما.

ثَلاثَةٌ مِنْ أَسْبَابِ الشَّقَاء

٨-١٠ - ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾

أما الفريق الآخر: الذي بخل بماله أن يُنفقه فيما وجب عليه، وفي وجوه الخير، واستغنى عن هداية ربه، وعن ثوابه له بالجنة في الآخرة، واستغنى عن دعوة محمد ﷺ وكذّب بوحدانية الله تعالى، وكذّب برسوله ﷺ وبكتابه الذي نزل عليه، ولم يصدق بأن هناك بعثاً وحساباً وجنة ونارا، فأعرض عن طاعة الله تعالى ورسوله واليوم الآخر.

فهو بهذا التكذيب والإعراض يكون قد بلغ أقصى ما يبلغه الإنسان في تعريض نفسه للهلاك، واستحق أن يعسّر الله عليه كل شيء، ويَحْرمه كل تيسير، ويكتبه مع الأشقياء، بعد أن بيّن له أسباب الشقاء، ونهاه عنها، وتوعّده على فعلها، لأنه بسلوكه طريق الشيطان، قد انحرف عن طريق الفطرة، وسقط في العثرات، ونآى بنفسه عن رضوان الله تعالى.

والتكذيب بالحسنى، يعنى الشرك بالله تعالى وعدم القيام بما أوجب الله على العبد من الأحكام الشرعية، كما أن التصديق بالحسنى يعني الإقرا بكلمة التوحيد والعمل بمقتضاها.

---

(١) من حديث أنس في المسند (١٢٤٨٢)، قال محققوه: وإسناده صحيح على شرط مسلم، وعن جابر بن سمرة (٢٠٨٣٤، ٢٠٨٩٤)، وأخرجه ابن حبان (٧١٥٩)، وعبد بن حيمد (١٣٣٤)، والبيهقي في الشعب (٣٤٥١)، وغيرهم.

البُخْلُ بِالْمَالِ سَبَبٌ لِلتَّرَدِّي فِي النَّارِ

١١- ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾

أما مال الإنسان الذي بخل به، وترفَّع وتعالى به على الناس، واستغنى به عن الهُدى، فإنه لن ينفعه في شيء حين يتردى في نار جهنم، إنه سيهوى فيها، ولن يُغني عنه مالُه من الله شيئاً بل سيكون وبالاً عليه. والإنسان إذا مات فإن ماله لن يصحبه، ولا يصحبه إلا عمله الصالح وإيمانه الخالص ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم:٨٠].

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤].

فلا يستوي العطاء والبخل، والتصديق والتكذيب، واليسرى والعسرى.

ويصح أن يكون معنى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي سنجعل دخوله الجنة سهلاً يسيراً سريعاً، لأن التيسير هو جعل الشيء يسير الحصول، غير صعب ولا عسير.

ومعنى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي سنجعل دخوله النار ميسراً سريعاً لا صعوبة فيه، كما قال تعالى عن يوم القيامة: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:٩،١٠].

وعلى المعنى الأول: فإن كلا الطرفين يجازَى على قصده، فأهل الخير يُجْزَوْن خيراً بتوفيق الله لهم، وأهل الشر شراً يُجْزَوْن بالخذلان لهم، وكل ذلك وفق علم الله تعالى وتقديره، وبهذا جاءت الأحاديث:

١- عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار» فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له» ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ الآيات[1].

٢- وجاء في الرواية الثانية عنه ﷺ قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله ﷺ فقعد، وقعدْنا حوله، ومعه مخصَرة، فنكَس، فجعل ينكُتُ بمخْصَرته، ثم قال: «ما

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩٤٥،٦٢١٧)، وصحيح مسلم (٢٦٤٧)، وأبو داود (٤٦٩٤)، والترمذي (٢١٣٦)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦١٥)، وابن ماجة (٧٨)، والمسند (١١١٠، ١٠٦٧)، وابن حبان (٣٣٤،٣٣٥).

منكم من أحد، وما من نفس منفوسة، إلا كُتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كُتبتْ شقية أو سعيدة» فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاء؟ فقال: **«أما أهل السعادة فيُيسّرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فيُيسّرون إلى عمل أهل الشقاء»** ثم قرأ الآية[1].

والنكت هو ضرب الخطوط في الأرض بعصاً أو سوط في يده، وهو المخصرة.

٣- وفي حديث جابر ﷺ أنه قال: يا رسول الله، أنعمل لأمر قد فُرغ منه، أو لأمر نستأنفُه؟ فقال: **«لأمر قد فُرغ منه»** فقال سراقة: ففيم العمل إذاً؟ فقال ﷺ: **«كل عامل ميسر لعمله»**[2].

٤- وفي حديث عمران بن حصين ﷺ قال: قيل: يا رسول الله، أَعلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ قال: **«نعم»** قال: ففيم يعمل العاملون؟ قال: **«كل ميسّر لما خلق له»**[3].

٥- وأخرج الطبري وغيره بسنده إلى بُشير بن كعب العدوي، قال: (سأل غلامان شابان النبي ﷺ فقالا: يا رسول الله، أنعمل فيما جفّت به الأقلام، وجرت به المقادير، أو في شيء يُستأنف؟ فقال: **«بل فيما جفّت به الأقلام، وجرت به المقادير»** قالا: ففيم العمل إذاً؟ قال: **«اعملوا فكل ميسر لعمله الذي خُلق له)، قالا: فالآن نجدّ ونعمل»**[4].

٦- وأخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملَكان يقولان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول**

---

(١) البخاري برقم (١٣٦٢،٤٩٤٨،٧٥٥٢)، ومسلم برقم (٢٦٤٧)، وأبو داود (٤٦٩٤)، والترمذي (٣٣٤٤،٢١٣٦)، وسنن النسائي الكبرى (١١٦٧٨،١١٦١٤)، وابن ماجة (٧٨)، والمسند (٦٢١).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٨)، وتفسير الطبري (١٤٤/٣٠).

(٣) البخاري (٦٥٩٦،٧٥٥١)، ومسلم (٢٦٤٩)، وأبو داود (٤٧٠٩)، والمسند (١٩٨٣٤)، وابن حبان (٣٣٣).

(٤) تفسير الطبري (١٤٢/٣٠)، وبشير ليس له صحبة، فهو حديث مرسل وذكر (سراقة) جاء في بعض طرق الحديث في صحيح مسلم.

الآخر: اللهم اعط ممسكاً تلفاً»[1].

زاد الطبري: وأنزل الله في ذلك ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ الآيات.

ومعنى الأحاديث أن الله تعالى قد علم في الأزل أن فلاناً سيعمل بعمل الجنة، ويستمر على ذلك إلى أن يلقى ربه، أو يتحول من الطاعة إلى المعصية في مرحلة من مراحل حياته، أو يعمل بعمل أهل النار حتى يلقى ربه، أو يتغير حاله من المعصية إلى الطاعة فيختم له بالخير.

عَلِمَ الله تعالى أن ذلك سيقع بحرية العبد واختياره، وسوف يكون ذلك موافقا لعلم الله تعالى دون زيادة ولا نقصان، فدُوّن ذلك في اللوح المحفوظ، ليكون معلوما لدى الملائكة، وينكشف علم الله تعالى للخلق.

فلابد للإنسان أن يسعى ويعمل ليكتسب الخير أو الشر، وقد أُمر بالطاعة ونُهي عن المعصية، وحسابه وجزاؤه سيكون وفق عمله، وهو في النهاية لا يخرج عن علم الله تعالى الذي قدّره وكتبه عليه وفق علمه الأزلي السابق على وجود الإنسان، وهذا العمل هو وسيلة الحصول على الجنة أو الوقوع في النار، وهناك فرق بين تعلّق علم الله تعالى بأعمال العباد قبل أن يعملوها، وبين ما يصدر عنهم من أعمال موفقة بالضرورة، لما سبق في علم الله تعالى.

بَيَانُ طَرِيقِ السَّعَادَةِ لِلْخَلْقِ

١٢، ١٣ - ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾

ثم بيّن تعالى أنه قد أعذر إلى عباده، فوضّح لهم طريق الهدى الموصِل إلى رضوانه تعالى وجنته، من طريق الضلال، الموصل إلى نار جهنم، وكشف لهم حُسْن عاقبة من أعطى واتقى وصدق بالحسنى، وسوء عاقبة من بخل واستغنى وكذب بالحسنى.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي أن الله تعالى قد ألزم نفسه بمقتضى حكمته ورحمته بعباده أن يبين لهم طريق السعادة وطريق الشقاء بواسطة الرسل والكتب، فمن شاء

---

(١) البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠)، والمسند (٨٠٥٤)، وابن حبان (٣٣٣٣).

فليؤمن ومن شاء فليكفر، وهو تفضل من الله تعالى وامتنان على خلقه. والهدى يوصل إلى الله ويقرب العبد من رضاه، والضلال طرقه مسدودة عن الله، لا توصل إلا للعذاب الشديد.

الكون كله ملك لله تعالى:

وهذا الكون كله، بما يشمل الحياة الآخرة والحياة الأولى، ملك لله تعالى، فمن طلب الدنيا أو الآخرة من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق، فالعطاء والمنع بيد الله وحده، والثواب والعقاب بيد الله سبحانه: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحديد:٥] فهو رب العالمين، وهو مالك يوم الدين، وهو وحده المتصرف في الدنيا والآخرة، والجزاء الأخروي يجري على ما أعلم الله به عباده من الجزاء على الخير والشر، وأمور الدنيا تجري وفق الأسباب والمسببات التي وضعها الله تعالى لعباده وأرشدهم إليها، فمن فرّط في شيء منها، فقد استحق ما تسبب فيه، والدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء.

تَحْذِيرُ الْعِبَادِ مِنْ سُوءِ الْمَصِيرِ

١٤-١٦- ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا[1] تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾

وكما أرشد الله تعالى عباده إلى طريق الهدى المُوصِل إلى الجنة، فقد حذّرهم وأنذرهم نار جهنم التي تتوهج وتتسعّر، وتتقطع غيظاً على أهلها، وهذا من الهُدى الذي أبلغنا الله إياه.

وقد وصف الله تعالى النار بقوله ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج:١٥،١٦] :

١- عن النعمان بن بشير ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة، لرجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منها دماغه**»[2].

---

(١) قرأ رويس والبزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلا من ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ وعند البدء يقرأ بالتخفيف، كما قرأها بقية القراء وصلاً وبدءاً.

(٢) صحيح البخاري برقم (٦٥٦١،٦٥٦٢)، وصحيح مسلم (٢١٣)، والمسند (٨٣٩٠، ١٨٤١٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

٢ - وعنه أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهون أهل النار عذاباً، مَنْ له نعلان وشراكان من نار، يَغلي منهما دماغه، كما يَغلي المِرجَل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً**»[1].

٣ - وقد ورد أن عمر بن عبد العزيز صلّى المغرب بهذه السورة، فلما بلغ هذه الآية ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أخذ يبكي، فلم يتعداها من البكاء[2].

ثم إن هذه النار التي تتوقد من شدة حرارتها، لا يدخلها إلا أهل الشقاء والضلال، فتحيط بهم من جميع الجوانب، ويحترقون بها بسبب إصرارهم على الكفر والمعاصي كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

ثم بيّن سبحانه مَنْ هو شديد الشقاء، فذكر أنه الذي كذّب نبي الله محمداً ﷺ وأعرض عن الإيمان بالله ورسوله فلم يطعهما، ولم يستجب لدعوة الإسلام، فكذّب بقلبه ولم يعمل بجوارحه، واستمر على كفره وجحوده حتى الموت، والأشقى بمعنى الشقي وهو الكافر.

في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»[3].

سببان للبعد عن النار

١٧، ١٨ - ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾.

أي أن من سيبتعد عن النار يوم القيامة ويزحزح عنها فلا يدخلها، هو من كان شديد التقوى لله عز وجل، فطهّر نفسه من الذنوب والعيوب، فيكون يوم القيامة في جانب

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢١٣).

(٢) تفسير القرطبي للآية.

(٣) المسند (٢/٣٦١) (٨٧٢٨) إسناده صحيح على شرط البخارى، وصحيح البخاري برقم (٧١٣٧، ٧٢٨٠)، والحاكم (١/٥٥)، والطبراني في الأوسط عن أبي سعيد (٨١٢)، بلفظ مختلف وإسناده حسن.

والنار في جانب ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠١،١٠٢] .

والأتقى، بمعنى التقي وهو المؤمن عظيم الخشية لله تعالى.

ومن أهم صفات هذا الإنسان، شديد التقوى بالله تعالى، أنه يبذل ماله ابتغاء وجه الله تعالى، وطمعاً فيما عنده من ثواب وحُسْن جزاء، فهو لا يرائي ولا يتفاخر، ولا يريد جزاءً ولا شكورًا، ولا ينتظر ثواباً من أحد، وإنما يأمل في تطهير نفسه من الذنوب، ورفْع درجاته عند رب العالمين، ويطلب المزيد من الأجر والمثوبة من الله تعالى.

ومعنى: ﴿ يَتَزَكَّىٰ ﴾ يتطهر ويستزيد من الخير، كما قال تعالى ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣] والمراد تزكية النفس، ونماء المال بالصدقة.

بَذْلُ الْمَالِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى

١٩-٢١- ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴾

ثم بين سبحانه أن العبد التقي النقي، من شأنه أن ينفق ماله ابتداء، لوجه الله تعالى، وليس مكافأة لأحد أسدَى إليه معروفاً، أو صنع له جميلاً، ولا يهدف إلى تحقيق غرض دنيوي، بل ينفقه متطوعاً مخلصاً، يبتغي بنفقته وجه ربه الأعلى وطلب مرضاته، هذا هو هدفه، وهذه هي غايته.

ثم وعد الله المتصدق بالثواب الجزيل الذي يُرضي صاحبه، أي ولسوف نعطي هذا التقي - الذي أعطى ماله لله - نعطيه حتى نرضيه، فنُدخله جنة ربه، ونحلّ عليه الرضوان، ويا له من جزاء، ويا لها من نعمة كبرى! إنه يدخل من أي أبواب الجنة شاء:

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أنفق زوجين في سبيل الله، دعتْه خزنة الجنة، يا عبد الله: هذا خير.**

فمن كان من أهل الصلاة، دُعي من باب الصلاة.

ومن كان من أهل الجهاد، دُعي من باب الجهاد.

ومن كان من أهل الصدقة، دُعي من باب الصدقة.

ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان.

فقال أبوبكر: يا رسول الله، ما على أحد يُدْعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يُدعى منها كلها أحد؟ قال: «**نعم، وأرجو أن تكون منهم**»[1].

وهذه الآيات التي توعّدت الأشقى، وبشّرت الأتقى، فيها تقرير مصير الفريقين وهما: من أعطى واتقى.. ومن بخل واستغنى.. وفيها جزاء التصديق والتكذيب.

والآيات من ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ إلى آخر السورة نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ لمّا أعتق بلالاً، وكان بعض المشركين قد قال: ما أعتقه إلا ليدٍ كانت لبلالٍ عنده، فأنزل الله تكذيبهم في قوله ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ فبلال داخل في عموم ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾.

قال ابن كثير: ولم يكن لأحد من الناس عند أبي بكر منّة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل.

ولهذا فإن عروة بن مسعود - وهو سيد ثقيف - كان قد أغلظ له أبو بكر في القول يوم صلح الحديبية، فقال: والله، لولا يدٌ لك كانت عندي لم أُجزك بها، لأجبتُك، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب، ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟[2].

فالآيات عامة، وأبوبكر ﷺ هو أول الأمة، وسابقهم إلى الخيرات، كما ذكرتْه الآيات من أوصاف حميدة، وإنّ هذه الآيات وإنْ كانت قد نزلت فيه، لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والله تعالى أعلى وأعلم.

تم تفسير (**سورة الليل**) ولله الحمد والمنة

---

(١) صحيح البخاري برقم (٢٨٤١)، وصحيح مسلم برقم (١٠٢٧).

(٢) تفسير ابن كثير بتصرف (٤٢٢/٨).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الضُّحَى (٩٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الضحى) هي السورة الثالثة والتسعون في ترتيب المصحف، والحادية عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الفجر) وقبل (سورة الانشراح).

وعدد آياتها إحدى عشرة آية باتفاق.

وهي أربعون كلمة، ومئة واثنان وسبعون حرفاً.

وسميت (سورة الضحى) بإثبات الواو وحذفها.

وهي سورة مكية باتفاق، وأول سورة من قصار المفصل.

٢ - والسورة تتحدث عن فترة تأخر نزول الوحي على رسول الله ﷺ بعد أن أشاع المشركون الشائعات الكاذبة حول سبب تأخر نزوله، وقد حدث ذلك في أوائل نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وكان ذلك لأسباب طبيعية، لأن نزول الوحي على رسول الله ﷺ في أول الأمر، كانت تصحبه معاناة شديدة، بسبب مُلاقاة الملَك للبشر، فكان ﷺ يتدثر ويتزمل، ويشتد عليه الأمر، لذلك كان لابد من الاستجمام والراحة بعض الوقت، ليستأنف النزول بعدها، وقد حدث هذا مرة أو مرتين، وكان من آمن بالنبي ﷺ وقتئذ أفراد يُعَدُّون على الأصابع، وتتابع الوحي، واتسعت دائرة الدعوة بعد ذلك.

وفي هذا الصدد يقسم تبارك وتعالى مرتين - لأن الخطاب لقوم مشركين منكرين للرسالة - على أنه سبحانه لم يهجر محمداً ﷺ ولم يبغضْه كما زعموا، بل هو عنده رفيع القدر، جليل الشأن، ثم يبشره بالعطاء الجزيل في الآخرة، ويذكّره بما أنعم عليه في الصّغر: من اليُتم، والفقر، والفاقة، والحيرة، فآواه ربه وأغناه، وأحاطه بعنايته ورعايته، فلا مجال للقول بالبغض أو الهَجر.

ثم إن الله تعالى وصّى نبيه ﷺ مقابل هذه النعم: أن يعطف على اليتيم، وأن يرحم المسكين، ويمسح دمعة البائس الفقير، ويتحدث بفضل الله عليه.

أسباب النزول:

أ - في الصحيحين وغيرهما عن جندب بن سفيان البجَلي ﷺ قال: دَمِيَتْ إصبعُ رسول الله ﷺ فاشتكى، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة، فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أرهُ قرَبَك منذ ليلتين أو ثلاث، فأنزل الله ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[1].

والمرأة أم جميل بنت حرب، زوج أبي سفيان.

فقد أخرج الحاكم عن زيد بن أرقم ﷺ قال: لما نزلت ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ فقيل لامرأة أبي لهب: إن محمداً قد هجاك، فأتت رسول الله ﷺ وهو جالس في الملأ، فقالت: يا محمد، علامَ تهجوني؟ قال: (إني والله ما هجوْتُك، ما هجاكِ إلا الله) فقالت: هل رأيتني أحمل حطباً، أو رأيتَ في جيدي حبلاً من مسد؟ ثم انطلقتْ، فمكث رسول الله ﷺ أيّاماً لا ينزل عليه، فأتته فقالت: ما أرى صاحبك إلا وقد ودّعك وقلاك، فأنزل الله ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[2].

ب - وفي رواية الترمذي عن جندب أيضاً من طريق ابن عيينة قال: كنت مع النبي ﷺ غازياً، فدَميتْ إصبعه، فقال: هل أنتِ إلا إصبع دَميتْ، وفي سبيل الله ما لقيتْ، قال: فأبطأ عليه جبريل، فقال المشركون: وُدّع محمد، فأنزل الله:

---

(١) صحيح البخاري برقم (١١٢٥،٤٩٥٠،٤٩٨٣)، وصحيح مسلم برقم (١٧٩٧)، والمسند (١٨٧٩٦،١٨٨٠٤)، والترمذي (٣٣٤٥)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦١٧)، والطبراني في الكبير (١٧٠٩،١٧١١)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٦٥)، وابن حبان (٦٥٦٥).

(٢) المستدرك (٢/٥٢٦)، وهو في البخاري (٤٩٥١)، ومسلم (١٧٩٧)، وأخرجه أحمد مختصراً في المسند (١٨٧٩٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، و(١٨٨٠١، ١٨٨٠٤) بأطول منه.

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[1].

قال الخازن: فلما نزل جبريل عليه السلام، قال محمد ﷺ: يا جبريل ما جئت حتى اشتقتُ إليك، فقال جبريل: إني كنت إليك أشد شوقا، ولكني عبد مأمور، ونزل: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾[2] [مريم:٦٤].

هذا: واحتباس الوحي عن النبي ﷺ وقع مرتين:

أولاهما: كان بعد نزول سورتين أو ثلاث من القرآن.

وفي هذه المرة خشي الرسول ﷺ أن يكون الوحي قد انقطع عنه، فرأى ﷺ جبريل عليه السلام على كرسي بين السماء والأرض.

وقيل: إن الوحي انقطع هذه المرة أربعون يوما، وكان ذلك قبل أن يقوم الليل بالقرآن في مبدأ نزول الوحي، فلم يشعر بها المشركون.

وثانيهما: بعد نزول نحو ثماني سور من القرآن الكريم، وكان احتباس الوحي في هذه المرة اثني عشر يوماً، رفقاً بالنبي ﷺ كي تستجم نفسه، ويتعود على تحمُّل أعباء الوحي.

والظاهر أن هذه السورة (الضحى) نزلت بعد المرة الثانية التي فتر بعدها الوحي، بعد

---

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح (٣٣٤٥) وفيه: كنت مع النبي ﷺ في غار، ولكن جُندباً كان من صغار الصحابة، فلم يتفق له أن يكون مع النبي ﷺ في غار، قال أهل العلم: فلعلها تصحيف، وأن أصلها (كنت غازياً) كما أثبتُّها في النص، والحديث في المسند (٨٧٩٧، ١٨٨٠٧)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، دون ذكر: كنت مع النبي ﷺ غازياً (محققوه)، وأخرجه الترمذي في الشمائل (٢٤٤)، بهذا الإسناد وأخرجه الطيالسي (٩٣٨)، والطحاوى في شرح المشكل (٣٣٣١)، والطبراني في الكبير (١٧٠٤)، وسعيد بن منصور (٢٨٤٦).

ومما قيل في أسباب النزول: أن تأخُّر جبريل كان بسبب وجود كلب صغير تحت سرير النبي ﷺ، قال ابن حجر في الفتح (٥٤٥/٨): في إسناده من لا يُعرف، وهو مردود بما جاء في الصحيح، وورد أن احتباس الوحي كان بسبب سؤال اليهود للنبي ﷺ عن ذي القرنين، وأصحاب الكهف، والروح، فقال: سأخبركم غدا، ولم يقل: إن شاء الله فاحتبس الوحي، وهذا أيضاً ليس سببا لنزول السورة، لبُعد ما بين القصتين في الزمان.

(٢) تفسير الخازن (٣٨٥/٤).

أن أخذ ﷺ يقوم الليل، وشعر به المشركون[١].

التكبير في قصار المفصل:

٤- أما **مسألة التكبير** من أول أو آخر سورة الضحى التي قرأ بها الإمام ابن كثير من القراء السبعة وغيره، فإن هذا التكبير لم يرد في حديث صحيح.

ومن ذلك ما أورده ابن كثير في تفسيره، فهو غير صحيح، ولم يَرد التكبير عن جمهور القراء، وقال به بعض الشافعية والحنابلة، ولم يقل به الحنفية والمالكية، وليس لأئمة الفقه مذهب فيما يتعلق بالقرآن.

هذا وقد ورد التكبير من طريق التلقّي عن عشرات من أهل الأداء، عن ابن كثير المكي من أئمة القراءة، من آخر الضحى، أو أولها، كما ورد التهليل قبله والتحميد بعده.

ولم يرد التكبير عن غير المكيين من القراء من طريق صحيح، ومنهم حفص، والقراءة سنة متبعة تؤخذ عن طريق الرواية المتواترة، ولا تثبت القراءة بالحديث.

وقد ذكر ابن الجزري ثلاثين اسماً ممن رَوَوْا التكبير عن البزي في سور الختم، وهو أحد راويَي ابن كثير المكي.

فالتكبير في أخر السورة بدءاً من سورة الضحى عند المكيين صح عن القراء بطريق التلقى، وكذا التهليل قبله والتحميد بعده.

ورُوى التكبير عن جميع القراء بين جميع السور من طريق طيبة النشر في القراءات العشر[٢].

* * *

---

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٣٩٦/٣٠).

(٢) ينظر هذا البحث في كتابي فن الترتيل وعلومه، الجزء الثاني والحديث الذي أخرجه الحاكم في شأن التكبير (٣٠٤/٣) للإمام ابن الجزري، والبيهقي في الشعب (٢٠٧٩) غير صحيح، وينظر النشر في القراءات العشر.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقَسَمُ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَهْجُرْ نَبِيَّهُ حِينَ تَأَخَّرَ عَنْهُ الْوَحْيَ

١ - ٣ - ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾

أقسم الله تبارك وتعالى بوقت الضحى حين ترتفع الشمس في صدر النهار، وأقسم بالليل حين يغطي كل شيء بظلامه، على أن الله تعالى لم يترك محمداً ﷺ منذ اختاره نبياً رسولاً، ولا أبغضه منذ اصطفاه وأحبه. ولا تَرَكَهُ منذ اعتنى به، ولا أهمله منذ رعاه وتولاه.

وفي القسم بالضحى وبالليل، دليل على قدرة الله تعالى في خلقه لهذا الكون بما فيه، وفي لقاء جبريل بالنبي ﷺ اتصال بالله تعالى، وزادٌ لرُوح النبي ﷺ وتخفيفٌ له عما يُلاقيه من المكر والكيد والأذى من قومه، فإذا فتر الوحي انقطع الزاد، وانحبس الينبوع، واستوحش قلبه ﷺ وبقي بلا زاد ولا غذاء، وهذا أمر شاق شديد الاحتمال، وقد نزلت هذه السورة لتفيض بالحب والودّ والإيناس للنبي ﷺ وتُعطيه الطمأنينة واليقين.

وهكذا فقد أصاب رسول الله ﷺ مرض في إصبعه، فتوقف عن قيام الليل بضع ليال، لم يسمع المشركون فيها صوت النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن في صلاته، فزعموا أن الوحي قد انقطع عنه، وأن ربه قد تركه وقلاه، فأقسم الله تبارك وتعالى بوقت الضحى حين ينبثق نور الشمس وترتفع في الأفق، على أن الله تعالى لم يهجُر نبيه ﷺ ولم يتركه كما زعموا.

ويراد بوقت الضحى: النهار كله، لأنه في مقابلة الليل الذي جاء ذكره في القَسم الثاني.

وخُصَّ وقت الضحى بالذكر، لأنه يشير إلى أن انبثاق ضوء الشمس، يشبه نزول الوحي واهتداء الناس به، وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه نور فقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:٨] وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢] كما وصف الله رسوله ﷺ بأنه نور في قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ

﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ [المائدة:١٥،١٦] .

وقد كان الوحي ينزل شُروقاً دائماً على قلب محمد ﷺ وقد ظل معه إلى آخر عمره.

ووقْت الضحى هو الوقت الذي كلم الله فيه موسى عليه السلام، وهو الوقت الذي جمع فيه فرعون السحرة لمقابلة موسى عليه السلام، فكانت النتيجة أنهم خرُّوا لله سجَّداً وقالوا ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء:٤٧،٤٨] .

ثم أقسم تبارك وتعالى بالليل إذا اشتد ظلامه، وسكن فيه الخلق بعد الحركة والنشاط، والليل هو الوقت الذي فقَد فيه المشركون صوت النبي ﷺ بضع ليال وهو يقوم الليل بالقرآن، ولعل قيامه ﷺ كان في المسجد الحرام أو في بيته.

ومعنى: ﴿ سَجَىٰ ﴾ أي امتد ظلامه وغطّى الكون، وكان النبي ﷺ يقوم الليل حتى تورّمت قدماه، وقد خفف الله عليه ذلك في قوله ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ [المزمل:٢-٤] وقوله: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾.

وفي هذين القَسَمين بالضحى والليل، لَفْتُ الأنظار إلى الليل والنهار وما فيهما من عظيم قدرة الله تعالى، والدلالة على وحدانيته سبحانه.

والله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للخلق أن يقسموا بغير الله سبحانه.

أما جواب القسم: فهو ردّ لمزاعم المشركين، بأن الله تعالى قد ترك محمداً ﷺ حين تأخر نزول الوحي عليه بعض الوقت،فالله تعالى لم يتركه كما زعموا، فإن هذا لا يليق بمقام النبوة، فقد يترك الحبيب حبيبه أحياناً، لسبب اقتضى ذلك مع قيام المودة والمحبة واستمرارها.

ومعنى ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي وما أبغضك منذ أحبك، وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى على لسان لوط عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ [الشعراء:١٦٨] أي الكارهين المبغضين.

فالمعنى: ما قطع الله عنك وحيه، وما كرهك، كما زعم المكذبون.

هذا حال النبي ﷺ في الماضي والحاضر، وفي الآيات التالية بيان لحاله في الآخرة:

بشارتان عظيمتان للنبي ﷺ

٤، ٥- ﴿وَلَلْآخِرَةُ[1] خَيْرٌ[2] لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾

ثم بشَّر الله رسوله ببشارتين عظيمتين:

البشارة الأولى: أن ما أعده الله لنبيّه في الآخرة من نعيم لا يحيط به الوصف، خَيْرٌ لَهُ مما أعطاه في الدنيا من نبوة وكرامة واصطفاء على خلق الله، وهذه خصوصية له ﷺ فوق ما يعطيه الله للأبرار بصفة عامة وهو ﷺ على رأسهم.

قال تعالى ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٨].

فالمراد بالآخرة في الآية: الدار الآخرة على الأرجح، أما حياة النبي ﷺ أولها وآخرها، فقد كانت كلها موضع الرعاية والعناية من الله تعالى، ومن صَحْبِه الكرام، ومن زوجه خديجة رضي الله عنها، ومن عمه أبي طالب.

وقد كان النبي ﷺ يفضل ما عند الله تعالى على دنياه، فقد راودته جبال مكة أن تسير معه ذهباً أينما سار، فقال أجُوع مرة فأشعر بأني في حاجة إلى ربي فأسأله، وأشبع مرة فأشكر فضل الله عليّ.

وروى ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ اضطجع على حصير، فأثّر في جنبه، قال: فلما استيقظ جعلتُ أمسح جنبه، وقلت: يا رسول الله، ألا آذنْتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً، فقال ﷺ: **«ما لي وللدنيا؟ ما أنا والدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها»**[3].

---

(١) رقق الأزرق راء ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ وثلّث البدل، والباقون بالتفخيم القصر.

(٢) للأزرق في راء ﴿خَيْرٌ﴾ الترقيق والتفخيم، وفخمها باقي القراء.

(٣) المسند (١/٣٩١) برقم (٣٧٠٩،٤٢٠٨) وهو حديث صحيح كما قال محققوه)، وعن ابن عباس (٢٧٤٤) وعن ابن مسعود في سنن الترمذي برقم (٢٣٧٧)، وسنن ابن ماجة برقم (٤١٠٩)، وصححه الألباني في الأحاديث الصحيحة برقم (٤٣٩،٤٤٠)، وأخرجه أبو يعلى (٥٢٩٢)، والطيالسى (٢٧٧).

أما البشارة الثانية: فهي أن الله تعالى سوف يعطي نبيه ﷺ ما يسعده ويرضيه في الدنيا بإعلاء كلمة الحق، وبالفتح المبين، والنصر العظيم، والتمكين في الأرض، فلم يزل النبي ﷺ يصعد في درج المعالي، ويمكن الله له دينه، وينصره على عدوه، ويسدد له في أحواله حتى وصل إلى ما وصل إليه، وسوف يعطيه ربه من نعيم الآخرة ما تقرُّ به عينه، وترضى به نفسه، ومن ذلك: ما أخبر به ﷺ أنه لا يرضى وأحد من أمته في النار.

ومما أعطاه ربه: المقام المحمود، والحوض المورود، والشفاعة في دخول الجنة، والشفاعة في الخروج من النار لأهل المعاصي من أمته، والشفاعة بتخفيف العذاب عن أبي طالب، وشهادته على الرسل، وشهادة أمته على الأمم:

١ - أخرج الطبري بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: عُرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً، فسُرّ بذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ فأعطاه الله في الجنة ألف قصر، في كل قصر ما ينبغي من الأزواج والخدم[1].

٢ - وفي حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم ﷺ ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] وقول عيسى ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨] فرفع يديه وقال: «**اللهم أمتي أمتي وبكى**» فقال الله يا جبريل: اذهب إلى محمد، فقل له: «**إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك**»[2].

٣ - وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحى، وعليها كساء من جلد الإبل، فلما نظر إليها، قال: «**يا فاطمة، تعجّلي مرارة الدنيا بنعيم الآخرة**»، فأنزل الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[3].

---

(١) تفسير الطبري (٤٤٨/٨ ط)، الشعب وابن أبي شيبة (١٠٤/١٣)، والطبراني في الكبير (١٠٦٥٠)، وفي الأوسط (٣٢٠٩)، والبيهقي (٦١/٧)، والحاكم (٥٢٦/٢)، قال الحاكم: صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي بقوله: تفرد به عصام بن رواد عن أبيه، وقد ضعف.

(٢) صحيح مسلم في الإيمان (٢٠٢).

(٣) تفسير الشوكاني (٤٥٨/٥)، والدر المنثور (٤٨٦/١٥).

٤ - وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعتي لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»(١).

ثلاثٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ

٦-٨- ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾

ثم ذكّر الله نبيه بنعمه عليه حال صغره، حتى لا يتأثر بكلام المبطلين، ويعلم أن عناية الله به قد غمرتْه من مهده إلى لحده، وليعلم المرجفون أن ما وعد الله به نبيه أمر محقق، فذكر له في هذه الآيات ثلاث من نعمه عليه:

النعمة الأولى: رعايته ﷺ يتيماً: أي: أنك – أيها الرسول - ولدت يتيماً، تُوفي أبوك وأنت في بطن أمك، وماتت أمك وأنت في السادسة من عمرك، ومن شأن اليتيم ألاَّ يجد من يتعهده بالتربية والتهذيب، فينشأ على النقائص وسوء الأخلاق، ولكن الله تعالى تكفَّل بعنايتك ورعايتك وتهذيبك ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم:٤] وتولى الله تأديبك، فكانت خيراً من تربية الأبوين (**أدبني ربي فأحسن تأديبي**) وهيأ الله لك من يحسنون تربيتك، فلما مات أبوه ﷺ قبل ولادته، كفله جده عبد المطلب، ولما مات جده وهو في الثامنة من عمره، كفله عمه أبوطالب، الذي ظل يحميه ويدافع عنه وينصره ويدفع عنه الأذى حتى بعد أن ابتعثه الله تعالى على رأس الأربعين من عمره، وكان ﷺ قد تزوج من خديجة رضي الله عنها وهو في الخامسة والعشرين من عمره، فكانت له خير عون وسند.

النعمة الثانية: هدايته بالوحي: أي: أن الله تعالى وجدك ما تدري ما الكتاب ولا الإيمان، والناس حولك يعبدون أوثاناً، فلم يَرُق لك ذلك، وأخذتَ تعبد الله تعالى على ملة إبراهيم عليه السلام، وكنتَ في حيرة مما يفعله قومك، فأنزل الله عليك الوحي، وعلّمك ما لم تكن تعلم، علّمك علم الأولين والآخرين عن طريق الوحي، ووفقك

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٣٠٤، ٧٤٧٤)، وصحيح مسلم برقم (١٩٩).

لأحسن الأعمال، وكان فضل الله عليك عظيماً.

وقد نشأ رسول الله ﷺ موحدًا، لم يسجد لصنم قط، ولم يرتكب فاحشة قط، وعُرف بين قومه بالصادق الأمين، مع أن البيئة التي كان يعيش فيها النبي ﷺ كانت بيئة جاهلية، منحرفة في عقائدها وأخلاقها، والنبي ﷺ لم تطمئن نفسه إلى هذه البيئة، فظل حائرًا متردداً، حتى هداه الله إلى الحق، وأنزل عليه الرسالة، بعد أن اعتزلهم وانفرد يعبد ربه في غار حراء.

فالمعنى: ووجدك - أيها الرسول - ضالاً عما أنت عليه الآن من معرفة الشريعة والدين، حتى هداك الله إليه، وكنت في حيرة من حال أهل الشرك حولك، فأعلمك الله أن هذا غير محمود، وهداك إلى طريق الحق والنور، وكنت لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم.

وليس المراد بالضلال في الآية: اتباع الباطل، فإن الأنبياء معصومون من الإشراك بالله تعالى قبل النبوة وبعدها بالإجماع، وهم أيضا معصومون من الذنوب وارتكاب الفواحش، والنبي ﷺ كان معروفاً بين الناس ببُعْده عن الرذائل والنقائص وما يخل بالمروءة، وقد لبث فيهم عمراً قبل النبوة وبعدها، فلم يتّهمه أحد، ولم يقدح في سلوكه أحد، وكان يشهد له القاصي والداني بالورع والصدق والأمانة.

النعمة الثالثة: غنى النفس وجعْل الدنيا في يده ﷺ: ووجدك ربك – يا رسولنا - فقيراً فأغناك، بأن ساق إليك رزقك، وأغنى نفسك بالرضا والقناعة والصبر.

ففي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**»[1].

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافاً، وقنّعه الله بما آتاه**»[2].

---

(١) ينظر البخاري برقم (٦٤٤٦)، ومسلم برقم (١٠٥١).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٠٥٤).

وقد جاءت إليه الدنيا، ومنها غنائم خيبر وحنين، فكان ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وجاءه مال البحرين فقسمه بين الناس، ومع ذلك فقد مات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في صاع من شعير، فكان المال في يد النبي ﷺ حالاً مرتحلا، وكان ﷺ أجود الناس.

والعائل هو الذي لا مال له، كما قال تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة:٢٨] .

وقد أغنى الله تعالى رسوله ﷺ غنائين: أعظمهما غنى القلب، حين جعل الدنيا في كفه ولم يجعلها في قلبه.

والآخر: مُتجارتُه ﷺ في مال خديجة، وما أعطاه من أموال الفيء والغنائم التي أفاء الله عليه بها.

فالذى أزال عنه هذه النقائص سيزيل عنه كل نقص، فقابِلْ نعمة الله عليك - أيها الرسول - بالشكر والامتنان، فقد آواك الله ونصرك وهداك.

ثَلاثُ وَصَايَا لِلنَّبِيِّ ﷺ لِشُكْرِ اللهِ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ الثَّلاث

٩-١١- ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

ثم أوصى الله تعالى نبيه بوصايا ثلاث تقابل النعم الثلاث، السابق ذكرها، فيها بيان لطريقة شكر المنعم سبحانه:

الوصية الأولى: لا تقهر اليتيم ولا تُهِنْه: بما أنك – أيها الرسول - قد وُلدت يتيماً فآواك الله، وأدبك وعلّمك، فكن رحيما باليتيم، عطوفاً عليه، ولا تُسِء معاملته، ولا تكن كأهل الجاهلية الذين كانوا يقهرون الأيتام، ويذلّونهم، ويظلمونهم، ويأكلون أموالهم، ويُضيّعونها، فكما آواك الله، وحفظك من الضياع والحاجة وأنت يتيم، فكن مُكْرِماً لليتامى، رفيقاً بهم، ولا تعبس في وجوههم، ولا تُهِنْهم، والقهر هو الغلبة والإذلال بالقول أو الفعل.

الإحسان إلى اليتامي:

وقد أمرنا الله تعالى ألا نسيء إلى اليتامى في القول فقال ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾

[النساء:٨] وأمرنا أن نعاملهم معاملة الإخوان فقال ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠] .

وأُمرنا ألا نأكل أموالهم بالباطل فقال: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء:٢] .وقد أُمرنا ألا نقرب مال اليتيم إلا بالتي أحسن.

وخير بيوت المسلمين، بيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشر بيوت المسلمين، بيت فيه يتيم يساء إليه.

وفي حديث سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما»**[1].

ومن ولى أمر اليتيم واستحق أجراً على عمل عمله له، فإما أن يستعفف، وإما أن يأخذ ما يُساوي عمله بالمعروف.

وقد توعد الله تعالى من يأكل مال اليتيم وعيداً شديداً مفزعاً فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠] .

وعندما يبلغ اليتامى رُشدهم فَرُدُّوا إليهم أموالهم، وأشهدوا عليهم ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء:٦] .

وليحذر المسلم من إفساد مال اليتيم، أو إفساد أخلاقه، أو إساءة تربيته.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ [البقرة:٢٢٠] .

ولْيحذر المسلم أن يكون أولاده غدا في موضع اليتامى الذين يسيء معاملتهم اليوم، أو يأكل أموالهم، فلْيتق فيهم قبل أن يدور عليه الكأس: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء:٩] .

وبلَغ من وصاية النبي ﷺ باليتيم أن قال ﷺ من حديث عوف بن مالك، عن امرأة ترمّلتْ وحبستْ نفسها على تربية أبنائها **«أنا وسغفاء الخدين كهاتين يوم القيامة»**[2].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٥٣٠٤،٦٠٠٥)، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ (٢٩٨٣)، وصحيح سنن أبي داود (٤٢٨٩).

(٢) أبوداود (٥١٤٩) عن عوف بن مالك باب فضل من عال يتيما، كتاب الأدب.

وشكا رجل قسوة قلبه إلى النبي ﷺ فقال ﷺ فيما يرويه أبوهريرة ﷺ:

«امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين»[(١)].

الوصية الثانية: لا تنهر السائل ولو كان على فرس:

وبما أن الله تعالى قد هداك - أيها الرسول - بعد حيرة، فاشكر نعمته عليك بأن تفتح صدرك للسائل، فلا تزجُره، وأطعمه، واقض حاجته، وعامله برفق، ولا تعبس في وجهه، لا تسئ معاملته، ولا يضق صدرك به ولا تنهره، بل أكرمه وأعطه ما تيسر.

ولفظ السائل عام، يشمل: طالب المال، وطالب العلم، فإن حسن التعامل مع المتعلم وإكرامه يعين على تحصيل العلم، وكذا طالب النصيحة، وطالب المشورة، وطالب الطعام، وطالب العون، وغير ذلك، فهو يشمل كل سائل، فلا تتكبر عليه، ولا تغلظ له القول، ولا تعرض بوجهك عنه، ولا تكن فظًا غليظًا عليه.

١ - عن عبد الرحمن بن بُجَيْد، عن جدته أم بُجَيْد - وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ - أنها قالت له: يا رسول الله، صلّى الله عليك، إن المسكين ليقوم على بابي، فما أجد له شيئاً أعطيه إياه، فقال ﷺ: **«إن لم تجدي له شيئاً تعطيه إياه إلا ظِلْفاً محرقاً، فادفعيه إليه في يده»**[(٢)]. والمراد ظلف الشاة.

٢ - وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الناس لكم تبع، وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقّهون، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»**[(٣)].

٣ - وقال هارون العبدري: كنا إذا أتينا أباسعيد يقول: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، وكان ﷺ إذا لم يجد ما يعطيه للسائل يَعدُه وعداً حسناً إلى حين ميسرة، كما قال تعالى:

---

(١) المسند (٩٠١٨، ٧٥٧٦) بإسناد ضعيف، لأن في سنده انقطاع، كما قال محققوه، وانظر: عبد بن حيمد (١٤٢٦)، والبيهقي في الشعب (١١٠٣٥).

(٢) صحيح سنن أبوداود برقم (١٤٦٦)، وسنن الترمذي برقم (٦٦٥) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٨٦/٥)، والمسند (٣٨٣/٦) برقم (٢٧١٥١)، وإسناده حسن (محققوه).

(٣) الترمذي برقم (٢٦٥٠)، وفيه أبوهارون العبدي متكلم فيه.

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٨] .

الوصية الثالثة من شكر النعمة: التحدث بها من غير فخر ولا خيلاء:

وبما أن الله تعالى قد أغناك - يا رسولنا - بعد فقر، فإن من شُكْر النعمة أن تتحدث بما أسبغ الله عليك من نعم ظاهرة وباطنة، ويكون ذلك بإظهار هذه النعم وعدم كتمانها أو سترها، وإذاعتها بين الناس دون تفاخر ولا سمعة ولا تطاول على الناس.

وجاء في الدعاء المأثور (واجعلنا شاكرين لنعمك، مثنين بها، قابليها، وأتمها علينا)[١].

وإظهار نعمة الله تعالى على العبد من باب شكر المنعم، ومن لا يشكر الناس، ولا يعترف بفضلهم عليه، ويتنكّر لهم، لم يشكر الله تعالى كما في حديث أبي هريرة ﷺ وأبي سعيد «**من لا يشكر الله لا يشكر الناس**»[٢].

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**من أُعطي عطاءً، فوجَد، فلْيجْز به، فإن لم يجد، فلْيُثْن به، فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره ومن تحلى بما لم يعط، فإنما هو كلابس ثوبَي زور**»[٣] ومن لم يشكر القليل لم يشكر الكثير.

والنعمة تطلق على كل ما أنعم الله به على العبد من مال وعافية وهداية ونُصرة وغير ذلك.

ومن التحدث بنعم الله تعالى: أن يُبلّغ العبد عن ربه ولو آية، ويُبلّغ عن رسوله ﷺ ولو حديثاً، فإن كتمان العلم من أعظم الذنوب. وهو باب من أبواب عدم الشكر.

ومن العلماء من خص النعمة على نبيه ﷺ في الآية: بنعمة القرآن والنبوة، والتحدث بها: تبليغها للناس، وتعريفهم بها، وعدم كتمانها.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤٦٧/٨).

(٢) صححه الألباني برقم (٤١٧) في السلسلة الصحيحة عن أبي هريرة ﷺ، وهو في صحيح سنن الترمذي (١٥٩٣)، والمشكاة (٣٠٢٥)، وصحيح أبي داود (٤٠٢٦)، والترمذي (١٩٥٤)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح والمسند (٢٩٥/٢) برقم (٧٩٣٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، وانظر (٧٥٠٤) (محققوه).

(٣) سنن أبي داود برقم (٤٨١٣)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٠٢٨)، والصحيحة (٦١٨)، والضياء المقدسي (٨٣٦)، والترمذي (٢١٢٠).

وقد نهى الله تعالى العبد أن يزكي نفسه في قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢] ولكنه إن كان غنياً، ويلبس ملابس الفقير، فإن لسان حاله كأنه يطلب الصدقة من الناس، فإن من التحدث بنعمة الله تعالى على العبد أن يظهَر عليه أثر النعمة.

أما الفقير الذي يظهر بمظهر الغني فهو كلابس ثوبي زور.

وليس من التحدث بنعمة الله تعالى أن يقول العبد: صمت كذا، أو صليت كذا، أو تصدقت بكذا، أو اعتمرت كذا مرة وهكذا.

وفي الحديث مرفوعاً عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما «**من أسديت إليه نعمة فذكرها، فقد شكرها، ومن سترها فقد كفرها**»[١].

قال الألوسي في معنى الآية: كنتَ يتيماً وضالاً وعائلاً، فآواك الله وهداك وأغناك، فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث: فتعطّف على اليتيم، وترحّم على السائل، فقد ذُقت اليُتْم والفقر، وأرشِد العباد إلى طريق الرشاد كما هداك ربك[٢] .

والتحدث بنعم الله تعالى يشمل الأمور الدينية والدينوية، فَيُثْنِ العبد بها على الله تعالى، ويخصها بالذكر، فإن التحدث بنعم الله يدعو إلى شكرها ويوجب محبة مَنْ أسداها، فإن القلوب مجبولة على حُبِّ من أحسن إليها.

تم تفسير (سورة الضحى) ولله الحمد والمنة

(١) تفسير ابن عطية (٤٩٥/٥)، وقد رواه جابر بن عبد الله في سنن أبي داود (٤٨١٤) بمعناه، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٠٢٩).

(٢) تفسير الألوسي (١٦٤/٣٠).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الشرح (٩٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الشرح) هي السورة الرابعة والتسعون في ترتيب المصحف، والثانية عشرة في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة الضحى) وقبل (سورة العصر).

وعدد آياتها ثماني آيات، باتفاق، وهي سبع وعشرون كلمة، ومئة وثلاثة أحرف.

وهي سورة مكية باتفاق، وتسمى سورة: الشرح، والانشراح، وألم نشرح.

٢- وتتناول (سورة الشرح): مكانة الرسول العالية، ومقامه الرفيع، وما حباه الله به من شرح صدره بالإيمان، وتنوير قلبه بالقرآن، وتطهير ذنوبه وأوزاره، وتُبيِّن رفْعة مقامه في الدنيا والآخرة، وإعلاء منزلته في العالمين، وتُبشره بِقُرب الفرَج والنصر، وتيسير العسير من الشدائد التي يلاقيها في سبيل الدعوة.

وفي سورة الشرح أمر للنبي ﷺ ولأمته بأن العبد إذا فرغ من عمله للدنيا، فلْينصَب في عبادة ربه، وكل هذا من باب إزالة الهم، ورفع الحرج عن النبي ﷺ.

والسورة توحي بأن النبي ﷺ كان متأثراً مما قاله المبطلون في شأن تأخُّر نزول الوحي عنه، وأنه كان مُثقلاً بهموم الدعوة، فأراد الله سبحانه أن يخفف عنه العبء ويؤنسه ويطمئنه.

والاستفهامات التي بدأتْ بها هذه السورة، تكْمِلَةٌ للاستفهام المتتابع الذي خُتمت به السورة السابقة.

معجزة شق الصدر:

معجزة شق صدر النبي ﷺ وقعت له ثلاث مرات:

أ ـ شق صدر النبي ﷺ وهو طفل مسترضَع في بني سعد:

عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج منه علَقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله

في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَهُ، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يَسعوْن إلى أمه (مرضعته) فقالوا: إن محمداً قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون.

قال أنس: وقد كنت أرى أَثر ذلك المخيط في صدره)[1].

ب ـ شق صدره ﷺ ليلة الإسراء والمعراج:

وعن مالك بن صعصة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ سمعتُ قائلاً يقول: أحد بين الثلاثة، فأُتيتُ بطست من ذهب، فيها ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا.

قال قتادة: قلت لأنس بن مالك: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطني، فاستُخرج قلبي، فغُسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حُشي إيماناً وحكمة..»[2].

ج – شق صدره ﷺ وهو في الحادية عشرة من عمره:

وعن أُبيّ بن كعب أن أباهريرة ﷺ كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره، فقال: يا رسول الله، ما أول ما رأيتَ من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال: «لقد سألتَ أباهريرة؛ إني لفي صحراء، ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلامٍ فوق رأسي، وإذا برجل يقول لرجل: أهو هو؟ قال: نعم، فاستقبلاني بوجوهٍ لم أرها لخلْق قط، وأرواحٍ لم أجدها من خلْق قط، وثيابٍ لم أرها على أحد قط، فأقبلا إليّ يمشيان، حتى أخذ كل واحد منهما بعضُدي، لا أجد لأخذهما مسّاً، فقال: أحدهما لصاحبه: أَضجِعْه، فأضجعاني بلا قصر ولا هصر، فقال أحدهما لصاحبه: إفْلق صدْره، فهَوى أحدهما إلى صدري ففلَقها فيما أرى، بلا دم ولا وجع، فقال له: أَخْرِج الغِلّ

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٦٢)، وصحيح البخاري (٣٥٧٠)، وعن قتادة (٤٩٦٤،٧٥١٧).

(٢) قال أبوعيسى في سنن الترمذي: هذا حديث صحيح (٣٣٤٦)، وهو في المسند (١٧٨٣٣-١٧٨٣٧) بإسناد صحيح، ورجال ثقات، كما قال محققوه، والبخاري (٣٢٠٧،٣٤٣٠)، ومسلم (١٦٤)، والنسائي (٤٤٧)، وفي الكبرى (٣١٣).

والحسد، فأخرَج شيئاً كهيأة العلْقة، ثم نبذها فطرحها، فقال له: أَدْخِلْ الرأفة والرحمة، فإذا مِثْلَ الذَي أَخرَج يشبهُ الفضة، ثم هزّ إبهام رجلي اليمنى، فقال: اغْدُ واسْلم، فرجعتُ بها أعدُوا، رقة على الصغير، ورحمة للكبير»[1].

وهكذا جاءت روايات مختلفة في زمان ومكان معجزة شق الصدر، وكلها كانت بمكة:

١ - فقد شُق صدر النبي ﷺ وهو مسترضَع عند حليمة السعدية،كما سبق بيانه، مما جعلها تسارع بعودته إلى أهله.

٢ - وشُق صدره ﷺ وهو ابن عشر سنين، كما في رواية عبد الله بن أحمد، وهى الرواية السابقة.

٣ - وشق صدره ليلة المعراج، كما في رواية مالك بن صعصة.

وهو شَقٌّ بدني لإعداد النبي ﷺ لأعباء الرسالة ولقاء الوحي وغزو الفضاء، واستخراج حظ الشيطان منه.

وفي عصر إجراء العمليات بالمنظار والليزر والليزك ونحو ذلك، ما يُقرّب ما جاءت به الأحاديث في موضوع شق الصدر، وهو من المعجزات الخارقة للعادة الخاصة برسول الله ﷺ.

* * *

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٣٩/٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٢/٨): رجاله ثقات، وثقهم ابن حبان، وقد ضعف إسناده محققو المسند (٢١٢٦١)، لأن فيه مجهولاً، محمد بن معاذ ابن محمد بن أبي، وكذلك أبوه معاذ، وأخرجه ابن حبان (٧١٥٥)، والضياء المقدسى (١٢٦٢)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (١٦٦)، والحاكم (٢/ ٥١٠)، وللحديث شواهد.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ثَلاثُ مِنَنٍ يَمْتَنُّ اللهُ تَعَالَى بِهَا عَلَى رَسُولِهِ ﷺ

المنة الأولى: شرح الصدر:

١ - ٤ - ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ[1] ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾

أي لقد شرحنا لك صدرك - أيها الرسول - بنُور القرآن، والهدي للإيمان، فوسّعناه لك بعد حيرة وضيق، وفتحناه لشرائع الدين والدعوة، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، فلم يكن ضيقاً لا ينقاد للخير، بل كان متسعاً للخيرات، منشرحاً للمبرات كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وحقيقة الشرح: فَصْلُ أجزاء اللحم بعضها عن بعض، ومنه التشريح، وشريحة اللحم.

والشرح أيضا هو: نبذُ الضيق، وعدم الإحساس بالحزن والكمَد، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢].

وفسرها ابن عباس رضى الله عنهما بأن الله تعالى قد شرح قلب نبيه بالإسلام.

وشَرْحُ الصدْر في الآية، يشمل الشق البدني لصدره الشريف، كما يشمل الشرح المعنوي، عن طريق توسعته وتقبُّله للإيمان والهُدَى والفضائل، والاستفهام في الآية للتقرير.

وخُص الصّدرُ بالذكر لأنه محل الوسوسة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥ - ٦] والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

والصَّدْرُ: حِضن القلب، فإذا وجد الشيطان مسلكاً بثّ فيه سُمومه، فيضيق الصدر، ولا يجد للطاعة لذّة، وإذا طرده العبد من البداية حصل الأمن وانشراح الصدر.

---

(١) رقق الأزرق راء ﴿وِزْرَكَ﴾ و (ذكرك) في الآية: ٤ وفخمهما غيره.

وشَرْحُ صدْر النبي ﷺ تم بما أفاء الله عليه من علم وحكمة وأدب، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

لقد نشأ ﷺ في بيئة مظلمة، وكانت الوثنية تعصف بالعالم كله، فاستمد ﷺ رُشده من ثِقَل الوحي الذي نزل عليه.

والتوحيد الذي جاء به محمد ﷺ لا تناقُض فيه، ولا تجسيد ولا تثليث ولا بُنوّة.

وكثير من البشر يجحدون وحدانية الخالق، ويحسبون أن الأفلاك تدور وحدها في السماء، وأن الدماء تنطلق في العروق وحدها، والافتراء على الله تعالى فوق الافتراء على خلقه.

وكما شرح الله صدر نبيه بنور الوحي، أعده أيضاً لتحمُّل أعباء الرسالة بشق صدره الشريف ليكون أهلاً للاصطفاء، والصبر على البلاء.

وشرْحُ الصدر للنبي ﷺ أعظم نعمة، وأقوى عُدة في تبليغ الدعوة، ولهذا فإن الله تعالى لَمَّا أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون الطاغية، توجه موسى إلى ربه بهذا الدعاء:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٥ - ٢٨].

وشَرْحُ صدْر النبي ﷺ أحدُ مِنَنٍ ثلاثٌ في هذه الآيات، امتنّ الله تعالى بها على نبيه ﷺ.

والمنة الثانية هي: وضع الوِزْر:

فقد حطّ الله تعالى عن رسوله ﷺ حِمْلَه الذي أثقل ظهره بهموم الدعوة وأعباء الرسالة.

والمعنى: أزال الله تعالى عن رسوله ﷺ كل ما كان يتحرج منه من عادات الجاهلية التي كان يجدها في قومه، وهي عادات لا تلائم الفطرة، فوضع عنه ذلك عندما أوحى إليه بالرسالة، وحَطّ عنه ما كان يجده من ثقل الوحي في بادىء الأمر، فيسره عليه.

وقد غفر الله لرسوله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وهذه الأوزار التي أنقضتْ ظهر نبيه ﷺ أي أثقلته وأوهنته، بمعنى: أن هذه الأوزار لو كانت حِمْلاً يُحمل، لَسُمِع نقيض ظهر النبى ﷺ بسبب ما يعانية من الألم لما يرى ما عليه

قومه من مخالفات شرعية، لم يستطع تغييرها، فحطّ الله عنه هذا الهم النفسي وما كان يعانيه من عبادتهم للأوثان.

وأنزل الله تعالى عليه الوحي، فيه الحلال والحرام، وفيه ما يفعلون وما يذرُون، ونهاه الله عن التأسف والحزن عليهم إن لم يستجيبوا له ولدعوته، كما في قوله تعالى:
﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وقد حفظ الله رسوله وعصمه من الصغائر والكبائر قبل البعثة وبعدها؛ وفي هذا ثلاث حالات من العِصْمة:

أولاً: عصمة النبي ﷺ من الصغائر والكبائر بعد البعثة أمر مقطوع به:

لقد عصم الله رسوله، فحفظه من الذنوب، وطهره من الأرجاس والأنجاس قبل البعثة وبعدها، وعصمة النبي ﷺ من الصغائر والكبائر بعد البعثة: أمر يجب القطع به، فوضع الوزر عنه ﷺ يكون بهدايته إلى الحق بعد أن كان ضالاً حائراً فيما يعبده قومه، وبكفاية أمر المعيشة بعد أن كان عائلاً فقيراً.

ثانياً: عصمة النبي ﷺ من الكبائر قبل البعثة أمر مقطوع به أيضاً:

أما قبل البعثة فإن عصمته ﷺ من الكبائر أمر مقطوع به كذلك، والله تعالى قد تولاّه بالرعاية والحفظ من صباه، لأنه تعالى يُعدُّه لتحمُّل أعباء الرسالة، وكان من ذلك شق صدره الشريف وإخراج حظ الشيطان منه، ولو كان قد وقع من النبي ﷺ شيء من الكبائر قبل البعثة لأخذه عليه المشركون ولم يثقُوا فيه، وتكلّموا به، ولم يحدُث من ذلك شيء.

ثالثاً: عصمة النبي ﷺ من الصغائر قبل البعثة:

فلم يبق بعد الذى سبق بيانه إلا فعل الصغائر قبل النبوة، فإن كان النبي ﷺ قد فعل منها شيئاً، فتكون هي المرادة في الآية، وأن الله تعالى قد حطّ عنه ثِقَلَها وغفرها له.

قال أبوطالب لأخيه العباس: لقد ضممتُه إليّ وما فارقْتُه ليلاً ولا نهاراً! ولا ائتمنتُ عليه أحداً.

وكان ينقلُه من منامه في وسط أبنائه ليلاً، ويضعه محل أحد أبنائه حفاظاً عليه.

قال أبوطالب: ولم أر منه كِذْبة، ولا ضَحِكاً، ولا جاهلية، ولا وقف مع الصبيان وهم يلعبون[1].

والمعنى: لقد شرحنا لك ـ أيها الرسول ـ صدرك، وأزلنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء الرسالة، وعصمناك من الذنوب والآثام، وطهّرناك من الأدناس والأرجاس، وأزلنا العقبات التي وضعها المشركون في طريق دعوتك، وأعنّاك على تبليغ الرسالة، ورفعنا عنك الحيرة التي كانت تغتريك قبل النبوة، حينما كنت تفكّر في عبادة قومك للأوثان، وخفّفنا عنك ما قابلك به قومك من الإعراض عن الدعوة، ومِنْ تكذيبهم لك.

وعلى هذا : فليس الوِزْرُ في الآية ذنباً، ولكنه هَمُّ الرسالة وتبعة المسؤولية التي كان ينوءُ بحملها ﷺ.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وسياق السورة عن النعم التي أنعم الله بها على نبيه ﷺ وليست عن ذنوب ارتكبها النبي ﷺ قبل البعثة أو بعدها.

أما بعد نزول الوحي على رسول الله ﷺ فإن الله تعالى قد غفر لنبيْه وحطّ عنه ما فعله من أمور الدنيا باجتهاد منه ﷺ في أثناء البعثة، وقد عاتبه الله عليها.

خمسة أمثلة من عتاب الله تعالى لرسوله ﷺ على ما خالف فيه الأولى باجتهاده:

١- ومن ذلك قصة عبد الله بن أم مكتوم ﷺ في سورة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١]، وعتاب الله تعالى له عليهما.

٢ - ومن ذلك ما كان في غزوة تبوك، ممن قَبِل النبي ﷺ عُذْرهم وأَذِن لهم في التخلف، فقال الله تعالى له ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

٣ - ومن ذلك قصة أسارى بدر التي عاتبه فيها ربه بقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي للآية.

٤ - ومن ذلك أنه لَمَّا دعا ﷺ على أفرادٍ قد آذُوه إيذاءً شديداً عاتبه الله بقوله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

٥ - ومن ذلك اجتهاده ﷺ في إيمان عمه أبي طالب، فأنزل تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

وهذه الأمور حدثت بعد نزول هذه السورة، ولكنها تدخل تحت قوله تعالى: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢].

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] وكلها من باب حَطِّ الوِزْرِ. والكلام شاملٌ لما كان قبل النبوة وما بعدها.

وقد جاء عن ابن مسعود ﷺ موقوفاً (إن المؤمن يرى ذنوبه كالجبل يقع عليه، والمنافق يرى ذنوبه كذبابة تطير فوق أنفه)[1].

والمنة الثالثة التي امتن الله بها على نبيه ﷺ في سورة الشرح: أنه سبحانه رفع شأنه، وأعلى مقامه وأعلى ذكره في الدنيا والآخرة، فرفع قدره وجعل له الثناء الحسن بين الخلق، وأودع محبته في قلوب عباده، وقد فطر الله رسوله على مكارم الأخلاق، وبلغ شأوًا عالياً في حُسن القدوة لم يبلغها أحد، وقد أمر الله تعالى الناس أن يذكُروا نبيهم بخير، وألهمهم ذلك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «سألتُ ربي مسألة، وددتُ أني لم أكن سألتُه، قلت: قد كانت قبلي أنبياء، منهم مَنْ سخّرتَ له الريح، ومنهم من يُحيي الموتى)، قال: يا محمد، ألم أجدك يتيما فآويتُك؟ قلت: (بلى يا رب)، قال: ألم أجدك ضالا فهديتُك؟ قلت: (بلى يارب)، قال: ألم أجدك عائلا فأغنيتُك؟ قلت: (بلى يارب)، قال: ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أرفع لك ذكرك؟ (قلت: بلى يارب»[2].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٢٠٦/٤)، والحديث في المسند برقم (٣٦٢٧-٣٦٢٩) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو من قول ابن مسعود ﷺ.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٥٢٦/٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأخرجه ابن أبي حاتم عن عديّ بن ثابت كما في الدر المنثور (٤٩٩/١٥).

خمسة أمثلة من رفع ذكر النبي ﷺ حسياً ومعنوياً:

١ - من ذلك: رفع شأنه ﷺ وعلو مكانته، وذكره في كتب الأنبياء السابقين، حتى عرفته الأمم قبل مجيئه، وأَخَذَ الله الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به ويصدقوه عند بعثته قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١].

٢ - ومن ذلك أن الله تعالى رفع ذِكْرَ نبيه ﷺ بهذا القرآن فجعله شرفاً وفخراً له ولأمته، كما في قوله تعالى:﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

٣ - ومن ذلك أيضا أن الوحي لم يناديه ﷺ باسمه مُجَرَّداً – إلا ما كان من باب الخبر – مثل ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، بل ناداه ربه بالرسالة والنبوة، وأَمَرنا ألا نذكُرَه باسمه المجرد فقال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ ﴾ [النور: ٦٣].

٤ - ومن ذلك أن الله تعالى صلّى عليه وملائكته، وأَمَرنا أن نصلي ونسلم عليه كلما ذُكر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

٥ - ومن ذلك أيضا أن الله تعالى قَرَن اسمه باسمه في الشهادتين وفي الأذان والإقامة والتشهد.

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: رَفَع الله ذِكْره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا مُتشهّد ولا صاحبُ صلاة، إلا ينادى بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله(١).

فلو أن عبداً عبدَ الله تعالى وصدّقه في كل شيء، ولم يشهد أن محمدا رسول الله، لم ينتفع من ذلك بشيء وكان كافراً، فقد فرض الله تعالى طاعته على الأمة بقوله:

---

(١) الطبري (٢٤/٤٩٤) والبيهقي (٧/٦٣).

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤].

وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

وكل هذا إنعام من الله تعالى وتفضُّل على نبيه.

وفي هذه المنن الثلاث كأن الله تعالى يقول لنبيه: لقد شرحتُ لك صدرك، وخففتُ عنك أعباء الرسالة، وغفرتُ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ورفعت شأنك في العالمين، فلا تكترث بمخالفة المعارضين، ولا تحزن عليهم، فإن الله تعالى ناصرك عليهم، ومظهر دينك على الدين كله، ولو كره المشركون والكافرون.

وَعْدُ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِتَيْسِيرِ كُلِّ عَسِيرٍ

٥، ٦- ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ[1] يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾

وبعد أن وضع الله تعالى عن رسوله ﷺ همّ أعباء الدعوة التي أثقلت كاهله، ورفَع ذكره في العالمين، بشّره بالفرج بعد الضيق، وباليسر بعد العسر، وأنه كلّما وحد عُسْراً وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جُحْر ضَبٍّ لدخل عليه اليسر فأخرجه قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وفي الحديث: «**وإن الفرج مع الكرب وإن مع العسر يسراً**».

فقوِّي رجاءك في الله - أيها الرسول - واستعن به، ولا يُثْنك أذى قومك لك عن المضيّ قُدُماً في نشر الدعوة، فإن الله تعالى سينصرك عليهم، ويُظهر أمرك، ويُبَدِّل عُسْرَك يسراً، فلا تحزن ولا تتضجر، فإن مع الضيق فرجاً، إن مع الضيق فرجاً، فَطِبْ نفسًا، وقرّ عينًا، فإنه لن يغلب عُسْر يُسرين، ولا تكترث بأذى قومك، فإن الذي أعطاك هذه النعم سينصرك عليهم.

---

(١) قرأ أبوجعفر بضم السين من ﴿ٱلْعُسْرِ﴾ و﴿يُسْرًا﴾ في الكلمات الأربع وسكنها غيره.

وفي الأثر عن أنس بن مالك، وابن مسعود، والحسن، وعبيدة بن الجراح (لو جاء العسر حتى يدخل هذا الحجَر لجاء اليسر حتى يخرجه ولن يغلب عسر يُسرَيْن)[١].

وقد ذكر الله تعالى لفظ ﴿ٱلْعُسْرِ﴾ وجعله معرفًا مفردًا، وهذا التعريف يدل على أنه واحد، وكرر لفظ ﴿يُسْرًا﴾ وجعله مُنَكَّراً وهذا يدل على تكراره متعدِّدا، فكأنه سبحانه قال: إن مع العسر يسراً، إن مع ذلك العسر نفسه يسراً آخر، لأن العسر مَعْرِفة، واليسر نكرة، فوجب أن يكون عسراً واحداً، ويسراً مرتين.

ومهما بلغ العسر من العصوبة فإن التيسير في آخره ملازم له.

وقيل في معنى الآيتين: إن مع العسر الذي في الدنيا، يسراً عاجلاً في الدنيا، كالفتح والنصر والغنائم، وفي هذا حث على الصبر والمجالدة في مجابهة المكذبين.

ثم ابتدأ مرة أخرى فقال: إن مع العسر الذي في الدنيا يسراً آخر في الآخرة، وقد يجتمع اليُسران معاً: يُسْر الدنيا ويُسْر الآخرة، فعسر الدنيا لن يغْلب اليسر الذي أعده الله للمؤمنين في الدنيا والآخرة، ويسر الآخرة غير زائل[٢]وفي هذا وعد لكل مؤمن بتيسير كل عسير.

كتب عمر إلى أبي عبيدة وهو في جموع من الروم: (أما بعد: فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة، يجعل الله بعده فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يُسريْن)[٣].

التَّزَوُّدُ لِيَومِ الْمَعَادِ وَالْعَمَلُ لِلدُّنْيَا

٧، ٨- ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾

ثم وجه سبحانه وتعالى عباده، وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ، إلى أسباب انشراح الصدر، وطريقة التزوُّد ليوم المعاد، وتيسير ذلك له، فكلّفه بأنه إذا فرغ من أعمال الدنيا،

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٨٨) (كشف الأستار)، والمعجم الأوسط للطبراني برقم (٣٤١٦)، وفي الكبير (٩٩٧٧،١٥٢٥)، والحاكم (٢/٢٥٥)، والأظهر أنه موقوف على ابن مسعود، وهو عند عبد الرزاق (٢/٣٨٠)، والبيهقي في الشعب (١٠٠١١)، وقال ابن حجر في الفتح (٧١٢/٨): إسناده جيد، وضعفه الألباني عن أنس في السلسلة الضعيفة (١٤٠٣) قلت: ولكن شواهده كثيرة تشهد لقول الحافظ ابن حجر.

(٢) ينظر: تفسير الخازن (٤/٣٩١)،

(٣) موطأ مالك.

ودعوة الناس إلى الله تعالى، فليلجأ إليه تعالى بالعبادة، ولينْصَب، ويجدّ ويجتهد في طاعة الله تعالى، فإن هذا هو الزاد إلى لقاء الله سبحانه.

فالمعنى: إذا أتممت عملاً من مهام الأعمال الدنيوية، فأقبِل على عمل آخر من أعمال الآخرة.

ويصح أن يكون المعنى: إذا فرغت من عملك فأشغل نفسك في عمل آخر، بحيث تُشغل وقتك كله بالعمل الأخروي أو الدنيوي المحمود.

والآية بهذا المعنى تَحُل مشكلة الفراغ، ولا تترك للمسلم وقتًا ضائعًا، فإما أن يُشغل المرءُ نفسه في عمل دنيوي نافع، أو يشغله في عمل أخروي من طاعة الله والرسول.

ويمثل هذا قال بعض الصحابة عند عودتهم من إحدى الغزوات، قال:

(رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر).

ومن هذا أن ابن عباس رضي الله عنهما مرّ على رجلين يتصارعان، فقال لهما:

ما بهذا أُمرنا بعد فراغنا.

وقال عمر: إني لأكره لأحدكم أن يكون خالياً سبهلَلاً، لا في عملِ دنيا، ولا في عملِ دين.

والنّصَب هو التعب والعمل، سواء أكان ذلك في عمل الدنيا المشروع، أو في الطاعة والعبادة.

وهذه الآية من جوامع الكلم، ومن معانيها: إذا فرغت من عبادة، فأشغل نفسك في عبادة أخرى، وإذا فرغت من فريضة، فأشغل نفسك بنافلة، وإذا فرغت من جهاد عدوك فانصَب في عبادة ربك، وقد عمّر الصحابة أوقاتهم بالمواظبة على الأعمال الصالحة، ولم يكن فيها فراغ للّهو ولا للهزل.

ولْتكُن رغبتُك – أيها الرسول – وانصراف همك الأكبر إلى ما عند الله، كما قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [القصص: ٧٧].

فبالنسبة للآخرة: ابذل جُهدك في العمل الأخروي، وبالنسبة للدنيا: خذ منها القليل، وليكن صَرْفُ همتك إلى ما عند الله أكثر وأعظم.

فاجتهد في الأعمال التي تقربك من الله تعالى، كالصلاة والتهجد والذكر والتسبيح وتلاوة القرآن، ونحو ذلك من سائر الطاعات وصالح الأعمال، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك.

تم تفسير (سورة الشرح) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ التِّينِ (٩٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

أ- (سورة التين) هي السورة الخامسة والتسعون في ترتيب المصحف، والثامنة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة البروج) وقبل (سورة قريش).

وعدد آياتها ثماني آيات، باتفاق.

وهي أربع وثلاثون كلمة، ومئة وخمسة أحرف.

وهي سورة مكية، وسميت سورة التين بالواو، وبدونها.

ب ـ أقسم الله تعالى بأربعة أيمان متتابعة، هي الأماكن المشرَّفة التي خص الله بها بعض رسله بنزول الوحي عليهم وهي:

١- جبل الجودي، حيث كان يكثُر التين فيه، وهذا إشارة إلى رسالة نوح عليه السلام.

٢- ثم أقسم بالزيتون، إشارة إلى بيت المقدس حيث رسالة عيسى عليه السلام.

٣- ثم أقسم سبحانه بجبل طور سيناء، موضع رسالة موسى عليه السلام.

٤-ثم أقسم بالبلد الأمين، مكة المكرمة، إشارة إلى رسالة خاتم الأنبياء ﷺ.

وجواب هذه الأيمان الأربعة، هو أن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة، وقامة معتدلة، واستقامة فطرة، ومع الحفاظ على هذه الفطرة يبقى الإنسان على الصلاح والتقوى.

أما إذا جفَّ الإيمان، وابتعد صاحبه عن الفطرة، فإنه ينتكس ويتردّى في الهاوية.

وفي هذا توبيخ للكافر على إنكار وحدانية الله تعالى، وإنكار البعث والنشور، بعد إقامة دلائل التوحيد وبراهين البعث.

وبِعدْل الله تعالى في يوم الدين وغيره، يثيب المؤمنين ويعاقب الكافرين.

فبعد أن أشارت السورة إلى أماكن أكبر الرسالات السماوية، واشتراكها في أصول الشرائع، بيّنتْ أن الله تعالى خلق الإنسان على الفطرة المستقيمة، ليعلم أن الإسلام هو دين

الفطرة كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ ﴾ [الروم: ٣٠] وما يخالف ذلك فساد وضلال.

ج ـ عن البراء بن عازب ﷺ قال: (كان النبي ﷺ في سفر، فصلى العشاء، فقرأ في إحدى الركعتين بـ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فما سمعت أحداً أحسن صوتاً، ولا قراءةً منه)[1].

وعن عبد الله بن يزيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قرأ في المغرب ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾[2].

د - فموضوع السورة التين: هو أن الله تعالى يُقسم أربعة أيمان، على أنه خلَق الإنسان مستعداً بفطرته إلى قبول الإيمان والاستقامه عليه، فإن هو عطَّل فطرته وأفسدها بتأثير العوامل الخارجية، فإنه يتردَّى وينتكس إلى الدرك الأسفل من النار، أما المؤمنون العاملون للصالحات المؤمنون بالبعث والنشور، فأجرهم عند الله عظيم، والله سبحانه سوف يحكم يوم القيامة بين من آمن ومن كفر، ومن أطاع أو عصى، فيجازي كلاً بما يستحق.

* * *

---

(١) صحيح البخاري برقم (٧٦٧،٤٩٥٢،٧٥٤٦)، وصحيح مسلم (٤٦٤)، ومالك (٧٩/١)، وابن أبي شيبة (٣٥٩١/١)، وأبوداود (١٢٢١)، والترمذي (٣١٠)، والنسائي (٧٠٢)، وابن ماجة (٨٣٤،٨٣٥)، ومسند أحمد (١٨٦٣٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وانظر (١٨٥٦٦، ١٨٥٠٣).

(٢) ابن أبي شيبة (٣٥٨/١) في المصنف، وعبد بن حميد (٤٩٢) منتخب، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١١٨/٢)، قال الهيثمي: فيه جابر الجعفي، وثّقه شعبة وسفيان، وضعفه بقية الأئمة.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

أَرْبَعَةُ أَيْمَانٍ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ

١ -٣- ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.

في هذه الآيات أقسم الله تبارك وتعالى بأربعة أماكن مباركة، هى أماكن وجود الرسالات الكبرى، وهي مكان وجود التين الذي يأكله الناس والزيتون الذي يعصرون منه الزيت، وجبل طور سيناء، ومكة المكرمة.

قال ابن عباس: هو تِينكُم الذي تأكلون، وزَيْتُونكُم الذي تعصِرون منه الزيت.

القسَم الأول: المكان الذى بعث فيه نوح عليه السلام :

وإنما خَص التين بالقسَم لأنه فاكهة مخلِّصة من شوائب التنغيص، وفيه غذاء للبدن، وهو من أحسن الثمار صورة وطعْماً، وسهولة مضغ، لا يحتاج في أكله إلى كثرة عمل ولا حركة، وهو أنفع الفواكه، سريع الهضم، يُليّن الطبيعة، ويعالج بعض الأمراض كتقليل البلغم، وقطع البواسير، وشفاء النقرس، وهو من فواكه الجنة.

ويُذْكر أنه أُهدي إلى النبي ﷺ طبق من تين، فأكل منه وقال لأصحابه: «كلوا» وأكل منه، ثم قال: «**لو أن فاكهة نزلت من الجنة، لقلت: هذه..**».

وورد أن آدم عليه السلام لمّا بدت له سوْءتُه ذهب إلى أشجار الجنة ليأخذ من ورقها ويستُر نفسه، فكان كلما جاء إلى شجرة زَجَرتْه، ولم تُعْطه، حتى مر بشجرة التين فأعطتْه، فأخلفها الله: الثمرة مرتين في السنة، وكافأها بجعل ثمرتها باطنها كظاهرها، لا قشر لها ولا عجم.

جاء ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٢] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ينزعان ورق التين فيجْعَلانه على سوْءاتهما.

ولما نبذ البحر يونس عليه السلام، وألقاه على شاطئه بالعراء، وهو عليل لِمَا أصابه من بطن الحوت وظُلمة البحر، أنبت الله عليه شجرة من يقطين، هي شجرة القرع،

لامتيازات لا تتوفر في غيرها، من رطوبة ظِلِّها، وورقها العريض، وتفرُّع أغصانها يَمْنة ويَسْرة ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾[الصافات: ١٤٥ - ١٤٦].

القسَم الثانى :قسَم بالمكان الذى بعث فيه عيسى علية السلام :

أما الزيتون فإنه يخرج من شجرة مباركة، فيه إدام ودُهْن، يدخل فيه كثير من الأدوية، ولا يحتاج إلى خدمة ولا إلى تربية، وهو ينبت في الجبال، ويعيش سنين طويلة.

عن معاذ ﷺ أنه استاك بقضيب زيتون وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**نِعْم السواك الزيتون من الشجرة المباركة**».

وقد ذُكر الزيتون في القرآن الكريم عدة مرات مقصوداً به تلك الشجرة المباركة، كما في قوله تعالى مُحدَّداً أول مكان تواجُدِها:

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

وضرب الله تعالى بشجرة الزيتون مثلاً لنوره:

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥].

وذكرها الله تعالى ضمن أشجار أخرى في مثل قوله تعالى:

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

فالتين هو الثمر المعروف الذي يؤكل، والزيتون هو الثمر المعروف الذي يعصر ويؤكل.

وقد أقسم الله تعالى بهما تنبيها على بعض ما يخرج من الأرض، من دلائل قدرته تعالى، فلا أرْوع ولا أبرع من أن ينْشقّ الطين عن ثمرٍ طعمُه حُلْو، ورائحته زكية، ولونه زاهٍ.

ولعله قد غُذّي بالأرواث، فمن الذي أخرج من الحمأ المسنون هذه الثمرات الشهية؟ إنه الله رب العالمين.

فالقسَم بهما، قسَم بحقيقتهما، ولكن أهل العلم ربطوا بين القسَم بهما والقسَم بطور سينين والبلد الأمين، فقالوا: إن المراد هو القسَم بمواطن الرسالات الكبرى، والشرائع الأولى، وذلك للجمع بينها.

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن التين كان يكثر شجرُه في جبل الجوديّ الذي استوت عليه سفينة نوح بالعراق، وأنه قد بُني في أعلى الجوديّ بعد انتهاء الطوفان، مسجد يسمى مسجد نوح عليه السلام، وهذا هو موطن رسالة أول الرسل نوح عليه السلام[١].

أما المكان الذي ينبت فيه شجر الزيتون بكثرة، فهو المكان الذي بَنى فيه إبراهيم الخليل، المسجد الأقصى، وقد بناه بعد بناء الكعبة بأربعين عاما كما جاء في الصحيحين.

وقد يكون القسم بمكان شجر الزيتون، إشارة إلى شريعة عيسى عليه السلام.

وبهذه المعاني قال جمع من الصحابة والتابعين[٢].

وجاءت آثار تشير إلى أن المراد بالتين: دمشق[٣].

ولعل ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما هو الأولى، إذ ليس في دمشق موطن رسالة.

والقسم الثالث: قسم بجبل طور سيناء:

الذي كلم الله عليه موسى تكليماً، وشرفه بالرسالة، وسمى جبل سينين وسيناء لِحُسْنه وبركته.

و﴿سِينِينَ﴾ هي البقعة المباركة عند الشجرة التي كلم الله موسى عليه السلام عندها.

١ - قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

٢ - وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤].

٣- وقال جل شأنه: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا ﴾ [مريم: ٥٢].

٤- وقال أيضاً: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ ﴾ [طه: ٨٠].

وجبل الطور يقع في صحراء سيناء، بمصر، وقد أقسم الله به في قوله:

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ [الطور: ١ – ٢].

---

(١) ينظر: تفسير ابن جرير (٥٢٥،٥١٣،٥٠٨،٥٠٤/٢٤).

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٤٢٠/٣٠) وما بعدها.

(٣) ينظر: تفسير ابن جرير (٥٠٣/٢٤)، وابن عساكر (٢١٥/١) وما بعدها.

ثم يأتي **القسم الرابع: بالبلد الأمين:** من كل خوف، وهو مكة المكرمة، مهبط الإسلام، ومبدأ رسالة محمد ﷺ والحرم يأمن فيه الإنسان والحيوان والطير والنبات والشجر.. على نفسه في الجاهلية والإسلام، فلا يُنفّر صيْده، ولا يُعضد شوكه، ولا تُلتقط لُقطته، وكل من دخله كان آمنًا.

إشارة الأماكن الأربعة إلى أعظم الشرائع:

وعلى هذا فالأيمان الأربعة تشير إلى أماكن أعظم الشرائع:

١ - فالتين: إشارة إلى رسالة نوح عليه السلام، وهي أول شريعة لأول رسول وُجد الشرك في عهده.

٢ - والزيتون: يشير إلى شريعة إبراهيم عليه السلام الذي بنى المسجد الأقصى كما صح في الحديث. وربما كانت الإشارة فيه إلى شريعة عيسى عليه السلام.

٣ - وطور سيناء: إشارة إلى شريعة التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام.

٤ - والبلد الأمين يشير إلى مهبط الوحي على خاتم الرسل ﷺ.

وهذه أشهر الشرائع الإلهية وأُمّاتُها، وأصول شرائع الله تعالى.

قال ابن كثير: وفي آخر التوراة جاء ذكر ثلاثة أماكن منها فقال: جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير - يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعْلَن من جبال فاران - أي جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ فذَكَرَهم الله تعالى على ترتيب وُجُودهم وأزمنتهم، وأقسم بالأشرف ثم الأشرف.

الإِنْسَانُ بِعَقْلِهِ وَجِسْمِهِ وَاسْتِقَامَةِ الْفِطْرَةِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ

٤ - ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾

أما جواب القسم بهذه الأيمان الأربعة فهو أن الله تعالى قد خلق الإنسان في أجمل صورة، وأحسن هيأة، كامل الجوارح، متناسق الأعضاء، منتصب القامة، تام الخلق مزوّداً بوسائل العلم والفهم والإدراك والتمييز والنطق والأدب وحُسْن الخلق، له قدرة

على حرية الاختيار، واستقامة الفطرة، وذكاء العقل.

وهذه المعاني تعني أن خلْق الله تعالى للإنسان في أحسن تقويم تشمل **أمران:**

الأمر الأول: أنه أمر حسيّ، يتعلق بالجسد، وهو حُسْن الشكل والصورة وتناسُب الأعضاء. كما قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧].

وقال جل شأنه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٧ - ٣٩]. وبهذا المعنى قال أكثر المفسرين.

الأمر الآخر: أنه أمر معنوي: يتعلق بالعقل والعلم، واستقامة الفطرة، ومناط التكليف في الإنسان، وهذا هو الجانب الإنساني، المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨].

وبهذا المعنى قال ابن عطية وابن عاشور وغيرهما.

وأحسبُ أن المقسَم عليه هو استقامة الفطرة، وسلامة المعتقد، والعقل السّويّ، ذلكم أن الإنسان لا يشرف بصورته الحسنة، ولا بقَوامِه الممشوق، ولكن يشرُف بعقله وعلمه وحُسْن استقامته، وبهذا كرّم الله الإنسان وميزه على خلقه، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم**»[1].

فالعقل هو أشرف ما خص الله به الإنسان، والجسد آلة خادمة للعقل، وعن طريق العقل تكون استقامة الإنسان على الفطرة القويمة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وفى حديث أبى هريرة ﷺ «**ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**»[2].

فأنت بالعقل لا بالجسم إنسان، ولا يوجد عقل بدون جسد، فبيْن العقل والجسم

(١) رواه البخاري (١٣٥٨،١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨ ، ٢٥٦٤).

(٢) رواه أحمد (٧٤٤٤، ١٠٢٤١) بإسناد صحيح ورجال ثقات، وهو من زيادات عبد الله بن أحمد بهذا اللفظ.

تلازم، وهذا المعنى هو الملائم لمقصد السورة.

وهذه النعم العظيمة توجب القيام بشكرها، ولكن أكثر الناس منحرفون عن شكر المنعم مشتغلون باللهو واللعب، رضوا بأسفل الأمور وأرذل الأحلاق، فاستحقوا من الله العقاب.

ذكر القرطبي أن (عيسى الهاشمي) كان يحب زوجته حباً شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالق إن لم تكوني أحسن من القمر، فاحتجبتْ عنه، وقالت: طلّقْتني، فحزن حزنًا شديدًا وذهب إلى الخليفة (المنصور) وأخبره الخبر، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طُلقت، إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، فقد بقي ساكتاً، فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، يقول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فليس شيء أحسن من الإنسان، فقال: صدقت، وردَّها إلى زوجها.

انْتِكَاسُ الإِنْسَانِ بِفَسَادِ فِطْرَتِهِ

٥- ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾

والإنسان مفطور على التوحيد ونبذ الكفر والشرك، وفي جبلّته: جلْب النفع والصلاح، وحب الخير والعدل والإنصاف، وإغاثة الملهوف، ونُصرة الضعيف، والاشمئزاز من الظلم، وسوء الأخلاق، وسوء الاستقامة، ولكن الشهوة والهوى والشيطان تُزين للإنسان المعاصي والمفاسد، فينحرف عن الفطرة، ويثقُل عليه نصح الناصحين، ووعظ الواعظين، ومن كان يعمل في شبابه الأعمال الصالحة، ثم عجز عنها في كبره، فإن أجر هذه الأعمال تجري له حتى يموت.

عن أبي موسى ﷺ أن رسول ﷺ قال: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً**»[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (أيما رجل كان يعمل عملاً صالحاً وهو قويّ شاب

---

(١) المسند (١٩٧٥٣،١٩٦٧٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، ورواه البخاري (٢٩٩٦)، وابن حبان (٢٩٢٩)، والبيهقى فى الشعب (٩٩٢٨)، والحاكم (٣٤١/١).

فعجز عنه، جَرَى له أجر ذلك العمل حتى يموت)[1].

فإذا أرخى الإنسان العنان لِهَواه وشهواته ألْقت به في الضلالات ومهاوي الرذيلة، وتغلّب عليه دعاة الضلال، فتنتكس فطرته، ويتردّى إلى أسفل سافلين في الاعتقاد والشرك والأخلاق والرذائل.

وهل رأيت أسفل ممن يجْحد وجود الصانع وهو يشاهد آياته في الكون.

لقد خلق الله الإنسان ونفخ فيه من روحه، وهذه النفخة سرتْ في أوصاله فجعلتْه كائناً خطير الشأن، يحمل في جنَباته التوحيد والاستقامة، فإذا فسدت فطرتُه، اقترف آثاماً تقشعر منها الأبدان، وتَنَكَّر لخالقه، وجفّ الإيمان من قلبه، وهذا معنى ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ في دركات النار، بسبب ما جنى على نفسه.

أما أطوار خلق الإنسان من ضعف إلى قوة، إلى ضعف وشيبة، والرد إلى أرذل العمر.

وخلْقه من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، إلى آخره، فليس هذا رد إلى أسفل سافلين.

وإنما معنى الآية: الانحراف والارتداد عن الفطرة، بعبادة غير الله تعالى، واتباع الهوى، ثم يكون مصيره نار جهنم وبئس القرار، وهذا يعنى غير المؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر.

أَجْرُ الْمُؤْمِنِ غَيْرُ مَقْطُوعٍ وَلاَ مَمْنُوعٍ

٦- ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾

استثنى سبحانه من التردّي في النار: المؤمنين العاملين للصالحات، فإن الله تعالى قد أعدّ لهم أجراً عظيماً غير مقطوع ولا منقوص، بل لَذّاتٌ متتابعة، وأفراح متوافرة، ونعم متكاثرة، لا تحول ولا تزول، أُكُلُها دائم وظلها، وذلك لأنهم سارُوا على مقتضى الفطرة، وإخلاص الطاعة والعبادة لله تعالى، فازْدادُوا بهجة إلى بهجتهم، وحُسناً على حُسْنهم.

والثواب الدائم الذي أعده الله لهم: هو الجنة، وما أعظمها من سلعة غالية.

---

(١) الطبري (٢٤/٥١٠)، وابن المنذر، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٨/٧١٣): إسناده حسن.

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ - ١١٩].

لاَ عُذْرَ لأَحَدٍ فِي التَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ مَعَ ظُهُورِ دَلاَئِلِهِ

٧- ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾

وبعد هذه البراهين الساطعة، والدلائل القاطعة على وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر، فأي شيء يحملك - أيها الإنسان - على أن تكذّب بالبعث والحساب والجزاء وأي شيء يدعوك إلى إنكار يوم القيامة، مع وضوح الأدلة على قدرة الله تعالى على ذلك؟ فقد رأيتَ من آيات الله ما يحصل به اليقين، ومن نِعَمِه ما يوجب الشكر.

ولماذا يُنْكِر بعض الناس رسالة الإسلام ويحاربها ويَصُدّ عنها؟ ولماذا يؤمن بعضهم بالوحي الذي نزل على موسى أو عيسى عليهما السلام، ولم يؤمن بنزوله على محمد ﷺ؟ فبأي فِكْر يفكر الإنسان؟ وبأي عقل يستبدل بعض الناس بالإسلام شرائع انتهى مفعولها، أو شرائع مِنْ صنع البشر، تتبدل كل يوم وتتغير؟! إنه لا عذر لكم - أيها الناس - في التكذيب بالحق مع ظهور دلائل صدقه﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

فالتكذيب بالدين يشمل: الكفر بالله تعالى، ويشمل عدم الإيمان بخاتم النبيين ﷺ، ويشمل عدم الإيمان باليوم الآخر ومافيه من بعث وحساب وجزاء.

وكلمة ﴿بَعْدُ﴾ تعني: بعد تبيُّن الحق، وظهور أدلته قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢].

مِنْ عَدْلِ اللهِ تَعَالَى: عَدَمُ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الطَّائِعِ وَالْعَاصِي

٨- ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾

ثم بين سبحانه أنه وحده هو الذي يتولى الانتصاف ممن يكذب بالله ورسوله واليوم الآخر، فهو أقضى القضاة، وأقوى الحاكمين، وهو الذي يقطع دابر الباطل، وهو الذي لا يظلم أحدا، ولا يستوي لديه المُصْلح بالمفسد، والمؤمن بالكافر، والطائع بالعاصي، والمحسن بالمسيء.

ومن حكمته جل شأنه عدم التسوية بين هؤلاء وأولئك في الثواب والعقاب، أليس الله بأعدل العادلين، وأحكم الحاكمين خَلْقاً وإيجاداً، وصُنعاً وقضاءً وتدبيراً، وجزاءً للناس؟

وليس من الحكمة أن يترك الله خلقه سدى، فلا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، إذ لابد أن يرجعوا إلى دارهي مستقرهم وغايتهم.

فيجب عليهم أن يُفْردوه تعالى بالعبادة، ويتّبعوا خاتم أنبيائه ﷺ ويُقِرّوا بالبعث والنشور، ففي ذلك سعادتهم في الدنيا والآخرة.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ منكم بالتين والزيتون، فانتهى إلى آخرها ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين.

ومن قرأ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فليقل: بلى.

ومن قرأ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ فبلغ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ فليقل: آمنا بالله»[1].

تم تفسير (**سورة التين**) ولله الحمد والمنة

(١) سنن أبي داود برقم (٨٨٧)، والمسند (٢/٢٤٩) برقم (٧٣٩١) بإسناد ضعيف، لجهالة الراوى عن أبى هريرة ﷺ، وسنن الترمذي برقم (٣٣٤٧)، والمستدرك (٢/٥١٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبغوى (٦٢٣)، قال الشيخ أحمد شاكر: فيه يزيد بن عياض، رجل مجهول. فالحديث ضعيف السند وله شواهد أخرى.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَلَقِ (٩٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ـ (سورة العلق) هي السورة السادسة والتسعون في ترتيب المصحف، والأُولى في ترتيب النزول، بمعنى أن الآيات الخمس الأُول منها هي أول ما نزل من القرآن مطلقاً، وفيها الأمر بالنبوة، وقد نزل بقية السورة بعد ذلك.

ثم أُرسل ﷺ بعد ذلك بنزول سورة المدثر، وهي أول سورة نزلت بعد فترة الوحي الأولى وفيها الأمر بالرسالة.

ونزلت (سورة الضحى) بعد فترة الوحي الثانية.

أما أول سورة كاملة نزلت فهي (سورة الفاتحة).

٢ـ وسورة العلق تسع عشرة آية في المصحف الكوفي والبصري، والحمصى، وعشرون آية في المصحف المكي والمدني، وثماني عشرة آية في المصحف الدمشقى.

وهي اثنتان وتسعون كلمة، ومئتان وثمانون حرفاً، وهي سورة مكية باتفاق.

٣ـ وتسمى سورة العلق، وسورة اقرأ، أو ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وسماها ابن عطية وأبوبكر ابن العربي (سورة القلم) أما السورة التي سميت بهذا الإسم فسمّياها (سورة ن).

فهذه أربعة أسماء لها.

٤ـ وتحدثت سورة العلق عن بدء نزول الوحي على رسول الله ﷺ والحث على طلب العلم والتعلّم من أول لحظة نزل فيها القرآن، ولفتِ النظر إلى أصل خلْق الإنسان، وذِكْرِ اسم الله تعالى على كل شيء.

وبينت السورة موقف الطغاة، وأهل الثروات، وأصحاب الجاه، من الدعوات الإلهية في كل زمان ومكان.

وضربتْ مثلاً على ذلك بأبي جهل - فرعون هذه الأمة - الذي وقف في وجه

الدعوة، يَنهى عن المُضِيّ فيها، ويتهدّد ويتوعّد، فتوعَّده الله تعالى، وتوعّد أمثاله بالنهاية المخزية الأليمة، وأمر رسوله ﷺ أن يستمر في دعوته وطاعته لربه، وألا يأبه به وبأمثاله، فإن الله تعالى مؤيده وناصره، وهكذا شأن الدعاة إلى الله تعالى.

٥ـ وخُتمت السورة بوعيد الطغاة بأشد العقاب إذا استمروا على ضلالهم وطغيانهم.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: كانت ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ أول سورة أنزلت على محمد ﷺ[1].

وعن عثمان بن أبي العاص ﷺ قال: آخر كلام كلّمني به رسول الله ﷺ إذ استعملني على الطائف أنْ قال: (خَفِّفِ الصَّلاَةَ عَلَى النَّاس) حتى وقَّتَ لى ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وأشباهها من القرآن[2].

فموضوع سورة العلق : يدور على بدء نزول الوحى على النبى محمد ﷺ، وبيان أن الدعوة إلى الله يقف فى وجهها الطغاة والجبابرة فى كل زمان ومكان، وعلى الدعاة إلى الله أن يمضو فى طريقهم وأن يصبروا على أذاهم ،فإن الله تعالى لهم بالمرصاد وسوف يعاقبهم على سوء صنيعهم ،وهذا المثل التطبيقى لمحاربة الدعوة استغرق بقية السورة بعد الآيات الخمس الأُوَل منها.

سبب النزول:

في الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بُدىء به من الوحي، الرؤيا الصادقة في النوم، فكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلَق الصبح، ثم حُبّب إليه الخلاء، فكان يخلو في غار حراء، يتحنّث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزوّد لمثلها.

حتى جاءه الوحي وهو في غار حراء، فجاءه الملَك، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني

---

(١) ابن أبي شيبة (٥٤٢/١٠)، والحاكم (٢٢٠/٢)، وأبي نعيم في الحلية (٢٥٦/١)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١٣٩/٧)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه ابن سعد (٥٠٩/٥)، وهو عند أحمد في المسند (١٧٩/٦) برقم (١٧٩١٦)، قال محققوه: إسناده قوي، وانظر (١٧٩١٤).

فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زمّلوني زملوني، فزملُوه حتى ذهب عنه الروع، ثم قال لخديجة: أيْ خديجة، ما لي، وأخبرها الخبر، قال: لقد خشيتُ على نفسي.

قالت له خديجة: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتَصْدُق الحديث، وتَحْمِلُ الكَلّ، وتَكْسِبُ المعدوم، وتَقْري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقتْ به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى، وهو ابن عم خديجة، وكان أمرأً قد تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكِتَاب العبراني، فكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب، وكان شيخاً قد عَمِي، فقالت له خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: (يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذَعاً، ليتني أكون حياً إذ يُخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أوَ مُخْرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يُدْركني يومك، أنصركَ نصرا مؤزّرا، ثم لم يلبث ورقة أن تُوفي، وفتر الوحي).

زاد في رواية: حتى حزن النبي ﷺ حُزْناً، غدا منه مرارا كي يتردّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يُلْقي نفسه منه، تبدّى له جبريل، فقال له: (يا محمد، إنك رسول الله حقا، فيسكُن لذلك جأشه، وتقر عينه، فيرجع، فإذا طالت عليه فتْرة الوحي غدا لمثل ذلك، فيتبدّى له جبريل)[1].

قلت: وهذه الزيادة من بلاغات الزهري وهي واهية ليست بشيء[2].

---

(١) ينظر: صحيح مسلم برقم (١٦٠)، وصحيح البخاري برقم (٣٣٩٢،٤٩٥٣،٦٩٨٢)، والمسند (٦/٢٣٢) برقم (٢٥٨٦٥،٢٥٢٠٢،٢٥٩٥٩)، وعبد الرزاق في المصنف (٩٧١٩)، والبيهقي في الدلائل (٢/١٣٥) وغيرهم.

(٢) ينظر: ما قاله محققو المسند في الجزء (٤٣) ص (١١٤) عند الحديث (٢٥٥٩).

نزول الوحي في غار حراء غيّر مجرى التاريخ:

كان النبي ﷺ يذهب إلى غار حراء بين الحين والحين، يخلو بنفسه بعيداً عن لَغَط الجاهلية، يعبد الله تعالى على الحنيفيّة السمحة - ملة إبراهيم عليه السلام - ويتأمل في هذا الكون الفسيح، يستشعر اليقين والخشوع أمام مبدع هذا الملكوت، لقد كان يَزدَري الأصنام وعبادتها، ويكره ما يراه من مراسم وتقاليد جاهلية، ولكنه لا يملك لهم شيئاً، ولا يعرف أكثر مما ترفضه فطرته.

وبينما هو يتعبد في غار حراء بجبل النور في الليلة المباركة، وهي ليلة القدر من شهر رمضان، إذ نزل عليه جبريل عليه السلام بعد بلوغ النبي ﷺ الأربعين من عمره، وكان مع جبريل نمط من ديباج فيه كتاب، وطلب من النبي ﷺ أن يقرأ، فقال عليه السلام: أنا أُميّ، لا أعرف القراءة، ويتكرر هذا ثلاث مرات، وفي كل مرة يضمه جبريل إليه برفق، مُدْخِلاً الطمأنينة والسرور على نفسه، ثم يقرأ عليه الآيات الخمس الأول من السورة .

وفيها بيان أن الله تعالى الذي خلق الإنسان من علق، قادر على أن يجعل هذا الأمّيَّ عالماً عِلْم الأولين والآخرين، ولم يكن النبي ﷺ يتطلّع إلى وحي أو رسالة، ولكنه فوجىء بذلك، ولم يكن له علم بالقراءة والكتابة كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال جل شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ [الشورى: ٥٢].

ولما نزل الوحي على رسول الله ﷺ غيّر مجرى التاريخ، وحوّل عقائد البشر وأخلاقهم، وعاش أهل الأرض في كنف الله ورعايته بتوجيه من الوحي الإلهي لهم بواسطة رسوله ﷺ وكان الصحابة يتوقّعون في كل لحظة نزول جبريل عليه السلام، ويترقبون ما ينزل به، وظل

الوحي يتنزل ثلاثة وعشرين عاماً على رسول الله ﷺ أقام النبي خلالها دولة الإسلام، كانت الأرض أثناءها موصولة بالسماء، وآيات الله تتنزل فيهم، تنقلهم خطوة خطوة من أحوال الجاهلية إلى الإسلام.

عرف الصحابة رضوان الله تعالى عليهم مذاق هذه الفترة، وأدركوا حلاوتها، وشعرُوا بقيمتها.

ولما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وانتهت هذه الفترة، كان لذلك وقْع شديد على نفوسهم لا يكاد العقل يتصوره:

عن أنس ﷺ قال: قال أبوبكر لعمر، رضي الله عنهما، بعْد وفاة النبي ﷺ: انطلِق بنا إلى أم أيمن - حاضنة النبي ﷺ - نزُورُها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما أتينا إليها، بكت، فقالا لها: (ما يُبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ قالت: بلى، إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ولكني أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء، فَهَيَّجَتْهُما على البكاء، فجعلا يبكيان معها)[1].

وتأثير هذا الوحي في البشر قائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

طلب العلم هو المطلب الأول في الإسلام:

ولأمر هام كانت أول كلمة نزل بها الوحي على محمد ﷺ: الأمر بالقراءة والكتابة، لعلها لمحو الأمية التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي، والإشارة إلى أن طلب العلم هو المطْلب الأول في الإسلام.

ولذا: قدم الله تعالى العلم على العمل في قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

وجعَل العلماء في المرتبة الثالثة بعد الله تعالى وملائكته في قوله تعالى:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨].

وبيّن سبحانه أن العالم والجاهل لا يستويان، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٤٥٤).

وبمعرفة العلم الشرعي والعلم التجريبي المرتبط بالخالق المبدع، تشتد معرفة العبد لربه، وخشيتُه منه سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

فقد جاءت هذه الآية بعد ذكر علم النبات، وعلم الأرض، والجبال والناس والدواب.

والذي عنده علم من الكتاب وهو من الإنس، تفوّق بعلمه على العفريت من الجن في الإتيان بعرش (بلقيس) مَلِكَة سبأ في طرْفة عين، بدلاً من نصف يوم.

ومن سلك طريقا يبتغي به علما سهل الله له به طريقاً إلى الجنة.

والملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع.

والعلم هو ميراث محمد ﷺ فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وساعة علم خير من عبادة سنة في نوافل العبادة.

ولقيمة العلم في الإسلام أقسم الله سبحانه بحروف الهجاء، وأقسم بأداة الكتابة وهي القلم، وأقسم بالكتابة نفسها فقال: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] كما أقسم سبحانه بالورق الذي يُستعمل في الكتابة فقال: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور: ٢ - ٣] والرق: هو الورق المفتوح للاطلاع والقراءة.

لابد من ربط العلوم التجريبية بخالق الكون:

والإنسان يبذل السبب في طلب العلم، ويُسْنِد تحصيله إلى الله تعالى، فهو جل شأنه مصدر العلم، ومنه يُستمد، وهو الذي يعلّم الإنسان ما لم يعلم، وكل علم غير متصل بالله تعالى لا خير فيه، وقد يضرُّ أكثر مما ينفع، فدراسة الطب لابد فيها من الربط بالخالق، وكذا الأدوية، والكيمياء، والإحياء، والحاسوب، والهندسة، والجيولوجيا، وعلم النفس والحيوان والنبات، وحسابات البنوك والشركات، والأمن الداخلي والخارجي للبلاد، وكذا العلاقات الداخلية والخارجية، والشرطة وحراسة الحدود، وما إلى ذلك، كل ذلك، لابد فيه من ربط علومه بخالق الكون، ودراسته على ضوء حكم الإسلام وتكييفه لها، فإذا دُرست هذه العلوم وغيرها على هذا النحو، فلن تجد في العالم مُلْحِداً، ولا علمانياً، ولا حائر متردداً بين الحلّ والحرمة في معاملات البنوك، وهكذا.

والدراسة على هذا النحو لا تكلفنا إلا تجريدها من النظريات البحتة الغربية، وربطها

بالشرع، واتصالها بخالق الكون.

هذا: ولأن علم الأجنة أول العلوم التي تصل المخلوق بالخالق، لأن فيه أطوار خلق الإنسان وتكوينه ونشأته.. كان هذا العلم هو أول العلوم التي لفت القرآن النظر إليها في كونه سبحانه خلق الإنسان من علق، ودعا إلى التامل في هذا الخلق، فقال:

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

ولأن جميع العلوم لابد أن ترتبط في دراستها برب هذا الكون، كانت أول لفتة وجّه الوحي أنظارنا إليها هي قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ فأمر الله نبيه أن يبدأ قراءته باسم الله، وليس باسم مخترع الكهرباء ولا باسم رائد الفضاء، ولا باسم مخترع شبكة المعلومات، ولا باسم الشعب، ولا باسم الأمة.

ولأن فوق كل ذي علم عليم، والعلم كله مستمد من الله تعالى، ويوجد من علوم الغيب والكون، ما لا قبل لنا به إلا عن طريق الوحي، فإن الله تعالى وضّح للإنسان هذا الأمر من أول لحظة، فأخبره بأنه جل شأنه علّمه ما لم يعلم.

وأتى بوصف الربوبية، وهو الأليق في هذا المقام، لأنها تعني صفة الخلق، فهو سبحانه ﴿ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ خالقهم ومربيهم بنعمه.

ولم يأت أمر القراءة بوصف الألوهية، إنما جاء باسم الرب، الذي ربى خلْقه بنعمه (اقرأ باسم ربك) لأن المقام مقام خلْق وصُنع وإبداع، وليس مقام عبودية وتوحيد.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ [الزمر: ٦٢].

ولم يدَّع أحد من الخلق أنه خلق شيئاً في الكون، لا يوجد خلق بدون خالق.

قال تعالى: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥].

والمشركون كانوا يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ ﴾ [لقمان: ٢٥] قال سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ [النحل: ٧٨].

ولا فرق بين الرجل والمرأة في طلب العلم والتعلم.

استهلال السورة وافتتاح الأعمال والأقوال بذكر الله:

لقد كان افتتاح نزول الوحي على رسول الله ﷺ (باسم الله) وهذا منهج رباني يتعلم منه المسلم أن يبدأ كل شؤونه باسم الله، لا باسم الأمة، ولا باسم الشعب، ولا باسم الوطن، ولا باسم فلان.. ولا باسم مذهب من المذاهب، ولا نحو ذلك بل ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وحمده والثناء عليه، ابدأ كل تصرفاتك: أقوالها وأفعالها باسم الله وبحمده، ومن ذلك بعض ما علّمنا إياه رسول الله ﷺ:

١ - فكان إذا استيقظ من نومه قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**»[1].

٢ - قالت عائشة رضي الله عنهما: وكان إذا هبّ من الليل، كبّر عشْراً، وحمد عشراً، وقال: سبحان الله وبحمده عشراً، وقال: سبحان الملك القدوس عشراً، واستغفر عشراً، وهلل عشْراً، ثم قال: «**اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا، وضيق يوم القيامة، عشْراً، ثم يستفتح الصلاة**»[2].

٣ - قالت: وكان إذا استيقظ من الليل قال: «**لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علما، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب**»[3] .

٤ - وفي الحديث أن من استيقظ من الليل فقال: «**لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم قال: اللهم اغفر لي - أو دعاء آخر - استجيب له، فإن توضأ وصلى قُبلت صلاته**»[4].

---

(١) من حديث حذيفة وأبي ذر والبراء بن عازب في البخاري (٦٣١٢،٦٣١٤،٦٣٢٥)، والترمذي (٤٣٠١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٦٦)، والمسند (١٢٦٦، ١٨٦٠٣،٢٣٤٥٩).

(٢) أخرجه أبوداود (٥٠٨٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٧١)، وفي السنن (٣/٢٠٩)، و(٨/٢٨٤)، وفي سنده عمر بن جُعْثُم قال في التقريب: مقبول.

(٣) أبو داود (٥٠٦١) عن عائشة، وفي سنده عبد الله بن الوليد، ليّن الحديث، وأخرجه النسائي في عمل اليوم واللليلة (٨٦٥).

(٤) رواه البخاري برقم (١١٥٤) عن عبادة بن الصامت.

٥ - وقال ابن عباس رضي الله عنهما ليلة مَبيته عند النبي ﷺ: إنه لما استيقظ رفع رأسه إلى السماء وقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ثم قال: (اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنَبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)[1].

٦ - وقالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل قال: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، إهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تحكم وتهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[2].

٧ - وكان ﷺ إذا أوْتر ختم وتره بقوله: «**سبوح قدوس رب الملائكة والروح**»[3] ثلاثاً ويقول: «**سبحان الملك القدوس**»[4] ثلاثا، ويمدّ صوته بالثالثة.

٨ - وكان ﷺ إذا خرج من بيته قال: «**بسم الله، توكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضل، أو أَزل أو أُزل، أو أَظلم أَو أُظلم، أو أجهل أو يجهل عليّ**»[5].

٩ - وفي الحديث عن أنس ﷺ: «**من قال إذا خرج من بيته: باسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: كُفيت، وَوُقيت، وهُديت وتنحّى عنه الشيطان**».

---

(١) من حديث ابن عباس في مسلم (٧٦٩)، والبخاري (١١٢٠، ٦٣١٧، ٧٣٨٥، ٧٤٤٢، ٧٤٩٩).

(٢) من حديث عائشة في صحيح مسلم (٧٧٠).

(٣) من حديث عائشة في صحيح مسلم (٤٨٧).

(٤) من حديث أبي بن كعب عند أبي داود (١٤٢٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٢٩) وغيرهما بإسناد صحيح.

(٥) من حديث أم سلمة عند أبي داود (٥٠٩٤)، والترمذي (٣٤٢٧)، والنسائي (٥٤٨٦)، وابن ماجة (٣٨٨٤) وهو في المسند (٢٦٦١٦) بإسناد ضعيف لعدم سماع الشعبي وهو عامر بن شراحيل من أم سلمة (محققوه).

زاد أبوداود: فيقول الشيطان لشيطان آخر: «كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووقي»[١].

١٠ - وكان ﷺ إذا خرج إلى صلاة الفجر قال: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، واجعل في لساني نورا، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصري نوراً، واجعل من خلفي نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، اللهم أعْظِم لي نوراً»[٢].

١١- ومن دخل المسجد فقال: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم، قال الشيطان: حُفظ مني سائر اليوم»[٣].

١٢- وفي الحديث أيضاً «إذا دخل أحدكم المسجد، فلْيُصلّ ولْيُسلّم على النبي ﷺ ولْيقُل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك» فإذا خرج فلْيقُل: «اللهم إني أسألك من فضلك»[٤].

وفي لفظ آخر أن النبي ﷺ كان إذا دخل المسجد صلّى على محمد ﷺ ثم يقول: «اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك» فإذا خرج صلّى على محمد ﷺ ثم يقول: «اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي باب فضلك»[٥].

١٣ - وكان ﷺ إذا صلى الصبح جلس في مُصلاّه حتى تطلع الشمس يذكر الله عز وجل، ثم يصلي ركعتين[٦].

---

(١) من حديث أنس عند أبي داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٦) وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٩) بسند صحيح.

(٢) من حديث سَلَمة بن كُهيل عن كُرَيب عن ابن عباس في مسلم (٧٦٣)، والبخاري (٤٥٦٩،٦٢١٥،٧٤٥٢).

(٣) من حديث عبد الله بن عمرو في سنن أبي داود (٤٦٦) بإسناد جيد.

(٤) رواه مسلم من حديث أبى حُمَيْد أو أبى أُسَيْد (٧١٣) بنحوه، وفى المسند (١٦٠٥٧) بإسناد على شرط مسلم، وأخرجه ابن حبان (٢٠٤٩)، وأبو عوانة (٤١٤/١)، وعبد الرزاق فى المصنف (١٦٦٥) وغيرهم بزيادة أو نقص «فليصل وليسلم».

(٥) ينظر: حديث أبي حُميْد أو أبي أُسَيْد في صحيح مسلم (٧١٣)، وأبي داود (٤٦٥)، والنسائي (٧٢٩)، وابن ماجة (٧٧٢) وغيرهم كما في الحديث السابق.

(٦) رواه مسلم (٦٧٠) بنحوه، وأحمد عن جابر بن سمرة (٢٠٨٢٠،٢١٠٣٧) بإسناد حسن دون أن يصلى ركعتين، وابن خزيمة (٧٥٧)، والطيالسى (٧٥٨).

١٤ - وكان ﷺ إذا أصبح يقول: «اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور» وإذا أمسى قال: «اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور»[1].

١٥ - وفي لفظ مسلم عن ابن مسعود (أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، رب أسألك خير ما في هذه الليلة، وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة، وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل، وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار، وعذاب في القبر، وإذا أصبح قال: ذلك أيضاً: أصبحنا وأصبح الملك لله.. الخ)[2].

١٦ - ولما سأل أبوبكر رسول الله ﷺ أن يأمره بكلمات يقولهن في الصباح والمساء قال: قل: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه ومالكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشِرْكه، وأَنْ أَقْترف على نفسي سوءا، أو أَجُرَّهُ على مسلم، قال: إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك»[3].

١٧ - وكان ﷺ إذا لبس شيئًا جديدًا يقول: «اللهم لك الحمد، أنت كَسَوْتَنيه، أسألك خيره وخير ما صُنع له، وأعوذ بك من شره، وشر ما صُنع له»[4].

١٨ - وكان ﷺ إذا رجع إلى بيته قال: «الحمد لله الذي كفاني وآواني، والحمد لله الذي أطعمني وسقاني، والحمد لله الذي منّ عليّ، أسألك أن تُجيرني من النار»[5].

---

(١) من حديث أبي هريرة عند أبي داود (٥٠٦٨)، والترمذي (٣٣٨٨)، وابن ماجة (٣٨٦٨) بأسانيد صحيحة.

(٢) صحيح مسلم عن ابن مسعود برقم (٢٧٢٣).

(٣) رواه أحمد (٥١،٨١،٦٣) بإسناد صحيح ورجالة ثقات، وأبوداود (٥٠٦٧) والترمذي (٣٣٩٢).

(٤) من حديث أبي سعيد الخدري عند أبي داود (٤٠٢٠)، والترمذي (١٧٦٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٣٠٩)، وإسناده صحيح.

(٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند ابن السُني (١٥٧)، وهو حديث حسن بشواهده كما في صحيح مسلم بمعناه عن أنس برقم (٢٧١٥) وعند ابن أبي شيبة والبزار عن عبد الرحمن بن عوف.

١٩ - وكان إذا دخل الخلاء يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث**»[١].

وإذا خرج قال «**الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني**»[٢].

٢٠ - وكان إذا وضع يده في الطعام قال: باسم الله، ويقول: إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإذا نسي أن يذكر اسم الله في أوله فلْيقل: «باسم الله في أوله وآخره»[٣].

وهكذا: فكتب الأذكار مليئة بمثل هذا في كل تصرف وكل حالة من حياة الإنسان.

مُصادَرَةُ الدعوة من غير المسلمين منذ فجر الرسالة:

يوجد في كل زمان ومكان من يصُدّ الناس عن دين الله، ومن يقف في وجه الدعوة، ويؤذي الدعاة إلى الله تعالى، والأمثلة على ذلك قائمة مدى التاريخ، ومنها الحروب الصليبية المعروفة في السابق، والحروب الصهيونية الصليبية في العصر الحاضر.

وفي أول سورة نزلت من كتاب الله تعالى ذِكْرٌ لوقوف أول طاغية في وجه الإسلام، وصده صاحب الدعوة عن المضيّ في دعوته، بل ومنْعه له من القيام بأداء الشعائر والعبادات، وتهييج الناس عليه، وقيامهم بالتجسس عليه لإيذائه ومنعه من العبادة، وهذه هي الحادثة الأولى في تاريخ الإسلام، وتتمثل في تصدِّي أبي جهل لرسول الله ﷺ لمنعه من القيام بالدعوة إلى الله تعالى، ومن عبادة ربه.

وقد استغرق هذا المثَل، سورة العلق كلها، بعد الآيات الخمس الأُول منها.

وكأن الله تعالى يوجّه الأنظار في باكورة الدعوة، إلى أن الإسلام سيجد من يحاربُه ويقف في وجهه، ويمنع الناس من ممارسته، ويُعزقِل خُطاه ليَحُول دون وصوله إلى الناس.

وسوف أذكر هنا ما جاء في هذه الآيات من الأحاديث الصحيحة الموضحة لهذه

---

(١) من حديث أنس وهُشَيم في مسلم (٣٧٥)، وفي البخاري (٦٣٢٢،١٤٢).

(٢) من حديث أنس في سنن ابن ماجة (٣٠٠،٣٠١)، وبزيادة لفظ «غفرانك» في الأول عن عائشة عند أبي داود (٣٠)، والترمذي (٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٩)، وصحيح ابن ماجه (٢٤٤)، وصحيح أبي داود (٢٣).

(٣) من حديث أميّة بن مَخْشيّ الصحابي عند أبي داود (٣٧٦٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٨٢)، وصحيح أبي داود (٣٢٠٢)، وصحيح ابن ماجه (٣٢٦٤).

المعاني، وهي تبين أسباب النزول، وتبين حماية الله تعالى للدعوة وصاحبها ﷺ:

١ - في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ قال: قال أبوجهل: هل يُعفّر محمد وجْهَه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيتُه يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته! أوْ لأَعفّرنّ وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعَم لِيَطأَ على رقبته، قال: فما فَجِئَهُمْ منه إلا وهو ينكص على عقبيْه، ويتّقي بيديْه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهَوْلاً وأجنحة، فقال: رسول الله ﷺ: «لَوْ دَنَا مني لاختطفتْهُ الملائكة عضواً عضواً» قال: فأنزل الله عز وجل ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ الآيات، يعني أباجهل)[1].

٢ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمرّ به أبوجهل بن هشام، فقال: (يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟ وتوعّده، فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني، والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً؟ فأنزل الله ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ قال ابن عباس: لو دعا ناديهُ لأخذتْهُ ملائكة العذاب من ساعته)[2].

٣ - وفي رواية أخرى: أن أبا جهل قال: لئن رأيت رسول الله يصلي عند الكعبة لآتيتُه حتى أطأ على عنقه، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لو فعل لأخذتْه الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنّوا الموت لماتوا ورأَوْا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً»[3].

---

(١) ينظر: صحيح مسلم برقم (٢٧٩٧)، وصحيح البخاري (٤٩٥٨)، وتفسير الطبري (١٦٥/٣٠)، وعبد الرزاق (٣٨٤/٢)، والمسند (٣٧٠/٢) (٨٨٣١)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٨٣)، وأبونعيم في الدلائل (١٥٨)، والبيهقي في الدلائل (١٨٩/٢).

(٢) المسند (٣٢٩/١) (٣٠٤٤،٢٣٢١) بإسناد صحيح (محققوه)، وسنن الترمذي برقم (٣٣٤٩) وقال: حسن صحيح، وتفسير الطبري (١٦٤/٣٠)، وابن أبي شيبة (٢٩٨/١٤)، والطبراني (١١٩٥٠)، والبيهقي (١٩٢/٢)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٦٨)، والنسائي في الكبرى (١١٦٨٤).

(٣) المسند (٢٤٨/١) برقم (٢٢٢٥)، وقد أخرج البخاري إلى قوله (عيانا) (٤٩٥٨)، والترمذي (٣٣٤٩،٣٣٤٨)، والنسائي في الكبرى (١١٦٢١،١١٦٢٠،١٠٩٩٥)، وعبد الرزاق (٣٨٤/٢)، والطبري (٥٣٩/٢٤)، وأبونعيم (١٥٦)، والبيهقي (١٩١/٢).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

مَصْدَرُ الْعِلْمِ وَمَصْدَرُ خَلْقِ الإِنْسَانِ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ

١ - ٥ - ﴿ٱقْرَأْ[1] بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

ونمضي مع تفسير آيات سورة العلق على ضوء ما سبق من أسباب النزول والمعاني العامة:

١- في أول خطاب إلهي وجّهه رب العالمين إلى النبي ﷺ فيه أَمْرٌ له وللأمة بالقراءة والكتابة وطلب العلم: ﴿ٱقْرَأْ﴾ يا رسولنا ما سنُلْقيه عليك من القرآن، مفتتحاً ومستعيناً ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ الذي تفرَّد بالخلق كله فأوجد هذا العالم العُلْويّ والسُّفليّ.

واسْتفْتِحْ أعمالك وأقوالك كلها باسم الله، لاسيما ما ستتحمله من أعباء النبوّة والرسالة، وكان الناس يُقْبِلوُن على اسم اللات والعزى.

وهكذا بعض الناس في عصرنا وغيره، يفتتحون أعمالهم بشعارات وطنية أو قومية أو مذهبية أو حِزْبية، فبين سبحانه في أول آية للوحي أن الافتتاح والاستعانة تكون باسم خالق هذا الكون، والخلق هو أدلُّ الأوصاف على وحدانية الله تعالى، وهو أول النعم، ولذا خصه الله بالذكر. وقد ذكر الله تعالى في الآية الأولى عموم الخلق، في قوله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

٢ - ثم ذكر سبحانه في الآية التالية أحد خلق الله، وهو الإنسان، وخصه من بين سائر المخلوقات، لأنه أشرفها، وفيه يكمُن العالَم الأكبر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أى خلق كل شيء فى هذا الكون، ثم لفت الأنظار إلى أصل هذا الإنسان: فبيّن أنه خلَقه من قطعة دم غليظ رطْب قدْر الأنمُلة، تشبه الدودة الصغيرة، تسمى علقة، وهذه العلقة تخلّقت من بويضة دقيقة جدّاً لا تُرى إلا بالمكبّرات، وهي في الأصل كُروية الشكل، سابحة في دم حيض المرأة، ولا تقبل التخلُّق إلا بعد أن تمتزج بنطفة الرجل، التي تحتوي على حيوانات صغيرة جدّاً لا تُرى إلا بالمجهر الدقيق، ولها رأس وذنب ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

---

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة ﴿ٱقْرَأْ﴾ ألفا في الوصل والوقف، وكذا حمزة وقفا، وحققها الباقون.

وهذه العلقة تكوّنتْ من نطفة الرجل والمرأة بعد اختلاطهما ومُضيّ أربعين يومًا عليها، ثم تأخذ في أطوار التكوين إلى أن تكون بشراً سوياً فسبحان الخلّاق العليم.

وهذا الإنسان يحتاج إلى من يدبر أمره، ويفرق بين المؤمن بخالقه والكافر به، فكانت الرسل والكتب والأوامر النواهي والجنة والنار؛ والطريق إلى معرفة ذلك، عن طريق العلم والنظر، ومعرفة القراءة والكناية:

٣ - إقرأ - يا رسولنا - ما أُنزل إليك، وامض لما أمرتُك به من القراءة، فإن ربك الذي أمرك بالقراءة، كثير الإحسان، واسع الجود، ومن كرمه سبحانه أن يمنح نبيه نعمة القراءة، ويفيض عليه من علومه، مع كونه أميّاً لا يقرأ ولا يكتب.

والقلم نعمة عظيمة، ولولاه لم يَقُمْ دين ولم يصلح عيش، ولا دُوّنت العلوم، ولا ضُبطت الأخبار.

ومع وجود الكتابة فإن العلوم والآداب تبقى وتتزايد، فتسمو الأفكار، وتنمو الحضارات، وتُحفظ الأديان، وتُنشر الهداية، ويخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾.

٤ - وحين طلب جبريل من النبي ﷺ القراءة، قال: كيف أقرأ، وأنا لا أُحسن القراءة ولا الكتابة؟ فأُجيب بأن الذي علّم القراءة بواسطة القلم، يُعلّمك ما لم تعلم، والذي علم آدم الأسماء كلها يُعلّمك ما لم تعلم، والذي علّم الناس الكتابة بالقلم، قادر على أن يُعلّمك القراءة وأنت لا تعلم الكتابة، والذي خلق الإنسان من علقة، قادر على أن يجعل الأمي معلّم البشرية ، فهو سبحانه: ﴿الَّذِي عَلَّمَ﴾ بواسطة﴿بِالْقَلَمِ ﴾.

٥ - وهو سبحانه الذي علم الإنسان من أنواع العلم والهداية والبيان ما لم يكن يعلم، فنقلَه من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ لقد خلق الله الإنسان من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم، فعلّمه القرآن وعلّمه الحكمة، وعلّمه بالقلم الذي تُحفظ به العلوم وتضبط به الحقوق. وكما علّم الله الخلْق بواسطة الكتابة بالقلم، علّم نبيه علم الأولين والآخرين بلا واسطة، مع كونه ﷺ أمياً.

قال القرطبي: نبه تعالى على فضل علم الكتابة، لما فيها من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إنسان، وما دُوِّنت العلوم ولا قُيِّدت الحِكَم، ولا ضُبطت أخبار الأوّلين ومقالاتهم، وما كُتبت كتب الله المنزلة إلا بالقلم، ولولاها ما استقامت أمور الدنيا والدين[1].

وقد شرف الله الإنسان وميزه بالعلم، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبيان، ولابد أن يُزيّن العلم بالعمل، وإلا كان وبالاً على صاحبه.

وقد جمعت هذه الآيات الخمس أصول الصفات الإلهية:

١- فوصْفُ الرب: يتضمن الوجود والوحدانية.

٢- ووصْفُ الخلْق والعلم، يقتضيان صفات الأفعال.

٣- ووصْفُ ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ يتضمن صفات الكمال والتنزيه عن النقائص.

وقد كُرر فيها ألفاظ (إقرأ وخلَق وعلّم) مرتان.

وقُيّد العلم مرة بالقلم، وذُكر مرة عامّاً بدون القلم، للإشارة إلى أن العلم يكون بالتلقّي والتعليم على الآخرين، ويكون بمطالعة الكتب، وللإشارة إلى أن تحصيل العلوم يعتمد على ثلاثة أمور:

الأول: الأخذ عن الآخرين عن طريق القراءة والكتابة.

والثاني: عن طريق التلقّي من الأفواه بالدروس والإملاء.

والثالث: ما ينقدح في النفس، وتستنبطه العقول من العلوم والمعارف.

وكل هذا يدخل تحت قوله تعالى ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وقوله:﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

أما العلم عن طريق الوحي فهو الذي يقول الله فيه﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء: ١١٣].

وعدم معرفة القراءة والكتابة لا تحُول دون هذا العلم، ولا يوجد برهان أقوى، ولا دليل أقطع، على فضل العلم بجميع أنواعه، من افتتاح الله تعالى كتابه، وابتداءه وحيه

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/١٢٠).

بهذه الآيات البينات.

وقد لفتتْ هذه الآيات الخمس - التي كانت أول ما نزل من القرآن الكريم - أنظار البشر إلى أمرين هامّين:

الأمر الأول: أهمية العلم والتعلُّم، وأن القرآن هو مصدر العلم والهداية، ومنهج الحكم والتشريع.

الأمر الآخر: ذِكْر مادة خلْق الإنسان المكلف بهذا القرآن، والمميّز بالعلم والمعرفة، والاستدلال بذلك على وحدانية الخالق سبحانه.

فالقرآن - وهو الصفحة المقروءة - والكون - وهو الصفحة المرئية - هما أساس العلم والنظر.

والقلم هو أداة العلم، وطريق القراءة والكتابة، وعن طريق القلم والبحث والتأمل، علّم الله الإنسان ما لم يعلم.

وفي هذا العلْم مناط تكريم الإنسان، وتفضيله وامتيازه على غيره من الكائنات.

ومصدر العلْم، ومصدر خلْق الإنسان، هو الله سبحانه، وهاتان أول حقيقتان نزل بهما الوحي على رسول الله ﷺ.

كُلُّ طَاغِيَةٍ مَصِيرُهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى يُحَاسِبُهُ وَيُجَازِيهِ

٦-٨- ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ [1] ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾

وبعد نزول الآيات الخمس السابقة، انقطع الوحي لمدة أيام، قيل أربعين يوماً، ثم نزلت سورة المدثر أو المزمل، ثم فتر الوحي ونزل بعده بسورة الضحى، وكان النبي ﷺ يقوم الليل متهجّداً قبل أن تُفرض عليه الصلوات الخمس ليلة المعراج، وكان ﷺ يصلي قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وربما تكون هيأة الصلاة آنذاك فيها بعض الاختلاف عن الصلوات الخمس التي فُرضت عليه فيما بعد، ولكنها كلها كانت تشتمل على السجود،

(١) قرأ قنبل بقصر همزة ﴿رَّءَاهُ﴾ بخلف عنه والباقون بإثبات ألف بعد الهمزة.

لقوله تعالى ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ وبعد فترة ليست طويلة نزل فيها ما سبق ذكره من القرآن.

ثم نزلت بقية هذه السورة في شأن أبي جهل بن هشام، ومهّدتْ لذلك بأنَّ كثْرة المال إن لم يصحبها الإيمان والوازع الديني، فإنها تؤدي إلى الطغيان، والفساد في الأرض، والتطاول على الناس، وذلك لأن العبد مفتقر إلى الله تعالى فيما هو أهم من المال، فهو يفتقر إلى تزكية النفس، واتعاظ الضمير، واحترام الآخرين.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ أي حقاً إن الإنسان ليتجاوز حدود الله تعالى، فيتعاظم ويتكبر ويتمرد على الحق، إذا أبطره الغنى، ورآى نفسه صاحب مال وجاه وعشيرة، فينسى لقاء الله ولا يخاف حساباً ولا جزاءً، وقد يصل به الأمر إلى أنه قد يترك طريق الهدى ويدعو الناس إلى تركه.

فكَثْرَةُ النعم تؤدي إلى هذا الخلُق الذميم، إلا إذا استعملها العبد في طاعة الله تعالى وشُكْرِه وتعدّى نفعه إلى غيره، ولم يترفع أو يتطاول على خلق الله تعالى، أو يستعملها في معصية الله سبحانه.

ثم بين سبحانه أن كل طاغية مصيره إلى الله تعالى، فيحاسبه ويجازيه على ما جنتْ يداه ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ وفيه تهديد وتحذير من عاقبة الطغيان، وهو أمر عام في كل من ينطبق عليه الوصف.

والمعنى: فلا تحزن - أيها الداعية إلى الله - مما يفعله الطغاة بالإسلام وأهله، في كل زمان ومكان، فإن مرجعهم إلى الله تعالى، وسوف يَعْلَمون أن جاههم ومالهم لن يغني عنهم من الله شيئاً ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢١ - ٢٣].

وفي الأثر: منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال. أما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن، وأما صاحب المال فيزداد في الطغيان، ولا يؤدي الغنى إلى الطغيان إلا إذا صحبه إيثار الدنيا على الآخرة.

لَيْسَ هُنَاكَ أَبْشَعُ مِنْ مُلَاحَقَةِ النَّاسِ فِي الْمَسَاجِدِ وَمَنْعِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ

٩، ١٠ - ﴿أَرَءَيْتَ[1] ٱلَّذِى يَنْهَىٰ[2] ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾

ثم ذكر سبحانه حالة مستنكرة، يعجب منها الإنسان، لما فيها من الغرابة والشناعة: أرأيت - أيها المخاطب - أعجب من طغيان هذا الشقي الفاجر - وهو (أبوجهل) وكل مَنْ فَعَل فِعْلته - ممن ينهى عبداً - هو محمد ﷺ، أو ينهى غيره على مدى التاريخ - إذا صلّى لربه؟ أعلمتَ حالاً أعجب وأشنع من حال هذا الطاغية الأحمق، الذي يمنع الناس من إقامة شعائر ربهم؟ ومن المتفق عليه أن المراد بالناهي في هذه الآية وقت التنزيل هو أبوجهل، وأن المنهي عن الصلاة وقتها، هو محمد ﷺ، والعبرة بالعموم، فالآية تشمل كل حالة مماثلة إلى يوم الساعة.

وقد تكرر لفظ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ مرتين بعد ذلك، والرؤية في المواضع الثلاثة ليست بَصَرية، بل هي رؤيا علمية إخبارية، بمعنى: أَعَلمت، أو أخبرني، وفي كل هذا تعجيب من كل طاغية، مُصرّ على الكفر، وتهديد له بسوء المصير على أعماله القبيحة.

والضمير في الآية التالية يعود على المنهي عن الصلاة ، وهو النبى ﷺ وكل من ينهى عن الصلاة بعده إلى يوم القيامة.

والضمير في الآية التي بعدها يعود على الناهي عن الصلاة، وهو أبو جهل فى وقت التنزيل، وكل طاغية مثله إلى يوم القيامة، وقرينة المقام تقضي برجوع الضمائر إلى مراجعها المذكورة.

---

(١) قرأ الأصبهاني وقالون وأبوجعفر بتسهيل الهمزة الثانية من ﴿أَرَءَيْتَ﴾ وللأزرق التسهيل والإبدال حرف مد مشبع وصلاً، وليس له عند الوقف إلا التسهيل، وقرأ الكسائي بحذف الهمزة الثانية، ولحمزة وقفاً التسهيل بين بين، وهذا في المواضع الثلاثة.

(٢) ترك المصحف الدمشقي عدّ (ينهى) وعدّها آية جمهور أهل العدد.

مَا أَعْجَبَ أَنْ يَنْهَى الإِنْسَانُ غَيْرَهُ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى أَوِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ

١١، ١٢ - ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾

وهكذا وجّه الله تعالى خطاباً ثانياً للنبي ﷺ يقول له: أخبرني - أيها الرسول - إن كان هذا العبد المصلِّي، على الهدى، متبعاً للحق، صالحاً، مُهْتديا، مستقيماً في قوله وفعله، أينهاه أحد عن الهدى؟ هذا أمر عجيب!

أو إن كان هذا العبد يأمر غيره بالتقوى، ويدعوه إلى التوحيد والإخلاص والرشاد، فهل ينهاه أحد عن الأمر بالتقوى؟ كيف يزجره وينهاه؟ أينهى عبداً مهتدياً مطيعاً منيباً إلى ربه، يدعو الناس إلى الخير؟ ما أعجب هذا؟ إن النهى عن الصلاة وعن طريق الاستقامة محادة لله والرسول.

مُرَاقَبَةُ اللهِ تَعَالَى لِمَنْ كَذَّبَ وَأَعْرَضَ، وَمُعَاقَبَتُهُ بِمَا يَسْتَحِقُّ

١٣، ١٤ - ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾

أعْلِمني - أيها الرسول - إن كذّب هذا الناهي بالقرآن، وبما يُدْعى إليه، فأعْرَض عن الإيمان بالله والرسول؟ ألا يعلم هذا الناهى أن الله يراه ،وأنه سيحاسبة ويعاقبه على ما جنت يداه ؟ إن هذا أعجب مِنْ سابقه.

والمعنى: أرأيت الذي ينهى عبدًا إذا صلَّى، وهو على الهدى، آمرٍ بالتقوى، والناهي مكذِّب، مُعرض عن الإيمان، لا يخاف ربه، ولا يخشى اطلاعه عليه؟ أي شيء أعجب من هذا؟

ألم يعلم هذا الشقي، أن الله تعالى مُطَّلع على أحواله، مراقب لأفعاله، وسيجازيه عليها، أرأيت إن فعل ذلك، أفلا أرْشَدهُ عقلُه إلى أن خالق هذا الكون سيعاقبه بما يستحق.

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ صَدَّ النَّاسَ عَنْ دِينِ اللهِ

١٥، ١٦ - ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ[1] لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ[2]﴾

---

(١) عد الحجازيون (المدني الأول والثاني والمكى ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ آية، ولم يعدّها غيرهم.

(٢) قرأ أبوجعفر بإبدال همزة ﴿خَاطِئَةٍ﴾ ياء وصلاً ووقفاً، وكذا حمزة وقفاً، وأمالها الكسائي وقفاً وحمزة بخُلفٍ عنه.

ثم يأتي الوعيد الرادع لمن يفعل ذلك، فيصد الناس عن دين الله، ويحول بينهم وبين إقامة شعائر الله ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما يزعم هذا الفاجر الشقي وأمثاله ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ ويرجع عن أذاه، ويكفّ عما هو عليه من الكفر والضلال، لنأخذنّ بناصيته أخذاً قوياً شديداً ونطرحه في النار.

والناصية هي مُقدّم شعر الرأس (الجبهة) وفي أَخْذِ الإنسان بناصيته تمكُّنٌ من عدم الفرار والانفلات، وهو منتهى الإذلال، ويُكنّى به عن شدة العذاب.

والسفع: هو الأخذ بعنف، والجذب بشدة، على سبيل الإذلال والإهانة.

ثم وصف الله سبحانه صاحب هذه الناصية، بأنها ناصية كاذبة في أقوالها، خاطئة في أفعالها، فصاحب هذه الناصية فاجر كاذب، كثير الذنوب والإجرام.

والخاطىء: هو الذي يفعل الذنب بدون قصد، أي لئن لم ينته هذا الفاجر المغرور عن كُفره وإيذائه لصاحب الدعوة، لَنُذِلنّه إذلالاً شديداً، ولَنسْحَبَنَّهُ إلى النار من ناصيته التي طالما كذّبتْ بالحق، وتعمدت الكفر، وداومتْ عليه.

وخُصّت الناصية بالذكر: لأنها جماع الفكر والتدبير، والكذب والخطيئة صفة لصاحب الناصية وليست صفة للناصية.

التَّهكُّمُ بِكُلِّ مَغْرُورٍ وَنِهَايَتُه الْوَخِيمَة

١٧، ١٨ - ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾

وعندما يؤخذ بالكافر إلى النار، قد يخطر له أن يستنْجد بأهله وعشيرته وصحبه، ومن يعتزّ بهم ويدعوهم لإيذاء صاحب الدعوة.

فليُحْضِرْ هذا الطاغية أهل ناديه الذين يستنصر بهم، وهذا على وجه التعجيز.

وكان أبوجهل قد هدد بأن يدعو ناديَهُ وأهله وعشيرته ليسلطهم على النبي ﷺ.

والنادي: اسم للمكان الذي يجتمع فيه القوم، ومن ذلك دار الندوة التي اتخذها قُصَيّ حول المسجد الحرام، لاجتماع قريش يتشاورُون في مهامهم، وهذه الدار دخلت في توسعة المسجد الحرام حالياً، إذاً فليدع أبوجهل ناديه لإيذاء النبي ﷺ.

أما نحن من جانبنا فسندع زبانية جهنم، الموكّلون بعقاب الكفار، وهم ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فلينظر أي الفريقين أقوى وأقدر؟

وفي هذا تهكم واستخفاف بهذا المغرور، وبكل من يستنجد به، ولو دعا ناديهُ لأخذتْه ملائكة العذاب من فوره، وقد سمع أبوجهل ورؤساء مكة، هذا التحدي وهذا التعجيز، ولم يصنعوا شيئاً!

هذا حال الناهي عن الطاعة وما توعده الله به من عقوبة، أما حال المنهى عند الطاعة فقد أمره الله ألا يستمع لهذا الناهي ولا يستجيب دعوته.

الأَمْرُ بِالثَّبَاتِ عَلَى الإِيمَانِ

١٩ - ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾

وتُختم السورة بتوجيه المؤمن الطائع بالاستمرار على الطاعة، والثبات على الإيمان والإستمرار فى دعوته إلى الله تعالى، ﴿ كَلَّا ﴾ ليس الأمر على ما يظن أبوجهل وأمثاله، فإنه ليس في وسعه أن ينال محمداً ﷺ بشيء من السوء، فلا تطعه فيما دعاك إليه - يا رسولنا - مِنْ تَرْكِ الصلاة، وامض في طريقك إلى الله، وإلى الدعوة إليه ، وواظب على العبادة والطاعة، ولا تَلْتفِت إلى نهيه وكلامه، واسجد لربك، فإنهم أعجز من أن ينالوا منك شيئاً، والله تعالى حافظك وناصرك، وهو يعصمك من الناس، وداوم على التقرب إلى الله تعالى بالسجود، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، واجتهد في القرب إلى الله تعالى بالصلاة ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٦].

وهذه دعوة إلى كل مؤمن مطيع بالله والرسول، أن يزداد قرباً من الله تعالى.

وهنا سجدة تلاوة مسنونة للقارىء والمستمع، كما جاء عن أبي هريرة ﷺ قال: سجدنا مع النبي ﷺ في﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ و﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾[1].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٥٧٨) وصحيح البخاري (١٠٧٤).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»[١].

ومن المفسرين من فرّق بين الضميرين في قوله: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ فقال: واسجد - يا محمد - واقترب - يا أبا جهل - من النار، تهديداً له[٢].

تم تفسير (**سورة العلق**) ولله الحمد والمنة

(١) صحيح مسلم برقم (٤٨٢).

(٢) قاله زيد بن أسلم، كما في تفسير زاد المسير (١٨٠/٩)، وابن وهب كما في تفسير ابن عطية (٥٠٣/٥) وغيرهما.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَدْرِ (٩٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة القدر) هي السورة السابعة والتسعون في ترتيب المصحف، والخامسة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة عبس) وقبل (سورة الشمس)، على القول بأنها سورة مكية.

وبعد سورة المطففين وقبل (سورة البقرة)، على القول بأنها سورة مدنية.

والجمهور على أنها مكية، وقال الواقدي: هي أول سورة نزلت بالمدينة.

وسورة القدر خمس آيات في العدد المدني والبصري والكوفي، وست آيات في العدد المكي والشامي. وهي ثلاثون كلمة، ومئة واثنا عشر حرفاً.

٢ - وهي السورة التي تتحدث عن ليلة الاتصال بين الأرض والسماء، وتتناول الحدث الجليل الذي لم تشهد البشرية مثله، وهو نزول القرآن على خاتم النبيين ﷺ.

وتشير السورة إلى الفيوضات الإلهية التي تتجلى في هذه الليلة المباركة من نزول الملائكة، وعلى رأسهم أمين الوحي جبريل عليه السلام، وتُقرر أنها ليلة سلام وأمان إلى طلوع الفجر، فهي الليلة التي يتم فيها تقدير الأمور، وتدبير أحوال العباد من كل عام، بإيجادها في أيدي الملائكة الموكلة بها، وإظهارها لهم، ومن عظيم قدْر هذه الليلة أنها أفضل عند الله تعالى من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

وموضوع السورة: هو نزول القرآن الكريم فى هذة الليلة المباركة ،وبيان منزلتها وفضلها على سائر الليالى، وأن الملائكة تنزل فيها بالخيرات والرحمات وعلى رأسهم جبريل علية السلام ،وأنها ليلة سلام وأمان حتى مطلع الفجر.

في فضل ليلة القدر وإحيائها بالعبادة:

ورد في فضل ليلة القدر - فيما اطلعت عليه - اثنان وعشرون حديثاً، منها ما جاء:

أ ـ عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»[(١)].

ب ـ وعنه ﷺ أنه: لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ: «**قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغلّ فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرم خيرها فقد حُرم**»[(٢)].

ج ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله ، إنْ وافقتُ ليلة القدر فما أدعو، قال: قولي: «اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني»[(٣)].

د ـ وكان ﷺ يجاور العشر الأواخر من رمضان، ويقول: «**تحرّوا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من شهر رمضان**»[(٤)] والمجاورة هي الاعتكاف في المسجد للطاعة والعبادة.

هـ ـ وكان ﷺ إذا دخل العشر الأواخر، أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجدّ، وشد المئزر[(٥)].

---

(١) صحيح البخاري برقم (١٩٠١،٣٥)، وصحيح مسلم برقم (٧٦٠)، والبيهقي (٣٠٦/٤).

(٢) رواه أحمد (٢٣٠/٢) برقم (٩٤٩٧،٧١٤٨)، وهو حديث صحيح، وإسناد رجاله ثقات رجال الشيخين (محققو المسند)، وسنن النسائي (١٢٩/٤) برقم (٢١٠٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٩٩٢)، وهو عند ابن أبي شيبة (١/٣)، وأخرجه عبدالرزاق (٨٣٨٣)، وابن ماجة (١٦٤٢)، وابن خزيمة (١٨٨٣) وغيرهم.

(٣) رواه أحمد (٢٥٣٨٤ ،٢٥٤٩٥) بإسناد صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين (محققو المسند)، وأخرجه البيهقى فى الشعب (٣٧٠٢)، وسنن الترمذي (٣٥١٣)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٢٤،٧٦٦٥)، وابن ماجه (٣٨٥٠).

(٤) من حديث عائشة في صحيح البخاري برقم (٢٠٢٠،٢٠١٧)، وصحيح مسلم برقم (١١٦٩)، والمسند (٢٤٢٩٢،٢٤٢٣٣)، والترمذي (٧٩٢)، وابن أبي شيبة (٥١١/٢).

(٥) من حديث عائشة في صحيح البخاري برقم (٢٠٢٤)، وصحيح مسلم برقم (١١٧٤)، والمسند (٢٤١٣١)، وابن حبان (٣٢١)، وأبوداود (١٣٧٦)، وابن ماجة (١٧٦٨)، وابن أبي شيبة (٧٧/٣).

و ـ وكان ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيرها[1].

ز ـ وعن أبي هريرة ﷺ أيضاً أن النبي ﷺ قال: «**من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»[2].

ح ـ وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده[3].

مما ورد في تعيين ليلة القدر:

أ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أُرُوا ليلة القدر في المنام، في السبع الأواخر، فقال ﷺ: «**أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر**»[4].

ب ـ وفي لفظ لابن عمر أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «**إن ليلة القدر في السبع الأواخر**»[5].

ت ـ وعن ابن سلمة قال: سألت أباسعيد - وكان لي صديقاً - فقال: اعتكفْنا مع النبي ﷺ العشر الأوسط من رمضان، فخرج ليلة عشرين فخطَبنا، وقال: «**إني أُريتُ ليلة القدر، ثم أُنسيتُها ـ أو نَسيتُها ـ فالتمسوها في العشر الأواخر من الوتر، وإني رأيتُ أني أسجد في ماء وطين، فمن اعتكف معي فليَرجِع، فرجَعْنا، وما نرى في السماء قزَعة، فجاءت**

---

(١) صحيح مسلم برقم (١١٧٥) عن عائشة، وابن أبي شيبة (٢/٥١٥)، والنسائي في الكبرى (٣٣٧٦)، وابن ماجة (١٧٦٧)، والترمذي (٧٩٦)، والمسند (٢٤٩١٣).

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٥،٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠)، والبيهقي (٤/٣٠٦).

(٣) من حديث عائشة في البخاري برقم (٢٠٢٦)، ومسلم برقم (١١٧٢).

(٤) صحيح البخاري برقم (١١٥٨،٢٠١٥)، وصحيح مسلم برقم (١١٦٥)، والموطأ (١/٣٢١)، والبيهقي (٤/٣١٠)، والمسند (٤٤٩٩)، وابن حبان (٣٦٧٥).

(٥) مسلم (٢٠٦،١١٦٥)، وأبوداود (١٣٨٥)، والنسائي في الكبرى (٣٣٨٦)، والمسند (٤٨٠٨)، وابن حبان (٣٦٨١).

(٣٦٨١).

سحابة، فَمَطرتْ حتى سال سقف المسجد، وكان من جريد النخل، وأقيمت الصلاة، سورة القدر: فى تعيين ليلة القدر د في الماء والطين، حتى رأيتُ أثر الطين في جبهته»[١].

ث ـ وفي رواية عند مسلم وغيره أن أبا سعيد الخدري ﷺ قال: (اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأُول من شهر رمضان، واعتكفْنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكَف العشر الأوسط، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، ثم قام النبي ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «من اعتكف معي فليرجع، فإني رأيت ليلة القدر، وإني أُنسيتها، وإنها في العشر الأواخر في وتر، وإني رأيت كأني أسجد في ماء وطين» - وكان سقف المسجد جريداً من النخل - وما نرى في السماء شيئاً، فجاءتْ قزَعة فَمُطرنا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيتُ أثر الماء والطين على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه)[٢].

ج ـ وفي لفظ (في صبح إحدى وعشرين) بدل (ليلة عشرين).

قال أبوسعيد الخدري (بَصُرتْ عيناي رسول الله ﷺ على جبينه وأنفه أثَرُ الماء والطين من صبح ليلةِ إحدى وعشرين)[٣]

ح ـ وفي سنن الترمذي وغيره أن زِرّ بن حُبيش قال لأبيّ بن كعب: إنّ أخاك عبد الله ابن مسعود يقول: من يقم ليلة الحول يُصِبْ ليلة القدر، فقال: يغفر الله لأبي عبدالرحمن، لقد علم أنها في العشر الأواخر من رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين، ولكنه أراد ألاّ يتكل الناس، ثم حلف لا يستثنى أنها ليلة سبع وعشرين، قلت له: بأيّ شيء تقول ذلك

---

(١) صحيح البخاري برقم (٢٠١٦)، وفي صحيح مسلم برقم (١١٦٧).

(٢) صحيح مسلم برقم (١١٦٧)، وصحيح البخاري برقم (٨٣٦،٨١٣،٦٦٩)، والمسند (١١٠٣٤)، والموطأ (٣١٩/١)، وابن ماجة (١٧٧٥)، وابن أبي شيبة (٧٦/٣).

(٣) ينظر: البخاري (٢٠١٦،٢٠٢٠٤)، ومسلم (٢١٣-٢١٦)، وأبوداود (١٣٨٢)، وابن ماجة (١٧٧٥)، والنسائي في الكبرى (٦٨٦)، والمسند (١١٠٣٤)، وابن حبان (٣٦٨٤).

يا أبا المنذر؟ قال: بالآية التي أخبرنا رسول الله ﷺ أو بالعلامة: أنّ الشمس تَطْلُع يومئذ لا شُعاع لها)[١].

خ ـ وعن ابن عمررضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**التمسوها في العشر الأواخر من رمضان**»[٢].

د ـ وعن معاوية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**التمسوا ليلة القدر آخر ليلة من رمضان**»[٣].

ذ ـ وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**التمسوا ليلة القدر، ليلة سبع وعشرين**»[٤].

ر ـ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، ليلة القدر، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى**»[٥].

ز ـ وعن عبد الله بن أُنَيْس أنه سئل عن ليلة القدر فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**التمسوها الليلة**» وكانت الليلة : ليلةُ ثلاث وعشرين[٦].

س ـ وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ ليُخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «**خرجتُ لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فَرُفِعتْ، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة**»[٧].

---

(١) قال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٣٥١)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٧٦/٣)، والمسند (٢١١٩٠،٢١٢٠٩)، ومسلم (٧٦٢)، وأبوداود (١٣٧٨)، والنسائي في الكبرى (٣٤٠٦،٣٤٠٨)، وابن حبان (٣٦٨٩)، والبيهقي (٣١٢/٤).

(٢) ابن أبي شيبة (٥١١/٢)، وهو عند مسلم (١١٦٥) وهذا لفظه.

(٣) ينظر: صحيح ابن خزيمة (٢١٨٩)، ومحمد بن نصر (ص ١٠٦)، وقال الألباني: حديث صحيح وهو في صحيح الجامع (١٢٥١).

(٤) المسند (٤٨٠٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه عبد بن حميد (٧٩١) منتخب.

(٥) صحيح البخاري برقم (٢٠٢١،٢٠٢٢)، وأبوداود (١٣٨١)، والبيهقي (٣٦٨٠).

(٦) ينظر: صحيح مسلم (١١٦٨)، وابن خزيمة (٢١٨٥)، والمسند (١٦٠٤٤-١٦٠٤٦)، وابن أبي شيبة (٥١٤/٢)، وبنحوه عند مالك (٣٢٠/١)، والبيهقي في الشعب (٣٦٧٥).

(٧) صحيح البخاري برقم (٤٩، ٢٠٢٣، ٦٠٤٩)، والمسند (٣٤٠/٣٧)، وابن أبي شيبة (٥١٤/٢)، والبيهقي (٣١١/٤)، وفي الشعب (٣٦٧٩)، والطيالسي (٥٧٧) بإسناد صحيح.

والتلاحي هو الخصام والنزاع.

 العبد ليُحرَمُ الرزق بالذنب يصيبه)[(١)].

وقوله ﷺ: (فرفعت) أي رفع تعيين وقتها، لا أنها رُفعت بالكلية.

وقوله ﷺ: «وعسى أن يكون خيراً لكم» لأنها إذا كانت غير مُعَيّنة اجتهد الناس في الطاعة ، لعلهم يصادفونها.

وعلى هذا: فليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، وهي في ليالي الوتر منه أقرب، وفي ليلة السابع والعشرين أرجح، وعليه أقسم أُبيّ بن كعب كما في صحيح مسلم وغيره[(٢)].

ولكن ليلة السابع والعشرين ليست واحدة في جميع بلاد العالم، نتيجة اختلاف طلوع القمر وغيابه، فإن مطالع الهلال مختلفة، لاسيما بين البلاد المتباعدة، مختلفة الأطوال.

وعليه: فإن ليلة القدر ليست ليلة معينة مطَّرِدة في كل السنين، وفي كل البلاد، بل هي تتنقل من عام إلى عام، ومن بلد إلى بلد، فقد تكون في عام ليلة واحد وعشرين من رمضان، وفي عام آخر تكون ليلة ثلاث وعشرين، وفي عام ثالث تكون ليلة تسع وعشرين، وهكذا، وقد تكون في ليالي الشفع من العشر الأواخر أيضاً.

كما في الأثر عن أبي سعيد وبلال (ليلة القدر ليلة أربع وعشرين)[(٣)].

---

(١) المسند (٢٢٣٨٦،٢٢٤٣٨) بإسناد ضعيف لأن فيه عبدالله بن أبي الجعد، متكلم فيه، وابن ماجة (٩٠،٤٠٢٢)، وابن حبان (٨٧٢)، وفي إسناده ضعف، وقد ورد بأطول من هذا بزيادة «ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر» وإسناده حسن دون هذه الجملة.

(٢) صحيح مسلم برقم (٧٦٢)، والمسند (٢١١٩٠)، وأبوداود (١٣٧٨)، والترمذي (٧٩٣)، والنسائي في الكبرى (٣٤٠٦).

(٣) مسند الطيالسي برقم (٢١٦٧) عن أبي سعيد مرفوعاً، وفي الطبراني (١١٠٢)، والمسند (١٢/٦) عن بلال برقم (٢٣٨٩٠) وإسناده ضعيف، لأن فيه ابن لهيعة.

ولعل ليلة القدر التي نزل فيها القرآن على النبي ﷺ كانت ليلة أربع وعشرين من شهر رمضان:

كما جاء عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «أُنزلتْ صحف إبراهيم في ثلاث مَضَيْن من رمضان، وأنزل إنجيل عيسى في ثلاث عشرة ليلة مضتْ من رمضان، وأنزل زبور داود في ثماني عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل سورة القدر: مناسبة السورة لما قبلها الرابعة والعشرين، لستٍّ بَقين»(١).

وإذا كان القرآن قد نزل في ثلاث وعشرين سنة، فإن صحف إبراهيم، والتوراة والإنجيل والزبور، نزل كل منها على النبي الذي أنزلت عليه جملة واحدة.

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

مناسبة السورة لما قبلها:

سورة العلق تسع عشرة آية، وسورة البينة ثماني آيات، وقد وُضعت بينهما سورة القدر، وهي خمس آيات، وكأن العلة في ذلك هي: عَوْدُ الضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ إلى القرآن الذي ابتدأ نزوله بسورة العلق، ولذلك فقد بدأت سورة القدر بضمير العظمة في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ واستُغْنِيَ به عن الاسم الظاهر، إشارة إلى أن القرآن حاضر في الذهن، سبق ذكره في أول سورة نزلت، بحيث لا يحتاج إلى إعادة.

* * *

(١) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٥٧٥)، وصحيح الجامع الصغير برقم (١٥٠٩)، وصححه البنا في الفتح الرباني عن الإمام أحمد (١٨/٤٦)، وهو فى المسند (١٦٩٨٤)، وقال محققوه: حديث ضعيف، تفرد به عمران القطان، وهو مما لا يحتمل تفرده، قلنا وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين، قلت: إن عمران القطان قال عنه أحمد وابن معين :صالح الحديث، وقال عنه البخارى: صدوق يهم، فلعله كما قال الشيخ الألبانى والبنا، وأخرجه الطبراني فى الكبير (٢٢/١٨٥)، وفى الأوسط (٣٧٥٢)، والبيهقي في الشعب (٢٢٤٨)، وفى السنن (٩/١٨٨)، والأسماء والصفات (ص٢٣٣)، وابن عساكر وغيرهم.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ابْتِدَاءُ نُزُولِ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ

١، ٢- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾

إنا نحن أنزلنا القرآن المعجز على محمد ﷺ في ليلة الفضل والشرف، وابتدأنا هذا النزول بالآيات الخمس الأُوَل من سورة العلق، والآية صريحة في أن هذا النزول كان ليلاً، وقد كان تعبُّد النبي ﷺ في غار حراء ليلاً، فكان ﷺ يتحنَّث الليالي ذوات العدد.

وقد ابتدأ نزول القرآن في ليلة القدر، واستمر ينزل حسب الحوادث والوقائع والأحوال ثلاثاً وعشرين عاماً هي مدة الرسالة الخاتمة.

وقد جاء ذِكْر ليلة القدر هنا مُبْهماً، لا يُدْرَى أيّ ليلة هي، وجاء ذكرها في سورة الدخان: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] فوُصفت بأنها ليلة مباركة، فيها يُفْرق كل أمر حكيم ويُبْرم، حيث يُقدّر فيها أقدار الأفراد والأمم والشعوب من العام المقبل ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

ولم تحدِّد الآية، في أي ليلة هي، ليلة القدر، ولا في أي شهر؟ وجاءت آية سورة البقرة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فحدّدتْ أنها ليلة القدر وهي الليلة المباركة، وهي في شهر رمضان.

إذاً فليلة القدر في شهر رمضان، وجاءت الأحاديث لتبين أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان.

وسميت ليلة القدر: لأن فيها تقدير وتدبير أمور الخلق والرزق والآجال، من حيث: الإحياء والإماتة، والشقاء والسعادة، والحوادث والنوازل، والفقر والغنى، والصحة والمرض، والنصر والهزيمة.. الخ، ويكون ذلك بإظهار هذه الأمور إلى الملائكة الموكلة بالقيام بها من العام القادم.

فاسمها مشتق من الشرف وعِظَم القدر ورِفْعة الشأن، أو مشتق من التقدير، لأن الأمور تُقدّر فيها:

الحكمة في إخفائها:

١- وقد أخفى الله تعالى ليلة القدر في شهر رمضان، ليجتهد الناس في طلبها بإحياء الليالي التي هي مظنة وقوعها.

٢- كما أخفى سبحانه اسمه الأعظم في كتابه، ليُقرأ كله.

٣- وأخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة، ليُدْعى فيه كله.

٤- وأخفى عمُر الإنسان في الأيام، كي يموت العبد على الطاعة، ويجتهد في عمره كله.

٥- وأخفى قيام الساعة في الأيام، ليستمر العبد في العمل لها ما بقى حيّاً.

٦- وأخفى الصلاة الوسطى في سائر الصلوات ليجتهد المسلم في طلبها، وهكذا.

وليست ليلة القدر (جِرْم) يُحَسّ، ولا لها نور يَظهر من نافذة، كما يزعم بعض العامة أنها شيء محسوس أو ملموس، فقد يصادفها العبد متعبِّدا، ويُكتب من أهلها، وهو لا يشعر بذلك.

وجاء في الأحاديث أن لها **علامات تعرف بها:**

منها: أن الشمس تطلُع في صبيحة يومها بيضاء نقية، ليس لها شعاع، لأن أنوار الملائكة تتلاقى مع أشعة الشمس، فتُحدِثُ فيها بياض الضُّوء[1].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنها (ليلة سمحة طلْقة، لا حارة ولا باردة، تُصبح الشمس يومها حمراء ضعيفة)[2].

وفي حديث واثلة بن الأسقع أنها (ليلة بلْجة، لا حارة ولا باردة، ولا يرمى فيها بنجم)[3].

---

(١) ينظر: صحيح مسلم برقم (٧٦٢)، وأبوداود (١٣٧٨)، والترمذي (٣٣٥١)، والنسائي في الكبرى (٣٣٩٢)، والمسند (٢١١٩٠) حديث صحيح بإسناد حسن، وابن حبان (٣٦٨٩).

(٢) صحيح ابن خزيمة برقم (٢١٩٢) بتحقيق الأعظمي، ومسند الطيالسي برقم (٢١٦٧)، والبيهقي (٣٦٩٣)، ومحمد بن نصر (ص ١٠٨).

(٣) الطبراني في الكبير بإسناد حسن مجمع الزوائد (٣/١٧٩).

أي أنه لا يُرمى فيها بالشهُب، ولا يكون فيها شياطين، وهي ليلة مضيئة ساكنة يهدأ فيها كل شيء.

هذا: ونزول القرآن في ليلة القدر معناه:

كما قيل إنه نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، وَوُضِع في بيت العزة - كما قيل - ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ نجوماً مفرقاً، حسب الوقائع والحوادث والأحوال، في ثلاث وعشرين سنة.

عن سعيد بن جبير قال: أُنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة إلى سماء الدنيا، كان بموقع النجوم، فكان الله سبحانه ينزله على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض. قال عز وجل ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[1] [الفرقان: ٣٢].

وقال ابن عباس: نزل القرآن كله جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، فكان الله تعالى إذا أراد أن يُحْدِثَ في الأرض شيئاً أنزله منه حتى جمعه[2]

قلت: نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى ما يسمى (بيت العزة) في السماء الدنيا، هذا القول موقوف على ابن عباس، ومن ذلك ما قال الشعبي: أن القرآن ابتدأ نزوله في ليلة القدر، فكلما أراد الله تعالى إنزال شيء منه تكلم سبحانه بما يريد إنزاله فيسمعه جبريل، ثم ينزل به على محمد ﷺ.

وكان ابتداء ذلك أيضاً بنزول أول سورة العلق على النبي ﷺ في الليلة نفسها.

واللوح المحفوظ فيه كل ما هو كائن وما سيكون إلى يوم القيامة، ومن ذلك القرآن الكريم، فالقرآن موجود في اللوح المحفوظ ثم ينزل به جبريل منجَّماً.

---

(١) المستدرك (٢/٥٣٠)، الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأخرجه البزار في الزوائد (٢٢٩٠)، والطبراني (١٢٣٨٢)، وقال ابن حجر في الفتح (٩/٤)، إسناده صحيح، وعزاه لابن أبي شيبة والبيهقي في دلائل النبوة.

(٢) ينظر: الطبري (٣/١٩٠)، وابن أبي حاتم (١/٣١٠) (١٦٥٠)، والحاكم (٢/٢٢٢)، والبيهقي في الدلائل (٧/١٣١).

ثم فخم سبحانه من شأن ليلة القدر، فقال: وما أعلمك يا رسولنا ما ليلة القدر والشرف، وفي هذا تعظيم لشأنها وتشويق إلى خبرها والاهتمام بشأنها، إنها ليلة جديرة أن يُحتفى فيها بألوان الطاعة والعبادة والدعاء، فهي ليلة تمت فيها النعمة بنزول القرآن، ودخل العرب التاريخ بحملهم الرسالة الخاتمة إلى العالم أجْمع.

فَضْلُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنْ ثَلاثَةِ وُجُوهٍ

الوجه الأول: أنها خير من الف شهر:

٣- ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ[1] خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾

بينت هذه السورة أن فضل ليلة القدر من ثلاثة وجوه، مجملها:

١- أنها خير من ألف شهر. ٢- نزول الملائكة وجبريل فيها.

٣ – أنها ليلة سلام وأمان حتى مطلع الفجر.

أي أن هذه الليلة المباركة، فضلُها على سائر الليالي أنها خير من فضل ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، أي أن العمل الصالح فيها يضاعف أجره بمقدار العمل في مدة تعادل ثلاثة وثمانين عاماً وأربعة أشهر، ليس فيها ليلة القدر، أي بما يزيد على متوسط أعمار الأمة.

والتحديد بألف شهر، يمكن أن يكون مقصوداً، ويمكن أن يكون المراد منه التكثير والمبالغة.

ومما ورد في هذا ما رواه مالك في الموطأ أنه سمع من يثق به من أهل العلم يقول: إن رسول الله ﷺ أُري أعمار الناس قبله، أو ماشاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته، ألاّ يبلُغوا من العمل مثلَ ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[2].

وعن مجاهد أن رجلاً من بني إسرائيل، لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك، فأنزل الله الآية.

---

(١) عدّ المكى والشامي ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ الثالثة، آية، وتركها الباقون.

(٢) الموطأ من رواية الزهري برقم (٨٨٩)، والبيهقي (٣٦٦٧).

وفي لفظ أنه كان يقوم الليل بالعبادة حتى يصبح، ويجاهد العدو بالنهار حتى يمسي، وفعل ذلك ألف شهر[(١)].

وقيل: إن النبي ﷺ ذكر أربعة من بني إسرائيل عبدوا الله ثمانين عاماً لم يَعْصَوْهُ طرفة عين، وهم: أيوب، وزكريا، وحزقيل بن العجوز، ويوشع بن نون، فعجب أصحاب النبي ﷺ من ذلك، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، عجبتْ أمتك من عبادة هؤلاء النفر، ثمانين سنة، لم يعصَوْهُ طرفة عين، فقد أنزل الله خيراً من ذلك، فقرأ عليه الآيات ثم قال: هذا أفضل مما عجبتَ أنت وأمتك منه[(٢)].

هذا: ومن فضل الله تعالى على هذه الأمة، أنْ مَنَّ عليها بهذه الليلة المباركة، وجعل أجر العمل الصالح فيها يزيد على عبادة ألف شهر، وهذا مما تحار فيه العقول، ففيه جبر لأعمار هذه الأمة، وتعويض لضعفها وَقِصَر أعمارها، وهي من خصائص هذه الأمة.

الْوَجْهُ الثَّانِي فِي تَفْضِيلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ: نُزُولُ الْمَلائِكَةِ فِيهَا

٤- ﴿ تَنَزَّلُ[(٣)] ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾

أي أنه يكثُر تنزّل الملائكة وجبريل عليه السلام فيها، بإذن ربهم، في كل أمر قضاه وقدّره من تلك السنة إلى السنة التي تليها، فقد ورد أن عدد الملائكة في هذه الليلة يكون أكثر من عدد الحصى[(٤)].

ولفظ ﴿مِن﴾ في الآية بمعنى اللام، أي تتنزل الملائكة من أجل كل أمرٍ قُضي إلى

---

(١) هذا حديث مرسل كما في تفسير الطبري (١٦٧/٣)، والبيهقي في السنن (٣٠٦/٤)، وأسباب النزول للواحدي (ص ٣٧٣)، وزاد المسير (١٩١/٩) وغيرهم.

(٢) الدر المنثور (٥٦٩/٨، ٥٣٥/١٥)، وابن كثير (٤٤٣/٨) مع عزوه لابن أبي حاتم.

(٣) قرأ البزي بتشديد التاء من ﴿ تَنَزَّلُ ﴾ بخلْفٍ عنه حال وصلها بما قبلها، ولا يكسر التنوين في (شهر) بل يجمع بين سكونه وسكون التاء، والباقون بعدم التشديد وهو الوجه الآخر للبزي.

(٤) المسند (٥١٩/٢) برقم (١٠٧٣٤)، والطيالسي (٢٦٦٨) عن أبي هريرة، قال محققو المسند: إسناده محتمل للتحسين.

العام القابل.

أو بمعنى الباء، أي تتنزل الملائكة بكل أمر قضاه الله فيها من موت وحياة ورزق إلخ.

ونزول الملائكة يكون للخير ويكون لعقاب مكذبي الرسل، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٨].

ونزول الملائكة في ليلة القدر بشارة للمؤمنين الذين صاموا شهر رمضان وقاموا ليلة القدر، لتنفيذ أمر الله تعالى بنزول الخير للمسلمين في هذه الليلة المباركة.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ أَنَّهَا لَيْلَةَ سَلَامٍ وَأَمَانٍ

٥- ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ[1] ٱلْفَجْرِ ﴾

أي أن ليلة القدر كلها ليلة أمن وسلام من شياطين الإنس والجن، فهي ليلة ليس فيها شر إلى مطلع الفجر، ولا يُقدّرُ فيها إلا الخير والسلامة للناس أجمعين، كما أن الملائكة تُسلّم فيها على المؤمنين.

فالسلام بمعنى السلامة من كل سوء، ويصح أن تكون بمعنى تسليم الملائكة على كل مؤمن، كما جاء في الأثر عن أنس ﷺ (إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كبكة من الملائكة، يصلّون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى)[2].

تم تفسير (سورة القدر) ولله الحمد والمنة

---

(١) قرأ الكسائي وخلف بكسر اللام من ﴿مَطْلَعِ﴾ وهو مصدر، أو اسم مكان، والباقون بالفتح، وللأزرق في اللام التغليظ والترقيق.

(٢) الدر المنثور (٦/٣٧٧) عن البيهقي.

تَفْسِيرُ سُورَةِ البينة (٩٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة البينة) هي السورة الثامنة والتسعون في ترتيب المصحف، وواحد بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الطلاق) وقبل (سورة الحشر)، وكان ذلك في آخر سنة ثلاث أو أول سنة أربع هجرية.

و(سورة البينة) تسع آيات، في العدد البصري والشامي، وثماني آيات في غيرهما، وهي أربع وتسعون كلمة، وثلاث مئة وتسعة وتسعون حرفاً، وهي سورة مدنية على الأرجح.

والمشهور أنها تُسمى (سورة البينة) وذُكر لها أسماء أخرى منها: ١- ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كما جاء في حديث أُبيّ، ٢- و(سورة لم يكن) ٣- و(سورة القيّمة).

٤- و(سورة أهل الكتاب)، ٥- و(سورة الانفكاك) فهذه ستة أسماء، أشهرها الأوّل.

قال الألوسي: وتسمى سورة القيامة، وسورة البلد، وسورة المنفكين، وسورة البرية، فهذه أربعة أسماء أخرى. ومجموعها عشرة أسماء.

موضوع السورة:

١ - تقرر (سورة البينة) أن بعثة النبي ﷺ كان لابد منها، لتحويل الكفار – من: اليهود والنصارى وعبدة الأوثان والأصنام - عما هم فيه من الضلال والكفر والاختلاف إلى التوحيد والهداية، ولكنهم بعد أن جاءهم خاتم الرسل ﷺ بأوصافه وعلاماته التي عرفوها في كتبهم، وبعد أن سطَع لهم الحق، وظهرت أنواره، كفروا به وكذّبوه حسداً له، وعناداً وتكبُّراً بعد طول انتظار لمجيئه ﷺ.

فهم لم يختلفوا في شأن محمد ﷺ عن جهل وغموض، وإنما اختلفوا فيه بعدما جاءهم العلم الواضح أنه رسول الله.

وفي هذا توبيخ لهم على إصرارهم على الضلال، بعدما تبين لهم الحق، وتعجّب من

تناقض أحوالهم، وفيه بيان أن كفرهم لم يكن لجهلهم بالحق وإنما لعنادهم وجحودهم وحسدهم للنبي ﷺ على ما آتاه الله من فضله، ولكي يسجل الله عليهم أنهم شرّ البرية، وأن المؤمنين هم خير البرية.

٢ - ثم تبين آيات السورة أن أصل هذا الدين واحد، وقواعده ليس فيها اختلاف، فقد أمر الله العباد كلهم في مختلف الشرائع بإخلاص العبادة له وحده، والتوجّه إليه سبحانه بجميع الطاعات من الأقوال والأفعال.

٣ - وذكرت آيات السورة أن الذين كفروا بخاتم النبيين بعدما جاءتهم البينة، هم شر الخليقة، وجزاؤهم نار جهنم يخلّدون فيها، وقد كذّبتْهم آيات السورة في دعواهم أن الله تعالى قد أوجب عليهم التمسك بما هم عليه من الباطل.

وبينت الآيات أن الذين آمنوا وتزوّدُوا بالعمل الصالح، هم خير الخليقة، وأنهم يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، جزاء طاعتهم وإخلاصهم لله تعالى.

يأمر الله رسوله أن يقرأ سورة البينة على أبي بن كعب:

١ - عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال لأُبيّ بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: وسَمَّاني لك؟ قال: نعم، فبكى**»[1].

٢ - وفي لفظ آخرعن معاذ بن أبىّ عن أبيه عن جدة عن أبىّ بن كعب ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**يا أباالمنذر، إني أُمرتُ أن أعرض عليك القرآن**» قال: بالله آمنت، وعلى يَدِكَ أسلمت، ومنك تعلّمت، قال: فردّ النبي ﷺ القول، فقال: يا رسول الله، أَذُكِرْتُ هناك؟ قال: «**نعم، باسمك ونسبك في الملأ الأعلى**» قال: فاقْرأْ إذاً يا رسول الله[2].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٨٠٩،٤٩٥٩)، ومسلم برقم (٤٩٦١،٧٩٩،١٢٢)، والمسند (١٣٠/٣) (١٤٠٣٢،١٢٣٢٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٧١٤٤)، والترمذي برقم (٣٧٩٢)، والسنن الكبرى (١١٦٢٧،٨١٨١،٧٩٤٥)، وابن سعد (٣٤٠/٢)، والضياء في المختارة برقم (١١٦٢)، قال محققه: إسناده صحيح، وقد أورد ابن كثير في تفسيره عدة طرق لهذا الحديث وكذا محققو المسند.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٢٠٠/١) وإسناده ضعيف.

٣ - وعن مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري قال: لما نزلت ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال جبريل: يا رسول الله، إن ربّك يأمرك أن تُقرِئَها أُبيّاً، فقال النبي ﷺ لأُبَيّ: «**إن جبريل أمرني أن أُقرئك هذه السورة؟**» قال أُبيّ: وقد ذُكِرْتُ ثَمّ يا رسول الله؟ قال: «نعم» فبكى أُبَيّ[1].

٤ - وجاء في بعض الروايات أنّ أُبيّ بن كعب قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**إني أمرت أن أقرأ عليك سورة كذا وكذا**» قلت: يا رسول الله، وقد ذُكرتُ هناك؟ قال: «نعم» فقال (عبد الرحمن بن أَبْزَى): فَفَرِحْتَ بذلك يا أبا المنذر؟ قال: وما يمنعني، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[4] [يونس: ٥٨].

٥ - وعن الربيع بن أنس قال: قرأت القرآن على أبى العالية، وقرأ أبو العالية على أبىّ بن كعب قال: وقال أُبىّ: قال لى رسول الله أُمرتُ أن أُقرئك القرآن، قلت: أَوَ ذُكِرتُ هناك؟ قال :نعم ،فبكى أُبىّ قال: فلا أدرى شوقاً أو خوفاً[5].

والمقصود من قراءة النبي ﷺ على أُبي، أن يتعلم منه أُبيّ صحة الأداء وحُسْن التلاوة، وضبط الألفاظ، لأن الله تعالى كان يُعِدّ أُبياً ليكون أَقْرأَ الأمة كما يتضح هذا المعنى جلياًفى الحديث الخامس فى قوله (أمرت أن أقرئك القرآن).

وحتى لا يستنكف صاحب الرتبة العالية أن يقرأ على من دونه، وفي ذلك تشريف لأُبيّ، ورفع لمنزلته.

* * *

---

(١) المسند (٣/٤٨٩) (١٦٠٠٠،١٦٠٠١)، والطبراني (٣٢٧/٢٢) (٨٢٣)، وابن أبي شيبة (١/٥٢٠)، قال محققو المسند: صحيح لغيره وهو عن أبي حبة البدري، وفيه ابن جدعان وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٤) المسند (١٢٣/٥) رقم (٢١١٣٦،٢١١٣٢،٢١١٣٧) وهو حديث صحيح، أخرجه الطيالسى (٥٤٥)، وأبو داود (٣٩٨١)، وابن أبى شيبة (٥٦٤/١٠)، والبخارى فى (خلق أفعال العباد) (٥٣٦)، والنسائى فى الكبرى (٧٩٩٨).

(٥) قال محققو المسند عند الحديث رقم (٢١١٣٦): وهذا إسناد حسن، وأخرجه الطبرانى فى الكبير (٥٣٩)، وفى الأوسط (٤٤٧).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

أَهْلُ الْكِتَابِ يُخْلِفُونَ وَعْدَهُم بِالإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ

١ - ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾

إن أهل الكتاب وعبدة الأصنام كانوا يقولون قبل بعثة النبي ﷺ: لا نترك ما نحن عليه من الدين حتى تأتينا البينة، أي علامات النبوة التي وعدنا الله بها في كُتبنا بالنسبة لخاتم الأنبياء، وكان أهل الكتاب قد نشَرُوا بين المشركين الوثنيين هذه العلامات فعرفُوها.

ومعنى: ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ تاركين ما هم عليه من الدين حتى يأتي نبي هذا الزمان بالحجة الواضحة.

أي: لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه حتى تأتيهم البينة وهي رسول الله ﷺ.

ثم أخبر سبحانه في الآية الرابعة أن أهل الكتاب تفرقوا بعدما جاءتهم البينة، أي بعد ماجاء هم رسول الله ﷺ.

والمعنى: لم يكن الذين كفروا من اليهود والنصارى وعَبَدَة الأوثان من العرب والعجم، تاركي ما هم عليه من الكفر - سواء أكان هذا الكفر إشراكاً بالله تعالى، أو عدم إيمان بالرسول ﷺ - حتى يبعث الله النبي الموعود به في التوراة والإنجيل، وكانوا مصدقين بمجيئه، منتظرين قدومه كي يؤمنوا به.

فلما بعثه الله تعالى، اختلفوا في شأنه، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر، وكانوا قبل بعثته ﷺ مجمعين على الإيمان به حين يأتي، ثم تفرقت كلمتهم بعد مجيئه.

قال تعالى:﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ أي قبل مجيء القرآن وصاحب الرسالة ﷺ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ ﴾ أي يقولون: نحن أول من سيفتح عليه بالإيمان به﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ

ﱡﭐ ﭐﭐﱡ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩] وقال سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١].

وقال ابن عطية: لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله وقدرته ونظره لهم، حتى يبعث إليهم رسولاً منذراً تقوم عليهم به الحجة، وتتم على من آمن منهم النعمة، فكأنه قال: ما كانوا لِيُتْرَكُوا سدى[1].

والمراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى، والمراد بالمشركين: عَبَدَة الأوثان والأصنام.

وقد وَصَفت الآية كلا الفريقين - وهم أهل الكتاب والمشركون الوثنيون - بالكفر، وذلك لأن كل من لم يؤمن بخاتم الرسل ﷺ فهو كافر.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ولا يسمع برسالة محمد ﷺ عربي ولا عجمي ثم لا يؤمن به إلا مات كافرا، واليهودي المؤمن برسالة موسى عليه السلام، يقال له: مؤمن في الفترة من بعثة موسى إلى بعثة عيسى عليهما السلام.

ولا يقال لمن وُجد في عهد عيسى من اليهود مؤمناً، لأن مدة رسالة موسى قد انتهت بمجيء عيسى عليهما السلام.

وكذلك الشأن، في كل من وُجد من سائر الملل والنحل من لدن بعثة محمد ﷺ إلى قيام الساعة، لأن الإيمان بموسى أو عيسى وغيرهما انتهى، وتم نسخه بالرسالة الخاتمة.

ومن أدرك محمداً ﷺ من أهل الكتاب فآمن به، فإنه يؤتى أجره مرتين كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

وفي حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثة يُؤْتَوْن أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه، فله أجران»**[2].

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/٥٠٦).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٥٤)، وصحيح البخاري (٩٧).

وكان كُلاً من أهل الكتاب والمشركين قبل مبعث النبي ﷺ يقول: لا ننفك عما نحن عليه من ديننا، ولا نتركه حتى يُبعث النبي المكتوب صفته في التوراة والإنجيل وهو محمد ﷺ وقول المشركين هذا مبنى على إخبار أهل الكتاب لهم ببعثة النبي ﷺ ولذلك كان كُفْرُ أهل الكتاب أشنع وأقبح من عبدة الأوثان، ولذا قُدم ذكرهم على المشركين.

وقد وصف الله اليهود بالشرك لقولهم ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

كما وصف النصارى بالكفر لقولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]. وقولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] ووصفهم بالشرك لقولهم ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

ومن أدرك محمداً ﷺ ولم يؤمن به، فهو كافر بلاشك ولا ريب، لأن الأنبياء السابقين أخذوا العهد والميثاق على أقوامهم إن أدركوا محمداً ﷺ أن يؤمنوا به، فمن أدركه منهم فلم يؤمن به فقد كفر بمحمد وعيسى وموسى، لأنه كذّب أقوالهم، كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت، ولم يؤمن بي إلا كان من أصحاب النار**»(١).

كما أن الله تعالى قد أخذ العهد والميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنوا به عند مجيئه ﷺ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ – ٨٣].

ولما كان النبي ﷺ قد بُعث قبل نزول سورة البينة بسنين، وهم مستمرون على كُفْرهم وشركهم، فقد وَصَفتْهُم الآية بالكفر، لأنهم كفروا بمحمد ﷺ، فأقامتْ الحجة عليهم بعدم إيمانهم به، وبينتْ أنهم مُتنصّلُون من الحق، مُصرّون على كفرهم وعنادهم، ولا

(١) صحيح مسلم برقم (١٥٣).

يزيدهم مرور السنين إلا كفراً.

ولذلك: فقد قَدّمت الآية أهل الكتاب على الوثنيين، لأن اليهود والنصارى هم الذين أخبروا المشركين عُبّاد الأصنام، بنبوة محمد ﷺ قبل مجيئه، حيث كان المشركون أميّين لا يعلمون شيئًا عن الرسل والشرائع، فكان الأجدر بأهل الكتاب أن يكونوا أول من آمن به.

الحُجّةُ القَطْعِيّةُ عَلَى صِحّةِ الرِّسَالَةِ الخَاتِمَةِ

٢، ٣- ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾

فَسّرتْ هذه الآية المراد بلفظ ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ في الآية السابقة فبينت أنها رسالة محمد ﷺ وقد أرسله الله تعالى إليهم ليقرأ على مسامعهم صُحُفاً من القرآن الكريم، منزهة عن الكفر والشرك والباطل.

وليس المراد أن النبي ﷺ يقرأ عليهم القرآن من صحف، وإنما المراد أنه يقرأ عليهم ما تضمنته الصحف، لأنه ﷺ كان أمياً، والتلاوة: إعادة الكلام دون زيادة ولا نقصان، سواء أكان ذلك مكتوباً أو محفوظاً، وكان النبي ﷺ يأمر أصحابه أن يكتبوا ما نزل من القرآن فيما هو متاح وقتها من وسائل الكتابة، كقطع الجلد والجريد ونحوها.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

ثم وصف الله تعالى هذه الصحف بأنها تُبيّن الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس فيها عوج ولا نقص، فهي كتب قيمة مستقيمة، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١].

وقد سُمي القرآن كُتبا، لأنه ثمرة الكتب السابقة، وهو مشتمل على ما فيها، ومهيمن عليها.

تَفَرُّقُ أَهْلِ الكِتَابِ بَعْدَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالزِّيَادَةِ فِي الكُفْرِ

٤- ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾

ذم سبحانه وتعالى من لم يؤمن من أهل الكتاب بمحمد ﷺ وهم اليهود والنصارى، فقد كفروا به بعد أن عرفوا أنه من العرب، فحسدوه، وكانوا من قَبْلُ متفقين على الإيمان به وعندما بُعث بالرسالة، اختلفوا في شأنه ﷺ وصاروا شيعاً وأحزاباً، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم، وكان تفرقهم عنه ﷺ بعد وضوح الحق وقيام الدليل، وبيان صدق أوصافه لديهم.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

فلم يزدهم الهدى إلا ضلالاً، مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد.

علم أهل الكتاب بصحة نبوة محمد ﷺ مِنْ كُتُبهم:

وخُص أهل الكتاب بالذكر، لأنهم كانوا يعلمون صحة نبوته ﷺ بما جاء في كتبهم من علامات لا ينكرها إلا حَسود جحود، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقد كانوا قبل بعثته، مجمعين على تصديقه ﷺ فلما بُعث من العرب جحدُوا وتفرقوا، فآمن به بعض، وكفر آخرون.

ومما تعلّل به أهل الكتاب في عدم الإيمان به حين دعاهم النبي ﷺ إليه أن قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

وقد تحدث القرآن الكريم عن أهل الكتاب الذين استقبلوا الإسلام بترحاب، ودخلوا فيه برغبة، بعدما رأوا في نبوة محمد ﷺ تحقيق ما وجدُوه في كتبهم من نعْته، فقال سبحانه مشيراً إلى الفريقين ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ [الرعد: ٣٦].

وبعد أن ذم القرآن أكثر أهل الكتاب في سورة آل عمران قال تعالى: ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وهم مَنْ آمنَ بمحمد ﷺ.

قال تعالى أيضاً في شأن مَنْ آمنَ به مِنْ أهل الكتاب:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧ – ١٠٩].

وقال عز وجل فيهم أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

أحزاب وفرق:

والآية تشير إلى افتراق أهل الكتاب واختلافهم شيعاً وأحزاباً:

وقد انقسم اليهود قبل بعثة عيسى ﷺ إلى طوائف خمس رئيسة، مع أن رسولهم واحد، وكتابهم واحد، ومن هذه الطوائف: الغلاة والمتطرفون، ومنهم مَنْ دون ذلك، وهي: الصدوقيون، والفريسيون، والآسيون، والغلاة، والسامريون، ولكل طائفة منهم توجُّه.

وتفرق النصارى أيضا على: يعقوبية، وملكانيّة، ونسطورية، وكل طائفة منها تحتها فرق وأحزاب.

وفي الحديث الذي ورد من عدة طرق: «**إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**»، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه أنا وأصحابي**»[1].

وقد جاء الإسلام فوجد الشمال الأفريقي وغرب آسيا مَلِيئَيْن بالنصارى، يحكُمهم الرومان، وَوَجد ما وراء ذلك من أرض الله الواسعة مليئاً بالمشركين حتى الهند والصين.

---

(١) من حديث أبي هريرة وأنس وسعد بن أبي وقاص ومعاوية، وعوف بن مالك، وأبي أمامة، وجابر بن عبد الله، وعمرو بن عوف المزني، وهو في سنن أبي داود برقم: (٤٥٩٦) والترمذي برقم: (٢٦٤٠) وقال: حسن صحيح، وابن حبان برقم (٦٢٤٧)، وابن ماجه (٣٩٩١)، والحاكم في المستدرك (١٢٨/١)، وصححه ووافقه الذهبي والمسند برقم (٨٣٩٦)، وقد حسن إسناده محققوه بإشراف د/ عبد الله التركي، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٠٣، ١٤٩٢، ٢٠٤)، وروايات الحديث فيها نقص وزيادة.

انتشار الإسلام:

وقد غيّر الإسلام وجه الدنيا، فعمّ جزيرة العرب ووادي النيل، والأناضول والشام واليمن وغيرها.

ودخل كثير من النصارى في الإسلام، كما دخل فيه المجوس والبوذيون، ووثنيون كثير.

والقرآن قائم إلى يوم الساعة، والإسلام ينتشر، لاسيما إذا وَجَد أُناسا يخلُفون محمداً وأبابكر وعمر وخالداً في نشره في الأفاق، ليعم أرجاء العالم، بدلاً من أن يُمثِّل خُمس العالم أو رُبعه.

أَصْلُ الشَّرَائِعِ وَاحِدٌ

٥- ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ[1] حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾

ثم بين سبحانه أن الأصل في جميع الشرائع واحد، وهو أن يقصد الإنسان بعبادته وجه الله تعالى، مخلصاً له النية، وأن يجتنب الشرك بأنواعه، وأن يقيم ما أُمر به من عبادات كالصلاة والزكاة.

وما أمر الله به عباده في جميع الشرائع على ألسنة جميع الرسل من التوحيد الخالص، وأداء الفرائض، وترك المحرمات، هو الملة المستقيمة، وهو الدين القيم في جميع الرسالات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقد ذكرت الآية: الأمر بإخلاص العقيدة من شوائب الرياء، والشرك والشقاق والنفاق في قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، قاصدين بجمع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، مائلين عما يخالف التوحيد، فهم (حنفاء) موحدين منقادين لله ورسوله.

---

(١) عد البصرى والشامى (له الدين) آية وتركها غيرهما.

ثم أتبعتْ ذلك بوجوب العمل بفرائض الإسلام، ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وبيّنت أن هذا هو الإسلام بمعناه العام، ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ وهو إخلاص الدين وإسلام الوجه لله تعالى وتوحيده، وهذا هو الإسلام الذي اختاره الله للناس جميعاً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وهذا التوحيد وأصول العبادات يمثّل مجموع الدين عند الله تعالى فهو ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي الدين القويم الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه طرق موصلة إلى الجحيم، كما جاء ذلك بالنسبة لأهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

والإسلام بهذا المعنى العام هو ما وصّى به يعقوب بنيه في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وهو ما دعا به إبراهيم وإسماعيل ربهما ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

والإسلام هو الاسم العلَم الذي اختاره الله للشريعة الأخيرة في الأرض، وهو دين الحنيفية، ودين الفطرة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [التوبة: ٣١].

والآية تشير إلى أن الله تعالى قد أمر أهل الكتاب من اليهود والنصارى، في التوراة والإنجيل أن يُخلصوا العبادة لله وحده ولكنهم حرّفوا وغيّروا وبدّلوا فأطاعوا أحبارهم ورهبانهم في تحليل ما حرم الله.

كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد أمر الله أهل الكتاب كذلك بإقام الصلاة على أكمل وجه، وإيتاء الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس، وخُصّت الصلاة والزكاة بالذكر، لأنهما في مقدمة العبادات.

ومَنْ كان مِنْ أهل الكتاب مصدقاً بنبيه وكتابه في زمانه قبل بعثة النبي محمد ﷺ فإنه لا يُعدّ كافراً، ومن لم يؤمن منهم بمحمد ﷺ بعد بعثته فإنه كافر بخاتم المرسلين ﷺ إذ الكفر أنواع:

ومنه الكفر بالله تعالى، والكفر برسول الله ﷺ والكفر باليوم الآخر، والكفر بركن من أركان الإيمان، ومن الكفر: إنكار أصل معلوم من الدين بالضرورة.

نَتِيجَةُ التَّفَرُّقِ: كُفْرٌ وَإِيمَانٌ. وَهَذَا عِقَابُ الْكُفْرِ

٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ[1]﴾

ثم ذكر سبحانه مصير كل من الأبرار والفجار في دار الجزاء والقرار، بعد أن بيّن تفرُّق أهل الكتاب والمشركين الوثنيين، بعد ما جاءتهم البينة، فكان منهم من آمن، ومنهم من كفر.

وقد استحق النار بكفره، من يقولون يوم القيامة ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١] فيقال لهم والنار تلفح وجوههم ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

والمعنى: إن الذين جحدوا توحيد الخالق، وكذّبوا رسله، وماتوا على ذلك، سواء من اليهود أو من النصارى، أو من المشركين عبدة الأصنام، لهم في جهنم مكان مُهيأً، يدخلون فيه ولا يخرجون منه أبداً، ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ وذلك لأنهم شر الخلق أجمعين، وقد جَلبُوا لأنفسهم هذا المصير.

قال سبحانه في شأنهم: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

وقال أيضا: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

فالدواب خير من الكافر، لأنها لم تعمل خيراً لتجازَى عليه، ولم تعمل شراً فتعاقب عليه.

والدواب مؤمنون بوحدانية الله تعالى، يسبحون بحمده ويسجدون له، فكانوا بهذا خيرا من الكفار، لأن الكافريعمل الشرّ ولا يسبح بحمد الله.

وَهَذَا ثَوَابُ الإِيمَانِ

٧، ٨- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ

---

(١) قرأ نافع وابن ذكوان (البريئة) والباقون ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ الموضعان معاً.

عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾

ثم بيّن جل شأنه مصير الفريق الآخر، وهم الذين صدقوا بالله ورسوله، فوقر الإيمان فى قلوبهم وأيقنوا به، فصدقته جوارحهم وعملوا الصالحات، إنهم خير المخلوقات، وهذا ثناء عليهم من الله تعالى، وبشارة لهم، بعكس الكافرين.

وقد أعد الله للمؤمنين في الآخرة ثواباً عظيماً، جزاء ما قدّموه في الدنيا من الإيمان والعمل الصالح، وهو حدائق وبساتين، وجنات نعيم، يقيمون فيها إقامة دائمة، يُمتّعُون بثمارها وأنهارها ونعيمها، وذلك لأن الله تعالى قد رضي عنهم فقبل أعمالهم وكافأهم عليها، وهم رضوا بما أعطاهم الله من نعيم. فالرضا على قسمين:

١ - رضى به، وهذا بالنسبة لمن يعمل الصالحات، فإنه يرضى بالجزاء على عمله ويحمد الله تعالى أن وفقه للرضا.

٢ - ورضى عنه، وهذا بالنسبة لمن كلّفه بالعمل، وهو الله تعالى، وقد رضي الله عنهم بما قدموه لأنفسهم من الإيمان والعمل الصالح.

وهذا النعيم الذي أعده الله في الجنة، إنما هو لمن خشي لقاء الله، فأخلص في عقيدته، وأدّى فرائضه، وترك نواهيه، كما قال تعالى: ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وقال أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ [الملك: ١٢].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما كانت هيعة استوى عليه ...، ألا أخبركم بشر البرية؟ قالوا: بلى، قال: الذي يُسأل بالله، ولا يُعطي به»**[1].

تم تفسير (سورة البينة) ولله الحمد والمنة

---

(١) المسند (٢/٣٩٦) برقم (٩١٤٢)، وهو حديث صحيح كما قال محققوه، وعن أبي هريرة في المسند أيضاً (٩٧٢٣، ١٠٧٦٦)، وينظر: حديث ابن عباس (٢١١٦) بإسناد صحيح.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ (٩٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الزلزلة) هي السورة التاسعة والتسعون في ترتيب المصحف، والرابعة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة النساء) وقبل (سورة الحديد).

وعددها ثماني آيات في العدد الكوفي والمدني الأول، وتسع آيات عند غيرهما. وهي خمس وثلاثون كلمة، ومئة وتسعة وأربعون حرفاً.

وتشتهر بأنها (سورة الزلزلة) وورد لها الأسماء التالية:

(سورة إذا زلزلت) في كتب السنة و(سورة الزلزال) في بعض كتب التفسير و(سورة زلزلت) في مصحف كوفي قديم، وعند السيوطي وابن عطية، فهذه أربعة أسماء أشهرها الأول. وهي من السور المختلف في أنها مكية أو مدنية، ولكنها تُشْبه القرآن المكي.

في فضل السورة:

١- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله: قال: (اقرأ ثلاثاً من ذوات الراء) فقال الرجل: كَبِر سني، واشتد قلبي، وغلُظ لساني، قال: (اقرأ ثلاثاً من ذوات حم) فقال مثل مقالته الأولى، فقال: (اقرأ ثلاثاً من المسبحات) فقال مثل مقالته الأولى وقال: ولكن أَقْرِئني يا رسول الله سورة جامعة، فأقْرأه ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى فرغ منها، قال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أريد غيرها، ـ وفي لفظ ـ لا أزيد عليها، ثم أدبر فقال ﷺ: «**أفلح الرُّوَيجِل، أفلح الرُّوَيجِل**»[1].

---

(١) المسند (١٦٩/٢) (٦٥٧٥) بإسناد حسن (محققوه)، وأبوداود برقم (١٣٩٩)، والنسائي في الكبرى برقم (٨٠٢٧،١٠٤٨٤،١٠٥٥٢)، وفي السنن (٢١٢/٧)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، المستدرك (٥٣٢/٢)، وهو عند البيهقي في الشعب برقم (٢٢٨٢)، والطبراني في الكبير (١٥٨)، وقد ضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (١٣٠٠).

٢- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: (هل تزوجت يا فلان؟) قال: لا، والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: (أليس معك ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال: بلى، قال: (أليس معك ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ قال: بلى، قال: (ربع القرآن) قال: (أليس معك ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: بلى، قال (ربع القرآن) قال: أليس معك ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ قال: بلى، قال: (ربع القرآن) تزوج تزوج)(١).

٣- عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن هذه السورة نزلت وأبوبكر قاعد، فبكى، فقال له النبي ﷺ ما يبكيك يا أبابكر؟ فقال: أبكاني هذه السورة، فقال ﷺ: «**لو أنكم لا تخطئون ولا تذنبون، لخلق الله أمة بعدكم يخطئون ويذنبون ويستغفرون فيغفر لهم**»(٢).

أغراض السورة:

هذه السورة تتحدث عن الزلزال العظيم الذي يكون بين يدي الساعة، حيث يَنْدكّ كلُّ صرح، وينهار كلُّ جبل، وتتبدل الأرض غير الأرض والسموات.

وحين يحدث زلزال في هذه الدنيا في بقعة من العالم لمدة ثانية واحدة، أو جزء من الثانية، فإننا نشاهد الدمار والخراب الذي لا نظير له من جراء هذا الزلزال.

وقد يستمر الزلزال بضع دقائق فيترك العواصم أنقاضاً، والقرى تراباً، وإذا اقترن الزلزال بثوران البراكين من باطن الأرض تَضاعف العذاب، وعمَّ الخراب والدمار، فأتى على الحرث والنسل.

وقد يكون هذا عقوبة من الله تعالى لسبب من الأسباب، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

والعذاب الذي من تحت الأرجل يكون بالرجفة والخسف والزلازل والبراكين.

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن، برقم (٢٨٩٥)، وأحمد في المسند (١٣٣٠٩) بإسناد ضعيف لضعف سلمة بن وزدان، وأخرجه البيهقي في الشعب (٢٥١٥)، وأبو يعلى (٤١١٨).

(٢) تفسير الطبري (٥٦٨/٢٤)، والبيهقي (٧١٠٣)، وابن أبي الدنيا (٨٦)، والطبراني (٨٧)، قطعة من الجزء (١٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤١/٧): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

قال سبحانه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لزلازل الدنيا، فما بالنا بالزلزال العظيم الهائل الذي يعم أرجاء الأرض عند قيام الساعة، حيث يفزع الناس فزعاً شديداً، فتَذْهل الأم عن ولدها الذي أرضعتْه، وتُسقِط ما في بطنها من شدة الخوف والفزع، وترى الناس في ذهول وفقدان للرشد والصواب، كأنهم سكارى، وما هم بسكارى بشرب خمر أو مسكر، ولكنهم خافوا عذاب الله الذي ظهرت أماراته وبوداره.

وسورة الزلزلة مع أنها مدنية عند الجمهور، إلا أنها تتناول هذا الجانب المكي غالباً، وهو الحديث عن القيامة ومقدماتها وأهوالها، ومآل الناس في الآخرة.

فتُبيّن آيات السورة أنه قبل أن تقوم الساعة، يقع زلزال كبير يُدمّر قارّات الدنيا كلها، فتنفُضُ الأرض ما في جوفها، وتُخْرِج ما يُثقلها من أجساد ومعادن.

وفي لمحة خاطفة، ترى الخلق في أرض المحشر، ليواجهوا حسابهم وجزاءهم على ما قدمت أيديهم.

فالسورة تتحدث عمّا يصاحب قيام الساعة من تغيير فى الكون، وخروج الناس من قبورهم ليواجهوا أعمالهم التى كانت فى الدنيا ، حيث تشهد الأرض بما اقترفتْه أيدى الناس وهم على ظهرها، وبعد الحساب يكون الجزاء من جنس العمل، فيحصد العبد ما زرعه فى دنياه، ويَجْنى ثمرته فى النعيم المقيم، أو العذاب الأليم.

نسأل الله العفو والعافية والسلامة فى الدنيا والأخرة، إنه سميع مجيب.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الزِّلْزَالُ الْكَبِيرُ

١- ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ①﴾

هذه الجبال الرواسي، وهذه الأرض الثابتة، ترجُف وتضطرب وتهتز بشدة وتتحرك بقوة يوم لقاء الله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] فالأرض ترجف والجبال تتفتَّت: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ④ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٤- ٥] وتُدَكُّ الأرض دَكًّا: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١] وتكون الجبال كالصوف المنفوش، وتُنسفُ نسفاً و﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾.

وهكذا تُزلزل الأرض وترجُف عند قيام الساعة وتُرج رجّاً شديداً، ولا تسكُن حتى تُلقي ما على ظهرها من جبال وشجر وبناء، وتُخرج ما في جوفها من أموات ودفائن، ويكون هذا إيذانا بقيام الساعة، فتبدّل الأرض غير الأرض والسموات.

إِخْرَاجُ الأَرْضِ مَا فِي جَوْفِهَا عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

٢- ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ②﴾

تتحرك الأرض وتضطرب من شدة صوت إسرافيل، فتتكشف عن أجساد وعظام ورفات وذرّات، وتُخرِج ما في بطنها من الأموات فتُلْقيه على ظهرها ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

والأرض حينئذ تكون منفذِّة لأمر ربها ومستجيبة له، فلا يبقى فيها بناء ولا قصر، ولا جبل ولا مرتفَع ولا منخفَض إلا وسُوّيَ بالأرض: كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ⑩⑤ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ⑩⑥ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ -١٠٧].

تَطْرَحُ الأرض فَلْذة كبدها من الكنوز والموتى، وتتخلى عما كان في جوفها، ليلْقَى العبد ربه وحيداً فريداً كما خلقه أول مرة، تاركاً وراءه كل منصب ومال وجاه وولد:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

لقد كانت الأرض تُوارِي الإنسان في الدنيا، وكانت له كفاتاً، أحياءً وأمواتاً، وكانت له فراشاً ومهاداً، وإذا بها عند النفخ في الصور تَلْفِظُه وتتخلّى عنه ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤ ـ ٥].

في صحيح مسلم وغيره بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قَتلْتُ، ويجيء القاطع (قاطع الرحم) فيقول: في هذا قَطعتُ رَحِمِي، ويجيء السارق فيقول في هذا (يعني بسبب هذا) قُطعتْ يدي، ثم يدعَونه فلا يأخذون منه شيئاً**»[1].

والمعنى أن الأرض تُخْرِج ما في جوفها من القطع المدفونة فيها، ومن الموتى، ويتعرف الإنسان على ما حدث منه فوقها.

وقد شُبّه الإنسان في الحديث السابق: بالاسطوان: وهي السارية أو العمود، لشَبَهِه به في عظمته، وكثْرته.

والأفلاذ: جمع فلذة وهي القطعة المستطيلة، وخُص الكبد في الحديث بالذكر، لأنه مستور في الجوف، واستعير القيء للإخراج.

والإنسان إذا كان في بطن الأرض فهو ثِقَل لها، وإذا كان فوقها فهو ثقيل عليها، ومنه سميت الإنس والجن بالثقلين، لأن الأرض تثقُل بهم أحياءً وأمواتاً.

تَعَجُّبُ الإِنْسَانِ مِنْ تَغْيِيرِ حَالِ الأَرْضِ

٣- ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝﴾

يتعجب الإنسان مما حدث للأرض من رجفة واضطراب، وقد كانت ثابتة مستقرة، فما الذي دهاها وجعلها تُخرج ما في جوفها وتتزلزل وتتحرك، وهل المراد بالإنسان ما يعم المسلم والكافر؟ على أساس أن الزلزلة من علامات الساعة الكبرى؟ فيسأل

(١) صحيح مسلم برقم (١٠١٣)، والترمذي (٢٢٠٨).

بعضهم بعضاً عن ذلك، والظاهر أن الأمر كذلك.

وقيل: إن المراد بالإنسان خصوص الكافر، فهو الذي تأخذه الدهشة والذعر، أما المؤمن فإنه يعلم أن ذلك جُزءاً من عقيدته، وهو يقول حين يرى ذلك - كما أخبر رب العالمين - ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢] فهو يَطْمَئِن لهذا الوعد الإلهي.

أما الكافر فإنه يدعو على نفسه بالويل والثبور ويقول ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢] وذلك بعد النفخ في الصور وخروج الموتى من القبور، حين قيام الناس لرب العالمين.

شَهَادَةُ الأَرْضِ عَلَى الإِنْسَانِ

٤، ٥- ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾

يخبر الله عز وجل أن الأرض تنطق يوم القيامة وتشهد على الإنسان من جملة الشهود الذين يشهدون بما عمله على ظهرها من خير أو شر، فتشكر المطيع وتذم العاصي، وتشهد للأول، وتشهد على الثاني.

والظاهر أن هذا الحديث من الأرض كلام حقيقي، إذ أن الأوضاع تتغير في ذلك اليوم، فالله تعالى يأمر الأرض ويأذن لها، فتشهد وتنطق بما عُمل عليها من طاعة ومعصية، وتشهد على من فعل ذلك.

والمقصود أن كل إنسان في هذا اليوم سيتبين له جزاء عمله، وما أعده الله له، فيجازَى به.

وكما أن الله تعالى يُنطِق الجلود والجوارح لتشهد على الإنسان يوم القيامة ـ حينما يتنصّل من ذنبه، ولا يقبل شاهداً إلا من نفسه ـ كذلك فإن الله تعالى يُنْطِق الأرض لتشهد بما عُمل عليها.

ومصداق ذلك من السنة، ما جاء في حديث المؤذِّن الذي أخرجه ابن خزيمة في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يسمع صوته شجر ولا مدر ولا حجر ولا جن ولا إنس إلا شهد له»[1].

---

(١) وانظر صحيح البخاري (٦٠٩، ٣٢٩٦، ٧٥٤٨).

وأخبر النبي ﷺ أن الحجر ينطق ويقول: (**يا مسلم هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله**)[١].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عُمِل على ظهرها تقول، عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا، قال: فهذه أخبارها**»[٢].

ولما كانت الأرض تشهد للإنسان، فإنه ينبغي له أن يُكثر من تعدّد البقاع التي تشهد له، فيعدد أماكن الصلاة، ولا يوطّن نفسه في مكان واحد، وإذا دخل بلداً فليبدأ فيها بالصلاة لتشهد له كما كان النبي ﷺ يفعل، وهكذا جميع الطاعات، وليحاول الإنسان ما استطاع إلى ذلك سبيلا ألاّ يقترف ذنباً وألاّ يعدد أماكن المعصية حتى لا تشهد الأرض عليه يوم القيامة.

والله سبحانه هو الذي أَذِنَ للأرض أن تتكلم وتُخبر عن حالها وما جرى عليها، وهو سبحانه الذي أمرها بذلك، وهي سميعة مجيبة منقادة لأمر الله عز وجل، وحق لها أن تسمع وتجيب ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣ - ٥].

أي استمعت وانقادت لأمر الله تعالى وحُق لها ذلك.

مِنْ سَاحَةِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ إِلَى الْمَصِيرِ الْمَحْتُومِ

٦ - ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ[٣] ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا[٤] لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾

تتشقق الأرض عن الموتى، ويخرجون من قبورهم سراعاً، مادّين أعناقهم، مُقْبلين نحو صوت الداعي (إسرافيل) ناظرين إليه بأبصارهم، وهم ينبعثون من شتى أرجاء

---

(١) من حديث أبي هريرة في المسند (٩٣٩٨)، وصحيح البخاري (٢٩٢٦)، وصحيح مسلم (٢٩٢٢).

(٢) المسند (٢/٣٧٤) (٨٨٦٧) بإسناد ضعيف لأن يحى بن أبي سليمان متكلم فيه (محققوه)، وسنن الترمذي برقم (٢٣٥٣،٢٤٢٩) وقال: حسن صحيح غريب، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٢٩)، وابن حبان (٧٣٦٠)، والحاكم (٢/٢٥٦)، والبيهقي في الشعب (٧٢٩٨)، وفي سنده مقال، وله شاهد، انظر: ضعيف سنن الترمذي (٤٢٨،٦٤٤).

(٣) قرأ حمزة والكسائي ورويس وخلف بإشمام الصاد صوت الزاء من ﴿يَصْدُرُ﴾ والباقون بالصاد الخالصة.

(٤) لم يعدّ الكوفى والمدني الأول لفظ ﴿أَشْتَاتًا﴾ آية، وعدها غيرهما.

الأرض كأنهم جراد منتشر، إنهم ذاهبون إلى حيث تُعرض عليهم أعمالهم، ليواجهوها ويواجهوا الجزاء عليها.

ومواجهة الإنسان لعمله السيء مواجهة مُرّة وقاسية، فهو يحاول الهرب منها ما استطاع، ويشيح بوجهه عنها، ولاسيما وهو على رؤوس الأشهاد، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

والآية تصور الناس وهم يصدرون عن موقف الحساب بعد العرض أشتاتاً، وينصرفون منه متفرقين ذات اليمين وذات الشمال، بين شقي ذاهب إلى النار - نعوذ بالله من النار - وسعيد ذاهب إلى الجنة - نسأل الله من فضله - لِيُرَوْا جزاء أعمالهم التي قدّموها في دنياهم من خير وشر، فالحسنات التي عملوها في الدنيا ورّثتهم الجنة، والسيئآت وَرَّثَتْ مُرْتكبيها النار، وقد رأوا ذلك في صحف أعمالهم، وتم فصل القضاء بينهم في ساحة العدل الإلهية.

الْعَدَالَةُ الْمُطْلَقَةُ

٧، ٨- ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ[1] ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾

من يعمل وزن الذرة فما فوقها من الخير أو الشر، فإنه يجزى عليها يوم القيامة، وفي هذا ترغيب في فعل الخير ولو كان قليلاً، وترهيب من فعل الشر ولو كان حقيراً، فالذرة شيء لا يذكر، ولا يرى إلا بالمجهر:

في أسباب النزول أن هذه الآية نزلت في رجلين:

أحدهما: لا يبالي بارتكاب صغائر الذنوب.

وثانيهما: يحب أن يتصدق، فلا يجد إلا اليسير، فيستحي أن يتصدق[2].

---

(١) قرأ هشام بإسكان الهاء من ﴿يَرَهُۥ﴾ فيهما معا وابن وردان بالإسكان والاختلاس، ويعقوب بالاختلاس والإشباع، والباقون بالإشباع.

(٢) ينظر: الواحدي (ص ٣٧٣)، وزاد المسير (٩/٢٠٥)، والبغوي (٤/٥١٦) وغيرهم.

١- قال الربيع بن خيثم: مر رجل بالحسن، وهو يقرأ هذه السورة، فلما بلغ هذه الآية قال: حسبي، قد انتهت الموعظة[١].

٢- وأخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (ليس مؤمن ولا كافر عمل خيراً ولا شراً في الدنيا، إلا أتاه الله إياه، فأما المؤمن فيرى حسناته وسيئاته، فَيَغْفِرُ له سيئاته، وأما الكافر فَيَرُدُّ حسناتِه، ويُعَذِّبه بسيئاته)[٢].

٣- وأعطى سعد بن أبي وقاص ﷺ سائلاً ثمرتين، فقبض السائل يده، فقال له سعد: إن الله تعالى قبل منا مثاقيل الذر[٣].

٤- وقد وصف النبي ﷺ هذه الآية بأنها «الآية الفاذة الجامعة» حينما سئل عن زكاة الحمُر، فقال: ما أُنزل عليّ فيها إلا هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٤].

٥- وقدم رجل على النبي ﷺ فقرأ عليه هذه الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ فقال الرجل: حسبي - كافيني - أن لا أسمع غيرها[٥].

وكان المسلمون يرون أنهم لا يُؤجَرُون على الشيء القليل، كالتمرة والكسرة، ويقولون: إنما نؤجر على ما نُعطي ونحن نحبه.

وكان آخرون يرون أنهم لا يُلامون على اليسير من الذنب، كما يقال: هذه كذبة بيضاء، وكمن يَسْتخِف بالنظرة، أو الهمْزة أو اللمزة أو السخرية ونحو ذلك، ويقولون: إنما توعّد الله بالنار أهل الكبائر، فرغّب الله سبحانه في القليل من الخير أن يعملوه،

---

(١) عبد الرزاق (٣٨٨/٢)، وابن المبارك (٨٢).

(٢) تفسير الطبري (٥٦٣/٢٤)، والبيهقي في البعث (٥٩).

(٣) تفسير ابن عطية (٥١١/٥).

(٤) من حديث أبي هريرة في البخاري (٢٣٧١،٩٨٧، ٤٩٦٢)، ومسلم (١٨٣١،٩٨٧)، ومالك (٤٤٤/٢)، والمسند (٧٥٦٣، ٨٩٧٩)، والنسائي (٣٥٦٤)، وابن ماجة (٢٧٨٨).

(٥) المسند (٢٠٥٩٣، ٢٠٥٩٥) عن صعصعة بن معاوية بإسناد صحيح ورجاله ثقات، والحاكم (٦١٣/٣)، والطبراني في الكبير (٧٤١١)، والنسائي في الكبرى (١١٦٩٤).

وحذّرهم من عمل اليسير من الشر.

معنى الذرة:

أما معنى الذرة فقد قيل قديماً: إن الذرة هي البعوضة، أو النملة، أو ذرة تراب، أو الهباءة التي تُرى في شعاع الشمس حين يدخل من النافذة.

وأثبت العلم الحديث أن الذرة أصغر من ذلك بكثير، فالهباءة: ترى بالعين المجردة، أما الذَّرة فلا تُرى ولا بالمجاهر في المعامل، بل إن الذرة تتفتت ولها أجزاء.

والقرآن الكريم يحتوي على هذه المعاني كلها، ويقرر أن هناك ما هو أصغر من الذرة، فقال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

وقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

ولاحدّ لهذا الأصغر بأي نسبة كانت، فهو شاملٌ لتفجير الذَّرة وأجزائها مهما صغُرت تلك الأجزاء فعمَلُ المرء مهما قل أو كثُر، مدوّن في صحيفته وثابت في ميزانه.

التصدق بالقليل:

فَقِهَ هذا المعنى عائشة رضي الله عنها فقد ورد أنها تصدقت بعنبة وقالت: كم فيها من ذرة؟ وكان السائل قد استصغرها:

١ - جاء من عدة طرق أن سائلاً أتى عائشة رضي الله عنها، وعندها سلّة من عنب، فأخذت حبة من عنب فأعطته، فقيل لها في ذلك، فقالت: هذه أثقل من ذرّ كثير، ثم قرأت الآية[1].

٢ - وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة رضي الله عنها أن سائلاً أتاها فقالت لجاريتها: أطعميه، فوجدت تمرة، فقالت: أعطيها إياه، فإن فيها مثاقيل ذر إن تُقُبّلت[2].

---

(١) أخرجه مالك (٢/٩٩٧)، وابن سعد (٨/٤٩٠)، والبيهقي (٣٤٦٦) وعبد بن حميد .

(٢) البيهقي (٣٤٦٥).

٣ - وأخرج ابن أبي شيبة أن سائلاً سأل عبد الرحمن بن عوف وبين يديه عنب، فناوله حبة، فكأنهم أنكروا ذلك عليه، فقال: في هذه مثاقيل ذر كثيرة[1].

٤ - وهكذا فإن سعد بن مالك أتاه سائل وبين يديه طبق عليه تمر، فأعطاه تمرة، فقبض السائل يده، فقال السائل: ويحك، يقبل الله منا مثقال الذرة والخردلة[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: ١٦].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «يا نساء المسلمات، لا تحتقرنَّ جارة لجارتها ولو فِرسَنِ شاة»[3].

وحث عليه الصلاة والسلام على بذل القليل من العمل ولا يستصغره، فإن المنع والعدم أصغر منه، فلا يتم التصدق بالتمرة ونحوها، وفي الحديث عن عدي بن حاتم **ﷺ أن النبي ﷺ قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[4].**

وتبسمك في وجه أخيك صدقة، ومساعدته في حمل متاعه، أو توصيله إلى مكانه في سيارتك، أو الوقوف له حتى يجتاز الطريق، كل هذا ونحوه خير، لا يُحتقر فعله.

محقرات الذنوب:

كما أن المرء لا يستصغر الذنب مهما قل، ولا يستمرئه ويتعوده، فإن هذا يؤدي به إلى المهالك.

---

(١) ابن أبي شيبة (٣/١١٣).

(٢) الدر المنثور (١٥/٥٩٤).

(٣) البخاري (٢٥٦٦،٦٠١٧)، ومسلم (١٠٣٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) صحيح البخاري برقم (١٠١٦،٦٥٤٠) من حديث عدي بن حاتم، وصحيح مسلم (١٠١٦).

عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**»[(١)].

قال ابن مسعود: المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذُباب مَرَّ على أنفه فقال به هكذا (يعني أشار إليها بيده) فطارت، كأنها شيء هين عليه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عائشة، إيّاكِ ومحقرات الأعمال، فإن لها من الله طالباً**»[(٢)] ومعنى: (فإن لها من الله طالباً) أي لها ملَك يسألك من قِبَل الله تعالى عنها، كالملكين اللذين يسألان العبد في قبره.

وكم من شخص أصرّ على صغيرة فألِفَها وهانت عليه، ولم يفكر في عظمة من عصاه، فأورثته ذلاً، وكانت سبباً في سوء خاتمته - والعياذ بالله -.

وعن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مَثَلُ محقرات الذنوب، كقوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خُبزَتَهُم، وإن محقرات الذنوب متى يُؤخَذُ بها صاحبُها تُهلِكه**»[(٣)]. قال أنس بن مالك ﷺ: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعهدها في عهد رسول الله ﷺ من الموبقات)[(٤)].

---

(١) المسند (٣٨١٨) من حديث طويل، وهو حسن لغيره لجهالة حال (عبد ربه) كما قال محققوه، وأخرجه الطيالسي (٤٠٠)، والبيهقي في الشعب (٢٨٥)، والطبراني في الكبير (١٠٥٠٠)، والأوسط (٢٥٥٠).

(٢) سنن ابن ماجة (٤٢٤٣)، قال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات. وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٣٤٢١)، والسلسلة الصحيحة (٥١٣)، وأخرجه ابن حبان في صحيح (٥٥٦٨) الإحسان، وقال محققه: إسناده صحيح على شرط البخاري، رجاله رجال الشيخين، وأخرجه أحمد في المسند (٧٠/٦) برقم (٢٤٤١٥، ٢٥١٧٧) بإسناد قوي، والدارمي في سننه (٣٩٥/١) برقم (٢٧٢٦).

(٣) المسند (٢٢٨٠٨) قال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين، وأخرجه الطبراني في الكبير (٥٨٧٢)، والأوسط (٧٣١٩)، والصغير (٩٠٤)، والبيهقي في الشعب (٧٢٦٧)، والبغوي في شرح السنة (٤٢٠٣)، وصححه ابن حبان (٥٥٦٨).

(٤) أورده أحمد في المسند عن عبادة بن قرط برقم (٢٠٧٥١، ٢٠٧٥٢) بإسناد صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه الطيالسي (١٣٥٣).

وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنب والمعاصي، ولا تعبأ إذا فاتها الخير كله. وفي الآية التفات للتحذير والتنبيه، والإنسان لم يزل حياً قبل أن يموت، فهي توحي إليه بالعمل الصالح وترك السيء:

فمن يعمل الآن في الدنيا مثقال ذرة من الخير يره في الآخرة، ومن يعمل الآن في الدنيا مثقال ذرة من الشر يجده في الآخرة، وهذا بالنسبة للمؤمن، أما الكافر فالمقصود من الآية بالنسبة له عقابه في الآخرة على عمل الشر، أما عمل الخير فهو غير مأجور عليه.

جزاء الكافر في الدنيا:

والله سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة، والكافر ممنوع من دخول الجنة، وقد تكون له في الدنيا أعمالاً حسنة، من حُسْن خلُق وبرٍّ وصدقة وغير ذلك، فأين الجزاء على هذه الحسنات؟

إنه ينال جزاءه عليها في الدنيا، قد يكون ذلك في صورة وفرة المال، أو إعطاء المنصب والجاه، أو زيادة الأولاد، أو حُسن صحة، وليس له في الآخرة نصيب من الأجر، وهكذا، فالدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

كان عبد الله بن جُدعان يُطعم الحجيج ويكسوهم ويصل الرحم ويطعم المساكين فسألت عائشة رسول الله ﷺ هل ينفعه ذلك في الآخرة، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا، يا عائشة إنه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»[1] فهو لم يكن مؤمناً والكافر لا يقبل منه عمل.

قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

---

(١) المسند (٢٤٦٢١) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وقد أخرجه مسلم (٣٦٥،٢١٤)، وابن حبان (٣٣١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٣٥٧).

من جزاء المؤمن في الدنيا:

وقد يكون ما يصيب المسلم مما يكره من الشر، تعجيلاً له بالعقوبة في الدنيا على بعض ما يقترف من معاصي، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

ورد أن أبا بكر الصديق ﷺ كان يأكل مع النبي ﷺ ونزلت الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ فرفع أبوبكر يده من الطعام وقال: إني لراءٍ ما عملتُ من مثقال ذرة من شر؟ فقال: (يا أبا بكر، أرأيت ما نكْرَهُ في الدنيا من مثاقيل ذر الشر، ويُدَّخَرُ لك مثاقيل ذر الخير حتى تُوَفَّاه يوم القيامة)[1].

فلا ينبغي للعبد أن يحتقر شيئاً من المعاصي فيجرؤ على ارتكابها، ولا يستصغر شيئاً من الطاعات فيزْهد فيها ويُحْرَم أجرها.

وينبغي عليه أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب، ويزن أعماله قبل أن توزن عليه، ويندم قبل أن يأتي وقت لا ينفع فيه الندم، ويتمنى لو أنه كان قد زاد ركعة أو تسبيحة أو تحميدة أو خطوة إلى بيت الله في ظلم الليل.. الخ.

قال كعب الأحبار: لقد أنزل على محمد آيتان أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

فالسورة جديرة بالتدبر والاهتمام، وفهم معانيها، والاعتبار بما فيها من الأخبار والمواعظ التي تهز الضمائر الحية، فحريّ بكل مسلم أن يتعلمها ويعلّمها أهله وأولاده وإخوانه ويعملوا بما فيها من العلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم تفسير (**سورة الزلزلة**) ولله الحمد والمنة

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/٥١٣، ٢٤/٥٦٤)، والطبراني (٨٤٠٧)، والبيهقي (٩٨٠٨)، وابن أبي حاتم وهو حديث مرسل، كما في علل الدار قطني (١/٢٢٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ العاديات (١٠٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة العاديات) هي السورة تمام المئة في ترتيب المصحف، وفيها يبدأ ربع الحزب الأخير في المصحف، من قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾.

وكان الأوْلى أن يبدأ هذا الربع من أول سورة القارعة، أو من أول سورة العاديات، لاسيما وأن تحزيب المصحف قد وُضع بعد القرن الثالث فهو ليس توقيفياً[١].

وهي السورة الرابعة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة العصر) وقبل (سورة الكوثر).

وعدد آياتها إحدى عشرة آية، وهي أربعون كلمة، ومئة وثلاثة وستون حرفاً.

وتسمى (سورة العاديات) بالواو، وبدونها.

وهي من السور المختلف فيها، بين كونها مكية أو مدنية.

وما جاء في سبب النزول عن قتادة يرجح كونها مدنية، وهو أن النبي ﷺ بعث سرية فيها خيل إلى بني كنانة، وأمّر عليها (المنذر بن عمرو الأنصاري) فتأخرت شهراً، فقال المنافقون، قُتلوا جميعاً، فأخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ الآيات[٢] .

وفيها إعلام بأن السرية لم يُقتل منها أحد، وأن الخيل قد فعلت جميع ما ورد في وصفها في الآيات الخمس الأول من السورة.

---

(١) ينظر في هذا كتابي: فن الترتيل وعلومه، الجزء الأول، وكتابي: تيسير علم التجويد الطبعة الثانية والثالثة.

(٢) الواحدي في أسباب النزول ورواه الحاكم، وفي سنده حفص بن جميع، وهو ضعيف، كما في مجمع الزوائد (١٤٢/٧) وهو في مسند البزار (٢٢٩١) كشف الأستار، وفي تفسير القرطبي (١٥٥/٢٠) وعند عبدالرزاق (٣٩٠/٢) والطبري (٥٧١/٢٤).

وفيها تنويه بشأن الخيل في الجهاد وإرسال السرايا لرد الاعتداء وإزالة العقبات من طريق الدعوة، وظهور النفاق، كان بالمدينة.

٢ - وآيات سور العاديات الأحد عشر، منها ثلاث آيات في أولها، تَحْمِلُ قَسَماً بأدوات الجهاد التي تختلف من وقت لآخر، وكان الخيل وقت التنزيل أعظم ما يُستخدم في الجهاد، وقد يضارعها في وقتنا: الصواريخ أو الطائرات أو الدبابات.. ولا تزال الخيل تُستخدم في بعض الحروب.

وتنويهاً بشأن الخيل أقسم الله تبارك وتعالى بها عندما تغدُوا، وعندما تتردّد أنفاسها في صدورها، وعندما ينقدح الشرر من تحت سنابكها لشدة جَرْيها.

كما أقسم سبحانه وتعالى بالرجال الذين يقتحمون بالخيول ساحة المعركة، وهم يستقبلون الموت دفاعاً أو هجوماً، وهذا القسم على أن الإنسان كفور لأنعُم الله عليه، جَحود لفضله، مع شدة حبه للمال، ونسيانه الحساب والجزاء يوم القيامة، وتحصيل ما في الصدور يوم البعث والنشور، ونسيانه أن الله تعالى رقيب ومطلع على العبد في جميع أعماله.

وفي هذا القسم حث على صالح الأعمال، وإشادة بشأن الجهاد، فإن الجهاد يحرُس العقيدة، ويحمي الحقيقة، ويصون البلاد والحرُمات، فنيران الجهاد كالسوائل المبيدة للحشرات، تحمي الزرع والضرع، والحق يحتاج إلى من يذُود عنه، ويستبْقيه على مرّ الأيام، والباطل يمتدّ كلما وجد فراغاً أمامه، فإذا وجد مقاومة ضعيفة اجتاحها وبلغ غرضه، وأهل الباطل يسرقون العقائد والفضائل، ويفرضون الظلم على الناس، ويستوْلُون على ثرواتهم وبلادهم وتُراثهم.

وها نحن نعيش أحداث العراق وفلسطين وأفغانستان والبوسنة والهرسك والصومال والشيشان وكشمير، وغيرها، إن الحق لا يقوم بذاته، بل لابد له من قوة تحميه.

ولذا كان الإسلام: مصحفاً وسيفاً، ودعوة وجهاداً، ومسجداً ومعركة.

٣ - إن الإسلام بحاجة إلى خيل وخيّالة، يفضِّلون الموت على الحياة، ويُؤْثرون الآخرة على الدنيا، ويجنّدُون طاقاتهم المادية والمعنوية لتصنيع السلاح المضارع لسلاح العدو، مع وجوب توحيد الكلمة وعدم الفُرقة.

ولهذا فإن الله تعالى أقسم بالخيل وبوصْفِ حركاتها في أرض المعركة، تعظيماً لشأن الجهاد..

فأقسم تبارك وتعالى بثلاثة أشياء هي: العاديات، والموريات، والمغيرات، **على ثلاثة أمور هي**: جحود الإنسان، وشهادته على جحوده، وحبه للمال.

وعقّب على ذلك بثلاثة أشياء هي: بَعْثرتُ ما في القبور، وتحصيل ما في الصدور، وإحاطة علم الله تعالى بهم، فيجازيهم بما عملوا.

وللمفسرين في المراد بالعاديات والموريات والمغيرات، **قولان**:

أحدهما: أنها الخيل، تَغدُوا في الغزْو، وهو الذي عليه أكثر المفسرين.

وثانيهما: أنها الإبل تغدُوا بالحجيج من عرفات إلى مزدلفة ومنى، وهذا القول مبني على أثرٍ يحكي نقاشاً جرى بين عليّ وابن عباس رضي الله عنهم في معنى ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ وأن علياً ﷺ فسّرها بأنها الإبل تعدو من عرفة إلى مزدلفة فترى النيران تحت سنابكها[1].

وهذا وصف لها في بعض أحوالها وإلا فإن وصف الضبْح وإثارة النقع، وتوسُّط الجموع المتقاتلة، كلها وصف للخيل لا للإبل.

وهكذا تبدأ السورة بمشهد العاديات الضابحة، القادحة للشرر، المثيرة للغبار، المغيرة على العدوّ في الصباح. ويعقُب ذلك مشهد النفس الإنسانية وما فيها من الجحود وحب المال وشدة البخل، ويأتي علاج هذه الرذائل بالعمل لليوم الآخر، ويأتي ذلك عن طريق النظر والتأمل في بعثرة القبور يوم البعث والنشور، وتحصيل ما في

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٧٦/٣٠)، وذكره الحاكم (١٠٥/٢)، وابن الأنباري في كتاب الأضداد (ص ٣٦٤)، وهو في فتح الباري (٧٢٧/٨)، وأخرجه ابن أبي حاتم وابن مرويه.

الصدور مما خفي على العباد، وعِلْمه عند رب العباد، ومن ثم إلى النهاية والاستقرار في الجنة أو النار.

ويمكن تقسيم السورة على هذا النحو:

١ - الآيات الخمس الأول هي مجموع القسم بالخيل حال إغارتها على العدوّ.

٢ - الآيات الثلاث بعدها هى المقسم عليه من أحوال الإنسان في منْعه للخير وشهادته على ما يصرفه من نفسه وحبه الشديد للمال.

٣ - والآيات الثلاث الأخيرة في إحاطة علم الله تعالى بظاهر الإنسان وباطنه.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ثَلاثَةُ أَيْمَانٍ عَلَى أَنَّ الإِنْسَانَ جَحُودٌ لأَنْعُمِ اللهِ عَلَيْهِ

١-٣- ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾

أقسم تبارك وتعالى - أولاً - بخيول المجاهدين وهي تجري في ساحة الجهاد في سبيل الله، كرًّا وفرًّا على العدُوّ، حين يظهر صوتها ويُسمع له ضَبْح، وهو تردّد النفَس في الحنجرة.

وهذا الضبْح من أصوات الخيل والسباع وليس من أصوات الإبل.

فالعَدْو هو الجريُ السريع، والضبْح هو: اضطراب النفَس وظهور الصوت من سرعة العَدْو.

والعاديات هي الخيل التي تعْدُو حتى يُسمع لصوتها ضبحٌ وحمحمة.

وهذه الحالة خاصة بالخيل يشاركها فيها غيرها من الحيوانات.

وأقسم جل شأنه - ثانياً - بخيل المجاهدين حين يخرج شرر النار من تحت أرجلها بسبب احتكاك حوافرها بالأرض، من شدة الجري، فينْقدح منها شرر النار.

فالموريات هي الخيل حين ينقدح منها شرر النار ويتطاير تحت حوافر أقدامها وهي تضرب الأرض بأرجلها.

ثم أقسم سبحانه - ثالثاً - بخيول المجاهدين، وهي تُغير على العَدُوّ في الصباح الباكر، قبل طلوع الشمس حتى لا يشعر بهم العدو، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات:١٧٧] .

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يقسم إلا بالله تعالى.

وَصْفٌ لِحَرَكَةِ الْخَيْلِ وَهِيَ تُغِيرُ عَلَى الْعَدُوِّ

٤، ٥- ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾

ثم بيّن عز وجل أن من آثار الإغارة على العدوّ صباحاً، أن الخيل تثير الغُبار وتُهيّجه

من شدة الجزي، فالنقع هو الغبار والتراب الذي تثيره الخيل بأرجلها من شدة الحركة، وهذا وصف لحركة الخيل المسرعة.

ومن آثار الإغارة على العدوّ: أن خيول المجاهدين تتوسط بركّابها جموع الأعداء، فتقتحمها وتُفرّقها وتثير فيها الرعب.

والقسَم في الآيات الثلاث السابقة، هو قسم بالأوصاف الثلاثة الأولى فقط، وهي: العاديات والموريات والمغيرات.

أما الوصفان الأخيران وهما: إثارة الغُبار، وتوسُّط الجموع، فليس مُقْسمًا بهما، وإنما هما صفتان ناشئتان عن الإغارة على العدو، ولذلك فإنهما جاءا بلفظ الفعل الماضي.

أما الأوصاف الثلاثة الأُوَل فقد جاءوا بلفظ اسم الفاعل، إشارة إلى أن الكلام انتقل من القسَم إلى الحكاية.

ثلاثة أمور جوابًا للقسم

٦-٨- ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾

وجاء **جواب القسم** على الأيمان الثلاثة السابقة، **بأمور ثلاثة هي جحود الإنسان، وإقراره بذلك، وحبه للمال**، وهذه الثلاثة هي المقسم عليها.

الأمر الأول: هو الجحود، أي أن الإنسان من شأنه أنه كفور لنعم الله تعالى عليه، جَحود بها لا يشكرها، يمنع الحقوق المالية والبدنية، يذكُر المصائب وينسى النعم، يُنكر الخير، ويجزع من الشر.

يُكثِر من التضرع والدعاء إذا مسه الشر، وينسى ربه إذا مسه الخير ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر:٨].

وهو لا يمل من طلب الخير، ويصاب بالإحباط إذا ألمتْ به نائبة.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت:٤٩].

والمراد بالإنسان الموصوف بهذه الصفات، هو الكافر غالباً، لأن الله تعالى استثنى

المؤمنين من هذه الصفات في مثل قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المعارج:١٩-٢٢] .

وأخذت الآيات تصف المصلين بصفات الإيمان..

ووصفت بعض الآثار، الإنسان الكنود، بأنه الذي يأكل وحده، ويضرب عبده، ويمنع رفده[١] .

فهو لا ينفع الناس بشيء من الخير، ويمنع أهل الحاجة من مشاركتهم له.

وقال الفضيل: الكنود هو الذي تُنسيه سيئة واحدة، حسنات كثيرة، ويعامل الله تعالى على عقد عوض[٢].

الأمر الثاني المقسم عليه: هو أن الإنسان مُقِرٌّ بجحوده لنعم الله عليه، ويظهر ذلك في فلتات لسانه، كقول المشركين ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣] .

ومن جهة أخرى فإن أثر هذا الجحود يظهر على الإنسان من حيث لا يقصد، فحاله يشهد عليه، وهو يعرف من نفسه المنع والشح، ويشهد عليها بذلك.

وقيل: إن الضمير في ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ يرجع إلى الله تعالى (رب الإنسان).

والمعنى حينئذ يكون واضحا، من أن الله تعالى شهيد عليه وعلى جحوده، وفي هذا تهديد ووعيد له.

الأمر الثالث المقسم عليه، هو: أن الإنسان كثير الحب لجمع المال وتحصيله، يحبه حباً جماً، ويحاول اكتسابه بالوجوه المشروعة وغير المشروعة، ويبخل به على من يستحقه، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء:١٠٠]

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٣٠/١٨٠)، ويروى موقوفاً على أبي أمامة، وأخرجه البخاري في ضعيف الأدب المفرد (٣١)، وهو في الأدب المفرد (١٦٠)، وكذا الحكيم الترمذي (٣/٧٢)، وعبد بن حميد وابن مردويه كما في الدر المنثور (١٥/٦٠٥) وسنده ضعيف .

(٢) تفسير ابن عطية (٥/٥١٤).

وحب المال يجعل الإنسان حريصا عليه، ضنيناً به في وجوهه المشروعة، بل إن حبه له يكون سبباً في عدم القيام بالحقوق الواجبة، فربما أكل أموال الناس بالباطل، وربما قتّر على من يعول، وربما منع الزكاة، وربما خان الأمانة، وربما امتنع من سداد ديونه.. وكل هذا بسبب عدم الخوف من لقاء الله تعالى.

ومِنْ وَصْفِ الله تعالى لمن يحب المال قوله: ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفجر:١٨-٢٠].

الْخَوْفُ مِنْ سُوءِ الْمَصِيرِ فِي الآخِرَةِ يُعَالِجُ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةَ فِي الإِنْسَانِ

٩، ١٠- ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ ﴾

ثم يذكر الله تعالى علاج هذه الصفات الذميمة وهي: الجحود والشح والأثرة، ويبيّن سبحانه أن الذي يحطّم قيْدها، ويفكّ النفْس من أسرها، هو الخوف من العرض على رب العالمين، في يوم يشتد فيه الحساب والجزاء، ويكون ذلك يوم يخرج الأموات من قبورهم.

والمعنى: أيفعل الإنسان الكفور لأنعم الله عليه ما يفعل، فلا يعلم مآله وعاقبته؟ ألا يعلم أن العذاب ينتظره يوم تُبعثر القبور، فيقلَبُ أسفلُها أعلاها، وتتشقق الأرض عما في جوفها، فيخرُجون منها سراعاً، ويُحشَرون في عرصات القيامة للحساب والجزاء؟ ويعاقب الإنسان على جحوده وبُخْله وشدة حرصه، أفلا يعلم مآله، فيستعدّ له.

وفي هذا وعيد صريح في وقت المهلة قبل فوات الأوان.

ويوم القيامة تحصل الأسرار التي انطوت عليها الصدور في الدنيا من خير أو شر، فيبرُز ما فيها من الخفايا، ويظهر ما كان مستوراً، ولا يبقى شيء في الخفاء أو الكتمان.

وأصل التحصيل: إخراج اللب من القشر، وكما أن الله تعالى يعلم ما تكنه الصدور، فإنه يعلم من باب أولى أعمال الجوارح.

١١- ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

إن رب المبعثوين من قبورهم خبير بهم، عليم بما في صدروهم، مطلع على ظاهرهم وباطنهم، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم الدقيقة والجليلة.

وهكذا تختم السورة بهذا الوعيد، وهو أن الله تعالى يعلم أحوالهم، ولا يخفى عليه شيء منها، فهو سبحانه خبير بها، مطلع عليها، وسوف يجازي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحنسوا بالحسنى ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك:١٤] سبحانه، إنه يعلم السر وأخفى، وإذا علم الناس ذلك فإنه ينبغي عليهم ألا يشغلهم حب المال عن شكر ربهم وعبادته، ولا عن العمل ليوم البعث والنشور.

تم تفسير (سورة العاديات) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَارِعَةِ (١٠١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة القارعة) هي السورة الواحدة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثلاثين في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة قريش) وقبل (سورة القيامة).

وعدد آياتها إحدى عشرة آية في المصحف الكوفي والمكي، وعشر آيات في المصحف المدني والمكي، وثماني آيات في المصحف الشامي والبصري.

وهي ست وثلاثون كلمة، ومئة واثنان وخمسون حرفاً.

وهي سورة مكية، ولا يُعرف لها اسم آخر.

٢- والسورة تتحدث عن يوم القيامة، وبعض مشاهد أهوالها، حيث يتأثر بها الناس، فيكونون عند خروجهم من قبورهم وانتشارهم فى ساحة الحشر والحساب في حيرة واضطراب، كأنهم فَراش يتهافت على الهلاك، وهو لا يملك لنفسه شيئًا، فيذهب ويجيء، وهو في فزع ودهشة لا يعرف له هدفاً.

كما يتأثر الكون كله بيوم القيامة ومنه: الجبال الرواسي، فتُنسف وتتطاير في الهواء، وتكون في خفتها كالصوف المبعثر تتقاذفه الرياح، بعد أن كانت صخوراً صماء، كالأوتاد، تحفظ توزان الأرض لئلا تميد في البحار.

والناس يوم القيامة صنفان: فمن رجحت كفة حسناته، فقد فاز بجنة عالية، وعيشة هنيئة راضية، ومن رجحت كفة سيئآته، فملاذُه النار، تحتضنُه وتضمه، وتحرقه بلهيبها.

وهكذا يتساءل الله تبارك وتعالى عن يوم القيامة التى تقرع القلوب بأهوالها، فيأتى جواب السؤال بوصف أحوال الناس فى هذا اليوم وأنهم يكونون فى أرض المحشر والمنشر كأنهم فراش مبعثر هنا وهناك ،وأن الجبال الشّمّ الرواسى كأنها صوف متناثر ممزق ،ثم يكون العرض والحساب ، والجنة أو النار، نسأل الله السلامة من النار والفوز بالجنة.

فالآيات الخمس الأول من السورة، فيها قسم بيوم القيامة وما يصحبُها من فناء العالم.

والآيات الست بعدها قسمت الناس إلى قسمين: أهل السعادة وأهل الشفاء، وبينت مصير كل منهم، من النعيم المقيم أو العذاب الأليم.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقِيَامَةُ تَقْرَعُ الْقُلُوبَ وَالأَجْرَامَ الْعَظِيمَةَ بِأَهْوَالِهَا

١ -٣- ﴿ٱلْقَارِعَةُ[1] ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾

إذا عظُم خطر الشيء، كثُرت أسماؤه، وتعددت معانيه، ومن أسماء يوم القيامة: الواقعة والطامة والصاخة والساعة والغاشية والآزفة والقارعة والحاقة.. الخ.

وكثْرة الأسماء تدل على كثرة المعاني:

فسميت بالحاقة: لتحقق وقوعها، والواقعة: لصدق وقوعها.

والآزفة: لقرب وقوعها.

والغاشية لأنها تغشى الناس بأهوالها.. وهكذا.

ومن أسمائها ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ لأنها تقرع القلوب من شدة أهوالها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

وقبيل قيام الساعة، والناس في بيوتهم وأعمالهم وأسواقهم وطُرقاتهم ومدارسهم ومصانعهم.. وإذ بِصَوْت تنخلع له القلوب، ويفزع منه اليقْظان، ويستيقظ له النائم، ويشعُر الجميع بالخطر المحدق، إنه صوت إسرافيل، يوم يَنْفُخُ في الصور ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١ ـ ٤٢].

إنها الصاخة التي تخرق الآذان، وتقرع الأسماع، وهي صيحة النفخ في الصور، يوم يقوم الناس لرب العالمين، ويحشرون على إثرها في أرض المحشر والمنشر.

فما حقيقة هذا اليوم؟ وأي شيء هي القارعة؟ إنها تفوق في أهوالها وشدائدها كل وصف وكل خيال.

---

(١) اختص الكوفي بعدّ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ الأولى آية، ولم يعدها غيره.

وأي شيء أعلمك ما شأن القارعة؟ إنها لا تقرع القلوب بأهوالها فحسب، بل إنها تؤثر في الأجرام السماوية بالانشقاق، فتُحْدِث فيها الفتحات، وتؤثّر في الأرض الصلْبة بالزلازل، وفي الجبال الراسيات بالدّكّ والنسف، وفي الكواكب العظيمة بالانتثار، وفي الشمس والقمر بالتكوير والانكدار، وهي أعظم من ذلك كله.

وهذا التركيب كقوله تعالى ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٣] وكل ما جاء في القرآن من لفظ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فالنبي ﷺ يعلمه.

أما ما جاء من لفظ ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فإنه لا يعلمه.

وَصْفُ حَالِ النَّاسِ وَالْجِبَالِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

٤، ٥- ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾

ويعد هذا التخويف، وهذا التشويق، يأتي جواب السؤال عن القارعة، ببيان ما سيكون فيها، وليس بتعريفها وذِكْرِ ماهيتها، فقد جاء في الجواب وصف أحوال الناس في هذا اليوم: حيث يكون الناس كسراب الفراش، الذي يموج بعضه في بعض لا يدرى أين يتوجه، فإذا أوقد له نار تهافت عليه لضعف إدراكه، وهكذا يكون حال الناس يوم القيامة كالجراد المنتشر، الذي يموج بعضه في بعض من شدة الفزع والهول.

والفراش: هو الحشَرة الطائرة المعروفة، ويدخل فيها جميع الحشرات الطائرة كالبعوض والجراد، وجاء التشبيه بالفراش لأنه إذا ثار لم يتجه إلى جهة واحدة، كما أن الجراد يركب بعضه بعضًا ويموج بعضه في بعض.

وهكذا الناس يوم القيامة لا يلْوي أحد على أحد، كل امرىء يبحث عن مستقبله الدائم ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾[عبس: ٣٤-٣٧].

يخرج الناس من قبورهم متفرقين، منتشرين يموج بعضهم في بعض، فيكونون من الفزع والحيرة، كالجراد المنتشر، في همجيّة وغوغاء.

كما وصف الله تعالى يأجوج ومأجوج في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩].

وكما وصف سبحانه المعرضين عن دعوة الرسل: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

ففي ذلك اليوم الرهيب يكون الناس من كثرتهم وتفرُّقهم وحركتهم واضطرابهم كالفراش المنتشر المتهافت على النار للوقوع فيها.

والفراش: طير دقيق يقتحم المصباح ونحوه حتى يحترق.

وفي حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**مثلي ومثلكم كمثل رجل أوْقد ناراً، فجعل الجنادب والفراش يقعْن فيها، وهو يذُبّهن عنها، وأنا آخذ بِحُجَزِكُم عن النار، وأنتم تفلِتُون من يدي**»[1].

وفي الحديث تصوير لرحمة النبي ﷺ بالأمة، وخوفه عليها وحرصه على هديها، فهو يدعوهم إلى الجنة، وهم يتفلّتون منه إلى النار، بسبب ما يقترفونه من الآثام والذنوب، هذا حال الناس.

أما الجبال: فإنها تفقد تماسُكها، وتتساقط كقطع الصوف المندوف، تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب، تتفرق أجزاؤها، وتتطاير في الجو، ثم تكون هباء منثوراً، فتضْمحلّ، ولا يبقى منها شيء يشاهد، وإذا كان هذا حال الجبال، فكيف يكون حال الإنسان الضعيف؟

وهكذا فإن الآيات حذّرت من أهوال يوم القيامة، وحضت على الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح.

فقد ابتدأت بلفظ القارعة المؤذن بأمر عظيم، وثنّت بالاستفهام المستعمل في التهديد، ثم أعادت اللفظ تعظيماً له، وشبهت الناس في هذا اليوم تشبيهاً تقشعر منه

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٢٨٥)، والمسند (١٤٨٨٧، ١٥٢١٣)، وعن أبي هريرة (١٠٩٦٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو في الطيالسى (١٧٨٤).

الجلود، ثم شبهت الجبال بالصوف المتناثر المتمزق، وبعد ذلك بينت حال السعداء والأشقياء في هذا اليوم.

الإنسَانُ يَصنَعُ لِنَفسِهِ مُستَقبَلاً حَسَناً أوْ مُستَقبَلاً سَيِّئاً

٦، ٧- ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ[1] ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ ﴾

تبين هذه الآيات مصير الإنسان ومستقبله الذي صنعه بيده في الأيام التي خلتْ، إنه قدّم لنفسه أسباب السعادة أو أسباب الشقاء، فأما من رَجَحتْ موازين حسناته، فهو في حياة مرضية في الجنة.

والحسنة الواحدة تُرجّح كفة الميزان، كما أن الدرجة الواحدة لطالب الثانوية العامة ـ مثلاً ـ تحدد مستقبله، وتُغيّر مجرى حياته.

ولذلك فكل إنسان يندم يوم القيامة، حيث يتمنى المُحْسِن أنه لو ازْداد حسنة واحدة في دنياه، لو ازْداد تسبيحة أو تحميدة أو تكبيرة أو تهليلة، لو ازْداد خطوة إلى المسجد، لو قرأ حرفاً من كتاب الله،، الخ.

وميزان الحسنات والسيئات، ميزان حسي كظاهر اللفظ، له لسان وكفتان، حيث يؤتى بحسنات العبد في أحسن صورة، فتوضع في كفة الحسنات، ويؤتى بسيئات العبد في أقبح صورة، فتوضع في كفة سيئآته.

قال تعالى : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢ ـ ١٠٣].

ولم يرد حديث صحيح يحدّد صفة هذا الميزان.

ويعذَّب المؤمن العاصي بمقدار سيئآته ثم يصير إلى الجنة، ويعفو الله بفضله وكرمه عمن يشاء.

---

(١) عدّ الحجازيون والكوفى ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ هنا وفي الآية الثامنة، آية، ولم يعدّ البصرى والشامي الموضعان آية.

وثقل الموازين يكون باتِّباع الحق، وكَثْرة العمل الصالح وخِفَّة الموازين يكون باتِّباع الباطل، وعلى رأسه الكفر والشرك، وحُق لميزان يوضع فيه الباطل غدًا أن يكون خفيفًا، كما قال أبوبكر ﷺ. وحُق لمن ثقُلت موازينه أن يَهْنأ بعيشة كريمة، يرضاها صاحبها، ويرضى عنه ربه، والعيشة الراضية تشمل جميع النعم.

وقد قال تعالى في حق الكفار ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

وقال في حق المؤمنين﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨ - ٩].

وقد يصنع العبد لنفسه مستقبلاً سيئاً كما قال تعالى:

٨-١١- ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ[1] ۝ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝ ﴾

أي: وأما من خفت موازين حسناته، ورجحت موازين سيئآته، أو لم تكن له حسنات أصلاً، فمأواه جهنم، يأوي إليها كما يأوي الإنسان إلى أمه، والمراد بأمه فى الآية: النار، فالكافر يأوي إليها كما يأوي الطفل إلى أمه.

ومعنى هاوية: أنه يهوي فيها ويسقط، فهي اسم للمكان المنخفض.

وقيل: إن هاوية: اسم من أسماء النار، لعُمْقها وبُعْد قعرها.

وهذا التعبير ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ جرى على عادة العرب الذين يجعلون حال الأم دليلاً على حال ابنها في الحزن والسرور.

ورد أن أعرابيًا سمع الآية ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

فقال: لقد قرّت عينُ أم إبراهيم!!

وقد فخّم سبحانه وهوّل من شأن النار فقال: وما أدراك - يا رسولنا- ما هذه الهاوية؟ ثم فسر سبحانه معناها، فبيّن أنها نار قد حَميتْ من الوقُود عليها، يُلقى فيها الكافر

---

(١) قرأ حمزة ويعقوب بحذف الهاء الساكنة وصلا من ﴿مَاهِيَهْ﴾ وإثباتها وقفا، والباقون بإثباتها في الحالين.

منكّس الرأس فيهوي في قعرها، وهي أسفل دركات النار.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم**»[١].

وهي ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٦ ـ ٧].

نار حامية:

١ - عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**نار بني آدم التي توقدون، جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم**» قالوا: يا رسول الله، إنْ كانت لكافية، فقال: «**إنها فُضِلتْ عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها**»[٢].

٢ - وفي حديث النعمان بن بشير ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة، لَرَجُل توضع في أَخمَص قدميه جمرة يغلي منها دماغه**»[٣] .

وفي لفظ أبي سعيد عند أحمد «**رجل فى رجليه نعلان يغلى منهما دماغه..**»[٤].

٣ - وعن أبي هريرة ﷺ (**إذا اشتدّ الحر، فأبردُوا عن الصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم**)[٥].

٤ - ورد أن النبي ﷺ قال لرجل: لا أم لك، فقال: يا رسول الله أتدعوني إلى الهدى، وتقول: لا أم لك، فقال ﷺ: إنما أردتُ لا نار لك، قال الله تعالى ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ﴾[٦].

---

(١) صحيح البخاري (٦٤٧٧،٦٤٧٨)، وصحيح مسلم (٢٩٨٨).

(٢) الموطأ من رواية الزهري برقم (٢٠٩٨)، ومن رواية يحيى (٢/٩٩٤)، وهو في البخاري برقم (٣٢٦٥)، ومسلم برقم (٢٨٤٣)، والمسند (٧٣٢٧،١٠٠٣٢)، والبيهقي في البعث (٥٤٧)، وعن أبي سعيد في الترمذي (٢٥٩٠)، وفي صحيح الجامع (٦٦١٩).

(٣) صحيح البخاري (٦٥٦١،٦٥٦٢)، وصحيح مسلم (٢١٣)، والمسند (١٨٣٩٠،١٨٤١٣).

(٤) المسند (١١١٠٠،١١٧٣٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات كما قال محققوه، وأخرجه البزار (٣٥٠٢)، والحاكم (٤/٥٨١).

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٣٣،٥٣٦)، وصحيح مسلم برقم (٦١٥،٦١٧).

(٦) تفسير ابن عطية (٥/٥١٧).

وحر الصيف، وبرد الشتاء، نفَسان للنار، في الشتاء والصيف، كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ.

٥ - في الصحيحن وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**اشتكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضًا، فأذِن لها بنفَسيْن: نفَسٍ في الشتاء، ونفَسٍ في الصيف، فأشدّ ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير**»[1].

أعاذنا الله من النار ومن عذاب النار.

تم تفسير (**سورة القارعة**) ولله الحمد والمنة

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٥٣٧، ٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّكَاثُرِ (١٠٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة التكاثر) هي السورة الثانية بعد المئة في ترتيب المصحف، والسادسة عشرة في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة الكوثر) وقبل (سورة الماعون).

وهي ثماني آيات، وثمان وعشرون كلمة، ومئة وعشرون حرفاً.

وتَشْتَهِر بأنها (سورة التكاثر) ويقال: (سورة ألهاكم) وسماها بعضهم (سورة المقبرة) وهي سورة مكية على الأصح.

٢- عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ أَلْف آية في كل يوم؟ قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية كل يوم؟ قال: أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾»[1].

٣- اشتملت سورة التكاثر على ذم التفاخر والتكاثر بالمال والبنين وغيرهما، والاستمرار على ذلك حتى الموت، وحثت على العمل بما ينجّي الإنسان من الجحيم، وبينت أن العبد مبعوث يوم القيامة ومسؤول عن إهمال شكر النعم.

وحذَّرت السورة من الاستغراق في حب الدنيا حتى لا يفاجئهم الموت وهم لاهون غافلون، فقد ترى في هذه الحياة شخصاً محبوباً من رؤسائه، ناجحاً في أعماله، مُجِدّاً في أداء واجبه، نشيطاً بين أقرانه، حائزاً لأعلى الدرجات العلمية، حاصلاً على منصب مرموق، ومكانة عالية، ساعياً في جدٍّ واجتهاد للترقي في الوظيفة، قد أخذ العملُ جُلّ وقته، فهو مشغول دائماً:

---

(١) صححه الحاكم (٥٦٦/١) وقال: رُواة الحديث كلهم ثقات، وعُقْبة، غير مشهور، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضا البيهقي في الشعب برقم (٢٠١٨،٢٢٨٧) ورجاله موثقون، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٨٩١).

إن قُلْتَ له: هلمّ إلى الصلاة، اعتذر بأن عمله وشُغْله المستمر لا يسمح له.

إن قلت له: خذ من يومك بضع دقائق اقرأ فيها بضع أسطر من كتاب الله، أو حديث من أحاديث رسول الله ﷺ أو طالع حُكْماً فِقْهِياً في كتب الفقه، أو احضر حلقة علم، أو محاضرة علمية لعالم بارز، أو اقرأ بعض أذكار الصلاة، أو أذكار اليوم والليلة، أو تابع أولادك في تعوُّدهم الذهاب إلى المسجد، وتعليمهم ما لابد منه من أحكام الشرع.. أو .. أو .. الخ. فإنه يعتذر عن كل ذلك بأنه لا يوجد لديه من الوقت ما يسمح له بذلك.

فإن كانت هناك اجتماعات تتعلق بعمله، ما استطاع أن يتخلّف عنها، وإن كانت هناك محاضرات وندوات لها صلة بوظيفته أسرع وبادر إليها، وإن كانت هناك سهرات أوحفلات فيها اختلاط رجال بنساء وشبه ذلك، كان لديه من الوقت ما يتسع لذلك ألف مرة، وإن كانت هناك طريقة لجمع المال، أو بناء العمارة، أو مشاهدة مباراة، أو مشاهدة فيلم ونحو ذلك، فإن الوقت لديه يكون كافياً.

ويظل هكذا شغوفاً بحب الدنيا، مشغولاً عن العمل للآخرة، فهو في لهو مستمر، حتى يأتيه الموت، وهذا هو ما تُحذِّر منه السورة، كما تُحذِّر من التفاخر بالأحساب والأنساب ومن عدم شكر المنعم سبحانه.

٤- وبعد هذا التحذير، يأتى الوعيد الشديد، والردع والزجرعمّا فيه هذا اللاهى، بأن أمامه نار جهنم يراها يوم القيامة بأم رأسه، فيُخلّد فيها الكافر، ويأخذ العاصى منها على قدر معاصيه.

أمّا هذة النعم التى كان منغمساً فيها فى دنياة فإنه يُسأل عنها سؤال شكر لها أو كفر بها، هل هو ممن حفظ نعمة الله وأدى ما عليه فيها أم هو مما أبطرته النعمة فلم يشكر الله عليها ولم يؤد خق الله فيها، وكان ممن أذهب طيباته فى حياته الدنيا واستمتع بها؟ ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ذَمُّ السَّعْيِ وَرَاءَ الدُّنْيَا حَتَّى الْمَوْتِ

١، ٢- ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾

بعض الناس في لَهْو دُنيوي، يلْهثُ وراء المادة والشُّهرة والشَّهوة، ويجدُّ وينْشَطُ في طلب ذلك، ويظلّ في غفلة وإعراض وجَزي وتكالُب وراء الدنيا حتى يأتيه الموت، وهو في حالته هذه، يأتيه الموت وأعماله لم تنته بعد، يأتيه الموت وآماله لم تنفُذ، يأتيه الموت وهو إلى آخر لحظة من حياته لم يزل يخطِّط للحياة وللمستقبل المزعوم، وتأمين العيش السعيد له ولأولاده، فهذا المبنى لم يكتمل، وهذه السيارة يلزم تغييرها، وهذا الابن لم يتزوج، وهذا الصغير لم يكبر، وهذه البنت لم تُكمِلْ تعليمها وهكذا، ذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾.

أي أنكم اشتغلتم - أيها الناس - عن العبادة التي خلقتم من أجلها، فقدّمتم محبة المال والجاه والشهوة والشهرة على طاعة الله والرسول، فتكاثرتم بها وتفاخرتم، وألهاكم حب الدنيا، واستمرت بكم الغفلة حتى وصلْتم إلى القبور.

كأن القرآن الكريم يقول: أيها الّلاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة، وأنتم مفارقون.

أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه، أيها التاركون ما تتكاثرون فيه وتتفاخرون به إلى حُفرة ضيقة، لا تكاثُر فيها ولا تفاخُر، استيقظوا وانتبهوا وانظروا.. فقد ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾.

عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل**»[1].

---

(١) المسند (٣/١١٥) برقم (١٢١٤٢،١٢٢٠٢،١٢٧٢١)، والبخاري برقم (٦٤٢١)، ومسلم برقم (١٠٤٧).

وعند التأمل في أحوال الناس، نجد من لا تَمرُّ الآخرة بباله، قد يسمع عنها سماعاً عابراً لا يَحْمِلُه على ادخار شيء لها، وليس السبب هو انشغال المرء وراء ضرورات الحياة، وإنما هو منافسة الآخرين في جمع الحطام، والظفَر بأكبر حظ منه، ولا تنتهي هذه المنافسة إلا مع خمود الأنفاس ومداهمة الموت.

والقبر ليس هو المثوى الأخير، إن العبد سيخرج منه ليُسأل عما قدّم، ويَلْقى جزاءه المستحَق.

لقد اشتغلتم - أيها الناس - والْتَهيتُم بالأموال والأولاد، والمعاش والتجارة، والأعمال والمناصب، والجاه والسلطة، والمباهاة، والمفاخرة بأعراض الدنيا وزُخْرفها.

أشغلكم كل هذا عن طاعة ربكم، وما ينجّيكم من سخطه وعقابه، حتى أدرككم الموت، وأنتم على تلك الحال، وصرتم إلى المقابر ودُفنتم فيها، وأنتم في هذة المقابر ضيوف وزُوّار، وسوف ترجعون منها إلى منازلكم الدائمة في الجنة أو النار، كرجوع الزائر إلى منزله.

ورد أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال (بُعث القوم للقيامة ورب الكعبة، الزائر منصرف لا مقيم)[١].

وقال عمر بن عبد العزيز عندما قرأ هذه الآية: ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بدّ من أن يرجع إلى منزله[٢].

والمؤمن العاقل هو الذي يكون شُغْله وسَعْيُه في تقديم الأهم على المهم.

وسعادة الدنيا ظل زائل، وهذة السعادة غير محظورة على المسلم في حدود ما رسم الله تعالى له، على ألاَّ تشغله حظوظ الدنيا عن الأخذ بأسباب وتحصيل السعادة الأخروية التي لا تنتهي ولا تزول.

والآية عامة في كل من ألهته دنياه عن آخرته.

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/٥١٨).

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (١٥/٦١٩).

في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ما أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى عليكم التكاثر، وما أخشى عليكم الخطأ، ولكن أخشى عليكم التعمد»(١).

ذم التفاخر بالآباء والأمجاد، سبب النزول:

وقد ذكر المفسرون في أسباب النزول لهذه السورة أن قوماً تفاخروا بالآباء وأمجادِ الأجداد، فعدّدوا الأحياء، ثم ذهبوا إلى المقابر، وعدّد كل منهم مالَه من الموتى:

هذا قبر فلان، وهذا قبر فلان، على وجه التفاخر والتباهي والتكاثر بتعدادهم ومنزلتهم.

من ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن بُرَيْدة أن الآية نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار، هما بني حارثة وبني الحارث، تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما:

فيكم مِثْلُ فلان وفلان؟ وقال الآخرون مِثْلُ ذلك، وهكذا، فقد تفاخروا بالأحياء.

ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثلُ فلان وفلان؟ - يشيرون إلى القبر - وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل(٢).

والآية على عمومها، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والتفاخر عادة ما يكون في الجاه والمنصب والأولاد والأموال: كما قال تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقد حددت الأحاديث منفعة المال في الدنيا، من ذلك أنه:

إذا مات الإنسان لا ينفعه إلا عمله:

١ - فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يقول العبد، مالي، مالي، وإنما له من

---

(١) المسند (٢/٣٠٨) (٨٠٧٤)، (١٠٩٥٨)، وابن حبان (٣٢٢٢)، والمستدرك (٢/٥٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٣١٤)، قال محققو المسند: وإسناده صحيح على شرط مسلم، كما صححه الحاكم، (٢/٥٣).

(٢) ينظر: الدر المنثور (١٥/٦١٨)، وتفسير ابن كثير (٨/٤٩٣)، وابن أبي حاتم عن ابن بريدة .

ماله ثلاثة: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنى - أي تصدق وأخر لآخرته - وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس»[1].

٢ - وفي حديث عبد الله بن الشِّخِّير وعن مطرّف عن أبيه ، أن النبي ﷺ قرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١﴾ ثم قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيت، أو لبستَ فأبليت، أو تصدقْت فأبقيت**»[2].

٣ - وعن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله**»[3].

ومطلوب من المسلم أن يتحرر من أسْر حب المال:

٤ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لو كان لابن آدم واديان من مال ،لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوبُ الله على من تاب**»[4].

وقد جاء التحذير في كتاب الله تعالى من فتنة المال والولد، في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

أي احذروا أن يَصْرفُوكم عن طاعة الله، ويُوقعُوكم في المعصية.

وكأني بالقرآن الكريم في أدبه العالي يعبر عن حب شهوة الفرج وما يلازمها، بحب الأولاد.

ويعبر عن حب شهوة البطن وما يلازمها بحب الأموال.

وقد جاء التحذير منهما والنهي عن الإلتهاء بهما ابتغاء مرضاة الله تعالى في قوله:

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٥٩)، وانظر (٢٩٥٨).

(٢) مسند الطيالسي (١٢٤٤)، والمسند (١٦٣٢٧،١٦٣٠٥) (١٦٣٢٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، ومسلم (٢٩٥٨)، والترمذي (٣٣٥٤،٢٣٤٢)، والنسائي (٣٦١٥)، وفي الكبرى (١١٦٣١،٦٤٠٧)، والطبراني في الأوسط (٢٨٨٨)، والحاكم (٥٣٣/٢)، وابن حبان (٣٣٢٧،٧٠١).

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، حديث رقم (١٨٦٥).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الرقائق، باب مايتقى من فتنة المال برقم (٦٤٣٩،٦٤٤٠)، والطبري (٥٩٩/٢٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

إن المرء يستطيع أن يقي وجهه من النار في الدنيا، ولكنه لا يستطيع أن يمتنع منها في الآخرة، إن مات على كفره حيث تلفحه النار يوم الحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤ ـ ١٠٥].

وقد بين سبحانه وتعالى أن ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

وإذا كان المال والولد يسبّبان للناس ـ غالباً ـ اللهو والفتنة والطغيان، فإنهما لا يأخذان بيد صاحبهما إلى القُرْب من الله تعالى، ما لم يقترن بهما الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ إشارة إلى سنة زيارة القبور، دون شدِّ رَحْلٍ ولا قصد ضريح يَطْلُبُ منه الزائر دفع ضر أو جلب نفع، فإن زيارة القبور تزهّد في الدنيا، وتذكّر الآخرة، وترقق القلب، وتدعو إلى عدم التفاخر والتكاثر بزخرف الدنيا وهو موضوع هذه السورة.

التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ لِمَنْ شَغَلَتْهُ دُنْيَاهُ عَنْ أُخْرَاهُ

٣، ٤ ـ ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾

وعيد بعد وعيد، فيه ردع وزجر، وتهديد وتنبيه، على أنه لا ينبغي للناس أن يظلّوا على ما هم عليه من الانشغال والتلهي بالدنيا، والتكاثر والتفاخر بزخرفها ومتاعها، وعدم العمل لآخرتهم، فإنهم لو علموا ما أمامهم من الثواب العقاب علم اليقين لما ألهتْهم الدنيا، ولبادر والعمل للدار الباقية، وسوف يعلمون عاقبة تفاخرهم وتكاثرهم وتفريطهم في طاعة الله ورسوله إذا نزل بهم الموت، وعاينوا أهواله وشدائده، ومن ثَم إذا عاينوا عذاب القبر، وما يكون بعده في الدار الآخرة من عقاب وخيم وأليم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الأولى تتعلق بعذاب القبر. و﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الثانية تتعلق بعذاب الآخرة[١].

وعلى هذا فلا يوجد تكرار بين الآيتين.

وعذاب القبر دل عليه الكتاب والسنة كما هو معلوم.

فالقبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

رُؤْيَةُ الْجَحِيمِ يَوْمَ الْبَعْثِ رَأْيَ الْعَيْنِ

٥-٧- ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ[٢] الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾

أي لوعلمتم - أيها الناس - حق العلم ما تجدونه عند موتكم، وفي قبوركم، ويوم بعثكم وحشركم ونشركم، لو علمتم حقيقة ذلك، لَمَا تشاغلْتم بالأموال، ولما تكاثرتم بها، ولما ألهتكم عن طلب الآخرة، حتى صِرْتم إلى الموت، ودُفِنتم في المقابر.

جاء في الحديث عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا**»[٣].

ولا بأس بالمال والولد والصحة والجاه وخلافه، لمن اتقى الله تعالى فاستعملها فيما أباحه الله، ولم يبددها في معاصيه.

قيل: إن مراتب العلم ثلاثة:

١- علم اليقين: وهو ما ينتج عن الأدلة والبراهين.

٢- وعين اليقين، وهو ما كان عن مشاهدة عينية.

٣- وحق اليقين، وهو ما كان عن ملابسة ومخالطة.

---

(١) تفسير القرطبي للسورة.

(٢) قرأ ابن عامر والكسائي بضم التاء من ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ مبنيا للمفعول، مضارع أُرى، والواو نائب فاعل، والباقون بفتح التاء مبنيًا للفاعل، مضارع رآى، والواو فاعل، ولا خلاف بين القراء في ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾.

(٣) جزء من حديث في البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩).

مثال ذلك: أن تعلم أن الكعبة موجودة، فذلك علم اليقين، فإذا رأيتها بعينك، فذلك عين اليقين، فإذا دخلتَ في جوفها فذلك حق اليقين.

قال قتادة: كنا نحدث أن علم اليقين أن يعلمَ أن الله باعثه بعد الموت[1].

بعد ذلك يأتي تفسير للوعيد المتقدم.

ومعناه: أن الله تعالى يؤكد في جواب القسم على أن الناس سوف ترى النار بأعينها بعد الموت، وتشاهدها يوم القيامة، تراها عندما يتكشف الحال في القبر، وتراها عند المرور على متن جهنم، وتراها في عرصات القيامة يوم البعث.

يراها الخلق جميعاً، وينجي الله المؤمن منها، ويَصْلاَها الكافر.

وهذه الرؤيا لجهنم رؤيا حقيقية بالمشاهدة العينية، كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦] وقال سبحانه: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١].

وَوُضع الصراط على مَتْنِ جهنم، فناجٍ قد سلم من النار، ومدفوع به من ورائه قد سقط في جهنم.

قال عزوجل: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾[الكهف: ٥٣].

وفي الحديث عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**يؤتى بجهنم يوم القيامة ولها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[2].

فما جدوى الاستمتاع المحرم، والمكاثرة غير المشروعة في الدنيا؟ فاستعدوا لعذاب الْهُونِ إن كنتم من هذا القبيل: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٠].

---

(١) الطبري (٢٤/٦٠٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٨٤٢)، والترمذي بتصحيح الألباني (٢٠٨٢) عن ابن مسعود، وانظر صحيح الجامع الصغير حديث رقم (٧٨٧٨).

السؤالُ عَنْ شُكْرِ النِّعَمِ سُؤَالَ حِسَابٍ وَامْتِنَانٍ

٨- ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾

هذا السؤال عام للكافر والمسلم، وهو بالنسبة للكافر سؤال حساب وتقريع وتوبيخ، وبالنسبة للمؤمن سؤال تقرير واعتراف بحسب شكره للنعمة وتصرفه فيها.

والمعنى: لتسألن يومَ ترون الجحيم عين اليقين، عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا، هل قمتم بشكره وأديتم حق الله فيه؟ ولم تستعينوا به على معاصيه؟ هل قابلتم هذه النعم بالشكر والطاعة أمر لا؟ وماذا عملتم في هذه النعم؟ وكيف وصلتْ إليكم؟ وكيف استعملتموها؟

والنعيم الذي يُسأل عنه الإنسان يوم القيامة عام في كل نعمة في الدنيا، حسية أو معنوية، صغيرة أم كبيرة:

عن عبد الله بن الزبيررضى الله عنهما قال: قال الزبير: لما نزلت ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ قالوا: يا رسول الله (أيُّ نعيم نُسأل عنه، وإنما هما الأسودان: التمر والماء؟ قال: «**أما إن ذلك سيكون**»[1].

وفي حديث محمود بن لَبيد أنه لما نزلت هذه السورة قالوا: يا رسول الله، عن أيّ النعيم نُسأل، وإنما هما الأسودان: التمر والماء، وسيوفُنا على رقابنا، والعدوّ حاضر، فعن أيّ نعيم نُسأل؟ قال: «**أَمَا إنَّ ذلك سيكون**»[2] .

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٣٥٦)، وابن ماجة (٤١٥٨)، وابن أبي حاتم، راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول حديث رقم (٨٨٣،٨٨٤)، والفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (ج ١٨) (ص ٢٦٠)، وفي المسند برقم (١٤٠٥)، وهو حديث صحيح كما في صحيح سنن الترمذي (٢٦٧٢)، وقد جاء هذا الحديث من عدة طرق.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٣١/١٣)، وأحمد في المسند (٢٣٦٤٠) بإسناد حسن (محققوه)، والطبري (٦٠٨/٢٤)، والبيهقي في الشعب (٤٥٩٨).

وقد عدّ النبي ﷺ راحة النفس من النعيم:

فعن معاذ بن عبد الله الجهني عن أبيه عن عمه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وعليه أثر غُسْل، وهو طيّب النفس، فظننا أنه ألمّ بأهله، فقال: أجل، والحمد لله، ثم ذُكر الغنى، فقال: «**لا بأس بالغنى لمن اتقى الله، والصحة لمن اتقى خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم**»[1].

ما يُعفى من السؤال:

ويُعفى من السؤال أربعة أشياء لابد منها لحياة الإنسان، جاءت في قوله تعالى لآدم ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ - ١١٩].

وهي: ما يسدّ به العبد جُوعه، ويدفع به عطشه، ويستر به عورته، وما يسكُن فيه، ويؤويه من الحر والقر.

إن هذه الأربعة ضرورات لابد منها للإنسان، فيعفى المرء من السؤال عما هو يسير وضروري، ومن ذلك المأكل والمشرب والملبس والمسكن في حدود ما أحل الله.

وجاء في الأثر: بيت يكنّك، وخِرْقة تُواريك، وكِسْرة تشدّ قلبك، وما سوى ذلك فهو نعيم.

نِعَم يُسأل عنها العبد:

ونعم الله تعالى التي يُسأل عنها العبد لا تعد ولا تحصى:

أولها: نعمة الإسلام، فقد ذكرها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والمرء مسؤول يوم القيامة عن القيام بواجب هذه النعمة - نعمة الإسلام - من عدمه، سواء أكان رسولاً، أو مرسلاً إليه، وهو أعظم سؤال ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

وثانيها: أن الإنسان مسؤول عن نعمة السمع والبصر والفؤاد، قال تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٦٤٣،٢٣٥١٨)، وهو في صحيح سنن ابن ماجة (١٧٤١) بتصحيح الألباني له، ورقمه في سنن ابن ماجة (٢١٤١).

وثالثها: **أن يُسأل المرء عن نعمة الوجود في هذه الحياة، وعن فترة الشباب من عمره على وجه الخصوص، وعن العلم الذي علّمه الله إياه، وعن المال (مصدراً وورداً).**

عن أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن عمله فيما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»**.

زاد في رواية ابن مسعود: **«وعن شبابه فيما أبلاه»**[1].

ورابعها: **أن من النعيم الذي يسأل عنه الإنسان يوم القيامة: الصحة والماء البارد:**

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **«إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نُصِحَّ لك بدنك، ونَرْوِك من الماء البارد»**[2].

وخامسها: **أن يسأل العبد عن نعمة الفراغ .**

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: **«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»**[3]

قال ابن الجوزي: قد يكون الإنسان صحيحاً، ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش، وقد يكون متفرغاً ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمعا، فغلب عليه الكسل عن الطاعة، فهو المغبون. وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة.

---

(١) رواه الترمذي من حديث أبي برزة الأسلمي برقم (٢٤١٧) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وبرقم (٢٤١٦) وفيه «حتى يسأل عن خمس» وهذا من رواية ابن مسعود وهو حديث حسن بشواهده، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن مسعود، وقد حسّن الألباني رواية ابن مسعود برقم (١٩٦٩)، وفي السلسلة الصحيحة (٩٤٦)، والروض النضير (٦٤٨)، وصححه في رواية أبي برزة برقم (١٩٧٠).

(٢) حديث صحيح أخرجه الترمذي وابن حبان، راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول حديث رقم (٨٨٥)، وهو في المسند من زوائد عبد الله (٣٣٥٨)، والمستدرك (١٣٨/٤)، والبيهقي في الشعب (٤٦٠٧)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٧٤) بتصحيح الألباني له.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٢)، والترمذي (٢٣٠٤)، وابن ماجة (٤١٧٠) وغيرهم.

فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم[١].

فالناس مقصّرون في شكر هاتين النعمتين (الصحة والفراغ) لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون، فمن أدى شكر النعم السابقة، من صحة وأمن وفراغ وطعام وشراب و.. و.. فقد نجا، ومن لم يؤد شكرها عوقب وجوزي.

شكر النعم:

وقد علّمنا النبي ﷺ أن نشكر الله تعالى على القليل من النعم، وأخبر ﷺ أن سؤال الشكر يعم هذا القليل ولو كان ظلاً بارداً أو ماءاً بارداً.

فما بالُكم بالمكيفات والثلاجات والسيارات والطائرات، والكماليات، وألوان الترف والزينة، وفضْل الطعام الذي يُلقى في القمامة، وكثير من المسلمين في أمس الحاجة إليه؟

إن السؤال عن شكر النعمة سيكون عامّاً وشاملاً:

١- عن أبي هريرة ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا، هو بأبي بكر وعمر، فقال: «**ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟**» قالا: الجوع يا رسول الله، قال: «**وأنا والذي نفسي بيده، لأَخرجني الذي أخرجكما، قوموا**» فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «**أين فلان؟**» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله وصاحبيه ثم قال: الحمد لله، ما أجد اليوم أكرم أضيافاً مني، قال: فانطلق فجاءهم بعذق (قنو) فيه بُسْر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه.

وأخذ المُدْية (السكين) فقال له رسول الله ﷺ **إياك والحَلُوب!** - أي احذر أن تذبح الشاة الحلوب - فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا وارتَووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم**

---

(١) حاشية زاد المسير في علم التفسير، سورة التكاثر.

يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»[١].

٢- ومن ذلك أن النبي ﷺ وأبابكر وعمر رضي الله عنهم كما جاء في حديث أبي الهيثم الأنصاري «ابن التيهان» أنهم جلسوا تحت شجرة في ظل مشوب بالشمس والريح، وأكلوا رُطَباً وبُسْرًا، وشربوا من الماء (من قربة) فقال ﷺ: «**هذا من النعيم الذي تسألون عنه**»[٢].

ويبدو من النص أن المعفو عنه من السؤال، بالنسبة لضرورات الحياة، هو سؤال الحساب والمؤاخذة، لا سؤال الشكر والامتنان والإقرار.

٣- وفي حديث أحمد عن أبي عسيب مولى رسول الله ﷺ قال: «خرج رسول الله ﷺ فمرّ بي فدعاني، فخرجتُ إليه، ثم مرّ بأبي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى دخل حائطاً «بستانًا» لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط «**أطْعِمْنا**» فجاء بِعذْقٍ فوضعه، فأكل ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد، فشرب وقال: «**لتسألن عن هذا يوم القيامة**»» قال: فأخذ عمر العِذْق فضرب به الأرض، حتى تناثر البُسْر قِبَلَ رسول الله ﷺ ثم قال: يارسول الله: إنا لمسؤولونٌ عن هذا يوم القيامة؟ قال: «**نعم، إلا من ثلاثة: خِرقة لفَّ بها الرجل عورته، أو كسرة سدّ بها جُوعته، أو جُحْر يَدخُل فيه من الحر والقر**»[٣].

٤- وأخرج عبد الله بن أحمد عن سلمان قال: بلغني أن في التوراة مكتوب، ابن آدم،

---

(١) ينظر: صحيح مسلم حديث رقم (٢٠٣٨)، وأبوداود (٥١٢٨)، والترمذي (٢٣٦٩)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦٩٧)، وابن ماجة (٣١٨٠)، والبيهقي (٤٦٠٢) وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن مردويه عن ابن عمر كما في الدر المنثور (٦٣١/١٥)، قال في الفتح الرباني: الحديث سنده جيد، وله شواهد تؤيده (ج ١٩) (ص ١٠٤)، قلت: ومن هذه الشواهد حديث جابر بن عبد الله في المسند (١٤٧٨٦،١٤٦٣٧)، والنسائي (٣٦٤١)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٣٤٠٠)، وأخرجه البيهقي (٤٦٠٠،٥٨٧٧)، والطبري (٦٠٥/٢٤).

(٣) المسند (٢٠٧٦٨)، وفي سنده: نباتة الأشجعي، مختلف فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات (محققوه)، والطبري (٦٠٧/٢٤)، والبيهقي في الشعب (٤٦٠١) وغيرهم.

كسرة تكفيك، وخرقة تواريك، وجُحْر يؤويك[١].

ومن النعيم: باردُ الشراب، وظلال المساكن، وشِبَع البطون، واعتدال الخلْق، ولذة النوم، والزوجة الصالحة، وصحة الأبدان والأسماع والأبصار، والأمن والرخاء، وما إلى ذلك.

فاللهم ارزقنا شكر نعمك، وحسن طاعتك، وامتثال أمرك، واجتناب نهيك، ولا تجلْعنا ممن يبطَر ويطغى إذا اغتنى، ولا ممن يسعى في الأرض بالفساد إذا أوتي صحة وجاهاً وسلطاناً، ولا تخزنا يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم تفسير (سورة التكاثر) ولله الحمد والمنة

(١) عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (ص ١٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ العصر (١٠٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة العصر) هي السورة الثالثة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثالثة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الشرح) وقبل (سورة العاديات).

وهي ثلاث آيات باتفاق، وأربع عشرة كلمة، وثمانية وستون حرفاً.

وتسمى (سورة العصر) بإثبات الواو وحذفها، وهي سورة مكية عند الجمهور.

وهذه السورة إحدى ثلاث سور، تتكون من ثلاث آيات هي: العصر والكوثر والنصر.

أغراض السورة:

وسورة العصر على وجازتها لخصتْ عواقب النشاط الإنساني كله، على امتداد الزمان والمكان، وبيَّنتْ أنَّ مَنِ انقطعت صلتهم بالله تعالى هم حطب جهنم، وأن من اتصلوا بالله تعالى هم الذين فازوا في معترك الحياة.

وقد اشتملت السورة على عناصر أربعة هي أسس السعادة في الدنيا والآخرة وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

وقد اتخذ الصحابة سورة العصر شعارا لهم في لقاءاتهم، فكان الرجلان إذا التقيا لم يفترقا إلا إذا قرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلم عليه[1].

إن الحق مُرّ، والصبر عليه مطلوب حتماً، نظراً للاضطهاد الذي يلحق القائم به، والتشبث بالإيمان عند بعض الناس رجعية، فلابد من عزيمة وجلَد حتى يَكْسَبَ المؤمنون المعركة.

إنها سورة قصيرة، ذات آيات ثلاث، في سطرين اثنين، ومع هذا فهي تضع منهجاً متكاملاً لحياة البشر، وترسم لهم دستوراً واضحاً، وتبين مهام الأمة الإسلامية ووظيفتها

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني برقم (٥٠٩٧)، وفي الكبير برقم (٥١٢٤)، ورجاله رجال الصحيح غير ابن عائشة وهو ثقة كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠٧/١٠)، وأخرجه البيهقي في الشعب برقم (٩٠٥٧).

على مر العصور والأجيال، وتأخذ بيد الإنسان إلى سعادتي الدنيا والآخرة، وتوضح له أسباب الخسران والهلاك في الدارين.

وللأزمنة معالم متميزة تُعرف بها، وتضاف إليها، فيقال: عصر الصحابة، وعصر الذرة، وعصر الفضاء، لمن يظلّهم زمن واحد، يتشابهون في معايشهم وتقاليدهم، ولكنهم يختلفون في المصير الأخروي حسب إعدادهم له، فرب رجلين عاشا في زمن واحد، بل في بيت واحد، فذهب أحدهما إلى النعيم، والآخر إلى الجحيم، وسيْرُ الإنسان مع الغرائز والأهواء ينتهي إلى الخسران.

وحُق للإمام الشافعي أن يقول: لو ما أنزل الله تعالى على خلقه حجة إلا هذه السورة لكفتهم.

فقد بينت السورة حال الناس في عصر النبوة وما بعدها، وبينت أن المؤمنين منهم قد استوفوا أعمارهم في تحصيل أصول التجارة الرابحة.

عن عمرو بن ميمون قال: شهدتُ عمر ﷺ حين طُعِن، فأمّنَا ـ في الصلاة ـ عبدُ الرحمن بنُ عوف، فقرأ بأقصر سورتين في القرآن، بـ (العصر) و (إذا جاء نصر الله) في الفجر[1].

وهكذا: فإن الله تعالى يقسم على أن جنس الإنسان في هلاك وخسران، ويستثى من ذلك من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وعمل صالحاً، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وصبر على جهاد الدعوة، وتواصى مع إخوانه المسلمين على كلمة الحق، والصبر على الأذى في سبيلها، فإن من اتصف بهذه الصنفات الأربع، لن يخسر دنياه ولا أخراه، بل يفوز بالجنة ورضوان الله تبارك وتعالى.

* * *

(١) أخرجه ابن سعد (٣/٣٤٩).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

النَّاسُ فِي هَلَاكٍ وَخُسْرَانٍ إِلاَّ مَنِ اسْتَثْنَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ

١، ٢- ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ[1] ۝٢﴾

١ - يقسم الله تبارك وتعالى بالدهر كله، وهو الزمن الذي فيه عمر الإنسان، وفيه مرور الليل والنهار، وتعاقُب الظلمة والنور، وهو محل أقوال العباد وأعمالهم.

أقسم الله به لما فيه من العبر والعجائب والعظات والغرائب الدالة على قدرة الله تعالى وحكمته، وجاء هذا القسم على أن جنس الإنسان في خسارة ونقصان، إلا من كان مؤمناً عاملاً للصالحات، يوصي الناس بالحق، ويعتصم بالصبر.

والدهر هو هو، لا يتغير: ليل يعقبه نهار، ونهار يطرده ليل، لا يعلم الخَلْقُ متى بدأ، ولا يعلمون متى ينتهي، أمة تذهب، وأمة تأتي، فيه السراء والضراء، والسعادة والشقاء، والصحة والمرض، والغنى والفقر، والخوف والأمن.

وعُمْر الإنسان رأس ماله، فكل لحظة تمرُّ فهي نقص من أجَلِه، وقد كُلّف المرء بأن يُحسن استعمال عمره، (مدة وجوده في الحياة) ولاسيما فترة الشباب منه، فحياة الإنسان تشبه سوقاً أو تجارة، رَبِحَ فيها من رَبِح، وخسر فيها من خسر، فإذا استعمل الإنسان نفسه في الخير فقد أفلح ونجا، وإن استعملها في الشر فقد خاب وخسر، عياذاً بالله.

والدهر لا دخل له في شيء من ذلك أبداً، بل إن لهذا الزمن إله قادر متصرف، وكان الناس ولا يزالون ينسبون إلى الدهر النوائب والنوازل، فأقسم الله تعالى به تنبيها على شرفه:

ولبيان أن الله تعالى هو المؤثر الوحيد، وهو الضار النافع، وأن ما يقع للإنسان من بلايا ومحن، إنما هي بقضاء الله تعالى وقدره، ومن هنا فقد نهاهم الإسلام عن سب الدهر، فقال ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ: «**لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر**»[2].

---

(١) لم يعدّ لمدني الأخير ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ آية، وعدها غيره.

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة حديث رقم (٢٢٤٦، ٢٢٤٧).

وإطلاق الدهر على الله تعالى فيه (تجوّز) فهو لا يُعَدُّ اسماً من أسمائه الحسنى.

والعصر المفضل، هو - عصر النبي ﷺ - ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، وعمر الإنسان جزء من العصر الذي يعيشه.

ووقت صلاة العصر جزء من الزمن، وهذه المعاني وغيرها داخلة في المعنى الأول.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: العصر: ساعة من ساعات النهار. وهو آخر ساعة فيه.

وقد أقسم الله به كما أقسم بالضحى والفجر لما فيهما من تصرف الأحوال وتبدّلها، ودلالتها على وحدانية الصانع سبحانه.

٢ - وقد يكون المراد بالعصر، صلاة العصر لفضل هذه الصلاة عن غيرها، حيث جاء فيها قول الله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨] .

وقال ﷺ في حديث سالم بن عبد الله بن أبيه:

«من فاتته صلاة العصر فكأنما وَتِرَ أهله وماله»[١] .

وقد جاء التنبيه على صلاة العصر لأنها تأتي في وقت راحة بعض الناس من أداء عملهم، وفي وقت رواج التجارات والمكاسب آخر النهار لفئات أخرى من الناس.

وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: رجل حلف على سلعة: لقد أُعطي بها أكثر مما أَعطى، وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر، ليقتطع بها مال امرء مسلم، ورجل منع فضل ماء، فيقول الله يوم القيامة: اليوم أمنعك فضلي، كما منعتَ فضلَ ما لم تعمل يداك»**[٢].

والله سبحانه يقيم الحجة على الإنسان، بأن أعطاه عُمْرا ووقتا كافيا للاعتبار والانتفاع والعمل، ولكن بعضهم أساء استخدامه ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧] أي أعطيناكم عمرا يكفي للاتعاظ وحُسْن العمل لمن يريد ذلك، وجاءكم نذير الشيب والموت، وجاءكم النذير من الرسل والكتب، فلم تتعظوا وغركم بالله الغرور.

---

(١) صحيح مسلم (٦٢٦)، وفي البخاري عن ابن عمر (٥٥٢).

(٢) صحيح البخاري (٢٣٥٨،٧٤٤٦)، وصحيح مسلم (١٠٨).

قال ﷺ في حديث أبي مالك الأشعري: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»[1].

أي أن كل إنسان يسعى بنفسه، فمنهم من يبيعها لله تعالى بطاعته فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى فيهلكها ويوبقها.

والمراد بالإنسان - في أصح القولين - عموم بني آدم.

المقسم عليه: وقد أقسم الله تعالى على أن جنس الإنسان في خُسران وهلاك إلا من استثناهم رب العالمين، وذلك لأن كل ساعة تمر من عمره إما أن تكون في طاعة أو في معصية، فإن كانت في معصية فهو الهلاك المبين، وإن كانت في طاعة، فلعله يكون قد ترك ما هو أعظم وأفضل من هذه الطاعة مع قدرته عليها، فيكون غيْرَ الأفضل تضييعاً لما هو أكثر أجراً وأعلى درجة، وقد يشعر الإنسان بالأسى والحزن في آخر عمره، حينما يشعر أنه ضاع في لهو، ولا يمكنه استدراك ما مضى منه.

فالخسارة مراتب متعددة متفاوته؛ قد يكون خساراً مطلقاً كحال من خسر الدنيا والآخرة، ففاته النعيم واستحق الجحيم، وقد يخسر العبد بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان إلا من اتصف بصفات أربع.

أَرْبَعُ صِفَاتٍ لِلْفِئَةِ الرَّابِحَةِ

٣- ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ [2] وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾

وقد أقسم الله تبارك وتعالى على أن الناس كلهم في خسر وهلاك، واستثنى سبحانه وتعالى فئة رابحة وناجية، هذه الفئة اتصفت بصفات أربع: هي:

الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر:

الصفة الأولى: الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر:

الوارد ذكره في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ والإيمان بالله، هو الذي يَصِلُ العبد

---

(١) من حديث أبي مالك الأشعري في صحيح مسلم رقم (٢٢٣) وأوله «الطهور شطر الإيمان»، وقد أخرجه أحمد في المسند (٢٢٩٠٢).

(٢) عد المدني الأخير وحده ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ آية، وتركها غيره.

بربه بلا واسطة، فيُودِع القلبَ نوراً، والروحَ طُمأنينة، والنفسَ أُنساً وثقة، ويَنفي التردد والخوف والقلق والإضطراب، كما ينفي الاستكبار والاستعلاء على العباد، ويُورث القلب استقامة على منهج الله تعالى، فلا يضل ولا ينحرف، ويجعل العبد يأنس بربه في سعادة لا تَعْدِلُها سعادة، وأُنس لا يدانيه أُنس، والإيمان بالله تعالى كسب لا يعْدلُه كَسْب، وفُقْدانه خُسران لا يَعْدِلُه خسران، فهو أجلّ نعم الله على الإطلاق.

ولا يكون الإيمان بدون العلم بما أمر الله العبد أن يؤمن به، فالإيمان يترتب على العلم ولا يتم إلا به.

والإيمان يسمو بالإنسان عن الماديات، ويرتفع به عن الشهوات، ويحرر النفس من سيطرة غيره، ويبعث فيها روح الإقدام والشجاعة.

وإذا تحقق الإيمان في العبد، فإنه يتحول إلى قوة إيجابية في الحياة، فيحوّل الضعفَ إلى قوة، والهزيمة إلى نصر، واليأس إلى أمل، والأمل إلى عمل.

والإيمان في حقيقته: هو التصديق القاطع واليقين الجازم بأن الله سبحانه إله الأولين والآخرين، لا إله غيره، ولا معبود سواه، هو ربُّ كل شيء ومليكُه، فاطرُ السموات والأرض، عالمُ الغيب والشهادة، موصوفٌ بكل كمال، ومنزهٌ عن كل نقص، ليس كمثله شيء، له الأسماء الحسنى والصفات العليا، كما وصف نفسه سبحانه، وكما وصفه رسوله ﷺ من غير تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل ولا تجسيم.

ومنه الإيمان بملائكة الله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقضاء خيره وشره.

والإيمان بأن محمداً ﷺ خاتم المرسلين والنبيين، والقرآن آخر الكتب..

والجمهور: على أن الإيمان اعتقاد بالجنان، ونُطْق باللسان، وعمل بالجوارح، وهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

والاعتقاد لا ينفع صاحبه ما لم يكن مصحوباً بالعمل، فأبوطالب كان يعتقد بصحة رسالة محمد ﷺ ولكنه لم ينطق بكلمة التوحيد التي يحاج له بها النبي ﷺ عند ربه، كما لا ينفع العبد نطقُه للشهادتين مع عدم صلاته وصيامه.. الخ.

فلابد من تحقيق الأركان الثلاثة للإيمان الكامل، وهي: الاعتقاد الصحيح، والنطق باللسان، والعمل بالجوارح.

الصفة الثانية: العمل الصالح: الوارد في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والعمل الصالح ثمرة من ثمرات الإيمان، وأثرٌ من آثاره، تزكو به النفس، ويَطْهُرُ به القلب، وتعمُر به الحياة، ولهذا جاء الإيمان في القرآن الكريم مقروناً بالعمل الصالح، لأن الإيمان إذا تجرد عن العمل الصالح كان إيماناً عقيماً، وكان كالشجرة التي لا تُثمر ثَمراً، ولا تُمِد ظلاً. والعمل الصالح إذا خلا من الإيمان، كان رياءً ونفاقا.

ذلكم لأن الإيمان حقيقة إيجابية متحركة، ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح، فهو يَصدرُ عن الإيمان كما تُصدِر الشمسُ أشعتها، وشأنه شأن الزهرة لا تُمسك أريجها بل ينبعث منها انبعاثاً طبيعيًا.

والعمل الصالح يشمل أفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى وحق عباده الواجبة والمستحبة.

فالعمل الصالح ميدان واسع فسيح، يشمل كل خير وبر وتقوى وطاعة، ولا يُعتبر العمل صالحاً إلا إذا كان مطابقاً لما جاء به النبي ﷺ، فكل عمل مخالف لهدْي النبي ﷺ عمل باطل وليس بصالح.

ولابد أن يكون العامل مخلِصاً فيما بينه وبين الله تعالى، يبتغي بعمله وجه الله وحده، وقبل ذلك لابد أن يكون العامل مؤمناً صحيح العقيدة، فالإيمان قيْد لذلك العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

وكما لا ينفع عمل بدون إيمان صحيح كامل، كذلك لا ينفع عملٌ إلا أن يكون موافقًا لهدْي النبي ﷺ فيكون هذا العمل صواباً خالصاً، أي موافقاً للسنة وبعيدًا عن الرياء:

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

ومن أهم الأعمال الصالحة: التوبة، كلما ألمّ العبد بذنب من الذنوب تاب إلى الله

منه، فإن من يعمل السيئات ولم يتب إلى الله منها قد تحقق فيه وصف الخسران.

الصفة الثالثة: التواصي بالحق الوارد في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾.

والتواصي بالحق، هو التواصي باتباع صراط الله المستقيم، والاستقامة عليه، والحق هو الإيمان والعمل الصالح، فيوحى به بعضهم بعضاً، ويحثهم عليه ويرغبهم فيه.

والحقُّ ضد الباطل، وهو يشمل إتيان جميع الطاعات وترك جميع المعاصي، فكأن كلمة الحق تعني الإسلام كله، ولأن الناس تُعادي من يدعوهم إلى الحق غالباً، فقد أمر الله تعالى بالصبر وتحمل الأذى، في سبيله.

والمطلوب أن يوصي الناس بعضهم بعضًا بالحق، بجميع ما في القرآن والسنة من أمر ونهي، وجميع ما تشتمل عليه الشريعة من أصول وفروع.

فكأن سورة العصر تجمع أصول الرسالات كما قال الشافعي رحمه الله: (لو ما أنزل الله على الناس حجة إلا هذه السورة لكفتهم).

والتواصي بالحق وظيفة الأمة الإسلامية، ومناط خيْريَّتها بين الأمم.

والمعوّقات التي تقف في طريق الحق كثيرة: كهوى النفس، وسُبل الشيطان، وميراث الآباء السيء، وطغيان الطغاة، وظُلْم الظلَمة، وجَوْرُ الجائرين.

ولكي ينهض الحق لابد له من قوة تحميه وتسانده، ولابد له من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما من أكبر مميزات الجماعة المسلمة.

ومن ثم كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا، لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلِّم عليه، لقد كانا يتعاهدان على التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وقبل ذلك على الإيمان والعمل الصالح.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أعظم الواجبات الإسلامية:

١ - ويكون تغيير المنكر باليد بالنسبة لولي الأمر، ومن قَدِرَ على ذلك كالأب والمدرس، ومدير العمل.

٢ - ويكون تغيير المنكر باللسان، بالنطق بكلمة الحق، ولو في وجه سلطان جائر،

وذلك بالنسبة للعلماء.

٣ - والمرتبة الثالثة من مراتب إنكار المنكر: هي الإنكار بالقلب، إنكاراً إيجابياً ينعكس على السلوك والمعاملة والولاء والبراء.

قال تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة:٧١].

وقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه حذيفة ﷺ: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم**»[1].

وقال ﷺ فيما يرويه قيس بن أبي حازم أن أبا بكر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب**» وفي لفظ له: «**إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه..**» الحديث[2].

ولا يكون العبد مهتدياً إلا إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة:١٠٥] شرح معناها أبوبكر ﷺ في الحديث السابق، ومعناه: لا يضركم من ضل إذا تواصيتم بالحق، فأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، ولابد أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر على بصيرة وفقه جيد بما يأمر به وينهى عنه، فيحتسب فيما هو متفق عليه، ولا يتعصب

---

(١) أخرجه الترمذي عن حذيفة بن اليمان برقم (٢١٦٩) وحسّنه، وفيه عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري الأشهلي، لم يوثقه غير ابن حبان، وأخرجه البيهقي في السنن (١٠/٩٣)، وفي الشعب (٧٥٥٨)، وهو في المسند (٢٣٣٠١)، وقد حسّن إسناده الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٧٦٢)، وللحديث شواهد عند الطبراني عن ابن عمر وأبي هريرة، راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول حديث رقم (١١٣) بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط.

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢١٦٨،٣٠٥٧)، وأبوداود (٤٣٣٨) عن قيس بن أبي حازم ﷺ عن أبي بكر ﷺ، وهو في ابن ماجة (٤٠٠٥)، وعند أحمد برقم (١،١٦،٣٠،٥٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وانظر: جامع الأصول رقم (١١١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٦٤).

لمذهبه أو دراسته أو تقاليد بلاده أو علمائهم، ويكون مع الدليل حيث كان متوخيا الحكمة والموعظة الحسنة والقول اللين، والجدال بالتي أحسن، وألاّ يُؤدي تغيير المنكر إلى منكر أكبر منه.

الوصية الرابعة: التواصي بالصبر:

وقد ورد الأمر به في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

وذلك أنه إذا عرف الإنسان الحق، وعمل به، فإن عليه أن يُعلِّمه من لا يعرفه، ويُعلّمه من لا يحسن العمل به، وهذا يحتاج إلى صبر على تعلّم الحق، وصبر على العمل به، وصبر على تعليمه للناس.

فلا يكفي من المسلم أن يعمل الخير وحده، بل عليه أن يدعو غيره له بعد أن يصلح نفسه، وأن يوصي الناس بعضهم بعضًا بالصبر على تبليغ هذه الدعوة، وعلى تحمل الأذى من الناس، وما يواجهه من الأفراد والمجتمع.

فالصبر ضرورة لابد منها لقيام الحق والنهوض به، والدعوة إليه، والثبات عليه قولا وفعلاً واعتقاداً.

وكما يحتاج المرء إلى الصبر لجهاد غيره، فإنه يحتاج إليه في خاصيّة نفسه للقيام بالواجبات من الطاعات والأوامر، والصبر على ترك المنهيات، والصبر على أقدار الله المؤلمة، وكذا الصبر على قبول الحق من الناس.

ويظل العبد كذلك حتى يَلْقى الله تعالى وهو ثابت على هذا المنهج، متواصياً بالحق، متواصياً بالصبر، صابراً في نفسه.

والصبر في حقيقته: حبس النفس على ما تكره من عبادة الله تعالى وطاعته، وترك الشهوات والملذات غير المباحة، بأن يُلزمهَا بذلك إلزاما، ويمنَعَها من المعاصي، فلا يسمح لها باقترابها، ويعوّدها احتمال المكروه إذا نزل بها، فلا يجزع ولا يسخط بل يرضى ويُسلِّم.

أما احتمال الأذى من الناس والصبر عليه، فإنه خلُق الصدّيقين وشعار الصالحين.

وحقيقته: أن يؤذَى المسلم في سبيل الله، فيصبر ويتحمل، ولا ينتقمُ لنفسه، ولا يتأثر

لشخصيه، مادام ذلك في سبيل الله، مؤدياً إلى طاعة الله ومرضاته، فيكظم غيظه، ويعفو عمن أساء إليه، ويقابل السيئة بالإحسان.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[1].

قال تعالى ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣].

وقال خباب بن الأرتّ ﷺ: شكَوْنا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تنتصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «**قد كان مَنْ قبلكم يؤخذ الرجل فَيُحفرُ له في الأرض فيُجعلُ فيها، ثم يُؤتى بالمنشار، فيُوضع على رأسه، فيُجعل نصفين، وُيمشط بأمشاط من الحديد مادون لحمه وعظمه ما يصدّه ذلك عن دين الله**»[2].

أين هذا ممن يثنيه عن دينه أدنى أذى، وأقل ضرر؟ وربما يتوقع الأذى توقعاً، ويفترضه قبل وقوعه افتراضاً، والواقع ليس كذلك؟

أين هذا ممن لا يريد أن يسيء العلاقة بينه وبين جاره أو صديقه أو زميله، فلا ينصحه، ولا يذْكُر له ما يراه من منكَر يقع منه، حفاظا على العلاقة بينهما؟ ويقول: (كل شاة معلقة من عرقوبها) يراه لا يصلي، أو لا يصوم، أو يسهر الليل ويضيع صلاة الفجر، ويضيع وقته في كذا، أو يشرب كذا، أو، أو.. فيغْلِق فاه، ويصمّ آذانه، كأنه لا يرى ولا يعلم، ولا يسمع شيئاً حفاظاً على المودة بينهما، أو لأن هذا المنكر لا يضره في شيء، فهو لا يغضب لله، ولا يهتم لأمر الله ورسوله! وربما داهن أو نافق ومالق، إن كان الطرف الآخر أعلى منصباً، وربماً سكت لحاجة في نفسه، وهذا كله مناقض لواجب

---

(١) متفق عليه، جامع الأصول في أحاديث الرسول، حديث رقم (٤٦٣٧ ج ٦)، والحديث في البخاري (٣٤٧٧،٦٩٢٩)، ومسلم (١٧٩٢)، وابن ماجة (٤٠٢٥)، والمسند (٤٢٠٣،٤٣٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٢،٣٨٥٢،٦٩٤٣)، وأبوداود (٢٦٤٩)، والنسائي في السنن الكبرى (٥٨٦٢،٩٥٧٩)، جامع الأصول، حديث رقم (٤٦٣١ ج ٦)، وهو في المسند (٢١٠٥٧)، وابن حبان (٢٨٩٧).

الأمة الإسلامية (التواصي بالحق والتواصي بالصبر).

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت:١٠] .

قال مجاهد في معنى الآية: إلا الذين صدّقوا الله ووحّدوه، وأقرّوا له بالوحدانية والطاعة، وعملوا الصالحات، وأدّوا ما لزمهم من فرائضه، واجتنبوا ما نهاهم عنه من معاصيه، واستثنى القرآن الذين آمنوا من الإنسان، لأن الإنسان بمعنى الجمع، لا بمعنى الواحد[1].

وقد اشتملت هذه السورة على الوعيد الشديد للناس إلا من اتصف بما فيها من الصفات الأربع، فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور، وأن الهلاك في تركها.

أربع صفات للفئة الخاسرة:

تُقسِّم السورة الناس إلى فئة خاسرة وفئة رابحة.

وجاء وصف الفئة الرابحة في الآية الثالثة من السورة بصفات أربع هي:

١- الإيمان ٢- العمل الصالح ٣- التواصي بالحق ٤- والتواصي بالصبر.

ومن هذه الصفات الأربع تؤخذ صفات الفئة الخاسرة التي أقسم الله تعالى عليها، أخذاً من مفهوم المستثنى، وتتصف أيضاً بأربع صفات هي:

١- الكفر والشرك، مقابل الإيمان.

٢- العمل الفاسد، مقابل العمل الصالح أو تركه.

٣- عدم التواصي بالحق، أو التواصي بالباطل.

٤- عدم التواصي بالصبر، أو الجزع والسخط.

وقد دل القرآن الكريم على خسران وهلاك كل فئة من هذه الفئات الأربع:

١- قال تعالى في شأن المشرك ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥] .

وفي شأن الكافر قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة:٥] .

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح.

٢- وقال تعالى في شأن تارك العمل الصالح: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠٣] .

وقال أيضاً: ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة:١٩] وقال جل شأنه: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء:١١٩] .

والآيتان في شأن العمل الباطل الفاسد.

٣- والتواصي بالحق: هو التواصي بالإسلام كله، وتارك التواصي بالحق، يكون قد استبدل به التواصى الباطل، أو تَركَه دُون أن يعبأ به، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

وفي الأول وهو التواصي بالإسلام كله، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] .

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [العنكبوت:٥٢] .

والذي لا يتغير وجهه غضبًا لله تعالى وانتهاك حرماته هو من جملة الخاسرين.

٤- ويقابل التواصي بالصبر: الهلَع والجزع، وقد وصف الله تعالى هذا الصنف من الناس في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج:١١] .

ويقابل التواصي بالصبر كذلك عدم التواصي به، وهو خسران وهلاك.

ونلاحظ أن الله تعالى وصف هذه الفئات الأربع بالخسران في ختام كل آية من الآيات السابقة.

ويتبين هذا الخسران للكافر؛ حينما تبقى منازل أهل النار في الجنة خالية، فيتوارثها أهل الجنة، وتبقى منازل أهل الجنة في النار خالية، فتوزّع على أهل النار، وبذلك يكون الكافر قد ترك منزلته في الجنة لغيره، وأخذ بدلاً منها، وهي منزلة غيره في النار، بالإضافة إلى منزله الأصلي فيها، وذلك هو الخسران المبين، بالنسبة للكافر، والربح العظيم بالنسبة للمؤمن.

وهذا هو التغابن المشار إليه في الآية ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ [التغابن:٩] .

فالناس فريقان: فريق يلحقه الخسران وهو من لم يعمل صالحاً ولم يتب من سيئاته، وفريق لا يلحقه الخسران، وهو المؤمنون العاملون للصالحات، وهذا الخسران متفاوت، وأعظمه خسران من لم يؤمن بوحدانية الله تعالى، ومن لم يصدق برسالة محمد ﷺ، ولعله مقصود الآية.

وأدنى من هذا الخسران: ارتكاب الكبائر والفواحش، وأدنى منه ارتكاب بعض اللمم وصغائر الذنوب من السيئات التي تُذهبها الحسنات.

وهكذا: فبالإيمان والعمل الصالح، يكمِّل الإنسان نفسه، وبالتواصي بالحق والتواصى بالصبر، يكمل غيره، وبتمام هذه الأربع يسلم العبد من الخسران ويفوز بالربح العظيم.

مشاركة الجن للإنس في الخسران:

الجن مكلفون بالدعوة الإسلامية والاستجابة لها، كالإنس تماماً، كما هو ثابت في الكتاب والسنة.

وقد أخبر القرآن الكريم أن الجن والإنس سواء في الخسران والهلاك إن كانوا كافرين: قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [الأحقاف:١٨] .

وقال سبحانه: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت:٢٥] .

إن سورة العصر ترسم للمسلم منهجاً متكاملاً، ودستورا إلهيّاً، يحقق له سعادتي الدنيا والآخرة، فيكون من الناجين الرابحين، ومن عباد الله المتقين: في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وصلى الله وسلم على عبده وحبيبه محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم تفسير (**سورة العصر**) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْهُمَزَةِ (١٠٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الهُمَزة) هي السورة الرابعة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثانية والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة القيامة) وقبل (سورة المرسلات).

وهي تسع آيات باتفاق، وثلاثون كلمة، ومئة وثلاثون حرفاً، وهي سورة مكية.

وتسمى (سورة الهمزة) وهو الأشهر، وأُطلق عليها: (سورة الحطمة) و (سورة ويل لكل همزة).

موضوع السورة:

تتحدث (سورة الهمزة) عن الذين يعيبون الناس بالطعن في أعراضهم، وازدرائهم، وبالسخرية منهم، والاستخفاف بهم، وتذم من يغترُّون بأموالهم وسلطانهم، فيترفّعون على الناس وينتقصونهم، وتُبيِّن أنهم من أهل الشقاء الذين استوجبوا عذاب جهنم.

وفي صدر الإسلام وُجدت جماعة نصّبوا أنفسهم لِلَمزِ المسلمين وسبّهم، والتنقيص من شأنهم، ومن هؤلاء: الوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وأُبيّ بن خلف، وجميل بن مَعْمر ـ وقد أسلم يوم الفتح ـ والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأخنس بن شريق، وكل هؤلاء من أهل الثراء والوجاهة بين الناس.

ومن الناس في كل عصر ومصر من يخلُف هؤلاء في التنقيص من شأن الإسلام والمسلمين، وهذا من الحروب التي يشنها المجرمون على أصحاب الرسالة الأخيرة، لِفضِّ الناس من حولهم، وغالباً ما يكونون من أهل الجاه والثراء، فيتناولونهم بالكلمة، وبالحركة، وفي المسلسلات والأفلام والمسرحيات والروايات وبالرسم الهزلي في الصحف.

وقد نُظمت هذه الحروب في العصور الأخيرة، عبر وسائل الإعلام المختلفة، ومنها: الصحف، وشبكة المعلومات، والفضائيات، وغيرها.

وقد أعد الله تعالى الويل لهؤلاء في الدنيا بفضحهم وكشْف تدبيرهم وخِزْيهم.

ووصفت آيات هذه السورة عذاب نار الحطمة الذي أعده الله لهم في الآخرة بأربعة أوصاف هي:

١- إنها نار موقدة، شديدة الاستعار واللهب.

٢- ومن شدة حرها أنها تنفذ من مسام الجسم إلى القلب، فتطّلع عليه وتحرقه.

٣- وهي نار مغلقة عليهم لا يخرجون منها.

٤- ولهذه النار أبواب محكمة قد شُدّتْ بأعمدة وأوتاد من حديد، بحيث لا يمكن لمن بداخلها أن ينفكَّ منها. نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدنيا والآخرة.

وهكذا: فإن الله تبارك وتعالى قد توعدّ بالويل والهلاك كل همّاز لمّاز جامع للمال.

ثم بينت آيات السورة عذاب من اتصف بهذه الأمور الثلاثة يوم لقاء الله، وذلك في الآيات الخمس التي تليهما.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ يَعِيبُ النَّاسَ فِي حُضُورِهِمْ أَوْ غَيْبَتِهِمْ

١ - ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾

توعد الله بالعذاب الشديد كل من يهمز الناس أو يلزمهم بقوله أو فعله، فيعيبهم ويتنقّصهم أو يهزأ بهم ويسخر منهم.

سبب نزول سورة الهمزة:

قيل نزلت في الأخنس بن شُرَيْق، فقد كان ضارباً في الغيبة والوقيعة بين الناس، يلْمزُهُم ويُعيبهم مقبلين ومدبرين، وقيل نزلت في غيره[1].

والحكم في السورة عام، وخصوص السبب في عصر التنزيل لا يعني تخصيص الوعيد بالنسبة للأخنس أو لغيره، بل كل من اتصف بالهمز واللمز في كل عصر ومصر فهو داخل تحت الوعيد المذكور في الآية، وذنبه مثل ذنب من نزلتْ فيه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الهماز اللماز، هم: (المشاؤن بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبُرآء العيب)[2].

ومعنى ذلك أن الآية تتناول (النميمة) إلى جوار الغيبة، وتتناول أيضاً: تتبع العورات، والتماس العيوب للبرءاء، وقد جاء هذا المعنى في حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بشراركم» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «الذين إذا رُؤُا ذُكِر الله تعالى» ثم قال: «ألا أخبركم بشراراكم؟ المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين

(١) راجع الأقوال الواردة في ذلك في زاد المسير في علم التفسير، سورة الهمزة.

(٢) تفسير الخازن، سورة الهمزة وقد أخرجه الطبري (٦١٦/٢٤)، وابن أبي الدنيا (١٢٦)، وسعيد بن منصور كما في فتح الباري (٧٢٩/٨).

الأحبة، الباغون للبرآء الْعنَت»[1] فما هي النميمة:

النميمة ودواعيها:

النميمة هي نقْلُ الكلام بين شخصين أو دولتين أو عشيرتين على وجه الإفساد والوقيعة بينهم، ويَحْمِل عليها: النفاق والتملُّق والحقد والحسد، وهي من كبائر الذنوب المحرمة بالإجماع، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠ – ١١].

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالتثبت والتبيُّن تجاه الأقوال المنقولة، ووصف القرآن الكريم النمّام بالفسق في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وقال ﷺ من حديث حذيفة ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات»[2] أي نمام.

وعامة عذاب أهل القبور من النميمة، ومن عدم الاستبراء من البول.

والنَّمام منافق يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه.

والنميمة تُسبِّب العداوة والفتن بين الأفراد والجماعات، وتُفرق بين الشريكين والزوجيْن والصديقيْن.. الخ.

ويجب على المسلم ألا يُصدّق النمام، وأن ينهاه عن النميمة، وأن يبْغَضه في الله، وألا يُخْبِر بما قاله له، وإلا كان مثله، وألاّ يظن السوء بمن قيل له فيه، وألا يتجسس عليه، ولْيعلم أن من قال له قال فيه.

---

(١) المسند (١٧٩٩٨،٢٧٥٩٩،٢٧٦٠١)، وعبد بن حميد (١٥٨٠)، والطبراني في الكبير (٤٢٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٢٣)، وابن ماجة (٤١١٩)، والبيهقي في الشعب (١١١٠٧،١١١٠٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٩٣): رواه أحمد، وفيه شهر بن حوشب، وقد وثقه غير واحد، وبقية رجال أحد إسناديه صحيح، وقال محققو المسند: حسن بشواهده.

(٢) متفق عليه، من حديث حذيفة، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، حديث رقم (٦٧) وهو في البخاري (٦٠٥٦)، وفي الأدب المفرد له (٣٢٢)، وفي مسلم (٢٨٥٣)، وأبوداود (٤٨٧١)، والترمذي (٢٠٢٦)، والمسند (٢٣٢٤٧)، وابن حبان (٥٧٦٥).

والنميمة داخلة في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ فالهمز أعم من الغيبة.

واللمز أعم من النميمة.

والوعيد الذي في السورة يفيد أنهما أكبر إثماً وأعظم جرماً من الذنوب المماثلة لهما.

بواعث ودوافع الهمز واللمز:

الويل: وادٍ في جهنم يَسيلُ قَيْحاً وصديداً، أعدّه الله تعالى للهمّاز اللمّاز، والمختار أنها كلمة وعيد وتهديد، فقد توعّده الله بالعذاب الشديد والهلاك والدمار.

وسورة الهمزة تعكس صورة واقعية تتكرر في كل مجتمع، فيأتي الهمز واللمز ممن يلتمس رفع خسيسته بالطعن فيمن له مكانة مرموقة ومنزلة عالية بين الناس، أو بسبب الكبر والغرور، أو لتبرير أخطائه، أو إرضاء الآخرين؛ فهذه.

أربعة أسباب:

١ - فقد يحدث الهمْز واللمز من مريض النفس، صغير الشأن، الذي يلتمس الرفعة بالطعن في الآخرين، والتنقيصِ من شأنهم، ولاسيما الناجحين في حياتهم، من أصحابِ المنزلة عند الناس، فَيَحْدُثُ الطعنُ عليهم من الفاشلين الذين تعثّروا في حياتهم، حَسَداً لهم وحقداً عليهم، فيحقّرون أعمالهم وصفاتهم، ويتصيّدون لهم الأخطاء، ويُلْصِقون بهم التُّهم.

٢ - وقد يحدُث الهمْز واللمْز من أصحاب المال أو الجاه، أو المنصب، أو الصحة والقوة، أو العصبية، بالنسبة لِمنْ هُمْ دونهم في شأن من هذه الشؤون، بسبب الكبر والغرور، والنفخة الآثمة التي يملأ بها الشيطان صدورهم والعياذ بالله.

٣ - وقد يُبرّر الشخص أخطاءه بذكر أخطاء الآخرين ممن هم أكبر منه سناً أو علماً أو شأناً أو جاهاً وسلطاناً، أو منزلة ومكانة بين الناس.

٤ - وقد يكون الهمز تملُّقاً ونفاقاً لإرضاء طرف آخر محاكاةً له، أو تقديم يَدٍ له عنده، فيتكلم في شأن مَن يبغضه مُحدِّثة بما يَشْفى غليله.

وفي جميع الحالات، صورة لَئيمة حقيرة من أصحاب النفوس البشرية حين تخْلُو من المروءة، وتتعرّى من الإيمان، والإسلام يمقتُ هذه الصورة الهابطة ترفّعاً، فيشنِّع عليها، ويُقبّحُها ويعاقب مرتكبيها.

ونُريد أن نتعرف على معنى هاتين الصفتين القبيحتين.

أولاً: الهمز وأساليبه:

الهماز: هو الذي يعيب الناس، ويَطْعنُ فيهم في غيْبتهم على وجه التحقير والتنقيص.

ويكون الهمز **قولاً** باللسان: بإظهار عيوب الناس، وتتبُّع عوراتهم، والخوض في أعراضهم.

ويكون الهمز **فعلاً**: عن طريق الحركة، أو الإشارة، أو الإيماءة، أو التمثيل، أو التعريض، أو الغمز واللمز، أو الكتابة، أو أيِّ شيء يُفهم منه تنقيص الطرف الآخر.

قال مجاهد: الهماز: هو الذي يأكل لحوم الناس، واللماز: هو الطعان.

ويدخل في الهمز واللمز مَنْ يُحاكِي الناس في أقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا منه.

مواطن الهمز:

والهمزُ: يكون في مظهر الإنسان وهيأته، ويكون في جسمه وخِلْقته، وفي حَسَبِهِ ونسَبِهِ، وفي أهله وقبيلته، ويكون كذلك في خُلُقه وعاداته وتقاليده.. بالإساءة إليه فيما ذُكر ونحوه.

ويكون الهمز كذلك في الأمور الشرعية التي يخالف فيها المهموز حكم الشرع، ولم يطلع عليها أحد من الناس، ما لم يكن مجاهراً بالمعصية، كاشفاً عن وجهه.

ويكون الهمز كذلك في الأمور الدنيوية، كالحرف والصناعات والمهن اليدوية.

مشاركة في الإثم: والأدب الإسلامي يحتّم على المسلم ألا يُجاري الهماز، وألاّ يطيعه ويتابعه، وألا يشاركه في الإثم، فيصدقه فيما يقول أو يفعل، قال تعالى:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠ - ١١].

فيجب على المسلم ألاّ يُجامل الهماز، كأن يسترسل معه ويُصغِي إليه، ولكن يذبّ عن عِرْض أخيه في غيبته، ويدفع عنه ميتة السوء:

قال عليه الصلاة والسلام من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها: **«من ذَبَّ عن لحم أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقَهُ من النار»**(١).

وقال ﷺ من حديث أبي الدرداء ﷺ: **«من رد عن عرض أخيه ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة»**(٢).

ابدأ بنفسك: وأَوْلَى بمن يغتابُ الناس ويتتبع عوراتهم، أن يتفقّد نفسه، ويَشتغل بتهذيبها وإصلاحها، فيُصلحُ عيوبَ نفسه، ويَهتمُّ بها، قبل النظر في عيوب الناس، فما كان منها منكَرا ظاهراً يتصدى لإصلاحه بوجه من وجوه الإصلاح، لئلا يكون جرثومة في المجتمع، وقدوة سيئة لغيره، وما كان منها مُنْكَراً مستتراً، فعليه أن يُصلح ما بينه وبين نفسه حتى يصلح الله ما بينه وبين الناس.

قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه أبوبرزة الأسلمي والبراء بن عازب رضي الله عنهما: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يَدخُل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه المسلم، تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»(٣).

---

(١) حديث حسن، أخرجه أحمد برقم (٢٧٦٠٩، ٢٧٦١٠)، والطبراني في الكبير (٤٤٢)، والبيهقي في الشعب (٧٦٤٣) عن أسماء بنت يزيد، ينظر صحيح الجامع الصغير رقم (٦١١٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٨/٩٥) رواه أحمد والطبراني وإسناد أحمد حسن، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٣٥٢٩)، والطيالسي (١٦٣٢).

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد برقم (٢٧٥٣٦، ٢٧٥٤٣)، قال محققوه: حسن لغيره (١٥٧٥)، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٣٥٢٨)، وأبونعيم في الحلية (٧/٢٥٧) وغيرهم، والترمذي عن أبي الدرداء (١٩٣١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي وفى صحيح الجامع الصغير رقم (٦١٣٨).

(٣) حديث صحيح، أخرجه أحمد وأبوداود (٤٨٨٠)، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٣): حسن صحيح عن أبي برزة الأسلمي، وهو عن البراء بن عازب في البيهقي (٩٦٦٠، ١١١٩٦)، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٣٤١)، راجع صحيح الجامع الصغير (ج٦ ص ٣٠٨) رقم (٧٨٦١).

المغتاب: وعلى ضوء ما سبق من توضيح معنى الهماز، نستطيع القول - على المختار - إن الهماز: هو المغتاب العيّاب الذي يذُم الناس في غَيْبتهم بما فيهم من صفات أو خصال خِلْقية أو خُلقية، دينية أو دنيوية، بحيث لو كان حاضراً، وسمع ما قيل فيه لَغضِبَ واستاء، فهذا المعنى يدخل في الهمز دخولاً أوليّاً.

وللهمز معاني أشمل وأكثر.

أخرج الطبري بسند صحيح أن مجاهد قال في معنى الآية:

أحدهما: الذي يأكل لحوم الناس، والآخر: الطعان.

الغيبة (بكسر الغين): وقد عَرَّف النبي ﷺ الغيبة بأنها «**ذكرك أخاك بما يكره**»[١] ويشترط أن يكون هذا في غيبته، وأن يكون ما يقال عنه موجودا فيه فعلا، فإن لم يكن ما قيل عنه موجودا فيه، فإنه يسمى: بهتاناً وافتراءً.

قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول، قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه**»[٢].

والبهتان أعظم ذنباً من الغيبة، لأنه جمَع بين الغيبة والكذب والافتراء.

الغيبة من كبائر الذنوب:

والغيبة محرمة بالإجماع، فهي من أقبح الذنوب وأخطرها، وآفة عُظمى من آفات اللسان، تُقطّع أواصر الأخوة والمودة، وتَبُثّ العداوة والفُرقة، وتنشُر الرذيلة بين الناس، وتُشجّع على إشاعة الفاحشة فيهم.

وقد صوّر القرآن الكريم المغتاب بصورة شنيعة قبيحة: شبّهه بمن يأكل لحم أخيه وهو ميت لا يشعر به، فكذلك من يغتاب الناس، يَنْهشُ أعراضهم ويلُوكُها وهم لا يعلمون، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا

(٢،١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة، حديث رقم (٢٥٨٩)، وأبوداود (٤٨٧٤)، والترمذي (١٩٣٤)، وابن أبي شيبة (٣٨٧/٨)، والطبري (٣٧٦/٢١).

فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢] أي فإذا كرهتم هذا فاكرهوا الغيبة.

ولما اغتاب بعض القوم «ماعزاً» بعد أن أقيم عليه الحد ومات بعد الرجْم، انتظر النبي ﷺ حتى مر على جيفة حمار منتنة، فقال: «**أين فلان وفلان**» فلما أجاباه، قال: «**انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار**»، قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يؤكل هذا؟ قال ﷺ: «**فما نلتما من أخيكما آنفا أشد أكلاً منه، والذي نفسي بيده، إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها**»[1].

لقد تاب ماعز، وجاء معترفاً بذنبه مقراً به، وأقيم عليه الحد الشرعي، ولما اغتابه بعض القوم بعد موته، أعطاهم النبي ﷺ هذا الدرس العظيم في التنفير من الغيبة.

ليس من الغيبة: وليس من الغيبة: التظلّم، ولا ذكر الحال طلباً للفتوى، ولا الاستشارة، ولا الألقاب المعروفة، ولا التحذير من شر المُجاهِر بالبدع، ومن شر الفاسق المعلِن عن نفسه ونحو ذلك.

كفارة الغيبة: الغيبة تُعرّض العبد لسخط الله تعالى، وتُحْبِط حسناته، والتوبة منها تكون بالرجوع إلى الله تعالى وفق شروط التوبة المعروفة، ثم يُكْثِر التائب من الثناء على من اغتابه، ويَرْجِع عن قوله أمام من اغتابه عندهم، ويعتذر لمن اغتابه إن كان قد بلغه ما قال عنه، وإلا فلا يوغِر صدره بما لم يصل إليه، بل يكثر من الدعاء والاستغفار له، بعد الندم والعزم على عدم العوده لمثلها.

ففي الغيبة حق لله تعالى، وحق للعبد، وكلاهما يحتاج إلى توبة، وإذا ترتّب على ذكر الغيبة لمن قيلت فيه، مفسدة أكبر، فيكتفى بالتوبة والثناء عليه، ومَدْحِه بمقدار ما أساء إليه، ولاسيما في المجالس التي انتقص منه فيها.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، راجع النص في الترغيب والترهيب (ج٣ ص ٥٠٩) باب ذم الغيبة عن أبي هريرة، وقد أخرجه عبد الرزاق (١٣٣٤٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٣٧)، وأبو يعلى (٦١٤٠)، والبيهقي في الشعب (٩٦٥٧)، وصحح إسناده عنه السيوطي في الدر المنثور (٥٨٢/١٥).

ثانياً: اللمز وأساليبه:

اللمز: هو أن يعيب الإنسان أخاه في وجهه بكلام، ولو خفيّ، ورب لَمْزٍ خفيّ أشدّ من طعن صريح، وأعمق جُرْحاً في داخل النفس، لأن فيه بالإضافة إلى الطعن والتجريح بالعيب، استغفالُ الملموز وافتراض الغباوة فيه، كأنه لا يتنبه للطعن الذي يوجَّه إليه.

فالهمز يكون في غيبة الشخص، واللمز يكون في حضوره.

واللمز: من القبائح الاجتماعية التي تُورّثُ الأحقاد والضغائن والعداوة، وتُفرّقُ بين الناس، وتُقطّعُ أواصر الأخوة والمحبة بينهم، وتُثيرُ الغضب، وحبّ الانتقام.

والمؤمن مطالَب بستر عورة أخيه، وألا ينشُرَ عيوبَه ويفضَحهُ بين الناس، ولو كان بالرموز والإشارات والمعاريض، وعليه أن يُخْلِصَ له النصيحة فيما بينه وبينه، ولا يفضحَه بين الناس.

والغالب أن اللماز لا يكون ناصحاً، بل باغياً للبرآء العيب، مُلْتمساً لهم الفضيحة، منقّباً عن مستور حالهم، كاشفاً لعوراتهم، مبرّرا بذلك عورات نفسه، ومشيراً إلى أخطاء الناس حتى تُغتفرَ له أخطاؤه عند الناس.

وقد يكون اللمز إشارة من اللامز على سبيل التحقير والتنقيص ببعض حركات أعضاء الوجه، بالجفن أو الحاجب، أو الرأس، أو باليد، أو.. أو.. وهؤلاء الساخرون من غيرهم أهل بطالة غالباً يعيشون في ظلال أموالهم التي آلت إليهم بطريقة أو بأخرى.

وهذا الغمز: هو الذي كان يحدُث من الفجار المجرمين بالنسبة إلى ضعفاء المسلمين وفقرائهم استهزاء بهم واستخفافا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣١].

فكأنهم يعجبون ويتفكهون بالضحك عليهم والسخرية منهم.

ويوم القيامة يَلْقَوْنَ الجزاء من جنس عملهم ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٤ ـ ٣٥].

وفي النهي عن اللمز قال سبحانه ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ وقد حرمه الإسلام لما فيه من

الفسوق والإساءة إلى الآخر، قال تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١١] واللمز من ظواهر الكبر والاستعلاء على الناس، لما فيه من تحقير الآخرين وتنقيصهم والاستهزاء بهم والسخرية منهم.

الْمَالُ هُوَ الْعِلَّةُ الْبَاعِثَةُ عَلَى انْتِقَاصِ النَّاسِ وَالتَّعَالِي عَلَيْهِمْ

٢، ٣- ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ (١) مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ (٢) أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾

يبين الله عز وجل أن الهمز واللمز سببه وعلته، والباعث عليه: هو الافتخار والكبر، والنظر إلى مَنْ دونه ماديًا باستصغار وسُخرية واحتقار، فهو يظن أن المال هو مناط التفاضل بين الناس.

ومن الصفات الذميمة لهذا الصنف من الناس أنه يجمع المال ويهتم به ويحصيه، فيكنزه ولا يخرج زكاته وكلما كثُر في يده ظن أن له مزية على غيره.

فهذا الإعجاب والغرور يكون غالباً بسبب ما أعطاه الله من مال، فهو يُعدِّده ويجمعه، ليكون ذخيرة له في المستقبل، يقضي به حاجاته وشهواته، فيكنزه ويحبسه عن وجوه الخير، ويمنع منه حق الله تعالى، وهو يظن أن ماله الذي حفظه وأحصاه، سيخلّده في الدنيا، ولن يفنى من يديه، وهو لا يشك في الموت لأنه يراه بعينه، ولكنه يعمل عمل من يزعم أنه يخلّد ولن يموت - إنها الغفلة والغرور - ولو خلَّد المال أحداً لخلد قارون، وقد غاب عنه أن البخل يقصف الأعمار ويخرب الديار، وأن البر يزيد في العمر ويبارك المال.

وحب المال واستيلاؤه على النفوس بهذا المعنى، صورة من صور عدم الإيمان، ومن صور شغَف النفس البشرية، التي تزعم أن المال هو القيمة العليا في الحياة، وأن مَنْ ملَك المال، فقد ملَك كرامات الناس وأقدارهم، فاستهان بهم، واستعلى عليهم، ونفَخ الشيطان

---

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبوجعفر وروح وخلف بتشديد الميم من ﴿جَمَّعَ﴾ على المبالغة، والباقون بالتخفيف على الأصل.

(٢) فتح السين من ﴿يَحْسَبُ﴾ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبوجعفر، والباقون بكسرها.

فيه، فظن أن ثروته لن تبيد أبداً، وأنه في غنى عمن دونه من الخلق، وأنه أفضل من غيره.

عن أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»[1].

عِقَابُ مَنْ يَنْتَقِصُ النَّاسَ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ

٤-٦- ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ﴾

كلا - ليس الأمر كما زعم جامع المال - فهو لا يخلّد في الدنيا، بل وعزتنا وجلالنا ليُطرحَنّ في النار المسعرة التي تُحطِم كل من يُلْقَى فيها وتلتهمه.

والحطمة اسم من أسماء النار، لأنها تحطّم العظام وتكسّرها، ومن أسمائها: سقر ولظى.

وفي إعادة لفظ ﴿ٱلۡحُطَمَةِ﴾ بذاته، تفخيم وتهويل لشأنها، فليست كنار الدنيا، بل هي نار مؤججة، وقودها الناس والحجارة، لا تخمَد أبداً، ولا يطفأ لهيبها، ولا يحيط بكنهها غير خالقها، والناس فيها لا يموتون ولا يحيوْن، وهي تتغيظ، عليهم ولها زفير وشهيق.

النَّارُ تُحَطِّمُ مَنْ يَعِيبُ النَّاسَ وَتُطْبِقُ عَلَيْهِ

٧-٩- ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ[2] ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ[3] ۝٨ فِي عَمَدٖ[4] مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩ ﴾

---

(١) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، برقم (٢٤١٧) في السنن، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (١٩٧٠)، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٤٦/١٠) إلى الطبراني والبزار من حديث معاذ، وقال: رجال الطبراني رجال الصحيح، وورد أيضاً عن ابن مسعود في صحيح سنن الترمذي (١٩٦٩)، والسلسلة الصحيحة (٩٤٦)، والروض النضير (٦٤٨).

(٢) وقف حمزة بنقل همزة ﴿ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ الثانية إلى الفاء مع حذف الهمزة، وله فيها السكت على (ال) سكتة خفيفة بدون تنفس.

(٣) قرأ أبوعمرو وحفص وحمزة ويعقوب وخلف بالهمز في ﴿مُّؤۡصَدَةٞ﴾ من آصدت الباب، أي أغلقته فهو مؤصد، والباقون بإبدال الهمزة واوا من أوصد يوصد، وأبوعمرو لا يبدل همزها لأنه مستثنى.

(٤) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف بضم العين والميم من ﴿عَمَدٖ﴾ جمع عمود، أو جمع عماد، والباقون بفتحهما، اسم جمع، لا واحد له من لفظه.

هذه النار تأكل الكافر حتى تنتهي إلى الفؤاد والجوف، فهي تنفذ من الأجسام إلى القلوب، والفؤاد هو موطن الكفر أو الإيمان، والنار تعرف أسرار القلوب، وتميز بين الكافر والمؤمن، فيبلغ ألمُ وَجَعِها إلى الجوف، وتصل إلى الفؤاد، ويظل العذاب متجددا، فالمعذب لا يحترق ولا يموت، بل كلما نضجت جلودهم بدلهم الله تعالى جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب، فالإحراق والعذاب غير متناهي، وهو يصل إلى أقصاه وغايته، ومع هذا فهو متجدد لا ينتهي.

فالنار تأكل كل شيء في الكافر حتى تنتهي إلى فؤاده، فإذا بلغت فؤاده ابتُدىء خلقه من جديد، ومن المعلوم أن هذا العذاب لا يستحقه إلا الهماز اللماز الكافر، أما المؤمن فإنه يعذب بذنبه في الآخرة إن لم يتب منه في الدنيا.

وجاءت صورة العذاب بالنار - في هذه السورة - في صورة حسية مادية، فريدة في القرآن الكريم، تُناسب الهماز اللماز الذي يعيب الناس ويتعالى عليهم بماله، وهي صورة نفسية أليمة، فهي تصور الكافر مطروحاً في نار جهنم، تُحطِّم كبرياءه وغروره، وتَطّلع على فؤاده، وهي مُطْبِقة عليه، فلا يخرج منها أبداً، وأبوابها محكمة مغلقة لا ينفذ منها أحد، فهم محبوسون فيها، قد أيسوا من الخروج منها ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [السجدة: ٢٠].

فقاعدة هذا السجن: أعمدة ذاهبة في الطول، ينتشر العذاب فيها كلها ولا يستطيع أهلها الخروج منها.

هذه الصورة الفظيعة، وهذا العذاب الأليم، أعده الله تعالى للهماز اللماز الذي جمع المال واغترّ به وأنكر الحساب والجزاء.

والكفار موثوقون في سلاسل وأغلال، شُدّت بها أيديهم وأرجلهم، فَيُعذَّبون بِعُمد وأوتاد طويلة ممددة في نار جهنم، فلا ينفتح عليهم باب، ولا يدخل عليهم رَوْح ولا ريحان - نعوذ بالله من نار جهنم وعذابها -.

وفي هذا عبرة وعظة، وأي عبرة لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم تفسير (**سورة الهمزة**) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الفيل (١٠٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الفيل) هي السورة الخامسة بعد المئة في ترتيب المصحف، والتاسعة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الكافرون) وقبل (سورة الفلق) أو (قريش).

وهي خمس آيات، وعشرون كلمة، وستة وتسعون حرفاً، وهي سورة مكية.

والمشهور أن اسمها (سورة الفيل) ويقال: (سورة ألم تر).

قال عمرو بن ميمون: صلّيت المغرب خلف عمر بن الخطاب ﷺ فقرأ في الركعة الثانية ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾.

واستدل بعضهم بهذا على أنهما سورة واحدة، لأن الصحابة لم يكونوا يقرؤن في الركعة الواحدة من الفريضة سورتين[١].

قلت: الصحيح أنهما سورتان، فَصَلَتِ البسملة بينهما، ولا يلزم من قراءتهما في ركعة واحدة أن يكونا سورة واحدة.

موضوع السورة:

تحدثت سورة الفيل عن قصة (أصحاب الفيل) حين قصدُوا هدْم الكعبة، فردّ الله كيدهم في نحورهم، وأرسل على جيش «أبرهة» أسراباً من الطير، تحمل في أرجلها ومناقرها حجارة صغيرة، أهلكهم الله بها، وأبادهم عن آخرهم، بعد أن شعر أهل مكة بالعجز عن مقاومة هذه الحملة، ففروا إلى رؤوس الجبال، تاركين بيت الله وبيوتهم لحماية رب العالمين.

ومن مقاصد هذه القصة: تذكير الناس جميعاً وأهل مكة بوجه خاص، بأن من أراد هذا البيت بسوء، قصمه الله، ولا يمنع هذا من حدوث العدوان على الكعبة بعد حادثة الفيل مرة أخرى أو مرات، فإن عقاب الله له بالمرصاد في الدارين، والله تعالى يتوعّد من

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٥٤٣/٣٠).

يُقدم على ذلك بالهلاك والخسران في الدنيا والآخرة.

ولم تتكرر هذه القصة في القرآن لأمرين:

أحدهما: إن إهلاك أصحاب الفيل ليس لأجل تكذيب الرسول.

وثانيهما: ألا يغترّ المشركون، فيتوهمون أن لهم مكانة عند الله تعالى، كما توهّم من كانوا يقومون منهم بسقاية الحجيج، وعمارة المسجد الحرام، بأن لهم منزلة عند الله وهم يصدّون الناس عنه.

وتبدأ سورة الفيل بتوجيه خطاب للنبي ﷺ في صورة استفهام تقريري تعجُّبي على حادثة لم يشهدها النبي ﷺ حال وقوعها، وكانت معروفة مشهورة لدى العامة والخاصة.

ويأتي هذا الأسلوب التقريري في صورة امتنان من الله تعالى على رسوله ﷺ، وعلى قومه وأمته، بأن حَمَى الله بيته وصانه من مكْر الماكرين، ليكون مثابة للناس وأمنا إلى أن تقوم الساعة، وليكون نقطة انطلاق للرسالة الإلهية الخاتمة، وليكون إرهاصاً بين يدي رسالة محمد ﷺ.

وفي هذا بشرى بأن الله تعالى يحفظ بيته دائماً من كل مكر يراد به، ليظل البيت الحرام آمناً من عبث العابثين، وكيد الماكرين، كما يحفظ حرم رسوله ﷺ بحول الله وقوته ومشيئته.

عام الفيل:

جرت العادة أن الناس يؤرخون بالأحداث الهامة في حياتهم، ومن ذلك عام الفيل، نظراً لما لحادثة الفيل من أهمية كبرى لتعلقها ببيت الله الحرام، فقد كان الناس يؤرخون بها قبل الإسلام، وقد وقعت حادثة الفيل عام ٥٧٠ ميلادية وهو العام الذي ولد فيه النبي ﷺ وكانت هذه الحادثة من أعظم الإرهاصات الدالة على صدق نبوته ﷺ.

سبب الحادثة:

لم يكن للعرب قبل الإسلام شأن يُذكَر في دنيا الناس، وكان معظمهم تحت النفوذ الأجنبي:

١- وكانت الحبشة قد استولت على اليمن، بعد واقعة الأُخدود التي عَذّب فيها

الملك ذو نواس، النصارى، وفرض سلطانه على اليمن، وكان أبرهة الأشرم أميراً على اليمن من قبل النجاشي، وقد أراد أبرهة أن يتقرب إلى النجاشي ـ النصراني ـ ليصرف العرب عن مكة وقبلتها، وذلك ببناء كنيسة يتوجه إليها الناس عوضاً عن الكعبة، وكان النجاشي قد غضب عليه وحلف ليطَأنّ أرضه ولَيُجزّنّ ناصيتَه.

٢ - ولما رأى أهل الحبشة استمرار رِحْلاتِ أهل اليمن في مواسم الحج إلى مكة، خافوا على اقتصادهم، فأرادوا أيضاً أن يصرفوا الناس عن هذه الرحلات التجارية، ليتحول اقتصاد الجزيرة وتجارتها إلى بلادهم.

٣ - وكانت فئة من قريش، قد خرجت في تجارة، ونزلوا في طريقهم إلى جوار معبد للنصارى يسمونه الهيكل، فأوقدوا ناراً لحاجتهم، فلما ارتحلوا من المكان هبت ريح عاصفة فاحترق المعبد، فاستشاط القوم غضبًا، وأتوا إلى أبرهة، وقرروا إحراق الكعبة وهدْمَها، وسبْيَ أهل مكة.

فهذه ثلاثة أسباب دينية وسياسية واقتصادية، وأهمها السبب الديني الأول.

كنيسة القلّيس باليمن:

وقد كان أهل الحبشة يدينون بالمسيحية، فأرادوا نشر هذا الدين في جزيرة العرب، بعد أن استولوا على اليمن، ولَمّا رأوْا تقديس العرب لمكة وللمسجد الحرام، بدأ أبرهة - القائد الحبشي على اليمن - في بناء كنيسة بصنعاء نَقَلَ إليها الأعمدة والحجارة الذهبية من قصر بلقيس، وبذل فيها جهداً كبيراً، ودعا العرب إلى حَجّها بدلاً عن البيت الحرام، فغضب العرب لذلك.

وأقسم رجل من بني مالك ليغبثنَّ بهذه الكنيسة، فقَدِمَ اليمن، ودخل الكنيسة، ولطّخ جُدرانها بالقاذورات، ولمّا علم أبرهة بذلك حلف ليهدمنّ الكعبة، فكتب إلى النجاشي بذلك وطلب تزويده بالفيلة.

خرج أبرهة قاصداً مكة، ومعه ثلاثة عشر فيلاً، منها: فيل كبير جسيم، يدعى «محمود» هو فيل النجاشي.

سمع العرب بذلك، فتصدَّوْا لقتاله: وخرج إليه ملِك من ملوك اليمن، يقال له: ذو نفْر، وقاتلَهُ، فهزمه أبرهة.

ولما وصل بلاد خثْعم خرج إليه بعض منهم ومن القبائل الأخرى وقاتلوه، فهزمهم أبرهة.

ولما وصل الطائف خرج إليه رجال من ثقيف، وأرادوا أن يصرفوه عن بيتهم الذي بنوه، وهو (اللات) وبعثوا معه من يدلّه على الكعبة.

فلما كان أبرهة بالمغَمّس - مكان بين مكة والطائف - بعث أحدُ قواده فجمع إليه أموال أهل الحرم، وفيها مئتا بعير لعبد المطلب، وجرت مفاوضات بين أبرهة وعبد المطلب، انتهت بأن يردّ أبرهةُ إبلَ عبد المطلب.

وكان عبد المطلب سيدَ قريش تعلُوه المهابة والوقار، فأعظمه أبرهة، قال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه ويحميه، فرد أبرهة قائلاً: ما كان ليمتنع مني، فأجابه: أنت وذاك..

وانطلق عبد المطلب إلى قريش يخبرهم، ثم تعلق بحلْقة الكعبة وأستارها في ضراعة الخائف الوجل، وإنابة العائذ المستغيث، وأخذ ينشد أبياتاً مشهورة يطلب فيها عون الله تعالى وحمايته لبيته.

وكان عبد المطلب قد عرض على أبرهة ثُلثَ أموال تهامة على أن يرجع عن هدم البيت، ولكنه أبى وأصر، فعاد عبد المطلب مردّدًا:

يارب لا أرجو لهم سواكا يارب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا

وأمر عبد المطلب أهل مكة أن يتركوا البلد، وأن يلوذوا برؤوس الجبال بنسائهم وأطفالهم، كي لايلحقَ بهم شيء من أذى القوم القادمين لتخريب الكعبة وهدْمها.

وتحرك جيش أبرهة، وتهيأ لدخول مكة، فبرك الفيل الكبير «محمود» وأبى أن يتّجه نحو مكة، فضربوه ضرباً شديداً، فلم ينهض، ثم وجهوه إلى اليمن والشام، فقام يهرول، ثم وجهوه إلى الحرم فبَرك.

ولما كانوا في وسط وادي مُحَسِّر، وإذا بِفِرَقٍ من الطير فِرقة بعد أخرى، تُرسِل على ذلك الجيش حجارة صغيرة الحجم، ما إن تَسقُط على أحدهم حتى تُهلكَه ويتناثر لحمُه.

وأصيب أبرهة، فجعَل جِسمُه يتناثر ويتساقط حتى انصدع صدره ومات بصنعاء.

وهكذا حَمى الله بيته من عدوان الظالمين، وهكذا يحميه رب العالمين من كل كيد، ومن كل مكر إلى يوم الدين، وماتت الفيلة إلا الفيل الذي أبى التوجه إلى مكة.

سند الحادثة:

وهذه الحادثة ثابتة بقول النبي ﷺ يوم الحديبية حين بركت ناقتُه (القصواء) قال: خلأت القصواء، فقال ﷺ في حديث المسور بن مخرمة «**ما خلأت القصواء، وماذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل**»[1].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة:

«**إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلّط عليها رسول الله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها، كحرمتها في الأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب**»[2].

دلالة الحادث: والعبرة المستفادة من هذا الحادث:

١ - أن الله تعالى لم يُرد أن يكِلَ حماية بيته العتيق إلى المشركين، حتى لا يكون لهم سابقة فضل، ولا يداً في حماية بيته الحرام، وفي هذا كرامة لبيت الله الحرام، وإنعام على قريش بدفع العدو عنهم.

٢ - وكان من أثر ذلك أن بادرت قريش وسائر العرب إلى الدخول في دين الله، حين جاءهم به محمد ﷺ حيث كانت هذه الحادثة من إرهاصات النبوة، وتبشير النبي ﷺ بأن

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب رقم (٥٦) باب (٥٩) عن المِسْوَر قبل الحديث رقم (٢٨٧١) وهو كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط، ينظر البخاري مع الفتح (٣٢٩/٥)، وراجع رقم (٢٧٣١،٢٧٣٢) في الصحيح.

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، باب كتاب العلم، انظر البخاري مع الفتح (٢٠٥/١)، وهو في البخاري برقم (١١٢)، وفي مسلم برقم (١٣٥٥) عن أبي هريرة ﷺ.

الله تعالى كفيل برعايته ونصره على أعدائه، كما نصر أهل مكة على أبرهة وجيشه.

٣ - ولم يشأ الله سبحانه أن يحطّم أبرهة وجنوده البيت الحرام، أو يسيطروا على البلد الحرام، ليبقى البيت مصوناً محفوظاً بحفظ الله تعالى، حتى تنبُت العقيدة الإسلامية دون مهيمن عليها، ليهيمن الإسلام على جميع الأديان، وليقود البشرية ولا يقاد.

وجاءت نواة الإسلام وطليعته في مكة، ثم في المدينة، ثم في أرجاء المعمورة.

وأصبح للمسلمين قوة عالية، اكتسحت الممالك، وحطّمت العروش، وتولّت قيادة البشر، وهي التي كانت من قبل دون كيان ولا سلطان، تخضع لحكم هذا وذاك، فكانت حادثة الفيل مؤشرا إلى هذه المعاني، وإرهاصاً دالاً عليها.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

امْتِنَانُ اللهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِرَدِّ كَيْدِ أَبْرَهَةَ الأَشْرَمِ عَنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ

١، ٢- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢﴾

لقد امتن الله سبحانه على المسلمين بهذه الحادثة، حين صرف عنهم أصحاب الفيل الذين عزموا على هدم الكعبة ومَحْوِها من الوجود.

والمعنى: ألم يصل إلى علمك - يا رسولنا - فِعْلُ ربّك بأصحاب الفيل الذين قدموا من الحبشة لتخريب الكعبة لِصَرْفِ الناس عن الحج إليها إلى الحج في كنيسة بنوْها بصنعاء، لم يُر مثلها في زمانها، وكانت هذه القصة قد وقعت في العام الذي ولد فيه النبي ﷺ أي قبل بعثة النبي ﷺ بأربعين عاماً.

ألم يهلكهم الله ويجعل كيدهم وسعيهم لتخريب الكعبة في ضلال وضياع وبطلان وهلاك، فلم يَجْنُوا إلا الخزْي والدمار.

وقد سماه القرآن كيداً: لأن البيت الذي أرادوا هدمه مذكور في كتبهم، ولبيان أن ما فُعل بهم إنما هو من الله تعالى، ولبيان أن الأصنام لا تملك شيئاً، ولتثبيت النبي ﷺ وتذكيره بأن الله تعالى غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

إِهْلاكُ أَصْحَابِ الْفِيلِ بِأَضْعَفِ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى

٣-٥- ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾

وأرسل ربك عليهم جماعات جماعات من الطير، تحمل حجارة من طين قوي شديد، في أرجُلها ومناقيرها، وهي حجارة محماة من سجيل، فرمتهم بها وتتبعتْ قاصيهم ودانيهم، فخمدو وهمدوا، وصاروا كهشيم المحتظر فالأبابيل هي الجماعات المتتابعة من الطير،

تحيط بهم من كل جانب فتقذفُهم وترميهم بالحجارة، فَتُفتِّت لحومهم كأنها قذائف حارقة، أو رصاصات ثاقبة لا تصل إلى أحد إلا قتلته، وكان مع كل طائر حَجَران في رجليه وحَجَر في منقاره، لا يصيب شيئاً إلا هشّمه، فإذا أصاب أحدهم الحَجَر، خرج به الجُدَرِي.

قال عكرمة: كانت طيرًا خُضرًا خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع[1].

فأهلكتهم هذه الحجارة عن بكرة أبيهم، وجعلَتْهم كورق الشجر الذي أكلته الدواب وكسّرت قوائمه وهشّمته، والعصف المأكول هو التّبن الذي تأكله الدواب.

ففي السورة ذكرى للعظة والاعتبار، وتوطئة لميلاد خير خلق الله ﷺ، ووعْد بانتصار دعوته، كأن الله تعالى يقول لنبيه: لقد فعلتُ ما فعلتُ بأصحاب الفيل، تعظيماً لكَ، وتشريفاً لقدومكَ، وإذ قد نصرتُكَ قبل قدومك، فكيف أتركك مع نبوتك ورسالتك.

تواتر ما فعل الله بأصحاب الفيل وبقاء آثارهم في عصر الصحابة:

وقد تواتر ما فعل الله بأصحاب الفيل بين أهل مكة، وثبت بعض آثار هذه الحجارة يشاهدونها:

قال أبوصالح: رأيت في بيت أم هانىء نحْواً من قفيزين من تلك الحجارة سُوداً مخططة بحُمْرة.

وقال عتّاب بن أسيد: أدركتُ سائس الفيل وقائده أعْمييْن مُقعديْن يستطعمان الناس.

وقالت عائشة: لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أعمييْن يستطعمان الناس[2].

فهذه الرؤية التى ذكرتْها الآية ،رؤية بصرية بالنسبة لمن تجاوز سنُّه نيفاً وخمسين سنة وقت نزول هذه السورة.

وهذه الحجارة كانت بمقدار الحصى الصغير كحبة الحمُّص.

قال ابن عباس رضي الله عنها: كان الحجر إذا وقع على أحدهم لفظ أي (احترق)

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح كما قال ابن حجر في الفتح (١٢/٢٠٧).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (٣٠/٥٤٥)، والدر المنثور (١٥/٦٦٦)، وتفسير ابن كثير (٨/٤٨٩)، وابن إسحاق (٤٤)، والبيهقي (١/١٢٥).

جِلْده، فكان ذلك أوّل الجُدَرِيّ.

وقال عكرمة: إذا أصاب أحدهم حجراً منها، خرج به الجُدَرِيّ.

ولم يكن الجدري معروفاً لدى أهل مكة آنذاك.

وكانت الحجارة من سجيل، أي من طين متحجر يابس مُحرَق بالنار، أو أنها كانت من سجيل أي من ديوان عذاب الكفار، كما حدث لقوم لوط.

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: أقبل أبرهة الأشرم من الحبشة يوماً ومن معه من غزاة أهل اليمن إلى بيت الله الحرام ليهدمه من أجل بيعة (كنيسة) لهم، أصابها العرب بأرض اليمن، فأقبلوا بفيلهم، حتى إذا كانوا بالصِفَاح، وهو مكان بين حُنَيْن وأنصاب الحرم على يسار الداخل إلى مكة من جهة طريق اليمن، ولما كانوا في هذا الموضع برَك الفيل، فكانوا إذا وجّهُوه إلى بيت الله، ألقى بِجِرَانِه على الأرض، وإذا وجّهوه إلى بلدهم انطلق وَلَهُ هزولة، حتى إذا كانوا بنخلة اليمانية، بعث الله عليهم طيراً بيضاً أبابيل، مع كل طير حَجَران في رِجْلَيه، وحَجر في منقاره، فجعلتْ ترميهم بها، حتى جعلهم الله كعصف مأكول، فنجا أبرهة، ورجع إلى اليمن، فكان كلما قدم أرضاً تساقط بعض لحمه حتى أتى قومه، فأخبرهم الخبر، ثم هلك[١].

فكان ذلك آية من آيات الله تعالى، تُذكّر العباد بقوة الله تعالى وحمايته لبيته العتيق، وفيها دلالة على انتقام الله تعالى من كل من يُضمر السوء لبيت الله الحرام.

ودلالة على أن الله الذي أهلك أبرهة وجُنده ، بأضعفِ خلق الله، وهي الطير، التي ليس من عادتها أن تَقْتل، قادر على أن ينصر بيته، بسبب أو بآخر، إلى أن تقوم الساعة.

وفي السورة إيحاء وتطمين واستبشار بهلاك كل من يَفْجُر ويمكُر ببيت الله سبحانه، وبمدينة رسوله ﷺ.

تم تفسير (**سورة الفيل**) ولله الحمد والمنة

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦٤٣/٢٤)، وعبدُ بنُ حُميد، وعبد الرزاق (٣٩٦/٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ قُرَيْشٍ (١٠٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة قريش) هي السورة السادسة بعد المئة في ترتيب المصحف، والتاسعة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التين) وقبل (سورة القارعة).

وهي خمس آيات في العدد المكي والمدني والحمصى، وأربع آيات عند بقية أئمة العدد.

وهى سبع عشرة كلمة، وثلاثة وسبعون حرفاً.

وسورة قريش سورة مكية عند الجمهور، مستقلة عن سورة الفيل بالإجماع.

وشهرتها (سورة قريش) وتسمى (سورة لإيلاف قريش).

٢ - موضوع السورة:

تتحدث هذه السورة عما أنعم الله به على أهل حَرمه، بأن هيأ لهم رحلتي الشتاء والصيف، في وقت كانت تتعذر فيه وسائل الاتصالات، ويصعُب العيش فيه بين جبال مكة، دون طعام ولا شراب، وَيقِلّ الأمن فيها، نظراً لطبيعتها الجبلية الصحراوية فجعل سبحانه بلادهم آمنة، وأوقع قُدْسيتها في قلوب الناس حتى في الجاهلية، لتتهيأ لهم سبل الحياة، وجَلَب إليهم الثمرات والخيرات من كل بلاد العالم:

إن جزيرة العرب تقع بين أوروبا وآسيا، وقد اشتغل أهلها بالتجارة بين هاتين القارتين، وكانوا همزة وصل بين الرومان في الشام، والهنود في الجنوب، وانتظمت رحلاتهم، تنقُل السلع بين هؤلاء وأولئك، وقد امتن الله على العرب ـ في مكة وما حولها ـ بهذا الوضع الذي انتفعوا منه كثيراً.

وكلمات (سورة قريش) تشير إلى استتباب الأمن، وانتفاء الجوع، وهما أساس الحرية السياسية، كما أن وفْرة الأقوات، وسهولة التبادل، هما أساس الحرية الاقتصادية، وكذا وجود السوق الدولية المشتركة.

وفي السورة تذكير بنعم الله تعالى على جميع خلقه، وعلى أهل مكة بوجه خاص، حيث مكّنهم من السير والتنقل، دون خوف من عدوّ يعدُوا عليهم، في وقت لا يوجد فيه من يقوم على حماية الأمن في البلاد، كي يعبدوا ربهم فيُقلعوا عما هم فيه من الشرك، وعبادة الأوثان، إلى عبادة رب العالمين، فهو المستحق للعبادة دون سواه.

والذي سنّ لهم هاتين الرحلتين: هاشم بن عبد مناف، وقد حمله على ذلك: الجوع القاتل الذي تعرّض له أهل مكة، حتى كادوا يموتون جوعًا، فوقف فيهم خطيبًا وجمعهم، ونظّم لهم رحلتين، وقسّم أرباح التجارة بين الغني والفقير.

٣ - أصل تسمية قريش:

أ- وقريش هو: فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وهو لقب يجمع بطوناً كثيرة، وقد سئل النبي ﷺ: مَنْ قريش: فقال: «مَنْ وَلَدَ النَّضْر» وجميع أهل مكة من قريش، وكان بنو كنانة يسكنون بالخيف، في منى.

ب- وأخرج البيهقي أن معاوية سأل ابن عباس رضي الله عنهم: لم سميت قريشاً؟ قال: بدابة تكون في البحر، أعظمُ دوابِّه يقال لها: القِرْش، لا تمرّ بشيء من الغث والسمين إلا أكلته[1].

ج- وقال عبد الملك بن مروان: سمعتُ أن قُصياً كان يقال له: القُرَشيّ، ولم تُسمَّ قريش قبله[2].

د- وتسمية قريش جاءت من التقاريش، وهو الجمع والتكسب.

فهذه أربعة أسباب لهذه التسمية.

فضل قريش:

ومما ورد في فضل قريش من أحاديث:

---

(١) البيهقي في الدلائل (١/١٨٠).

(٢) أخرجه ابن سعد (١/٧١).

١- عن واثلة بن الأسقع ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[١].

٢- وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«**الناس تبع لقريش في الخير والشر إلى يوم القيامة**»[٢].

٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم**»[٣].

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم أذَقْتَ أول قريش نكالاً، فأذِقْ آخرهم نوالا**»[٤] والنكال هو العناء والمشقة، والنوال هو العَطاء والخير.

٥- قال معاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الناس تبع لقريش في هذا الأمر، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقُهُوا، والله لولا أن تبطَرَ قريش لأخبرتُها بما لخيارها عند الله**» قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خير نسوةٍ ركبْن الإبل، صالح نساء قريش، أرْعاه على زوج في ذات يده، وأحْناه على ولد في صغره**»[٥].

قلت: وركوب الإبل في زمانهم يعني قيادة سائر المرْكَبات في زماننا، والحديث نص في جواز ذلك للمرأة.

٦- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه في النار، ما أقاموا الدين**»[٦].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٢٧٦) وهذا لفظه، وهو في المسند (١٦٩٨٧)، والترمذي (٣٦٠٥)، والبيهقي في الدلائل (١/١٦٥).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٨١٩)، والمسند (١٤٥٤٥،١٥٠٥٠)، وابن أبي شيبة (١٢/٦٧)، وابن حبان (٦٢٦٣).

(٣) البخاري برقم (٣٤٩٥)، ومسلم برقم (١٨١٨)، والمسند (٧٥٥٦) قال محققوه: صحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٢/١٦٨).

(٤) قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب (٣٩٠٨)، وهو في صحيح سنن الترمذي (٣٠٦٧).

(٥) ابن أبي شيبة (١٢/١٦٩)، والمسند (١٦٩٢٨،١٦٩٢٩) قال محققوه: إسناده صحيح .

(٦) صحيح البخاري (٣٥٠٠،٧١٣٩)، وانظر حديث أحمد في المسند (٢٧١٥٨) عن قتادة بن النعمان.

٧- وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:
«**لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان**» وحرّك إصبعيه[١].

٨- وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**الملْك في قريش، والقضاء في الأنصار، والأذان في الحبشة والسرعة في اليمن**»[٢].

وجاءت الآثار بأن الله تعالى قد فضّل قريشاً: بالنبوة والخلافة والسقاية والحجامة والسدانة، ونصَرهم يوم الفيل، وأنزل فيهم هذه السورة[٣].

٤ ـ الأسباب والمسببات مخلوقة لله تعالى:

السبب والمسبب مخلوقان لله تعالى، والمسبب مرتب على السبب، فالنصر على العدوّ الذي وعد الله به المؤمنين، مرتب على الجهاد في سبيل الله، والشفاء من المرض، مرتب على الأخذ بأسباب العلاج، وحصول الرزق للعبد، مرتب على السعي والبحث عنه من طرقه المشروعة، فالسماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، والرزق لا يأتي للطيور وهي ساكنة في أوكارها، بل إنها تسعى لرزقها في الصبح الباكر وهي جائعة، ثم تعود بعد أن حصَلت على رزقها فارْتوت وشبعت.

- ولما كانت مكة المكرمة قبل الإسلام وادياً مُجْدِباً لا زرع فيه ولا ضرع، كما وصفها رب العالمين على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام في قوله ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم:٣٧].

- لما كان الأمر كذلك، فإن قريشاً كان لها رحلتان في كل عام للتجارة، رحلة في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ، ورحلة في الصيف إلى الشام، يجلبون فيهما الميرة والطعام والثياب

---

(١) صحيح البخاري (٣٥٠١،٧١٤٠)، وصحيح مسلم (١٨٢٠)، والمسند (٤٨٣٢،٥٦٧٧،٦١٢١)، والطيالسي (٢٠٦٨).

(٢) صحيح سنن الترمذي (٣٠٨٨)، والمسند (٨٧٦١) قال محققوه: رجاله رجال الصحيح غير أبي مريم فقد روى له أبو داود والترمذي وهو ثقة، واختلف في رفعه ووقفه والموقوف أصح وأخرجه ابن أبي شيبة (١٧٢/١٢)، وهو في الترمذي (٣٩٣٦).

(٣) ينظر: الطبراني (٩٩٤)، والحاكم (٥٤/٤)، ومجمع الزوائد (٢٧/٧)، والدر المنثور (٦٧٠/١٥) وما بعدها، وقد حسنها الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٤٤)، وحسنها الحافظ العراقي.

إلى مكة عن طريق البحر في السفن إلى جدة، وعن طريق البر على الإبل وغيرها.

وهكذا كانت الأرزاق تصل إلى بلادهم، فكانت سفُن الحبشة تصل إلى ميناء جدة، محمّلة بالطعام ليبيعوه هناك، وكان رجال قريش يخرجون إلى جدة بالإبل والحمر، كي يشترون الطعام، وكذلك كان أهل اليمن يحملون الطعام على الإبل ليبيعوه في مكة، وكان عندهم سوق عكاظ ومجنة وذي المجاز.

وكانوا يُقَسّمون ربح تجارتهم بين الغني والفقير، حتى كان غنيهم كفقيرهم على حد سواء.

وكانت القافلة المحملة بالبر والدقيق والزيت والثياب وغيرها تُستقبل بالفرح والبشر والترحاب، لأنها تحمل طعامهم وكساءهم لمدة نصف العام.

ولم يكن يتعرض لهم أحد بسوء في رحلتيهم، لأنهم سكان حرم الله الآمن، وَوُلاة بيته العتيق.

وكانت العرب جميعاً تكرم قريشاً وتعظمها وتعزّها لهذا الشرف الذي حباها الله به، وهو خِدْمة بيته الحرام، وكونهم من سكان الحرم.

ورحلة الشتاء والصيف، ضرب من السعي إلى المعاش بالتجارة والربح، وفيها بذل السبب المأمور به في تحصيل الرزق.

قال ابن عباس رضي الله عنهما عن نعْمتي قريش وإيلافهم: كانوا يُشَتُّون بمكة ويُصيِّفُون بالطائف، وقرأ السورة[1].

* * *

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١٦٣٥)، وقد تفرد به من بين الكتب الستة.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

عِبَادَةُ اللهِ تَعَالَى مِنْ مُوجِبَاتِ شُكْرِ النِّعَمِ

١-٣- ﴿لِإِيلَٰفِ[1] قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ[2] رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾

الإيلاف: صيغة مبالغة من الائتلاف والالتئام وجمع الشمل.

أفاد ابن عاشور: أن اللام من ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ للتعليل، وقُدِّم المجرور بها، وهو (إيلاف) للاهتمام به، لأنه من أسباب أمر قريش بعبادة الله التي انصرفوا عنها إلى عبادة الأصنام.

قال: وأصل نظْم الكلام: لِتَعْبُدْ قريش رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف.

والفاء من ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ مُؤْذِنة بأن ما قبلها في قوة الشرط، وهذا يقتضي تقديم المعمول على العامل[3].

وقال كثير من المفسرين: إن الجارو والمجرور ﴿لِإِيلَٰفِ﴾متعلق بالسورة قبلها، أي فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، وفي الصيف للشام، لأجل التجارة والمكاسب، فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب حتى احترموهم ولم يتعرضوا لهم في أي سفر أرادوا، لهذا أمرهم الله بالشكر[4].

---

(١) قرأ ابن عامر بحذف الياء من ﴿لِإِلَٰفِ﴾ مصدر أَلِفَ ثلاثياً، وقرأ أبو جعفر بحذف الهمزة، وقرأ الباقون بإثبات الهمزة والياء مصدر آلَف رباعياً، وأصلها إِأْلافاً فأبدلت الهمزة الثانية ياء من جنس حركة ما قبلها، وعلى قراءة أبي جعفر حذفت الهمزة الأولى على غير قياس.

(٢) قرأ أبوجعفر بحذف ياء ﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾ والباقون بإثباتها.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٣٠/٥٥٤).

(٤) ينظر: تفسير ابن سعدى للآية.

والمعنى على القول الأول: لِتعبدْ قريش ربها من أجل تسهيل الله تعالى، وتدبيره وتيسيره لقريش ما كانوا يألفونه من رحلة الشتاء والصيف، حيث كانوا يسافرون، ويأتون بالطعام والثياب، ويربحون في الذهاب والإياب، وهم آمنون مطمئنون، لا يتعرض لهم أحد بسوء، لأن الناس كانوا يقولون: هؤلاء جيران بيت الله، وسُكّان حرمه.

وقريش قبيلة النبي ﷺ وكانت تخرج إلى تجارتها في الجاهلية، فلا يُغار عليها، لأن العرب يقولون: قريش أهل بيت الله عز وجل، فأمرهم الله أن يعبدوه لأجل تيسير رحلتي الشتاء والصيف لهم، وجعْلهم يألفونهما ويتعوّدونهما.

ولَمّا أهلك الله أصحاب الفيل، ازداد تعظيم الأمراء والملوك لهم، فازدادت تلك المنافع والمتاجر، وعاش سكان حرم الله وبلده في رغد من العيش، وأَمِن من الخوف.

وهاتان نعمتان يمتن الله بهما على قريش، ويُذكّرهم بهما في هذه السورة ليعبدوه ويوحدوه على ما يسر لهم الأسفار في بلاد العرب من جنوبها إلى شمالها في الأشهر الحرم وغيرها، وكان يلوذ بهم أصحاب الحاجات وأصحاب التجارات فيسافرون معهم ويحمّلونهم سلعهم، وهكذا.

أخرج ابن حاتم عن عكرمة قال: كانت قريش تتّجر شتاءً وصيفاً، فتأخذ في الشتاء على طريق البحر وأَيْلَة إلى فلسطين - وأَيْلة - مدينة على ساحل البحر الأحمر مما يلي الشام - يلتمسون الدِّفاء - أي ما يَسْتدْفِئُون به من صوف ونحوه. وأما الصيف فيأخذون قِبَل بُصْرى وأذرعات - بالشام - يلتمسون البرْد[1].

وقال ابن زيد: كانت لهم رحلتان: الصيف إلى الشام، والشتاءَ إلى اليمن في التجارة[2].

ثم أوجب الله على سكان حرمه وسائر خلْقه أن يعبدوه وحده، فهو سبحانه دافع الضر وجالب الخير، ومنه الرزق والأمن، وهو وحده المستحق للعبادة دون سواه، وقد

---

(١) ينظر: الدر المنثور (٦٧٧/١٥).

(٢) تفسير الطبري (٦٥٢/٢٤).

دفع الله تعالى الضر عن أهل الحرم، كما في سورة الفيل السابقة، وهما عند أبي بن كعب سورة واحدة، فَصَلَت البسملة بينهما[١].

قلت: ولم يكن الصحابة يعرفون انتهاء السورة وبدء السورة بعدها إلا بنزول البسملة كما صح في حديث ابن عباس[٢].

فدلَّ هذا على أن كُلاً من سورتي الفيل وقريش سورة مستقلة.

هذا: وقد جلب الله سبحانه لأهل حَرمه النفع والخير، ودفع الضر عنهم.

تأمين أرزاق العباد فضلاً من الله تعالى

٤- ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ[٣] ﴾

وفي هذه السورة: نعمتان عظيمتان، امتن الله بهما على سكان الحرم وغيرهم، هما: نعمة الطعام، ونعمة الأمن.

وقد أمر الله عباده بالشكر عليهما، والاشتغال بعبادة رب البيت، أي فليجعلوا عبادتهم شكرا لله تعالى على هذه النعم. فهو سبحانه أحق أن يعبد، حيث أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف، فليعبدوه لهاتين النعمتين، إن لم يعبدوه لسائر نعمه.

ومع وجوب بذل الأسباب في طلب الرزق، فإن الله سبحانه وتعالى قد تكفل - تفضلاً منه - برزق خلقه جميعاً، وإطعامهم من جوع، قال سبحانه: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود:٦] .

والكائن الذي يضعُف عن تحصيل رزقه، ولا يستطيع جمعه، لا يتركه ربه يموت جوعاً، بل يهيء وييسر له أسباب الرزق، قال سبحانه ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت:٦٠] .

---

(١) تفسير الخازن للسورة.

(٢) ينظر هذا البحث في كتابي فقه التلاوة وكتابى من الترتيل وعلومه، المجلد الأول.

(٣) عدّ المدني الأول والأخير والمكي والحمصى، قوله تعالى ﴿مِّن جُوعٍ﴾ آية، وتركها غيرهم.

وقد ضمن الله سبحانه هذا الرزق، وهو الإطعام من الجوع، وأقسم عليه، تأكيدا منه سبحانه على أن رزق العباد أمر حاصل لا محالة، وهذا التأكيد لهلع الإنسان وخوفه من الجوع، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ [الذاريات].

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها(1).

والإطعام من الجوع، وستر العورة، والري من الظمأ، والإيواء في مسكن يستر الإنسان.

هذه أمور أربعة تكفل الله سبحانه بها ـ تفضلا منه ـ لأبينا الأول آدم عليه السلام، وهي لذريته من بعده:

قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾ [طه].

وإذا أصيب الإنسان بالجوع، فإن هذا من باب الابتلاء الذي يتطلب الصبر.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة:١٥٥].

وقد امتن الله سبحانه على أهل مكة، بجلب الخيرات والأرزاق إلى بلادهم التي كانت صحراء جرداء قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧].

وفي هذا استجابة لدعوة خليل الرحمن عليه السلام كما حكى عنه ربه في قوله:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة:١٢٦].

وقوله: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

وقد تكفل الله سبحانه ببسط الرزق لأهل الحرم وما حوله، وبيَّن حُزْنَ أهل مكة، لمّا مُنع المشركون من دخولها في العام التاسع للهجرة، بنزول قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة:٢٨]

---

(١) راجع ألفاظ الحديث في الترغيب والترهيب قال المنذري: رواه البزار ورواه ثقات إلا قدامة بن زائدة بن قدامة فإنه لم يحضرني فيه جرح ولا تعديل (٢٤٨/٤)، ورواه ابن حبان عن ابن مسعود، وأوله (إن روح القدس نفث في رُوعي..) وأخرجه أبونعيم في الحلية بسند صحيح.

وهو العام الذي نزلت فيه سورة براءة، فأراد الله تعالى أن يطمئنهم بأنه سيفتح لهم أبوابا من الرزق لا يعرفونها، وقد تحقق وعد الله تعالى، ففجر لهم الأرض، لِتُخْرِجَ ما فيها من نفْط ومعادن وكنوز، فرزقهم من حيث لم يحتسبوا بلا كد ولا عناء، وجعلهم من أكبر أغنياء العالم، ورفع منزلتهم بين الناس، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة:٢٨] .

أي: وإن خفتم فقْرًا - أيها المؤمنون - بسبب منع المشركين بتجاراتهم من دخولهم منطقة الحرم، فإن الله تعالى سوف يهيء لكم الأسباب، ويجلب لكم الأرزاق عن طريق آخر، وسوف يهيء لكم سبباً بعد سبب، وطريقاً بعد طريق، بمشيئته سبحانه، فلا تأسوْا ولا تحزنوا، وهذه حقيقة مرئية، حيث ترفُل البلاد السعودية بفضل من الله تعالى في ظلال نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وستبقى كذلك إن شاء الله، مادامت متمسكة بكتاب الله، ومهتدية بهدي رسول الله ﷺ قائمة على شؤون الحرمين الشريفين، وتلتمس شرفها في خدمة ضيوف الرحمن، ونشر كتاب الله في العالمين، واحترام العلم والعلماء.

الشكر يزيد النعم والكفر يذهبها:

وتبين الآية أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الرزق والأمن والقيام بواجب الشكر والعبادة لله تعالى، بمعنى أن المؤمن يستحق هذه النعمة العظيمة طالما هو قائم بحق الله تعالى عليه، فإن هو طغى وجحد، وكفر بنعمة الله تعالى، وكذّب بالحق، فهو جدير في هذه الحالة أن يبدل الله حاله من اليسر إلى العسر، ومن الأمن إلى الخوف، ومن الصحة إلى المرض.

ورد في هذا أن أهل مكة لما كذبوا محمداً ﷺ دعا عليهم فقال: «**اللهم اشد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف عليه السلام**»[1] فاشتد عليهم القحط، وأصابهم الجوع والجهد، فقالوا: يا محمد: ادع الله لنا فإنا مؤمنون، فدعا لهم، فأخصبت البلاد بعد الجدب والْجَهد، فذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾.

---

(١) من حديث أبي هريرة ﷺ في المسند (٧٢٦٠،٧٦٦٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥)، وابن ماجه (١٢٤٤)، وأبو يعلى (٥٨٧٣)، والبغوى (٦٣٦)، وابن خزيمة (٦١٥).

فالشكر يزيد النعم، والكفر يُذهبها إلا ما كان استدراجاً.

قال تعالى في شكر النعمة ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧] .

وفي عواقب كفران النعمة، وتبديل رغد العيش بالجوع، وتبديل الأمن بالخوف، جاء قول الله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل:١١٢، ١١٣] .

والرسول الذي كذبوه هو محمد ﷺ والقرية المضروب بها المثَل هي مكة، وهو مثَل عام، مضروب لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتْهم النعمة، وعَصَوْا وتمرَّدُوا، فبدل الله نعمتهم نقمة، وأذاقهم آلام الجوع والخوف والحرمان، بعد الرغد والأمن والاستقرار.

الاستدراج بالنعم: وسنة الله تعالى في خلقه: أن الأمة التي تبدل نعمة الله كفرا، فتقسُوا قلوبُها، ويَظْهَرُ منها نقيضُ الشكر على النعم، فتُصِرُّ على الضلال، ويُزيّن لها الشيطان المعاصي، ولا تأتمر بأمر الله تعالى، ولا تنتهي عما حرم الله سبحانه، وتترك ما توعظ به، هذه الأمة يستدرجها الله تعالى بالنعم والخيرات، حتى إذا بطرت، وفرحت فرح أشر وأبطر، أخذهم الله تعالى بالعذاب بغتة فاستأصلهم وأبادهم.

قال تعالى في هذا الوصف ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤] والآيات قبلها وبعدها تشير إلى هذا المعنى.

نِعْمَةُ الأَمْنِ وَالطُّمَأْنِينَةِ

٥ - ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن المؤمن الذي لا يشرك بالله تعالى، ولا يَخلِط إيمانه بظلم ولا بغْي، القائمُ بما أَمر الله به، المجتنبُ لما نهى الله عنه، الذي لا يعتدي على أموال الناس، ولا على أنفسهم ولا على أعراضهم.. هذا المؤمن: هو المستحق للأمن والاستقرار والهداية، والاستقامة على منهج الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢] .

وقد وعد الله سبحانه عباده المؤمنين العاملين للصالحات، القائمين على حماية دينه، أن يحقق لهم الأمن والطمأنينة، وأن يستخلفهم في الأرض، ويمكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأن يبدلهم بعد خوفهم أمناً، ماداموا متمسكين بدين الله تعالى، محافظين على شرعه﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور:٥٥] .

وكما وعد الله عباده المؤمنين بالأمن في الدنيا، وعدهم كذلك بالأمن في الآخرة إذا فزع الناس عند قيامهم لرب العالمين، ووقوفهم بين يديه قال تعالى:

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل:٨٩] .

أمن الحرم: والأمن نعمة عظيمة أسبغها الله سبحانه على المؤمنين المخلصين من عباده بصفة عامة، وأضفاها على أهل بيته الحرام، بصفة خاصة قال تعالى:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة:١٢٥] .

وقد استجاب الله تعالى دعوة خليله إبراهيم في قوله: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ [إبراهيم:٣٥] فجعل بيته الحرام آمنا عتيقاً من سلطة المتسلطين، وجبروت الجبارين، وجعل من يأوي إليه آمناً، والمخاوف حوله من كل مكان، كما قال تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت:٦٧] .

ولما توجه أصحاب الفيل لهدمه حفظ الله بيته وصانه، وكان لهذه الحادثة أثر عظيم في زيادة حُرمة البيت في أنحاء الجزيرة، وزيادة احترام أهله وسدَنته، مما ساعدهم على التجارة والضرب في الأرض آمنين.

وقد كانت حالات النهب والسلب في أرجاء الجزيرة شائعة، فكفلت حرمة البيت لجيرانه: الأمن والسلامة، وجلَبتْ لهم الرزق والخير في طمأنينة واستقرار:

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ [المائدة:٩٧] .

وتقع مسؤولية الأمن في البيت الحرام على عاتق من شرّفهم الله وحباهم بخدمة بيته وشرف حراسته، بإقامة العدل، وحماية المظلوم، ومنع الاعتداء، وإزالة الشعور بالخوف من العدوان على مر الأزمان.

وقد كسى الله سبحانه أهل مكة ثوب الأمن، فآمنهم من خوف، ومن دخل البيت الحرام يجب تأمينه وحمايته قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران:٩٧] .

والإخلال بالأمن فيه جريمة عظيمة، قال تعالى:

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥] .

وقد وعد الله سبحانه رسوله ﷺ بإلقاء الأمن والطمأنينة في قلوب قاصديه من كل مكان: فقال تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧] .

إن نعمتي الرزق والأمن، التي خص الله بهما أهل مكة في هذه السورة لا يحدّهما زمان ولا مكان.

فالإطعام دائم، لا ينقطع بمشيئة الله تعالى في كل وقت.

والأمن والاستقرار مستمر، لا يزول بحول الله تعالى.

ولعل هذا المعنى يستفاد من تنكير لفظي: جوع وأمن، لإفادة العموم والاستمرار.

وهاتان النعمتان: الإطعام من جوع، والأمن من خوف لا يقتصران على أهل مكة وحدها، بل هما نعمتان أنعم الله بهما على عباده المؤمنين في كل زمان ومكان، ماداموا قائمين بواجب الشكر الفعلي والقولي.

قال تعالى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور:٥٥] .

وهاتان النعمتان استدراج لغير المسلمين كي يعاقبهم الله على كفرانها في الدنيا، أو في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة معاً.

فاللهم اجعلنا من عبادك القائمين بشكر نعمك، الآمنين في أوطانهم، المهتدين بهداك.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

تم تفسير (**سورة قريش**) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَاعُونِ (١٠٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الماعون) هي السورة السابعة بعد المئة في ترتيب المصحف، والسابعة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التكاثر) وقبل (سورة الكافرون).

وهي سبع آيات في المصحف المكي والبصري والحمصى، وست آيات في غيرهم.

وخمس وعشرون كلمة، ومئة وخمسة وعشرون حرفاً.

والمشهور أن اسمها (سورة الماعون) وورد فيها خمسة أسماء أخرى هي:

١ - (سورة أرأيت). ٢- (سورة أرأيت الذي). ٣- (سورة الدين).

٤- (سورة التكذيب). ٥- (سورة اليتيم).

وهي سورة مكية عند الجمهور، وقيل: إن الآيات الثلاث الأول مكية، وبقيتها مدني.

٢ - أسباب النزول وموضوع السورة:

ورَدَ أن أباسفيان بن حرب ـ قبل إسلامه ـ كان ينحر جَزوراً كل أسبوع، فجاءه مرة يتيم، فسأله شيئاً من اللحم، فقرعه بالعصا.

وقيل: إن أباجهل، كان وصيّاً على يتيم، فأتاه عُريانا، يسأله من مال نفسه، فدفعه دفعاً شنيعاً.

وهكذا كان شأن العاص بن وائل السهمي، والوليد بن المغيرة المخزومي، وعمرو ابن عائذ المخزومي[1] وغيرهم.

وفي هذه السورة ستة أوصاف: ثلاثة منها للكافرين، وثلاثة أخرى للمنافقين.

وهكذا فقد ذكرت السورة ثلاث صفات ذميمة متتابعة للكفار وهي:

---

(١) ينظر: تفسير ابن عاشور وابن الجوزي والخازن والبغوي وغيرهم للسورة.

١- التكذيب بيوم القيامة.

٢- إهانة اليتيم.

٣- عدم إطعام المسكين وعدم الحث على إطعامه.

ثم ذكرت ثلاث صفات أخرى للمنافقين وهي:

١- تأخير أداء الصلاة عن وقتها.

٢- الرياء.

٣- البخل بقضاء الحوائج اليسيرة.

والسورة عامة في كل مَنْ كان هذا شأنه.

ويمكن أن تكون الصفات الخمس بعد الصفة الأولى، صفات لكل مكذب بالإسلام، ومكذب باليوم الآخر، وهو الذي سنسير عليه في شرحنا للسورة.

ومن شأن أهل الدين أنهم يتعرفون على حاجات الآخرين، ويسارعون في قضائها، فالدين مع الضعيف حتى يقْوى، ومع الفقير حتى يستغني، ومع اليتيم حتى يكبر، ومع الهائم حتى يستقر، ومع الضال حتى يهتدي.

ولو أن أهل الدين ارتبطوا بدينهم، وساروا به سيرة حسنة، ما ظهرت الشيوعية ولا الرأسمالية ولا غيرهما، فالإسلام يرى أن إعانة المحتاج شرط في الإيمان، وأن العبادة الصورية لا تصل العبد بربه.

وهكذا فإن السورة تنطبق على الكافر الجاحد لأنعم الله، المكذب بالحساب والجزاء، وتنطبق على المنافق الذي لا يقصد بعمله وجه الله تعالى، بل يرائي في أعماله وصلاته، وتوعدت الفريقين بالويل والهلاك وتعجبت من أحوالهم.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

آثَارُ التَّكْذِيبِ بِدِينِ الإِسْلَامِ

١- ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾

كلمة (الدين) بكسر الدال، تعني: الإسلام بما يشتمل عليه من الشهادتين، والصلاة والصيام والزكاة، والحج. وتعني الإيمان بما يشتمل عليه من التصديق اليقيني الجازم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقضاء خيره وشره، فهى تعنى الإسلام كله.

ويوم الدين: هو يوم الجزاء والحساب، اليوم الذي يُدان فيه العباد.

والتكذيب بالدين، يعني التكذيب بالإسلام والإيمان، وما يشتملان عليه، من جميع الأعمال الصالحة، وأصول الإسلام وفروعه، فرائضه ونوافله، أو امره ونواهيه هذا هو المعنى السائد المفهوم للمكذب بالدين.

ولكن سورة الماعون تذكر لنا خمس صفات عملية للمكذب بالدين تشمل الكافر والمنافق، فهو:

١- يدع اليتيم. ٢- ولا يحض على طعام المسكين.

٣- ويسهى عن صلاته. ٤- ويرائي. ٥- ويمنع الماعون.

وهي صفات تمثل عقيدة المسلم وعبادته وسلوكه، وهذه الصفات الخمس، صور تطبيقية تعكس حقيقة الإيمان، وتبين أثره في السلوك الشخصي والجماعي.

فالدين الإسلامي ليس له مظاهر وطقوس، ولا أقوال جوفاء، وليس الإسلام أجزاء ولا قطعًا وأحزاباً، يأخذ الإنسان منه ما يشاء ويترك ما يشاء، بل هو منهج متكامل، تتضافر فيه العقيدة والعبادة والمعاملة والسلوك.. حتى يصل بالعبد إلى الغاية المرجوة منه.

والعمل يُصَدّق الإيمان أو يُكَذّبه، فإذا وقرَ الإيمان في القلب، فإنه يؤتي ثماره، ويحقق ذاته في الخارج بالعمل الصالح، الذي يترجِم عن حقيقة الإيمان الصادق، ومن ذلك إكرام اليتيم،

والحث على إطعام المسكين، وإقام الصلاة، والإخلاص في العقيدة والعبادة، ونفع الناس بما يحتاجون إليه من أمور الحياة، فالإيمان يدفع إلى الخير والبر والنفع والاتصال بالله تعالى.

أما الآثار السيئة التي تظهر على العبد: كإهانة اليتيم، وعدم إطعام المسكين، والحث عليه، وترك الصلاة بالتهاون في أدائها في أول وقتها، والمراءاة، ومنْع الماعون..

هذه الأعمال السيئة وأمثالها تعكس عدم وجود الإيمان في قلب فاعلها، فهو إذاً مكذب بالدين فيما يظهر عليه من سلوك، ولو كان مصدقا به في الواقع وحقيقته مستقرة في قلبه، ما ظهرت عليه هذه النتائج السلبية السيئة.

فحقيقة الإيمان لا يطلع عليها إلا الله سبحانه، والآثار والسلوك الذي يتجلى في صورة العمل الصالح أو الفاسد، هو الذي يترجم عن هذه الحقيقة في الظاهر.

ومن هنا فإن هذه السورة قررت أن الموصوفين بهذه الصفات الخمس مكذبين بالدين.

فالله تعالى يقول لرسوله: هل عرفت أسوأ وأعجب من الذي يكذب بالإسلام، ويكذب بالحساب والجزاء الأخروي، هل عرفت من هو؟ وما صفاته؟ إن أردت معرفته فهو الذي يفعل كذا و كذا.

والدين (بكسر الدال) لا يعني فقط الحساب والجزاء، بل يشمل: الديانة: وهي الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩] وقال سبحانه:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥].

فالمكذب بالدين، مكذب بالإسلام كله جملةً وتفصيلاً.

ويذكر بعض المفسرين أن الآيات الثلاث الأول من السورة نزلت بمكة، وهي تعني: الكفار.

وأن الآيات الأربع الأخيرة نزلت بالمدينة، وهي تعني المنافقين[١].

وفيما يبدو لي - والله أعلم - أن معنى السورة مترابط، وأن آخرها لا ينفك عن أولها، وأن الصفات الخمس المذكورة فيها، وصف للمكذب بالدين، وفيها آثار عملية، تبين

---

(١) راجع تفسير ابن كثير والخازن والبغوي، وزاد المسير وغيرهما للآية.

حقيقة كذبه، وأنه لو كان مؤمناً حقاً ما صدرت عنه هذه الأعمال، وهذا أقرب ما يكون إلى النفاق العملي، وهو يدل على عدم وجود الإيمان الحقيقي، فهو منافق في عقيدته وعمله.

سبب النزول، يدل على ذلك، فقد سبق في المقدمة أن أبا سفيان وأبا جهل وغيرهما كانوا يزجرون اليتامى ويُسيئون إليهم.

أقول: إن السورة بكاملها، تعطي أوصافاً عملية تطبيقية لغير المصدق بالإسلام كله، خاصة غير المصدق بالحساب والجزاء، وتدل كذلك على عدم صدق إيمانه.

وقد جاء الوصف الأول والثاني في السورة، وهما زجر اليتيم، وعدم الحض على طعام المسكين، في القرآن الكريم مقترناً بالكفر، والعاقبة الأليمة في الآخرة، على نحو ما سيتضح من الكلام عنهما، مما يدل دلالة واضحة على أن هاتين الصفتين تدلان على الكفر، وسوء مصير فاعلهما في الآخرة. كما أن ترك الصلاة عمداً جحوداً لها، وإنكاراً لوجوبها، كُفر مخرج من الملة.

والمرائي أول من تُسعّر عليه النار يوم القيامة، لأنه يقطع منفعته عن الناس، ولا يُحْسِنُ إليهم، فهو صاحب خلق ذميم.

فالصفات الخمس في جملتها تدل على التكذيب بالدين، وتدل على الكفر والنفاق.

وفيما يلي بيان لهذه الصفات:

خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِمَنْ يُكَذِّبُ بِالإِسْلَامِ

الوصف الأول: أنه يدع اليتيم:

٢- ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾

دَعّ اليتيم: إهانتُه ورَدْعُه وزجْرُه وقهْرُه، ودفعه بعنف وقوة وجفوة.

وهذه المعاني تشمل كل من يظلم اليتيم فيأكل ماله، أو يمنعه حقه، أو يماطله فيه.

وتشمل كذلك كل من يترك مواساة اليتيم، وعدم الإحسان إليه والعطف عليه.

وتشمل أيضاً كل من يستخدمه أو يستذله أو يسخره، أو يقهره أو يستطيل عليه، وكذا كل من يزجره أو يضربه أو يعنّفه، أو يستخف به أو يهينه ويؤذيه، أو يحتقره ويتكبر عليه.

وقد بين سبحانه وتعالى أن من أسباب إهانة العبد والتضييق عليه في الرزق: إهانته لليتيم، أو عدم إعطائه الحق الثابت له في العمل أو في الميراث، أو ظلمه، أو عدم إكرامه، أو أكل ماله.

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر].

ونهى سبحانه عن قهر اليتيم واحتقاره وأكل ماله، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ [الضحى:٩].

وقد أمر سبحانه وتعالى بإصلاح شأن اليتامى، والإحسان إليهم، وعدم الاقتراب من مالهم إلا بالحسنى، وَردَ ذلك في العديد من آيات الله عز وجل.

وبين سبحانه أن إطعام اليتيم القريب، من أسباب اجتياز العقبة، وأنه دليل على حسن الإيمان[1].

ومن يأكل أموالهم ظلما فقد أكل نارا في بطنه ويصلى سعيرا يوم القيامة، كما في الآية العاشرة من سورة النساء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

وأخبر عليه الصلاة والسلام أنه وكافل اليتيم قرينان في الجنة.

كما قال ﷺ من حديث سهل بن سعد ﷺ «**أنا وكافل اليتيم كهاتين**» وأشار بالسبابة والوسطى[2].

وأن خير البيوت بيت فيه يتيم يُحْسَنُ إليه، وشر بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه[3].

الْوَصْفُ الثَّانِي: عَدَمُ الْحَثِّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ

٣- ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾

(١) آيات سورة البلد: فلا اقتحم العقبة وما بعدها.

(٢) البخاري (٥٣٠٤،٦٠٠٥)، والمسند برقم (٢٢٨٢٠) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود (٥١٥٠)، والترمذي (١٩١٨)، وأبو يعلى (٧٥٥٢)، والبغوي (٣٤٥٤).

(٣) أثر رواه عبد الله بن المبارك عن أبي هريرة.

الحض هو الحث والترغيب والأمر بإطعام المسكين، وهذا الوصف يقتضي أن يكون العبد أوّلاً، مطعِماً للمسكين الفقير الذي لا يجد حاجته، أو لا يجد ما يكفي حاجته الضرورية، فهو يُطْعِمُه ويأمر بإطعامه.

والمكذب بالدين يبخل بماله، فلا يطعم المسكين من ماله مع القدرة على إطعامه، ويبخل بمال غيره فلا يحث الناس على ذلك، فلا هو يُطعم المسكين ولا يأمر غيره بالإطعام، وهذا غاية في البخل والقسوة والخسة، فضلا عن أن يمنعه حقه أو يماطله.

ولو أنه آمن بالحساب والجزاء، ما صدر عنه مثل ذلك، فإن للعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والتعاون على البر والتقوى:

١ - وقد اقترنت هذه الصفة ـ عدم حث الآخرين على إطعام المسكين ـ بأعظم الذنوب جُرما على الإطلاق، وهو عدم **الإيمان بالله** تعالى، قال سبحانه وتعالى في وصف أهل الشمال وبيان سبب عذابهم: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤ ﴾ [الحاقة:٣٣،٣٤] أي إنه لا يقوم بحق الله تعالى عليه، ولا ينفع خلقه ولا يؤدي حقهم، فلا هو أحسن إلى ربه ولا أحسن إلى خلقه، وقد كان عدم الإحسان إلى خلقه من أسباب عذاب الله له.

٢ - وفي بيان سبب عذاب المجرمين في سقر، يقول تعالى على لسانهم ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ ﴾ [المدثر:٤٣،٤٤] أي ما عبدنا ربنا، ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا.

٣ - ومن أسباب الإهانة والتقتير: **عدم الحض على طعام المسكين**، قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ ﴾ [الفجر:١٧،١٨] .

أي لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، ولا يحث بعضهم بعضًا على ذلك.

٤- كما وصف الله تعالى الأنصار بأنهم ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر:٩] .

٥ - وإذا كان عدم الحث على إطعام اليتيم والمسكين، تكذيب بالدين والقيامة والحساب، فإن إطعامهما دليل على صدق إيمان الأبرار من عباد الله، قال تعالى في

وصفهم ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان:٨،٩] .

والمؤمن يفعل ذلك لأنه يخاف من الله يوماً عبوساً هو القيامة، إذا هو عبس في الدنيا في وجه اليتيم والمسكين، لضعفهما وعجزهما، فإن إيمانه قد مَنَعَه من ذلك، وردعه عن الإساءة إليهما.

أما المكذب بالدين فلا يوجد عنده هذا الدافع، ولا هذا الإحساس، فهو لا يبالي أن يعبس في وجههما ويسيء إليهما.

ويوم القيامة يكوى في نار جهنم: الجبهة التي عبستْ وتقطّبتْ في وجه المسكين، والجنْب والظهر اللّذيْنِ استدارا وأعرضا عن المسكين والفقير حين السؤال عن الزكاة أو الصدقة من مال الله الذي خوّله للغني، فكنزَه ولم يخرج منه حق الله تعالى.

بل ويمثّل المال لمانع الزكاة شجاعاً (ثعباناً) أقرع، كثير السم، يلدغه، وكلما لدغه قال له: أنا كنزك، أنا مالك.

من هذا تبين أن إطعام المسكين والحض عليه من الإيمان والعمل الصالح، وأن ترك ذلك علامة على التكذيب بالدين، وعدم صدق الإيمان، فهي صفات ذميمة فيها دلالة على الرياء وعدم الإخلاص.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: السَّهْوُ عَنِ الصَّلاَةِ

٤،٥- ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾

والسهو عن الصلاة: تركها وتأخيرها تهاوناً حتى يضيعَ وقتُها، فلا يصلي الظهر حتى يأتي العصر، ولا يصلي العصر حتى يأتي المغرب، وهكذا شأنهم ودأبهم دائماً أو غالباً، فهم مضيعون لوقتها، متهاونون في أدائها، وهى أفضل القربات، وأهم الطاعات.

والمراد السهو عن الصلاة وليس السهو فيها، فإن هذا يحدث من كل أحد.

وفي بيان هذا المعنى وردت آثار:

١ - روى البغوي وغيره بسنده عن سعد بن أبي وقاص ﷺ، في الذين هم عن صلاتهم ساهون، قال: (إضاعة الوقت)[1].

أي أنه تركها كسلاً حتى يفوتَ الوقت أو يكاد، فهو لا يبالي صلّى أم لا، وكأنه لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً.

٢ - وقد توعد الله هذا الصنف من الناس بالويل والعذاب، كما في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ [مريم:٥٩].

٣ - قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - لم تكن إضاعتهم للصلاة تركها، لكن أضاعوا الوقت[2].

٤ - وقال ابن عباس: (ليس معنى أضاعوها تركوها بالكلية، ولكن أخروها عن أوقاتها)[3].

٥ - وقال سعيد بن المسيب: (..فمن مات وهو مصر على هذه الحالة ولم يتب وَعَدهُ الله بغَيّ، وهو وادٍ في جهنم بعيدٍ قعرُه، خبيثٍ طعمُه)[4] وهو معنى ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[5].

أي خسارا يوم القيامة، لأن من ضيّع الصلاة فهو لما سواها أضيع.

٦ - وقال ابن عباس رضي الله عنها في وصف الساهين عن الصلاة: هم المنافقون يتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس، ويصلّون في العلانية إذا حضروا معهم، ويمنعون العارية بغضاً لهم، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾[6].

فكأن الذين يراؤون وصف للساهين عن الصلاة، فهم إن صلوا صلوا رياء أمام الناس، وإن كانوا وحدهم تركوها. وقد وُصفت صلاة المنافقين بست صفات في كتاب

---

(١) تفسير الخازن، وأخرجه أبو يعلى (٧٠٤)، والطبري (٦٥٩/٢٤)، والبيهقي في السنن (٢١٤/٢)، قال الحاكم والبيهقي: الموقوف أصح.

(٢-٥) تفسير ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ بسورة مريم.

(٦) تفسير الخازن، وأخرج هذا المعنى الطبري (١٦١/٢٤، ١٦٤) وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبهقي في الشعب، الدر المنثور (٦٨٦/١٥).

الله تعالى هي:

١- الكسل عند القيام لها.

٢- مراءاة الناس في فعلها.

٣- تأخيرها عن وقتها.

٤- نقرها وعدم الطمأنينة فيها.

٥- قلة ذكر الله فيها.

٦- التخلف عن الجماعة في أدائها.

وإلى هذه المعاني يشير قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

وقوله ﷺ من حديث أنس ﵁ «تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقرها أربعا، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»[1].

ومن كان هذا شأنه، فقد توعده الله تعالى بعذاب شديد في واد بجهنم، يسيل من صديد أهل النار وقيحهم، فَيُغْمَسُون فيه، أو يَطعمون منه ويشربون، والعياذ بالله.

السهو في الصلاة:

السهو عن الصلاة من أفعال المنافق، والسهو في الصلاة من أفعال المؤمن، فقد سها رسول الله ﷺ في صلاته وقال: «**إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني**»[2].

وهذا بخلاف السهو عنها فهو من صفات المنافقين.

قال بعض السلف: الحمد لله الذي قال ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل (في صلاتهم) لأنه لو قال: (في صلاتهم) لكانت في المؤمنين، والمؤمن قد يسهو في صلاته.

والفرق بين السهوين واضح، فإن سهو المنافق عن صلاته سهو ترك أو قلّة الْتفات إليها، فهو لا يتذكرها ويكون مشغولاً عنها، والمؤمن إذا سها في صلاته تداركَه في الحال، وجبَره بسجود السهو، فظهر الفرق بين السهوين[3].

---

(١) مسلم (٦٢٢) في المساجد باب استحباب التبكير بالعصر، وأخرجه أبوداود (٤١٣)، والترمذي (١٦٠)، والنسائي في الكبرى (١٥٠٩)، وأحمد (١١٩٩٩)، وابن حبان (٢٥٩).

(٢) من حديث صحيح أخرجه أحمد برقم (٣٨٨٣،٣٥٦٦)، وابن حبان (٢٦٥٦)، وابن ماجة عن ابن مسعود (١٢٠٣)، ومسلم (٥٧٢)، والبخاري (٤٠١)، وأبوداود (١٠١٩)، والترمذي (٣٩٢).

(٣) ينظر: صحيح الجامع الصغير رقم: (٢٣٣٤).

والسهو في الصلاة لم يسْلم منه أحد، وحديث ذو اليدين مشهور معروف وفيه عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله صلَّى وانصرف من ركعتين، فقال له ذو اليدين: أقصُرَت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «أَصَدَق ذو اليدين؟» فقال الناس: نعم، فقام ﷺ وصلَّى ركعتين أُخريَيْن ثم سلَّم، ثم كبَّر فسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رفع[1] أي سجد للسهو.

وفي الحديث عن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[2].

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: الرِّيَاءُ

٦- ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ[3] ﴿٦﴾﴾

أي أن أعمال المنافقين غير خالصة لله تعالى، فهم يتظاهرون بالأعمال الصالحة للشهرة والرياء، فيصلون أمام الناس ويخشعون فيها للثناء عليهم، ويتصدقون ليقال: إنهم كرماء، ويتمتم المرائي بلسانه ليقال: إنه صالح، ويُحسّن من قراءته أو وعْظه ليمدَح، ويتملق ليقال: إنه مخلص، وهكذا.

والفرق بين المنافق والمرائي: أن المنافق هو الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام، وكذا كل من يُبطن ما لا يظهر، وهو صاحب الوجهين يلقى هؤلاء بوجه وأولئك بوجه، يعطيك من طرف حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب.

والمرائي هو الذي يُظهر الأعمال الصالحة ليقال: إنه من أهل الصلاح.

والرياء أعم من النفاق.

أما من يُظهر أداء النوافل ليُقتدى به، وهو يأمن على نفسه من الرياء، فليس بمراءٍ.

---

(١) حديث ذو اليدين أخرجه البخاري عن أبي هريرة برقم (١٢٢٨،٤٨٢)، وهو الحديث الأول بعد المائة في عمدة الأحكام.

(٢) أخرجه ابن ماجة (٢٠٤٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٦٦٢)، وأخرجه الطبراني عن ثوبان (١٤٣٠)، وانظر: صحيح الجامع الصغير حديث رقم (٣٥٠٩) (ج ٣ ص ١٧٩).

(٣) عدّ الحمصى والعراقي ﴿يُرَآءُونَ﴾ آية، وتركها غيرهم.

والرياء يحبط العمل ويبطله، والمرائي مخادع، يكشفه ربه، ويهتك ستره، ويفضحه.

قال عليه الصلاة والسلام من حديث جندب بن عبد الله ﷺ:

«**من سمّع سمّع الله به ومن يرائي يرائي الله به**»[١].

وأول من تسعر عليهم النار يوم القيامة هم المراؤون: في جهادهم وصدقتهم وتلاوتهم للقرآن[٢].

ومن عمل عملا أشرك فيه مع الله غيره، تركَهُ وشِرْكه، وترك مجازاته لمن كان يرائيهم إن وَجَد عندهم جزاء.

ففي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[٣].

والإعجاب بثناء الناس لا ينافي الإخلاص[٤].

ومن أنواع الشرك: الشرك الخفي، وكفارته: أن يضرع العبد إلى ربه قائلاً:

(اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه)[٥].

مع تحري الصدق والإخلاص في العقيدة والعمل وموافقته لهذي محمد ﷺ.

---

(١) متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله في مسلم (٢٩٨٦)، والبخاري (٦٤٩٩،٧١٥٢)، وانظر: الترغيب والترهيب حديث رقم (٢٤)، وهو في النسائي في الكبرى عن ابن عباس (١١٦٣٦)، وابن حبان (٤٠٧).

(٢) حديث طويل صحيح، أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والنسائي (٦/٢٣) عن أبي هريرة، والترمذي (٢٣٨٣)، راجع نصه في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٢٠).

(٣) ورد هذا في حديث صحيح، أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٨٥)، وأخرجه أحمد في المسند عن محمود لبيد، انظر صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٢٩).

(٤) ورد هذا المعنى في حديث أخرجه الترمذي عن أبي هريرة.

(٥) أخرجه أحمد عن أبي موسى في المسند برقم (١٩٦٠٦) بإسناد ضعيف لجهالة أبي على الكاهلى، وباقى رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين غير عبدالملك بن أبي سليمان، فمن رجال مسلم (محققوه)، وأخرجه أيضا الطبراني في الأوسط (٢٥٠٢)، راجع صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٣٣).

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: مَنْعُ الْمَاعُونِ

٧- ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾

الماعون: ما يستعيره الناس بعضهم من بعض، ولاسيما الجيران والأصدقاء والزملاء، كالأواني والقدر.. والفأس، والدلو، والماء والملح والنار، وما يحتاجه الناس في مناسباتهم كالأفراح ونحوها من الفرش والبسُط والكراسي، ومن ذلك الكتاب والقلم.

قال ابن مسعود ﷺ: كنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية: الدّلو والقِدْر والفأس والميزان، وما تتعاطون بينكم)[1] كالمح والماء والإبرة والأواني والكتب ونحو ذلك.

فإذا أراد المؤمن أن يستعير من المكذبين بالدين، شيئاً من هذا القبيل، تعللوا وتعذّروا، فيمنعون الماعون، ولا ينفعون الناس، ولا يقضون حوائجهم، وذلك لبخلهم وشدة حرصهم على الدنيا.

وقد وصف الله سبحانه الإنسان بأنَّ مِنْ طَبْعِه أنه يمنع الخير، ويجزع من الشر، واستثنى سبحانه المصلين المؤمنين، فإن إيمانهم وصلاتهم تَقيهم شر هذا الشح والبخل.

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ﴾ [المعارج:١٩-٢١] .

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩] .

فخير الناس أنفعهم للناس، وقضاء الحوائج من أوصاف الصالحين.

قيل: والآية تشمل الزكاة، فكأن الله تعالى ذمهم على ترك الصلاة وعلى منع الزكاة.

وإخراج الزكاة، وقضاء الحوائج، ونفع الناس: آثار مرتبة على إقامة الصلاة وكمال الإيمان.

والسهو عن الصلاة من شأنه منع المعونة والبر والخير عن الناس.

---

(١) حسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٥٩) مختصرًا على الدلو والقدر، وهو في سنن أبي داود (١٦٥٧)، وأخرجه البزار في كشف الأستار (٢٩٩٢)، والطبراني في الأوسط (٣٤١٩)، والكبير (٩٠١٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٣/٧): رجال الطبراني رجال الصحيح، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٧٠١)، وفي ط الرسالة (١١٦٣٧)، والبيهقي (١٨٣/٤)، وابن أبي شيبة (٢٠٢/٣).

فللإيمان الصادق آثار صالحة تنعكس على الفرد والمجتمع، وعكس هذه الآثار تكذيب بالإسلام، والعياذ بالله.

ومن شأن أهل الإيمان أن يتعرفوا على حاجات الآخرين، ويسارعوا في قضائها، فإن الإيمان أخوّة وعطاء.

وإعانة المحتاج شرط في الإيمان، كإقام الصلاة وأدائها بخشوع.

ومانع الماعون متوعَّد بالويل، كمن يسهُو عن صلاته فيؤخرها حتى يضيع وقتها.

وهكذا فإن هذه السورة تعطي مفهوما آخر للإيمان والكفر، وتبين أن الدين ليس عبادات وشعائر فحسب، بل هو أيضاً إخلاص وتجرد وسلوك تصلُح به حياة الناس، فهو منهج متكامل، تدل آثاره على حقيقته، فتطهُر به القلوب وتصلُح به الحياة، فإذا تأمَّلْتَ الخصال السيئة وجدتُها متوافرة فيمن يكذب بالبعث والنشور، ولا يؤمن بالله ورسوله﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الحاقة: ٢٣ ـ ٣٣].

وهكذا: فإن سورة الماعون تحث على إكرام اليتيم والمسكين وتأمر بالحق على ذلك، وفيها حث على عدم تأخير الصلاة عن وقتها، وتحذير من الرياء ومن عدم قضاء الحوائج وتبادل المنافع.

تم تفسير (سورة الماعون) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الكوثر (١٠٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الكوثر) هي السورة الثامنة بعد المئة في ترتيب المصحف، والخامسة عشرة في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة العاديات) وقبل (سورة التكاثر).

وهي ثلاث آيات باتفاق، وعشر كلمات، واثنان وأربعون حرفاً.

وتسمى (سورة الكوثر) وفي البخاري والترمذي (سورة إنا أعطيناك الكوثر).

وسماها بعضهم (سورة النحر). فهذه ثلاثة أسماء لها:

وهي سورة مكية، وعن الحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة أنها مدنية، نزلت في صلح الحديبية تطييباً لخاطر النبي ﷺ.

قلت: وهو الأظهر، لما فيها من الإشارة إلى ذكر صلاة عيد الأضحى وذبح الأضحية.

وهي أقصر سورة في القرآن في عدد كلماتها وعدد حروفها.

وهي سطر واحد كسورة الإخلاص، ولكن سورة الإخلاص تزيد في عدد الكلمات، وعدد الحروف، وعدد الآيات.

وتتفق مع سورة العصر وسورة النصر في كونها ثلاث آيات ولكنها أكثر كلمات، وأكثر حروفاً منهما.

موضوع السورة:

وسورة الكوثر تتحدث عن فضل الله تعالى على رسوله ﷺ بإعطائه الخير الكثير، والنعم العظيمة في الدنيا والآخرة، ومنها: القرآن العظيم، والحوض المورود، والشفاعة العظمى.

وفي ذلك تطييب لخاطر النبي ﷺ لِمَا حدث له يوم الحديبية حين صدّه المشركون عن المسجد الحرام.

ولِمَا قاله المشركون حين مات أبناء النبي ﷺ الذكور، ولم يبق إلا الإناث.

فنزلت هذه السورة تهنىء النبي ﷺ وتبشره بالعطاء الواسع في الدنيا والآخرة، والثناء الجميل في العالمين، ومضاعفة الأجر، ورفع الذكر، إنه ﷺ أسعد المخلوقات، فهو سيد ولد آدم، وإمام الأولين والآخرين.

عن عمرو بن ميمون قال: لما طُعن عمر ﷺ وهاج الناس، تقدّم عبد الرحمن بن عوف، فقرأ بأقصر سورتين في القرآن ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ و﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾[1].

حول سبب النزول:

(سورة الكوثر) تعكس صورة من الكيد والأذى للنبي ﷺ من المشركين في صدر الدعوة، لصرف الناس عن الحق الذي جاءهم به من عند الله، وكان من عادات العرب السيئة أن الرجل منهم إذا مات أبناؤه الذكور، عيّروه وأظهروا الشماتة به، وقالوا: بتَرَ، يعني انْقطع ذِكْرُه، ولم يبق له أثر.

فلما مات أبناء النبي ﷺ الذكور في حياته: كالقاسم وإبراهيم، قال سفهاء قريش، كالعاص بن وائل، وعُقبة بن أبي معيط، وأبي جهل وغيرهم: إنه أبتر - إشارة إلى موت أولاده ﷺ فى حياته ومعنى ذلك أن ذِكره سينقطع - ولا يبقى له أثر - على حدّ زعمهم -.

وقال أحدهم: دعُوه فإنه سيموت بلا عِقب - أي بلا ذرية - وينتهي أمره، فأنزل الله سبحانه هذه السورة[2].

وهذه جملة من الآثار فى هذا المعنى :

١- جاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أكبر ولد النبي ﷺ القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، فمات القاسم، وهو أول ميت من أهله وولده، ثم مات عبد الله، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع أثره، فهو

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥٦/٢).

(٢) انظر سبب النزول في تفسير الطبري، وابن كثير، وفي زاد المسير في علم التفسير، وفي مسائل نافع بن الأزرق (٢٧٠).

أبتر، فأنزل الله السورة[1].

٢ - وبعد أن تُوفي القاسم وعبد الله، رأى المشركون رسول الله ﷺ مع العاص بن وائل عند باب بني شيبة بالمسجد الحرام، فلما وصل إليهم العاص قالوا له: من الذي كنت تتحدث معه؟ قال: ذلك الأبتر، وكانوا يصفون من لا ولد له بالأبتر، فنزلت السورة[2].

٣- وعن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: ولدتْ خديجة من النبي ﷺ عبد الله، ثم أبطأ عليه الولد من بعده، فبينما رسول الله ﷺ يكلم رجلاً، والعاص بن وائل ينظر إليه، إذ قال له رجل: من هذا؟ قال: هذا الأبتر، يعني النبي ﷺ وكانت قريش إذا وُلِد للرجل ولدٌ، وأبطأ عليه الولد من بعده، قالوا: هذا الأبتر، فأنزل الله ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ أي أن مبغضك هو الأبتر، الذي بُتر من كل خير[3].

٤- وهكذا قال عقبة بن أبي معيط: إنه لا يبقى للنبي ﷺ ولد، وهو أبتر[4].

٥- وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت قريش: أنت خير أهل المدينة وسيّدهم؟ قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا المنْبَتِر من قومه، يزعم أنه خير منا؟ ونحن أهل الحجيج، وأهل السّدانة، قال: أنتم خير منه، فنزلت ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ونزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾[5] [النساء: ٥٢].

ولعل هذه المقالة تركت أثرًا في نفس النبي ﷺ أو مَسّتْهُ بشيء من الغم، فكانت هذه السورة تطييباً لخاطره صلوات الله وسلامه عليه، وتسريةً عنه، وترويحاً عن نفسه، ثم

---

(١) أخرجه ابن سعد (٣/٧)، وابن عساكر (٣/١٢٦)، وهو في تفسير فتح القدير (٥/٥١٠)، وفي إسناده الكلبي وهو ضعيف.

(٢) تفسير البغوي (٤/٥٣٤).

(٣) أخرجه ابن عساكر (٣/١٢٨).

(٤) تفسير الطبري (٢٤/٦٩٩).

(٥) النسائي في السنن الكبرى (١١٦٤٣)، والبزار في الكشف (٢٢٩٣)، والطبراني في الكبير (١١٦٤٥)، وابن حبان (٦٥٧٢)، والطبري (٧/١٤٢)، وابن أبي حاتم (٣/٩٧٣).

هي تُبيِّن حقيقة البتْر والقطْع، وأنه ليس كما زعم هؤلاء الجهال، فآثار الشخص بما يُقَدّم لأمته، وإنّ ذِكْرى النبي ﷺ باقية على رؤوس الأشهاد، وشرْعَه قائم على رقاب العباد، مستمر دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، وقد أعطاه الله تعالى الخير الكثير في الدنيا والآخرة، بما يُخلِّد أثره، وينْفع أمته، ويتعدى نفعُ هذا الخير من الثقلين إلى العالمين، فهو ﷺ مرسلٌ رحمة للعالمين.

وهكذا فإن السورة تهنئة سريعة وبشرى حسنة للنبي ﷺ تبشره بواسع العطاء، والاصطفاء على العالمين، والثناء عليه في الأرض والسماء، فما من لحظة تمرّ إلا وصلاة تنبعث من ملَك مقرب، أو عبد صالح، تضاعف أجره، وترفع ذكره.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

نَهْرُ الْكَوْثَرِ هُوَ الْحَوْضُ الْمَوْرُودُ

١ - ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾

يمن الله سبحانه على نبيه ﷺ بأنه قد أعطاه الخير الكثير والفضل العميم، ومنه الحوض المورود يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وقد فَسر النبي ﷺ الكوثر بأنه نهر في الجنة، جاء ذلك في الصحيحين وغيرهما:

١ - عن أنس بن مالك ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: (نزلتْ عليّ آنفاً سورة: فقرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال:

«فإنه نهر وعَدَنِيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض تَرِدُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء، فيختلج[1] العبد منهم، فأقول: رب، إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك»[2] ويختلج بمعنى يُبعد عن الحوض.

ويؤخذ من الحديث أن البسملة آية من أوائل السور، لأن النبي ﷺ قرأ البسملة جهراً في أول هذه السورة وأثبتها فيها.

٢ ـ وعن أنس ﷺ قال: لما عُرِج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: **«أَتيتُ على نهر حافَتاه قباب اللؤلؤ، مُجَوّفاً، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر»[3].**

---

(١) يختلج: يُجتذب ويُبتعد عن الحوض.

(٢) أخرجه مسلم (٤٠٠)، والترمذي وأبوداود (٤٧٤٧،٧٨٤)، والنسائي (٩٠٣)، وفي الكبرى (١١٧٠٢)، وانظر: روايات الحديث في جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير الجزري حديث رقم (٨٨٧) (ج٢ ص ٤٣٥) تحقيق وتخريج عبد القادر الأرناؤوط، وهو في المسند (١١٩٩٦)، وعند ابن أبي شيبة (٤٣٧/١١).

(٣) صحيح البخاري (٣٥٧٠،٤٩٦٤)، وانظر صحيح مسلم (١٦٢).

٣ - وفي بعض وصف هذا النهر قال ﷺ فيما يرويه ابن عباس رضي الله عنهما «**الكوثر: نهر في الجنة، حافّتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تُربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج**»[١].

ولا عدول عن تفسير النبي ﷺ بأن الكوثر هو نهر في الجنة، إلى قول أحد من الخلق.

وقد بين النبي ﷺ أيضاً أن نهر الكوثر هو الحوض المورود يوم القيامة الذي مَن يشربُ منه شَربة لا يظمأ بعدها أبداً، والنبي ﷺ يتقدم الواردين عليه، فيهيء لهم ما يحتاجون إليه، ويشفع لأمته حين يتقدم عليهم إلى الحوض.

والإيمان بهذا الحوض من العقيدة، والتصديق به من الإيمان، وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة.

وأحاديثه متواترة: رَواها خلْق كثير من الصحابة رضي الله عنهم، من ذلك:

١- حديث سهل بن سعد ﷺ في الصحيحين قال: قال النبي ﷺ

«**إني فَرَطُكم على الحوض، مَنْ مرّ عليّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا، لَيَرِدنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يُحال بيني وبينهم**»[٢].

٢- وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ يزيد فيه: «**فأقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سُحْقاً سُحْقاً لمن غيّر بعدي**»[٣].

٣- وفي حديث حارثة بن وهب ﷺ: قال: سمعت النبي ﷺ ذكر الحوض فقال: «**كما بين المدينة وصنعاء**»[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح (٣٣٦١) وإسناده صحيح، راجع جامع الأصول وحاشية في الحديث رقم (٨٩٠) (ص ٤٣٩ ج٢)، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٦٧٧)، وعند ابن أبي شيبة (٤٤٠/١١)، وأحمد (٥٩١٣)، وابن ماجة (٤٣٣٤).

(٢) متفق عليه، راجع اللؤلؤ المرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم (١٤٧٦،١٤٧٧،١٤٨٢)، وهو في البخاري (٦٥٨٣،٧٠٥٠)، وفي مسلم (٢٢٩٠).

(٣) البخاري (٦٥٨٤،٧٠٥١)، ومسلم (٢٢٩٠).

(٤) البخاري (٦٥٩١)، ومسلم (٢٢٩٨)، وانظر البخاري (٦٥٩٢).

وهذا في بيان المساحة والسعة، ومن ذلك أن ماءه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، وأن آنيته كنجوم السماء في كثرتها واستنارتها، وأن من شرب منه مرة لم يظمأ بعد أبداً.

وجاءت روايات أخرى في قدْر الحوض وعرْضه وسعته، وعدد أوانيه، بأنها أكثر عددًا من نجوم السماء، وهذا من باب التقريب على أفهام السامعين، وإعلامهم عِظَم بُعد المسافة، وسعة الحوض، وكثرة العدد في الأواني.

٤- من ذلك أن عائشة رضي الله عنها سئلت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ قالت: هو نهر أُعْطِيه نبيكم ﷺ في بُطنان الجنة، شاطئاه عليه دُرّ مجوّف، فيه من الآنية والأباريق عدد النجوم)[1].

مَنْ يُحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَوْضِ الْمَوْرُودِ:

ويشرب من الحوض جميعُ الواردين عليه، إلا من يُمنعون عنه لارتدادهم وتبديلهم لدين الله تعالى، من أهل البدع والكبائر الذي لم يتوبوا، وكذا المنافقين والكفار، ممن طُردوا عن الحوض، عقوبة لهم بسبب المعاصي والارتداد، وتبديل دين الله تعالى، كما مرّ في الأحاديث السابقة.

والظاهر أن الشرب من الحوض يكون بعد الحساب والنجاة من النار، نسأل الله من فضله.

كَيْفَ يَعْرِفُ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

والنبي ﷺ يَعرف أفراد أمته يوم القيامة عند وُرودهم على الحوض، بالغرّة والتحجيل من آثار الوضوء، من بين الأمم الكثيرة.

قال ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**تَردُ عليّ أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه، كما يذود الرجلُ إبلَ الرجلِ عن إِبله**» قالوا: يا نبي الله أتعرفنا؟ قال: «**نعم، لَكُمْ سِيَما لَيست**

---

(١) ابن أبي شيبة (١٣/١٤٤)، والبخاري (٤٩٦٥)، والطبري (٢٤/٦٨٠).

لأحد غيركم، تَرِدُون عليّ غُرّا محجلين من آثار الوضوء، ولَيُصَدُّنّ عني طائفة منكم، فلا يَصِلُون، فأقول: يارب هؤلاء من أصحابي، فيجيبني ملَك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك»[1].

نَهْرُ الْكَوْثَرِ مِنَ الْخَيْرَاتِ الْكَثِيرَةِ:

ولاشك أن هذا النهر، ضمن الخيرات الكثيرة التي أعطاها الله تعالى لرسوله ﷺ ويمتد أثرها في الأرض والسماء، والدنيا والآخرة، وعلى مدار القرون، وملايين الملايين من البشر، بما يَرُدّ المعنى الذي أطلقه السفهاء على رسول الله ﷺ مِنَ انقطاع الأثر بموت ولده، ثم بموته صلوات الله عليه وسلامه.

فنهر الكوثر من الخير الكثير الذي أعطاه الله تعالى لنبيه ﷺ.

كما صح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه إياه، قال أبوبشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن الناس يزعمون أنه نهر في الجنة، قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه)[2].

ومن الخير الكثير الذي فاض على البشرية في جميع أجيالها بسببه صلوات الله عليه: النبوة والقرآن والحكمة، وكثرة الأتباع، والعلم والشفاعة، والمقام المحمود، وإظهار شرعه على جميع الشرائع، والنصر على الأعداء، وكثرة الفتوح في زمنه وبعده إلى يوم القيامة.

وأعطاه الله تعالى السبع المثاني والقرآن العظيم، وشرح له صدره، ورفَع له ذِكْره، ووضع عنه وزره، وأعطاه ليلة القدر خير من ألف شهر، وجعل أمته خير البرية، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، ورفع عن أمته الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، ورفع عنهم الإصر والأغلال.. الخ.

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**أعطيتُ خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلتْ لي الأرض مسجداً**

---

(١) في صحيح مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٤٧).

(٢) البخاري (٤٩٦٦، ٦٥٧٨)، وابن جرير (٦٨٢/٢٤)، والحاكم (٥٣٧/٢).

وطهوراً، فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل، وأُحلت لي المغانم، ولم تَحِلَّ لأحد قبلي، وأُعطيتُ الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»[1].

وقد قرن الله تعالى اسمه باسم رسوله ﷺ في الشهادتين و (في التشهد) في كل صلاة، وعلى المآذن والمنابر، وفي الأرض والسماء، حيث يصلِّي عليه الملأ الأعلى، ويُصلّون على من يُصلِّي عليه.

وهذا الذكر، وهذا الشرف، ورفعةُ الشأن، والتخليدُ للذكرى في الأولين والآخرين.

هو المقياس الصحيح لبقاء الأثر في الدنيا والآخرة، بما لم يكن لأحد من خلق الله أجمعين.

وماذا تُغني الذرية؟ وماذا تفيد؟ ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧].

وكم تعمّر الذرية من الذكور أو الإناث في الدنيا؟

إن الكفر والجهل، هو الذي أعمى أبصارهم وجعلهم يصفون النبي ﷺ بالأبتر، كَبُرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا، وسلام على رسول الله محمد ﷺ في الأولين والآخرين، وسلام عليه إلى يوم الدين.

إخلاصُ الصلاةِ والذبحِ للهِ تعالى

٢- ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴿٢﴾ ﴾

وبعد أن مَنَّ الله على نبيه بالخير الكثير ومنه نهر الكوثر، أمره بشكر هذه النعمة:

١ - عن طريق أداء الصلاة لله تعالى، فهي تتضمن خضوع القلب والجوارح لله تعالى.

٢ - وعن طريق الذبح لله تعالى، ففيه تقرب إلى الله تعالى ببذل المال الذي جُبلت القلوب على حبه.

والصلاة من باب شكر النعمة، أي وكما أعطيناك هذا العطاء الجزيل والخير الكثير، ومنه

---

(١) أخرجه الشيخان البخاري برقم (٣٣٥،٤٣٨،٣١٢٢)، ومسلم (٥٢١)، وأبوداود عن البراء، انظر: صحيح الجامع الصغير حديث رقم (١٠٦٧) وهو من رواية جابر ﷺ.

نهر الكوثر وهو الحوض المورود في الجنة، يوم لقاء رب العالمين.

وكما أعطيناك ما لا نهاية لِكَثْرته من خيري الدنيا والآخرة، فاعبد ربك الذي أعزك وشرّفك ورفع منزلتك على كافة الخلق، وداوم على صلواتك المكتوبة وعلى صلاة النافلة، واجعلها خالصة للواحد الأحد، الفرد الصمد، شكراً لله تعالى الذي أفاض عليك بهذا الخير العميم.

وخُصت الصلاة بالذكر، لأنها جامعة لجميع أقسام الشكر، هذا هو الشق الأول للآية ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾.

ثم يأتي الشق الثاني منها وهو: النحـر:

أي وانحر البُدْن متقرباً إليه تعالى، ولا تشرك معه غيره في ذبيحتك، ولا في صلاتك، كما يفعل المشركون، فقد كانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية، وكانوا ينحرون للأصنام، فيسجدون لغير الله تعالى، ويذبحون لغير الله تعالى، ويذكرون عليها غير اسم الله تعالى، وفي هذا تعريض بشركهم، وبيان لعدم قبول صلاتهم وذبحهم.

والذبح ضرب من ضروب العبادة، لايتقرب به إلا إلى الله تعالى، ولم يزل يوجد إلى وقتنا من يذبح للأضرحة والقبور، كما كان المشركون يذبحون لآلهتهم!!

ولمّا كان أناس يصلُّون لغير الله، ويذبحون لغير الله، أمر الله كل مسلم على لسان رسوله ﷺ أن يصلي له، وينحر له وحده دون سواه، فقال تعالى آمرًا رسوله ﷺ والمؤمنين بإخلاص الصلاة والذبح والمحيا والممات لله وحده ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

ونهى سبحانه وتعالى عن أكل ما لم يُذكَر عليه اسم الله تعالى عند الذبح فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وخُص الذبح بالذكر بعد الصلاة لأنه من علامات الشكر لله تعالى على نعمه.

صلاة عيد الأضحى والأضحية:

وقد ورد أن المراد بالصلاة في الآية: خصوص صلاة عيد الأضحى، أو صلاة الفجر

في مزدلفة يوم النحر.

والمراد بالذبح في الآية: ذبح الأضحية يوم عيد الأضحى.

قال ابن كثير: والصحيح أن المراد بالنحر: ذبح المناسك، ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر نسكه، ويقول فيما يرويه البراء بن عازب ﷺ «**من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له**»[1].

عموم الآية: قال ابن جرير الطبري: والصواب قول من قال: إن معنى ذلك: فاجعل صلاتك ونحرك كلها لربك خالصاً، دون ماسواه من الأنداد والأوثان، شكراً له على ما أعطاك وخَصّك به من الكرامة والخير الذي لا كفء له، قال ابن كثير: وهذا الذي قاله في غاية الحسن[2].

وعلى هذا فصلاة عيد الأضحى ونحر الأضحية يدخلان في عموم الصلاة وعموم النحر، ولهما فضل وأجر جزيل، وهما من السنن المؤكدة.

وخَصَّ سبحانه الصلاة والنحر بالذكر، لأن الصلاة مجمع العبادات، وعماد الدين.

والنحر فيه إطعام الطعام، وفيه قيام بحقوق العباد.

ففي الصلاة والنحر؛ القيام بحقوق الله وحقوق عباده، ولصلاة العيد والأضحية أحكام تتناولتها كُتب الفقه.

مَقْطُوعُ الذِّكْرِ وَالأَثَرِ هُوَ الأَبْتَر

٣-﴿إِنَّ شَانِئَكَ[3] هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

إنَّ مُبغضكَ ومُنتقصك - أيها النبي - هو المقطوع من كل خير، والمقطوع من كل ذكر.

---

(١) أخرجه الشيخان وأبوداود عن البراء، صحيح الجامع الصغير حديث رقم (٦٢٢٧)، وهو في البخاري برقم (٩٨٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير للآية (٥٠٣/٨).

(٣) قرأ أبوجعفر بإبدال همزة ﴿شَانِئَكَ﴾ ياء وصلاً ووقفاً، وكذا حمزة وقفاً، والباقون بتحقيق الهمزة.

وفي هذه الآية ردّ على من قال عن النبي ﷺ لما مات ابنه: إنه أبتر، أي منقطع الأثر والذكر.

فبعد أن قرر سبحانه وتعالى أنه أعطى نبيه الخير الكثير، ورفَع ذكره في العالمين، بين جل شأنه هنا أن مبغضي النبي ﷺ وكارهيه، أمثال العاص بن وائل - صاحب المقالة - وغيره، هو مقطوع الذكر والأثر.

وقد قطع الله دابر الكفار من الذين وَصفُوا النبي ﷺ بالأبتر، وانقطع ذِكْرُهم، وانطوى أثرهم، فهم مقطوعون من رحمة الله تعالى، ولا يُذْكَرُون إلا باللعنة، فما أخزاهم في الدنيا، وما أتعسهم يوم لقاء رب العالمين، بينما امتدّ ذِكْرُ النبي ﷺ وارتفع أثره من فوق المنابر والمآذن، وعلى ألسنة العابدين والذاكرين إلى قيام الساعة، وامتدت جذوره ﷺ في الأجيال، وخُلِّدت ذِكْراه في أرجاء الدنيا، وفي نفوس الخلائق إلى يوم الدين، وهو في الآخرة صاحب المقام المحمود، والدرجة الرفيعة، فأيهما المبتور، مقطوع الذكر والأثر؟

هل هو مَن كانت الصلاةُ عليه سبباً في دخول الجنة، وتَرْكُ الصلاة عليه حين يُذكَر اسمُه ﷺ سبباً في دخول النار، رغم أنف تاركها، أم من تصاحبه اللعنة إذا ذكر اسمه إلى يوم القيامة؟!!

والآية عامة في كل من ينتقص النبي ﷺ فيذمه أو يعيبه أو يسخر منه أو يهزأ به بأى صورة من الصور، أو أي شكل من الأشكال في كل زمان ومكان.

أعداء الإسلام هم الذين يؤذون النبي ﷺ:

والمشركون لم يبغضوا رسول الله ﷺ لشخصه، فقد كانوا يُلَقِّبونه بالصادق الأمين، ويضعون عنده ودائعهم، ويُحكّمونه فيما شجر بينهم، ولكنهم كانوا يبغضون ماجاء به من الهدى والحق، والبرهان الساطع، والنور المبين.[1]

وكل من كرِهَ الإسلام، وأبغضه، أو كره بعض ماجاء به الإسلام، فسيكون مصيره الخذلان في الدنيا، وسوء المصير يوم القيامة.

وتنكير لفظ ﴿شَانِئَكَ﴾ يفيد العموم، فكل من أبغض محمداً ﷺ فيما مضى، وفيما حضر، وما هو آت من الزمان إلى يوم الدين، فهو الأبتر والأذل والأقل والأصغر.

وجوب حب رسول الله ﷺ:

وإذا كان بُغض رسول الله ﷺ لذاته، أو بُغض ما جاء به كله أو بعضه، كُفْرٌ يؤدي بصاحبه إلى النار، وبئس القرار، فإن حب النبي ﷺ فَرْض واجب على كل مسلم، وكذا حب ما جاء به من الإسلام، أصوله وفروعه، وهو شرط من شروط الإيمان كما قال ﷺ من حديث أنس ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[1].

ومحبة الرسول ﷺ لابد أن تكون مقدَّمة على محبة النفس والذات، وكذلك حب ما جاء به ﷺ.

ولذلك فإنه لما قال عُمر بن الخطاب ﷺ يا رسول الله: لأنت أحبُّ إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: «**لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك**» فقال عمر: فأنت الآن والله أَحَبُّ إليّ من نفسي، فقال: «**الآن يا عمر**»[2].

أي الآن كَمل إيمانك، حيث ولابد أن أكون أحب إليك من نفسك، وهَوايَ مقدم على هواك، ورغبتي مقدمة على رغبة نفسك وشيطانك.

ومحبة النبي ﷺ لذاته، ومحبة ماجاء به من شرع الله، تأخذ بيد العبد إلى الدرجة العالية في الجنة:

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ فلفت النبي ﷺ نظر السائل إلى ما هو أهم من سؤاله، حيث قال له: «**ما أعددتَ لها؟**» فقال: ما أعددتُ لها كثير صلاة ولا صيام - يعني من النوافل - إلا أني أحب الله ورسوله، فقال له النبي ﷺ: «**المرء مع**

---

(١) أخرجه الشيخان عن أنس، البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، وفي النسائي «من ماله وأهله والناس أجمعين» وانظر جامع الأصول في أحاديث الرسول حديث رقم (٢١)، وهو في المسند (١٢٨١٤،١٣٩٥٩).

(٢) من حديث عبد الله بن هشام في المسند (٢٢٥٠٣) قال محققوه: حديث صحيح، ابن لهيعة، وإن كان سيء الحفظ، قد توبع، وباقي رجاله ثقات، وانظر (١٨٠٤٧).

من أحب» قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك[١].

من هدايات السورة:

وفي سورة الكوثر دلالات واضحة وبراهين ساطعة على صدق النبي ﷺ وصحة نبوته، وصدق وعد القرآن الكريم:

١- فقد انتشر دين محمد ﷺ وخُلّدت شريعته، وكَثُر أتباعه، وأخزى الله مبغضي رسوله، وجعلهم من الأخسرين أعمالاً.

٢- وأخبر الله تعالى رسوله ﷺ بما قاله القوم، ومادار في نفوسهم، وجرى على ألسنتهم فيما بينهم، من قولهم: إن محمدا قد انقطع أثره بموت ولده، فأطلعه ربه على ما كان من شأنهم، دون أن يبلُغَه أنّ هذا منهم ولا من غيرهم.

٣- لقد عجز فصحاء العرب وبلغاؤهم أن يأتوا بمثل هذه السورة القصيرة على وجازتها، وقلة ألفاظها، مع حرصهم على بطلان الدعوة وتكذيب صاحبها.

٤- وقد أخبر الله نبيه بقطْع دابرهم، وسقوط شأنهم، وانتهاء أمرهم، وزوال دينهم، وكان الأمر كما أخبر الله تعالى رسوله ﷺ [٢].

تم تفسير (سورة الكوثر) ولله الحمد والمنة

---

(١) انظر رواية أنس وابن مسعود في رياض الصالحين رقم (٣٦٦) وما بعده، وهو في الصحيحين البخاري (٦١٦٧،٣٦٨٨)، ومسلم (٢٩٥٣،٢٦٣٩)، والنص موجود في مشكاة المصابيح، باب الحب في الله حديث رقم (٥٠٠٩).

(٢) الشيخ محمد محمود الصواف، ثلاث سور من الدرر في إطراء سيد البشر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الكافرون (١٠٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الكافرون) هي السورة التاسعة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثامنة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الماعون) وقبل (سورة الفيل).

وهي ست آيات، وست وعشرون كلمة، وأربعة وتسعون حرفاً، وهي سورة مكية.

أ - وتسمى (سورة الكافرون) بالرفع، على حكاية لفظ القرآن، وسماها بعضهم: (سورة الكافرين) على الإضافة.

ب - وعنْون لها البخاري بـ (سورة قل يا أيها الكافرون).

ج - وتسمى (سورة الإخلاص) فتشترك مع (قل هو الله أحد) في هذا الاسم.

د - كما تسمى هي، وسورة الإخلاص، وسورة براءة (المقشْقِشَة) لأن السور الثلاث تُقشْقِشُ، أي تُبرِّىءُ من الشرك والنفاق.

هـ - ويقال لها أيضا: (سورة العبادات) و (سورة الدين) فهذه ستة أسماء[1].

٢ -**موضوع السورة:**

و(سورة الكافرون) هي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والكفر، وفيها قطْع أطماع غير المسلمين أن يدخل المسلمون في دينهم، فإن العقائد المختلفة لا تتوحّد، ومن الخير أن تقوم العلاقات الدولية، على الاعتراف بتعدد الشرائع وفتح المجال للمناظرة والحوار، والجدال الحسن، فالإسلام لا يُكْره أحداً على الدخول فيه، ولكنه يطرح مبادئه ومحاسنه في الساحة العالمية، لمن يرغب في الدخول فيه، ويدعو المسلمين على أن يُعرِّفوا شعوب العالم بالإسلام في وسائل الإعلام المختلفة بلغاتهم.

---

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٥٧٩/٣٠).

وقد شُرع الجهاد منعاً للفتنة، وإزالةً للعقبات التي تمنع الناس من الدخول في الإسلام، كما شُرع رداً للعدوان، وشُرع الجدال بالتي أحسن بالنسبة لغير الظالمين من أهل الكتاب.

وفي سورة هود نبذة من تاريخ البشر، تبين الصراع بين المؤمنين والكافرين على مدى العصور، وفي نهايتها يقول الله تعالى لنبيه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ – ١١٩].

والسورة التي بين أيدينا تُشبه قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ١٤٥].

٣ - توحيد الربوبية يقر به غير المسلمين:

كان الكفار يقرون ويعترفون بالله تعالى، ولا يجحدون وجوده سبحانه، وقد ذكر القرآن الكريم أنهم كانوا يعترفون بالله رباً، خالقاً للسموات والأرض، مسخراً للشمس والقمر، رازقاً للكون، منزلاً للماء من السماء، يدبر الأمر، يحيي ويميت، يملك السمع والأبصار، بيده ملكوت كل شيء، يجير ولا يجار عليه.. الخ.

١- كما قال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

٣- وقال جل شأنه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

٤-وقال عز وجل: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤ – ٨٥].

ومع هذا الاعتراف فهم يعبدون غير الله، وهذا تناقض، فإن الخالق الرازق المدبر،

هو الذي يُعبد، وهو الذي يُدعى ويُسأل، وهو أقرب إلى خلقه من حبل الوريد، لا يحتاج إلى شريك ولا وسيط.

٤ - من الشرك بالله: اتخاذ وسائط تقرب إليه سبحانه:

والمشركون مع إقرارهم بالله رباً، فإنهم في الوقت نفسه يتقربون إلى الله تعالى بأصنامهم، ويتوسلون بها إليه سبحانه، وكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله، وأن بينه وبين الجِنَّةِ نسباً، وكانت لهم شعائر وتقاليد حيث يجعلون لآلهتهم نصيباً مزعوماً في زرعهم وأنعامهم وأولادهم، يقدمونه لهم، وغير ذلك، كتحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

ولم يزل يوجد هنا وهناك، من يتوسل ويتقرب إلى الله تعالى بالأضرحة، وينذرُ لها، ويذبح لها، ويدعوها، ويسألها الخير ودفع الضر، ويطلب منها المدد والعون، ويزعم أنه لو لم يف بنذره، أو بعادته، فإن صاحب الضريح سيضره!! ونحو ذلك كثير، وهذا هو عين ما كان عليه أهل الجاهلية، ممن قاتلهم النبي ﷺ واستحل دماءهم وأموالهم.

ومع أن المشركين يزعمون أن الملائكة بنات الله، وأن بينه وبين الجنة نسباً، فهم يزعمون أنهم أهدى من اليهود الذين يقولون: عزير ابن الله، وأهدى من النصارى الذين يقولون: المسيح ابن الله، ويعتقدون أنهم على دين إبراهيم، فلما جاء محمد ﷺ وقال: إنه على دين إبراهيم، قالوا نحن على دين إبراهيم، ولا حاجة بنا لأن نترك ما نحن عليه، وأخذوا يحاورون النبي ﷺ ليضعوا حلاً وسطاً، فطلبوا منه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا لإلهه، وهذا ما تتحدث عنه هذه السورة.

٥ - سورة الكافرون في السنة النبوية:

هذه جملة من الأحوال التى تُقرأ فيها سورة الكافرون:

أولاً: إن فيها البراءة من الشرك لمن قرأها:

١- قال الإمام أحمد: عن مهاجر أبي الحسن، عن شيخ أدرك النبي ﷺ قال: خرجتُ مع النبي ﷺ في سفر، فمر رجل يقرأ؟ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: «أما هذا فقد برىء من

الشرك» قال: وإذا آخر يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال: النبي ﷺ: «بها وجبت له الجنة»[1].

٢- وعن جابر بن عبد الله أن رجلا قام فركع ركعتي الفجر، فقرأ في الركعة الأولى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فقال النبي ﷺ: «هذا عبد عرف ربه» وقرأ في الثانية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال النبي ﷺ: «هذا عبد آمن بربه»[2].

ثانياً: يستحب قراءتها عند النوم في ختام أعمال اليوم:

أ - سأل فزوة بن نوفل الأشجعي، عن أبيه، سأل رسول الله ﷺ ماذا يقول عند منامه؟ فقال: «اقرأ عند منامك ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ثم نم على خاتمتها، فإنها براءة من الشرك»[3].

ب - وعن عبد الرحمن بن نوفل الأشجعي عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بشرك، فمُرني بآية تُبرّئني من الشرك، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: «فما أخطأها أبي من يوم ولا ليلة حتى فارق الدنيا»[4].

ثالثاً: فيها شفاء من لدغ العقرب مع المعوذتين:

عن علي ﷺ قال: (لَدَغَتِ النبيَّ ﷺ عقرب، وهو يصلي، فلما فَرَغ قال: «لعن الله

---

(١) قال الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا في الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد: وسنده جيد، وجهالة الصحابي لا تضر، راجع الفتح الرباني (٣٣٩/١٨)، تفسير سورة الكافرون وقال محققو المسند: حديث صحيح وهو برقم: (١٦٦٠٥،١٦٦١٧،٢٣١٩٤)، والحديث أخرجه الدارمي (٢/ ٤٥٨)، والنسائي في الكبرى (٨٠٢٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٥/٧)، ورواه أحمد بإسنادين في أحدهما شريك، وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) ابن حبان (٢٤٦٠) قال محققه: إسناده قوي وأخرجه أيضا البيهقي (٢٥٢٤).

(٣) قال في الفتح الرباني: ورواته ثقات، فلا يضره مخالفة من أرسله، والسائل هو: فروة بن نوفل الأشجعي عن أبيه، راجع النص الكامل للحديث في المسند: (٤٥٦/٥) (٢٣٨٠٧)، وابن أبي شيبة (٦٥٧٩)، وأبي داود (٥٠٥٥)، والنسائي (٧٢٩)، والترمذي (٣٤٠٣)، وصححه الحاكم (٥٣٨/٢)، ووافقه الذهبي والبيهقي في الشعب برجال ثقات (٢٢٩٠)، وهو في صحيح سنن أبي داود (٤٢٢٧).

(٤) قال محقق سنن سعيد بن منصور: سنده صحيح (١٢٨)، وأخرجه أيضا ابن أبي شسية (٧٤/٩) (٢٤٩/١٠).

العقرب، لا تَدعُ مُصَلِّياً ولا غيره»، ثم دعا بماء وملح فجعل يمسح عليها ويقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[١].

رابعًا: قراءتها في السفر:

ورد في الأثر استحباب قراءتها مع ما بعدها من السور الخمس في السفر، فإنها تكون سبباً في حسن الهيأة وكثرة الزاد لقارئها[٢].

خامسا: القراءة بها مع سورة الإخلاص في الصلاة:

ورد أن النبي ﷺ قرأ بها، وَبِقُلْ هو الله أحد، في ركعتي الطواف، وفي ركعتي الفجر (السنة) وفي صلاة المغرب، وفي الركعتين بعد المغرب، وفي السفر، وفي صلاة الوتر، وكان يكثر من ذلك:

١- فعن عبد الله بن عمررضى الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقرأ في المغرب ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[٣].

٢- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان إذا طاف بالبيت ثم صلّى ركعتين، قرأ فيهما بهما)[٤].

٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر)[٥] أي في صلاة السنة.

٤- وقال ابن عمررضى الله عنهما : رمقتُ النبي ﷺ خمساً وعشرين مرة ـ وفي لفظ:

---

(١) رواه الطبراني في الصغير بإسناد حسن (٢/٢٣)، راجع مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين الهيثمي (ج٥ ص ١١١) الطبعة الثانية (١٩٦٧م)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٨).

(٢) ورد هذا في حديث أخرجه أبويعلى عن جبير بن مطعم برقم (٧٤١٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٣/١٠): وفيه من لم أعرفهم.

(٣) صحيح سنن ابن ماجة (٩٥٧)، ومشكاة المصابيح (٨٥٢)، والترمذي (٤٣٢).

(٤) من حديث طويل في صحيح مسلم (١٢١٨)، والبيهقي في السنن بسند صحيح (٩١/٥).

(٥) صحيح مسلم (٧٢٦)، والبيهقي في السنن (٤٢/٣)، وأبوداود (١٢٥٦)، وابن ماجة (١١٤٨)، والنسائي في الكبرى (١٠١٩،١١٦٤٤)، وعن عائشة في صحيح سنن ابن ماجة (٩٤٤)، وابن أبي شيبة (٢٤٢/٢)، وابن حبان (٢٤٦١)، والبيهقي في الشعب (٥٢٥٢).

شهراً ـ كان يقرأ بهما في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب)(١).

سادساً: كونها تعدل ربع القرآن:

فقد جاء في الأثر أن هذه السورة تعدل ربع القرآن(٢).

ووجه ذلك: أن القرآن مشتمل على الأمر والنهي، وكل منهما يتعلق بعمل القلوب أو الجوارح، فهي أقسام أربعة، وسورة الكافرون مشتملة على النهي عن عبادة غير الله تعالى، وهو جانب اعتقادي من أعمال القلوب، فكانت لهذا تعدل ربع القرآن.

وقيل: لأن القرآن يشتمل على التوحيد، والرسالة، وأحوال الدنيا، وأحوال الآخرة.

وهذه أقسام أربعة، والسورة اقتصرت على التوحيد لتضمُّنها البراءة من الشرك، والتدين بدين الحق، وهذا هو التوحيد والدين الخالص(٣).

٦ـ سبب النزول:

قال الواحدي وغيره: نزلت في رهط من قريش، قالوا: يا محمد، اتَّبِعْ ديننا ونتَّبع دينك، تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك، فقد شركت في أمرنا، وأخذت بحظك، فقال: مَعاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ الخ فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام، وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك وآذُوه وأصحابه، وأمعنوا في

---

(١) صحيح سنن الترمذي (٣٤١) بإسناد صحيح (الألباني)، والمسند (٤٩٠٩، ٥٦٩١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وابن أبي شيبة (٢/٢٤٢)، والنسائي (٩٩١)، وابن ماجة (٩٤٣)، وابن حبان (٢٤٥٩)، ومصنف عبدالرزاق (٤٧٩٠)، والمشكاة (١/٢٦٨).

(٢) في حديث عند أحمد وغيره من رواية أنس، قال في الفتح الرباني عند سورة الزلزلة: وفي إسناده سلمة ابن وردان ضعفه أحمد وغيره، وحسنه الترمذي، ولعل تحسين الترمذي له لكثرة طرقه، وجاء أيضاً عن أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص كما في الطبراني الصغير (١/٦١)، والبيهقي في الشعب (٢٥٢٧).

(٣) ينظر: الفتح الرباني لترتيب المسند (ج ١٨) (ص ٣٣٢).

ذلك فقالوا له: دع ما أنت عليه ونحن نُموّلك ونزوِّجك من شئت ونُملِّكك علينا، وإن لم تفعل فلتعبد آلهتنا ونعبد إلهك حتى نشترك[1].

وهؤلاء الرهط هم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمية بن خلف، قالوا للنبي ﷺ فلتعبُد ما نعبُد، ونعبد ما تعبد، فإن كان ما نحن عليه أصح، كنت قد أخذت منه حظًّا، وإن كان ما أنت عليه أصح كنا قد أخذنا منه حظًّا، فأنزل الله السورة[2].

والمعنى يشمل كل كافر على وجه الأرض، ويشمل كل مداهَنة ومتابعة ومناصرة وملاطفة للكفار في مجال العقيدة، أو الرضى بعقيدتهم، والمشاركة في طقوسهم وأعيادهم الدينية.

والكفر كله ملة واحدة، وكل من لم يؤمن بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً فهو كافر، من أهل الكتاب أو من غيرهم.

* * *

(١) تفسير البغوي (٥٣٥/٤)، وتفسير القرطبي (٢٢٥/٢٠)، وتفسير الطبري (٧٠٣/٢٤)، والطبراني في الصغير (٢٦٥/١)، وفي إسناده أبوخلف عبد الله بن عيسى، متكلم فيه.

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧٠٣/٢٤)، وأسباب النزول للواحدى النيسابورى.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْكُفْرُ انْفِصَالٌ لاَ يُرْجَى مَعَهُ اتِّصَالٌ

١ - ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾

النبي ﷺ مأمور بتبليغ الرسالة، وتبليغ جميع ما أَوْحَى الله تعالى به إليه، والنَبيّ ﷺ يؤدي ألفاظ الوحي كما سمعها من جبريل عليه السلام، ويبلّغ للناس جميع ما أَنزل الله تعالى عليه.

ومن ذلك لفظ ﴿قُلْ﴾ في أول سور: الكافرون والمعوذات الثلاث، والجن، وغير ذلك في أوائل السور وأثنائها، فلفظ ﴿قُلْ﴾ قرآن يتلى ويُتعبّد به، وهو جزء من القرآن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وليس لفظ ﴿قُلْ﴾ قاصراً على مخاطبة الرسول ﷺ وقت وجوده حياً، ثم ينقطع اتصالها بالقرآن الكريم، كما زعم ذلك بعض الناس.

وكأن النبي ﷺ بإيراده لفظ ﴿قُلْ﴾ يقول: أُمرت بتبليغ جميع ما أُوحي إلي من ربي، ومنه لفظُ ﴿قُلْ﴾ من ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الخ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

والقرآن الكريم ينادي كل كافر على وجه الأرض، وفي مقدمتهم كفار قريش وقت التنزيل، كما ينادي كل كافر وثني إلى يوم القيامة، وينادي اليهود والنصارى، فقد كفروا بمحمد ﷺ وأشركوا بالله سبحانه، إنه يناديهم جميعاً بحقيقتهم، ويصفهم بوصفهم، ويبرأ إلى الله من شركهم، ويقطع بكفرهم، ويبين لهم أنهم وأمثالهم قد سبق في علم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا، وأنهم كافرون جملة وتفصيلاً، فلا التقاء بينه وبينهم.

فالقرآن يُشْعِرهُم في مطلع السورة بحقيقة الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال، ومن هنا فهو يجابههم بلفظ الكفر، وينسبهم إليه، ولا يبالي بهم، مع علمه سبحانه أنهم

يَبْغَضون نسبتهم إلى الكفر، وكذلك الحال مع كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً إلى الناس كافة فهو كافر أيضاً.

وقد وصف القرآن أهل الكتاب بالكفر لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ ولإشراكهم بالله تعالى.

وفي هذه السورة إشعار لهم بأن النبي ﷺ مبلِّغ عن ربه، وأنه محروس من عنده، وأنه ليس فيهم خير، ولا يرجى منهم إيمان، ولذلك فقد شنّع عليهم فخاطبهم بالكفر، على غير ما هو مألوف في الإسلام، من أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، تقريعاً وتوبيخاً وإشعارًا لهم بالذم، ولبيان أن هذا الخطاب من عند الله تعالى وليس من رسوله ﷺ، والنداء يعم جميع من لم يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر، وجميع من لم يؤمن بخاتم الأنبياء ﷺ إلى يوم الدين.

نَفْيُ الاتِّحَادِ بَيْنَ مَعْبُودِ الْكَافِرِ وَمَعْبُودِ الْمُسْلِمِ حَالاً وَمَآلاً

٢، ٣- ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ ﴾

قل لهم - يا رسولنا -: لا أعبد الأصنام والأوثان التي تعبدونها، ولا أعبد البقر ولا الجن ولا المسيح، ولا أتخذ القرابين التي تتقربون بها إلى الله تعالى شفعاء ولا وسطاء عند الله تعالى، ولن يحدث هذا مني في المستقبل.

فأنا أعبد الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، لا مثيل له ولا ند، ولا يحل في شخص ولا جسم، وهو غني عن الشفعاء والوسطاء، فلا يُتقرب إليه بمخلوق.

فأنا بريء من آلهتكم ومعبوداتكم التي لا تضر ولا تنفع، ولا تغني عن عابديها شيئاً، وأنا ثابت ومستديم على عبادة ربي، فلن أعبد في المستقبل آلهتكم التي تطلبون مني عبادتها، لأن بيْنَ ما أعبد وما تعبدون بوْن شاسع، وفرق كبير، فعبادتكم المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٤].

ولا أنتم في المستقبل عابدون ما أطلبه منكم من عبادة الواحد الأحد، فأنا أعبد الإله الحق، وأنتم تعبدون الحجارة والأوثان، وشتَّان بين عبادة الرحمن وعبادة الهوى والأوثان.

وقد حكم الله عليكم بالكفر الدائم لِمَا عَلِمَه عنكم في الأزل من ضلالكم، وفساد أعمالكم، وخُبْث طويتكم، وإزاغة قلوبكم عن الحق والهدى، وارتضائكم بالكفر، وعدم تحولكم عنه.

وقد أخبر الله نبيه بذلك لتظهر شقاوتهم وكفرهم في عالم الوجود.

والسورة نزلت في كل من بقي على كفره حتى الموت، وذلك إلى يوم القيامة.

وهاتان الآيتان تنفيان الاتحاد في المعبود بين المؤمن والكافر.

فالمعبود مختلف بين الطرفين، ولا التقاء بينهما.

نَفْيُ الاتِّحَادِ بَيْنَ عِبَادَةِ الْكَافِرِ وَالْمُسْلِمِ حَالاً وَمآلاً

٤، ٥- ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ ﴾

أي ولست في الوقت الحاضر بعابد معبودكم، فعبادتي غير عبادتكم، ومعبودي غير معبودكم، عبادتي خالصة لله تعالى، لا يشوبها شرك، وعبادتكم كلها شرك وتوسل، وفي هذا قَطْع لأطماع الكفار، كأنه قال: لا أعبد هذه الأوثان في الحال ولا في الاستقبال، فأنا لا أعبد ما تعبدون أبداً ما عشت، لا أعبد أصنامكم الآن، ولا فيما يستقبل من الزمان، ولن يحدث هذا في وقت من الأوقات، لا في الحال ولا في المآل، فعبادتي وعبادتكم مختلفة، ولا التقاء بينهما.

ولا أنتم أيها الكفار في وقتكم الحاضر بعابدين معبودي الواحد الديان.

وكان التعبير في جانب الكفار بلفظ الماضي: ﴿عَبَدتُّمْ﴾ لأنهم كانوا متلبسين بعبادة الأصنام قائمين عليها ومتعاونين عليها.

وكان التعبير في جانب الرسول بلفظ المضارع الذي يفيد الحال والاستقبال: ﴿أَعْبُدُ﴾ باعتبار أن البعثة والدعوة إلى التوحيد أمر حادث.

وهاتان الآيتان تنفيان الاتحاد في العبادة، والآيتان قبلهما تنفيان الاتحاد في المعبود.

هل بين هذه الآيات الأربع تكرار؟:

وعلى هذا فليس بين الآيات الأربع تكرار، فالآيتان الأُولَيان تتحدثان عن نفي اتحاد المعبود في المستقبل والحاضر، لأن (لا) لا تدخل غالباً إلا على فعل مضارع مستقبل[1] ففيهما نفي الاتحاد في المعبود.

والآيتان الأخيرتان تتحدثان عن نفي اتحاد العبادة في الوقت الحاضر والمستقبل، ففيهما نفي الاتحاد في العبادة.

وقيل: إن الكفار راجعوا النبي ﷺ وعرضوا عليه عبادتهم لإلهِه، وعبادته لآلهتهم، عدة مرات، فناسب هذا التوكيد والتكرار في السورة، لرفض طلبهم رفضاً جازماً، فحُسن التكرار مجاراة لهم في تكرار طلبهم، للحاجة إليه في نفي أن يكون المعبود واحداً لكل منهما، وعلى هذا فإن النفى الأول يدل على عدم وجود الفصل، والنفى الثاني يدل على أن ذلك قد صار وصفاً لازماً.

ثم نفى سبحانه أن تكون العبادة واحدة لكل منهما، وهذا ضرب من البلاغة والإعجاز، وقد راجع الكفار النبي ﷺ في ذلك مرارا فاحتاج الأمر إلى تأكيد.

عِبَادَةُ الرَّحْمَنِ وَعِبَادَةُ الأَوْثَانِ لاَ يَلْتَقِيَانِ

٦- ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ[2] دِينِ[3] ۝ ﴾

أي مادام أن هناك اختلاف تام في عبادتي وعبادتكم، ومعبودي ومعبودكم، وهما لا يلتقيان أبداً، فلكم شرككم وكفركم، وعليكم وزر ذلك وتبعته، ولي ديني وتوحيدي وإخلاصي، وعليّ تبعة الدعوة إلى الله، فلا تتعلق أمانيكم بالأمور المحالة، لأن منهج التوحيد يختلف عن منهج الشرك، وبينهما ما بين السماء والأرض، وأنا أقرر وأؤكد

---

(١) تفسير أبي السعود للآية.

(٢) قرأ نافع وهشام وحفص والبزي بخلف عنه بفتح ياء الإضافة وصلاً من ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ وسكنها الباقون.

(٣) وقف يعقوب بالياء بعد النون على ﴿دِينِ﴾ وصلاً ووقفاً والباقون بدونها.

لكم ذلك، وأنا نبي مبعوث من الله تعالى لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعوني، فقد أبلغتكم ما أرسلتُ به إليكم، فدَعُوني وشأني، ولا تدْعُوني إلى الشرك بالله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وقوله: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤] والكفر ملة واحدة.

وهذا المعنى المقرر في السورة يشمل اليهود والنصارى وجميع الملل والنحل غير الإسلام إلى يوم الساعة، فالكفر كله ملة واحدة، والمسلمون دعاة وحكاماً وولاة، مسؤولون أمام الله تعالى عن القيام بواجب الدعوة والجهاد.

من هدايات السورة:

وفي السورة بيان البراءة الكاملة من الشرك والكفر، والمفاصلة التامة بين الإيمان والكفر، والحسم الصريح لموقف الإسلام من الكفر، فلا مُهادنة، ولا مجاملة، ولا مُوادعة، فالكفر كفر، والإسلام إسلام، لا لقاء بينهما، ولا مَعْبر، ولا جِسر، ولا طريق، وليس هناك حلاً وسطاً، ولا مقاربة بين الديانات، ولا توفيقَ بينها، وليس هناك أنصاف حلول، ولا موافقة لملة الكفر ولا للحظة واحدة، لأن في ذلك مساواةً للحق بالباطل، واعترافاً به، ومشاركةً له في الكفر، فليس هناك وِحْدة بين الديانات، ولكن هناك حوار ومناظرة لإبطال الديانات المنسوخة، وعَرْض لمحاسن الإسلام وتعريف به، ولماذا ختم الله به الديانات، وجعله ديناً عالمياً إلى قيام الساعة؟

وهذا هو طريق الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان، وهو طريق الأمة الإسلامية، وطريق أبناء المسلمين وحُكَّامهم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

تم تفسير (سورة الكافرون) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ النصر (١١٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة النصر) هي السورة العاشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، والرابعة عشرة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة براءة، ولم ينزل بعدها سورة كاملة.

وهي ثلاث آيات، وسبع عشرة كلمة، وسبعة وسبعون حرفاً.

وهي أطول من سورة الكوثر في عدد الكلمات، وأقصر من سورة العصر، والسور الثلاث متفقة في عدد الآيات، ولكنها مختلفة في الطول والقصر.

وشهرتها (سورة النصر) ولها ثلاثة أسماء أخرى هي:

أ – (سورة إذا جاء نصر الله والفتح) كما جاء في صحيح البخاري.

ب- (سورة الفتح) كما جاء في جامع سنن الترمذي، فتشترك مع سورة الفتح في هذا.

ج - (سورة التوديع) كما في الإتقان للسيوطى عن ابن مسعود ﷺ، فهذه أربعة أسماء.

وهي سورة مدنية، باعتبار أن كل ما نزل من القرآن بعد الهجرة فهو مدني، وإلا فقد نزلت في (منى) أيام التشريق في حجة الوداع، قبل موت النبي ﷺ بنحو ثلاثة أشهر، كما قال ابن عمر وابن مسعود ﷺ.

وقيل: إنها نزلت مُنْصَرَفَ النبي ﷺ من خيبر، أي سنة سبع[1] وهو قول مردود.

٢ - موضوع السورة:

نزلت هذه السورة في أواخر عُمْرِ النبي ﷺ لتهنئته ﷺ بفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، بعد أن سقطت الأصنام وذهبت دولتها، وامتلأت الآفاق بالمؤذّنين يُعْلِنون ليلاً ونهاراً أن الله تعالى واحد أحد، وأن الحجارة التي كانت تُعبد من دون الله قد تصلُح لرصف الطريق أو بناء الدور!

لقد انتشر الإسلام، وتقلّمت أظافر الشرك والضلال، وارتفعت راية الدعوة بدخول

(١) رواه الطبري (٣٠/٢١٥)، والطبراني عن ابن عباس، المعجم الكبير (١١/٣٢٨) بسند مرسل فيهما.

الناس في دين الله أفواجاً.

لقد أدَّى محمد ﷺ رسالته بعد جهاد طويل، ومحا الخرافات التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي.

وبعد أن قام النبي ﷺ من الليل حتى تورّمت قدماه، بسبب استغراقه في عبادته ومناجاة ربه، مع أن الله تعالى قد وعده أن يغفر له مغفرة تامة، لا مؤاخذة عليه بعدها، في شيء مما كان يختلج في نفسه، من تقصير أو مخالفة الأَوْلى ونحو ذلك.

لم يبق لرسول الله ﷺ بعد ذلك إلاّ أن يعود إلى ربه، لينْعَم بجواره مع المرسلين الأولين والملائكة المقربين، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ليجزيه خيراً عن جهاده الطويل.

٣ -آخر سوة نزلت:

فسورة النصر آخر سوة كاملة نزلت على رسول الله ﷺ نزلت بمنى أوسَط أيام التشريق في حجة الوداع[1] ونزل في حجة الوداع أيضا آية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وعاش النبي ﷺ بعدها سبعاً وثمانين يوماً، وقيل غير ذلك.

وآخر آية نزلت من القرآن: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] وعاش النبي ﷺ بعدها واحداً وعشرين يوماً[2].

عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة قال: قال ابن عباس رضي الله عنها: أتدرى آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت جميعاً؟ قلت: نعم ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ قال: صدقت)[3].

٤ -سورة التوديع:

وسورة النصر تسمى سورة (التوديع) لما فيها من الدلالة على توديع الدنيا:

---

(١) سنن البيهقي (١٥٢/٥)، وفي الدلائل (٤٤٧/٥)، وعبدُ بن حُميْد (٨٥٦) منتخب، والبزار في الكشف (١١٤١).

(٢) حكاه ابن عبد السلام، راجع تحقيق زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٢٥٦/٩).

(٣) صحيح مسلم برقم (٣٠٢٤)، وسنن النسائي الكبرى (١١٧١٣)، وفي ط الرسالة (١١٦٤٩)، والمعجم الكبير للطبراني (٣١٩/١٠)، والحديث عند ابن أبي شيبة (١٠٤/١٤).

١- لأنها دلّت على نعْي النبي ﷺ ودُنوّ أجله، وقد عرف الصحابة ذلك، حين خطب النبي ﷺ وقال: «**إنَّ الله خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله**»[1].

٢- ولدلالة السورة على حصول التمام والكمال للدعوة الإسلامية، بحصول النصر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

٣- ولأن الله تعالى قد أمر رسوله ﷺ بالتسبيح والتحميد والاستغفار، شُكْراً لله تعالى على الفتح والنصر، وتنبيهاً له على أنَّ تبليغ الدعوة قد تم وكمُل، وهذا يقتضي انقضاء الأجل.

عن عائشة رضي الله عنها قالت (كان رسول الله ﷺ يُكثر في آخر أمره من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه) قالت: فقلت: يا رسول الله، مالى أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفره وأتوب إليه قال ﷺ: «**إن ربي عز وجل كان قد أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، إنه كان توابا**»، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾الخ السورة[2].

لقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على إيمان الناس، قلِقاً على مستقبل الدعوة، فلما رأى ﷺ علامة ربه في الأمة، ففُتِحت البلاد المغلقة، والقلوب المقفلة، أدرك ﷺ أن واجبه في الأرض قد كمل، وأنه سيلقى ربه قريباً، فأقبل على ربه يشكره ويثني عليه، ونزلت عليه سورة النصر، وكان في هذا نعيه ﷺ للناس، ودلالة على قرب أجله بتمام الفتح والنصر، واللحوق بالرفيق الأعلى بعد كمال الرسالة، فأسرّ عليه الصلاة والسلام بذلك إلى فاطمة رضي الله عنها كما سيأتي في الحديث الرابع، وأكثر من الصلاة والتسبيح والتحميد والاستغفار، وأشار ابن عباس رضي الله عنهما إلى هذا في رواياته السابقة، وفيها توديع للدنيا بعد فتح مكة، ودخول الناس في دين الله جماعات جماعات.

٥ -السورة تنعي رسول الله ﷺ:

١ ـ يشهد لهذا ما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر ﷺ كان يُدخل ابن

---

(١) ينظر حديث أبي سعيد الخدري في البخاري (٤٦٦).

(٢) المسند (٣٥/١) برقم (٢٥٥٠٨) (٢٤٠٦٥) وهذا لفظه، وهو بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققوه)، وابن حبان (٦٤١١)، والبيهقي في الشعب (٢٥٢٩) وغيرهم، وصحيح مسلم برقم (٤٨٤).

عباس وهو صغير على كبار الصحابة ويُجلسه معهم، فدعاه ذات يوم، وسأل شيوخ بدر: ما تقولون في قوله تعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾؟ فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصِرْنا وفُتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً.

فقال عمر ما تقول يا ابن عباس؟ فقال: هو أَجَلُ رسول الله ﷺ أَعْلَمَهُ له بظهور علاماته، وهو النصر والفتح، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول[1].

ولما نزلت سورة النصر أخبر عليه الصلاة والسلام أن نفْسه نُعيت إليه، وأنه مقبوض في تلك السنة.

٢- ولما نزلت السورة في منى بكى عمر والعباس رضي الله عنهما فسُئِلا عن السبب، فقالا: فيها نعي رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «صدقتما نُعيتْ إليّ نفسي»[2].

٣- وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن عمر رضي الله عنهم سألهم عن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ قالوا: فَتْح المدائن والقصور، قال: ما تقول يا ابن عباس: قال: أَجَلٌ، أو مَثَلٌ ضُرِبَ لمحمد ﷺ نُعِيتْ له نفسه[3].

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة، فقال: «إنه نُعيت إليّ نفسي» فبكَتْ، فقال لها: «لا تبك فإنك أول أهلي لاحق بي»، فضحكت..[4].

٥- وأخبر ابن عباس عن عكرمة أنه لما نزلت السورة اجتهد النبي ﷺ أشد ما يكون الاجتهاد في أمر الآخرة، وطلبه مرضاة ربه، وقال بعد ذلك: «جاء الفتح والنصر، وجاء أهل اليمن» فقال رجل وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة أفئدتهم، لينة قلوبهم، الإيمان

---

(١) راجع نص الحديث في صحيح البخاري برقم (٣٦٢٧،٤٤٣٠،٤٩٧٠)، والترمذي (٣٣٦٢)، والمسند (٣١٢٧)، وفي الفتح الرباني (ج ١٨) (ص ٣٤٠)، والطبراني (١٠٦١٦)، والبيهقي (١٦٧/٧)، وسنن النسائي الكبرى (٣٦٥٤،٣٩٠٤،٧٠٤٠،١١٦٤٧).

(٢) ينظر الآثار الواردة في ذلك في الدر المنثور (٧٢٢/١٥) وما بعدها.

(٣) ينظر صحيح البخاري (٤٩٦٩) وأخرجه ابن مَرْدُوَيْه أيضاً.

(٤) رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة وفيه ضعف، انظر: الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ج٩ ص ٢٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٦٧/٧).

والفقه يمان، والحكمة يمانية»[١].

٦- وكان عليه الصلاة والسلام قبل موته يكثر من قوله: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك**» فسألت أم سلمة: رسول الله ﷺ عن سبب ذلك، فأخبرها أنه أُمر بذلك في سور النصر[٢].

٧- قالت عائشة رضي الله عنها: ما سمعت رسول الله ﷺ منذ أنزلت هذه السورة إلا يقول مثلها «**سبحانك اللهم ربنا ولك الحمد، اللهم اغفر لي**»[٣].

وهذا يفيد أن السورة نزلت بعد فتح مكة، لما في هذه الأدلة من قُرب أجل النبي ﷺ بعد تحقيق فتح البلاد، والنصر على العباد، والأمر بكثرة التسبيح والاستغفار، والتهيؤ للقاء الله تعالى، وأن حياته الدنيوية قد أوشكت على الانتهاء، وبالتالي انتهاء أعمال الطاعات والقربات، فلم يبق إلا سؤال الله تعالى التجاوز عما يعرض للإنسان من استغلاله لبعض الحظوظ الدنيوية.

وطلاّب الدنيا هم الذين ينشدون الاستمتاع بثمرات النصر الذي أحرزوه، ولكن النبي ﷺ وهو في قمة السلطة، وقد اندحرت جميع القوى أمام جيشه وانحسر المدّ الروماني وراء حدود الجزيرة، واستسلمت له المستوطنات اليهودية، ومع هذا فإنه ﷺ قد مات ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام أَتى به لأهل بيته!!

* * *

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١١٩٠٣،١١٩٠٤) والأوسط، وأحد أسانيد رجاله رجال الصحيح، المجمع (٢٣/٩)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٤٨)، وفي السنن برقم (٧٣٢)، وفي المسند برقم (٧٧٠٩) بتصحيح أحمد شاكر، وفي الدارمي (٣٧/١)، والطبري (٣٣٢/٣٠)، وابن حبان (٧٢٩٨).

(٢) رواه الطبراني في الصغير ورجاله رجال الصحيح، المجمع (٢٣/٩)، وتفسير الطبري (٢١٦/٣٠)، وانظر الفتح الرباني (ج١٨) (ص ٣٤١).

(٣) هذا لفظ ابن جرير (٧١٠/٢٤)، وبنحوه في البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤)، وابن حبان (٦٤١١)، والبيهقي في الشعب (٢٥٢٩) وغيرهم.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

النَّصْرُ وَالْفَتْحُ

١- ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾

هذا امتنان من الله تعالى على رسول ﷺ بحصول النصر له على أعداء الإسلام، وبفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً وجماعات، بعد أن كانوا أعداء محاربين له، وكل ذلك قد تحقق:

أمثلة من نصر الله تعالى لنبيه:

بدأت الآية بالنصر قبل الفتح، لأن النصر سبب الفتح: ونصر الله تعالى لنبيه في المعارك الإسلامية واضح في معارك كثيرة، وكذلك نصره ﷺ بعوامل طبيعية ليس فيها حرب ولا قتال، ومن ذلك:

١- إلقاء الرعب في قلب العدو يوم بدر، واشتراك الملائكة في القتال، وتكثير عدد المسلمين في نظر العدو.

٢- وكما حدث في غزوة الأحزاب من تسليط الريح على العدو، فتقتلع خيامه، وتقْلِب قدوره، وتجعله يولي الأدبار، ويردّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال.

٣- وكما حدث في بني قريظة من اليهود، حيث قذف الله الرعب في قلوبهم، فأخذ المسلمون يأسرون فريقاً ويقتلون فريقاً، بعد أن نصرهم الله عليهم ومكّنهم من رقابهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

٤- وهكذا حدث النصر في يوم خيبر، حيث استسلموا لأمر النبي ﷺ ونزلوا على شروطه.

٥- ويوم فتح مكة، نصر الله رسوله حيث حُطِّمت الأصنام، وعُبد الواحد القهار، بلا حرب ولا قتال.

٦- وهكذا حصل النصر في سائر الفتوحات على أيدي قادة المسلمين المخلصين الجديرين بنصر الله تعالى لهم: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

قال ابن شهاب: غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح ـ فتح مكة ـ فخرج من المدينة في رمضان، ومعه من المسلمين عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف سنة من مَقْدَمِه المدينة، وافتتح مكة لثلاث عشرة بقيت من رمضان[1].

أهل النصر في كل زمان ومان:

وهكذا ينصر الله سبحانه المؤمنين في كل زمان ومكان، مِن كُل من ينصر دين ربه، ويكون أهلاً للنصر باتباعه منهج الله تعالى والعمل على إصلاح البشر، والولاءُ أوّلاً وأخيرا لله وحده كما قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر].

وقال جل شأنه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج].

وقال عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧].

وعلى المسلمين إذا لم يتحقق لهم النصر على عدوهم، أن يراجعوا أنفسهم، ويتلمسوا جوانب التقصير فيهم، ويدْرُسوا أسباب الهزيمة، فالمساواة بالعدو في المعاصي والآثام، تجعله يتفوق علينا بالعتاد والعدّة وقوة السلاح، ولا بد من الأخذ بأسباب النصر المادية، وتصنيع الأسلحة الحديثة، والاعتماد على النفس فيها.

أقول: لا سلاح مع الأخذ بالأسباب المادية أقوى من سلاح الإيمان، كما هو مقرر وثابت قديماً وحديثاً، والسلاح القليل مع الإيمان الكثير، أقوى في ساحة المعارك، من السلاح الكثير والإيمان القليل ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [البقرة:٢٤٩] إنه نصر الله

(١) ينظر هذا المعنى عند البخاري عن ابن عباس (٤٢٧٦)، (١٩٤٤)، وفي مسلم (١١٣) عن ابن عباس، وفي البيهقي (٥/٢١).

تعالى، يجيء به الله، في الوقت الذي يقِّدره الله، وفي الصورة التي يريدها الله، وللغاية التي يرسمها الله، يُجْريه سبحانه على أيدي من يشاء من عباده، فيقيمهم عليه حُرَّاساً، ويجعلهم عليه أمناء.

فتح مكة هو المقصود في السورة:

واتفق جمهور المفسرين على أن المراد بالفتح في السورة فتح مكة، وأن حدوثه يدل على صدق محمد ﷺ ففيه ظهوره على قومه، وفيه ظفَره بالحرم، بعد أن أجار الله أهل الحرم من أصحاب الفيل، وحمَى حرمه منهم، وأظهر دينه بفتح مكة، وكانت العرب تنتظر هذا الفتح لما فيه من الدلالة على نبوته ﷺ.

وقد قال العرب بعد فتح مكة: لا طاقة لكم بمحمد، فكان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً أفواجاً، بعد أن كانوا يدخلونه واحداً واحداً، واثنين اثنينَ، فأَظْهَرت جميع القبائل دخولها في الإسلام، ولم يمت النبي ﷺ وفي عرب الحجاز ونجد واليمن من لم يدخل في الإسلام، بل دخل الجميع في الإسلام بعد حُنْين والطائف، منهم مَنْ قَدِم بنفسه على النبي ﷺ ومنهم من قدم وفده ورسوله إلى النبي ﷺ.

وقد ذكر بعض المفسرين فتح مكة وأحداثها في هذه السورة، بناء على أن المراد بالفتح فيها هو فتح مكة.

وعلى هذا فالسورة بمثابة تهنئة للنبي ﷺ بالفتح والنصر، وأَمْرٌ له أن يسبح ربه ويحمده ويستغفره بعد الفتوح التي فتحت عليه، مكة وغيرها:

١ - ولما فُتحت مكة وأسلمت العرب أخذ ﷺ يُكثِر أن يقول:

«سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفرلي»[1].

٢ - ويؤيد هذا حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال يوم الفتح:

---

(١) جاء ذلك عن عائشة في المسند (٢٦١٦١) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه)، وعن ابن مسعود (٣٧١٩) حسن لغيره، وهو عند مسلم (٤٨٤)، والطبراني في الدعاء (٦٠٤)، وغيرهم.

«هذا ما وعدني ربي، ثم قرأ إذا جاء نصر الله والفتح»[1].

٣ - وكان النبي ﷺ قد أَخبر أنه سيرى علامة في أمته، وأنه أُمر إذا رآها أن يسبح بحمد الله ويستغفره قال: «فقد رأيتها، وقرأ: إذا جاء نصر الله ..» الخ[2].

٤ - وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: (لما نزلت هذه السورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها ثم قال: «أنا وأصحابي حَيِّزٌ، والناس حَيِّزٌ لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[3].

٥ - وعن مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل أن يموت سبحانك وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك) قالت: قلت: يا رسول الله، ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها تقول، قال: «جُعِلَتْ لي علامة في أمتي إذا رأيْتُها قُلْتُها: إذا جاء نصر الله والفتح إلى آخر السورة»[4].

٦ - وفي رواية ابن أبي شيبة: فقد رأيتها وهي فتح مكة[5].

تحقيق وترجيح لوقت نزول السورة:

فإذا قلنا إن نزول السورة كان في حجة الوداع، في أواخر العام العاشر للهجرة، في شهر ذي الحجة، أيام التشريق الثلاثة بمنى، وأن النبي ﷺ قد تُوفي في يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة، فمعنى هذا أن النبي ﷺ عاش

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات، مجمع الزوائد للهيثمي (ج٩ ص ٢٣).

(٢) انظر النص في الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (ج١٤ ص ٢٣٠)، وأخرجه مسلم برقم (٤٨٤).

(٣) صححه الحاكم ووافقه الذهبي (٢/٢٥٧)، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٢٥٠) إلى الطبراني وأحمد، وقال: رجال أحمد رجال الصحيح وهو في المسند دون «أنا وأصحابي حيز والناس حيز»، وقال محققو المسند: صحيح لغيره دون قوله «أنا وأصحابي حيز والناس حيز» وهو برقم (١١١٦٧، ٢١٦٢٩)، وأخرجه الطيالسي (٩/٢٣) برقم (٢٣١٩)، وابن أبي شيبة (١٤/٤٩٨).

(٤) صحيح مسلم (٤٨٤)، وابن أبي شيبة (١٠/٢٥٨)، والطبري (٢٤/٧٠٦)، وانظر: تخريجه فيما سبق تحت عنوان (سورة التوديع).

(٥) ينظر: ابن أبي شيبة (١/٢٥٨).

بعد نزول السورة نحو سبعة وثمانين يوماً، وهذا وقت يسير ومتقارب في عدد هذه الأيام، بخلاف القول بأنها نزلت سنة سبع من الهجرة عقب منصرف النبي ﷺ من خيبر، فإن فتح مكة المراد في الآية لم يكن قد حدث بعد. وهو أثر ضعيف لا يقوى أمام الأدلة المتضافرة على أنها نزلت بعد ذلك.

وعلى هذا فإن لفظ ﴿إِذَا﴾ من قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ﴾ بمعنى قد، أي قد حصل وتحقق فعلاً الفتح والنصر، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فلم يبق أمامك ـ أيها الرسول ـ إلا التسبيح والتحميد والثناء والشكر على تمام نعمة الله عليك، وقد ذكر القرطبي وأبوالسعود وغيرهما هذا المعنى.

وعليه: فإن القول بنزول السورة في منى أيام التشريق من حجة الوداع، هو الصحيح، للأدلة التي تنعي النبي ﷺ عند نزول السورة والتي سقنا بعضها في مطلع كلامنا عن هذه السورة.

هذا أولى من القول بنزولها قبل فتح مكة، وأن المراد بالفتح ما هو أعم من ذلك، بحيث يشمل كل ما فُتح في عهده ﷺ كفتح مكة واليمن، وما بُشّر بفتحه، كالشام والعراق والمدائن، والله أعلم.

أقول: ولهذا كبّر النبي ﷺ يوم فتح مكة، وكبّر يوم عِلْمِه بفتح اليمن، وقال في كليهما: جاء نصر الله والفتح.

فُتُوحَاتٌ فِي الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ

٢- ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ ﴾

أطلق القرآن الكريم على صلح الحديبية (فتحاً) لأنه كان المقدمة للفتح الأكبر (فتح مكة) ففتْح الحديبية وفتح مكة أعظم الفتوح، لأن الأول كان تمهيداً للثاني، ولأن الثاني قضى على دولة الشرك في الجزيرة، وكان الأول في العام السادس للهجرة، والثاني في العام الثامن للهجرة.

وقد جاءت الوفود إلى المدينة، تعلن إسلامها وتدخل في دين الله أفواجاً في العام

التاسع للهجرة.

وأرسل النبي ﷺ وفداً إلى اليمن بعد فتح مكة يدعوهم إلى الإسلام، وجاء وفد اليمن معلنين إسلامهم.

وقدم عليّ ﷺ من اليمن في العام العاشر في موسم الحج، ففتحت اليمن في حياته ﷺ.

ويؤيد هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا رسول الله ﷺ بالمدينة، إذ قال: «**الله أكبر، جاء أهل اليمن، الله أكبر، جاء نصر الله والفتح..الخ**»[1].

أقول: ولعل رواية ابن عباس هذه كانت بعد عودة النبي ﷺ إلى المدينة من حجة الوداع، وبعد قدوم عليّ ﷺ من اليمن.

فتوحات بشّر بها النبي ﷺ:

وكما أخبر عليه الصلاة والسلام بفتح اليمن أخبر كذلك بفتح الشام والعراق، كما في الموطأ عن سفيان بن أبي زهير، وقال بعد البشارة بفتح البلاد الثلاث: «**والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون**»[2].

قال ﷺ ذلك لمن أراد أن يرحل عن المدينة إلى هذه البلاد المفتوحة حديثاً.

وفي غزوة الأحزاب يوم حفر الخندق، حين عَرَضَتْ صخرة للصحابة لم يقْوَوْا عليها، فتصدى لها النبي ﷺ وضرَبها ثلاث ضربات تفتّتت منها الصخرة وخرج منها نور، عندئذ أخبر النبي ﷺ بأن الله تعالى سيفتح على أمته مدائن كسرى ومدائن قيصر، ومدائن الحبشة، ودعا النبي ﷺ لأمته بعد البشرى بفتح مدائن كسرى وقيصر، ولم يدع لهم في الحبشة وقال: «**دعوا الحبشة ما وَدَعُوكم**»[3].

(١) الفتح الرباني لترتيب المسند (ج ١٨ ص ٣٤٢).

(٢) راجع الحديث في موطأ الإمام مالك من رواية يحيى الليثي حديث رقم (١٥٩٩).

(٣) حسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم (٣٣٧٩)، وانظر: تخريجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٧٧٢) مع رواياته، والحديث في سنن النسائي الكبرى (٤٣٧٠)، وأبي داود (٤٣٠٢)، وفي التحفة (١٥٦٨٩).

انتشار الإسلام:

وأومأ القرآن الكريم إلى أن الناس سيأتون إلى الحج من كل فج عميق، وهذا لا يكون إلا بعد انتشار الإسلام في الشرق والغرب والشمال والجنوب، في الأماكن البعيدة من المعمورة، بعد دخولهم في دين الله، فلا يأتي إلى الحج إلا المسلم، كما أومأ إلى استمرار النصر لهذا الدين، وأنه يزداد عند حصول التسبيح بحمد الله والاستغفار، فإن هذا من الشكر، والشكر يزيد النعم، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وقد فتحت البلاد في عهد الخلفاء الراشدين، ولم يزل النصر مستمرا ولم يزل الناس يدخلون في دين الله إلى يوم الناس هذا.

شُكْرُ اللهِ تَعَالَى عَلَى النَّصْرِ وَالْفَتْحِ

٣- ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ[(١)] إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾

أي فإذا حصل هذا النصر والفتح فقابلْه بالشكر والثناء والتنزيه والتقديس لله عز وجل على ما أَوْلاك الله به من نعمة، وخصَّك به من نصر، وسبح بحمد ربك لنصر دينه، ونشر دعوته، واستغفر لربك.

وليس في الآية أمر للنبي ﷺ بالاستغفار من ذنب، فقد يكون الاستغفار طاعة وتقرُّباً ودعاءً، وقد يكون من ذنب، بالنسبة لغير الأنبياء، وحسنات الأبرار سيئات المقربين.

وعلى هذا فالمراد: استغفر لذنبك مما يكون قد ساور قلبك من الضيق حال الشدة، أو من استبطاء النصر، أو من التقصير في حمد الله وشكره، أو من الزهْو والشعور بالفخر، وما يعتري النفس حال انتصارها على عدوها، وفرْحتها بالظفر عليه.

استغفر لذنبك من مخالفة ما هو أولى من الأمور، واستغفر لذنبك لرفْع درجاتك عند الله عز وجل.

---

(١) قرأ ابن كثير بصلة هاء الضمير بحرف مد من ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ وصلاً وحذفها وقفاً، والباقون بحذفها في الحالين.

واستغفر لذنبك تعليماً لأمتك، فإنَّ من لازم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، وكان في أمان من عذاب الله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

استغفر لذنبك، فإن الاستغفار في حد ذاته طاعة وقربى إلى الله عز وجل، كالتسبيح والتحميد.

واستغفر - يا رسول الله - لذنوب أمتك، واستغفر لما عسى أن يكون قد وقع منك من اللمم.

استغفر لذنبك هضْماً للنفس واستقصاراً للعمل، واستعظاماً لحق الله تعالى عليك.

وداوم على التسبيح بحمد الله تعالى وداوم على الاستغفار والتوبة، شكرا لنعم الله عليك وعلى أمتك، فإن هذا يناسب النصر والفتح الذي منحك الله إياه، والشكر يزيد النعم ويديمها، وفيه زيادة في التواضع، وإظهار الافتقار إلى الله تعالى.

وفي الاستغفار توبة ورجْعة إلى الله عزوجل، وطلب لمغفرة الذنوب، وختم للأعمال بالتوبة، والله تعالى تواب رحيم، يغفر ذنب من تاب، وإلى ربه رجع وأناب.

هذه المعاني وغيرها يحتملها الأمر للنبي ﷺ بالاستغفار في الآية.

وقد كان ﷺ يكثر منه بعد نزول السورة.

وقيل: إن المراد بالتسبيح: الصلاة، ومنها: صلاة الشكر لله تعالى على ما أفاء الله عليه به من فتح ونصر.

وقد ثبت هذا من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى، ثماني ركعات، ويُستحب لأمير الجيش إذا فتح بلداً، أن يصلي فيه أول ما يَدْخُلُه، ثماني ركعات، كما فعل النبي ﷺ وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن[1].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٥١١).

والتسبيح جزء من الصلاة، فأَطلق القرآن البعض وأراد الكل، وإذ قد أَديت الأمانة -أيها الرسول - وبلّغت الرسالة، فعليك أن تتأهب لملاقاة ربك، فإن أجلك قددنا، وعمرك عمْر فاضل أقسم الله به في قوله ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر] والأمور الفاضلة كالصلاة والحج تختم بالاستغفار، فأَمْرُ الله لك بالحمد والاستغفار إشارة إلى أن أجلك قد أوشك على الانتهاء، فاستعد وتهيَّأ للقاء ربك، واختم عمرك بالإكثار من التسبيح والتحميد، وكان النبي ﷺ يفعل ذلك بعد نزول هذه السورة.

في فضل التسبيح بحمد الله:

أُمر النبي ﷺ أن يشكر ربه على النصر والفتح، وأن يسبّح ربه متلبساً بحمده.

والتسبيح والتحميد كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، وهما أحب الكلام إلى الله تعالى، لما فيهما من تنزيه الله تعالى وشكره:

١- قال عليه الصلاة والسلام لأبي ذر ﷺ: «**ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟**» فقال: «**إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده**»[(١)].

٢- وقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه أبوهريرة ﷺ: «**من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة غفرت له ذنوبه، وإن كانت مثل زبد البحر**»[(٢)].

٣- وقال عليه الصلاة والسلام من حديث أبي هريرة أيضاً: «**لأَنْ أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس**»[(٣)].

٤- وأخبر عليه الصلاة والسلام في حديث أم المؤمنين جُوَيْرِيَه رضي الله عنها عن الأجر العظيم الذي أعده الله تعالى لمن قال ثلاث مرات: «**سبحان الله وبحمده، عدد**

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٧٣١)، والنسائي في الكبرى (١٠٥٩٢)، والترمذي (٣٥٩٣)، والمسند (٢١٣٢٠) وانظر: الترغيب والترهيب، باب الترغيب في التسبيح والتكبير والتهليل.

(٢) رواه البخاري (٦٤٠٣،٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١)، والترمذي (٣٤٦٤)، والنسائي عن أبي هريرة، والمسند (٨٠٠٩)، والموطأ (١/١٠٩)، وابن ماجة (٣٨١٢)، وابن حبان (٨٢٩).

(٣) رواه مسلم (٢٦٩٥)، والترمذي عن أبي هريرة (٣٥٩٧)، وابن حبان (٨٣٤).

خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»[(١)]. قالها ﷺ لإحدى زوجاته (جويرية) رضي الله عنها لمّا مكثتْ وقتاً طويلاً تتعبد، فأخبرها بأن هذه الصيغة تعدل هذا الوقت الطويل في الأجر.

٥ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن، يعني: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾[(٢)] [النصر: ١].

والأحاديث في هذا المقام أكثر من أن تحصى.

وقد أمرنا الله سبحانه بالتسبيح بحمده في العديد من الآيات الكريمة، وافتتح بهما سبحانه عدداً من سور القرآن، وأخبر عز وجل أن جميع الكائنات تسبح بحمده تعالى، ولكننا لا نفقه لُغَاتهم، وكل كائن من ذوات الأرواح وغيرهم عَرَف كيف يصلي ويسبح بحمد الله ﴿كُلٌّ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومن هنا كان عليه الصلاة والسلام يكثر من التسبيح بحمد الله في آخر حياته، ولنا فيه ﷺ أسوة حسنة بالاقتداء به، وتعليم أهلينا وأولادنا وذوينا وجميع المسلمين.

من فضائل الاستغفار:

أما الاستغفار فإنه سبب في سعة الرزق ونزول الخير والمطر، وكثرة المال، والولد،

---

(١) راجع الحديث في الترغيب والترهيب، باب الترغيب في جوامع من التسبيح والتحميد، وقد رواه مسلم برقم (٢٧٢٦)، ورواه أبوداود والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٦٢)، وابن ماجة، والترمذي (٣٥٥٥) عن جويرية رضي الله عنها، وهو في المسند (٣٣٠٨)، حديث صحيح.

(٢) عبد الرزاق في المصنف (٧٨٧٨)، وأحمد في المسند (٢٤١٦٣،٢٤٢٢٣)، والبخاري (٨١٧،٧٩٤)، ومسلم (٢١٧،٢٨٤)، وأبوداود (٨٧٧)، والنسائي (١٠٤٦)، وفي الكبرى (١١٧١٠)، وفي ط الرسالة (١١٦٤٦،٦٣٩)، وابن ماجة (٨٨٩)، والطبري (٧٠٩/٢٤)، وابن حبان (١٩٢٩،١٩٣٠).

وفضلاً عن ذلك، دخول الجنة، والنعيم فيها.

١- قال سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح:١٠ - ١٢].

٢- وقال تعالى حكاية عن هود ﷺ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٥٢].

٣ - وقال جل شأنه:﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

ولا يلزم أن يكون الاستغفار من ذنب، فهو عبادة كالتسبيح، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم مئة مرة.

١- كما في حديث الأغر المزني ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة**»[١].

٢ - وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[٢].

ويكون الاستغفار سبباً لتفريج الهم والكرب والغم، والخروج من الضيق والشدائد، وجلْب الرزق من حيث لا يحتسب المرء:

جاء في الأثرعن ابن عباس رضي الله عنها: من لازم الاستغفار، جعل الله له من كل ضيق مخرجا، ومن كل هم فرجا، ورزَقه من حيث لا يحتسب[٣].

٣ - وقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه أبوهريرة ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم**»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم عن الأغر بن يسار المزني برقم (٢٧٠٢)، وأبوداود (١٥١٥)، وجاء من طرق أخرى.

(٢) البخاري (٦٣٠٧)، وابن ماجة (٣٨١٥)، والترمذي (٣٢٥٩)، والنسائي في الكبرى (١٠١٩٦)، والمسند (٧٧٩٣).

(٣) أخرجه أبوداود عن ابن عباس (١٥١٨)، وابن ماجة (٥٨١٤)، والمسند (٢٢٣٤)، وفي إسناده الحكم بن مصعب قال الذهبي فيه جهالة.

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٧٤٩).

وليس في هذا حمل للمسلم على الوقوع في الذنب، بل هو بيان لطبيعة الإنسان، وسعة رحمة الله تعالى للمستغفرين.

٤- وفي الحديث القدسي عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عزوجل: «**يا ابن آدم: إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم: لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم: لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة**»[1].

٥ - وفي الحديث القدسي أيضاً عن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه قال: «**يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم**»[2].

٦ - وفي حديث شداد بن أوس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقْتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعتُ، أبوءُ بنعمتك عليّ، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها بالنهار موقناً بها، فمات من يومه قبل أن يُمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها بالليل، وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة**»[3].

فكيف لا يكثر العبد من الاستغفار؟ وكيف لا يقبل على ربه كلما ألمّ بذنب؟ ولاسيما في مظانّ الإجابة كوقت السحَر، وعصر الجمعة، وسائر الأيام والليالي الفاضلة؟

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ يغفر سبحانه لمن تاب، ويفرح بتوبة عبده، ويقبل توبة العبد ما لم يغرغر، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها، ويتوب الله على من تاب، والله تعالى يغفر كل ذنب حتى الشرك والكفر بالله تعالى إذا تاب العبد منه.

---

(١) رواه الترمذي عن أنس (٣٥٤٠) وقال: حديث حسن.

(٢) من حديث طويل أخرجه مسلم عن أبي ذر الغفاري في كتاب البر باب تحريم الظلم رقم (٢٥٧٧).

(٣) البخاري (٦٣٠٦).

ومهما أسرف العبد على نفسه في ارتكاب الذنوب، ثم رجع إلى ربه، وعرف أن له ربا يغفر الذنوب ويستر العيوب، تاب الله عليه، وغفر له ذنبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وعلى العبد أن يُقبل بقلبه على ربه، وعدم الإصرار على الذنب أو معاودته، وأن يعزم عزماً أكيداً على عدم معاودة الذنب، ويُخْلص في ذلك، فإن ضعُفت نفسه، وغلبه الشيطان والهوى، فلْيتبْ من جديد، ويسأل ربه حُسْن التوبة، وليعلم أن الموت أقرب إليه من شراك نعله، لا يفرق بين صغير وكبير، ولا بين صحيح ومريض، ولا بين غني وفقير، حتى يلقى العبد ربه وما عليه شاهد بذنب.

تم تفسير (سورة النصر) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ المسد (١١١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة المسد) هي السورة الحادية عشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، والسادسة في ترتيب النزول، نزلت في السنة الرابعة من البعثة بعد (سورة الفاتحة) وقبل (سورة التكوير).

وهي خمس آيات، وعشرون كلمة، وسبعة وسبعون حرفاً، وهي سورة مكية باتفاق.

وتسمى (سورة المسد) و (سورة تبت) وسماها بعضهم (سورة أبي لهب) وعنْون لها أبوحيان بـ (سورة اللهب)، فهذه أربعة أسماء.

٢- تحدثت السورة عن قصة أبي لهب، وقد كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ يترك عمله ويتبع الرسول ﷺ ليصُد الناس عنه، وقد توعّده الله تعالى في هذه السورة تعالى بالنار الموقدة، واختص زوجته بلون خاص من العذاب، بتطويق عُنُقها بحبل من ليف لتُجذب به إلى النار، فقد كانت امرأة شريرة متسلّطة، شديدة العداوة للنبي ﷺ.

وزوجة أبي لهب (أروى بن حرب) أخت أبي سفيان، وكنيتها (أم جميل).

وكان أبولهب أجْرأ الناس على رسول الله ﷺ وأسرعهم إلى تكذيبه، وقد انفرد من بين أعمام النبي ﷺ بالخصومة العنيفة له ﷺ ولزمها إلى أن مات.

وامتدت خصومته إلى بنات النبي ﷺ فأمر أولاده فطلّقوا زوجاتهم من بنات محمد ﷺ.

وقد نزلت هذه السورة في الأيام الأولى للإسلام، وكان في وُسع أبي لهب أن يُكذّبها بالدخول في الإسلام، وأنّى له أن يفعل، وقد سبق علم الله تعالى بأنه لن يؤمن، وظل الرجل على عداوته للإسلام ورسول الإسلام ، حتى مات، وصدق فيه قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾.

فلم تغن عنه أمواله ، ولم يغن عنه نسبه ، ولم يغن عنه جاهه ،وقد أعمى الله زوجته

عندما أرادت أن تؤذى النبى ﷺ فصرف بصَرها عنه، فلم تره وهو أمامها، وقد حفظ الله نبيه منها ومن زوجها، وتوعدهما الله تعالى بالعذاب الأليم يوم لقاء رب العالمين، نصرة لنبيه وعبرة لأمثالهما إلى يوم قيام الساعة، من كل مَنْ وقف فى وجه الدعوة إلى الله ومنع وصولها إلى الناس، ويؤذي صاحب الدعوة بشكل أو بآخر.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

١-٣- ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ[1] وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾

أبو لهب: أحد أعمام النبي ﷺ اسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، كُنِّيَ بأبي لهب: لِحُسْنه وإشراق وجهه، وقد اشتهر بكنيته، وعُرف بها، فلو ذُكر باسمه ما عرفه أحد.

وعبد العزى: اسم فيه شرك بالله تعالى، ومن هنا فقد عدل القرآن الكريم عن ذكر اسمه إلى كنيته التي اشتهر بها، والتي توافق مصيره في الآخرة، وهي النار ذات اللهب، فمآله موافق لحاله، وليس في تكنية القرآن له تكريم ولا تشريف.

سبب نزول السورة:

١- أخرج البخاري وغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني عدي، يا بني فهر، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يَخرج، أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبولهب وقريش، فقال ﷺ «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟**» قالوا: نعم، ما جربنا عليكم إلا صدقا، قال: «**إني نذير لكم، بين يدي عذاب شديد**» فقال أبولهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[2].

والمراد بيد أبي لهب: ذاته ونفسه، وقد يكون المراد بها: اليد حقيقة.

وأبو لهب دعا على النبي ﷺ بالخسران والهلاك، فردَّ الله تعالى عليه قوله في هذه السورة، وتحققت فيه الدعوة.

٢- وجاءت روايات أخرى في أسباب النزول، منها أن النبي ﷺ عَمَّ في ندائه القبائل، وخَصَّ أهله وعشيرته، وبيّن أنه ﷺ لن يغني عنهم من الله شيئاً إن لم يُنقِذُوا أنفسهم من

---

(١) سكن الهاء من ﴿أَبِى لَهَبٍ﴾ ابن كثير والباقون بفتحها، وهما لغتان.

(٢) البخاري برقم: (٤٩٧١) ومسلم برقم (٢٠٨).

النار بالإيمان به.

٣ ـ ومن ذلك ما أخرجه البخاري وغيره عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: «يا صباحاه» فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «**أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تَخرُج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟**» قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**» قال أبولهب: تباً لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ وقد تب، هكذا قرأها الأعمش يومئذ[1].

٤- وعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ لما دعا أقرباءه إلى الله تعالى، قال أبولهب: إن كان ما تقول يا ابن أخي حقًّا، فأنا أفتدي نفسي بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ وكان له مواشٍ كثيرة وأبناء، فأخبر سبحانه أن أولاده وأمواله لن يحولوا بينه وبين عذاب الله تعالى.

صورة من كيد أبي لهب أثناء دعوة الرسول ﷺ للقبائل:

في مسند الإمام أحمد وغيره عن ربيعة بن عباد أن النبي ﷺ بينما كان يطوف على القبائل يدعوها للإسلام، ويقول لهم: «**يا بني فلان: إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أُنفِّذ عن الله ما بعثني به**» وأبو لهب واقف خلف النبي ﷺ وهو رجل أحول، وضيء الوجه، ذو جُمّه، فإذا فرغ النبي ﷺ من مقالته، قال أبو لهب يا بني فلان: هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن.. فضلاً عما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه، قال الراوى فقلت لأبى من هذا ؟ قال عمه أبو لهب[2].

(١) البخاري (٤٨٠١،٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨)، والترمذي (٣٣٦٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٥٣،١١٣٦٢)، والمسند (٢٥٤٤)، وابن حبان (٦٥٥٠)، والطبري (٦٥٩/١٧)، وابن أبي حاتم (٢٨٢٥/٩)، والبيهقي (١٨١/٢)، وأبونعيم (١١٦)، وهذه القراءة (وقد تب) شاذة وقد نسخت، كما أن «ورهطك منهم المخلصين» ليست قرآنا.

(٢) المسند (١٦٠٢٥،١٦٠٢٧) بإسناد ضعيف لضعف حسين بن عبدالله، وباقى رجاله ثقات (محققوه)، وأخرجه الطبرانى فى الكبير (٤٥٨٩)، قلت: وقد جاء الحديث فى المسند (١٦٠٢٠) مختصراً بإسناد صحيح ورجاله ثقات، و(١٦٠٢١) بإسناد حسن، وهذا يشهد للرواية الأولى والثانية.

كان هذا موقف أبي لهب من الدعوة منذ اليوم الأول، يتْبع الرسول ﷺ خَطْوة بِخَطْوة ليصدَّه، ويصرف الناس عنه لاسيما وهو عمه.

صورة من الكيد له ﷺ أثناء الدعوة بالأسواق:

وعن طارق المحاربي قال: بينما أنا بسوق المجاز إذ أنا بشاب حديث السن يقول: «**أيها الناس: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**» وإذا رَجُلٌ خلْفه يرميه، قد أدْمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يا أيها الناس: إنه كذاب فلا تصدقوه، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمد، يزعم، أنه نبي، وهذا عمه أبو لهب، يزعم أنه كذاب[1].

طلاق رُقَيّة وأم كلثوم من ابني أبي لهب:

وكان لأبي لهب ثلاثة أبناء (عتبة) و(معتب) و(عتيبة) وقد أسلم الأوَّلان يوم الفتح، وشهدا حُنَيْنًا والطائف.

وأما (عتيبة) فلم يسلم، وكانت (أم كلثوم) بنت رسول الله ﷺ عنده، وأختها (رقية) عند أخيه (عتبة) فلما نزلت السورة قال أبو لهب لهما: رأسي ورأسكما حرام إن لم تُطَلِّقاً ابنتي محمد، فطلَّقاً هُما، وكان قد زوَّجَهُما لولديه.

قال قتادة: تزوج أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ عُتَيْبة بن أبي لهب، وكانت رقية عند أخيه عتبة بن أبي لهب، فلما أنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ قال أبولهب لابنيْه عُتبة وعُتَيبة: رأسي من رأسكما حرام إن لم تُطلقا ابنتي محمد، وقالت أمهما بنت حرب بن أمية - وهي حمالة الحطب: طلِّقانهما، فإنهما قد صبآ، فطلقاهما)[2].

وقال قتادة: كانت رُقَيَة بنت النبي ﷺ عند عُتْبة بن أبي لهب، فلما أنزل الله عز وجل ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ سأل النبي ﷺ طلاق رُقَيّة، فطلّقها، فتزوجها عثمان ﷺ)[3].

ولما أراد (عتيبة) الخروج إلى الشام مع أبيه قال: لآتينّ محمداً وأُوذِيَنّه، فأتاه، قال: يا

---

(١) سيرة ابن هشام (٤٢٣/١) والمسند (٤٩٢/٣) برقم (٢٦٠٢٣) عن ربيعة بن عباد بنحوه، وهو حديث صحيح لغيره، والمعجم الكبير (٦٣/٥)، وتفسير القرطبي (٢٣٦/٢٠).

(٢) أخرجه الطبراني (٤٣٥/٢٢) (١٠٦٠).

(٣) أخرجه الطبراني بإسناد حسن ورقمه (١٠٥٦).

محمد: إني كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى، ثم تفلَ أمام النبي ﷺ وطلّق ابنته (أم كلثوم) فغضب ﷺ ودعا عليه، فقال: «اللهم سلِّط عليه كلبا من كلابك» فافترسه الأسد[1].

وكان بيت أبي لهب، قريباً من بيت النبي ﷺ فكان الأذى أشد وأكثر.

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النبي ﷺ بدافع العصبية، وهم لم يتّبعوه، خرج أبو لهب على إخوته، وحالف قريشاً، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم وتجويعهم، حتى يُسلّموا لهم محمداً ﷺ[2].

فكان أبو لهب شديد الأذى والبغضاء لرسول الله ﷺ كثير التنقص له ولدينه، وظل هكذا دون أن يثوب إلى رشده، ولا أن يرجع عن غيّه، إلى أن كان موته عبرة للظالمين الصادين عن سبيل الله.

قال ابن مسعود ﷺ: لما دعا رسول الله ﷺ أقرباءه إلى الله تعالى، قال أبو لهب: إن كان ما تقول حقاً يا ابن أخي، فأنا أفتدي نفسي بمالي وولدي[3].

فأنزل الله تعالى يبيّن أن أمواله وأولاده لا يدفعون عنه شيئاً من عذاب الله تعالى إن لم يؤمن، فماله الكثير، وكسبه الوفير، وجاهه العريض، لن يغنياً عنه شيئاً من عذاب الله، ولن يمنع ذلك انتشار الإسلام في المعمورة، وكان أبو لهب صاحب أموال ولديه أبناء.

ولما دعا أبو لهب على النبي ﷺ بالتّبّ، وهو الهلاك والخسران، أنزل الله تعالى هذه السورة رداً على أبي لهب بالخسران والهلاك في الدنيا والآخرة.

ثم أخبر سبحانه بأن هلاكه مُحَقّق وفعلاً فقد خسر أبو لهب كل شيء في دنياه وأخراه.

فلفظ (تب) الأولى من قوله تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ فيها دعاء على أبي لهب بالقطع والهلاك. ولفظ (وتب) الثانية فيها إخبار من الله تعالى بتحقيق هلاكه.

---

(١) تفسير الألوسي (٣٠/٢٦٢)، وابن عاشور (٣٠/٦٠١).

(٢) تفسير روح المعاني للألوسي وتفسير الخازن والبغوي وغيرهم.

(٣) ذكره البغوي وابن الجوزي والخازن عن ابن مسعود ﷺ، وذكره القرطبي عن ابن عباس رضى الله عنهما.

نهاية أبي لهب في الدنيا ومصيره في الآخرة:

وقد هلك أبو لهب بمرض خطير لم يتمكنوا معه من غسله ودفنه: فقد مات بعد وقعة بدر بسبع ليال بمرض مُعْدٍ كالطاعون يسمى (العدسة) وبقي ثلاثة أيام حتى أنتن، فلما خافوا العار، حفروا له حفرة، ودفعوه إليها بعود - خوفاً من العدوى - حتى وقع فيها، ثم قذفوه بالحجارة حتى وَارُوه، فكان الأمر كما أخبر القرآن به، وهذه نهايته في الدنيا.

أما نهايته في الآخرة: فإنه سيصلى ناراً موقدة مؤججة حامية، تحيط به من كل جانب لا يعرف قدرها ووصفها إلا خالقها، أما أولاده وأمواله - وهما من كسبه - كما في الحديث «**وإن ولد الرجل من كسبه**» فلن يدفعا عنه عذاب الله، بل إن امرأته سوف تكون عوناً على شدة عذابه، وتأجيج النار له.

وقد عبر القرآن بالبعض - الذي هو اليد - وأراد الكل - جميع الجسد - لأن الجوارح هي التي تكتسب الهلاك والخسران بعملها، واليد أكثر اختصاصاً في كسب الحسنات، والسيئآت، ولذا أسند القرآن إليها التبّ دون سائر الجوارح، وكان هذا جزاء وفاقاً لدعائه على النبي ﷺ حين الجهر بالدعوة.

أعداء الأمس جند الإسلام اليوم:

تصدى قوم من صناديد قريش للوقوف في وجه الدعوة، من أول لحظة نزل الوحي فيها على رسول الله ﷺ وحاربوه، وتزعَّموا قيادة المعارك ضده، للقضاء عليه وعلى دعوته، واستمر هذا منذ فجر الدعوة في مكة، إلى أن هاجر ﷺ إلى المدينة.

وبعد سنوات طوال من الهجرة خاض فيها هؤلاء الأعداء، الحروب المتعددة ضد الإسلام ودعوته، شاء الله سبحانه أن تتغير الأحوال، وتتبدل الأمور، فيصبح أعداء الأمس، جُند الإسلام اليوم ودرعه الحصين، وذلك مثل أبي سفيان، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمر.

عدم إسلام أبي لهب إعجاز للقرآن:

وأبولهب أحد هؤلاء الأعداء للإسلام الذين حاربوه من أول لحظة، ولكن الله

سبحانه عَلِم أن أبا لهب لن يدخل الإسلام أبداً، وسيموت على الكفر قطعاً، ولن تلين قناته للدعوة ﷺ رغم صلته القوية بصاحب الدعوة، ورغم رابطة النسب والعصَبة بينهما، فنزلت سورة المسد، وفيها دعاء على أبي لهب بالهلاك، فلم تغن عنه ثروته الطائلة ولا جاهه الواسع. ونزلت السورة لتعلن ذلك، وتَقْطَع بدوام كفره إلى لحظة موته، وأنه سيصلى في الآخرة ناراً ذات لهب، وإخبار القرآن الكريم عن عذابه وعذاب امرأته من الأمور الغيبية التي أخبر عنها النبي ﷺ وهي من معجزاته.

وقد نزلت سورة المسد في أول مرحلة الأمر بالجهر بالدعوة، أي بعد الفترة السرية التي استمرت ثلاث سنوات، وأخبر الله سبحانه نبيه ﷺ فيها منذ ذلك التاريخ، بأن أبا لهب، سيصلى نارا ذات لهب نتيجة كفره وعدم إسلامه، وقد تحقق صدق ما جاء به محمد ﷺ فلم يدخل أبولهب في الإسلام، ومات على الكفر كما أخبر القرآن، رغم أن القرآن ظل ينزل بعد نزول هذه السورة عشرين عاماً، ولكنه قَطَع من أول لحظة أن أبالهب سيموت كافراً، ويصلى نار جهنم في الآخرة، وأمواله وأولاده لن يغنوا عنه من عذاب الله شيئاً.

امْرَأَةُ أَبِي لَهَبٍ (أُمُّ جَمِيلٍ): وَعُقُوبَتُهَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

٤، ٥- ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ[1] ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾

اسمها: أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان. وكنيتها: أم جميل، وكانت من سادات نساء قريش؟ وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده، ولهذا فإنها تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم، تحمل الحطب فَتُلقيه على زوجها، ليزداد عذاباً على ما هو فيه، وهي مهيأة لذلك، مستعدة له.

إيذاء ومعجزة:

وكانت أم جميل وزوجها شديدي العداوة لرسول الله ﷺ فلما سمعت ما نزل فيها

---

(١) قرأ عاصم بنصب هاء التأنيث على الذم، أي ذم حمالة الحطب، وقرأ غيره برفعها خبر امرأته.

وفيه، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر ﷺ، وفي يدها مجموعة من الحجارة، فلما دنت من النبي ﷺ أخذ الله بصرها عنه، وحال بينه وبينها، فلم تر إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر: بلغني أن صاحبك يهجوني، فوالله لو وَجدْتُه لضربتُه بهذا الحجَر، وأنشدَتْ شِعرا تهجوا فيه النبي ﷺ ثم انصرفت، فقال أبو بكر يارسول الله: أما تراها رأتك، قال: «ما رأتني، لقد أخذ الله بصرها عني»[1].

صورة أخرى من إيذاء امرأة أبي لهب للنبي ﷺ:

وكانت أم جميل من شدة عداوتها للنبي ﷺ تمشي بالنميمة، وتنقُل الحديث على وجه الإفساد والعداوة بينهم، وتوقد نار الفتنة بينهم ، كما توقد النار الحطب، فكانت تتحدث عن النبي ﷺ بالسوء لصد الناس عنه، وتسيء إليه بالسعي بالفساد بين الناس افتراءً وكذباً عليه ﷺ.

وكانت تَحْمِلَ بنفسها الشوك والحسَك، والسَّعْدان، بالليل، وتطرحه في طريق النبي ﷺ لتؤذيه وأصحابه.

قال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة، فقالت: لأنفقنّها في عداوة محمد، فأعقبها الله بها حبلاً في جيدها من مسد النار[2].

ولأن (أروى) كانت تضع الشوك في طريق النبي ﷺ عند ذهابه إلى صلاة الصبح بالمسجد الحرام، ولأنها كانت تسعى جاهدة في إيقاع العداوة بين النبي ﷺ وبين الناس، وتُشعِل نار الفتنة وتُوقِد بينهم نار العداوة، فإنها ستدخل مع زوجها نار جهنم، حالة كونها حمالة الحطب الذي توقد به النار، جزاء وفاقا لفعلها في الدنيا، وهي تحمل في عنقها حبلاً من مسد جهنم، تُشد به في النار، وكان عندها قلادة حلَفتْ لَتبيعنّها في النفقة ضد رسول الله ﷺ فأعقبها الله بدلاً منها حبلاً مُحْكَماً ليوضع في عنقها، وهي في

(١) بتصرف من مختصر السيرة للشيخ عبد الله بن الشيخ محمد عبد الوهاب (ص ١٢٥)، وانظر مجمع الزوائد (ج ٧) (ص ١٤٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٥١٥/٨).

نار جهنم، وقال ابن عباس: (سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعا)[1].

أخرج الطبراني بسنده عن رجل من هَمْدَان، يسمى: يزيد بن يزيد، أن امرأة أبي لهب كانت تُلْقِي في طريق النبي ﷺ الشوك، فنزلت سورة المسد، فبلغ ذلك امرأة أبي لهب، فقالت: عَلامَ يهْجوني محمد؟ هل رأيتموني أخمِلُ حطباً، وفي جيدي حبل من مسد؟ فمكثتْ، ثم أتتْهُ فقالت: إن ربك قلاك وودّعك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ إلى ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾[2].

أما عذابها في الدنيا، فقد ورد أنها بينما كانت تحمل حزمة الحطب ذات يوم لإيذاء النبي ﷺ أعيتْها الحزمة فقعدت على حَجَر لتستريح، فأتاها ملَك فجذبها من خلفها فاختنقت بحبلها، وهلكت.

من هدايات السورة:

١- مَن الذي أعلم محمداً ﷺ أن أبا لهب سيموت على الكفر، رغم كثرة المعارضين للدعوة، وأكثرهم قد أسلم فيما بعد، دون أبي لهب؟

٢- عاش أبو لهب بعد نزول السورة نحو اثني عشر عاماً، ولم يدخل في الإسلام، ومات بعد سبعة أيام من غزوة بدر بمرض مُعْدٍ خطير.

٣- بقي أبو لهب ميّتاً ثلاثة أيام دون أن يُدفن، حتى عفّن وأنتن، ثم دُفن خوفاً من العدوى، وألقوا عليه الحجارة بعضها فوق بعض، وهذا مصير الظلَمة في كل زمان ومكان.

٤- أعمى الله بصر أم جميل (العوراء) حين أرادت إيذاء النبي ﷺ بقذفه بالحجارة.

٥- كانت نهاية أبي لهب وأم جميل في الدنيا أليمة، وعقوبتهما في الآخرة وخيمة جزاء وفاقاً.

٦- إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

تم تفسير (سورة المسد) ولله الحمد والمنة

---

(١) انظر الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (ج ١٨) (ص ٣٤١)، ومسند الحميدي (١٥٣/١)، وأبو يعلى (٥٣/١)، والبزار (٢٢٩٤).

(٢) الطبري (٧١٩/٢٤).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الإِخْلَاصِ (١١٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الإخلاص) هي السورة الثانية عشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثانية والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الناس) وقبل (سورة النجم).

وهي خمس آيات عند أهل مكة والشام، وأربع آيات عند بقية علماء العدد وسورة الإخلاص خمس عشرة كلمة، وسبعة وأربعون حرفاً.

وشهرتها (سورة الإخلاص) ولها أسماء أخرى كثيرة منها:

أ - (سورة قل هو الله أحد). ب - (وسورة التوحيد).

ج - (وسورة الأساس) لاشتمالها على أساس الإسلام وهو التوحيد.

د - (وسورة الصمد). فهذه خمسة أسماء.

وقد ذكر الجمل والفخر الرازي لها عشرون اسماً منها: التجريد، والتفريد، والنجاة، والولاية، والمعوّذة، والمانعة، والمنفّرة، لأنها تنفّر الشيطان، والمذكرة، والنور، والأمان.

وهي سورة مكية عند الجمهور، وقال بعضهم: إنها مدنية، وقيل: إنها نزلت مرتين، مرة بمكة، ومرة بالمدينة، جمعاً بين روايات أسباب النزول، والصحيح أنها سورة مكية جمعت أصول التوحيد.

٢ - موضوع السورة:

و(سورة الإخلاص): سطر واحد، تَعْدِلُ ثلث القرآن، لأنها لَخّصتْ أصول الاعتقاد، وتحدثت عن صفات الله تعالى الجامعة لصفات الجلال والكمال، وهو سبحانه المقصود على الدوام، الغني عما سواه، وهذه الصفات نزّهتْه سبحانه عن كل نقص، وعن المماثلة، ونزهته عن المجانسة، وعن البنوّة والتثليث.

ذلكم أن رب العالمين واحد، لا ثاني له، ولا ثالث، ولا والد له ولا ولد، فالقول بغير هذا عبث وهُراء:

١- قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النحل: ٥١].

٢ - وقال سبحانه في الرد على القائلين بالتثليث: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

٣ - وقال جل شأنه في الرد عليهم أيضاً: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ [النساء: ١٧١].

٤ - وقال عز وجل: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [المؤمنون: ٩١].

٥- وقال جل جلاله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وهذه أدلة عقلية تجعل القول بتعدد الآلهة أو الشرك خرافة، وصفر على الشمال.

والقائلون بالتثليث يرَوْن أن الآلهة ثلاثة، وهذه الآلهة الثلاثة، إله واحد، مكون من الأب والابن والروح القدس، وهي معادلة عسيرة الفهم، إذ كيف يكون الواحد ثلاثة، والثلاثة واحداً، وإذا كان الثلاثة واحداً، وهذا الواحد قد صُلِب - على حدّ زعمهم - فإن العالم يكون قد فقَد إلهه حيناً من الدهر، وإن كان المصلوب هو الابن الوحيد، فإنه ليس بإله يقيناً، إذ كيف يصلب الإله؟ ولمن شاء أن يعتقد ماشاء، فالإسلام لا يحجر على إيمان أحد:

أحاديث في السورة:

١- عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يوشك الناس أن يتساءلوا بينهم، حتى يقول قائلهم: هذا الله خلَق الخلْق، فمن خلَق الله؟ فإذا قالوا ذلك، فقولوا: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، ثم ليتفُل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان**»[1].

٢- وفي صحيح مسلم وغيرة عن أبي هريرة وعن أنس رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا الله خلَق الخلْق، فمن خلق الله؟ فمن وجد**

---

(١) سنن أبي داود (٤٧٢٢) وحسّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٩٥٢) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٢٧).

من ذلك شيئاً فليقل: آمنتُ بالله»[١].

٣- وعن أبي هريرة أيضاً أن النبي ﷺ قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك؟ فلْيستعذ بالله ولْينْتهِ»[٢].

٣ - سورة الإخلاص في السنة النبوية:

أ – حُبُّ قِرَاءَتِهَا يُسَبِّبُ مَحَبَّةَ اللهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ:

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سَرِية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «سلوه: لأي شيء يصنع ذلك؟» فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ «أخبروه أن الله يحبه»[٣].

ب- حب قراءتها يسبب دخول الجنة:

١- عن أنس بن مالك ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أحب هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «حبك إياها أدخلك الجنة»[٤].

٢- وفي رواية البخاري والترمذي عن أنس ﷺ، أن رجلاً من الأنصار، كان يؤم الناس في مسجد قُباء، وكان يقرأ بعد الفاتحة سورة الإخلاص في كل صلاة، ويقرأ بعدها ما تيسر من القرآن، فاعترض الناس عليه، فأخبروا النبي ﷺ فسأله عن سبب ذلك، قال: إني أحبها، قال

---

(١) صحيح مسلم (١٣٤)، وانظر (١٣٦)، والبخاري (٧٢٩٦).

(٢) صحيح مسلم (١٣٤)، وصحيح البخاري (٣٢٧٦).

(٣) أخرجه الشيخان والنسائي، انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول حديث رقم (٣٤٦٩) (ج٥)، وهو في البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣)، والنسائي (١٧٠/٢) (٩٩٢)، والبيهقي (٦١، ٦٠٩)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٤٨٣).

(٤) أخرجه الإمام أحمد والبخاري تعليقاً (٧٧٤)، والترمذي (٢٩٠١)، انظر الفتح الرباني لترتيب المسند (ج١٨) (ص ٣٤٦)، وهو في المسند (١٤١/٣) (١٢٤٣٢)، وهو حديث صحيح بإسناد حسن (محققوه)، وكذا (١٢٥١٢، ١٢٤٣٣)، وصحيح سنن الترمذي (٢٣٢٣)، والبيهقي في سننه (٦٠/٢)، وعبد بن حميد (١٣٠٦)، وابن حبان (٧٩٢)، وابن خزيمه (٥٣٧).

ﷺ: «حُبُّك إياها أدخلك الجنة»[(١)].

٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى ختمها: فقال ﷺ: «وجبت» قيل يا رسول الله ما وجبت، قال: «الجنة»[(٢)].

ولا عجب في ذلك فمحبها موحد، مُخْلِصٌ لله في عقيدته، وهو مُحِبٌّ لتوحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

ج – فضل قراءتها مع المعوذتين:

١- عن عقبة بن عامر ﷺ قال: لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني فأخذ بيدي فقال: «يا عقبة بن عامر: ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم»؟ قال: قلت: بلى جعلني الله فداك، قال: فأقرأني ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم قال: «يا عقبة لا تنساهن ولا تبتْ ليلة حتى تقرأهن» قال: فما نسيتهن منذ قال لا تنساهن، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن[(٣)].

٢ – وعن عبد الله بن أنيس الأسلمي ﷺ أن رسول الله ﷺ وضع يده على صدره، ثم قال: (قل) فلم أدر ما أقول، ثم قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم قال لي ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ حتى فرغتُ منها، ثم قال لي ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ حتى فرغتُ منها، فقال رسول الله ﷺ «هكذا نتعوذ، فما تعوّذ المتعوّذون بمثلهن قط»[(٤)].

---

(١) راجع النص في جامع الأصول في أحاديث الرسول (ج٥) حديث رقم (٣٤٦٨)، البخاري (٧٧٤)، والترمذي (٢٩٠١)، وقال: حسن غريب صحيح .

(٢) الموطأ (٢٠٨/١) والفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني (ج١٨) (ص ٣٤٧) وهو بإسناد صحيح ورجاله ثقات (٨٠١١)، والترمذي (٢٨٩٧) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وصحيح سنن الترمذي (٢٣٢٠،٢٢٣٩٠)، والحاكم وغيرهم سنده صحيح وهو في سنن النسائي (٩٩٣)، وفي الكبرى (١١٦٥١)، وقد صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٧٨).

(٣) انظر المسند بأطول من هذا (١٧٣٣٤، ١٧٤٥٢) قال محققوه: حديث حسن.

(٤) النسائي في السنن الكبرى (٧٨٤٥)، والبزار (٢٣٠٠)، كشف الأستار قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد (١٤٩/٧).

٣- وعن عليّ ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ ذات ليلة يصلي، فوضع يده على الأرض، فلدغته عقرب، فتناولها رسول الله ﷺ بنعله فقتلها، فلما انصرف قال: «لعن الله العقرب، ما تدع مصلّياً ولا غيره، أو نبيا وغيره» ثم دعا بماء وملح فجعله في إناء، ثم جعل يَصُبّه على إصبعه حيث لدغته ويمسحها، ويعوذها بالمعوذتين.

وفي لفظ: فجعل يمسح عليها ويقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[(١)].

وورد فضل قراءة سورة الإخلاص مع (سورة الكافرون) في صلاة المغرب، وسنة الفجر، والوتر، وركعتي الطواف، وغير ذلك كما سبق بيانه في تفسير سورة الكافرون.

د - مشروعية الرقية بسورة الإخلاص والمعوذتين عند المنام:

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: (كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، وقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)[(٢)].

هـ - فضل قراءتها مع المعوذتين صباحاً ومساءً:

عن معاذ بن عبد الله بن خُبَيْب عن أبيه قال: أصابَنا عطَش وظُلْمة فانتظرنا رسول الله ﷺ ليصلّي بنا فنخرج فأخذ بيدي فقال: «قل: فسكَتُّ، قال: قل، قلت: ما أقول؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين حين تمسي وتصبح ثلاثا، يكفيك من كل شيء»[(٣)].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٥٧٥،٢٥٧٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٠١٧)، وأبوداود (٥٠٥٦)، والترمذي (٣٤٠٢)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٦٢٤)، وابن ماجة (٣٨٧٥)، وابن أبي شيبة (١٠/٢٥٢).

(٣) من زوائد الإمام عبد الله بن الإمام أحمد على مسند أبيه (٢٢٦٦٤) بإسناد حسن، ورواه أبوداود (٥٠٨٢)، وصحيح سنن أبي داود (٤٢٤١)، والترمذي (٣٥٧٥)، والنسائي (٥٤٤٣)، وقال الترمذي صحيح غريب من هذا الوجه، انظر الفتح الرباني (ج١٨ ٣٤٩)، وأخرجه ابن سعد (٤/٣٥١)، وعبد بن حميد (٤٩٣) منتخب.

أي أن قراءتها تكفي العبد في صباحه ومسائه من كل سوء وشر، فيظل محفوظا بحفظ الله تعالى له، وفي مأمن من المحن والبلايا والآفات والشرور.

و - كونها تعدل ثلث القرآن:

١- في صحيح البخاري وغيره: عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه سمع رجلا يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُردِّدها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالّها، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده إنها تعدل ثلث القرآن**»[(١)].

والرجل القارئ هو قتادة بن النعمان أخي أبي سعيد الخدري من أمه.

٢- وفي صحيح مسلم وغيره: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**احشدوا «اجتمعوا»** فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبر جاءه من السماء، فذاك الذي أدخله، ثم خرج النبي ﷺ فقال: «**إني قلت لكم: سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن**»[(٢)].

٣- وعن أبي سعيد وأبي أيوب وأبي الدرداء رضي الله عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم**» وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «**الله الواحد الصمد، ثلث القرآن**»[(٣)].

٤- وعن أُبيّ بن كعب وابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ

---

(١) البخاري (١٠٥/٦) باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وهو برقم (٧٣٧٤،٥٠١٣)، وأبوداود (١٤٦١)، والنسائي (١٧/٢)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٤٨٢)، وانظر صحيح الجامع (٤٢٨٠) عن ابن عباس.

(٢) صحيح مسلم (٥٥٧/١) (٨١٢)، والترمذي (٢٩٠٠)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٩).

(٣) المسند ٨/٣ (١١٠٥٣) ورقم (٢٧٥٢٤،٢٧٥٢٢) عن أبي الدرداء، وهو في مسلم (٨١١)، والنسائي في الكبرى (١٠٥٣٧)، والبخاري (٥٠١٥)، وصحيح الترغيب (١٤٨٠)، والترمذي (٢٨٩٦) وقال: حديث حسن، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٣١٩)، وأخرجه عن ابن مسعود البزار (١٨٥٦٧)، والطبراني (٧٠٧)، وفي الأوسط (٨٤٨٠)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد وهو ثقة إمام، مجمع الزوائد (١٤٨/٧) وألفاظه متقاربة

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن»[1].

٥- وعن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أن النبي ﷺ سئل عن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال: «ثُلُث القرآن أو يَعْدله»[2].

٦- وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فلما رأى أنه قد شق عليهم قال: من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ليلة فقد قرأ ليلتئذ ثلث القرآن»[3].

والمعنى أنها تعدل ثلث القرآن في الثواب والأجر.

٧- وعن ابن عمررضى الله عنهما قال: صلى بنا النبي ﷺ ذات يوم الفجر في سفر، فقرأ في الركعة الأولى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقرأ في الركعة الثانية ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فلما سلّم قال: «**قرأت بكم ثلث القرآن وربعه**»[4].

وعدلت السورة ثلث القرآن، لأنها تناولتْ جانب العقيدة وهو يمثل ثلث ما جاء في القرآن، والثلث الثاني: أحكام، والثالث: أخبار، وهي بهذا تعدل في الثواب والأجر ثلث القرآن بالنسبة لقارئها.

---

(١) المسند (٢١٢٧٥)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٥٢١)، وأبوعبيد في فضائله (ص١٤٣)، قال محققو المسند: صحيح لغيره وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح وصححه الألباني عن ابن عباس في صحيح الجامع الصغير (٤٢٨٠).

(٢) المسند (٢٧٢٧٤)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٥٣١)، والطبراني في الأوسط (٨٥٦٢)، والبيهقي في الشعب (٢٥٤٥)، قال محققو المسند: حديث صحيح ورجاله ثقات رجال الصحيح ومالك فى الموطأ (٢٠٩/١).

(٣) صحيح سنن الترمذي (٢٣١٩)، والمسند (٢٣٥٥٤) وهو حديث صحيح لغيره (محققوه)، والنسائي (٩٩٥)، والبيهقي فى الشعب (٢٥٤٤)، والترمذى (٢٨٩٦)، وعبد بن حميد (٢٢٢).

(٤) أخرجه ابن الضُّريس (٢٥٣) واللفظ له دون قوله «في سفر»، والطبراني في الكبير برقم (١٨٦) بنحوه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٨١)، قلت: ولعل هذا كان قبل العرضة الأخيرة التي استقر فيها ترتيب السور.

ز - اسم الله الأعظم:

عن ابن بريدة عن أبيه قال: دخلْتُ مع رسول الله ﷺ المسجد ويدي في يده، فإذا رجل يُصَلِّي يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد له كفوا أحد، فقال رسول الله ﷺ: **«لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب»**[١].

ح - قراءتها تُسبِّب مغفرة الذنوب:

عن مِحْجَن بن الأَدْرَع قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، فإذا هو برجل قد صلّى صلاته وهو يتشهد ويقول: اللهم إني أسألك بالله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم، فقال ﷺ: **«قد غُفر له، قد غُفر له، قد غُفر له»**[٢].

٤ - سبب النزول:

أ- عن أبي بن كعب ﷺ أن المشركين قالوا: يا محمد انسُب لنا ربَّك؟ فنزلت هذه السورة.

زاد في رواية: لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله لا يموت ولا يورث، ولم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثله شي»[٣] .

---

(١) سنن أبي داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، والمسند (٢٢٩٥٢) من حديث طويل بإسنا صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه)، وابن حبان (٨٩١)، والطحاوي في مشكل الآثار (١٧٣)، والنسائي في الكبرى (١١٦٥٢)، وأخرجه عبد الرزاق (٤١٧٨)، وابن أبي شيبة (٢٧١/١٠)، وابن حبان (٨٩١)، والحاكم (٥٠٤/١)، وهو في صحيح سنن ابن ماجة (٣١١١)، وفي السنن (٢٨٥٧).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٨٦٩)، وهو في السنن (٩٨٥)، وابن خزيمة (٧٢٤)، والحاكم (٢٦٧/١)، والنسائي (١٣٠٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٩٧)، وهو حديث صحيح أخرجه أحمد (١٨٩٧٤) بإسناد صحيح ورجاله ثقات رجال الصحيح كما قال محققوه.

(٣) المسند (١٣٣/٥) (٢١٢١٩) بإسناد ضعيف لضعف ابن ميسرة وأبى جعفر الرازى (محققوه)، والترمذي (٣٣٦٤،٣٣٦٥)، والطبري (٢٢١/٣٠)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٥٤٠/٢)، وابن خزيمة في التوحيد (٤٥)، وابن أبي عاصم (٦٦٣)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٨٠)، والبيهقي (٤١٩/١)، وجاء هذا السبب بلفظ (انسب لنا ربك) فحسب عن جابر وابن مسعود، قلت: وبين التحسين والتضعيف شعرة في الجرح والتعديل.

ب - وقال عامر بن الطفيل لرسول الله ﷺ: إلام تدعونا يا محمد؟ قال: إلى الله عز وجل. قال: صِفْهُ لي، أَمِنْ ذهبٍ هو، أو من فضة، أو من حديد، فنزلت هذه السورة.

ج - وسأل قوم من أحبار اليهود، قالوا: من أي جنس هو (أي الله عز وجل) وممن ورث الدنيا ولِمَنْ يُوَرِّثُها؟[1].

د- وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: يا محمد، صِفْ لنا ربك وانسُبْه، فإنه وصَف نفسه في التوراة ونسَبها، فارتعد رسول الله ﷺ حتى خر مغشيا عليه، ونزل عليه جبريل بهذه السورة[2].

٥ ـ وجه التسمية:

سميت بسورة الإخلاص: لأن فيها إخلاص التوحيد لله تعالى، وفيها إخلاص الصفات وتوحيدها، ومقتضى ذلك: إفراد الله تعالى بالعبادة، والخلوص من الشرك، وأنه هو المقصود وحده في قضاء الحوائج، وأنه سبحانه لا مثيل له ولا نظير، ولا والد له ولا ولد.

* * *

(١) راجع هذه الأسباب الثلاثة لابن الجوزي في تفسيره للسورة، في زاد المسير في علم التفسير، وفي الدر المنثور (١٥/٧٤٢) والطبراني (٣٧٢).

(٢) تفسير ابن عطية (٥/٥٣٦)، وابن عدي (٤/١٥٦٦)، وابن أبي حاتم كما في مجموع الفتاوى (١٧/٢٢٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات ٦٠٦) بإسناد ضعيف.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْوَحْدَانِيَّةُ الْمُطْلَقَةُ

١- ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾

نزلت هذه السورة، ردًّا على الماديين والملحدين والكفار والمشركين، سواء في ذلك من سألوا النبي ﷺ وقت التنزيل عن نسب الله سبحانه، أو من ينسبون إلى الله سبحانه الولد، أو من يعددون الآلهة، من اليهود والنصارى، أو من يقولون بالحلول والاتحاد، أو من يتخذون أوثاناً يعبدونها من دون الله، وكل من يشرك مع الله غيره بصورة من الصور.

قل - يا رسولنا - لهؤلاء جميعاً ومَنْ على شاكلتهم: الله تعالى واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله، ليس له شبيه ولا نظير، فهو وحده المستحق للعبادة دون سواه.

وهذه هي الحقيقة الكبرى التي أرسل الله من أجلها الرسل جميعاً.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وكل رسول قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود: ٥٠].

وهي المهمة التي استغرقت أطول مُدَّتي الرسالة المحمدية، ثلاثة عشر عاماً بمكة المكرمة.

وآيات القرآن الكريم في هذا أكثر من أن تحصى، مثل:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

٢- وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: ٣١].

٣- وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

٤- وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

٥- وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

فهو سبحانه واحد لا ثاني له، وهو واحد لا نظير له، ولا شريك له، وهو واحد لا ينقسم ولا يتبعض.

وقد عدلت هذه السورة ثلث القرآن الكريم لأنها تناولت مهمة الرسل التي تُحرِّر الإنسان من الرق والعبودية، ومن جميع القيود، ومن سلطان الرهبة إلا للواحد القهار، وهذه المهمة هي جانب التوحيد.

وهذه العقيدة الخالصة ترسُم للمسلم منهجاً متكاملاً للحياة، تجعله يتجه إلى الله وحده، رغبة ورهبة، في السراء والضراء، والنعماء والبأساء..

وإذا صحّت عقيدة المسلم على هذا النحو، فإنها تُحقق له سعادة الدارين، لخلُوصها من الذنب الذي لا يغفر:

فكأن الله تعالى يقول لرسوله: قل - يا أيها النبي - لجميع المشركين والمستهزئين والكافرين والمكذبين إلى قيام الساعة: إن ربي الذي أعبده: والذي أدعوكم لعبادته، هو واحد أحد لا شريك له، ولا والد ولا ولد، فهو الأحد المنفرد بالكمال، له الأسماء الحسنى والصفات العليا، لا نظير له ولا مثيل، وهو جل وعلا ليس كما يعتقد النصارى بالتثليث فيقولون: (الأب، والابن، والروح القدس) ولا كما يعتقد المشركون بتعدد الآلهة، وهو سبحانه لا ثاني له، ولا شريك، ولا نظير له، وهو واحد لا ينقسم، ولا يتبعض، ولا يحلّ في أحد.

قال في التسهيل: واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معان كلها صحيحة في حقه تعالى:

الأول: أنه واحد لا ثاني معه، فهو نفي للعدد.

الثاني: أنه واحد لا نظير ولا شريك له، كما تقول: فلان واحد في عصره أي لا نظير له.

الثالث: أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعض[1].

إن النظام الكوني تضبُطه إرادة واحدة، وتديره قدرة واحدة، فليس للعالم العلْوِي إله،

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/٢٢٣).

وللعالم السفلي إله، وليس لشرق الأرض إله، ولغربها إله، بل إن الإله الذي يُشْرِف على إفرازات الهضم في أحشاء الإنسان، هو الإله الذي يُشْرِف على مَسارات الأفلاك في أقصى الآفاق ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦ - ٣٧].

هذا: ولفظ ﴿أَحَدٌ﴾ في الآية جاء إجابة لمن سألوا عن ماهية الله تعالى؛ من أي جوهر هو؟ فوصف الله تعالى ذاته بالأحَدِية، أي المنفرد بالألوهية، لا يشاركه فيها شيء من الموجودات، وفي هذا إبطال للشرك، وإبطال للتثليث، وإبطال للتعدد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١] أي أنه لا يوجد آلهة أخرى مع الله سبحانه.

ولفظ ﴿أَحَدٌ﴾ ليس من أسماء الله الحسنى، فليس فيها وصف ﴿أَحَدٌ﴾ وإنما فيها وَصْفُ (واحد) ، أي غير متعدد، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣].

ولفظ ﴿أَحَدٌ﴾ دال على أنه سبحانه واحد من جميع الوجوه، فهو لا ينقسم بحال، ولا يقبل الندّ ولا التعدّد، وإنما يعنى الوحدة الكاملة، ولا يقبل الشك في هذا، فهو أبلغ في نفى التعدد من (واحد).

وقد فهم المسلمون هذا المعنى، فكان بلال ﷺ إذا عُذِّب على الإسلام يقول: أحد أحد، وكان شعار المسلمين يوم بدر: أَحد أَحد.

براهين التوحيد الأربعة:

وقد أقام الله سبحانه في القرآن الكريم براهين قاطعة على وحدانيته تعالى، منها:

١- **دليل الخلق والإيجاد**، فإذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات، لم يصح أن يكون واحدا منها شريك له سبحانه، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

٢- **دليل الإحكام والإبداع**: قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

٣- **دليل القهر والغلبة**: قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ

سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٢ - ٤٣].

٤- دليل التنازع والاستعلاء: قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

(وقد جمع القرآن في هذه الأدلة بين العقل والنقل، ففيها رد على مشركي العرب، وعلى النصارى القائلين بالبنوة والتثليث، وعلى المانَوية القائلين بوجود إلهين، إله للنور وإله للظلمة، وعلى الصابئة الذين يعبدون النجوم والأفلاك[1].

وفيها إخلاص التوحيد لله وحده، ومن ثم إفراده سبحانه بالعبادة دون سواه.

في الحديث القدسي كما في البخاري وغيره قال الله عز وجل: «كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي، فقوله: اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»[2].

وقد صُدِّرت الآية بضمير الشأن ، لفظ: ﴿هُوَ﴾ بعد توجيه الخطاب بـ ﴿قُلْ﴾ للتنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها، وجلالة حيزها، مع مافيه من زيادة تحقيق وتقرير، لبيان أن الأمر من الخطورة بمكان، بحيث يجعلك تبحث عنه، وتَلْتفت إليه، لأن الضمير يدعو إلى ترقّب ما بعده، فإذا جاء تفسيره وتوضيحه بعد ذلك، تمكُن في النفس أيَّ تمكُّن.

ولفظ ﴿أَحَدٌ﴾ أبلغ في إثبات الوحدانية من لفظ (واحد)[3].

لأن الواحد يقابله اثنين، أما الأحد فلا يقابله شيء.

والتوحيد روح الإسلام، ولُباب القرآن، والصفات التي أسندها الله تعالى لذاته في السورة تجعل ماعداه عبداً عاجزاً لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً.

---

(١) الدكتور/ محمد محمود حجازي، التفسير الواضح، سورة الإخلاص والشيخ محمد علي الصابوني في صفوة التفاسير.

(٢) أخرجه البخاري والنسائي عن أبي هريرة، جامع الأصول حديث رقم (٨٩٥)، وهو في البخاري برقم (٤٩٧٤).

(٣) تفسير بي السعود والتفسير الواضح للآية.

الغِنَى المُطْلَقُ

٢- ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾

الصمد: اسم خاص بالله تعالى، انفرد به سبحانه، فليس في الوجود صَمَد سوى الله تعالى، العظيم القادر على كل شيء، فهو سبحانه له الأسماء الحسنى والصفات العليا، وهو المقصود في جميع الحوائج، والكون كله مفتقر إليه، وهو الكامل في أوصافه وأفعاله.

قال الحسن: الصمد: الذي لا يخرج منه شيء[1].

وأخرج الطبراني عن الضحاك وابن أبي عاصم عن مجاهد: الصمد، الذي لا جوْف له[2].

والمعنى اللغوي للفظ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو السيّد، الذي لا سيّد غيره، فهو أحد في أُلوهيّته، والكل له عبيد.

وهو المقصود وحده بالحاجات فلا يُقْضَى أمر إلا بإذنه، وهو سبحانه المستغني بذاته، وكل ماعداه محتاج إليه، فالكل (يَصْمُد) أي يَلْجَأُ إليه تعالى في طلب الحاجات، وهو سبحانه الذي يقضي حوائجهم ويدبر أمورهم، ليس فوقه أحد، فالكل محتاج إليه، وهو غني عنهم، لأنه سيدهم وخالقهم ومالكهم.

فالصمد هو الذي يُصمَد إليه في الحاجات، أي يقصده الناس في حوائجهم لكونه قادراً على قضائها.

وقال الزجاج: الصمد: السيد الذي انتهى إليه السؤْدد فلا سيّد فوقه.

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ قال: السيد الذي كمُل في سُؤدده، والشريف الذي كمُل في شرفه، والعظيم الذي قَدْ عظُم في عظمته، والحليم الذي قد كمُل في حلمه، والغني الذي قد كمُل في غناه، والجبّار الذي قد كَمُل في جبروته، والعالِمُ الذي قد كَمُل في علمه، والحكيم

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١٠٢) وقال محققه: رجال إسناده ثقات.

(٢) ابن أبى عاصم (٦٧٣)، وابن جرير (٧٣١/٢٤).

الذي قد كَمُل في حِكْمته، وهو الذي كَمُل في أنواع الشرف والسّؤْدُد، وهو الله سبحانه، وهذه صفاته، لا تنبغي إلا له.

نِسْبَةُ الْوَلَدِ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِرْيَةٌ عُظْمَى

٣ - ﴿لَمْ يَلِدْ[1] وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾: إن اتخاذ الولد، قد يكون بالولادة عن طريق الزوجة، وقد يكون بالتبني الذي منعه الإسلام، وقد جاء هذا التعبير في مثل قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣] ونحو ذلك من الآيات.

ولأن هذه السورة مختصة بتوحيد الله تعالى، وتوحيد أسمائه وصفاته، جاء نفي (الولد) فيها أبلغ من غيرها، أي بطريقة مباشرة ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ دون (اتخذ) والصَّمَدِية تنفي الحاجة إلى الولد مطلقا، وهذا ممتنع عقلاً ونقلاً: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

لأن الله تعالى حي باق لا يرث ولا يورث، له ملك السموات والأرض.

ونظرا لأن قضية نسبة الولد إلى الله تعالى، أهم من نسبة كونه سبحانه (مولوداً) حيث ادعى الأولى - وهي نسبة الولد إلى الله تعالى - فريق من البشر، كالمشركين واليهود والنصارى، ولم يدّع ذلك أحد من المسلمين على الإطلاق.

أما الثانية: وهي دعوى أن الله تعالى (لم يولد)، فلم يدّعيها أحد من الخلق كافة، فكانت دعوى الولد، فرية عظمى استحقت الابتداء بها.

وفي هذه الجملة ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ردّ على القائلين من المشركين وأهل الكتاب ومَنْ

---

(١) عدّ المكى والشامي ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ آية، وتركها غيرهما.

على شاكلتهم بأن لله ولد .

وردّ على من نسب (الزوجة) إلى الله سبحانه قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١] أي زوجة.

فالله سبحانه وتعالى أزليٌ قديم، هو الأول والآخر، متصف بجيمع الكمالات، منزّه عن جميع النقائص، ومنها نسبة الولد والزوجة إليه سبحانه.

في الحديث القدسي السابق «**يقول الله عز وجل: يشتمني ابن آدم، وما ينبغي له أن يشستمني، ويكذبني وما ينبغي له، أما شتمه إياي، فقوله: إن لي ولداً، وأما تكذيبه فقوله: ليس يعيدني كما بدأني**»[١].

وفي رواية: «**فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً**»[٢].

وفي الآية رد على قول النصارى: إن عيسى ليس ابناً لله عن طريق التناسل والولادة، إنما هو ابن لله تعالى لأنه نفخ فيه من روحه، فهو ابن معنوي.

قلت: إن هذا النفخ لا يختص بعيسى عليه السلام فقد نفخ الله في آدم ونفخ في ذريته، فهل يقال: نحن أبناء الله؟

كل مولود حادث، والله تعالى ازليّ قديم:

أما قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾: أي أن الله تعالى لم يولد من أب ولا أم، لأن كل مولود حادث، ولو توقّف وجوده سبحانه على الولادة لكان محتاجاً إلى من يوجده، ثم إن من يلده يكون في حاجة إلى والد، وهكذا.. وهذا التسلسل باطل.

فلا يصح أن يكون سبحانه (مولودا) ولا أن يكون له (والدا) لأنه جل شأنه قديم أزلي، والنسب منفي عنه من جميع الجهات، فهو الأول الذي لم يتقدمه والد، ولا ابتداء لوجوده، وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد، ومن كان كذلك لم يكن له شبه ولا نظير.

---

(١) البخاري والنسائي عن أبي هريرة، كما في جامع الأصول حديث رقم (٨٩٥)، وانظر حاشية الآية الأولى من هذه السورة.

(٢) جامع الأصول حديث رقم ٨٩٦).

وقد نفت الآية إحاطة النسب بالله تعالى من جميع الوجوه فليس لله تعالى أب حتى يُنْسَب إليه، وليس له أولاد حتى يُنْسَبون إليه، وليس له ند ولا شريك.

النَّفْيُ الْمُطْلَقُ لِلشَّبِيهِ وَالنَّظِيرِ

٤- ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا[1] أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾

أي ليس له سبحانه من خلقه مِثل ولا عِدلٌ ولا نظير ولا شبيه، لأن الكفء هو المماثل، والله سبحانه لا يشبهه أحد في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو فاطر كل شيء ومالكه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فله تعالى الأسماء الحسنى والصفات العليا كما أثبتها في كتابه، وكما وصفه بها رسوله ﷺ دون تأويل ولا تعطيل ولا نفي ولا تشبيه ولا تحريف ولا تكييف ولا تجسيم.

الآيات الثلاث الأخيرة تفسير للآية الأولى:

الله سبحانه واحد أحد، خالق للكائنات كلها، ومن كان كذلك فهو قوي قادر عالم.. ليس محتاجاً إلى أحد مطلقاً، والكل محتاج إليه، لأنه الخالق الرازق.. وهو متفرد بصفات الجلال والكمال.

والمولود: ليس بأحد، لأنه جزء من والده.

والولد: ليس بأحد، لأن جزءاً منه في ولده.

ومن يكون له كفء مماثل، فليس بأحد، لوجود النظير له.

فلفظ أحد في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يقررها ويثبتها ويفسرها بقية السورة[2].

---

(١) قرأ حفص بإبدال همزة (كفؤا) واوا وصلاً ووقفاً، والباقون بالهمز، وسكن الفاء يعقوب وخلف، وضمها الباقون، ففيها ثلاث قراءات (كفواً) لحفص (كُفْئاً) لحمزة ويعقوب وخلف (كفُؤاً) لباقي القراء، ووقف عليها حمزة بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها وبإبدال الهمزة واوا مع إسكان الفاء.

(٢) تتمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، عطية سالم.

قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

تلخيص السورة:

وهكذا: فإن هذه السورة المكونة من أربع آيات قصار، غاية في الإيجاز والإعجاز، فقد وصفت رب العالمين بصفات الجلال والكمال، ونزهته عن صفات العجز والنقص:

ففي الآية الأولى: إثبات الوحدانية ونفي التعدد.

وفي الآية الثانية: نفي النقص والعجز.

وفي الآية الثالثة: ثبوت الأزلية والبقاء، ونفي الذرية والتناسل.

وفي الآية الرابعة: ثبوت العظمة والجلال لله تعالى ونفي الأنداد والأضداد.

والمؤمنون يعلمون أن الله تعالى واحد أحد، وكل شيء يفتقر إليه، وهو سبحانه مستغن عن كل شيء، وينتفي عنه كل ما لا يليق بجلاله.

تم تفسير (سورة الإخلاص) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَلَقِ (١١٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الفلق) هي السورة الثالثة عشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الفيل) وقبل (سورة الناس).

وهي خمس آيات باتفاق، وثلاث وعشرون كلمة، وأربعة وسبعون حرفاً.

وتسمى (سورة الفلق) و(سورة قل أعوذ برب الفلق) ويقال لها مع سورة الناس: (المقشْقِشَتين) لأنهما تُبرئان صاحبهما من النفاق، وهذا وصف مشترك بينهما وبين سورتي براءة، والكافرون، كما يقال للفلَق مع الناس: (المعوذتان) ويقال لهما مع الإخلاص المعوذات.

وهي سورة مكية على الأصح، وقيل إنها مدنية لأن سبب نزولها سِحر اليهود.

٢- والغرض من السورة تعليم العباد أن يلجؤوا إلى ربهم، ويستعيذوا بجلاله وسلطانه من شر الحاقدين والحاسدين، ففي ذلك حِصْن وحماية لهم من المخلوقات الشريرة، ومن الأوقات التي يكثُر فيها حدوث الشر، وسائر الأحوال الضارة، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يتعوذ بهذه السورة وما بعدها، ويأمر أصحابه بالتعوذ بهما، فدل هذا على أن التعوذ بهما سنة سنَّها رسول الله ﷺ.

٣ -المعوذتان في السنة النبوية:

جاءت عدة أحاديث صحت روايتها عن عقبة بن عامر ﷺ، في شأن المعوذتين، قال عنها الحافظ ابن كثير: فهذه طرق عن عقبة كالمتواترة عنه، تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث[1].

(١) انظر تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (ج٤ ص ٥٧٢).

١ - في فضل المعوذتين والاستعاذة بهما:

أ- عن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له: (ألم تر آيات أُنزلت عليّ هذه الليلة، لم أَر مثلَهن قط ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾)[1].

ب - وعنه ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أقرأُ من سورة يوسف، وسورة هود، قال: «يا عقبة، اقرأ بأعوذ رب الفلق، فإنك لن تقرأ بسورة أحبَّ إلى الله وأبلَغَ عنده منها، فإن استطعتَ ألاّ تفوتَك فافعل»[2].

ج - وعن ابن عابس الجهني ﷺ أن النبي ﷺ قال له: «يا بن عابس، ألا أخبرك بأفضل ما تعوّذ به المتعوّذون؟» قال: بلى يا رسول الله، قال ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ هما المعوذتان»[3].

د - وفي رواية النسائي: «ما سأل سائل بمثلهما، ولا استعاذ مستعيذ بمثلهما»[4].

هـ- وعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لقد أنزل عليّ آيات لم ينزل عليّ مثلُهنّ؛ المعوذتين»[5].

و- وعن عبد الله بن خُبَيب قال: كنت مع رسول الله ﷺ في طريق مكة فأصبتُ خَلْوة من رسول الله ﷺ فدنوتُ منه، فقال (قل)، قلت: ما أقول، قال (قل)، قلت: ما أقول؟

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٤)، والترمذي (٢٩٠٢)، وأبوداود، والنسائي (٩٥٣)، راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول حديث (٦٢٧٠).

(٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢/٥٤٠) ووافقه الذهبي، وانظر في تصحيحه موسوعة فضائل سور وآيات القرآن (٢/٥٠٩)، والحديث في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٨٥)، والبيهقي في الشعب (٢٥٦٦)، وفي المسند (١٧٤١٨) بإسناد صحيح (محققوه)، وأخرجه الدارمي (٣٤٣٩)، والطبراني في الكبير (١٧/٨٦٢٦).

(٣) سنن النسائي (٥٤٤٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٥٠٢٠)، وهو عند البيهقي (٢٥٧٤)، وابن سعد (٢/٢١٢)، وانظر الطبراني فى الكبير برقم (٩٤٣) عن عقبة بن عامر.

(٤) جامع الأصول (ج٨ ص ٤٩٢) وهو في النسائي (٥٤٥٣)، وهو في صحيح سنن النسائي (٥٠٢٦). وابن أبي شيبة (١٠/٣٥٨).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٦٥٨) بإسناد حسن، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٤٩): رجاله ثقات.

قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: «**ما تعوذ الناس بأفضل منهما**»[١].

٢ -قراءة المعوذتين في الصلاة:

أ- قال النبي ﷺ لعقبة بن عامر: «ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟» قلت: بلى، فأقرأه ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فأقيمت الصلاة فتقدم رسول الله فقرأ بهما[٢].

ب - وقال رسول الله ﷺ: «يا عقبة بن عامر ألا أعلمك سورا ما أنزل في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلهن لا تأتي ليلة إلا قرأت بهن فيها ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[٣].

ج - وفي حديث عبد الله بن الشّخير ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إذا أنت صلّيت فاقرأ بهما»[٤] أي بالمعوذتين.

٣ -قراءة المعوذتين دبر كل صلاة:

عن عقبة بن عامر ﷺ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة[٥].

---

(١) أخرجه النسائي في الاستعاذة بإسناد حسن، انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول رقم: (٦٢٧١)، وهو عن جابر بن عبد الله أيضا في النسائي (٥٤٥٦)، قال الترمذي (٢٩٠٢)، حديث حسن صحيح، وفي صحيح سنن النسائي (٥٠٢٩) بإسناد حسن صحيح، وانظر مسند أحمد (١٧٣٠٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه).

(٢) انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول (ج٨ ص ٤٠١)، وهو في صحيح سنن أبي داود (١٢٩٨)، وابن أبي شيبة (٣٦٧/١)، والمسند (١٧٢٩٦) بإسناد صحيح ورجاله ثقات (محققوه)، وأخرجه أبو يعلى (١٧٣٦)، والبيهقى فى الشعب (٢٥٦٣) وغيرهم.

(٣) قال الهيثمي حديث عقبة في الصحيح وغيره باختصار عن هذا، رواه أحمد ورجاله ثقات، انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ج٧ ص ١٤٨-١٤٩) وهو في المسند (١٧٣٣٤،١٧٤٥٢) قال محققوه: حديث حسن.

(٤) الحديث بإسناد صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين عند أحمد (٢٠٢٨٤،٢٠٧٤٤،٢٠٧٤٥) (محققوه).

(٥) صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٠٧٩)، والحديث عند أحمد (١٧٧٩٢)، وهو حديث صحيح وإسناده حسن (محققوه)، وفي سنن أبي داود (١٥٢٣)، وصحيح سنن أبي داود (١٣٤٨).

٤ -قراءة المعوذتين عند النوم وعند الاستيقاظ:

في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان (إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)[١].

وقال عليه الصلاة والسلام لعقبة بن عامر: «**يا عقيب: اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت**»[٢].

٥ -الرقية بالمعوذتين في المرض ومن العين:

أ- عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء بركتها)[٣].

ب - وكان ﷺ يأمر عائشة بأن تمسح بيده ﷺ على جسده لَمّا ضَعُفَت يده على التنقل بنفسها، وكانت رضى الله عنها تلتمس بركة يد النبي ﷺ بِرُقْيَةِ نفسه لنفسه، وهي التي تقرأ المعوذتين لعدم قوته على ذلك[٤].

ج- وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ (كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الناس، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما)[٥].

٦ -قراءة المعوذات في الصباح والمساء:

قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن خُبَيب رضي الله عنه: «قل، قال: ما أقول؟ قال: ﴿قُلۡ هُوَ

---

(١) رواه البخاري (٥٠١٧،٥٧٤٨،٦٣١٩) في فضائل القرآن.

(٢) من حديث عقبة بن عامر في مسند الإمام أحمد، الفتح الرباني (ح ١٨ ص ٢٤٩) قال: ورجاله ثقات وهو في المسند (١٧٢٩٦)، وصحيح سنن أبي داود (١٢٩٨)، وابن أبي شيبة (١/٣٦٧).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٤٣٩،٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢) ومالك.

(٤) تفسير ابن تيمية وابن القيم للمعوذتين والحديث في البخاري (٥٧٣٥)، ومسلم (٢١٩٢).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠٥٨) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح والنسائي (٥٥٠٩) وهو في صحيح سنن النسائي (٥٠٦٩)، وعند البيهقي (٢٥٦٢).

ﵟٱللَّهُ أَحَدٌﵞ والمعوذتين، حين تمسي وحين تصبح «ثلاثا» تكفيك من كل شيء»[(١)].

وقد ذكرتُ في سورة الإخلاص طائفة أخرى من الأحاديث تشتمل على هذه المعاني ونحوها.

٧ -تَحْرِيمُ جَعْلِ الْمُعَوِّذَاتِ تَمِيمَةً:

رأى عبد الله بن مسعود ﷺ في عنق امرأة من أهله سيْراً فيه تمائم فقطَعه، وقال: إن آل عبد الله أغنياء عن الشرك، ثم قال التولة والتمائم والرقَي من الشرك، فقالت امرأة: إن إحدانا لتشتكي رأسها فتسترقي وتظن أن هذا ينفعها فقال ابن مسعود: إن الشيطان يخنس في رأسها، فإذا استرقت خُبس، فإذا لم تسترق نخس، فلو أن إحداكن تدعو بماء فتنضحه في رأسها ووجهها ثم تقول: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم تقرأ الإخلاص والفلق والناس، نفعها ذلك إن شاء الله[(٢)].

والتّوَلة هي السحر الذي يُحبّب المرأة إلى زوجها.

والتمائم ما يُكْتَب من آيات أو أذكار وأدعية فيُجعل حجاباً ويعلّق.

والرُّقَى غير المشروعة يُقصَد بها ما كان بغير أسماء الله تعالى وصفاته وماجاء في صحيح السنة وكلامه من ألفاظ شركية ونحوها فكل ذلك حرام.

ج -مَا نُسِبَ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ فِي شَأْنِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ:

نسب إلى عبد الله بن مسعود ﷺ أنه كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، وأنه كان يحكّهما من المصحف، ويقول: إنما أُمر رسول الله ﷺ أن يتعوذ بهما، والسبب فى هذا أن ابن مسعود كان يرى النبي ﷺ يُعَوّذ بهما الحسن والحسين ولم يسمعه يقرؤهما في شيء من صلاته، فظن أنهما للتعوذ فحسب، ولم يكن يقرأ بهما، ولم يتابع ابن مسعود على ذلك أحد من الصحابة، وثبت أن النبي ﷺ قرأ بهما في الصلاة كما تقدم في حديث

---

(١) أخرجه النسائي، جامع الأصول حديث رقم (٦٢٧١)، وهو في النسائي برقم (٥٤٤٣)، والترمذي (٣٥٧٥)، وصحيح سنن أبي داود (٤٢٤١).

(٢) ينظر هذا المعنى في صحيح سنن أبي داود (٣٢٨٨)، والمسند (٣٦١٥) بنحوه، والطبراني (٨٨٦٣)، وابن ماجة (٣٥٣٠)، وهو في سنن أبي داود (٣٨٨٣).

عقبة، أنهما أُثبتتا في المصحف[1].

والجواب على ذلك:

١- كما قال القاضي أبوبكر الباقِّلاني: أن ابن مسعود ﷺ لم يُنكِر قُرآنيتهما، وإنما أنكر إثباتهما في المصحف، فإنه كان يرى ألا يُكْتَبَ في المصحف شيء إلا بإذن النبي ﷺ وكأنه لم يبلغه الإذن في ذلك، فليس فيه جَحْد منه لقرآنيتهما وإنّما هو مَبْلَغُ علمه في شأنهما.

٢- وقال القسطلاني: ويحتمل أيضاً أنه لم يسمعهما من النبي ﷺ ولم يتواتر هذا عنده، ثم لعله قد رجع عن ذلك إلى قول الجماعة. فقد أجمع الصحابة عليهما وأثبتوهما في المصاحف التي بعثوها إلى سائر الآفاق.

٣- وكان أُبَيّ بن كعب ﷺ يشهد بنزول جبريل بهما على النبي ﷺ[2].

٤- وعن زِرّ بنِ حُبَيش قال: قلت لأُبَيّ بن كعب: إن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، قال: أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فقلتها، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فقلتها، فنحن نقول ما قال النبي ﷺ[3]. **أقول:**

١- وبشهادة أُبَيّ بنِ كعب ﷺ.

٢- وثبوت قراءة النبي ﷺ بهما في الصلاة، كما صح ذلك من حديث عقبة بن عامر.

٣- واحتمال أن ذلك لم يبلغ ابن مسعود عن طريق التواتر.

٤- ولأنه لم يتابع ابن مسعود على قوله أحد من الصحابة على ذلك.

٥- ولِمَا ورد أنه قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة.

وبذلك تزول الشبهة فيما نُسب إلى ابن مسعود ﷺ في ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢١١٨٨)، والبزار (١٥٨٦)، والطبراني (٩١٤٨،٩١٥٢) قال محققو المسند: إسناده صحيح، وانظر الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (ج١٨ ص ٣٥١) باب (رأي ابن مسعود في المعوذتين).

(٢) اللفتح الرباني (٣٥٢/١٨) عن الإمام أحمد رحمه الله، وأخرجه أيضا الطبراني، قال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح، انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ج٧ ص ١٤٩) باب مـجاء في المعوذتين.

(٣) المسند (٢١١٨٦)، والبخاري (٤٩٧٦،٤٩٧٧)، وابن حبان (٧٩٧،٤٤٢٩) وشرح مشكل الآثار للطحاوي (١١٨).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الاسْتِعَاذَةُ بِفَالِقِ الإِصْبَاحِ

١ - ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾

قل - أيها المخاطب - أعوذوألجأ واعتصم، برب هذا الكون، فالق الحب والنوى فالق الإصباح، من شر جميع ما خلق الله، من إنس وجن وحيوانات، أستعيذ بخالقها من الشر الذي فيها.

وهكذا: يوجه الله سبحانه وتعالى الخطاب لنبيه ﷺ وللمؤمنين من بعده معلِّماً لهم كيف يَلُوذُون بجناب الله سبحانه، وكيف يعتصمون به، ويلجؤون إليه، ويحتمون بحماه، ويستعيذون بجلاله وسلطانه من كل ما يضرهم في دينهم ودنياهم، مما هو ظاهر لهم أو خافٍ عليهم، مما علموه أو جهلوه، ليدخلوا في ساحة الأمن والطمأنينة، وليكونوا في كنَف الله تعالى وحفظه ورعايته.

فهو سبحانه فالق النور من الظلام، وفالق الحب والنوى، وفالق كل شيء: كالنبات من الأرض، والمطر من السحاب، والأولاد من الأرحام، والصبح من الليل.

وهو سبحانه خالق الكائنات جميعاً، والقادر على أن يدفع عن المستعيذ به ما يخافه ويخشاه، كما قدر على انفلاق الصبح من الليل، وإزالة الظلمة عن العالم، فالمستعاذ به هو الله وحده، ولا يستعاذ بسواه، فهو رب الفلَق، وهو الذي يُعيذُهم، ويعصمهم، ويَمنعُهم من الشر.

والمعنى: أعوذ بفالق الصبح أن ينجّيني من شرور الليل وغيره، فهو القادر على أن ينجّيني من الشر، كما نَجّى أهل الأرض كلهم، فجعل لهم الصبح كي يخرجون به من ظلام الليل.

ولَمّا كان بعض أهل الجاهلية يستعيذون بسادة الجن إذا نزلوا مكاناً، أخبر سبحانه وتعالى أن الجن زادوا الإنس رهقاً وإثماً وشراً بسبب استعاذتهم بهم، قال تعالى:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وكانوا يستعيذون بسيد الوادي من الجن، من شر سفهاء قومه.

والمستعاذ منه في السورة شرور أربعة:

الشَّرُّ الأَوَّلُ: شَرُّ كُلِّ مَخْلُوقٍ فِيهِ شَرٌّ

٢- ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ ﴾

أُمر المسلم أن يستعيذ بالله تعالى على وجه العموم من شر كل مخلوق فيه شر، ومن كل شر في الدنيا والآخرة، ومن شر شياطين الإنس والجن، وشر السباع والهوام، وشر النار والهواء وغير ذلك، فهو سبحانه المالك لهذا الكون، المتصرف فيه، القابض على ناصيته، القادر على تبديل أحوال خلقه وتغيير شؤونهم.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنهما أنه قال: **«من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»**[1].

وكان عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله تعالى في سفره حين يدخل الليل من شر ما خلق، ومن شر ما نزل من السماء، وما يعرج فيها، ومن شر ما خلق في الأرض، وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق يطرق إلا بخير[2].

وكان ﷺ يستعيذ بالله من الحية والعقرب، ومن شر الأرض، وشر ما خَلَق فيها، وما يدُبّ عليها.

والشر المستعاذ منه هو الشر الذي يفعله الناس، ويحدُث من المخلوقات، وليس المراد الاستعاذة من خَلقِ الله تعالى، الذي هو فِعْلُه وَتكْوِينُه، فإن الشر لا يدخل في ذات

---

(١) رواه مسلم في الذكر برقم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السُّلَمية، ومالك في الموطأ (٢/٩٧٨)، والترمذي (١٤٣٣)، والدارمي (٢٦٨٣).

(٢) انظر النص في سنن أبي داود في الجهاد وفي مسند أحمد (٢/١٣٢، ٤١٩).

الله تعالى ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فأفعاله سبحانه كلها خير لا شر فيها[١].

وهذا لا ينافي وجود الخير والشر، وأنهما مخلوقان لله تعالى، وقد أُمر المسلم أن يستعيذ بالله تعالى من جميع الشرور، سواء أكانت شراً في ذاتها، أم كان ذلك من فعل العبد: كالاستعاذة بالله تعالى من إبليس وأعوانه، ومن شر كل ذي شر.

وقد أُمرنا أن نتعوذ بالله تعالى في نهاية التشهد في كل صلاة، من عذاب القبر وعذاب النار، ومن فتنة المحيا وفتنة الممات، وفتنة المسيح الدجال[٢].

وكان عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله تعالى من الهم والحزَن، ومن العجز والكسل، ومن الجبن والبخل، ومن غلبة الدين وقهر الرجال[٣].

وكان ﷺ يستعيذ بالله تعالى من المأثم والمغرم[٤].

ويستعيذ برضا الله تعالى من سخطه، وبمعافاته من عقوبته[٥].

ويستعيذ بالله تعالى في خطبته من شرور النفس وأعمالها السيئة[٦].

ويستعيذ بالله تعالى من شر النفس، وشر الشيطان وشركه.

ويستعيذ به أن يقترف سوءاً على نفسه، أو يجرّه إلى مسلم.

ومن هذا يتضح عموم الأمر بالاستعاذة من كل شر في أي مخلوق فيه شر، سواء

---

(١) من تفسير ابن القيم للسورة.

(٢) انظر الحديث في صحيح الكلم الطيب لابن تيمية بتحقيق الألباني رقم (٨٤)، والحديث في صحيح مسلم (٥٨٨)، والبخاري (٢٣٩٧،٨٣٢)، وأبوداود (٩٨٣).

(٣) انظر الحديث بنصه في رياض الصالحين برقم (١٤٧٢)، وقد رواه مسلم عن أنس (٢٧٠٦)، وهو في البخاري (٦٣٦٣،٢٨٢٣)، وأبي داود (١٥٥٥) عن أبي سعيد.

(٤) في البخاري (٣٠٢/١) برقم (٧١٢٩،٦٣٦٨،٨٣٢)، ومسلم (٤١٢/١) برقم (٥٨٩)، والترمذي (٣٤٨٩)، وابن ماجة (٣٨٣٨)، وأبوداود (١٥٤٣).

(٥) رواه مسلم في الصلاة برقم (٤٨٦)، والموطأ (٢٤١/١)، وأبوداود (٨٧٩)، والترمذي في الدعوات (٣٤٩١).

(٦) خطبة الحاجة للنبي ﷺ بتحقيق الشيخ الألباني، وهى عند أبي داود عن ابن مسعود، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجة (١٨٩٢) وغيرهم.

أكان إنساناً، أم حيواناً، أم جنّياً، أم دابة، أم هامة، أم ريحاً، أم عاصفة، أم صاعقة، أم أي نوع كان من أنواع البلاء والشرور[١].

الشرُّ الثاني: شَرُّ ظَلامِ اللّيْلِ وَغِيَابِ الْقَمَرِ

٣- ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ ﴾

أي: أعوذ بالله من شر ما يكون في الليل إذا غطّى الناس بظلامه، وانتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة، والدواب المؤذية، ومن شياطين الإنس والجن:

أ - ويُفسَّر الغاسق إذا وقب، بأنه **الليل إذا أقبل** ودخل، فأظلم واشتدت ظُلْمته، وأسدل ستاره على كل شيء، واختفى تحت جُنْحِه كل ما هو ظاهر، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى:﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ [الإسراء: ٧٨] وذلك لأن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من شياطين الإنس والجن، وفيه تخرُج السباع والهوام، وتحصُل فيه السرقة والحرائق، ويَقِلُّ فيه الغوْثُ والنَّجْدة.

وقد أُمرنا بالاستعاذة بالله تعالى من شر الليل إذا أقبلت ظُلْمته من المشرق، لما فيه من انتشار الآفات، وتسلّط الأرواح الشريرة الخبيثة، وانتشار الشياطين.

ففي الحديث عن جابر ﷺ: «**فإن الله يبث - أي ينشر - من خلقه ما يشاء**»[٢].

وأخبر عليه الصلاة والسلام من حديث جابر أن الشمس إذا غربت، انتشرت الشياطين، ثم قال: «**فأكْفِتُوا صبيانكم، واحبسوا مواشيكم حتى تذهب فحمة العِشاء**»[٣].

وأكفتوا صبيانكم يعني ضُموّهم إليكم واحبسوهم في البيوت، وفَحْمَةُ العشاء: ظُلْمتها: وفي الحديث عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أطفئوا السرج فإن الفويسقة**

---

(١) راجع تفسير المعوذتين لابن تيمية وابن القيم وانظر البخاري في الأدب المفرد (٧٢١)، والترمذي (٣٤٥٠)، والمسند (٥٧٦٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٦٩٧-١٠٧٠٠).

(٢) المسند (٣٠٦/٣)، وانظر حديث البخاري عن جابر (٣٣٠٤).

(٣) البخاري في بدء الخلق (٣٢٨٠)، ومسلم في الأشربة برقم (٢٠١٣) عن جابر.

- يعني الفأرة - تضرم - أي تدخل - على الناس بيوتهم ليلاً»[1].

ب - وفُسّر الغاسق إذا وقب أيضاً، بأنه: القمر إذا كان آخر الشهر، ثم سقط وغاب واختفى، واستدل على هذا بأن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال:

«يا عائشة تعوذي بالله من شره، فإنه الغاسق إذا وقب»[2].

أي دخل في المحاق، وهو آخر الشهر، فإنه الوقت الذي يتم فيه السِّحر المؤدي إلى المرض.

ج - وقيل: المراد بالغاسق: إذا خسف القمر واسودّ وذهب ضوؤه.

وغياب القمر آخر الشهر يتفق مع ظلمة الليل، ويشترك معه في بعض ما يكون بالليل، وظهور القمر واختفاؤه مرتبط بالليل، والظلمة لا تشتد إلا عند اختفاء القمر، وحينئذ تنتشر الشياطين واللصوص، وينْتشُر أهل الفساد من الإنسان والحيوان..

قال ابن قتيبة: الفاسق: القمر إذا كُسف فاسْودّ، ومعنى وقب: دخل في الكسوف، فالمسلم يستعبذ بالله من شركل غاسق، وهو الذي يسودّ ويظلم، فالليل إذا دخل في ظلامه غاسق، والنجم إذ أفل غاسق، والقمر إذا كسف غاسق.

ولهذا كان الأمر بالاستعاذة بالله تعالى من شر الليل ومافيه، لأن نور الصبح إذا انفلق من الظلام، فإنه يَطْرُد كلَّ مُفْسِدٍ في الليل، وكل خبيثٍ وقاطع طريق، وكل شيطانٍ منتشر بالليل، وكل هامَّةٍ خرجت من جُحرها.

والمستعاذ به فى كل هذا هو ربُّ الفلق: رَبُّ هذه الكائنات جميعاً.

---

(١) من حديث جابر في صحيح مسلم (٢٠١٢)، وصحيح البخاري (٦٢٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٦٦)، وانظر جامع الأصول وتحقيقه، حديث رقم (٨٩٨) (ج٢ ص ٤٤٥)، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٣٠٦)، وهو في المسند (٢٠٦/٦) (٢٥٧١١) بإسناد حسن، والمستدرك ٢(/٥٤٠)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم والذهبي، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي ،(٢٦٨١) حسن صحيح، وأخرجه الطبري (٢٤/٨: ٧)، وأبوالشيخ في العظمة (٦٨١).

الشَّرُّ الثَّالِثُ: شَرُّ السَّاحِرِ الَّذِي يَنْفُثُ فِي عُقَدِ السِّحْرِ

٤- ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ[1] فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾

أي وأعوذ برب الفلق، من شر النفس والأرواح الخبيثة، وهُنّ السواحر اللواتي يَعقدْن عُقداً أو يَنفُخن فيها ويُفرّقْنَ بين المرء وزوجه، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وسبب نزول المعوذتين: أن غلاماً من اليهود كان يخدُم النبي ﷺ فأخذ ما يخرُج من الشَّعْرِ في الْمُشْطِ مع أسنان المشط، وأعطاه لليهود لِيَسحَرُوا بها النبي ﷺ كما طلبوا منه، فتولى سحره ﷺ لَبيد بن الأعصم اليهودي، وكانت بناتُه تَنفُث في العقد التي عقدها لسحره.

وكانت أخت لَبيد قد قالت: إن يكن نبيّاً فسيُخْبَر، وإلا فسيُذْهِله هذا السحر حتى يذهب عقله).

ودسّ اليهود السحر في بِئرٍ، فمرض النبي ﷺ أيّاماً، وقيل ستة أشهر، كان يُخَيَّلُ إليه أنه يأتي النساء وما يأتيهن، وأنه يفعل الشيء وما يفعله (..فأتاه جبريل قال: إن رجلاً من اليهود سحرك، وعَقَدَ لذلك عُقَدا، فأرسَلَ رسول الله ﷺ علياً فاستخرجه، فجاء به، فجعل كلما حلّ عُقْدة وجد لذلك خِفّة، فقام رسول الله ﷺ كأنما أُنشط من عِقال، فما ذَكَر ذلك لليهودي، ولا رآه في وَجْهِه).

وقد استُخرِج السحر من تحت صخرة في البئر، وَوُجِد بها غطاء طَلْع النخل، وفيه مُشاطة الرأس، وأسنان المشط، وفيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بإبرة.

فأنزل الله المعوذتين، وجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى وجد خفة عند العقدة الأخيرة، ولَمّا حصل الشفاء والمعافاة، أمر النبي ﷺ بدفْن السحر ولم يستخْرِجْه لئلا تحدث فتنة بينهم.

والإشارة في ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ إلى بنات لَبيد بن الأعصم اليهود، كُنّ ساحرات، وهن اللواتي سَحَرْن مع أبيهم النبي ﷺ وعَقَدْن له إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله تعالى إحدى

---

(١) قرأ رويس بخلف عنه (النافثات) جمع نافثة والباقون ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ جمع نفّاثة وهو الوجه الثاني لرويس.

عشرة آية بعدد العُقد، هي مجموع آيات سورتي المعوذتين، والنفْث شِبْه النفخ دون تَفْلِ ريق، ويكون النفْثُ على عُقد تُعقد في خيوط ونحوها على اسم المسحور فيؤذَى[1].

وقد ورد في الصحيحين وغيرهما قصة لَبيد بن الأعصم دون الإشارة إلى أن أنها كانت سبباً في نزول السورة.

قال البخاري: حدثنا عبيد الله بن إسماعيل، حدثنا أبوأسامة عن هشام عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سُحِر النبي ﷺ حتى إنه ليُخيّل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي، دعا الله ودعاه، ثم قال: (أشَعَرْتِ يا عائشة أن الله أفتاني فيما استفتيتُه فيه) قلت: وماذاك يا رسول الله؟ قال: (جاءني رجلان، فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رِجْلي، ثم قال أحدهما لصاحبه: ما وجَعُ الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طَبّه قال: لَبيد بن الأعصم اليهودي من بني زُرَيْق، قال: فبماذا؟ قال: في مُشْط ومُشَاطة وَجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذي أرْوَان)، قال: فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة فقال: والله لكأن ماءها نُقاعة الحِنّاء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين) قلت: يا رسول الله، أفأخرجْته؟ قال: (لا، أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخشيتُ أن أثير على الناس منه شرّاً، وأَمَرَ بها فدُفِنَت)[2].

وجاء في بعض الروايات أن النبي ﷺ أتى البئر حتى استخرجه وقال: هذه البئر التي أُريتُها[3].

وجاء عند البيهقي عن عائشة أيضاً أن الملَكان أخبرا النبي ﷺ أن السحرتحت صخرة في أسفل البئر، وأن النبي ﷺ ذهب إليه مع بعض أصحابه، فنزل رجل فاستخرجه، فإذا فيه مُشط رسول الله وفيه من شَعْرِ رأسه، ومَعَهُ تمثال لرسول الله ﷺ فيه إبر مغروزة، ووَتَر، فيه إحدى عشرة عقدة، فأتاه جبريل بالمعوذتين فقرأهما وحلّ عقدة عند كل آية وعافاه الله[4] وفي السحر خمسة مباحث:

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية (٥/٥٣٨).

(٢) هذه إحدى روايت البخاري برقم (٥٧٦٦) ومثلها (٣١٧٥)، وانظر (٣٢٦٨،٥٧٦٣)، وفي مسلم (٢١٨٩).

(٣) البخاري (١٧٥-،٥٧٦٥)، ومسلم (٢١٨٩).

(٤) ينظر البيهقي في الدلائل (٧/٩٢-٩٤).

أولاً: رقية جبريل للنبي ﷺ:

ثبت أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيت؟ فقال: نعم، فقال: «**باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك**»(١).

وفي رواية أبي سعيد: «**من شر كل كاهن وساحر**»(٢).

ثانياً: بماذا يبطل السحر ويعالَج؟

ويؤخذ من هذا أن إبطال السحر إن كان بالقرآن كالمعوذتين وآية الكرسي وآيات السحر الثلاث في سور: الأعراف ١١٧-١٢٢ ويونس ٨٠-٨٢ وطه ٦٩،٧٠ ونحو ذلك مما تجوز به الرقية، فلا مانع منه شرعاً، وإن كان فك السحر بسحر، أو بما لا يفهم معناه، ونحو ذلك، فإنه ممنوع(٣).

فإن عُرِف مكان السحر بطريقة من الطرق، فإنه يؤتى به ويُبْطَل بوضعه في عين الحمَّام مثلاً إن لم يكن فيه اسم الله تعالى أو شيء من القرآن.

فعلاج السحر يكون بالقراءة المشروعة على المسحور، ويكون باستخراج السحر وإبطاله، واستفراغ القيء أو الدم الذي في محل وجوده(٤).

ولا يعالج السحر بالسحر، ولا يذهب إلى السحرة لفكه ولا يعتقد في كلامهم، فقد ورد في ذلك وعيد شديد، وأن من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد، وفى وإنه لا تقبل صلاته أربعين يوماً فأكثرهم دجالون مرتزقة.

---

(١) من حديث عبادة بن الصامت بإسناد حسن كما قال محقق صحيح ابن حبان (٢٩٥٣،٢٩٦٨) وهو عن أبي سعيد في الترمذي (٩٧٢)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢٥٢٢)، والمسند (١١٢٢٥،١١٥٥٧)، وعن جابر بن عبد الله أو أبي سعيد الخدري، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، وهو في مسلم (٢٧٨٦)، وأبي يعلى (١٠٦٦).

(٢) وهي عند أحمد بإسناد صحيح كما قال محققو المسند (١١٢٢٥،١١٥٥٧)، والنسائي في الكبرى (٧٦٦٠)، وانظر الحديث السابق.

(٣) راجع أضواء البيان في تفسير ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ بسورة طه.

(٤) الطب النبوي (ص ١٢٤) وما بعدها.

وكذا التعوذ بالله تعالى والتحصُّن به، وحِفْظ أوامره ونواهيه، وتقوى الله تعالى والتوكل عليه، والإقبال عليه والإخلاص له، وإخلاص التوبة له، وكثرة الصدقة والإحسان، والصبر على الأذى والإحسان إلى من أساء، وتجريد التوحيد لله تعالى[1].

ففي هذا علاج وحصن لدفع السحر والحسد وغيرهما.

ثالثاً: السحر وعِصْمَةُ الرسول:

والسحر الذي أصاب النبي ﷺ كان مرضاً عارضاً شفاه الله منه، ولا نقْص في ذلك ولا عيب بوجه من الوجوه، فإن المرَض يجوز على الأنبياء، وهو نوع من البلاء، ابتُلي به النبي ﷺ من اليهود.

وقد تسلط السحر على جسد النبي ﷺ وظاهر جوارحه، لا على عقله وقلبه واعتقاده، وليس في هذا لَبساً على الرسالة، ولا مطعناً لأهل الضلالة، ولا ما يقدح في عصمته ﷺ في تبليغ الرسالة، وصِدْقِهِ في دعوته، وكل ما يعرض للبشر كالسحر والأمراض، فغير بعيد أن يحدث للنبي ﷺ لأنه من أمور الدنيا، وهو بشَر من البشَر، يعتري جسده ما يعتري أجساد البشر، دون أن يؤثِّر هذا في عقله، ولا يقدح في مقام النبوة والرسالة.

وليس هذا سِحْراً بالمعنى الذي وصف به المشركون النبي ﷺ في قولهم (ساحر) فالرسول ﷺ ليس ساحراً ولا مسحوراً، حيث لم يُصَبْ بالذهول وفقدان الوعي، ولم يَصْدُر عنه السحر الذي يصدر من السحرة مطلقاً، في جميع مراحل حياته.

هذا ما عليه جمهور المسلمين، فحديث السحر هذا ثابت في الصحيحين، ولم يتكلم في سنده أحد بكلمة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والفقه والتاريخ، وهي لا تقدح في مقام النبوة.

رابعاً: السحر لا يؤثر بنفسه:

وجمهور علماء الأمة على أن السحر ثابت وله حقيقة، يخشى من ضرره، وأنه لا يؤثر بنفسه، إلا بإذن الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] ويستعاذ بالله منه ومن أهله. ومن السحر ما يكون وَهْماً وتخييلاً لا حقيقة له.

---

(١) رؤوس أقلام من بحث لابن القيم عند تفسير الآية في تفسيره للمعوذتين وقد ذكر فيها عشرة أسباب مبسوطة.

خامساً: حكم تعلّم السحر وتعليمه:

وتعلّم السحر واستخدامه إن كان بتعظيم غير الله تعالى كالكواكب، أو بتسخير الجن، ونحو ذلك، فهو كفر لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي بتعلُّمك السحر، وإن كان عن طريق الاستعانة بخواص الأدوية، والدهانات، واعتقاد أنه يؤثِّر بنفسه فهو حرام من الكبائر.

وكذلك الحكم في تعليم السحر واستخدامه، والساحر الذي يبلُغ به سِحْرُه درجة الكفر، يُقْتل كُفْراً[١].

الشَّرُّ الرَّابِعُ: شَرُّ عَيْنِ الْحَاسِدِ

٥- ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

الحسد المذموم هو: تمني زوال نعمة الآخرين، أو تمني عدم حصول النعمة لهم، شُحّاً بها عليهم.

والحسد المحمود هو: تمني أن يكون للإنسان مِثْل ما لغيره، وعدم تمني زوالها عنه، وهو الغبطة. والمؤمن يغبط، والمنافق يحسد.

ومن باب الغبطة: غبطة العالِم على علمه، وتمني مثله للنفس، وغبطة المال الصالح للعبد الصالح، وتمني مثله، كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا تحاسُد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فهو يقول: لو أُوتيتُ مثلَ ما أُوتي هذا، لفعلتُ كما يفعل، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه في حقه فيقول: لو أُوتيتُ مثلَ ما أوتي، وعملتُ فيه مثل ما يُعمل»**[٢].

وقد نهى النبي ﷺ عن الحسد كما جاء في حديث أبي هريرة أيضاً أن النبي ﷺ قال: **«إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا»**[٣].

---

(١) راجع بحث السحر للشيخ الشنقيطي في أضواء البيان بسورة طه.

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٢٥،٥٠٢٦،٧٥٢٨)، وصحيح مسلم (٨١٥).

(٣) صحيح البخاري برقم (٥١٤٣)، وانظر (٦٠٦٤،٦٧٢٤)، وصحيح مسلم (٢٥٦٣).

والحسد قد يكون عن طريق الإصابة بالعين من الإنس أو من الجن، وقد يكون عن طريق النفس، بحسد الإنسان لنفسه، أو لغيره وإن كان غائباً.

وفي الحسد عشرة مباحث:

١- **ماهية الحسد**: والحسد شيء لا يُرى، كالنفس والروح والعقل، وهو أشبه ما يكون بالأشعّة التي تنفُذ إلى داخل الجسم، دون رؤيتها، فهو إشعاع غير مرئي، ينتقل من قلب الحاسد إلى المحسود.

٢- **أسباب الحسد**: وترجع أسباب الحسد إلى الكبر وازدراء الناس، وإعجاب الحاسد بنفسه، وعدم الرضى بالقَدر، فقد كان الكبر هو الحامل لإبليس في حسده لآدم، فوقع أول ذنب في السماء بسببه، وكانت عدم القناعة هي الحامل لقابيل في حسده لأخيه هابيل على أخته الحسناء، فوقعت أول جريمة في الأرض بسبب الحسد.

٣- **الحاسد خبيث الطوية**: والحاسد ينطوي على نفس خبيثة، فينظر إلى المحسود بحدَّة ومَقْت وخُبث، تنفُذ سمومه من خلال تلك النظرة الحاقدة إلى المحسود فتؤثر فيه.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥].

أي يصيبونك بالعين حِقداً وبغضاً وعداوة لك.

٤- **ما يصيبه الحسد**: وعين الحاسد تصيب الإنسان والحيوان وغيرهما، ويكون الحسد في نعمة موجودة أو متوقعة، ويحسد الحاسد ما يراه وما لم يره.

٥- **أعراض الحسد**: وأعراض الحسد كثيرة: كحدوث المكروه للمحسود، مع ضيق في النفَس، والتنهدات، والتثاؤب، وبعض المشكلات التي تحدث للمحسود.

٦- **الحسد في الكتاب والسنة**: والحسد ثابت في مثل قوله تعالى عن المشركين الذين حسدوا الرسول ﷺ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤].

يعنى من النبوة والرسالة.

وكقوله تعالى عن أهل الكتاب أيضاً وقد حسدوا المسلمين على الإسلام:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩] يعني من النبوة والرسالة.

وكقوله تعالى عن المنافقين: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ [الفتح: ١٥].

يعني على النعمة المتوقعة وهي غنائم الحرب.

وقد صح في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين**»[١].

٧- **ما يجب على العائن (الحاسد)**: وينبغي على من أُعجب بشيء، ويخشى أن يصيب الناس بعينه، أن يدفع هذا الشر عن نفسه، بأن يدعو للشخص بالبركة فيقول: اللهم بارك له أو عليه، لقول النبي ﷺ «**ألا بركت**»[٢] أي دعوت له بالبركة.

يقول ذلك لئلا تسبقه عينه ويصيب بها أخاه، ويجاهد في نفسه نوازع الحسد بإعلامها أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وأن ضرر الحسد لا يعود إلا على الحاسد لعدم الرضى بالقضاء، ويقول أيضا من يتوقع صدور الحسد منه: «**ماشاء الله لا قوة إلا بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم: والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**».

٨- **بماذا يُدفع الحسد**: وعندما يتوقع الإنسان حصول الحسد من شخص ما، فإنه يكبر ثلاثاً عند خوفه من عينه فيقول: «**الله أكبر ثلاث مرات**»[٣] فإن الله تعالى يدفع عنه العين بمشيئة الله تعالى.

٩- **علاج الحسد**: تُثبت التجارب العلمية والعملية أن الطب الحديث والعقاقير والأدوية تقف عاجزة تماماً أمام علاج الحسد، وعلاج الحسد يكون بالقرآن والسنة، فمن قرأ سورة الإخلاص، والمعوذتين، صباحاً ومساء كل يوم، لا يضره فيه حسد،

---

(١) رواه مسلم (٢١٨٨)، والترمذي عن ابن عباس (٢٠٦٢)، وهو في صحيح الجامع (٤٠٢٣)، والأذكار النووية (ص ٢٧٢)، وجامع الأصول رقم: (٥٧٣٧).

(٢) راجع النص الكامل للحديث في الموطأ برقم (١٧٠٢)، وجامع الأصول برقم (٥٧٤٠)، وهو في المستدرك (٤١١/٣)، والمسند (٤٨٦/٣) برقم (١٥٩٨٠) حديث صحيح، فيه أبو أويس قد توبع، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه).

(٣) ينظر: تتمة أضواء البيان، سور الفلق.

والتكبير والاستعاذة بالله تعالى، فيهما رد الحسد، والتحصن بالأذكار والأدعية صباحاً ومساء فيه علاج للحسد.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان يؤمر العائن أن يتوضأ، ثم يغتسل منه المعين[1] (المحسود).

وقد أمر النبي ﷺ بالوضوء أو الاغتسال من العين على النحو التالي:

بأن يَغْسِلَ المتهم بالعين وهو (الحاسد) وجهه، وكفيه، والمرفقين، والركبتين والقدمين، وطرف الإزار الداخلي، ويكون ذلك في إناء لا يَسْقُط منه الماء على الأرض، ويفرّغ هذا الماء على المحسود من خلفه، ويُكْفأ الإناء خلْفه)[2].

فإن هذا علاجاً نبوياً للحسد يزول به بحول الله تعالى وقوته.

أصاب سهل بن حَنِيف وَعْكَةً فقال ﷺ: هل تتهمون له أحداً؟ قالوا: نتهم عامر بن ربيعة، قال: فدعا رسول الله ﷺ عامراً فتغيظ عليه (أي غضب منه) وقال: «**علام يقتل أحدكم أخاه، ألا بركت** (يعني هلا دعوت له بالبركة) **اغْتَسِلْ له**» فغسل عامر: وجهه، ويديه، ومرفقيه، ورُكْبَتيه، وأطراف رجليه، وداخل إزاره، في قَدَحٍ، ثم صُبّ عليه، فراح (سهل) مع الناس ليس به بأس)[3].

---

(١) أبوداود بإسناد صحيح على شرط البخاري، ومسلم برقم (٣٨٨٠)، وفي صحيح أبي داود (٣٢٧٦)، وانظر الأذكار النبوية (ص ٢٧٢)، وجامع الأصول رقم: (٥٧٣٩).

(٢) انظر الأحاديث الواردة في الموطأ والطب النبوي والأذكار النووية وأضواء البيان وغيرها في الوضوء أو في الاغتسال من العين بألفاظ عدة.

(٣) انظر سياق حديثين في الموطأ برقم: (١٧٠١، ١٧٠٢) باب الوضوء من العين وانظر نص الحديثين في جامع الأصول (ج٧ رقم: ٥٧٤٠) وهو حديث حسن صحيح، ورواه أيضاً: أحمد (١٥٩٨٠) حديث صحيح، والنسائي في الكبرى (٧٤٦٩)، وابن ماجة (٣٥٠٦)، وصححه ابن حبان، قال الزرقاني في شرح الموطأ: ظاهره الارسال، لكنه محمول على أن أبا أمامة (الراوي) سمع ذلك من أبيه، من تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط على جامع الأصول.

قال ابن الأثير: وكان من عادتهم: أن الإنسان إذا أصابته العين من أحد، جاء إلى العائن، فجرده من ثيابه، وغسل جسده ومعاطفه، ووجهه وأطرافه، وأخذ المعين - أي المحسود - ذلك الماء فصبه عليه، فيبرأ بإذن الله تعالى.

قال: وداخل الإزار: الطرف الذي يلي جسد المؤتزر، وقيل: أراد موضع داخلة إزاره من جسده، لا إزاره.

وقيل: أراد به مذاكيره، فكنّى عنها، كما كنّى عن الفرج بالسروايل، وقيل: هو الوِرْك[1].

١٠- الرقية من العين مشروعة: فقد صح عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية، في وجهها سفعة، فقال: «**استرقوا لها فإن بها النظرة**»[2].

والسفعة سواد أو صُفرة في الوجه من نظرة الجن.

وقالت عائشة رضي الله عنها: أمرني النبي ﷺ أن نسترقي من العين[3].

وقد رخص النبي ﷺ من حديث أنس في الرقية من العين والحمّة، والنملة[4].

ويكون ذلك بالإكثار من قراءة المعوذات، وفاتحة الكتاب، وآية الكرسي، والأدعية النبوية، مثل:

١- (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)[5].

٢- (أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة)[6].

---

(١) حاشية جامع الأصول (ج٧ ص ٥٨٣) و (ص ٥٨٦).

(٢) نقله النووي عن الصحيحين في الأذكار النووية (ص٢٧٢)، والحديث في البخاري (٥٧٣٩)، ومسلم (٢١٩٦،٢١٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٣٨)، ومسلم (٢١٩٥)، وراجع الطب النبوي لابن القيم (ص ١٦٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢١٩٦)، وراجع الطب النبوي لابن القيم (ص ١٦٣).

(٥) من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم (٢٧٠٩)، وابن ماجة (٣٥١٨)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٥٨٥،٥٩٢) وغيرهم، ومن حديث خولة بنت حكيم في مسلم (٢٧٠٨) وغيره.

(٦) البخاري (٣٣٧١)، وأبوداود (٤٧٣٧)، وابن ماجة (٣٥٢٥) عن ابن عباس.

٣- ورقية جبريل للنبي ﷺ: (باسم الله أرقيك.. من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك)[١].

٤- ومثل (بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم)[٢]. إلى غير ذلك من الأدعية.

٥- وكان ﷺ يتعوذ من الجان ومن عين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلتا أخذ بهما وترك ماسواهما[٣].

٦- ومثل: (اللهم رب الناس، أَذهِب البأس، واشْف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاءك، شفاء لا يغادر سقما)[٤].

٧- ومثل (أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك) سبع مرات[٥].

٨- وعن عثمان بن أبي العاص ﷺ أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال ﷺ: (ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل: بسم الله، وقل سبع مرات «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[٦].

تم تفسير (سورة الفلق) ولله الحمد والمنة

---

(١) من حديث أبي سعيد في صحيح مسلم (٢١٨٦)، وصحيح سنن ابن ماجة (٢٨٥٨).

(٢) من حديث عثمان بن عفان عند أبي داود (٥٠٨٨،٥٠٨٩) بإسناد حسن، وهو في صحيح ابن ماجة (٣٨٦٩)، والترمذي (٣٣٨٥) وغيرهم.

(٣) راجع هذه الأدعية في الطب النبوي لابن القيم (ص ١٦٨) وهذا الحديث عن أبي سعيد في سنن الترمذي (٢٠٥٩)، وابن ماجة (٣٥١١) وغيرهما وإسناده صحيح.

(٤) من حديث عائشة في صحيح مسلم (٢١٩١)، وصحيح البخاري (٥٧٤٣).

(٥) من حديث ابن عباس عند أبي داود (٣١٠٦)، والترمذي (٢٠٤)، وابن حبان (٧١٤)، وصححه الألباني في في صحيح الجامع (٦٣٨٨)، وصحيح سنن أبي داود (٣١٠٦).

(٦) مسلم (٢٢٠٢)، وابن ماجة (٣٥٢٣)، والموطأ (٢/٩٤٢)، وأبوداود (٣٩١)، والترمذي (٢٠٨١).

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّاسِ (١١٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الناس) هي السورة الرابعة عشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، فهي آخر سورة فيه، وهي الحادية والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الفلق) وقبل (سورة الإخلاص).

وهي ست آيات، عند المدني الأول والأخير، والعراقي (الكوفي والبصري) وسبع آيات عند المكى والشامي.

وعشرون كلمة، وتسعة وسبعون حرفاً.

وتسمى (سورة الناس) وسماها ابن عطية (سورة المعوذة الثانية) وتسمى مع سورة الفلق (المعوذتان) والمقشْقِشَتان، وتسمى سور: الإخلاص والفلق والناس: المعوذات. وهي سورة مكية على الصحيح.

٢ - موضوع السورة:

والسورة تأمر بالاعتصام بالله تعالى، والتحصن به من شياطين الإنس والجن، وما يُلْقُونَه في الصدور من وساوس، ونحن لا ندري كيف يتصرف الجن، ولكننا نشعر بما يطلبوه منا، وبرغبتنا في تلبيته، فنلجأ إلى الله تعالى أن يحفظنا منه.

والإنس يتلذذ بإتيان الشهوة، والجن يتلذذ بإغوائه للإنس، وتزْيين المعصية له.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وهذا هو معنى استمتاع الجن بالإنس، واستمتاع الإنس بالجن كما قال تعالى على لسان الإنس: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

والشياطين ليست سُلْطة تنفيذية، فهي لا تملك إلا الإغواء والوسوسة، والإنسان

يستجيب لها، والمؤمن المتحصن بالأذكار والأدعية في صباحه ومسائه لا يضره شيء بإذن الله تعالى، إنه يعيش داخل سور يحميه من هواجس الشيطان ووساوسه.

ومَن توكل على الله تعالى، وصدَق في إيمانه، وكان من عباد الله المخلصين، لم يكن للشيطان عليه سبيل، فإن غلبتْه نفسُه الأمّارة بالسوء، وأحسَّ أن الشيطان استغلّ غفْلة قلبه، فاقترب منه وحام حوْلَه، فعليه أن يلجأ إلى الله تعالى، فيتعوّذ به، ويحتمي بحماه، فباب الله مفتوح، وقد أَمرنا سبحانه أن نطرُقه ليل نهار، فهذا هو الملجأ الوحيد من إبليس وذريته، ومن شياطين الإنس والجن، الذين يُزيّنون للناس المعاصي والذنوب عن طريق الشهوات والشبهات.

وأول مادة في تزيين المعاصي هي كشف العورات، فالشيطان: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧].

والمادة الثانية هي الحسد والكبر ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وعن طريق هاتين المادتين أخرج إبليس آدم من الجنة، دار النعيم والاستقرار إلى دار الهم والغم والأوجاع والآلام، وأحاط إبليس بذرية آدم من كل جانب، وقعدَ له كل مرصد فقال: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وقد فتح الله تعالى لنا ملجأ يحفظنا به من الشياطين: فلا ينالون منا، ووضع في أيدينا مفتاح الدخول في حماه بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

وهذه السورة تُبرز ثلاث قضايا، فهو سبحانه:

١- رب الناس ٢- وملكُ الناس ٣- وإلهُ الناس.

وكل مؤمن يعتقد بهذه القضايا الثلاث، ويعمل بمقتضاها.

والمشركون قديماً وحديثاً آمنوا بأنه سبحانه رب الناس ومليكُهم فصدقوا بذلك واعتقدوه، وهذه هي القضية الأولى (توحيد الربوبية).

أما القضية الثانية فهي (توحيد الإلهية) وهذه القضية تصديق وعمل يستلزم اتّباع منهج الله تعالى الذي وضعه لخلقه، لتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة، بالتوجه إليه وحده في العبادة، ولكن هذه القضية أنكرها المشركون وخالفوها، وعمل بمقتضاها المؤمنون الصادقون.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْمُسْتَعَاذُ بِهِ وَالْمُسْتَعَاذُ مِنْهُ

١-٣- ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ[1] ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾

قل - أيها المخاطب - أعوذ برب الناس، ومالكهم، وإلههم، من الشيطان الذي هو أصل الشرور ومادتها، أعوذ من فتنته ووسوسته وتزينه للمعاصى وقبيح الأفعال.

والمستعاذ به في السورة هو الله سبحانه، والمستعاذ منه هو الشيطان، وقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلم أن يتحصن بالله تعالى من نزغات الشيطان، ومن كيده ومكره وهذه موازنة بين المستعاذ به والمستعاذ منه فى السورتين:

أ - ففي سورة الفلق أَمر الله سبحانه المسلم أن يستعيذ بصفة واحدة من صفاته عز وجل وهي: رب الفلق، والمستعاذ منه فيها أربعة أمور هي:

١- عموم مافيه شر من الخلق. ٢- الغاسق.

٣- النفاثات. ٤- الحاسد.

وفي سورة الناس، جاء الأمر بالاستعاذة بصفات عظمى ثلاث هي:

١- الرب. ٢- المَلِك. ٣- الإله.

والمستعاذ منه أمر واحد وهو: الشيطان.

والمستعاذ منه في سورة الفلق، شرور تأتي من خارج الإنسان، ويُعتَدى عليه بها.

أما المستعاذ منه في سورة الناس، فهو شر واحد يأتي من داخل الإنسان، وقد يكون هاجساً لا يستطيع دفعه[2].

---

(١) قرأ الدوري عن أبي عمرو بالفتح والإمالة في كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ الخمسة في السورة.

(٢) الشيخ عطية محمد سالم في أضواء البيان بتصرف (ج٩ ص ٦٧٦) وما بعدها.

والشر الخارجي الذي في سورة الفلق يصاب به الإنسان ويُبتلى: كالحسد والسحر، هو ظُلْم يقع على الإنسان من غيره ولا يكتسبه لنفسه، وقد يكون الإنسان سبباً فيه.

والشر الداخلي الذي في سورة الناس، كتزيين الشهوات والشبهات، فيه ظُلْم للنفس، وهو سبب المعاصي والذنوب، ومن المعايب التي يعاب بها المسلم، ويعاتب عليها، لأنه يدخل تحت التكليف والكسب[1].

ب - والمستعاذ منه في سورة الفلق أمور تضر البدن.

أما المستعاذ منه في سورة الناس فهو أمر واحد يضر الروح، وما كان يضر الروح فهو أهم.

وقد أضاف الله سبحانه الصفات الثلاث وهي: (رب، وملك، وإله) إلى الناس:

١- وقُدّمتْ (صفة الرب) على غيرها، لأن الربوبية تتضمن الخلق، والتدبير، ودفع الشر، وجلب المصلحة للناس، ولعمومها وشمولها لكل مربوب.

٢- وثَنّى (بالملِك)، لأنه سبحانه ملك الناس، المتصرف فيهم، له السلطان التام عليهم، وهم عبيده، يفزعون إليه عند الشدائد، ويستغيثون به، ويلجؤون إلى حماه، وهو سبحانه الإله الحق، والمعبود الذي لا معبود سواه، فلا يُخضع إلا له، ولا يُتوكل إلا عليه، والخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك، فكل دابة هو آخذ بناصيتها.

٣- وقد أخر سبحانه (وصف الألوهية) لتخصيصه بالله - سبحانه - المعبود بحق.

واشتملت هذه الصفات الثلاث على جميع أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العليا.

وكانت الاستعاذة بهذه الصفات الثلاث من أعدى الأعداء، وأشدهم ضرراً، وأبلغهم كيداً وهو الشيطان[2].

وقد ذكرت هذه الصفات الثلاث في سورة الفاتحة.

١- في اسم الجلالة. ٢- وكلمة ﴿رَبِّ﴾. ٣- وكلمة ﴿مَلِكِ﴾.

(١) ينظر: تفسير المعوذتين لابن القيم (ص ١٤٧).

(٢) ينظر: تفسير ابن القيم (ص ١٤٣) وما بعدها.

وجاءت هذه الصفات الثلاث أيضاً في صدر سور البقرة:

١- في اسم الجلالة. ٢- وجملة ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾.

٣- وآثار المَلِك سبحانه: من الخلْق، وتسخير الأرض.

والله سبحانه وتعالى رب العالمين، ورب كل شيء.

وإضافة ﴿رَبِّ﴾ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هنا، فيه مزيد اختصاص، لإشعارهم بأنه سبحانه هو الذي يجيرهم من شرور أنفسهم، ومن شر الشيطان، وفيه تقوية رجاء العبد بربه ليستعيذ به ويحتمي بحماه، وفيه تشريف وتكريم للإنسان، وهو سبحانه ملك كل شيء.

وفي إضافة المَلِك وهو الله سبحانه إلى الناس، إشعار باستحقاقه وحده بالعبادة دون سواه.

وفي إضافة ﴿إِلَٰهِ﴾ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾ ارتقاء إلى كمال العبودية، وإفراد الألوهية.

فإذا أقر العبد (أولاً) بأن له (ربًا) وعرف (ثانياً) أن ربه، له (المُلْك) التام، والحكم الشامل، عرف (ثالثاً) أنه وحده (الإله) المعبود بحق، المفتقر إليه كل من عداه.

قال ابن كثير: هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل: الربوبية، والملك، والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة له سبحانه.

فأُمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكَّل بالإنسان، فإنه ما من أحد إلا وله قرين يزين له الفواحش، ولا يألو جُهداً في إضلاله وإغوائه، والمعصوم من عصمهُ الله تعالى.

والمعنى: أعتصم وألوذ بخالق الناس ومدبر شؤونهم، ومالك أمرهم، ومعبودهم من شر الإنس والجن جميعاً.

الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ

٤-﴿ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ[1] ٱلۡخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ﴾

هذان وصْفان للشيطان، فهو وسواس خناس، والموصوف بهما محذوف هو: الشيطان، وكان محذوفاً لقُبحه، فالشيطان يوسوس للإنسان، ويُلْقي في نفسه حركة

(١) عدّ المكى والشامي لفظ ﴿ٱلۡوَسۡوَاسِ﴾ آية وتركه غيرهما.

لا تُحَس، أو صَوْتاً خفياً لا يُسمع، كلما كان غافلاً عن ذكر الله تعالى.

والشيطان يخنَس: أي يتوارى ويختفي، ويرجع ويتأخر، وينْقبض وينْحسر إذا ذَكَر العبد ربه، واستعاذ به.

فالمؤمن يعذِّب الشيطان ويجعله هزيلاً ضئيلاً مقموعاً بذكر الله تعالى وطاعته، والتوجه إليه، فكأن الذِّكْرَ والاستغفار، سِياط مُسَلّطة يعذِّب بها الشيطان.

ويشتد الشيطان ويقْوى في كيده للعبد، ويظل جاثماً على قلبه، طالَما كان العبد بعيداً عن ذكر الله تعالى، غافلاً عنه سبحانه، غارقاً في ذنوبه[1].

وإذا فسد القلب بجثوم الشيطان عليه فسد كل شيء في الإنسان، والعياذ بالله.

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما «**الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس**»[2].

والوسواس الخناس يتناول وسوسة الجن وهي خَفية، وقد تكون مشاهدة، ويتناول وسوسة الإنس وهى ظاهرة.

فالذي يوسوس في صدور الناس، يكون من طائفة الإنس كما يكون من طائفة الجن.

وفي الإنس شياطين، كما أن في الجن شياطين، ولهذا قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ فشياطين الإنس والجن يشتركان في الوحي الشيطاني، ويشتركان في الوسوسة[3].

والواس كما يكون من الجن يكون من الإنس والشيطان يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

وصدورُ الناس هي محلُّ الوسوسة من الجن ومن الإنس، فالشيطان ينفذ إلى صدر ابن آدم وإلى قلْبه بطريقة لا يعلمها إلا الله، فيجري منه مجرى الدم في العروق، ويزخرف له القول والعمل.

---

(١) ينظر: تفسير ابن تيمية للسورة.

(٢) أخرجه الطبري (٧٥٤/٢٤)، وابن أبي شيبة (٣٦٩/١٣)، وانظر فتح الباري (٧٤٢/٨).

(٣) تفصيل هذا لابن تيمية وابن القيم في تفسير السورة.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال سبحانه في وسوسة النفس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق: ١٦].

فالجن يخنس بالاستعاذة، وشيطان الإنس لا يخْنس ولو قرأت عليه القرآن كله، بل إنه يزين لصاحبه الفواحش، ويُغْريه بالمنكرات، والإنسان يعمل عمل الشيطان في تزيين الشر، وتحسين القبيح، والإنسان شيطان ظاهر، أما الجن فهو شيطان خفي مستتر، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

الْقَرِينُ

٥- ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ ﴾

وكل إنسان له قرين من الجن، هو معه في جهاد، فإن تغلّب عليه الإنسان، فقد ارتقى المرء بنفسه إلى منزلة عالية، وإن غلبه شيطانه، فقد انحط بها إلى درجة سفلى، وإن غلب كل منهما الآخر مرة ومرة، فهو في جهاد مستمر مع عدوه.

ويكون الْقَرِينُ مسَلَّطاً على المُعْرِضِ عن ربه قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ ﴾ [الزخرف].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما منكم من أحد إلا وُكِّلَ به قرينه من الجن**» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير**»(١).

- ولفظ (فأسلم) برفع الميم، بمعنى أَسْلَمُ أنا من شره وفتنته.

وبفتح الميم، بمعنى أن القرين أَسْلَمَ، أي دخل في الإسلام، فصار مؤمناً، لا يأمر إلا بخير.

ففي الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القَرين ووسوسته وإغوائه، حيث أعلمنا ﷺ

---

(١) صحيح مسلم (٤/٢١٦٧) برقم (٢٨١٤).

بأنه يوسوس لنا، لنحذَر منه ومن إغوائه، فهو موكَّل بالعبد لا يفارقه إلى الممات.

قال القاضي عياض: والأمة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه.

خمس صور من وسوسة الشيطان وشروره:

أولاً: الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ ويقذف الشر في نفسه باتهام الآخرين:

قالت صفية بنت حُيَي أم المؤمنين رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيتُه أَزُورُه ليلاً، فحدثْتهُ ثم قُمت، فانقلبتُ، فقام معي لِيَقْلِبَنِي - يعني يوصلني إلى البيت - وكان مسكنُها في دار أسامة بن زيد، فمرّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال ﷺ على رِسْلِكُما، إنها صفية بنت حيي - يعني: زوجتي - فقالا: سبحان الله يا رسول الله ، فقال ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً**» أو قال: «**شيئاً**»[١].

ثانياً: وسوسة الشيطان في الصلاة وحرصه على ذلك:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا نودي بالصلاة، أدبر الشيطان وله ضُراط، فإذا قضي النداء أقبل، فإذا ثُوّب بالصلاة أدبر، فإذا قضي أقبل، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، حتى لا يدري أَصلَّى ثلاثاً أم أربعاً، فإذا لم يدر أثلاثاً صلَّى أم أربعاً، سجد سجدتي السهو**»[٢] والتثويب هو إقامة الصلاة.

ثالثاً: الشيطان يشكك العبد في ربه:

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فمن وجد ذلك، فلْيستعيذ بالله ولْينته**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٠٣٥،٦٢١٩،٧١٧١)، ومسلم برقم (٢١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٠٨،١٢٢٢،٣٢٨٥،١٢٢٣١)، ومسلم (٣٨٩)، وفي المساجد (٨٢).

(٣) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٧٦)، ومسلم في الإيمان (١٣٤).

رابعاً: والشيطان يعقد على رأس العبد عند النوم:

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام، ثلاثَ عُقَد، يَضرِبُ على كل عقدة منها، عليك ليل طويل فارْقُد، فإن استيقظ فذَكر الله انحلَّت عُقْدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلّت عُقَدُهُ كلّها، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**»[1].

خامساً: الشيطان يبول في أذن العبد حتى لا يصلى الفجر: ذُكر عند النبي ﷺ رجل نام ليلَةُ حتى أصبح ولم يقم إلى صلاة الفجر، فقال: «**ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه**»[2].

ستة من أهم شرور الشيطان:

وتنحصر شرور الشيطان في ستة أجناس، لا يزال الشيطان بابن آدم حتى ينال منه ما استطاع:

أولها: شر الكفر والشرك: فإذا ظفر الشيطان بِكُفْرِ ابن آدم، صيّرهُ من جُنده وأعوانه، وهذا منتهى هدف الشيطان، حي يُصبح الإنسان من دُعاة جهنم.

ثانيها: البدعة: وذلك أنه إذا يئس الشيطان مِنْ كُفْرِ ابن آدم، حَبَّبَ إليه البدعة في الدين بالزيادة أو النقص فيه، وجعلَه من أهلها، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي.

ثالثها: الكبائر: إذا يئس الشيطان أن يجعل العبد من أهل البدع، حَبّبَ إليه ارتكاب الكبائر، ولاسيما إن كان من أهل العلم والفضل، ليكون قدوة سيئة، يَهْدِمُ به الآخرين.

رابعها: الصغائر: إذا عجز الشيطان أن يجعل العبد من أهل الكبائر، هوّن عليه الصغائر وحبّبه فيها، حتى تجتمع عليه فَتُهْلِكَه.

قال عليه الصلاة والسلام في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ:

«**إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يُهْلِكْنَه**»[3].

---

(١) رواه البخاري في التهجد (١١٤٢،٣٢٦٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٧٦).

(٢) رواه البخاري في التهجد من حديث عبد الله بن مسعود (١١٤٤،٣٢٧٠)، ومسلم (٧٧٤)، والنسائي في قيام الليل.

(٣) رواه أحمد في المسند (٣٨١٨) وهو حديث حسن لغيره، ومن حديث سهل بن سعد في المسند بنحوه (٢٢٨٠٨) بإسناد صحيح ورجاله ثقات (محققوه)، وهو عند الطيالسى فى مسنده (٤٠٠)، والبيهقى فى الشعب (١٠٥٠٠)، والطبراني عن ابن مسعود، وفي صحيح الجامع الصغير، حديث رقم (٢٦٨٤).

وما يستصغره الناس اليوم من بعض المعاصي والذنوب من الأقوال والأفعال كانت في أعين السلف من الموبقات والأمور الجسام.

خامسها: الاشتغال بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بعد عجزه عن تحبيب الصغائر إليه، وذلك لتضييع وقته، وتفويت الثواب عليه.

سادسها: أن يُشغل الشيطان العبد بالأمور المفضولة دون الفاضلة، ليفوّت عليه ثواب العمل الفاضل، فيَقْنَع بالقليل من الأجر، ويضيّع الكثير منه، فالشيطان يأمر العبد بسبعين باباً من الخير، ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وليفوّت عليه ما هو أعظم منها في الأجر، أو يُوقِعَه فيما يَفُوقها باكتساب الذنب والإثم.

من صور كيد الشيطان لابن آدم:

١- والشيطان لِصٌّ سارق للأموال، فكل طعام وشراب لم يُذْكَر عليه اسم الله تعالى، فله فيه حظٌّ بالسرقة والخطف، والبيت الذي لا يُذكر فيه اسمُ الله تعالى، يأكل الشيطان فيه طعام الإنس بغير إذنهم.

٢- والعبد، حين يفعل الذنْب ويستره ربه، يجتهد الشيطان في كشْف ستْرِه وفَضْحِه، سواء بحديث الإنسان عن نفسه، أو بإلقاء ذلك في نفوس الناس.

٣- والشيطان يقعد لابن آدم بكل طريق فيها خير، وقد أقسم ليقعُدَنَّ لبني آدم صراط الله المستقيم، وليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

وقد أخرج الشيطان آدم من الجنة، وجعل من أولاده شرطة للنار، وهو يعمل جاهداً على إبطال الدعوة إلى الله عز وجل، قاصداً بذلك دعوة الناس إلى عبادته وإطفاء نور الله سبحانه[1].

تسعة أمور يعتصم بها العبد من كيد الشيطان:

أولاً: الاستعاذة بالله تعالى من الشيطان:

قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت].

---

(١) راجع تفصيل هذه الشرور لابن القيم في تفسيره للمعوذتين.

عن عديّ بن ثابت عن سليمان بن صُرَد ﷺ قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبّان، فأحدهما احمرّ وجهه وانتفخت أوداجه، فقال: النبي ﷺ «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد**»[1].

ثانياً: قراءة المعوذتين، فإن لهما تأثيرًا عجيباً في التحصُّن بالله تعالى من شر الشيطان ودفْعه، والتحصن منه، ولذا قال النبي ﷺ: «**ما تعوذ المتعوذون بمثلهما**»[2].

وكان ﷺ يقرؤهما كل ليلة عند النوم، وأمر عقبة بن عامر أن يقرأ بهما دبر كل صلاة، وفيهما مع الإخلاص، الكفاية والحفظ من كل سوء، ومن كل شر.

ثالثاً: قراءة آية الكرسي:

ففي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح**»[3].

رابعاً: قراءة سورة البقرة:

لقول النبي ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ: «إن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان»[4].

خامساً: قراءة خاتمة سورة البقرة: لقول النبي ﷺ من حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ: «**من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**»[5].

وقوله ﷺ عنهما في حديث النعمان بن بشير ﷺ: «**لا يُقْرَآن في دارٍ ثلاث ليال فَيَقْرَبُهَا شيطان**»[6] أي لا يسكن فيها.

---

(١) في الأدب المفرد (٩٩/٧)، وهو في الصحيح برقم (٦٠٤٨،٢٢٨٢)، وعند مسلم (٢٦١٠).

(٢) راجع الحديث بكامله عن عقبة بن عامر في جامع الأصول (ج٨ ص ٤٩٢) وهو مخرج في سورة الفلق.

(٣) من حديث أبي هريرة في البخاري (٢٣١١، ٣٢٧٥).

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة في صلاة المسافرين رقم (٧٨٠)، والترمذي (٢٨٧٧) واللفظ له، والنسائي.

(٥) حديث أبي مسعود الأنصاري في البخاري، فضائل القرآن (٤٠٠٨،٨٠٧، ٥٠٥١)، ومسلم، صلاة المسافرين (٨٠٨).

(٦) أخرجه الترمذي عن النعمان بن بشير في فضائل القرآن (٢٨٨٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٦٧)، وفى الكبرى (١٠٨٠٣)، وفى المسند (١٨٤١٤) إسنادة حسن ورجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه)، وابن حبان (٧٨٢)، والبغوى فى شرح السنة (١٢٠١).

سادساً: قراءة الآيات الثلاث الأول من سورة غافر، إلى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مع آية الكرسي، فإن من قرأ بهما صباحاً فهو في حفظ الله تعالى حتى يُمسي، ومن قرأهما مساء فهو في حفظ الله تعالى حتى يصبح[1].

سابعاً: عِظَمُ أجر من قرأ الأذكار:

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مئة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكُتِبَتْ له مئة حسنة، ومُحِيتْ عنه مئة سيئة، وكانت له حِرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يُمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا عمل أكثر من ذلك»[2].

ثامناً: وذكْرُ الله أعظَم ما يَتحرَّز به العبد من الشيطان، وكذلك الوضوء والصلاة، فإنهما يُطفِئان نار الغضب والشيطان.

تاسعاً: ومن ذلك: إمساك فضول النظر، وفضولِ الكلام، والطعام، ومخالطة الناس، فإن الشيطان يتسلَّط على ابن آدم، وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة[3].

شَيَاطِينُ الإِنْسِ وَالْجِنِّ

٦- ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

بيّن سبحانه وتعالى في هذه الآية، صِنْفَي الذين يوسوسون في صدرو الناس، فذكَر أنهم الجِنّة - بكسر الجيم – أي الجنّ، وهي: اسم جمع (جنيّ) بياء النسب، كما يقال (إنسيّ) فكما أن شيطان الجن يوسوس للإنسان تارة ويخنس تارة أخرى، فإن شيطان الإنس يوسوس للإنسان كالناصح له، فإن قَبِل، زاد في الوسوسة، وإن كَرِه خَنَس وانقبض.

---

(١) راجع ذلك عن أبي هريرة في الترمذي، فضائل القرآن، رقم (٢٨٧٩)، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، وقد تكلّم بعض أهل العلم في عبدالرحمن بن أبي بكر بن أبي مُليكة من قِبل حفظه، وزُرارة بن مصعب، هو ابن عبدالرحمن بن عوف، وهو جدّ أبي مصعب المدني.

(٢) رواه البخاري (٣٢٩٣، ٦٤٠٣)، ومسلم (٢٦٩١) بزيادة.

(٣) انظر تفصيل ذلك لابن القيم في تفسير المعوذتين.

ويصح أن يكون لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ مشتركاً بين الجن والإنس، فقد سمّى الله تعالى الجن رجالاً في قوله:﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦].

ويقول العرب: جاء قوم من الجن فقيل: من أنتم؟ قالوا: أناس من الجن.

فيكون المعنى: أن الوسواس الخناس وهو من الشياطين حتماً، لأن الوسوسة من شأنه، فهو يوسوس للجن كما يوسوس للإنس.

في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدّثت به أنفسها ما لم يعملوا أو يتكلموا**»[1] والغضب ينشأ عن وسوسة الشيطان.

لذا: فقد نهى ﷺ عن الغضب، وأوصى بتركِه حين قال له رجل: أوصني، قال: «**لا تغضب، قال: زدني، قال: لا تغضب**»[2].

وذِكْرُ الله تعالى يُذهب الوسوسة والغضب، قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وقال قتادة: إن من الناس شياطين، ومن الجن شياطين، فتعوَّذُوا بالله من شياطين الإنس والجن[3].

والمؤمن القوي ليس للشيطان عليه من سبيل، كما قال تعالى:﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقد كان إيمان عمر ﷺ أقوى من كيد الشيطان، فقال ﷺ: «**ما سلك عمر فجّاً إلا وسلك الشيطان فجّاً غيره**».

فاللهم جنّبنا وساوس الشيطان وهواجسه، ولا تجعل له علينا سبيل، واحفظنا بحفظك، واكلأنا برعايتك يا أرحم الراحمين، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير (سورة الناس) ولله الحمد والمنة

---

(١) صحيح مسلم (١/١١٦) برقم (١٢٧)، والبخاري (٢٥٢٨، ٥٢٦٩، ٦٦٦٤).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري (٦١١٦)، والبيهقي في الشعب (٨٢٧٧)، والمسند (٨٧٤٤، ١٠٠١١، ١٥٩٦٤) قال محققوه: إسناده صحيح.

(٣) تفسير ابن عطية (٥/٥٤٠).

وقد تم بفضل الله تعالى ونعمته، الفراغ من هذا التفسير المبارك، وأسأل الله تعالى أن ينفع به، وأن يكتب له القبول، وأن يغفر لي خطئي وزلاّتي، وأن يجعله عِلْمًا يُنتفع به فيما بقى من حياتي وصدقة جارية بعد مماتي ورحم الله من أهدى إلينا عيوبنا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

١ - مدينة الرياض في يوم الجمعة غرة شهر رجب ١٤٢٤هـ الموافق ٢٩ أغسطس ٢٠٠٣م.

٢ - وتمت هذه المراجعة لكتابة القراءات بحاشية التفسير في يوم الأربعاء ٢٤ من شهر ربيع الآخر ١٤٢٦هـ الموافق للأول من شهر يونيو ٢٠٠٥م.

٣ - وتمت هذه المراجعة لتخريج الأحاديث في يوم الأثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول ١٤٢٧هـ العاشر من شهر أبريل ٢٠٠٦م.

٤ - وتمت هذه المراجعة العامة مع إضافة عدّ الآي في الحاشية، فى يوم الأحد السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى ١٤٢٩ هـ الموافق للأول من شهر يونيو ٢٠٠٨م حيث بلغتُ السادسة والستين من عمرى.

٥ - وتمت هذه المراجعة لتغذية المعنى الإجمالى للآيات في صبحية يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٤٣٠هـ الموافق ٢٠٠٩/٧/١٧م والحمد لله رب العالمين.

٦ - وتمت هذه المراجعة الأخيرة في مدينة الرياض صبيحة يوم الاثنين السادس من شهر صفر سنة ١٤٣٢ هـ الموافق للعاشر من شهر يناير سنة ٢٠١١م.

اسأل الله أن يحسن ختامنا، وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم وألاّ يحرمنا الأجر والمثوبة، إنه سميع مجيب.